



جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية

قسم التاريخ



صورة أوروبا في الرحلات المغاربية ق 17-19م
دراسة تحليلية مقارنة –

The image of Europe in the Maghreb trips during the 17th-19th century
-Comparative Analytical Study-

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه ل.م.د. الطور الثالث

تخصص: تاريخ المغرب العربي الحديث من القرن 15 إلى القرن 19.

إشراف الأستاذة الدكتورة:

فلة موساوي القشاعي

إعداد الطالب:

عمار سراح

أعضاء لجنة المناقشة

الرقم	الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
01	مختار حساني	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 02	رئيسا
02	فلة موساوي القشاعي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 02	مشرفا ومقررا
03	إبراهيم سعيود	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 02	عضوا
04	فتيحة الواليش	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 02	عضوا
05	رقية شارف	أستاذ محاضر – أ –	المدرسة العليا للأساتذة الأغواط	عضوا
06	نور الدين ايلال	أستاذ محاضر – أ –	جامعة البليدة 02	عضوا

السنة الجامعية: 2022/2021



University of Algiers 2 Abul-Qasim Saadallah

Faculty of Humanities

Department of History



**The image of Europe in the Maghreb trips during the
17th-19th century**

-Comparative Analytical Study-

A thesis submitted for obtaining a PhD degree L.M.D., third phase
Specialization: History of the modern Maghreb from the 15th to the 19th century.

Submitted BY: Ammar Serrah

Supervised By: Professor Fella Moussaoui El Kechai

Panel of Examiners:

Mokhtar Hassani	Professor	University of Algiers 2	Chairperson
Fella Moussaoui El Kechai	Professor	University of Algiers 2	Supervisor
Brahim Sayoud	Professor	University of Algiers 2	Examiner
Fatiha Loualich	Professor	University of Algiers 2	Examiner
Roukaya Charef	Doctor	ENS Laghouat	Examiner
Nourredine Illal	Doctor	University of blida2	Examiner

Academic year: 2021/2022

إهداء

إلى الوالدين الكريمين.

شكر وعرفان

الحمد والشكر لله عز وجل الذي وفقني لإنجاز هذا البحث

يسعدني أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى الفاضلة الأستاذة الدكتورة

"فلة موساوي القشاعي" التي شرفني بالإشراف على هاته الرسالة

كما أشكرها على ما قدمته من نصائح وتوجيهات قيمة ساهمت بشكل كبير

في إخراج هذا البحث على ما هو عليه .

وأقدم بالشكر والانصاف إلى الأستاذة "جميلة روباش" من قسم الأدب

العربي بجامعة المسيلة على ما قدمته لنا من مساعدة في الحصول على مصادر

ومراجع تخص موضوع البحث .

وأشكر كل من مد يد العون في إعداد هاته الرسالة .

مقدمة

برع المغاربة عبر تاريخهم الطويل بفن الرحلة، وخلفوا حولها نصوصا مثلت مصادر مهمة حول البلاد المرتحل إليها، إلا أن ما غلب على الرحلات المغربية ونصوصها أنها رحلات حجازية مشرقية يدفعهم إليها دافعهم الديني والروحي للحج وزيارة البقاع المقدسة، بالإضافة إلى العامل العلمي وحتى السفاري في بعض الأحيان، وهي رحلات لا تكاد تتجاوز دار الإسلام أو تخرج منها، أي أنها بقيت في نفس السياق الحضاري والديني والجغرافي الإسلامي، وهي رحلة لا يشعر فيه صاحبها ومؤلفها أنه في بلاد غير بلاده، كما لا يشعر بالغرابة والدهشة إلا في بعض الاختلافات التي لا بد أن تكون بين البشر أفرادا ومجتمعات.

ثم أنه طيلة العصر الحديث كانت هناك كثير من الكتابات الأوروبية حول البلاد الإسلامية مشرقها ومغربها، تعددت هذه الكتابات بين رحلات وتقارير قناصل ودبلوماسيين ومذكرات أسرى، ومهما كانت الغايات التي من أجلها ألقت هذه الكتابات، فإنها استطاعت بلا شك تشكيل صورة عن الآخر المسلم والمغربي في بلاده، ربما دل ذلك عن تفاوت بين ضفتي البحر المتوسط وتحسيدا له، وهو تعبير واضح عن ديناميكية أوروبا ومبادراتها وإرادتها في تحقيق أهدافها المختلفة في مقابل ركود مغربي.

وعلى الطرف المقابل كان توجه رحلات مغربية نحو الشمال وقطع البحر المتوسط وزيارة أوروبا، من النادر غير المرغوب فيه؛ نظرا لما تمثله هذه الأخيرة من تعبير عن العداء والصراع والاختلاف والغيرة وحتى التفوق، وعلى هذا الأساس لم يجد المغاربة ما يحفزهم للكتابة عن أوروبا، لذا فقد بقيت هذه البلاد الشمالية مجهولة بالنسبة للمغاربة والمسلمين، وحتى في العصر الوسيط كانت المعرفة بأوروبا بالنسبة للمسلمين لا تكاد تتجاوز بعض التوصيفات العامة دون الغوص في دواخلها، وامتد هذا الوضع إلى بدايات العصر الحديث، بل ازداد تعقيدا مع توالي أزمات الصراع السياسي والعسكري بين ضفتي المتوسط فمثلت أحداث مثل سقوط الأندلس والصراعات الأوروبية المغربية في البحر المتوسط والهجمات المتبادلة على ضفتيه عامل صعب عمليات التواصل واللقاء مع الآخر.

لذا كان علينا أن ننتظر مطلع القرن السابع عشر حتى نقف عند أول نصوص الرحلات المغربية إلى أوروبا، لتتعدد هذه الرحلات والنصوص على امتداد العصر الحديث لكنها كانت بوتيرة بطيئة جدا، حتى أننا لا نقف إلى غاية نهاية القرن الثامن عشر إلا على خمسة تقايد للرحالين المغاربة حول أوروبا، وكلها كانت رحلات سفارية، فعدد التقايد قليل جدا خاصة وأن عدد السفراء المغاربة إلى أوروبا على وجه الخصوص كان كبيرا، ثم غابت الرحلات

المغاربية إلى أن شارف القرن التاسع عشر على منتصفه، لنشهد تهاافتا كبيرا للمغاربة من سفراء ومفكرين ورجال دولة بل وحتى حكام لزيارة أوروبا بعد أن أصبحت قرية منهم هادفين لاكتشافها والبحث في قوتها.

وقد حملت هذه النصوص المغاربية بلا شك تصورها وتمثلها للآخر الأوروبي، وحملت كثيرا من المعلومات حول الواقع الأوروبي في مختلف المجالات الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، كل هذا والرحالة ينظرون إلى أوروبا ويحكمون على مجتمعاتها بأعينهم المغاربية وأرضيتهم الثقافية والدينية والاجتماعية.

وفي هذا البحث سوف نتبع الصورة الواقعية والمتخيلة التي أنتجتها نصوص الرحلات المغاربية عن الآخر الأوروبي واقفين بالتحليل والمقارنة على ما كتبه 16 رحالة من الرحالة المغاربية الذين زاروا أوروبا وأنتجوا حولها 17 نصا رحليا - نعتقد أنها كل ما كتب من الرحلات المغاربية إلى أوروبا خلال الفترة المدروسة - ورغم أننا قررنا في البداية أن نأخذ نماذج من هذه الرحلات ونكتفي بها في دراسة وتحليل الصورة المنقولة، إلا أننا فضلنا دراستها جميعا رغم الصعوبات الناجمة عن هذه الخطوة، خاصة وأنها تستهدف تتبع تطور الصورة التي أنتجها رحالي المغرب عن أوروبا عبر فترات العصر الحديث إذ أن هذه الرحلات توزعت على ثلاثة قرون من الزمن بكل ما حملته من ثوابت ومتغيرات في شتى الميادين.

أهمية موضوع الدراسة

ترتبط أهداف اختيار موضوع "صورة أوروبا في الرحلات المغاربية ق 17-19م دراسة تحليلية مقارنة" مباشرة بأهمية الموضوع في حد ذاته فهو موضوع يغري بلا شك كثيرا للبحث فيه، خاصة وأن معرفة الآخر الأوروبي في بلاده ظلت مجهولة عن المغاربة لفترات طويلة، فكما قلنا سابقا لم تكن الرحلة إلى أوروبا مثل الرحلة إلى المشرق ولا خطاب الرحلة هو نفس الخطاب، لذا فهو موضوع يشجع فعلا للبحث فيه والغوص في أغواره.

وتبرز أهمية هذه الدراسة أكثر لما تكون هذه الصور تأتي من مصادر من خارج الحيز الحضاري والثقافي والديني الأوروبي والغربي؛ كتابات مغاربية جاءت عبر مراحل مفصلية في تاريخ العلاقات الأوروبية-المغاربية على امتداد العصر الحديث، إذ ساهمت هذه الكتابات في الكشف عن صورة الآخر الأوروبي المختلف، كما استطاعت اكتشاف ذاتها بأعين ومخيال الآخر، وهي صور مازال أبعادها وتأثيراتها إلى اليوم.

كما تبرز أهمية هذه الدراسة في كونها تعبر عن توجه آخر في حقل دراسة التاريخ الأورو-مغاربي، إذ أن أغلب الدراسات توجهت لدراسة التواصل واللقاء بين الأوروبيين والمغاربية بل والمسلمين بشكل عام في وجهته السياسية والعسكرية والاقتصادية، لكنها في الغالب لم تطرح موضوع معرفة الآخر الأوروبي هناك في بلاده، ولا التساؤل حول

من يكون هذا الآخر الأوروبي الذي نواجهه ونقابله ونتعامل معه؟ كيف يعيش؟ وكيف يفكر؟ وكيف ينظر إلينا؟ هناك من بلاده. لذا أنت هذه الدراسة انطلاقاً من أهمية مصادرها لتحاول الكشف والإجابة عن هذه التساؤلات. ومن دوافع التوجه لهذه الدراسة اعتقادنا أن هذا النوع من الدراسة مازال مجالاً بكاراً لا بد من البحث فيه رغم مجهودات الباحثين لإثرائه، خاصة وأنه يأتي في فترة مهمة جداً ساهمت في الكشف عن صورة الذات عن الآخر الأوروبي، صورة ما تزال أبعادها وتأثيراتها إلى اليوم سواء صورة الآخر الأوروبي عند المسلمين والمغاربة أو العكس. وبما أن موضوع "الصورة" و"الآخر" والتي مثلت مادة الرحلات أحد مصادرها موضوع يندرج تحت عنوان أكبر هو تاريخ الأفكار والثقافات والذي يعد واحداً للتوجهات العلمية ذات الاهتمام الشخصي، ما حفزني على البحث في هذا الموضوع رغم ما يمثلته من صعوبات.

الإشكالية

يتضح كما هو مبين في العنوان "صورة أوروبا في الرحلات المغاربية ق17-19م دراسة تحليلية مقارنة" أن الإشكالية الكبرى لهذه الدراسة تتمحور أساساً في البحث عن الصور والتمثيلات التي أنتجها رحالي المغرب-من حيث كونهم نخبة ثقافية وسياسية-عن أوروبا بصفة عامة والبلاد الأوروبية المرتحل إليها بصفة خاصة في الفترة من القرن 17 إلى القرن 19م، وقد اندرج تحت هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات الرئيسة:

- ماهي النصوص الرحلية المغاربية التي كتبت عن أوروبا في الفترة الممتدة من القرن 17م إلى القرن 19م؟ ومن هم أصحابها؟ وما هي أهدافهم من الرحلة والكتابة؟
- ما هي المضامين التي حملتها نصوص الرحلات المغاربية حول أوروبا دينياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً واقتصادياً؟
- ماهي أهم محاور التشابه والاختلاف والتجاوز والوعي الذي اكتشفه الرحالة المغاربة في نظرتهم للآخر الأوروبي انطلاقاً من ذاتهم المغاربية في مختلف المجالات التي نظروا فيها؟
- بما أن هذه الرحلات جاءت عبر ثلاثة قرون متتالية نتساءل: هل هناك تمايز في الصورة التي حملتها؟ أم بقيت تلك الصورة مستقرة عبر هذا الامتداد الزمني؟
- ما هو حجم التأثير الذي حملته نصوص الرحلات المغاربية-عبر مراحلها التاريخية المختلفة وخطابها-عن أوروبا على المستوى الثقافي والفكري والعسكري والسياسي بالنسبة في دول المغرب؟

الإطار الزمني للدراسة

امتد الإطار الزمني لهذه الدراسة كما هو مبين في العنوان عبر ثلاثة قرون من الزمن، متتبعين الزمن الذي أتت في هذه الرحلات المغاربية إلى أوروبا، والتي كانت أولها بين سنتي 1611-1613م وهي رحلة الحجري إلى فرنسا وهولندا، وصولاً إلى آخر رحلات القرن 19م وهي رحلة محمد بن عثمان السنوسي إلى فرنسا سنة 1889م، وإن أجبرنا في بعض الأحيان إلى تمديد الإطار الزمني والعودة للقرن السادس عشر لأنه حمل أحداث ساهمت بلا شك في تشكيل صورة الأنا والآخر بالنسبة للمغاربة والأوروبيين خاصة للرحالين الأول.

المنهج المعتمد

تجاذب أدب الرحلات دراسات نقدية يمكن تقسيمها إلى مدرستين: تاريخية وتحليلية، الأولى منهما تغلب عليها منهجية توثيقية، حيث يكون فيها نصيب الأسد مخصصاً لتلخيص حياة الرحالة، أسماء الأماكن التي مروا بها في رحلاتهم، وزمن الرحلة، ومسارها، أما المدرسة الثانية فمعنية بتحليل نصوص الرحالة وتحليل خطابها، بهدف كشف النظرة التي نظر بها الرحالة للبلاد المرتحل إليها⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس استعملنا المنهج التاريخي من أجل التعريف بالرحالة المغاربة الذين ارتحلوا إلى أوروبا واقفين عند نشأتهم الاجتماعية وتكوينهم العلمي ومكانتهم السياسية في بلدانهم، غير غافلين عن السياقات التاريخية التي أتت فيها رحلاتهم ولا دوافعهم التي من أجلها سافروا إلى أوروبا، في حين استخدمنا المنهج التحليلي لتحليل مضامين وخطاب النصوص محل الدراسة.

فيما فرض المنهج المقارن ببعديه التاريخي (الزمني) والمكاني نفسه كمنهج أساسي في الدراسة، فالمنهج المقارن له بعد تاريخي؛ وفيه يتم دراسة الظاهرة نفسها ولكن في فترات زمنية مختلفة، مثلما كان عليه الأمر في مقارنتنا لصورة الواقع الأوروبي في مختلف المجالات عبر ثلاثة قرون متتالية راصدين أوجه الشبه والاختلاف واقفين عند الثوابت والمتغيرات، وبما أن الرحلات المغاربية كانت متعددة المنطلقات والوجهات، فكثيراً ما وقفنا عند الصورة التي ينقلها الرحالة عن هذا البلد والبلد الآخر، كما تحمل مضامين الرحلات المغاربية في رؤيتها للأنا والآخر مقارنات بين "عندنا" "عندهم"، "هنا" و"هناك"، وعموماً يساعد هذا في البحث عن نقاط الاتفاق والاختلاف بين مختلف النصوص الرحلية موطن الدراسة، أو المقارنة بين مجتمع كاتب الرحلة والمجتمع المرتحل إليه، وساعد هذا المنهج بلا شك في تتبع تطور النظرة للآخر عبر مراحل زمنية متعددة، فجميع هذه المناهج كانت مترابطة فيما بينها خاصة المنهجين التحليلي والمقارن.

(1) هلال الحجري، «أدب الرحلات والاستشراق: البحث عن المنهج»، نزوى، ع55، يوليو 2008، ص09.

صعوبات البحث

إن موضوعا من هذا النوع لا يخلو من صعوبة، نظرا إلى العدد الكبير من الرحالة والرحلات المغاربية التي توجهت إلى أوروبا، هذا إضافة إلى الامتداد الزمني الواسع لهذا الموضوع الذي امتد لفترة ثلاثة قرون كاملة، وكذا إلى اتساع المجال الجغرافي للبلاد المرتحل إليها، مما خلق صعوبات كبيرة خاصة مع التغيرات التي تطرأ مع سياقات الرحلات، ما أوجد اختلافات في خطاب الرحلة بين مرحلة وأخرى وبين نص وآخر، الأمر الذي صعب بلا شك من هيكلة وتجميع عناصر الموضوع منهجيا وأكاديميا، حتى أننا غيرنا خطة البحث في كذا مرة لتخرج وفق اجتهادنا إلى ما هي عليه الآن، هذا إضافة إلى الكم الهائل من المعلومات التي حفلت بها نصوص الرحلات محل الدراسة؛ الأمر الذي صعب كثيرا في التحكم فيها، إضافة إلى صعوبة الإلمام بكافة الصور والثوابت والمتغيرات التي رسمتها نصوص هذه الرحلات على امتداد فترة جاوزت ثلاثة قرون متتالية، إلا أننا سعينا جهدنا لإعطاء صورة قريبة من تلك التي صورها أصحابها، وسعينا لرسم الملامح الكبرى والبارزة التي أخذت اهتمام هؤلاء الرحالة.

الدراسات السابقة

بخصوص الدراسات السابقة فإننا وقفنا على ثلاث دراسات قريبة من دراستنا من حيث التوجه العام والمبدئي لدراسة حضور أوروبا أو إحدى مكوناتها في الكتابات المغاربية عموما، الأولى دراسة الأستاذ ودان بوغوفالة التي جاءت تحت عنوان: "الثورة الفرنسية وبونابرت في الكتابات المغاربية خلال القرن الثالث عشر هجري/التاسع عشر ميلادي" وهي عبارة عن مذكرة ماجستير عن جامعة الجزائر 2 2000/2001، وكانت الدراسة أكثر تخصصا من حيث الموضوع وأكثر انفتاحا من حيث المادة المصدريّة إذ اكتفى فيها الأستاذ بدراسة حضور الثورة الفرنسية وبونابرت سياسيا وعسكريا، بينما جاءت دراستنا أكثر تخصصا من حيث المادة المصدريّة إذ اتجهت إلى الرحلات المغاربية كمصدر أساسي واتجهت لدراسة أوروبا بصفة عامة وليس بلد بعينه وحدود زمنية أرحب امتدت على فترة أكثر من ثلاثة قرون.

وما قيل عن هذه الدراسة يقال تقريبا عن دراسة الأستاذ "عبد القادر دوحه" وهي رسالة دكتوراه بعنوان "صورة أوروبا في المصادر التاريخية المغاربية وتأثيرها على التفكير المغاربي" عن جامعة الجزائر 2، وهي دراسة كان موضوعها الأساسي صورة أوروبا في كتابات المغرب القرن 19م، حتى وإن عاد بنا الأستاذ قليلا وسريعا لصورة أوروبا في فترات سابقة تمهيدا لموضوعها الأساسي، لكنها كانت أوسع من حيث موضوعاتها مقارنة مع الدراسة السابقة.

ودراسة ثالثة للأستاذ مسعود عوادي "استكشاف الرحلات التونسية والجزائرية للفكر الأوربي ونقله إلى المغرب العربي خلال القرن التاسع عشر"، عن جامعة الجزائر 2 2010-2011م، وكما هو مبين من العنوان فالدراسة

اكتفت بدراسة عينة من الرحلات المغاربية مقتصرة على القرن التاسع عشر وموضوعها هو حضور الفكر الأوروبي الحديث خاصة السياسي منه بينما كانت دراستنا أوسع من حيث الحدود الزمانية والمكانية وشملت كافة ما دَوّن من الرحلات المغاربية على امتداد ثلاثة قرون.

ورغم الاختلافات الموجودة بين هذه الدراسات في تناول وحضور أوروبا في الكتابات المغاربية عموما سواء اختلاف في تناول أو في الموضوعات المدروسة أو في المدة الزمنية المدروسة، إلا أنها جميعا تبقى دراسات ذات أهمية في هذا الحقل والتوجه من الدراسات التاريخية، ونعتقد أن دراستنا سوف تكون بنفس الاختلاف في تناول، آملين أن تكون إسهاما مهما في مسار هذه الدراسات.

المادة العلمية

اعتمدنا في هذه الدراسة على مادة علمية نصوعة اختلفت بين مصادر طبيعتها، ولأن موضوع الدراسة يتجه إلى دراسة الرحلة المغاربية فإن نصوص هذه الرحلات بلا شك شكلت المادة الأساسية في بحثنا، وكما سبق وأشرنا فإننا اعتمدنا على 17 نص رحلي انطلاقا من رحلة أحمد بن قاسم الحجري ومختصر رحلته "ناصر الدين على القوم الكافرين"، والذي يصور لنا واقع أوروبا في الربع الأخير من القرن 16 ومطلع القرن 17م، فجاءت رحلته في مرحلة اشتد فيها الصراع الأوروبي الإسلامي إذ ارتبطت رحلته ارتباطا أساسيا بواقع أهله الموريسكيين ومعاناتهم، ثم كانت رحلة محمد بن عبد الوهاب الغساني ونصه "رحلة الوزير إلى افتكاك الأسير" وحملت بين طياتها معلومات مهمة جدا حول واقع أوروبا في الربع الأخير من القرن 17م، ورحلة أحمد الغزال إلى إسبانيا سنة 1766م والتي خلف على إثرها مؤلفه "نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد" ليليه نص رحلتي ابن عثمان المكناسي إلى كل من إسبانيا ثم إلى صقلية ونابولي ومالطا، وهي رحلات أرخت لواقع المجتمعات الأوروبية والعلاقات الإسلامية الأوروبية، والأوروبية الأوروبية في الربع الأخير من القرن 18م.

أما في القرن التاسع عشر فتعددت تقايد الرحلات المغاربية فوقفنا عند كتابات الرحالة الجزائريين سليمان ابن صيام ومحمد السعيد بن علي الشريف وأحمد ولد قادي، وكلها كتابات كتبت تحت كنف الإدارة الفرنسية، فيما حضرت تقايد سفراء المغرب الأقصى بقوة ممثلة في خمسة نصوص رحلة لكل من الصفار التطواني الذي كتب عن رحلته إلى فرنسا سنة 1846م وإدريس العمراوي الذي دونه رحلته "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز" يصف فيها ارتساماته عن فرنسا والظاهر الفاسي سنة 1860م في رحلته "السنية" إلى إنجلترا، وكذا نص رحلة الجعيدي إتحاف الأخيار... في وصف أوروبا، انتهاء بأحمد الكردودي الذي نقل في نص رحلته مشاهداته عن إسبانيا، ومن تونس سجل عدد معتبر من رجال الدولة والمصلحين التونسيين نصوصا رحلية دونوا فيها رؤيتهم للواقع الأوروبي والإسلامي

منطلقين من دوافعهم الإصلاحية، فكتب كل من ابن أبي الضياف ويبرم الخامس وخير الدين التونسي ومحمد السنوسي، كل هذه الكتابات شكلت المادة الأساسية لهذه الدراسة.

هذا إضافة إلى عديد المصادر التي اعتمدنا عليها في التعريف بالرحالة وسياقات رحلاتهم لأنهم كانوا قريبين من الحدث مثل كتابات الدبلوماسي والمؤرخ المغربي أبو القاسم الزياني المتعددة التي رجعنا إليها، وكذا كتاب "الاستقصا" لصاحبه الناصري السلاوي الذي كان قريبا ومعاصرا لبعض أحداث ورحالة القرن التاسع عشر في المغرب، وغيرها كثير من المصادر خاصة المتعلقة بدراسة التراجم.

وبخصوص المراجع المعتمدة فإنها كثيرة جدا لا يسع مجال المقدمة لحصرها وما يمكن الإشارة إليه بخصوصها أنها مراجع مهمة جدا أثرت هذه الدراسة، وربما كان علينا الإشارة إلى بعض المراجع الأساسية التي اشتغلت على حقل الدراسات الرحلية إلى أوروبا مثل كتابي عبد المجيد القدوري "سفراء عرب في أوروبا 1610-1922" و"المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)" بالإضافة إلى كتاب سعيد بن سعيد العلوي "أوروبا في مرآة المرحلة؛ صورة الآخر في الرحلة المغربية المعاصرة"، وكذا كتابات المؤرخين المغاربة عبد الهادي التازي خاصة كتابه "التاريخ الدبلوماسي للمغرب" الذي كشف لنا عن كثير من الأحداث القريبة والمتعلقة بهذه الرحلات الدبلوماسية المغربية، وكذلك الأمر بالنسبة لكتابات عبد الرحمان بن زيدان سواء "اتحاف أعلام الناس" أو "العز والصولة" أو "العلائق السياسية للدولة العلوية"، أما فيما يخص المصادر التونسية فاعتمدنا على وجه الخصوص على ما كتبه أحمد عبد السلام في كتابه "مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية"، وفي الجزائر مثل تاريخ الجزائر الثقافي لأبو القاسم سعد الله مرجعا مهما في التعريف بالرحالة الجزائريين والبيئة التي أتوا منها.

هذه نبذة عن المادة العلمية المعتمد عليها في الدراسة، وفي الحقيقة فإن كل المصادر والمراجع المحلية والأجنبية كانت مهمة جدا في مسار ومحطات البحث المختلفة، ويستطيع القارئ أن يعود إلى أهميتها في نص الدراسة أو الاطلاع عليه في القائمة البيبليوغرافية لأن هذه المساحة من المقدمة لا تكفي لذكرها جميعا وحتى لو قلنا الأهم منها فقط فهي جميعا مهمة.

خطة الدراسة

جاءت هذه الدراسة وفق خطة بحث كانت نتاج قراءة معمقة ومتأنية وطويلة في مصادرها ومراجعها الأساسية، إذ قسمت إلى ثلاثة أقسام رئيسية سبقتها مقدمة ومدخل تمهيدي رأينا ضرورته تناولنا فيه المفاهيم العامة المحددة للأطروحة حمل تعريفها بالرحلة وأنواعها واقفا عند أهميتها، ثم أهمية دراسة الصورة والآخر، في حين جاءت الأقسام الثلاثة على النحو التالي:

القسم الأول: عملنا في هذا القسم على التعريف بالرحلة المغاربة الذين ارتحلوا إلى أوروبا على امتداد ثلاثة قرون من الزمن بدءا من القرن السابع عشر وصولا إلى نهاية القرن التاسع عشر، إذ بلغ عدد هؤلاء الرحالة ستة عشر (16) أنتجوا لنا سبع عشرة (17) نصا رحليا حول أوروبا، وذلك سعيا منا للوقوف عن علاقاتهم بعصرهم والبحث في السياقات التاريخية التي أتت فيها رحلاتهم، والوقوف على مكانتهم وانتماءاتهم الاجتماعية والثقافية والسياسية، وذلك لاعتقادنا بأن لشخصية الرحالة والبيئة التي أتى منها لها أثر كبير في إنتاج الصورة المعبر عنها في رحلاتهم، وجاء هذا القسم في خمسة فصول، في تقسيم تتبعنا فيه التسلسل الزمني لهذه الرحلات إضافة إلى تأثيره ببعض مقتضيات المنهجية: تناولنا في الفصل الأول رحلات المغاربة في القرن السابع عشر، أما الفصل الثاني فقد حمل بين طياته تعريفا بالرحلة والرحلات المغربية إلى أوروبا في القرن الثامن عشر، أما الفصل الثالث فتناول الرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرن 19م، واحتوى الفصل الرابع على الرحلات التونسية إلى أوروبا في نفس القرن، وضم الفصل الخامس الرحالة الجزائريين ورحلاتهم إلى فرنسا خلال القرن 19م.

القسم الثاني: والمعنون بـ «صورة أوروبا في الرحلات المغربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر»، وعمدنا في هذا القسم إلى تقديم ودراسة الصورة التي قدمها الرحالة المغاربة عن أوروبا خلال القرنين 17 و18م، وجاء هذا القسم في ستة فصول ضمت تحت طياتها عديد المباحث والمجاور:

الفصل الأول: الذي جاء تحت عنوان "تمثيلات الرحالة المغاربة للواقع الديني الأوروبي خلال القرن 17-18م" إذ يبحث هذا الفصل بالدرس والتحليل في المشهد الديني الأوروبي وتمثيلات الرحالة المغاربة وخطابهم تجاهه، تناولنا هذا الفصل في ستة محاور بحثية منطلقين من صورة الآخر الأوروبي المختلف دينيا كما عبر عنها الرحالة المغاربة، لنمر بعدها للصورة التي عبر عنها خطاب الرحلات المغربية حول دين الآخر الأوروبي، قبل أن نعرض عند وقوف هؤلاء الرحالة عند فساد الكنيسة ورجالها مبرزين موقفهم منها، لنقف على تأريخهم للحركة الدينية وما تبعها من صراعات في أوروبا، ليتوجه الرحالة المغاربة لاستخلاص صورة الإسلام والمسلمين في أوروبا خلال العصر الحديث.

الفصل الثاني: حمل عنوان: "تمثلات الرحالة المغاربة للواقع السياسي في أوروبا خلال القرنين 17 و18م"، تم دراسته في سبعة محاور، انطلقنا فيه بدراسة الأسس الضابطة للعلاقات السياسية بين الدول الإسلامية وغير الإسلامية وفق التمثيلات التي عبر عنها الرحالة المغاربة، ولأن الرحلة تعبر أيضا عن صورة الأنا لدى الآخر وقفنا في المحور الثاني من هذا الفصل عند اكتشاف الرحالة المغاربة للصورة التي ينظر بها الأوروبيين للدولة العثمانية في العصر الحديث، لنتناول بعدها صورة المغرب وأوروبا كما رسمها هؤلاء الرحالة، وحفلة الرحلات المغربية بتعبيرات تخص العلاقات الأوروبية-المغربية ومعالمها الكبرى، وكذلك كان الأمر فيما يخص العلاقات الأوروبية-الأوروبية، وفي المحور السادس درسنا حضور النظام السياسي الأوروبي في نصوص الرحلات المغربية قبل أن نخرج عن اكتشاف هؤلاء الرحالة للمؤسسة الدبلوماسية الحديثة في أوروبا.

الفصل الثالث: المعنون ب: "الواقع العسكري في أوروبا خلال رحلات القرنين 17 و18م"، ودرسنا هذا الفصل في ثلاثة محاور كانت مجمل ما عبر عنه الرحالة المغاربة في هذا الباب، أما الأول فدرسنا فيه نظرة الرحالة المغاربة لواقع التحصينات العسكرية الأوروبية وموقفهم منها، فيما حمل المحور الثاني في هذا الفصل دراستنا لنظرة هؤلاء الرحالة للتسليح والصناعة العسكرية الأوروبية، فيما عبر المحور الثالث والأخير عن اكتشاف الرحالة المغاربة للتنظيمات العسكرية في أوروبا.

الفصل الرابع: والذي تم دراسته تحت عنوان "المجتمعات الأوروبية في نصوص الرحالة المغاربة خلال القرنين 17 و18م" حمل سبعة محاور بحثية درس الأول حضور "الطبقات والمكونات الاجتماعية في أوروبا" في نصوص هؤلاء الرحالة، لنخرج ثانيا عند حضور "بقايا الموريسكيين في إسبانيا خلال القرنين 17 و18م" كما عبر عنه الرحالة المغاربة، ونالت المرأة الأوروبية نصيبا وافرا في الرحلات المغربية لندرسها في محور ثالث، أما المحور الرابع من هذا الفصل فدرس صورة "الأعياد والاحتفالات الأوروبية"، فيما يكشف المحور الخامس عن "مظاهر التسلية والترفيه" في البلاد الأوروبية، لنقف سادسا عند حضور في الأكل والمائدة الأوروبية في نصوص الرحلة المغربية، لنخرج سابعا وأخيرا عند اكتشاف الرحالة المغاربة "المؤسسات والنظم الصحية والاجتماعية في أوروبا".

الفصل الخامس: عنوانه "الواقع العلمي والثقافي في أوروبا خلال القرن 17 و18م" كانت دراستنا لهذا الفصل في أربعة محاور بحثية درسنا في الأول منها عند "الاستشراق الأوروبي نهاية القرن 16 ومطلع القرن 17م"، فيما درس الثاني "واقع التعليم والعلوم الأوروبية" كما رصدته الرحلات المغربية، أما المحور الثالث فدرسنا فيه تمثيلات الرحالة المغربية للتطورات الصناعية والتقنية الأوروبية، لنقف أخيرا عند "مظاهر الثقافة الأوروبية" وموقفهم منها.

الفصل السادس: جاء عنوانه: "واقع الاقتصاد الأوروبي في نصوص الرحلات المغربية خلال القرنين 17 و18م" وفي أول محاوره درسنا وقوف الرحالة المغاربة "أزمة الاقتصاد الإسباني خلال القرن 17م"، أما الثاني فتناولنا فيه واقع "الفلاحة الأوروبية في نصوص الرحلات المغربية خلال القرنين 17 و18"، ليليه دراسة واقع التجارة الأوروبية، قبل أن ندرس حضور الصناعة الأوروبية في نصوص الرحلات المغربية، وأخيرا اكتشاف الرحالة المغاربة أهمية البنية التحتية والمؤسسات المالية في الاقتصاد الأوروبي.

القسم الثاني: والمعنون بـ «صورة أوروبا في الرحلات المغربية خلال القرن التاسع عشر»، وعمدنا في هذا القسم إلى تقديم ودراسة صورة التي قدمها الرحالة المغاربة عن أوروبا خلال القرن 19م، وجاء هذا القسم في ستة فصول ضمت تحت طياتها عديد المحاور البحثية:

الفصل الأول: يبحث هذا الفصل بالدرس والتحليل في اكتشاف الرحالة المغاربة الفكر السياسي الأوروبي الحديث خلال القرن 19 وتمثلاثهم له وموقفهم، تناولنا هذا الفصل في أربعة محاور، حمل الأول منها عنوان: "طبيعة أنظمة الحكم في أوروبا"، لنتقل بعدها لاكتشاف رحالي هذه المرحلة للقانون والدستور الأوروبي وتمثلاثهم له، لنقف ثالثا عند تنظيم أركان الدول في الدول الأوروبية، قبل أن نختم هذا الفصل بالوقوف علند اكتشاف هؤلاء الرحالة للقيم السياسية في أوروبا.

الفصل الثاني: وفي هذا الفصل بحث رحالي المغرب في نظام وقوة الجيوش الأوروبية، وعمدنا إلى تقسيم إلى ثلاثة محاور؛ درس الأول منها وقوف هؤلاء الرحالة عند جيش النظام واكتشافهم قوته، ليبحت المحور الثاني في تكوين وتجهيز الجيوش الأوروبية كما رآه رحالي هذه الفترة، لنعرج أخيرا ناقلين الصورة التي عبر عنها هؤلاء الرحالة عن قوة الجيش الأوروبي عددا وعدة.

الفصل الثالث: وحمل عنوان: "الواقع الاجتماعي الأوروبي في نصوص الرحلات المغربية خلال القرن 19م" احتوى على خمسة محاور، الأول منها وقف عند حضور صور "الطبقات والمكونات الاجتماعية الأوروبية"، أما المحور الثاني فدرس تمثل الرحالة المغاربة "المؤسسات الاجتماعية الأوروبية"، وفي المحور الثالث درسنا اكتشاف هؤلاء الرحالة للعادات والتقاليد الأوروبية وموقفهم منها، لنتقل في المحور الرابع لدراسة حضور المرأة الأوروبية في رحلات هذه المرحلة، ولم يغب الأكل والمائدة الأوروبية عن تمثلاث رحالي المغرب في القرن 19م والذي كان آخر محاور دراستنا في هذا الفصل.

الفصل الرابع: عمدنا في هذا الفصل للوقوف عند "الواقع العلمي والثقافي في أوروبا خلال القرنين 19م" كما رآه الرحالة المغاربة، ودرس المحور الأول في هذا الفصل الواقع العلمي الأوروبي وبحث في مقوماته، أما المحور التالي فوقف عند حضور مظاهر الثقافة الأوروبية خلال هذه المرحلة في نصوص الرحالة وموقفهم منها، فيما توجه المحور الثالث والأخير للكشف عن متخيل التقنية الأوروبية في نصوص الرحالة المغاربة.

الفصل الخامس: حمل هذا الفصل بين طياته النظرة التي رأى بها الرحالة المغاربة خلال القرن 19 واقع الاقتصاد الأوروبي الحديث ومقومات قوته، وجاء هذا الفصل تحت عنوان، ودرس المحور الأول فيه "الحرية الاقتصادية" وأثرها في الاقتصاد الأوروبي، فيما كشف المحور الثاني عن اطلاع الرحالة المغاربة دور الدول في أوروبا في الاقتصاد، وفي المحور الثالث كشفنا وقوف هؤلاء الرحالة عند "المؤسسات المالية والاقتصادية الأوروبية الحديثة"، قبل أن يقفوا رابعا عند دعائم ومقومات الاقتصاد الأوروبي الحديث.

وتأتي أهمية هذا التقسيم خاصة بين القسمين الثاني والثالث-في اعتقادي-إلى الاختلاف الجوهرى في النظرة والموقف والسياقات وكذا ردود الفعل، إذ كانت متقاربة متشابهة بين رحالي القرنين السابع عشر والثامن عشر والتي جاءت متباعدة مع ما حملته رحلات القرن التاسع عشر، وختمنا موضوع دراستنا بخاتمة شملت استنتاجات حول ما طرح في فصول البحث.

وفي ختام التقديم لهذا البحث لا أقول إلا ما قاله علماؤنا الأفاضل وهم يقدمون لأعمالهم وكتبهم الجليلة: "إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتابا في يومه إلا قال في غده: لو غَيَّرَ هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل. وهذا أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر"، وما كان هذا البحث إلا اجتهدا قد يعتريه الخطأ والنقص، لذا نلتمس من قارئه العذر، فلا باحث معصوم ولا بحث كامل.

مدخل

— أولا: في الرحلة

— ثانيا: في الصورة

— ثالثا: الآخر ومغزى النظر إليه

مدخل

نستهدف في هذا المدخل العام والموجز البحث في بعض المفاهيم المعرفية المرتبطة مباشرة بموضوع الدراسة، واقفين عند مفهوم الرحلة وأهميتها راصدين أبرز أنواعها التي استقطبت المغاربة، مروراً بدراسة مفهوم "الصورة" وعلاقتها بموضوع البحث، قبل أن نختم هذا المدخل بالتعريف بمصطلح مهم سيحضر معنا كثيراً على امتداد محطات الدراسة ألا وهو "الآخر" وجدوى النظر إليه.

أولاً: في الرحلة

1- مفهوم الرحلة:

أ- لغة: حظيت مادة "رحل" بشرح واسع في العديد من المعاجم العربية، فقد جاء في لسان العرب لابن منظور أن: "الترحيل والإرحال بمعنى الإشخاص والإزعاج"، وقال: "رحل الرجل إذا ساروا، رحلته أنا ورحل رحول وقوم رحل: أي يرحلون كثيراً، ورجل رَحَّال عالم بذلك مجيد فيه"⁽¹⁾.

والرحل والارتحال: هو الانتقال وهو الرحلة، والرحلة أي الارتحال للمسير، يقال: دنت رحلتنا، وحل فلان وارتحل وترحل، والرحلة بالضم تعني الوجهة والمقصد أي: "الوجه الذي تأخذ فيه وتريده، تقول: أنتم رحلتي أي الذين أرتحل إليهم"⁽²⁾.

فاسم الفاعل من رحل، راحل، وصيغة المبالغة: رَحَّال، وقد تزايد التاء للمبالغة، فيقال: فلان رَحَّال، ولكن هذه الصيغة تختلط مع جمع التكسير حينما نقول مثلاً: "الرحالة المسلمين"، ولذا يفضل الاكتفاء بالصيغة الأولى دون زيادة التاء، حتى لا تختلط بجمع التكسير⁽³⁾.

فالرحلة من يرحلوا رحلاً ورحيلاً وترحالاً، ورحله من بلده أخرجه منها، وارتحل القوم انتقلوا، والرحالة الناقة الصالحة لأن تتركب، والرحلى مركب للبعير أصغر من القتب، والرحل أيضاً ما يستصعبه المسافر من الأوعية جمعه رحال، والرحلة الجهة التي يقصدها المسافر، يقال: مكة رُحلتنا، وهو عالم الرحلة أي يرحل إليه⁽⁴⁾.

ومما سبق في معنى الرحلة نجد بأنها جاءت بمعنى السير والانتقال والوجهة أو المقصد الذي يراد السفر إليه، ومعنى دنو المكان المراد الوصول إليه، أو اقتراب وقت الرحيل، ولكل هذه المعاني كلها كان لفظ "رحلة" يطلق على

(1) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير وآخرون، مج3، ج18، دار المعارف، 1979، ص 1609.

(2) المرجع نفسه، ص 1611.

(3) ناصر عبد الرزاق المواقي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع، ط1، مكتبة الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1995، ص 24.

(4) أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، [د.ت]، ص 07.

الانتقال من مكان إلى آخر، ومنه أخذ لفظ "رحال"، وهو الشخص النضقل من مكان إلى آخر، فالشخص الذي قام بالرحلة، قد ترك موطنه وانتقل إلى مكان آخر وقصد جهة أخرى غير موطنه وسار إليه، إذن كان لفظ "رحلة" أعم وأشمل ما يطلق على المسافر من مكان إلى آخر، "فالرحال" صفة مشتقة من الفعل الذي قام به وهو الرحلة⁽¹⁾.

ب- اصطلاحاً: عرّف الإمام الغزالي السفر-الرحلة بأنها "نوع من حركة ومخالطة" أو "نوع مخالطة مع زيادة تعب المشقة، وأوضح أن "الفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب، وإن الإنسان لا يسافر إلا في غرض، والغرض هو المحرك".

والرحلة كما جاء في دائرة المعارف هي: "انتقال واحد، أو جماعة، من مكان إلى مكان آخر، لمقاصد مختلفة، وأسباب متعددة"⁽²⁾.

أي أن الرحلة تظل إنجازاً أو فعلاً أو مباشرة لما يعنيه أو يقتضيه أمر اختراق حاجز المسافة، أو إسقاط الفاصل الحاجز بين المكان الذي تبدأ منه، والمكان الذي تنتهي إليه، وقد تكون الرحلة إنجازاً صعباً وشاقاً على الطريق، بين المكان والمكان الآخر، ولكنها تجاوب-بكل تأكيد-حاجز الحياة⁽³⁾.

والرحلة في المفهوم السائد هي انتقال ضمن الفضاء الجغرافي، والزمن التاريخي، وهي انتقال أيضاً ضمن نظام اجتماعي وثقافي⁽⁴⁾، وذلك من خلال مخالطة الناس والأقوام، وهنا تبرز قيمة الرحلات كمصدر لوصف الثقافات الإنسانية، وترصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة⁽⁵⁾.

ج - كتابة الرحلة.

الرحلة أو أدب الرحلة كتابة يحكي فيها الرحالة أحداث سفره وما شاهده وما عاشه، مازجا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم، وإنجاز الرحلة-كتابتها-يتطلب أن يكون الرحالة ذا مستوى ثقافي معين يؤهله لنقل أحداث سفره إلى كتابة، والرحلة بهذا المعنى هي كتابة وخطاب حال.

(1) عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية الأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين: دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996، ص 40-41.

(2) ناصر عبد الرزاق المواني، مرجع سابق، ص 24.

(3) صلاح الدين علي الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة: في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، ط2، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999، ص 11.

(4) دانيال هنري باجو، الأدب العام المقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، [د.ت]، ص 49.

(5) حسين محمد فهميم، أدب الرحلات، ع138، عالم المعرفة، الكويت، يناير 1989، ص 15.

إذ يواكب هذا الخطاب انتقال الرحالة في أماكن متعددة ومختلفة، واصفا إياها جغرافيا وعمرانيا، واجتماعيا وبشريا، وذاكرا ما لقيه من رحلات العلم والأدب، وما دار في مجالسهم من مناقشات، إضافة إلى ذكر كثير من الفوائد العلمية والتاريخية، والأدبية، والرسائل والإجازات والأشعار، وكل ذلك يسوقه الرحالة في أساليب مختلفة⁽¹⁾. فأدب الرحلة هو مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو بسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد، ويوصف أيضا بأدب الرحلات الواقعية، وهي الرحلة التي يقوم بها رحال إلى بلد من بلاد العالم، ويدون وصفا لها يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب⁽²⁾.

2- أنواع الرحلات

بناء على من سبق من تعريفات، وقبل تبين أهمية الرحلات ودورها الفعال والبارز في تلاقي وتمازج القيم الحضارية والثقافية بين الشعوب، وبناء أيضا على قيمة الرحلة كمصدر للتأريخ، وكمرآة تعكس واقع حقبة معينة لمجتمع معين، فإنه كان لا بد من تقسيم وتصنيف هذه الرحلات تسهيلا لدراساتها دراسة أكاديمية وتيسير تحليلها وذلك للحصول على نتائج تخدم الباحثين والمهتمين في مجال البحث التاريخي، ومما تجدر الإشارة إليه هو وجود اختلاف وتباين في تقسيم وتصنيف أنواع الرحلات؛ فهناك من يقسمها على أساس اتجاهاتها، وقد تصنف كذلك وفقا لغاياتها وأهدافها، وهناك من قسمها وفقا لطبيعتها، إلا أن أشهر تقسيمات أنواع الرحلات تلك المتعلقة بمهامها ووجهتها، ويمكن التركيز على أكثر الأنواع شيوعا عند الرحالة المغاربة، وهي:

أ- الرحلة الحجازية:

من الدوافع التي تحفز على الرحلة لدى المغاربة أداء مناسك الحج والعمرة وزيارة الأماكن المقدسة، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي لا شك فرصة لاحتكاك العلماء المسلمين بغيرهم من الوافدين من كل البلاد العربية والإسلامية، ويغتنم أصحاب الرحلات الفرصة لتدوين ملاحظاتهم وانطباعاتهم في مؤلفاتهم، وتجاربهم في المغاربة مع هذا الركن من الدين-الحج-وتحمسوا له⁽³⁾، فهو مناسبة للحجاج من مختلف الأماكن لتبادل التجارب الدينية والفكرية والاجتماعية والثقافية والتعليمية، وهو بالتالي يعتبر مؤتمرا سنويا.

(1) جميلة روباش، *الرحلة في المغرب العربي*، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري القديم، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2015/2014، ص 08.

(2) ناصر عبد الرزاق المواني، ص 24.

(3) محمد الزين وصالح أولسليم، «ملاحم من الحياة العامة بالجزائر في كتب الرحلات»، *مجلة الحوار المتوسطي*، ع 9-10، سبتمبر 2015، ص 78.

وقد جعل بعض الرحالة من رحلتهم الحجازية ميدانا وعظيماً وغاية تعليمية، فالترحال والسفر من أكثر المدارس تثقيفاً وتهذيباً للإنسان وإغناءً لفكره وتأملاته عن نفسه وعن الآخر وإن اختلفت البواعث وتباينت الوسائل وتنوعت مادتها⁽¹⁾.

والملاحظ أن معظم الذين دونوا رحلاتهم الحجازية هم من المغاربة، وذلك راجع لبعد الديار المغربية من الشرق والحجاز، فكان على من يرحل إليها من الأدباء والعلماء أن يخبر مواطنيه عن البلاد، وما شاهده من آثار الصحابة والمشاهد الشهيرة والعلماء لما يربطه بها من روابط الدين واللغة والدم، بالإضافة إلى ولوع المغاربة بالسياحة وارتداد أقاليم البلاد، وإن لم يقتصر التأليف في الرحلة الحجازية على المغاربة والعرب المشاركة، بل ألف علماء شعوب إسلامية كثيرة في هذا النوع من الكتابة.

ب- الرحلة العلمية

ونجد في هذا النوع من الرحلات دوافع تحدد بالرحالة للقيام برحلته، منها الحرص على لقاء المشايخ والاستفادة منهم واستجازتهم والرواية عنهم⁽²⁾، حيث تعتبر الرحلة من مميزات جهود المسلمين في طلب العلم، إذ كان العلماء يحثون الطلبة عليها، فكان الطالب يترك بلده بعد أن يحصل ما لدى علمائها، ويتوجه إلى مراكز العلم المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي ويكابد مشاق السفر، ورغم صعوبتها ومشاقها إلا أن رحلاتهم ملأت بطون الكتب، وقلما نجد بين العلماء من لم يرحل في طلب العلم، وربما قطع الواحد منهم آلاف الأميال لمجرد قراءة كتاب واحد بل ولسماع حديث واحد، وكان البعض منهم ينتهز موسم الحج فيعرج على الشيوخ أثناء سفره للسماع منهم، مما أتاح لهم فرصة التلقي من العلماء، وهذا ما عرف بالرحلة لطلب العلم⁽³⁾.

أخذ طابع الرحلة في طلب العلم يطغى على كتابات كثير من الرحالة، حيث نلاحظ اهتماماً بالأساتذة والعلماء الذين التقوا بهم، إلى جانب وصف المكتبات ودور العلم وبعض الرفاق من الطلاب، ووسائل التدريس، بل إن منهم من ترجم لذاته وكتب سيرة حياته الشخصية، جنباً إلى جنب ترجمته للعلماء والشيوخ والأساتذة الذين خالطهم، ونماذج مما كتبه بعضهم⁽⁴⁾.

(1) بلال سالم الهروط، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، قسم اللغة العربية، جامعة مؤتة، الأردن، 2008، ص 29.

(2) محمد الزين وصالح أوسليم مرجع سابق، ص 78.

(3) صافية كساس، «الرحلات العلمية من وإلى المغرب العربي ودورها في تنشيط الحركة العلمية والتعليمية في المغرب الغربي»، مجلة الممارسات اللغوية، ع8، جامعة مولود معمري-تيزي وزو، الجزائر، 2011، ص 180.

(4) سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة: قديماً وحديثاً، مكتبة غريب، مصر، 1991، ص 11.

ويبدو من طبيعة الرحلات المغاربية اتسامها بالطابع العلمي التوثيقي، ومنه فإن هدف هذه الرحلات هي طلب للعلم والدراسة، وصار من المألوف أن تتجه في أغلب الأحوال إلى الشرق للأخذ عن علمائه⁽¹⁾، يقول ابن خلدون في مقدمته عن الرحلة في طلب العلم: «إن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل، تارة علما وتعلما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، وإن الرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»⁽²⁾.

ج- الرحلة السفارية

ينصرف الموضوع العام لهذا النوع من الرحلة إلى وصف ما شاهده الكاتب أو سمعه في رحلته أو سفرته للقيام بمهام السفارة، مبعوثا من قبل الأجهزة العليا في بلده، لدى أمة أو دولة أخرى، قريبة أو بعيدة، إسلامية أو أجنبية⁽³⁾، وتكون أحيانا من إنشاء السفير نفسه، إن كان في الوقت ذاته من رجال الأدب والعلم، وأحيانا أخرى يقوم بتأليفها أحد الكتّاب الذين رافقوا السفير⁽⁴⁾، الذي يرسله عادة لتسجيل ذلك وإعداد تقرير مفصل عن السفارة لرفعه إلى السلطان غداة العودة⁽⁵⁾، فرحلة السفارة وليدة التقدم الحضاري ونشوء الدول التي كانت ترسل مندوبين رسميين نيابة عنها من أجل التفاوض فيما بينها⁽⁶⁾، ومن أجل تبادل وجهات النظر وتوثيق العلاقات، أو تمهيدا لعقد اتفاقيات أو لفض المنازعات⁽⁷⁾.

(1) حسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، منشورات عكاظ، الرباط، 1990، ص 80.

(2) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ضبط وتخرّيج: وائل خلف، دار العقيدة، الإسكندرية، 2008، ص 631.

(3) فريد أمعشوشو، «خصائص الرحلة السفارية المغربية إلى أوروبا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر»، مجلة البيان الكويتية، ع 521، الكويت، 01 ديسمبر 2013، ص 50.

(4) حسام هاب، «ثنائية التقليد والحداثة في خطاب النخبة المغربية خلال القرن 19م: الرحلات السفارية أنموذجا»، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المغرب، ص 1-2.

(5) فريد أمعشوشو، مرجع سابق، ص 50.

(6) ناصر عبد الرزاق المواني، مرجع سابق، ص 33.

(7) محمد بن سعود بن عبد الله الحمد، موسوعة الرحلات العربية والمعرية المخطوطة والمطبوعة: معجم بليوغرافي، ط1، فهرسة دار الكتب والوثائق القومية أثناء النشر، القاهرة، 2007، ص 13.

وما يلاحظ عن نصوص الرحلات السفارية أنها لا تعبر عن الموقف أو حتى تفاصيل المهمة الرسمية بشكل مباشر بل تصبح نصا شفافا ورمزيا، وحقيقة أخرى موازية للحقيقة الرسمية⁽¹⁾، فهي عادة لا تفصح عن هدفها الحقيقي مكتفية بالجانب البروتوكولي لأسباب أمنية⁽²⁾، ولا مناص من الإشارة هاهنا إلى أن الرحلة السفارية إما توثق في حينها وتحرر بالموازاة مع فعل القيام بها، فتتبع حركة السفير وتسجل نشاطاته، وتنقل مظاهر الحياة في المجتمع المزار على اختلافها، وإما أن تكتب تلك الرحلة لدى رجوع البعثة السفارية إلى بلد الانطلاق، بعد تأديتها الواجب الدبلوماسي الذي كلفت به سواء من مذكرات الكاتب عن السفارة أو من ذاكرته وما يستحضره عن سفارته السابقة⁽³⁾.

ويعتبر المغاربة أكثر الشعوب العربية شهرة في مجال الرحلات خاصة السفارية منها، حيث تجاوزت هذه الرحلات الحدود المغربية إلى أقاليم مجاورة شرقا وجنوبا وحتى شمالا، قصد توثيق الصلة أو ضبط الحدود أو الصلح والمهادنة⁽⁴⁾، ويعود تاريخ أقدم سفارة مغربية مدونة متداولة بين الدارسين إلى الدولة السعدية، وهي "النفحة المسكية في السفارة التركية" التي ألفها أبو الحسن علي التمكروني، حيث كانت وجهتها القسطنطينية⁽⁵⁾، وانتعش التأليف في هذا المجال خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد، حيث بدأت تكتسي طابعا رسميا ومؤسساتيا⁽⁶⁾.

ولا شك أن الرحلة السفارية تشكل تجربة وجودية خصوصية لاسيما إذا كانت الرحلة الاستكشافية الأولى لصاحبها، كما أنها تشكل من ناحية أخرى اختبارا متعددًا للقدرات الدبلوماسية لصاحبها ولؤهلاته في رصد خصوصيات الآخر من غير تحلل عن التمهيص، ولقدراته على بلورة نص يجمع بين الوصف والتحليل والرصد والمتعة الأدبية في الآن نفسه⁽⁷⁾.

(1) عز المغرب معينو، «وصف صنائع الفرنج وحيلهم العجيبة للجعيدى»، أعمال ندوة الرحالة العرب والمسلمون: اكتشاف الآخر-المغرب منطلقا وموثلا، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003، ص 106.

(2) عبد الرحيم لمودن، «صورة-الآخر-ومعطيات ديموغرافية في الرحلة السفارية من خلال تحفة الملك العزيز بمملكة باريز لإدريس العمرابي»، مجلة كنانيش، ع3، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة-المغرب، 2001، ص 56.

(3) فريد أمعششو، مرجع سابق، ص 50.

(4) عبد العزيز بنعبد الله، الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، دار نشر المعرفة، الرباط، 2001، ص 11.

(5) علي بن محمد التمكروني، النفحة المسكية في السفارة التركية 1589، تحقيق وتقديم: محمد الصالحى، دار السويدى للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2007.

(6) عز المغرب معينو، مرجع سابق، ص 91.

(7) فريد الزاهي، «المانعة والفتنة الجسد والذات والصورة: متخيل الرحلة السفارية المغربية إلى أوروبا»، مجلة الكوفة، ع2، ربيع 2013، ص 169.

د- الرحلة السياحية.

وهي الرحلات التي تكون غايتها الوقوف على الأماكن وجوب الآفاق، والتعرف إلى أخلاق الشعوب وعاداتهم، والوقوف على ما بالبلاد من العجائب والغرائب⁽¹⁾، والرغبة في اكتشاف ما لم تره العين، فيقوم الرحالة بالسفر بمحض إرادته دون دافع خارج عن حدود الذات، وقد امتدت الرحلة لتتجاوز مضمون الحج أو المهام الرسمية ليجول الرحالة في البلاد التي طالتها يد الإسلام وشاع فيها الأمن والاستقرار في أكثر أنحائها، يريد أن يرى ويعرف أشياء كثيرة، لذا قد تجتمع عدة أسباب لرحلة ما، كما هو عند ابن بطوطة الذي زار أصقاعا عديدة بدافع الرغبة التي تفرضها الذات، وحب الاطلاع على الحضارات بثقافتها النصوعة، وقد قضى من عمره شطرا كبيرا في الترحال والسفر، فكانت رحلته حجازية سياحية في مضامينها⁽²⁾.

3- أهمية كتب الرحلة

حوت كتب الرحلات مادة غنية ومثيرة؛ إذ ليس هناك شك في أنها قدمت إسهامات بالغة الأهمية في الجغرافيا والتاريخ، والأدب، والاقتصاد، والأخبار، والسير، والاجتماع، والسياسة، فضلا عن أنها ذات تشويق، لأن الرحالة مولع بنقل ما يسمع أو ما تقع عينه عليه، فراوي الرحلة هو صاحبها ومجرها والعارف بأحداثها والمحيط بتفصيلاتها، وقد عاشها بجميع فكره وإحساسه⁽³⁾، فبواسطتها يحصل الرحالة على مادة ثرية من المعلومات المستمدة من الملاحظة المباشرة، والمعاينة الشخصية عن أحوال البلدان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كطبائع الناس ومعالم حضارتهم وخصوصياتهم، وهي تمثل مظهرا من المظاهر الحضارية الواضحة في مختلف العصور الإسلامية⁽⁴⁾.

وقد ثار الجدل حول تصنيف الرحلات، في أي جانب من العلوم هي؟ أهى جغرافية؟ أم أدبية؟ أم تاريخية؟ أم سياسية؟ أم اجتماعية؟ أم هي مزيج من تلك العلوم مجتمعة؟⁽⁵⁾.

لكن يبدو أن نمط الرحلات يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد، إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخين والجغرافيين وعلماء الاجتماع والاقتصاد، ومؤرخي الآداب والأديان، فالرحلات منابع ثرية لمختلف العلوم، وهي

(1) عبد الواحد ذنون طه، الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2005، ص7-8.

(2) جميلة روياش، مرجع سابق، ص 08.

(3) فؤاد قنديل، أدب الرحلات، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2002، ص 9-12.

(4) عبد القادر خليف، «الرحلات بين المغرب والمشرق وقيمتها التاريخية»، مجلة المواقف للدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ، ع 4، منشورات جامعة معسكر، الجزائر، ديسمبر 2009، ص 109.

(5) عواطف بنت محمد نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين: دراسة تحليلية مقارنة، دار الملة عبد العزيز، الرياض، 2008، ص 18.

بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور⁽¹⁾، وفي هذا السياق يعكس كاتب الرحلة تلك المهجانة؛ فهو مؤرخ وجغرافي أديب وفقه وسفير وسياسي وكاتب في الديوان... الأمر الذي أتاح لهذه النصوص أن تأخذ أكثر من طابع وأسلوب في شكل رسائل وتقارير وأخبار وخيالات... يختلف متلقوه بين الخاص والعام، كما يختلف شكل التلقي والتأويل لتلك الرؤى المحمولة عبر السرود والأوصاف والتعليقات ضمن بنية النسق المهيمن واتجاهاته⁽²⁾.

من الناحية الاجتماعية تبرز قيمة الرحلات كمصدر لوصف الثقافات الإنسانية، ورصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة، لذا كان للرحلات قيمة علمية إذ أنها أكثر المدارس تثقيفاً للإنسان وإثراء لفكره وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين، إن الرحلة وإن اختلفت دوافع الرحيل، وتباينت وسائل السفر، وتنوعت مادة الرحلة، فإن كتابات الرحالة، أيا كانت توجهاتهم الفردية ونزعاتهم الشخصية، تصور إلى حد كبير بعض ملامح حضارة العصر الذي عاشوا فيه، كما تصف الكثير من عناصر ثقافة البلدان التي ذهبوا إليها، وأحوال الشعوب التي اختلطوا بها⁽³⁾.

أي أن الرحلات رصدت تنوع المعالم الحضارية في مختلف الجوانب الحياتية في البلدان التي قصدها الرحالة، وعكست صورة واضحة عن أحوال الشعوب: مأكلاتهم ومشربهم، ولباسهم، وخصائصهم النفسية والبدنية، والعادات والتقاليد، وصادراتهم ووارداتهم، وفنونهم المعمارية، ولعل ما نقله الرحالة من أخبار ومشاهدات وأوصاف مهد لنشوء علوم تبحث في الدراسات الاجتماعية⁽⁴⁾.

هذا إضافة إلى ذكر الرحالة كثير من الفوائد العلمية والتاريخية والأدبية، وكل ذلك يسوقه الرحالة في أساليب مختلفة؛ أما القيمة العلمية، فقد تأتت لها مما تحتويه معظم هذه الرحلات من كثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، مما يدونه الرحالة تدوين المعايين في غالب الأحيان من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة خلال رحلته، وإذا حددنا هذه العلوم بأنها تسجيل للظواهر المختلفة المتعلقة بميادينها ودراسة هذه الظواهر وتفسيرها، فإن الرحالة يمثل دور الناقل لهذه الظواهر ليضعها بين أيدي الجغرافيين أو المؤرخين أو علماء الاجتماع مثلاً، كل بحسب اختصاصه وهو يقرب من أحدهم بمقدار ما يلجأ إلى دراسة ظواهر اختصاصه وتفسيرها⁽⁵⁾.

(1) حسني محمود حسني، أدب الرحلة عند العرب، ط2، دار الأندلس، بيروت، 1983، ص 06-07.

(2) جميلة روباش، مرجع سابق، ص 246.

(3) حسين محمد فهيم، مرجع سابق، ص 15.

(4) نوال عبد الرحمان الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، 2008، الأردن، ص 04.

(5) حسني محمود حسني، مرجع سابق، ص 06.

وتعتبر الرحلات مصدرا هاما للإنتاج الأدبي بما تتضمنه من نصوص ونماذج أدبية تكاد تكون نادرة، فأصبحت بذلك الرحلة عبارة عن ديوان لكثير من الشعراء الذين لا توجد لديهم دواوين تجمع أشعارهم وتحفظ إنتاجهم، ولولاها لكانت عرضة للاندثار والنسيان، لذلك تضمنت الرحلات نصوصا أدبية كثيرة في الشعر والنثر والنقد لا يستغنى عنها في دراسة الأدب⁽¹⁾، وبما أن الرحلة تعد خطابا مخصوصا له منطقه الذاتي وبنائه ومكوناته وعناصره، فإنها كانت تكتسي جانبا مهما من الطرافة والجمع بين الفائدة والإمتاع، لأنها تسعى أن ترصد ما تراه عجيبا وغريبا⁽²⁾.

وإن كان علم الجغرافيا مثلا يدرس ظاهرات سطح الأرض الطبيعية والبشرية، ويقوم منهجه في ذلك على تسجيل هذه الظاهرات وتفسيرها وتوزيعها على سطح الأرض، فإن الرحالة وهو يدون مشاهدته الجغرافية إنما يعمل في خدمة هذا العلم من هذه الناحية على الأقل، إذا لم يتجاوزها إلى الخطوة التالية لها في منهجه، فهو عندما يصف الممالك والبلدان والأصقاع والأقاليم، والمدن والمسالك، ويتحدث عن المناخ والطبيعة وعن ظاهرة توزيع السكان وغير ذلك مما يعتبر من صميم الدراسات الجغرافية، إنما يعتبر من هذه الناحية مرجعا أساسيا ومعينا كبيرا للعالم الجغرافي الذي يدرس تلك الموضوعات ومثل ذلك يمكن أن يقال في الرحالة بالنسبة لباقي العلوم التي يتعرض لمجال دراستها⁽³⁾.

إضافة إلى أن المؤرخين يعتمدون على كتب الرحلات عند بنائهم لتاريخ المجتمعات، حيث تشكل الإشارات والأوصاف والروايات التي تقدمها مادة الرحلة، جملة من العناصر التي يمكن اعتمادها في بناء الأزمنة والتواريخ، فمادة الرحلات مادة فكرية ترصد تحولات الأفكار في علاقتها بتحولات المجتمع في زمن تبلورها، وخاصة عندما يرتبط زمن صدورها بأزمة الصراع بين المجتمعات، أو تكون قريبة من هذه الأزمنة، فتقدم بصورة مباشرة شهادة لها قيمتها بحكم اقترابها من نمط الصراع الجاري وبحكم موقفها منه، سواء المواقف المعلنة، أو المواقف التي يمكن استشفافها من بياضات الرحلة أو مشاهدتها العابرة⁽⁴⁾، والرحالة حينما يبدأ في تسجيل مشاهداته يكون قريبا منها، كما يكون أكثر اشتياقا للمعايشة أو الاستماع للأخبار ممن لهم إلمام بها، ومن هم على يقين منها، على أن لكل رحالة انطباعاته الذاتية المباشرة التي تصل به أحيانا إلى درجة التفرد أو الانفراد بتسجيل الحادثة أو تدوين الخبر⁽⁵⁾.

(1) حميد آيت حبوش، الرحلة وكتابة تاريخ بلاد المغرب، مجلة الحوار المتوسطي، ع9-10، منشورات مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة الجيلالي ليايس، سيدي بلعباس، الجزائر، سبتمبر 2015، ص 41.

(2) أحمد حدادي، رحلة ابن رشيد السبتي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 2003، ص 37.

(3) حسني محمود حسني، مرجع سابق، ص 07.

(4) كمال عبد اللطيف، «صُور المغرب وأوروبا في الرحلات المغربية»، مجلة فكر ونقد، ع 2.

(5) المرجع نفسه.

والباحث في كتب التاريخ يجد أن العرب من الشعوب التي اهتمت بفن الرحلة، وهو ما يؤكده بروز العديد من الشخصيات الرحلية سواءً من المشرق أو المغرب العربيين، حيث ترك لنا هؤلاء كتابات ذات قيمة علمية وأدبية تتخذ كمصادر موثوقة تعتمد في شتى أنواع العلوم والمعارف، ما جعل الآخر-أي غير العربي-يطمئن إلى هذه الرحلات وما تحمله من مادة علمية وتاريخية، ويمكن الاستشهاد على هذا الكلام هنا بالدراسة الرائدة التي قام بها "كراتشكوفسكي"، والتي خصصها للحديث عن الرحلات العربية وعنوانها بـ: "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"⁽¹⁾.

وبناء على ما سبق فإن الرحلة تكتسي أهمية بالغة في انتقال القيم الحضارية وانتشارها بين الأمم والشعوب منذ أقدم العصور، وانفتاح بعضها على نظم البعض الآخر، وتمازجها الحضاري والثقافي ولذلك دأبت النخب الحاكمة على تشجيع مواطنيها الذين اشتهروا بالترحال في البلدان وكتابة تقارير رحلاتهم، وفي بعض الأحيان تصبح إلزامية واجبة، ولم يقف أدب الرحلة خلال الأزمنة الحديثة عند حد التأثير في المجال السياسي والعسكري، بل تعداه إلى التأثير في المجال المعرفي؛ العلمي والفلسفي والفني، ووسيلة لانتشار القيم الحضارية بين المجتمعات، ووثيقة سوسيولوجية، ومصدرا للمعرفة الذهنية والعقلية وتطورها عبر الزمان والمكان⁽²⁾.

وبذلك شكلت الرحلة جنسا أدبيا يجتمع بين الإفادة والإمتاع، لما يرد فيها من معلومات ووصف للمشاهدات، ومن أسلوب التعبير عنها ونقلها للقارئ الذي لا يطلع على العالم الذي ينقله إليه صاحب الرحلة فحسب، بل يتعرف على أفكار وتصورات ذلك الذي يحدثه عن موضوع رحلته⁽³⁾.

(1) أغناطيوس بوليانوفيتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين هاشم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963.

(2) حسام هاب، مرجع سابق، ص 01.

(3) سعيد بن سعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في الرحلة المغربية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2006، ص 11.

ثانيا: في الصورة

بما أن دراستنا تبحث في الصورة التي أنتجها وعبر عنها الرحالة في نصوصهم، ارتأينا أنه لا بد وأن نمر على مفهوم الصورة وجدواها في الدراسات الرحلية، وعليه نقول: ارتبطت دراسات الصورة (Image Studies)، أو علم الصورة «Imagologie»، أو «الصورولوجيا» كما يتردد في اصطلاح المقارنين، أو الصوراتية في التداولات التطبيقية المقارنة، منذ نشأتها بالدرس الأدبي المقارن في المدرسة الفرنسية وخاصة عند روادها المؤسسين والمنظرين الأوائل ومنهم جان ماري كاريه «Jean Marie Carré (1887-1958) - وتلميذه فرانسوا غويار Marius-François Guyard (1921-2011)»⁽¹⁾.

وكان التوجه لهذه الدراسات وإدراج فرع علمي خاص بها يعود بالأساس إلى توسع العلاقات الإنسانية، وتعرّف أبناء البلدان المختلفة على بعضهم البعض عبر طرق سلمية كالرحلات أو غير سلمية مثل الحروب، وتشكلت رؤية عند شعوب بلد ما تجاه البلدان الأخرى، وانعكست هذه الرؤية في كتابات الشعوب الأخرى وأدبهم، إذ يهتم هذا النوع من الدراسات بدراسة الصور والتصورات، والتمثيلات والتمثيلات الذهنية والثقافية والاجتماعية التي تكونها الشعوب عن بعضها البعض، وتنتجها النصوص سواء أكانت أدبية أو غير أدبية، عن الغير⁽²⁾.

فالصورولوجيا أسلوب لدراسة صورة البلدان الأخرى والشخصيات الأخرى في أدب أديب ما أو عصر ما، ويهتم بصورة الآخر في ثقافة الأنا كما يهتم بصورة الأنا في ثقافة الآخر، وبالتالي نواجه في الصورولوجيا دراسة الصورة بين الثقافات، فالسمة الرئيسية للصورولوجيا هي التطرق إلى اختلاف "الأنا" عن الآخر" أو اختلاف "هنا" عن "هناك"، وبالتالي يمكن القول أن الصورولوجيا يدرس الاختلاف في مكانين اثنين أي واقع "الأنا" الذي يعيش هنا و"الآخر" الذي يعيش "هناك" ببعده المكاني والثقافي.

ورغم أن نشأتها كانت بالدرس الأدبي المقارن، إلا أنه ما لبث هذا النوع من الدراسات يتقاطع مع البحوث التي يقوم بها علماء السلالات البشرية، وعلماء الإنسانيات، وعلماء الاجتماع، ومؤرخو العقلية الذين يطرحون مسائل حول ثقافات أخرى، والغريبة والهوية، والمتأقفة والتنافر الثقافي والاستلاب الثقافي، والرأي العام أو الخيال الاجتماعي⁽³⁾.

(1) مكي سعد الله، «البقاع المقدسة في الرحلة الغربية - رحلة في بلد العجائب - (حجٌ مسيحيٌّ إلى مكّة والمدينة)»، دراسات استشرافية، ع16، السنة الخامسة - خريف 2018م / 1440هـ، ص37-38.

(2) بوشعيب الساوري، صورة الآخر في رحلات عربية من القرن العاشر ميلادي إلى القرن الواحد والعشرين، النايا للدراسات والنشر، ط1، دمشق، 2014، ص06.

(3) دانييل هنري باجو، مرجع سابق، ص91.

إذ يشكل علم الصورولوجيا اهتمام الكثير من الدارسين والأدباء والمفكرين، وهو من ميادين البحث المهمة، لكنه يطرح إشكالات منهجية للباحث، فالصورة لا يتم نقلها فوتوغرافيا، إنما هي في الحقيقة رؤية تجاه الآخر، تختلط بالنزعة الذاتية للكاتب وباتجاهه الفكري، وهي بذلك تمثل لفضاء ثقافي يرتبط بالخيال في إطاره الاجتماعي والثقافي، واستطاع أن يخترق عدة حقول، لما له من القدرة على خلق أشكال التواصل والتحول من الواقعي إلى المتخيل⁽¹⁾.

وتظهر الصورولوجيا كطريقة لقراءة النصوص، وهي ترتبط بالعلوم الأخرى خاصة علم الاجتماع والتاريخ ارتباطا وثيقا، لأن دراسة الصورة المطروحة في النصوص تحتاج إلى إدراك الظروف التاريخية والاجتماعية لفترة كتابة النصوص، فالدراسات الصورولوجية تحتاج إلى معلومات عامة عن الظروف الاجتماعية والسياسية والتاريخية لبيئة كتابة النص لتساعدنا في الإدراك الصحيح والكشف عن خبايا النص⁽²⁾.

ويمكننا أن نعد الصورة جزءا من التاريخ بالمعنى الواقعي والسياسي، فتتعرف على الهوية القومية كما نتعرف من خلال نظرتها على الآخر الذي يقف في مواجهة الأنا، وإلى دور العوامل السياسية والاقتصادية والدينية لهذه المواجهة والعداء.

وعلى الرغم من أن الصورة هي إعادة تقديم وتركيب وبناء لواقع ثقافي واجتماعي ونفسي، يخضع ويتأثر بالأبعاد الثقافية والأيدولوجية والخيالية وبمختلف المرجعيات، ما يفقدها بعض المصادقية والموثوقية إلا أنها تبقى آلية فعالة في كشف الصور الثقافية والنمطية التي أصّلتها المنظومات الفكرية عن بعضها من خلال عمليات التواصل والمثاقفة⁽³⁾.

وتأتي أهمية الصورة من أنها تُعنى بمعرفة الصورة الذهنية التي يشكلها الإنسان عن ذاته وعن الآخرين، لذلك فإن أي صورة للآخر هي انعكاس لـ"أنا"، سواء أكانت تجسد اختلافا (الأنا مقابل الآخر) أم لقاء ("الأنا" يشبه الآخر)، وبذلك تعد الصورة فعلا ثقافيا يقدم تفاعل الأنا مع الآخر أو التعبير عن الذات ونفي الآخر⁽⁴⁾.

ويُجمع الباحثون في حقل الصورة على انقسام الصور على العموم إلى قسمين: صورة مباشرة؛ أي صورة معيشة (Vécues) وصورة متخيلة (Images Imaginées) ولا شك أن هذه الصور قد أثّرت حقول الرحلة العربية إلى أوروبا ومأّت فضاءاتها تستمد معالمها من الرؤية المباشرة وتستقي موادها من المرئي والواقعي، أي أنها بمثابة لوحة عاكسة لمعطيات حسية ومباشرة⁽⁵⁾.

(1) حشلاف لخضر وجميلة روباش، «الآخر في الرحلات المغربية»، مجلة آفاق للعلوم، جامعة الجلفة، ج 1، ع 8، جوان 2017، ص 2-3.

(2) مسعود شكرى وآخرون، «صورة الآخر الإسرائيلي في رواية "المتشائل" لإميل حبيبي»، إضاءات نقدية، السنة السابعة ع 27، جوان 2017، ص 89-90.

(3) مكي سعد الله، مرجع سابق، ص 38.

(4) مسعود شكرى وآخرون، مرجع سابق، ص 89-90.

(5) سليمان القرشي، «صورة المرأة الغربية في الرحلة المغربية إلى أوروبا»، ضمن أعمال ندوة: الرحالة العرب والمسلمين: اكتشاف الآخر-المغرب منطلقا

ومؤثلا، ط 1، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، المغرب، نوفمبر 2003، ص 72.

كذلك ربط الباحثون والنقاد ظهور الصورولوجيا أو علم الصورة بظهور محكيات الرحلة، فكتب الرحلات التي تعد أرضية لإثارة الهوية والغيرية نظرا لكونها جزءا من الخيال الاجتماعي والفضاء الثقافي أو الإيديولوجي⁽¹⁾، فالرحلة من بين النصوص الزاخرة بالصور من حيث تمثيل الأنا للآخر من خلال مرجعيات مسبقة ومشاهدات، فهي من الأنواع الثرية التي حفلت بهذا التنوع لأنها تحتوي على مادة غنية تسهم بشكل كبير في الوصول إلى مدارك الآخر واستقراء مدى القدرة على التواصل بين الذات الباحثة والآخر القابع في مظان الغموض⁽²⁾.

ثالثا: الآخر ومغزى النظر إليه⁽³⁾

بما أن دراستنا تستهدف البحث عن صور وتمثيلات "الآخر" الأوروبي في نصوص الرحلات المغاربية، كان لزاما علينا البحث في معنى "الآخر" خاصة وأنه مصطلح سوف يتكرر معنا كثيرا عبر محطات البحث، وعليه نقول أن البحث عن "الآخر" والكشف عن صورته واستجلاء مضامينها موضوع شائك يفتح الولوج فيه كثيرا من الأسئلة، وعددا من النقاشات، واكتشاف هذا "الآخر"، أو محاولة التعرف على ثقافته وفكره، هي فكرة تمس الإنسان من الداخل.

و"الآخر" في الثقافة العربية في أكثر الحالات يُراد به الأجنبي المضاد للذات، والذي فرضت الظروف السياسية والاجتماعية والجغرافية والحضارية أن يكون هناك اتصال، وتماس، وعلاقات، وحوار بين الطرفين، ولكن هذا التعريف يبدو ضيقا وغير شامل، إذ ينحصر "الآخر" فيه على "الآخر" العدو والمضاد للأنا، والحقيقة أن مفهوم "الآخر" أكثر اتساعا من هذا ويطلق على مركب من السمات الاجتماعية والنفسية والسلوكية والفكرية التي ينسبها فرد ما أو جماعة إلى الآخرين الذين هم خارجها، فبناء على هذا التعريف يمكن اعتبار علاقة شخص ما مع مجموعة الآخرين في مجتمع واحد من ضمن علاقة "الأنا" و"الآخر"، وليس من الضروري أن يكون "الآخر" مضادا وعدوا للأنا، وعلى هذا الأساس ينقسم "الآخر" إلى "الآخر" الذي يقع ضمن ثقافة "الأنا"، و"الآخر" الذي يقع خارج ثقافة "الأنا"، فإذا أردنا أن نلخص مفهوم "الآخر" يمكن القول أن "الآخر" هو الذي يختلف عن "الأنا" تفكيراً أو ثقافة أو جنساً أو ديناً، وقد يتجاوز مفهوم "الآخر" الاختلاف الفكري والثقافي والجنسي، ويصبح "الآخر" عدو "الأنا" ويحاول رفضه والنيل منه، فتتشكل جدلية حادة بينهما.

وتجدر الإشارة أننا حينما نتحدث عن "الأنا" و"الآخر"، لا نحصر مفهومه في الفرد الواحد، بل تشتمل قضية "الأنا" و"الآخر" على المجتمعات أيضاً لأن «مفهوم "الآخر" ليس مفهومًا عن الآخر الفرد فقط، وإنه مفهوم جمعي

(1) بوشعيب السائوري، مرجع سابق، ص 06

(2) حشلافي لخضر وجميلة روباش، مرجع سابق، ص 04.

(3) العنوان مستوحى عن: سعيد بنسعيد العلوي، مرجع سابق، ص 11.

أيضاً، فكما أن الفرد يشكل تصوراتهِ عن "الآخر" بناءً عن تصوراتهِ لذاته، فإن المجتمع كذلك يكون له تصورا عن "الآخر" بناءً على تصورهِ لذاته، أي أن هناك تلازماً أيضاً بين صورة "الذات" وصورة "الآخر" على المستوى الجمعي كما هو على المستوى الفردي. وبالتالي يتوسع مجال علاقة "الأنا" و"الآخر" ويخرج من الإطار الضيق الذي قد يرسمه البعض، وهو علاقة شخص مع شخص عدو أو أجنبي، فبناءً على ما ذكر يمكن اعتبار كل مجتمع هو "آخر" بالنسبة إلى مجتمع آخر، كما يمكن اعتبار كل شخص "آخرًا" مقابل شخص آخر في مجتمع آخر وثقافة أخرى⁽¹⁾.

ويتأثر سلوك الفرد تجاه الآخر بالانطباع الذي يتكون عنه استناداً إلى طريقة الإدراك، وكيفية التعامل مع المكون الثقافي والاجتماعي لهذا "الآخر"، حيث ينبثق من هذا الإدراك والتعامل تفاعل متبادل بين "الأنا" الفردية أو الجماعية و"الآخر"، تتفاوت درجة إيجابية هذا التفاعل وسلبيته بتباين هذا الإدراك.

وبما أن الاعتراف بشرعية الاختلاف بين البشر هو أحد روافد تشريع العلاقة مع "الآخر" على قاعدة التواصل والحوار والتعارف، وانطلاقاً من هذا الأساس نستطيع القول إن في الوجود الإنساني "آخر" دينياً، ومذهبياً، وقومياً، وعرقياً، وجغرافياً، واجتماعياً، وثقافياً وسياسياً، فتتعدد دوائر "الآخر" وتتنوع مستوياتها بتعدد دوائر "الأنا" إلى حضوره على المستويات كافة.

ويختلف تحديد "الآخر" تبعاً لموقع الناظر إليه؛ أي أن الموقع الذي يحدده الإنسان لنفسه الفرد أو الجماعة هو بدوره يحدد "الآخر" القريب أو البعيد، فباختلاف المواقع يختلف "الآخر"، فالآخر بالنسبة للذات الدينية هو ذلك الإنسان الذي ينتمي إلى دين آخر، أما "الآخر" إلى الذات القومية أو العرقية فهو الذي ينتمي إلى قومية أو عرقية أخرى.

وتحمل كل الثقافات والحضارات الإنسانية المختلفة صورة ما له "آخر"، و"الآخر" هو كل ما ترى "الذات" أنه مخالف لها أو مختلف عنها، والحق أن متكلمة الإسلام قد اهتموا إلى لفظ ملائم يفيد جوانب شتى من هذا المعنى إذ تحدثوا عن "الغير"، وحيث كل منهما يحيل بالضرورة إلى أفق ثقافي مختلف، فإننا نفضل استعمال لفظ "الآخر".

الآخر إذن هو ذاك الذي تقضي الذات بمخالفته لها وتحكم باختلافه عنها في نظم الحياة كلها: في العادات، والتقاليد، واللباس والدين... والفاحص متى نظر في الصورة التي رسمها "الذات" لـ"الآخر"؛ فإنه يتبين أن تلك الصورة مزيج غريب وغير متجانس من العواطف والأحكام: قد تكون في الوقت ذاته، تحمل مشاعر الاستهجان والاستغراب من جهة، وتطفح بمشاعر الاستحسان والتقدير والتعظيم من جهة أخرى⁽²⁾.

(1) مسعود شكرى وآخرون، مرجع سابق، ص 91-92.

(2) سعيد بنسعيد العلوي، مرجع سابق، ص 11-12.

بيد أن الصورة التي ترسمها "الذات" "للآخر" لا تقوم عفواً، ولا ترتسم في خلو عن تصميم أو سبق تقدير، إنها عكس ما يبدو أو يتوهم، لا تكون نتيجة المشاهدة والاتصال بل هي ثمرة وعي ومعرفة سابقين، تستدعي توافر مرجعية محددة القواعد واضحة الأركان، تلك المرجعية منظومة متكاملة من القيم الجمالية والدينية والمعرفية: من اجتماعها يمكن أن نطلق عليه نعت "الوعي الثقافي".

يؤول الأمر في رسم صورة "الآخر" وفي تعيين دلالاته ومعناه إلى الثقافة التي يكون إليها انتماء "الأنا" أو "الذات" التي تتحدث عن الغير المخالف⁽¹⁾.

ولما كان هذا الخطاب أساساً هو خطاب حول الاختلاف، فإنّ التساؤل حول الأنا في هذا الجانب ضروري أيضاً، ذلك أنّه لا يقيم علاقة بين حدين متقابلين، وإثماً علاقة بين أنا تتكلم عنه وبين آخر، وهذا الأخير هو جزء من الذات، ونفيّه بتر لها، وهو ضروري لاكتشافها، إذ أن تصوّر الذات لا ينفصل عن تصور "الآخر"⁽²⁾.

وقد شكلت الرحلات البوابة التي انطلقت منها كثير من الرؤى والأحكام والتصورات عن "الآخر"، ففي وعيها الثقافي باتت صور كثير من الرّحالة مؤشراً لارتداد الآفاق، واكتشاف أحوال الأمم والتعرف إلى "الآخر"، الأمر الذي ستكشفه الرحلات المغاربية إلى أوروبا أساس دراستنا، إذ أن الرحلة من أوسع أبواب المعرفة والثقافة الإنسانية لكشف المجهول والوصول إلى الغاية ومعرفة الحقيقة، وإمعان النظر في الآثار والطبيعة والإنسان⁽³⁾.

(1) المرجع نفسه، ص 13.

(2) عبد الوهاب بلغراس، الأمير عبد القادر محطّات متميزة في رؤية الآخر، مجلة إنسانيات، ع 77-78، 2017، ص 11.

(3) بلال سالم الهروط، مرجع سابق، ص 13-14.

القسم الأول: الرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرن 17-19م

- الفصل الأول: الرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرن 17م

- الفصل الثاني: الرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرن 18م

- الفصل الثالث: الرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرن 19م

- الفصل الرابع: الرحلات التونسية إلى أوروبا خلال القرن 19م

- الفصل الخامس: الرحلات الجزائرية إلى أوروبا خلال القرن 19م

الفصل الأول: الرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرن 17م.

- أولاً: أحمد بن قاسم الحجري (أفوقاي) ورحلته إلى أوروبا (1611-1613م).

- ثانياً: محمد بن عبد الوهاب الغساني ورحلته إلى إسبانيا (1690-1691م).

تمهيد

بما أن الرحلة هي إنباء عن ذهنية الرحالة وتصوير لمكونات الوعي الثقافي عند صاحبها أكثر مما هي حديث عن البلد موضع المشاهدة، أو إخبار عن القوم أهل البلد أو الإقليم موضع الزيارة، وبعبارة أخرى فإن ثقافة الرحالة لا يملك أن يطرحها جانبا حين سفره، فهي تظل ملازمة له فاعلة فيه حية وحاضرة، وكل ما يشاهده يعبر عليه من خلالها، وكل ما يتم الإخبار عنه يتم عبر الموازين والمعايير التي تشرعها تلك الثقافة⁽¹⁾، وإدراكا منا لأهمية العامل الإنساني بمعنى شخصية الرحالة، تكوينه، عمله، ثقافته، ولما لا سنه أيضا أثناء الرحلة عناصر ذات قيمة كبيرة بحيث أنها تؤثر بعمق في طريقة النظر إلى الواقع والأحكام، وكذا إعادة إنتاج هذا الواقع، إضافة إلى ذلك فإن الرحالة عند زيارتهم لأوروبا كانوا يحملون معهم عناصر ثقافية، أحكام مسبقة، أفكار، قراءات سابقة كانت حتما توجه طريقة نظرهم وإدراكهم وتحليلهم للأشياء⁽²⁾، لذا وجب جمع كل المعلومات التي تتصل بحياة المترجم لهم من الرحالة، حتى يتمكن من إبراز أهمية الشخصية التي يُترجم لها، ومن فهم الخطاب الذي هو بصدد دراسته⁽³⁾.

كما نعتقد أنه لا سبيل لدراسة الخطاب الذي يحمله نص الرحلة إلا بدراسة دوافعها وأسبابها، فلا تتشكل الصورة في الرحلة بمنأى عن سياقاتها المؤسسية، فمقول الرحالة جزء من مسار سردي وإعلامي تشارك في صوغه وبنائه عناصر متداخلة فيما بينها، فلا يحمد البحث عن الصورة في ظاهر ما يوحى به نص الرحلة، بل من المفيد جدا استحضار الموقف العام الذي صنع الواقعة النصية⁽⁴⁾.

من أجل التأكد من ذلك سوف نقوم بعرض الخصائص المميزة لكل رحلة وعلاقته بعصره، وكذا علاقته بالحدث أي الرحلة، وما من شك في أن هذه العملية سوف تمكننا من الخروج بمعطيات بالغة الأهمية قبل الإقدام على تقديم أوروبا كما شاهدها الرحالة المغاربة على امتداد العصر الحديث وطيلة ثلاثة قرون من الزمن من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر.

(1) عبد القادر دوحه، صورة أوروبا في المصادر التاريخية المغربية وتأثيرها على التفكير المغربي (1203-1317هـ/1789-1900م)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2، 2011-2012، ص 20.

(2) مصطفى الغاشي، الرحلة المغربية والشرق العثماني: محاولة في بناء الصورة، دار الانتشار العربي، بيروت، 2015، ص 151-152، بتصرف.

(3) محمد بن عثمان المكتاسي، البدر السافر لهداية المسافر إلى فكك الأسارى من يد العدو الكافر، تحقيق وتقديم: مليكة الزاهدي، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2013، ص 29. (جزء الدراسة)

(4) الحسن الغشتول، بين النقد والفكر: مباحث نظرية وتطبيقية في مسالك النظر ووظائف التعبير، دار الكلمة للنشر والتوزيع، لبنان، 2014، ص 85.

الفصل الأول: الرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرن 17م

رغم تردد العديد من السفراء والتجار وتواجد العديد من الأسرى المغاربة في أوروبا منذ مطلع العصر الحديث، إلا أننا ننتظر حتى مطلع القرن السابع عشر لنقف عند أولى النصوص الرحلية حول أحد البلدان الأوروبية، وطيلة القرن السابع عشر لا نقف إلا على نصين رحليين اثنين خلال هذه الفترة، النص الأول للحجري مطلع القرن والثاني للغساني في نهايته.

أولاً: أحمد بن قاسم الحجري (أفوقاي) ورحلته إلى أوروبا (1611-1613م)

1- التعريف بصاحب الرحلة

- نشأته

هو أبو العباس⁽¹⁾ أحمد بن القاسم بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي، كما يلقب كذلك بشهاب الدين "أفوقاي"؛ واختلفت المراجع في أصل هذا الاسم فظهر في معلة المغرب "أفوقاي" أنه تحريف عجمي لـ"أبو القاسم" لأن الأندلسيين يكونون من اسمه بأبي القاسم⁽²⁾ فيما يذكر الأستاذ حسام الدين شاشية أنه كني بهذا اللقب "أفوقاي" في أواسط الموريسكيين، وهي تحريف لكلمة "أبوكادو (Abocado) والتي تعني في اللغة الإسبانية "المحامي" وذلك بعد دفاعه عن قضية الموريسكيين في فرنسا⁽³⁾ كما سنرى، واستخدم أيضاً لما عاش في إسبانيا قبل الطرد اسماً مسيحياً على عادة المسلمين في إخفاء أسمائهم بعد حظر استخدام كل ما يمت للعربية والإسلام بصلة من قبل السلطات الإسبانية، فعرف باسم ديفغو بخارنو (Diego Bejarano)، وجمع أيضاً بين الاسمين الإسلامي والمسيحي أحمد بن قاسم ببيخارنو (Ahmed ben Caçim Bejarano)⁽⁴⁾.

تختلف المراجع في سنة ولادته والتي حصرها معظم الباحثين بين سنة 1569م و1571م، لكن من خلال المعطيات التي وردت في كتابه "ناصر الدين على القوم الكافرين" يمكننا أن نحدد وبكل دقة تقريبا سنة ولادة الحجري، فهو يقول أنه دَوّن كتابه هذا حين كان يبلغ من العمر أربع وسبعين سنة قمرية، فإذا علمنا أنه انتهى من تأليفه يوم 20 رجب سنة 1051هـ، فذلك يعني أنه ولد سنة 977هـ، الموافق للنصف الثاني من سنة 1569م⁽⁵⁾.

(1) عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات: مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة المكرمة، 2005، ص197.

(2) مجموعة من المؤلفين، معلة المغرب، تنسيق: محمد حجي ج2، مطابع سلا، 1989، ص566.

(3) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2015، ص15.

(4) Mercedes Garcia-Arenal Rodriquez, Fernando Rodríguez Mediano, **The Orient in Spain: Converted Muslims, the Forged Lead Books of Granada, and the Rise of Orientalism**, Translated by: Consuelo López-Morillas, Brill, Leiden- Boston, 2013.P 139.

(5) أحمد الحجري، مصدر سابق، ص15-16.

وعن مسقط رأسه يذكر الحجري نفسه أنه من "الحجر الأحمر" وذلك لما عرّف القسيس الكبير في إسبانيا بنفسه: «...قلت: اعلم أيها السيد أنني من الحجر الأحمر...»⁽¹⁾، وهي القرية التي لم يتمكن المؤرخون من تحديدها على وجه الدقة؛ فيقول البعض أنه أصيل قرية لا شار (Lachar) التي تقع بالقرب من غرناطة، في حين يرى البعض الآخر أنه أصيل قرية أورناتشوس (Hornachos)، ويعتقد حسام الدين شاشية أن الرأي الأخير هو الأقرب، مع أنه لا يستبعد أن تكون قرية تييرا دي باروس (Tierra de Barros) التابعة لمقاطعة أكستريمادورا (Estrémadura) وغير البعيدة عن أورناتشوس هي مسقط رأس المترجم له⁽²⁾.

وإن كنا لا نملك معلومات كافية عن حياة المترجم له أثناء تواجده بإسبانيا فإننا نعرف بعض الشذرات عن حياته الشخصية بالمغرب بلد إقامته، إذ يذكر الحجري في رسالته للموريسكيين بالقسطنطينية مستعرضا أحواله منذ خرج فارا بيدنه ودينه من إسبانيا إلى المغرب، قائلا: «...وبعد أن كنت درست بعض الوقت، تزوجت من ابنة البرطال، وهم أصيلوا مدينة غرناطة، لدي ولدان⁽³⁾ وبنتان، وفي المغرب عشت دائما في سلام شخصي...»⁽⁴⁾.

- تكوينه وثقافته العلمية

• تكوينه:

أما عن تكوينه العلمي فالمترجم له كان ثنائي التكوين؛ الأول إسباني مسيحي، والثاني عربي إسلامي؛ فنترك الحجري نفسه يتحدث عن ذلك لما سئل عن تعلمه اللغة الإسبانية: «...وإن قال لي كيف تعلمت تقرأ بالأعجمية؟... فأقول اعلم أن أول ما تكلمي به ببلاد الأندلس كان بالعربية، وكانت النصارى دمرهم الله تحكم فيمن وجدوه يقرأ بالعربية فتعلمت القراءة الأعجمية للأخذ والعطاء... فجلست سنين نتعلم الكلام والأعجمية في كتبهم ليحسبوا أنني منهم... وبهذه النية تعلمت وبلغت في كتبهم، ولكل امرئ ما نوى... ببلاد المسلمين فتح لي بذلك العلم المنهي عنه ببيان (أبواب) الملوك المسدودة عن كثير من الناس»⁽⁵⁾.

(1) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء-المغرب، 1987، ص25.

(2) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص16.

(3) نعلم منهم ابن محمد خوجة ناسخ كتاب العز والمنافع في المدفعية غانم زكريا الأندلسي (إبراهيم الرياش بن أحمد)، العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، تعريب: أحمد بن قاسم الحجري، مخطوط رقم 1511، المكتبة الوطنية الجزائرية، ورقة 123.

(4) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص16.

(5) غانم زكريا الأندلسي (إبراهيم الرياش بن أحمد)، مصدر سابق، ورقة 122.

إذ يبدو أن قول الحجري هذا جاء ردا على من انتقدوه من العرب والمسلمين في تعلم اللغة العجمية (الإسبانية)؛ "لغة الآخر الكافر العدو"، لذا نراه يتلطف في القول لمخاطبه مبينا أن تعلمه إياها كان بدافع التقية؛ فهي كانت لغة معاملة في مجتمع إسباني ينتظر أي زلة من أي موريسكي متعلم للعربية ليفتك به ولتلتهمه المحارق، كما برر تعلمه الإسبانية أنه بتعلمه إياها فتحت له بابا لتعلم الكتب الدينية المسيحية واليهودية وفهمها ما سهل الرد على أصحابها والدفاع عن الإسلام والجهاد في سبيل الله بـ"اللسان"، وبالإضافة إلى اللغة الإسبانية فإن الحجري كان عارفا بلغات أوروبية أخرى سواء كانت فرنسية وحتى برتغالية⁽¹⁾.

أما عن تعلمه اللغة العربية لما كان في إسبانيا فيذكر: «جلست خمس سنين في تعليم القراءة العجمية، ولما أن بلغت عشر سنين جاء إلى دارنا رجل صالح كان ابن عم أبي وكان يعرف يقرأ العربية، ورغبته أن يكتب لي حروف الهجاء، وكتبهم لي، وعرفت الحروف بسرعة، وكان والدي يخافان علي أن يعرف مني بأن كنت أقرأ بالعربية بسبب الأحكام القوية التي كانت تحكم النصارى على من يعرفوا أنه مشغول بكتب المسلمين»⁽²⁾.

ورغم الانتقادات التي وجهت للحجري كثيرا خاصة في الشق المتعلق بدرجة تكوينه في اللغة العربية التي كانت لا تنافس معاصريه من فقهاء ومشايخ في المغرب والبلاد الإسلامية، إلا أن تحصيله اللغة العربية بنقائصها يعد إنجازا مبهرا في ظل الظروف التي كانت تعاني منها الطائفة الموريسكية في إسبانيا القرن 16م، حيث منع تعلم العربية وتدارس كل ما يمت لها بصلة، ولنعلم أهمية أن تكون عارفا بالعربية قراءة وكتابة-حتى لا نقول تفقها في نحوها وصرفها وكل علومها- نقف عند استغراب المغاربة الذين التقاهم الحجري في المغرب حين هجرته إليها وتعجبهم من موريسكي يتكلم العربية، يقول الحجري لما وقف أمام السلطان أحمد المنصور: «...وأذن لنا في الدخول إلى حضرته في يوم الديوان، ولما ابتدأت في الكلام...بصوت شهير سكت جميع من حضر كأنها خطبة، ففرح السلطان وقال: كيف يكون في بلاد النصارى من الأندلس من يقول بالعربية مثل هذا الكلام لأنه كلام الفقهاء...»⁽³⁾، ورغم ذلك فالحجري ورغم اعترافه بعدم تمكنه من علوم اللغة العربية كما بيّن هو نفسه بذلك في رسالته للمستشرق الهولندي توماس إيرينيوس (Thomas Erpenius)⁽⁴⁾، فإنه (الحجري) كان مدركا أن زاده في العربية قليل لهذا انهماك يتعلمها في المغرب ويتدارسها⁽⁵⁾.

(1) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 113.

(2) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق ص 136.

(3) المصدر نفسه، ص 78.

(4) المصدر نفسه، ص 155.

(5) سنتعرف عليه وعلى علاقته بالحجري في الفصل الخاص بواقع الاستشراق الأوروبي خلال القرن السابع عشر.

ولو أدركنا حجم معاناة أن يعيش الإنسان حاملا لدينين ولغتين وحضارتين بل ومتلقبا باسمين؛ عربي مسلم وإسباني مسيحي، لعجبنا مثل ما عجب المغاربة من أن يتقن موريكسي اللغة العربية ويحفظ القرآن وهو بين ظهراني الإسبان ومحاكم التفتيش، رغم أن الحجري نفسه يرجع ذلك التوفيق الذي حالفه-ومثله قليل من الموريسكيين في حفظ العربية وقواعد الإسلام- إلى قوة وإرادة أقوى هي إرادة الله التي سهلت له أن يحفظ في يوم ما لا يحفظه غيره في مدة أطول بكثير: «وهل يخفى على أحد أن قراءتي في أقل من يوم كان وهبا وتوفيقا من الله سبحانه وتعالى!» وهو الأمر الذي أثار استغراب والده ومعلمه⁽¹⁾.

• آثار الحجري العلمية

تعد أعمال الحجري التي وصلت إلينا المصدر الأول لسيرته الحافلة بالعلم والعمل، وهي تقدم كذلك شهادة عيان لواحد من الموريسكيين الذين عاشوا في إسبانيا تحت قهر محاكم التفتيش وملاحقاتها، التي فرضتها عليهم الظروف السياسية الجديدة هناك بعد سقوط غرناطة، وقد ترك لنا بحكم تكوينه المزدوج وتمكنه من عديد اللغات آثارا نصوعة نذكر منها:

- الحجري المترجم

بالإضافة إلى تأليفه كتاب "رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب" واختصاره إياها في كتاب "ناصر الدين على القوم الكافرين" عمل الحجري على ترجمة عديد من الكتب من اللغة العربية إلى الإسبانية لما كان مترجما لأساقفة غرناطة في إسبانيا قبل الطرد، أو مترجما من الإسبانية إلى العربية بعد هجرته إلى المغرب حيث عمل كمترجم في ديوان الملوك السعديين: «...أني بمدينة مراكش كنت ترجمان مولاي زيدان ابن السلطان أحمد...وكتب سره باللسان العجمي، وكذلك كنت ترجمت للسلطين أولاده...» فهو يصف نفسه بترجمان سلاطين مراكش⁽²⁾، وقد ساعده في ذلك معرفته وإلمامه بعدد اللغات العربية والأوروبية مثل الإسبانية والبرتغالية وبعضها من الفرنسية.

ففي إسبانيا ذكر أنه ترجم كتابا للقسيس في غرناطة من العربية إلى الإسبانية، لعل أشهر كتب الرصاص التي وجدت عام 1588م، وفي المغرب يشير أنه عرّب بمعية أحد الرهبان الأسرى كتاب باللغة اللاتينية حول جغرافية العالم والنجوم لمولاي زيدان السعدي.

كذلك قام بتعريب "الرسالة الزكوطية"؛ وهي رسالة في الفلك والتنجيم، ألفها اليهودي الأندلسي إبراهيم بن السمؤال بن زكوة السلمنقي (توفي بعد عام 1510م)، وقد تُرجمت رسالته من العبرية إلى اللاتينية في إسبانيا نفسها،

(1) المصدر نفسه ص 136-137.

(2) غانم زكريا الأندلسي (إبراهيم الرياش بن أحمد)، مصدر سابق، ورقة 118.

ثم عزّها الحجري بمساعدة راهب أسير عند الملك زيدان بمراكش توجد منها نسخة بالخزانة الحسنية بالرباط⁽¹⁾. وتعد ترجمته لكتاب "العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع"⁽²⁾ (انتهى من ترجمته بتاريخ 16 ذي القعدة 1050هـ/03 سبتمبر 1640م بتونس)⁽³⁾ وهو كتاب عن الأسلحة من أشهر الكتب التي ترجمها، خاصة وأنه ختمها بمعلومات عن حياته وتعريفًا بشخصه، كما يبين لنا الحجري فيها أسلوبه في الترجمة وحرصه الشديد على أن ينقل الترجمة بكل أمانة جاهدًا كل الجهد أن يصل إلى أقرب معنى للمترجم له: «وبعد أن اشتغلت بعض الأيام بترجمة الكتاب توقفت من أجل أسماء المدافع وما يتعلق بها لأنها لم تعرف لها أسماء عربية، حتى طرحتُ القلم وأردت أن أتركه... وكنت إذا أشكل علي شيء من الكتاب نسأل الرئيس مؤلفه ويُبين لي في الحين بيانا شافيا كل ما نسأله عليه، وعلمت أن كلما ذكر وكتب هو عنده بالقول والفعل، ومن الكمال للمترجم الذي يُترجم من لغة إلى أخرى أن يعرف ما يترجمه ومعناه إن أمكنه»⁽⁴⁾، ويضيف: «...أبدلتُ جسدي وأنصحتُ قدر ما استطعت في هذه الترجمة، فإن جاء بيد من هو أبلغ مني في هذا الفن ووجد منا التقصير في بعض الأشياء وتحقق منها فليمحها بالقلم ولا باللسان»⁽⁵⁾، ولا شك أن هذا المنهج في الترجمة نابع من خبرته وباعه الطويل في هذا الفن، ويبدو تأثير الأسلوب الأوروبي في النقل والترجمة واضحا، ولا عجب في ذلك فالرجل احتك بأكبر مستشاري أوروبا وأخذ منهم وأعطى.

- رسائل الحجري

مثّل اتصال الحجري مع عديد المستشرقين الأوروبيين الذين التقاهم في أوروبا أثناء رحلته فيها أو تواصله معهم بعدها إحدى صور التواصل العلمي والثقافي بين العالمين الإسلامي والأوروبي (سنتطرق إليه بتفصيل في حينه)، وتعد رسائله التي حفظها لنا الزمان المعبر الأكبر عن هذا التواصل، فقد وصلتنا من اتصالاته بالمستشرقين في أوروبا رسائله المتبادلة معهم كتبها الحجري بخط يده وكانت باللغة العربية، وحتى رسائلهم التي وصلت إليه (كما سنفصل في الفصول اللاحقة)، وعدد هذه الرسائل أربعة، هذا وبالإضافة إلى ذلك قام في إطار اتصالاته بالمستشرقين الأوروبيين بنسخ العديد من الكتب العربية وإرسالهم إليها مثل "كتاب المستعيني" في الطب "لابن بكلاش"، وترجمته لكتاب "معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم" للقاضي عياض اليحصبي (476هـ-544هـ/1083م-1149م)⁽⁶⁾.

(1) لطف الله قاري، «ثقافة الموريسكيين العلمية من خلال كتاب الحجري»، مجلة الفيصل، ع 296، دار الفيصل الثقافية، أبريل 2001، ص 106.
(2) ويشير الحجري أنه هو من اختار هذا العنوان للكتاب بعد إذن المؤلف، أنظر: غانم زكريا الأندلسي (إبراهيم الرياش بن أحمد) مصدر سابق، ورقة 120.
(3) المصدر نفسه، ورقة 123.
(4) المصدر نفسه، ورقة 120.
(5) المصدر نفسه، ورقة 122.
(6) أحمد الحجري (أفواي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 152.

كما حفظت لنا المصادر رسالة باللغة الإسبانية مؤرخة بتاريخ 01 ربيع الأول 1021هـ الموافق لـ 02 ماي 1612م وجهها أفوقاي لما كان في فرنسا إلى الجالية الموريسكية بالقسطنطينية، حيث تعتبر هذه الرسالة من أهم الوثائق الموريسكية وأندرها⁽¹⁾، وهي رسالة طويلة يذكر فيها المؤلف أخباره ومشاهداته منذ خروجه من إسبانيا، وفيها يحكي لهم الفواقع التي ألت بالموريسكيين.

وتظهر هذه الإسهامات الثقافية والدبلوماسية الدور الذي لعبه الحجري كوسيط بين الثقافتين الأوروبية والعربية الإسلامية، كما أنها تكشف عن دوره المحوري في القضية الموريسكية بعد الطرد ومكانته في المجتمع الموريسكي رافعا راية الدفاع عن قضيته وقضيتهم، إن هذا الاحتكاك الدبلوماسي والعلمي للحجري سيجعله أكثر فهما للواقع الأوروبي والعلاقات الأوروبية الإسلامية، ما يجعل الصورة التي ينقلها أكثر دقة وقربا، كما أن تكوينه الثقافي والديني المزدوج سوف يجعله أكثر فهما للواقع الأوروبي ثقافيا واجتماعيا ودينيا، الأمر الذي يزيد من أهمية الصور والتمثيلات التي دونها الحجري في نص رحلته.

قام الحجري بثلاث رحلات مختلفة الوجهات والدوافع؛ الأولى هي رحلته من إسبانيا إلى المغرب فرارا بدينه وبدنه، وهي رحلة ملحمية شبهها هو نفسه أنها انتقال من جهنم إلى الجنة، ورحلته الثانية كانت من المغرب إلى أوروبا تحديدا إلى فرنسا موكلا للدفاع عن قضية الموريسكيين هناك، ورحلة ثالثة رحلة حجازية انتقل فيها من المغرب إلى الحجاز قاصدا الحج⁽²⁾، وبعد أن أتم حجه ثم استقر به المقام قليلا في مصر في طريق عودته من الحج سنة 1045هـ/1636م، وكان في مقامه ذاك قد قصّ أخباره ومناظراته في أوروبا على المصريين، فطلب إليه شيخ المالكية بمصر أن يدون تلك الحكايات في كتاب، فأجابه، بأكثر مما طلب، فكان كتاب رحلته الذي سماه "رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب" والتي اختصرها في كتابه "ناصر الدين على القوم الكافرين".

ويبدو من تواريخ المؤلف أنه استقر بعد رحلته للحج ثم مكوثه بمصر فترة من الزمن التقى فيها علماءها أنه استقر بعد ذلك في تونس وبها توفي سنة 1051هـ/1641م⁽³⁾.

(1) أنظر ترجمة الرسالة ضمن ملاحق كتاب أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، المصدر نفسه، ص 151-164.

(2) صحيح أن الحجري كان توجهه من المغرب إلى الحجاز بنية الحج، إلا أن هناك من يرى أن الدافع الأساسي إضافة إلى الحج هو فراره من الاضطرابات التي كانت بالمغرب، خاصة بعد تدهور وضعية الموريسكيين هناك.

(3) لطف الله قاري، مرجع سابق، ص 105-106.

2- رحلة الحجري إلى أوروبا:

- سياقات الرحلة:

تأتي رحلة الحجري إلى أوروبا في ظل فترة تاريخية عصيبة كان يمر بها أهله من الموريسكيين الذين كانوا يعانون من تبعات قرار الطرد النهائي في حقهم الذي أصدرته السلطات الإسبانية سنة 1609م، في حين جاءت الرحلة والمغرب بلد إقامته يعيش انقساماً سياسياً وحروباً حول السلطة بين أبناء المنصور الذهبي⁽¹⁾ عبر عنها الحجري بحزن وأسى قائلاً: «...لكن أشبع الحزن قلبي وأنا أرى الحرب والفرقة التي حصلت بعد موت مولاي أحمد المنصور الذهبي(1578-1603م)...ترك ثلاثة أبناء دمروا المملكة تماماً، دارت بينهم ست عشرة معركة في غضون سبعة أعوام مات خلالها أكثر من ستين ألف رجل، وكانت الحروب متعددة، مما جعل الناس غير قادرين على الاشتغال في حقوله، فكانت النتيجة مجاعة دامت سنوات عديدة مات فيها من الجوع عدد كبير من الناس...»⁽²⁾

وفي الفترة ذاتها ما زالت الدولة العثمانية بارزة كأحد محاور القوى الإسلامية والدولية في أشد قوتها واتساعها، بينما كانت تعيش أوروبا كثيراً من الصراعات العسكرية والسياسية والدينية، رغم ما يبدو في الأفق من نهضة خاصة في قسمها، الشمالي، وبالتالي فرحلة الحجري قد أتت في مرحلة كانت كفة القوة متأرجحة نوعاً ما للعالم الإسلامي على حساب العالم الأوروبي على الأقل عسكرياً ومجالياً، ولا شك أن كل هاته السياقات سوف تؤثر في بناء الصورة.

- دوافع الرحلة إلى أوروبا:

لا يوجد مصدر من المصادر يمكن أن يبين لنا دوافع رحلة الحجري إلى أوروبا أكثر من الحجري نفسه، وعليه ذكر في ديباجة كتابه "ناصر الدين على القوم الكافرين" الذي هو مختصر لرحلته "رحلة الشهاب إلى لقاء الأحاب" أنه بعد الطرد النهائي للمسلمين بالأندلس على عهد الملك الإسباني فيليب الثالث (1598-1621م) سنة 1609م، وبعد خروجهم إلى البحر تم سرقته من طرف قراصنة فرنسيين، لذا لجأ هؤلاء الأندلسيين إلى المغرب الأقصى

(1) السلطان المنصور الذهبي: هو أحمد بن محمد السعدي، ينتمون إلى الأشراف من نسل محمد النفس الزكية، وهو رابع السلاطين السعديين في المغرب الأقصى وأقواهم، ولد بفاس سنة (955هـ/1549م)، قبل توليه الحكم خاض معركة وادي المخازن مع أخيه عبد الملك ضد الملك البرتغالي وقواته التي هزمت في المعركة وقتل الإمبراطور فيها، وكذلك استشهد شقيقه عبد الملك، ليتولى الحكم من بعده، واشتهر بحسن الإدارة، والدعاء في السياسة، أرسل قواته إلى السودان الغربي واستولى عليها وجلب منها الذهب، فسمي لذلك الذهبي، قدم دعماً كبيراً لأهل الأندلس، كما عرف بعلمه، توفي في المدينة البيضاء، ودفن في مراكش سنة (1011هـ/1603م). أنظر: محمد يحي مطهر المضواحي، الأندلسيون عقب سقوط غرناطة، دار كتوبيا للنشر والتوزيع، مصر، 2019، ص222.

(2) أحمد الحجري (أفواي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 155-156.

والسلطان حينئذ زيدان السعدي⁽¹⁾، يقول الحجري في ذلك: «...واتفق لكثير من مسلمي الأندلس عند خروجهم بأن نهبهم في البحر النصاري؛ وأكثرهم الفرنج البحرية الذين اكتروهم ودفعوا لهم أجرتهم على أن يبلغونهم في عافية وأمان إلى بلاد المسلمين...وبعد أخذ كل ما كان لهم أخرجوهم في بعض الجزر من بلاد المسلمين...وطلبوا من مولاي السلطان زيدان...بأن يأذن لهم في إرسال بعضا من أصحابهم مع رجل من الأندلس الذين كانوا قبلهم بتلك المدينة (مراكش)، واتفق نظرهم أن أمشي (الحجري) بأصحابهم وأعطانا السلطان كتابه وذهبنا إلى آسف وهي مدينة على البحر، فيها ركبا البحر المحيط وبلغنا بلاد الفرنج»⁽²⁾.

وبالتالي كان السبب المباشر لقيام الحجري بهذه الرحلة إلى فرنسا هو تنفيذ للمهمة التي كلفه بها السلطان زيدان المغربي للمرافعة عن الموريسكيين الذين نهبهم رابنة السفن الفرنسية، تدفعه أهمية هذه القضية (قضية الموريسكيين) بالنسبة له شخصيا كفرد من هذه الطائفة التي تعرضت للنكبة، لكن ما سبب توجهه بعدها إلى هولندا؟!.

يجيب الحجري أن سبب توجهه إلى هولندا أو البلاد الجوفية كما يسميها، أنه توجه إليها بسبب خوفه من العودة إلى المغرب عبر فرنسا وفي السفن الفرنسية، إذ أن ما فعله القراصنة الفرنسيين بأهله الموريسكيين جعله يفضل العودة إلى بلده عبر هولندا التي كانت تربطها علاقات دبلوماسية ودية مع البلاد الإسلامية ومع المغرب خصوصا، وفي ذلك يقول صاحب الرحلة: «...ولما رأيت وتحققت من عمل الفرنج البحرية مع المسلمين قلت بل نمشي إلى فلنضس (هولندا) لأنهم لا يضرون المسلمين بل يحسنون إليهم...»⁽³⁾.

- مهمته في باريس

ويعطي الحجري في رسالته إلى الجالية الموريسكية في القسطنطينية سنة 1612م، تفصيلا أكثر عن حادثة نهب القراصنة الفرنسيين لسفن الموريسكيين قائلا: «بالنسبة للذين قدموا إلى مراكش فقد جاؤوا في أربعة قوارب، وهم من قرطبة وأورناتشوس واستجة وسانت لوغار، وكان الفرنسيون الذين حملوهم قاموا بسرقتهم، وتركوهم بأحد الجزر الغير مأهولة، على بعد مرحلة واحدة من بربريا، وبقوا هناك سبعة أيام، فمات منهم نحو أربعين شخصا من الجوع والعطش، وسُرق من الثلاث سفن نحو ثلاثون ألف دوكدوس، ومن سفينة الأورناتشين ثلاثون ألف أخرى، أما بالنسبة لجماعة إستيجة فقد كانوا في الجزيرة، وكان الآخرون بقرهم على البر الرئيسي، وفي الأخير أنقذتهم سفينة أنقليزية...»⁽⁴⁾.

(1) زيدان ابن أحمد المنصور الذهبي: (ت 1037هـ/1627م)، أبو المعالي ابن السلطان أحمد المنصور بن محمد الشيخ، من ملوك دولة الأشراف السعديين بالمغرب، كان أيام أبيه مقيما بتادلة، أميرا عليها، وبويع له بفاس بعد وفاة أبيه سنة (1012هـ/1603م) بعهد منه، وانتفض عليه أخواه أبو فارس ومحمد المأمون وكانت بينهم حروب طويلة حول الملك والسلطة، كان عالما بالفقه عارفا بالأدب وله تصنيف في تفسير القرآن، أنظر: خير الدين الزركلي، ص 62.

(2) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 46.

(3) المصدر نفسه، ص 117.

(4) المصدر نفسه، ص 157-158.

كما يقدم لنا في ذات الرسالة الصعوبات التي واجهها في مهمته في باريس وهو يسعى جهده في سبيل إعادة ما أمكن من أملاك الموريسكيين المنهوبة، ويظهر ذلك في قوله: «مضت سنة ونحن هنا (في باريس) ولم نستطع استرجاع أي شيء، قالوا أن أسعى بالطرق الروتينية، لكنني لم أرد فعل ذلك... وفي هذا الوقت قررت أن أعود أدراجي إلى باريس، وعدت لأطلب من الملك أن يعطيني تفويضا إلى قاضي يهتم بشؤني...»، وتزداد هذه الصعوبات مع تزايد طلبات التوكيل الكثيرة التي كانت تصله وهو في باريس من قبل الموريسكيين الذين تم سرقته في البحر⁽¹⁾، وهو العرض الذي يؤكد أن الجهود التي كان يقوم بها الحجري هي جهود شخصية بالدرجة الأولى، ولم يستطع العودة إلى السلطات المغربية لتدعيم موقفه في البلاط الفرنسي، ولا نستغرب ذلك في ظل الظروف التي كان يعيشها المغرب من حروب داخلية وفتن طويلة.

ورغم عدم رغبة الحجري في تنفيذ مهمته بالاعتماد على مجهوداته وعلاقاته الشخصية فقط؛ وتحبيذه العمل وفق الأطر الرسمية نظرا لرغبته في تدويل القضية الموريسكية، إلا أن الصعوبات التي وجدها في باريس أرغمته على العمل بالمنهجية الأولى، فراح يكشف اتصالاته مع الموريسكيين في الشتات لتقديم معلومات أكثر عن السفن المنهوبة لتقديمها كأدلة لدى القضاة في فرنسا، وبالإضافة إلى ذلك عمل على ربط شبكة من العلاقات الشخصية مع عديد الشخصيات الفرنسية من سياسيين ودبلوماسيين لمساعدته على انتزاع تفويض من الملك الفرنسي لتوكيله شخصيا (أي الحجري) للدفاع عن الأندلسيين، وفي ذلك يقول: «وفي الأخير طلبتُ من الملك أن يعطيني مرسوما، وبمساعدة كبيرة من ثلاثة أشخاص تحصلت عليه: الأول هو السيد دي ليلو الذي كان طبيا للملك في المغرب لسنوات عديدة، الآخر هو سكرتير الملك ويسمى السيد مانخا، وهو رجل رائع وزار جميع أنحاء إسبانيا، ثم السيد هوبارت طبيب الملك وأستاذ العربية زار كذلك المغرب بأمر من ملك فرنسا...»، والذي يربط هذه الشخصيات الثلاثة أنها جميعا كانت لهم علاقة مع المغرب أو مع الموريسكيين فهم على اطلاع جيد بمعاونة الموريسكيين في إسبانيا، أو أنهم عرضوا خدماتهم على الحجري مقابل مساعدتهم في تعلم العربية وترجمة بعض الأعمال والبحوث وقراءتها، مثل حالة المستشرق الفرنسي والطبيب أوبرت (ستعرض له بالتفصيل في الجزء الخاص بالاستشراق الأوروبي)⁽²⁾.

وأخيرا يحصل الحجري عن تفويض ملكي وعين له المجلس الأعلى في فرنسا وسيطا: «يقول في المرسوم أنها إرادة وأوامره (أي المجلس الأعلى الفرنسي) بأن تُسلم لي جميع أغراض الموريسكيين».

(1) المصدر نفسه، ص 158-159.

(2) المصدر نفسه، ص 159.

وبالرغم من المجهودات الكبيرة التي بذلها الحجري للدفاع عن قضية أهله وطائفته من الموريسكيين والتي اعتبرها قضيته، إلا أنه يشير أن الفرنسيين لم يسهلوا مهمته إلا بعد أن وصلتهم رسائل ورسلا الدولة العثمانية، يقول في ذلك بناء على ما جاء في بيان الملك: «وفي رسائل الملك يقول ويأمر بأن كل ما يعمل هو على شرف السيد الكبير (يقصد السلطان العثماني أحمد الأول 1603-1617م) الذي كاتبه حول قضية الموريسكيين وأرسل إليه الأغاوات»⁽¹⁾، وأثنى صاحب الرحلة عن الدور الأساسي الذي قدمه العثمانيين في المساعدة على حل قضية الأندلسيين في قوله: «ولما صح عند سلطان إسطنبول (يعني إسطنبول) بخروج الأندلس الذين يسموهم ببلاد الترك بمدجلين (أي مدجنين) كتب كتبه السني إلى سلطان فرنجة بالوصية عليهم، ونفع ذلك الكتاب للأندلس نفعاً عظيماً...»⁽²⁾.

وبهذه المجهودات مجتمعة كانت نتيجة الحكم في قضية الموريسكيين كما يبين الحجري: «... وذلك أن ديوانهم (فرنسا) وجهوا قاضياً إليهم، ليقتض بينهم، يأخذ خمس المال للأغنياء من الأندلس الواردين على بلاد الفرنج ويقيم بذلك فقراءهم»⁽³⁾، أما ما تم استرداده في مدينة بوردو التي نهب قراصنتها مسلمي الحجر الأحمر: «أما الخوائج التي كانت مطروحة ببرضيوش (مدينة بوردو Bordeaux) التي نهبها الرايس لأهل الحجر الأحمر، فاتصلنا به بعد أن جاز علينا نحو العام ونصف، بنحو ألف أوقية فضة في الحساب المغربي، والثلاثين ذهب في ورق الخصام مع القضاة والكتاب وغير ذلك، والحمد لله أن كل من وكلني من الأندلس وصل له شيء من الدراهم...»⁽⁴⁾.

3- كتابة نص رحلته

نشير أولاً أن الحجري لم يكتب نص رحلته فور عودته إلى المغرب من أوروبا سنة 1613م، وذلك رغم إصرار كثير ممن التقاهم في المغرب والذين سرد عليهم الحجري بعضاً من أغوار رحلته شفهيًا؛ ألح عليه هؤلاء بتدوين مشاهداته ومناظراته في فرنسا وهولندا: «وذكرت بعد ذلك شيئاً من الحكايات والمناظرات والأجوبة منه إلى بعض الإخوان، وطلب مني غير واحد أن أعمل تأليفاً بذلك، ولم يتفق العمل...»، حيث أمضى الحجري في المغرب سنواته منهمكاً في عمله مترجماً وكتاباً في ديوان السلطان المغربي، وامتد به الزمن ليكتبها بعد أكثر من ثلاثين سنة من قيامه برحلته إلى أوروبا تنفيذاً لطلب شيخ المالكية في مصر الذي التقاه في أوبته من الحجاز في رحلته الحجية، وذكر:

(1) المصدر نفسه، ص 49-47.

(2) المصدر نفسه، ص 84.

(3) المصدر نفسه، ص 159.

(4) المصدر نفسه، ص 114.

«...إلى أن أمرني شيخنا وبركتنا بمصر المحروسة الشيخ العلامة الشهير... علي بن محمد المدعو زين العابدين بن عبد الرحمان الأجهوري المالكي⁽¹⁾، فأجبتهم بأكثر مما طلبوا، وجعلت التأليف رحلة، وسميتها برحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب...»⁽²⁾، ولكن هذه الرحلة ضاعت فيما ضاع من تراثنا.

إذن فكتاب "ناصر الدين على القوم الكافرين" هو مختصر فقط لنص رحلة أكبر كتبها الحجري بعد زيارته إلى فرنسا وهولندا، وكتاب "رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب" هو الأصل الذي ذكر مؤلفه أنه اختصره بناء على رغبة الشيخ علي الأجهوري المالكي بعد أن تعذر على الحجري كتابة نسخة أخرى من "رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب"، يقول: «... وكنت أقرأ الرحلة على الشيخ الفاضل الذي أمرني بمصر أن أعمل الكتاب، ورآني عازما على الرجوع إلى بلاد المغرب.... والوقت ضيق لأكتب له منها نسخة كما كان في غرضي، أمرني أن أختصر منها، ونذكر ما وقع لي من الكلام في الدين مع النصارى...»

وقد ضمّن الكتاب عددا من أبواب رحلته "الضائعة" على وجه الاختصار مقتصرًا على ذكر المناظرات التي جرت له في البلاد الأوروبية، ومع اليهود هناك وفي غيرها من البلاد⁽³⁾، وعكس أصل الرحلة الكبيرة المفقودة، فقد حفظ لنا الزمان في مختصرها "ناصر الدين على القوم الكافرين"، ووصل إلينا منه نسختان: النسخة المصرية، وهي النسخة الأولى للكتاب أتمها المؤلف في مصر في سنة 1047هـ/1637م، والنسخة التونسية أتمها بتونس في 1051هـ/1641م، وزاد عليها زيادات رآها نافعة، وهناك في باريس قطعة من مختصر الرحلة كتبت بعد سنة 1655م⁽⁴⁾.

(1) علي بن زين العابدين مُحَمَّد بن أبي مُحَمَّد زين الدِّين عَبْد الرَّحْمَن بن علي أَبُو الإِرشاد نُور الدِّين الأُجْهُورِيّ (ت 1066 هـ)، يُنسب إلى قرية أجهور بريف مصر، المالكي، شيخ المالكية في عصره، كان محدثًا فقيها بارعا في علوم العربية بلاغة ومنطقا، كان له شهرة كبيرة في زمانه فقصدته كل طالب علم وكانت ترحل إليه الناس من الآفاق، له تأليف كثيرة منها شروحه الثلاثة على مختصر خليل في فقه المالكية في اثني عشر مجلدا، فضلا عن كون الشَّيْخ نُور الدِّين الأُجْهُورِيّ فقيها مالكيًا بارعا معروفا، فهو أيضا من علماء الحديث رواية ودراية، إذ هو من المعدودين في عصره من كبار المسندين، كما أنه شرح "ألفية العراقي" في علوم الحديث، وله حاشية على "نزهة النظر" لابن حجر العسقلاني، وله شرح وجيز على "مختصر البخاري"؛ لابن أبي حمزة، وكذلك مصنفات في المنطق وغيرها من العلوم. للمزيد أنظر: محمد أمين الحنفي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، تح: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006، ص151-154.

(2) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص49-47.

(3) المصدر نفسه، ص49-47.

(4) المصدر نفسه، ص49-47.

- محتوى نص رحلته:

لا تسعفنا المصادر القليلة التي نقلت من "رحلة الشهاب" بمعلومات حول كتاب الرحلة سوى نسبتها إلى أحمد بن قاسم الحجري، مكتفين بالاستشهاد والاقتباس منها في التعريف ببعض الأعلام أو الحوادث في ذكر سريع لا يتجاوز بضع الأسطر⁽¹⁾، في حين أمدنا المؤلف نفسه بمعلومات عن كتاب الرحلة في ديباجة كتابه "ناصر الدين على القوم الكافرين"، ويبيّن عن ثنياه بعض الأحيان، فمن الديباجة عرفنا أن سبب وضعه هو السفارة التي كلف بها للذهاب إلى فرنسا وهولندا، وقد جرى له في أثنائها عدد من اللقاءات والمناظرات الدينية مع اليهود والنصارى. ويبدو أن أصل الرحلة المفقود كان كبير الحجم كثير التفاصيل، وقد قرأه الحجري مرتين على الشيخ الأجهوري؛ مرة في صيغته الكاملة، ومرة في صيغته المختصرة، عندما طلب منه اختصار الرحلة في نبذة يذكر فيها ما وقع له من الكلام في الدين مع النصارى، ولكن الوقت لم يسعف الحجري كي ينسخ له نسخة أخرى من كتابه.

وقد بيّن الحجري أن أبواب "رحلة الشهاب إلى لقاء الأحاب" كانت على النحو التالي:

- 1- في ذكر بلاد الأندلس وموقعها من معمر الدنيا والأقطار المجاورة لها.
- 2- من سكن الأندلس من الأجناس قبل دخول المسلمين إليها وفي أي سنة كان استفتاحها، وما اتفق في أخذها.
- 3- ذكر بعض الملوك الصالحين المجاهدين، وبعض رسائل لسان الدين بن الخطيب.
- 4- الزمان الذي بقيت الأندلس فيه بأيدي المسلمين إلى أن احتوت النصارى على جميعها.
- 5- حال المسلمين بالأندلس بين النصارى بعد سقوطها وكيف أصبحوا يعبدون دينين.
- 6- ذكر ما اتفق له في غرناطة مع القسيس الكبير في قراءة الرق المكتوب بالعربية والعجمية.
- 7- ذكر يوحنا الذي كتب ربح الإنجيل فيما يكون في الدنيا إلى أن تفنى.
- 8- ذكر شيء مما كان مكتوبا في الكتب التي وجدت تحت الأرض المكتوبة في ورق الأنك (الرصاص).
- 9- قصة خروجه من بين النصارى إلى بلاد المسلمين.
- 10- الأسباب التي قال سلطان النصارى إنها دفعته لإخراج المسلمين من بلاده.
- 11- مشاهداته في رحلاته المشرقية والمغربية والجوفية (هولندا) من العجائب.
- 12- ذكر ما وقع من مناظراته مع القسيسين والرهبان واليهود في فرنسا وهولندا.

(1) محمد الصغير الإفرائي، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، تقدم وتحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998، ص 195-196، وأيضا محمد بن الحاج محمد بن عبد الله الإفرائي، صفوة من صلحاء القرن الحادي عشر، تحقيق عبد المجيد خيالي، ط1، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، 2004، ص 45، 46، 229.

أما ما وصلنا في مختصراته للرحلة تحت عنوان "ناصر الدين على القوم الكافرين" فقد غيَّب فيها ذكر الفصول الأربعة الأولى، إضافة إلى خلوها من الفصل الحادي عشر(11) والظاهر أن ما وصل إلينا من بقية الفصول يبقى مجرد ملخص له، أصلها الذي ضاع فيما ضاع من الرحلة الكبرى "رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب"، على أن ما وصلنا قدم لنا محاور ومادة يستطيع من خلالها الباحث أن يقف عند تلك الصورة التي رسمها مغربي موريسكي أتى في مرحلة فاصلة في تاريخ العلاقات بين الضفتين الشمالية والجنوبية للمتوسط، صورة عن تمثلات الأنا والآخر، الأمر الذي سنكتشفه مع تتابع فصول الرحلة وتحليلها.

ثانيا: رحلة محمد بن عبد الوهاب الغساني إلى إسبانيا 1690-1691م

1- التعريف بصاحب الرحلة

- نشأته

أما الرحلة الثانية في دراستنا فهي رحلة سفارية مغربية إلى إسبانيا نهاية القرن السابع عشر، وهي رحلة السفير الغساني المعنونة بـ"رحلة الوزير إلى فكاك الأسير"؛ أما صاحبها فقد أجمعت المصادر أنه أبو عبد الله محمد المدعو "حمّ" ⁽¹⁾ بن عبد الوهاب الوزير الغساني ⁽²⁾ الأندلسي الفاسي ⁽³⁾، ورغم شهرته على أنه أحد أهم الشخصيات الأدبية والدبلوماسية في عصره إلا أننا لا نجد له عند من ترجموا له ذكرا لتاريخ ميلاده، وإن كان على الأرجح ولد في مدينة فاس موطنه وموطنه عائلته ⁽⁴⁾.

وإن كنا لا نعرف عن حياة السفير الغساني الكثير؛ فإننا ندرك ونعرف الكثير عن تاريخ عائلته؛ فمن الناحية الاجتماعية ينتمي محمد بن عبد الوهاب الغساني إلى بيت جاه وعلم وسياسة وهم "آل الوزير الغسانيين"، سكنوا الأندلس ولما ساءت أحوال المسلمين فيها هاجروا إلى المغرب، واستوطنوا مدينة فاس، أواخر القرون الوسطى (أواسط القرن التاسع الهجري)، وينسبون لغسان من صميم العرب ⁽⁵⁾.

فمترجمنا سليل عائلة لها مكانة اجتماعية وسياسية وعلمية معتبرة في تاريخ المغرب الحديث، كان منها قضاة ووزراء، وأدباء وكتّاب وشيوخ في الحديث والرواية، ومن أشهر أعلام هذه العائلة؛ إضافة إلى السفير محمد بن عبد الوهاب نذكر؛ والده أبو محمد عبد الوهاب الوزير، ويصفه صاحب الدرر البهية بالفقيه الخيّر العدل الأرضي أحد وجهاء وعدول حضرة فاس توفي 1071هـ/1661م، وأيضا أبو محمد أبو القاسم بن محمد بن إبراهيم الغساني كان مهتما بالطب متضلعا في الأدب، وله تأليف في الطب للسلطان أحمد بن منصور الذهبي السعدي (وهو عمّ المترجم

(1) أو "حمو" كثيرا ما تعني في الاصطلاح العامي المغربي اختصار اسم محمد أو أحمد، على نحو ما نسمي "عسّو" عن عبد السلام، و"رحو" عن عبد الرحمان، و"عبو" عن عبد الله، و"الحوس" عن الحسين... إلخ. أنظر: عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مج9، 1988، ص108.

(2) جعفر بن أحمد الناصري، سلا ورباط الفتح أسطولهما وقرصنتهما الجهادية، تحقيق: أحمد بن جعفر الناصري، ج3، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2006، ص239.

(3) محمد بن الطيب القادري، النقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق: هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت 1983، ص80-81.

(4) عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق: علي عمر، ج4، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص77.

(5) جعفر بن أحمد الناصري، مرجع سابق، ص239.

له)، ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب الغساني (أخو المترجم له)، كان له تدريب في الإنشاء وكذا التأليف، وهو الفقيه العلامة النائر وله عديد التأليف⁽¹⁾، ومنهم القاضي أبو القاسم بن أبي النعيم الغساني ابن عمهم⁽²⁾، وجدهم أبو القاسم الغساني الطبيب المعروف بالوزير عرف بذلك لما استوزره مولانا أحمد المنصور الذهبي السعدي وبعثه بفكاك الأسرى بأسرى وقعة وادي المخازن (1578م)⁽³⁾.

- ثقافته وآثاره العلمية

من الناحية الثقافية يبدو الغساني ذو مكانة علمية معتبرة في عصره، وما دليل ذلك إلا ما قالته المصادر والمراجع في صفته، فقال فيه الناصري؛ كان أديبا متقنا فقيها محبا للكتب⁽⁴⁾، وذكر في نشر المثاني أنه "الفقيه المشارك الدارك"، ويبدو أن أكثر ما اشتهر به من الناحية الثقافية إتقانه الكتابة والنسخ، فقد كان جامعا للكتب عارفا بها، له سرعة في نسخها لا تُعرف لغيره، ولذلك اتخذها السلطان المولى إسماعيل كاتباً لديوانه، وذكروا أنه كان يُلقي له الأوامر فيتلقاها منه بسرعة عجيبة، ويكتبها ويستوعبها، ولا يغرب عنه شيء منها مع كثرتها⁽⁵⁾.

ورغم الشهرة التي حظي بها السفير محمد الغساني في مجال الكتابة؛ إلا أنه لم يترك أثارا أدبية كثيرة؛ فباستثناء نص رحلته السفارية-الذي نحن بصدد دراسته-لا نقف له على أي أثر آخر، رغم أن "ابن سودة" في دليله يذكر أنه يوجد للمترجم نص رحلة حجازية تقع في مجلد⁽⁶⁾.

(1) أحمد الغساني هو أخو محمد الغساني المترجم له، ولم يتول أحمد أي منصب سياسي، كان ذا حظوة ووجاهة لدى أرباب السلطة بالمدينة، ولد بفاس في حدود 1070هـ حسب ما ذكر القادري، والأصوب ما في سلوة الأنفاس، وهو أنه ولد في مهل رمضان 1073هـ/26 يوليو 1653م، وتوفي بها في 2 ربيع الأول 1146هـ/13 أوت 1733م، بعد أن خلف إنتاجا أدبيا أغلبه في التصوف. انظر: محمد بن الطيب القادري، مرجع سابق ص360.

(2) أحد قضاة فاس المشهورين في العصر السعدي، يعد شخصية علمية وسياسية في عصره، ولد سنة 952هـ/1546م، تردد في مبايعة أولا أحمد المنصور الذهبي بعد وفاة هذا الأخير، حتى قيل أنه بايعهم جميعا (زيدان، أبو فارس، المامون)، وهو ما يرجح أنه كان سبب اغتياله يوم 5 ذي القعدة 1032هـ/3 أوت 1623م عندما كان عائدا من صلاة الجمعة، أنظر: انظر: محمد بن الطيب القادري، المرجع نفسه، ص80-81.

(3) محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، ج3، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1986، ص173-174.

(4) جعفر بن أحمد الناصري، مرجع سابق، ص242، أنظر أيضا: أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحاذات الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق: عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني، ج3، دار الثقافة، الدار البيضاء، ص364-365.

(5) جعفر بن أحمد الناصري، مرجع سابق، ص242.

(6) عبد السلام بن سودة، دليل المغرب الأقصى (دليل ابن سودة)، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1997، ص235.

- نشاطه السياسي والإداري

ثم إن موهبة الغساني وكفاءته في النسخ والكتابة سرعان ما قربته من مركز القرار المغربي في مكناس، ليضمه السلطان المولى إسماعيل⁽¹⁾ إلى طاقم كتّابه، وعن مكانته ككاتب مقرب من السلطان، يصف هذا الأخير الغساني في رسالته لنظيره الإسباني كارلوس الثاني (1665-1700م): «...كاتبنا ومتولي الخط الأقرب من بساتنا السيد محمد بن عبد الوهاب الوزير... وعند الكاتب المذكور قضية دخول جند الإسلام المظفر بالله على نصارى العرائش وفي علمه وعلى باله ما كان في ذلك من الكلام والأسباب وكيفية الخبر في ذلك، فثقوا به وتعرفوا منه فإنه حفظه ووعاه من أوله إلى آخره لملازمته لبساتنا العلي بالله في سائر أوقاته»⁽²⁾.

ويصف القادري عمله في البلاط الملكي؛ "كتب للسلطان أمير المؤمنين مولانا إسماعيل، وكان نجيباً في ذلك، ذكر أن كل ما يلقي إليه في مجلس يحسن فيه الوثيقة، انتهت إليه صنعة الترسيل يأتي في كل أمر امر بوجه على أسلوب مختلفة الألفاظ والمعنى واحد، عجز أهل العصر عن إدراك ذلك، وكان الخليفة يملّي عليه الأمر برسائل عديدة لعمال وغيرهم متفرقون في البلدان، فيذهب لمنزله ويستوفي جميع ما أمره بكتبه، ويعطي كل ذي حق حقه من غير زيادة ولا نقصان (ما يؤكد أنه كان محط ثقة السلطان) ثم يأتي بجميع الرسائل ويعليها على السلطان فيتعجب من سرعة الكتابة وحسن العبارة ومن عدم الزيادة والنقصان، وكان له سرعة في نسخ الكتب لم تعرف لغيره (فقره السلطان لإعجابه بكفاءته في الكتابة)"⁽³⁾.

ويبدو أن ثقة السلطان في شخص محمد بن عبد الوهاب الغساني قد رشحته لأن يكون أحد رجالات الدبلوماسية المغربية في الربع الأخير من القرن السابع عشر، لذا ستظهر له مساهمتان في التاريخ السياسي الدبلوماسي المغربي؛ الأولى اختياره ليقود السفارة المغربية إلى إسبانيا كارلوس الثاني سنة 1690-1691م كما سنبينه في حينه، (وهذه السفارة التي سينتج عنها النص الرحلي للغساني)، والظاهر أن السلطات المغربية كانت راضية عن أداء الغساني

(1) السلطان المولى إسماعيل (1056-1139هـ / 1645-1727م): إسماعيل بن محمد الشريف بن علي الشريف المراكشي الحسني العلوي، أبو النصر، أفضل وأعظم رجال وملوك دولة الأشراف السجلمايين العلويين في المغرب الأقصى، كان في حياة أخيه المولى الرشيد بمكناسة الزيتون عاملاً على بلاد الغرب، بويع له بالملك بعد أخيه سنة 1083هـ / 1672م بمكناسة التي أصبحت قاعدة ملكه، كانت أيام حكمه أزهى أيام الدولة العلوية، ودام حكمه طويلاً إذا عمر على رأس السلطة مدة سبعة وخمسين سنة، ألف خلالها جيشاً منظماً عظيماً وبنى القلاع والمدن. أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج1، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002، ص324-325.

(2) عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق: علي عمر، ج2، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008. ص80-81.

(3) محمد بن الطيب القادري، النقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، مرجع سابق، ص80-81.

وثقة السلطان فيه قد ازدادت بعد سفارته إلى إسبانيا، ليتم اختياره بعد مدة قصيرة في مهمة دبلوماسية إلى الجزائر سنة 1692م، إذ عينه السلطان مولاي إسماعيل ضمن الوفد الرسمي الذي توجه إلى الجزائر، وكان هذا الوفد يتكون إضافة إلى الغساني؛ من الأمير مولاي عبد الملك ابن السلطان إسماعيل، والطيب الفاسي⁽¹⁾ وتوجهت السفارة التي أوفدت إلى الجزائر لإمضاء المهادنة مع حكامها،⁽²⁾ وذلك إثر انهزام الجيش المغربي "بالمشارع" على نهر ملوية أمام الجيش الجزائري⁽³⁾.

والغساني لم يتولّ الوزارة قط⁽⁴⁾، عكس ما ذهب له عديد المراجع التي ترجمت للرجل، ويبدو أن من ترجموا له قد التبس عليهم الأمر بين لقب عائلته واللقب الوظيفي، فالملاحظ أن كلمة "الوزير" المرادفة لاسم المترجم له هي في الأصل لقب لعائلة الغساني وليس لقب دال عن وظيفة أو منصب -أي الوزارة- فهو لم يتولى الوزارة ولقد لاحظنا أن هذا اللقب مرادف لمختلف أعلام أسرة الغساني، ولذلك نجد أنهم سمو بأولاد الغساني أو أولاد الوزير، وذلك منذ توليهم منصب الوزارة السلطانية في بعض الأزمنة⁽⁵⁾.

توفي المترجم له سنة 1119هـ/1707-1708م، من مرض بدارهم الكائنة بزقة الرطل من عدوة فاس القرويين، ودفن بروضتهم التي كانت بالكغاطين المجاورة لروضة الشرفاء⁽⁶⁾.

2- رحلة الغساني إلى إسبانيا 1690-1691م

- في السياقات والدوافع

تندرج رحلة الغساني السفارية إلى إسبانيا ضمن توجه جديد للمخزن المغربي في تعامله مع البلدان الأوروبية، فلم تكن سفارة الغساني حالة فريدة في العلاقات الأوروبية المغربية في عهد السلطان مولاي إسماعيل، بل نجد سفارات أخرى إلى فرنسا وإنجلترا؛ فإلى فرنسا أوفد السلطان إسماعيل في يناير 1682م سفارة "محمد تميم" التي شجعت

(1) المرجع نفسه ص298.

(2) ليفي بروفنصال، مؤرخو الشرفاء، تعريب: عبد القادر الخالدي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ص201.
للمزيد عن الحرب الجزائرية المغربية وتوقيع صلح 1692م انظر: محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضة في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص24.

(3) ليفي بروفنصال، مرجع سابق، ص201.

(4) جعفر بن أحمد الناصري، مرجع سابق، ص242، أنظر أيضا: أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، مرجع سابق، ص364-365.

(5) إدريس الفضيلي، الدرر البهية والجواهر النبوية، مراجعة ومقاربة: أحمد بن المهدي العلوي ومصطفى بن أحمد العلوي، ج2، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1999، ص341.

(6) محمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، مرجع سابق ص80-81.

الفرنسيين على بعث وفادات كان الهدف منها العمل على إطلاق الأسرى الفرنسيين في المغرب، وقد أعطت السفارة المغربية ثمارها عندما وقع الطرفان معاهدة تضمنت شروطها تبادل الأسرى، وفي سبتمبر 1689م وصل إلى باريس سفارة أخرى برئاسة أمير البحر "عبد الله بن عائشة" لمواصلة تعميق الروابط المغربية الفرنسية، وتكليف بنود الاتفاقية الموقعة في سنة 1682م، وكانت مناسبة أيضا لمطالبة الملك الفرنسي لويس الرابع عشر (Louis XIV) (1638 - 1715م) بإرسال المخطوطات العربية التي تتوفر عليها المكتبات الفرنسية⁽¹⁾.

وإلى إنجلترا أوفد السلطان إسماعيل سفارة "محمد بن حدو أعطار"، وكان موضوع السفارة مناقشة ما تخلف عن الهجوم الإنجليزي على طنجة سنة 1678م، ونتج عن هذه السفارة أيضا التوصل إلى وضع اتفاقية مغربية إنجليزية عرفت في تاريخ العلاقات المغربية الإنجليزية بمعاهدة ويت هول (White Hall) التي رفض السلطان المصادقة عليها فيما بعد.

وهذه السفارات ارتبطت كلها إلى حد بعيد بالضغوط التي مارستها هذه البلدان على المغرب من خلال توجيه حملات على بعض ثغوره، ومحاولة الاستفادة من الوضعية الصعبة التي كان يجتازها المغرب في النصف الثاني من القرن السابع عشر، ومن جهة أخرى ينبئ إيفاد هذه السفارات عن توجه جديد في السياسة الخارجية المغربية والتعاطي مع القضايا الساخنة في العلاقات المغربية الأوروبية، أو ما يمكن أن نسميه بإرهاصات الانفتاح⁽²⁾.

وتندرج السياقات القريبة التي تدخل تحتها أسباب رحلة الغساني إلى إسبانيا 1690-1691م مباشرة بقضية فتح واسترداد مدينة العرائش من قبل السلطان العلوي مولى إسماعيل⁽³⁾، يوم الأربعاء 18 محرم 1101هـ / 01 نوفمبر 1689م، واستسلم له من كان فيها من الإspanيين، وعددهم ألفان (2000)، فأخذوا جميعا أسرى كان من جملة أولئك الأسرى مائة من ضباطهم، وقد استدعى أسر هذا العدد من الجنود والضباط تحرك الدبلوماسية الإسبانية، إذ ترددت رسائلهم ورسائل ملكهم إلى السلطان المولى إسماعيل من أجل تحرير ما يمكن تحريره، وطالت المراسلات والمخاطبة بينهما في هذا الشأن⁽⁴⁾، وكانت تهدف أيضا لاستخلاص كبار الشخصيات العسكرية (الضباط المائة)⁽⁵⁾.

(1) لمزيد من التفاصيل بخصوص هذه السفارات المغربية إلى فرنسا أنظر: جمال سهيل، البعثات الدبلوماسية المغربية إلى البلاط الفرنسي خلال القرن 11هـ/17م، مذكرة شهادة الماجستير في تخصص التاريخ الحديث، المركز الجامعي بغرداية، الجزائر، 2010-2011.

(2) محمد بن عبد الوهاب الغساني، رحلة الوزير في افتتاح الوزير، تحقيق وتقديم: عبد الرحيم بنحادة، منشورات معهد الأبحاث في لغات وثقافات آسيا وأفريقيا، طوكيو 2005، ص 16-17.

(3) للمزيد حول فتح مدينة العرائش أنظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج7، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1997، ص 73-77.

(4) جعفر بن أحمد الناصري، مرجع سابق، ص 242.

(5) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مرجع سابق، ص 108.

وقد طالت المحادثات بين الطرفين بسبب الخلاف الذي وقع بين المغاربة والإسبان حول قضية ومصير الأسرى الإسبانين في المدينة بعد فتحها:

- فبينما اعتبر المغاربة أن هؤلاء الإسبان إنما هم أسرى حرب ولا سبيل لردهم لدولتهم إلا بالفدية، وقد أسند السلطان إسماعيل رأيه في هذا الموقف إلى آراء الفقهاء.
- فيما اعتبر الإسبان أن مواطنيهم تلقوا الأمان من قبل المغاربة قبل سقوط المدينة، وبالتالي فلا يمكن إدراجهم كأسرى حرب، وكان السلطان المغربي قد أعطى الأمان للحامية الإسبانية بالعرائش قبل أن يعدل عن أمره بعد الاستفزازات التي أظهرها أعضاؤها وهو الأمر الذي أثار حفيظة الفقهاء ورجال الدين المغربية للضغط على السلطان ليعدل عن أمره وهو ما كان.

وأمام هذين الموقفين النضاقيين كان لا بد من تحريك آلة الدبلوماسية المغربية، وهو ما كان فعلا؛ إذ أرسل السلطان المغربي كاتبه محمد بن عبد الوهاب الغساني سفيرا له وعبد السلام بن جسوس عضوا⁽¹⁾، عند البلاط الإسباني وهذا ما أثبتته رسالة السلطان مولاي إسماعيل إلى الملك كارلوس الثاني (1665-1700م) تحمل تاريخ 16 ذي الحجة 1101هـ الموافق لـ 21 سبتمبر 1690م، والتي حملها الغساني نفسه: «... أما بعد فقد بلغنا كتابكم صعبة خديمكم دون منويل بيردلون وخديمكم دون أبييل مسيح... وألقى إلينا خديمكم دون أبييل مسيح ما في خاطرهم وما طلبتموه منا من فك هذه المائة من النصارى الذين وقع الكلام قبل هذا، رددنا إليكم جواب كتابكم ووجهنا مع خدم دارنا العلية بالله كاتبنا ومتولي الخط الأقرب من بساتنا السيد محمد بن عبد الوهاب الوزير... وعند الكاتب المذكور قضية دخول جند الإسلام المظفر بالله على نصارى العرائش وفي علمه وعلى باله كان ما كان في ذلك من الكلام والأسباب وكيفية الخبر في ذلك، فثقوا به وتعرفوا منه فإنه حفظه ووعاه من أوله إلى آخره لملازمته لبساتنا العلي بالله في سائر أوقاته...»⁽²⁾.

(1) عبد السلام بن جسوس الفاسي؛ لا نعلم تاريخ ميلاده، إلا أنه كان من أعلام المغرب خلال الربع الأخير من القرن 17 ومطلع القرن 18م، تصفه المصادر التي ترجمت له أنه علامة مشارك في اللغة والفقه والحديث والتفسير والأصول والبيان، إلى غير ذلك من علوم عصره، كان ينتمي إلى النخبة الحضريّة، وتلمذ على يد كبار شيوخ وعلماء عصره، كان يحظى بتقدير وثقة معاصريه ولا يتردد بالإدلاء برأيه في الأمور الاجتماعية والسياسية، لذا نجده يتزعم حركة الاحتجاج في مدينة فاس بسبب إدانته وعدم موافقته على ما أقدم عليه السلطان إسماعيل من تأسيس جيش من العبيد أسماه "جيش عبيد البخاري" الذي رأى فيه المترجم له أن السلطان أراد به تطويع البلاد والعباد بالقوة من قبل عبيد لا يعصون له أمرا، ورغم محاولات السلطات المغربية استمالة بالتزغيب والترهيب إلا أنها لم تفلح في تغيير رأيه ليلقى في السجن ويموت فيه إذ وجد مقتولا يوم 25 ربيع الأول 1121هـ/04 جويلية 1709م. أنظر: معلمة المغرب، ع09، ص3026-3027.

(2) عبد الرحمان ابن زيدان، اتحاف أعلام الناس، ج2، مرجع سابق، ص80-81.

فسفارة الغساني تهدف إلى مباحثة شأن الأسرى الإيبان بالعرائش وفكاك الأسرى المغاربة والمسلمين من إيبانيا فيقول صاحب الرحلة: «... كانت همته مصروفة لفكاك الأسارى واستخراجهم بيد من كانوا من في يده من النصرارى ليغنتم ثواب فكاك الأسير...»⁽¹⁾، وهو يقصد في ذلك جهود السلطان المغربي المولى إسماعيل العلوي.

ثم يضيف الغساني عن أسباب رحلته سببا آخر وهو تحرير واسترداد الكتب الإسلامية الموجودة بالخزائن الإيبانية، وفي ذلك يقول: «... وكنت ممن انص الله عليه بخدمة بابه... وجهني أدام الله علاه لبلاد الروم لآتيه هناك من أسرى الإسلام، وأبحث في الخزائن الاندلسية عما أبقاه المسلمون هنالك من كتب الأحكام...»⁽²⁾، وهو السبب الثاني الذي يذكر الغساني لتوجهه إلى إيبانيا، أي بهدف استعادة الكتب الإسلامية في إيبانيا، فالغساني قد عبر عن فحوى الرسالة التي قدمها للملك الإيباني بكل شفافية: «... فلما عجم الكتاب وقرأه ورأى ما فيه وما أشار به عليه أمير المؤمنين من إعطاء خمسة آلاف كتاب وخمسمائة أسير...»⁽³⁾، ويضيف: «فإن عدموا وجود الكتب أو تعذر حالها يجعل عوضها كمال ألف أسير من المسلمين...» وذلك لما قيل أن المخطوطات الإسلامية المطلوبة قد احترقت⁽⁴⁾.

وعكس ما ذهب إليه كثير من الدارسين لرحلة الغساني في أن السبب الأساسي لتوجهه هذا الأخير إلى إيبانيا هو غير الأسباب التي ذكرها في نص رحلته (أي من أجل تحرير الأسرى واسترداد الكتب والمخطوطات الإسلامية من هناك)، ورجحوا أن يكون سبب آخر غير معلن في نص الرحلة وهو ربما قيامه بمفاوضات من أجل السلام.

وربما يكون توجه هؤلاء الباحثين إلى هذا الترحيح هو استنادهم لما جاء بعد ذلك من رحلات سفارية مغربية لم تعلن السبب الرئيس لمهامها خاصة رحلتي الغزال والمكناسي في القرن الثامن عشر، وعليه فما يمكن تأكيده أن الغساني كان واضحا في أسباب رحلته حتى ولو لم يذكر حولها تفاصيل كثيرة؛ وإنا نسنده رأينا في التأكيد أن مهمة الغساني لا تتجاوز مهم تحرير الأسرى واسترداد الكتب إلى رسالة المولى إسماعيل إلى الملك الإيباني كارلوس الثاني التي جاء فيها: «... ان تعطونا في الخمسين نصرانيا من هذه المائة (يقصد أسرى العرائش) خمسة آلاف كتاب؛ مائة كتاب عن كل نصراني من كتب الإسلام الصحيحة المختارة المثقفة في خزائنهم (يقصد خزائن المسلمين) باشبيلية وقرطبة وغرناطة وما ولاها من المدن والقرى حسبما يختارها خديمنا المذكور من المصاحف وغيرها، وتعطون خمسمائة

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 48.

(2) المصدر نفسه، ص 48.

(3) المصدر نفسه، ص 104، 105.

(4) المصدر نفسه، ص 105.

أسير من المسلمين في الخمسين الأخرى عشرة أسارى لكل نصراني، وإن لم توجد الكتب التي هي مرادنا فاجعلوا عوضها من أسارى المسلمين وأعطوهم لنا من الأسارى الذين في الأغرية (السفن الحربية) وغيرهم، وقبلنا منكم في العدد المذكور الرجل والمرأة والصبي والصغير أو الكبير والشيخ من إيالتنا وغيرها، إذ ما لنا قصد إلا في الأجر والثواب في فكك أسرى المسلمين كيفما كانوا ومن أي بلاد كانوا...»⁽¹⁾، حيث يظهر من نص الرسالة أن السلطان المغربي ينطلق من موقف قوة، هذا الموقف الذي سوف ينعكس بدون شك عن تمثلات الآخر الأوروبي أو الإسباني في رحلة الغساني.

- نتائج مهمة الغساني السفارية

أما عن مهمته في إسبانيا فإنه برغم ما تضعه هذه الرسالة من صعوبات أمام الإسبانين وما تخلقه من مشاكل لهم فإن الغساني يقول حينما قدم رسالته إلى كارلوس الثاني: «وحين انفصلنا عنه يوم ملاقاتنا معه وناولناه الكتاب السلطاني دفعه إلى النصراني الحلبي ليترجمه ويعجمه؛ فلما عجم الكتاب ورأى ما به وما أشار به عليه أمير المؤمنين أيداه الله من إعطاء خمسة آلاف كتاب وخمسمائة أسير ثقلت عليه الوطأة العلوية ولم يدر كيف يلقي هذه الإشارة وعرف أنها عزمة من الملك نصره الله ولم يمكنه إلا الاضطراب لما أشرب في قلبه وقلب أهل ديوانه من صيت هذه الإمامة العلوية، وعلو همتها أبقاه الله بمنه، ووقعت المشورة منه في ذلك مع أهل ديوانه فأروا أن الإجابة إلى ما دعاهم إليه المولى إسماعيل والامثال لأمره المطاع أعزه الله تعالى أولى لهم وأوفق.

وقد أبان الغساني بعد ذلك عن تعدد الجلسات والاستشارات لدى السلطات الإسبانية بغرض مناقشة المطالب المغربية، وأنهم في الأخير رضوا بأن يؤدوا ألف أسير؛ حيث اشتغل الإسبان بالبحث عن الأسرى المسلمين وتجميعهم من سائر جهات إسبانيا، وأصدر الملك الإسباني أمره لسائر الحكام لتجميع هذا العدد الضخم، حتى أن بعض الأسرى تم استيرادهم من أماكن نائية في إسبانيا، وكان منهم عدد كبير من الجزائريين والأتراك الذين استفادوا من عملية التبادل هذه⁽²⁾.

ولأنه تعذر على الإسبان تمكين المغرب من الكتب المطلوبة بدعوى أنها كانت قد احترقت⁽³⁾، لم يجد الوفد المغربي حرجا في قبول ذلك لأن رسالة السلطان إسماعيل كانت قد أباحت لهم أن يقبلوا تعويض الكتب إذا تعذر

(1) عبد الرحمان ابن زيدان، اتحاف أعلام الناس، ج2، مرجع سابق، ص 81-82.

(2) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مج9، مرجع سابق، ص 110-111.

(3) وكانت المخطوطات العربية في مكتبة الأسكوريال تبلغ عدة آلاف حتى أواسط القرن السابع عشر، ولكن حريقا حدث بالمكتبة سنة 1671م ألغى هذا الكنز الفريد، وهو الحدث الذي أجبر الحكومة الإسبانية العمل على الاهتمام بالبقية الباقية من هذه المخطوطات والعمل على فهرستها وكان عددها ألف

دفعها على الإسبانين بأسارى آخرين، وقد حدد هذا التعويض بـ500 أسير، ليصل عدد الأسرى المحررين 1000 أسير⁽¹⁾، ويبدو أن مسألة إرجاع الكتب الإسلامية إلى المغرب والتي تتلاءم مع مصالح المسلمين تتطلب مراجعة القوانين الداخلية للإسبان فيما يتعلق بالأوقاف المخصصة لكنائسهم وأديرتهم وهل لهم الحق في إمكانية إخراج ما بها من كتب⁽²⁾.

ولم يحدد الغساني في رحلته تاريخ تسلم المغاربة لهؤلاء الأسرى؛ لأن ذلك ربما وقع بعد كتابة نص الرحلة لأنني أظن أن هذه الرحلات كانت توضع بمثابة تقرير مفصل يقدم للملك إثر رجوع السفير من عمله ويباح اطلاع الجمهور عليه، ويكون مع الرحلة تقرير سري آخر خاص بالملك على أساسه تبنى نتائج المفاوضات والمشاورات، إلا أننا يمكن أن نطلع على ذلك عن طريق وثائق أخرى أثبتتها المؤرخون، ونجد الإشارة إلى هذه الجزئية في كتاب التاريخ الدبلوماسي للمغرب للدكتور عبد الهادي التازي، حيث يذكر أن هؤلاء الأسرى أُرْجِعُوا إلى المغرب في شهر سبتمبر من سنة 1691م، أي بعد رجوع الغساني من رحلته بنحو أربعة أشهر⁽³⁾.

أما عن الإطار الزمني للرحلة فإنها انطلقت من مدينة سبتة في يوم 15 محرم سنة 1102هـ الموافق لـ 19 أكتوبر 1690م متجهة إلى جبل طارق، ومرت في طريقها بعدد المدن والقرى الإسبانية حتى بلغت مدريد في السابع من ربيع الأول من نفس السنة الموافق 06 ديسمبر 1690م، وبعد قضائها أكثر من ثمانية أشهر في مدريد غادت السفارة العاصمة الإسبانية في اتجاه طليطلة أوائل رمضان من سنة 1102هـ الموافق لـ 29 ماي 1691م، وهو ما يعني أن السفارة استغرقت ما يقرب من ثمانية أشهر.

3- نص رحلة الغساني:

نتج عن هذه السفارة التي قادها الغساني نص رحلي مميز عنوانه " رحلة الوزير إلى فكاك الأسير " سجل فيه صاحب الرحلة ملاحظاته ومشاهداته وارتساماته عن الآخر الأوروبي والإسباني، وعن أسباب ودوافع كتابة نص رحلته السفارية يقول الغساني: «... ورأيت هنالك من العجب العجائب ما يسحر العقول ويبهز الألباب، فجمعت بعد ذلك في هذه الرقاع لثلا تعدو عليه الضياع ورسمته مخافة النسيان، ورجاء أن يستفيد به من يطلع عليه من

وثماتائة وخمسون (1850) مخطوطا. أنظر: محمد بشير العامري، دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، 2011، ص127.

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 105.

(2) محمد بن عبد العزيز الدباغ، «ارتسامات تاريخية حول مولاي إسماعيل من خلال: (رحلة الوزير في افتكاك الأسير)»، ضمن أعمال الدورة الأولى لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية، مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني ديسمبر 1989، ص76.

(3) المرجع نفسه، ص76.

الإخوان...»⁽¹⁾، لا تظهر في ذكر الغساني الدوافع التي أدت به إلى كتابة رحلته واضحة إلا إشارة منه أنه كتب ذلك بدوافع شخصية منه.

ويعد نص رحلة الغساني "رحلة الوزير إلى فكاك الأسير" أحد أهم النصوص الرحلية التي سجلت ملاحظاتها عن أوروبا وبيّنت ارتساماتها عن الآخر الأوروبي كما سنبينه في الدراسة، فمن بين كل الرحالة كان الغساني هو الشخص الذي سعى للحصول على المعرفة الموسوعية للبلد الذي تمت زيارته ونقله بشكل موضوعي قدر الإمكان، مع معلومات عن جوانب مختلفة (شكل الحكومة، المؤسسات العلمية والثقافية، الزراعة، حالة المصنوعات، وسائل النقل، المجتمع، التجارة... إلخ)، حول هذا العمل المرجعي للغساني، الذي رسم أحد أكثر ما دون من الرحلات العربية اكتمالاً عن إسبانيا القرن السابع عشر.

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 48.

الفصل الثاني: الرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرن 18م

- أولاً: أحمد بن المهدي الغزال ورحلته إلى إسبانيا 1766م
- ثانياً: محمد بن عثمان المكناسي ورحلاته إلى أوروبا 1779-1780م / 1781/1782م

الفصل الثاني: الرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرن 18م

ننطلق في تعريفنا برحلة ورحلات القرن الثامن عشر عكس سابقتها من السياقات العامة أولاً؛ عوضاً من التعريف بالرحلة وسياقاتهم القريبة التي ستأتي في مرحلة ثانية، وإن هذا الاختلاف في منهجية العمل يعود أساساً إلى اختلاف السياقات الزمنية بين رحلتي القرن السابع عشر وتباعدهما الزمني نسبياً، فرحلة الحجري أنت في مطلع القرن السابع عشر على زمن دولة السعديين، بينما كانت رحلة الغساني على زمن الدولة العلوية نهاية هذا القرن، بخلاف رحلتي القرن الثامن عشر وهما الغزال والمكناسي اللذين أتيا في نفس الفترة ومثلاً نفس السلطان ونفس الحقبة الزمنية وبالتالي تأثراً بنفس السياقات، وإن كنا نهمجنا هذا المنهج تفادياً للتكرار.

وعليه فإن سياقات الرحلات السفارية المغربية إلى أوروبا خلال القرن الثامن عشر جاءت مرتبطة ارتباطاً أساسياً بالسياسة التي اتبعها المخزن المغربي من انفتاح على البلدان الأوروبية والمتوسطية، لذا فقد كان للمغرب اتصال وبعثات دبلوماسية لهذه الدول، وعبر الغزال في مقدمة رحلته عن ذلك في قوله: «وانعقدت المعاهدة بين عدة من الأجناس على أحكم قواعد وأوثق أساس، الكل على الوجه الشرعي، والحكم المرعي، مما يعود نفعه على الإسلام وينتج المصلحة التامة في العاجل والآجل، والخاص والعام، أعظمها فكاك الأسارى من المسلمين وإنقاذهم من العذاب، وجلب ما يستعان به على الجهاد، من بارود ومدافع وآلة السفن من بلادهم...»⁽¹⁾.

إذ أولى السلطان محمد بن عبد الله العلوي⁽²⁾ لشؤون دولته الخارجية اهتماماً خاصاً، لا ينافره فيه من السلاطين العلويين إلا السلطان مولاي إسماعيل، وفي هذا السياق بنى الأسطول، وربط العلاقات مع الدول، فأصبح المغرب يحظى في عهده باهتمام الدول الأوروبية التي لها مصالح معه، فأخذت تتوحد إليه على إقامة روابط سياسية واقتصادية معه⁽³⁾.

وتميزت السياسة الخارجية للمغرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر تجاه أوروبا بالحذر والحاجة في نفس الوقت، فنعت عهده بعصر انفتاح المغرب على أوروبا، وفي هذا الإطار وجه العديد من السفراء والمبعوثين إلى كثير من دول القارة الأوروبية، كما توافدت عليه سفارات من هذه الدول، وتوج هذا التبادل الدبلوماسي بعقد العديد من

(1) أحمد بن المهدي الغزال، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص35-36.

(2) السلطان محمد بن عبد الله: ولد بمكناس عام 1134هـ/1710م وبويع بالملك إثر وفاة السلطان مولاي عبد الله بفاس يوم 27 صفر 1171/10 نوفمبر 1757م، وتوفي قرب الرباط يوم 24 رجب 1204/09 أبريل 1790م، وخلال مدة حكمه التي طالت 33 سنة أنجز في الداخل عدداً من الأعمال السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وارتبط في الخارج مع كثير من الدول بعلاقات ود وصداقة وعقد معها العديد من المعاهدات والاتفاقيات، أنظر: عبد الوهاب بن منصور، «إطالة على وثائق السلطان سيدي محمد بن عبد الله المحفوظة بمديرية الوثائق الملكية»، ضمن أعمال الدورة الثالثة ضمن دورة مولاي علي الشريف الخريفية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، ديسمبر 1991، ص15.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، مصدر سابق، ص21-22. (جزء الدراسة)

اتفاقيات الصلح والتجارة، مع إنجلترا 1765م، ومع السويد 1762، ومع فرنسا 1767م، ومع إسبانيا 1780، ومع الولايات المتحدة الأمريكية 1786م⁽¹⁾.

ومن خلال هذه الاتفاقيات يمكن معرفة طبيعة القضايا والمشاكل التي كانت قائمة بين المغرب وهذه الدول الأوروبية، وتتلخص هذه القضايا في:

- التحرشات الأوروبية على السواحل والمدن المغربية، والحروب القائمة بين المغاربة والأوروبيين لاسترداد ثغورهم وحصونهم ومدنهم المحتلة والتي غالبا ما رافقتها توجه للدبلوماسية لحلها أو المباحثة فيها (كما سنبينه بخصوص رحلة الغزال 1766)⁽²⁾.

- قضية القرصنة التي كثيرا ما أزعجت دول ضفتي المتوسط طيلة العصر الحديث والتوجه العام في أوروبا والمغرب من أجل الحد منها خاصة مع توجه الإنثين لتأمين تجارتهم⁽³⁾.

- قضية الأسرى المسلمين والمسيحيين على حد سواء، والتي كانت من أهم المسائل التي ساهمت في تقارب المغرب مع الدول الأوروبية على الأقل على المستوى الدبلوماسي⁽⁴⁾.

ورغم هذا الانفتاح الدبلوماسي المغربي وتعدد السفارات المغربية إلى أوروبا خلال هذا القرن؛ إلا أن الإنتاج الرحلي حولها كان ضئيلا جدا، إذ أننا لا نقف إلا على ثلاث رحلات سفارية ألفها سفيرين مغربيين الرحلة الأولى بعنوان "نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد" لصاحبها أحمد بن المهدي الغزال عن سفارته إلى إسبانيا سنة 1766م، أما النصين الثانيين فهما للسفير المغربي محمد بن عثمان المكناسي الأولى بعنوان "الإكسير في فكك الأسير" عن رحلته إلى إسبانيا سنة 1779-1780م، والثانية المعنونة بـ"البدر السافر لهداية المسافر إلى فكك الأسرى من يد العدو الكافر" عن سفارته إلى كل من مالطا وصقلية ونابولي سنة 1782م.

(1) المصدر نفسه، ص22. (جزء التقديم)

(2) المصدر نفسه، ص22

(3) عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق: علي عمر، ج3، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص360.

(4) وتجدر الإشارة إلى أنه في سنوات الأعمال العدائية بين الطرفين الجزائري والإسباني، فقد كانت هناك خمس عمليات استرداد للأسرى الإسبان، في 1723-1724 و 1739 و 1750 و 1768-1769م. وبلغ العدد الإجمالي للأشخاص المفرج عنهم 2877 شخصا (830 شخصا تم إنقاذهم + 770 مستردة). بلغ العدد الإجمالي للأسرى الجزائريين الذين تم الإفراج عنهم من خلال التبادل 1902. أنظر:

Ismet Terki-Hassaine, «Spanish-Algerian connections in the Ottoman period (1505-1830)» *Hesperia, culturas del mediterráneo*, Junio 2015, P27.

أولاً: أحمد بن المهدي الغزال ورحلته إلى إسبانيا 1766م

1- التعريف بصاحب الرحلة

- نشأته

لا نملك الكثير من المعلومات عن حياة أحمد الغزال خاصة في مرحلة قبل تولي مهام لدى السلطة المخزنية في المغرب ومعظم ما سنذكره سوف نلاحظ أنه تقرب نفس المعلومات الواردة في مختلف الأوعية المعلوماتية التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة.

أما صاحب الرحلة فهو أبو العباس أحمد بن المهدي الغزال الأندلسي الحميري المالقي، الذي تربى بجوار القصر الملكي المكناسي⁽¹⁾، لا نملك بالضبط تاريخ ولادته، ولم تذكر كل المصادر المغربية ولا الأجنبية ذلك، لكن من خلال الوصف الذي نقله السفير الإسباني "دون خورخي خوان" (Don Jorge Juan) الذي زار المغرب سنة 1766م مثلاً لمملكته عن أحمد الغزال الذي يقول فيه: "كان عمره حوالي أربعين عاماً"⁽²⁾ يمكننا أن نتوصل إلى سنة ميلاده ولو بالتقريب وهذا من خلال قوله أنه كان عمره حوالي 40 سنة سنة 1766م بهذا الطرح نستنتج أن الغزال ولد حوالي سنة 1726 على وجه التقريب.

من الناحية الاجتماعية ينتمي أحمد الغزال إلى عائلة علم ولها ضلوع في السياسة، فهو سليل عائلة أندلسية خدمت ملوك وسلطين المغرب فأبوه المهدي كان أحد كتّاب المولى إسماعيل، وكان أديبا أربيا، جرت بينه وبين مؤلف الأنيس مساجلات شعرية كثيرة⁽³⁾.

- ثقافته ومكانته العلمية

من الناحية الثقافية يبدو من خلال الترجمات التي ترجمت للغزال أن الرجل ذو مكانة علمية وأدبية معتبرة متشعبا بعلوم عصره؛ وصفه الكتاني في كتابه سلوة الأنفاس "فقيها أديبا"، بل كان آخر أدباء الوقت⁽⁴⁾، وكان علامة مشاركا (مشارك في أنواع من العلوم) أديبا، شاعرا مطلعاً وكتاباً مقتدرا⁽⁵⁾، وزاد في وصفه السملالي في كتابه الإعلام

(1) ليفي بروفنسال، مرجع سابق، ص 233.

(2) Miguel sanz, **Breve Noticia de la vida del Excelentísimo Señor Don Jorge Juan y Santacilia**. Editorial: Universidad de Alicante, Servicio de Publicaciones, 2013. p152.

(3) محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (1075-1311/1664-1894)، ط1، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، 1977، ص 312.

(4) أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، مرجع سابق، ص 376.

(5) محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، ج7، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص 2410. أنظر أيضا: عبد السلام ابن عبد القادر ابن سودة، إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث والرابع 1171-1400هـ/1756-1980م، تنسيق وتحقيق: محمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص 43.

فقال الكاتب الرئيس الأريب، وكذا قال أن له خط رائق⁽¹⁾.

ومن آثار الغزال العلمية والأدبية التي تركها فضلا عن هذه الرحلة، ثلاث رسائل وهذه عناوينها: 1-الأطروفة الهندسية والحكمة الشطرنجية الأنسية. في الشطرنج، 2-نتيجة الفتح المستنبطة من سورة الفتح ومدح السلطان سيدي محمد بن عبد الله، 3-النور الشامل في مناقب فحل الرجال الكامل؛ وهي ترجمة الشيخ محمد بن عيسى المكناسي، شيخ الطريقة العيساوية بالمغرب، وقد برهن الغزال في الرسالتين الأوليين عن مهارة فائقة في ميدان الأدب، وبدا في الثالثة عارفا بالتراجم وناقدا بصيرا⁽²⁾.

- نشاطه الإداري السياسي

كان أول عهد الغزال في النشاط السياسي بتعيينه كاتباً في البلاط المغربي⁽³⁾، ويبدو أنه بقي كذلك إلى غاية تاريخ إرساله إلى إسبانيا مرافقا وكاتبا للوفد السفاري المغربي إلى إسبانيا، قبل أن تخلع عليه أثواب السفارة، وكان الغزال قد أدى مهمته وغرض مرسله السلطان المغربي بنجاح "وأبقى ذكرا جميلا" في الأوساط السياسية الإسبانية⁽⁴⁾. الأمر الذي جعل الغزال ينال ثقة الإسبان والسلطان المغربي، لتظهر له مساهمة دبلوماسية أخرى؛ بأن طلبت إسبانيا وساطة المغرب وعبر الغزال تحديدا بغرض افتداء أسراها بالجزائر⁽⁵⁾، فبذل المترجم له عدة محاولات في سبيل ذلك حتى نجح في المرة الثالثة عام 1768م وترأس البعثة المغربية التي أشرفت على تبادل الأسرى بين الطرفين الإسباني والجزائري، وحضر إلى الجزائر على المركب الإسباني، وسلم للجزائر 1600 أسيرا جزائريا، وتسلم منها نفس العدد من الأسرى الإسبان، وتم شراء الباقي من الأسرى بالأموال، ألف (1000) ريال لكل ضابط و500 ريال لكل جندي⁽⁶⁾. بعد سفارته هذه للجزائر وسيطا بينها وبين إسبانيا؛ استأنف الغزال عمله بالبلاط المغربي وأظهر نشاطا كثيفا على المستوى الدبلوماسي في الفترة بين 1768-1774م، إذ ربط عدة اتصالات دبلوماسية بحكم منصبه في البلاط

(1) العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حلّ مراكز وأغامت من الأعلام، مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، ط2، ج2، المطبعة الملكية، الرباط، 1993.ص393.

(2) محمد الأخضر، مرجع سابق، ص 316.

(3) ليفي بروفنصال، مرجع سابق، ص 234.

(4) أبو القاسم الزياني، البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف، دراسة وتحقيق: رشيد الزاوية، القسم1، مركز الدراسات والبحوث العلوية (الريصاني)، الراشدية، 1992، ص398.

(5) وكانت المملكة الإسبانية ترجو كذلك وساطة السلطان المغربي للنظر في علاقاتها مع الجزائر العثمانية، ولكن فشل المساعي الحميدة التي يبذلها الوسيط المغربي بسبب رفض داي، ثم في الجزائر أنهم لا يتقون في الموقف النفاض الذي يفضل بوضوح مصالح سلطان إسبانيا. أنظر:

Ismet Terki-Hassaine، Op.Cit، P27.

(6) يحيى بوعزيز، «إسبانيا توسط لجزائر لإبرام صلح مع تونس»، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر2، ع4، 1988، ص53-54.

السلطاني المغربي مع رجالات الدولة والوزراء في أوروبا خصوصا فرنسا وإسبانيا، ومن رسائله إلى الفرنسيين رسالة مؤرخة بتاريخ 07 محرم 1184هـ/1771م، يكشف مضمونها عن الطلب من فرنسا إرسال سفن تجارية للمغرب بغرض حمل أغراض أو سفراء مغاربة إلى وجهات مختلفة (الدولة العثمانية، إسبانيا)، ورسالة أخرى بتاريخ 04 ربيع الأول 1186هـ/1773م، يطلب فيها الغزال من نظيره الفرنسي بإذن من السلطان محمد بن عبد الله يدعو فيه إلى ضرورة دعم فرنسا للدولة العثمانية في حربها ضد روسيا⁽¹⁾.

ومن مراسلاته مع الوزراء والقناصل الإسبان تلك المتعلقة بحصار مدينة مليلية سنة 1774م، ومن ذلك رسالته سنة 1773م بخصوص الكلام الذي راج عن احتمال تحالف المغرب مع الجزائر بهدف تحرير مدينتي وهران ومليلية، وكذا رسالته الثانية لرئيس الوزراء الحكومة الإسبانية تحدث فيها عن عدم مصداقية الأخبار التي تصل الإسبان عن تجهيزات مغربية لحصار مليلية (يدخل هذا التنفيذ للخبر في إطار السرية التي سار التحضير لحصار المدينة المغربية)⁽²⁾.

وبعد سنة 1774م، سوف تنتهي حياة أحمد الغزال السياسية والدبلوماسية، إذ عزله السلطان محمد بن عبد الله بعد ما أشيع عن خطئه الدبلوماسي في معاهدة الصلح مع إسبانيا سنة 1767م، إذ في تلك السنة (1774م) قصد السلطان محمد بن عبد الله م مدينة مليلية المحتلة من الإسبان، وحاصرها أياما، فكتب إليه ملك إسبانيا يقول: "أنا عقدنا المهادنة برا وبحرا" فأجابه السلطان المغربي بما محصله: "أنا لم نجعل المهادنة معكم في البر، وإنما جعلناها معكم في البحر"، فوجه الملك الإسباني عقد الصلح، وكان الغزال هو الذي تولى تحريره، فإذا هو صلح عام "برا وبحرا"، فكف السلطان عن محاربتهم، ثم إن السلطان بعد ذلك عزل الغزال عن الكتابة لتغفله⁽³⁾، فاستقر بفاس حيث بقي في زوايا الأعمال إلى أن فقد بصره. توفي المترجم له فجر يوم الأحد 5 جمادى الأولى المتوفي سنة 1191هـ/1777م، ودفن بزواية الشيخ عبد القادر الفاسي بالقلقلين بمدينة فاس⁽⁴⁾.

(1) عبد الرحمن بن زيدان، العلاقات السياسية للدولة العلوية، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، 1999، ص 68-76

(2) وتعددت رسائل الغزال مع نظرائه الإسبان حول قضية الثغور المغربية المحتلة، أنظر: حسن الفكيكي، «جهاد الدولة العلوية في حماية الثغور» سيدي محمد بن عبد الله وتعبئة الطاقات لاسترجاع مليلية»، مجلة دعوة الحق، ع 263، رجب 1407-مارس 1987.

(3) وحسب بعض الدراسات التاريخية فإن ما ذكر في أسباب نكبة الغزال وعزله ربما كانت مجرد أسطورة أو افتراء على الغزال، وذلك من خلال عدة أدلة تعارض كلام كثير من المؤرخين المغاربة المعاصرين للحدث أو الذين أتوا بعدهم، فإنه بالعودة للوثائق يمكننا أن نقول أن عزله من الوزارة له سبب آخر، ربما هو الذي أشارت إليه ثلاث رسائل وجهها القنصل الفرنسي العام بسلا إلى حكومته يوم 28 ماي 1775م، ويوم 18 سبتمبر 1775م، ويوم 10 يناير 1776م، حيث جاء أن السلطان عندما فشل في محاولته من أجل استرجاع الجيوب المحاصرة أراد أن يخفي على شعبه حقيقة فشله فأدّاع بين الناس بأنه كان يظن أن الصلح المتفق عليه مع إسبانيا لم يكن يشمل الجيوب المغربية المحتلة من طرفها، وبأنه عندما اتضح له عكس ذلك اضطر إلى رفع الحصار وعزل الغزال باعتباره المسؤول عن ما حصل" أنظر: محمد بن عزوز حكيم، «عزل الوزير الغزال بين الأسطورة والتاريخ»، ضمن أعمال الدورة الثالثة لفعاليات جامعة مولاي علي الحرفية، مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، ديسمبر 1991، ص 58.

(4) محمد حجي، مرجع سابق، ص 2410.

1- رحلة الغزال السفارية إلى إسبانيا 1766م

- في السياقات والدوافع

أما عن السياقات القريبة لهذه السفارة، فتدخل رحلة الغزال السفارية ضمن المحادثات التمهيدية التي سبقت توقيع اتفاق المعاهدة المغربية الإسبانية التي أبرمت يوم 28 ماي 1767م⁽¹⁾، بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله ونظيره الإسباني كارلوس الثالث⁽²⁾، وتعود خلفيات هذا الاتفاق الذي كان الغزال من أهم صانعيه والمشاركين فيه، في رغبة المغرب السعي إلى تحقيق وحدته الترابية باسترجاع السيادة على ما تبقى من أجزائه المحتلة إلى غاية 1767م، أما للإسبان فمثل الاتفاق الخطوة الأولى لحل المشاكل التي كانت تتخبط فيها مسألة الحصون الإسبانية⁽³⁾.

وكان الغزال قد لمح في مقدمة رحلته إلى الأهداف التجارية المرجوة من تقارب الدول الأوروبية والدولة المغربية على عهد السلطان محمد بن عبد الله، لذا كثرت معاهدات الصلح بين هذه الأطراف من أجل حماية التجارة من القرصنة المتبادلة، وأنشأ المغرب ميناء الصويرة وفتح مجاله للدول الأوروبية للمتاجرة داخل المغرب وحماية سفنهم التجارية، وكانت إسبانيا ترى أنه لا سبيل لها لمنافسة أندالها الأوروبيين خاصة فرنسا وإنجلترا إلا الدخول في معاهدة سلام ماثلة مع البلدان المغاربية وعلى رأسها المغرب، لذا يقول الغزال متحدثا عن إلحاح الإسبان طلبا للمهادنة: «ولم يزل يطلب المهادنة على بعد بلاده، ووفور أجناده، ومع ذلك لم يجد شيئا... وقال: لا مزية إننا أولى بمصالحة المسلمين من الغير، والمهادنة بيننا وبينهم ضامنة لكل خير...»⁽⁴⁾.

ويجب الإشارة أن الاتصال مع إسبانيا كان قبل سفارة الغزال بعام، ففي سنة 1765م لاحت في الأفق بوادر التقارب المغربي الإسباني، من خلال الرسالة التي بادر بها السلطان محمد بن عبد الله إلى الملك الإسباني كارلوس الثالث من أجل تبادل تسريح الأسرى بين الطرفين، وهي الرسالة التي ذكرها الغزال في مقدمة رحلته جاء فيها: «إننا في ديننا لا يسعنا إهمال الأسارى وإبقائهم في قيد الأسر، ولا حاجة للتغافل عنهم، وفيما نظن أن في دينكم لا يسوغ

(1) لمزيد من التفاصيل حول اتفاقية السلام المغربية الإسبانية أنظر:

Maria martinez almira, «El tratado de paz de 1767 entre España y Marruecos. Un instrumento jurídico de extraterritorialidad, en Le Droit par-dessus les frontières. Il Diritto sopra le frontiere», Napoli, Casa Editrice Jovene, 2003, pp. 215-266

(2) كارلوس الثالث: Carlos III (1716-1788) ملك إسبانيا من أسرة البربون، توج ملكا على عرش نابولي سنة 1730م، وتركه لابنه فرناند الرابع، ليعود لإسبانيا سنة 1759م، حافظ على حياد إسبانيا في حرب السنوات السبع (1756-1763) بين فرنسا وإنجلترا، كما كانت له علاقات مميزة ومستمرة مع سلاطين الدولة العلوية خاصة السلطان محمد بن عبد الله. أنظر محقق محمد بن عثمان المكتاسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 86.

(3) حسن الفكيكي، «الغور المغربية المحتلة والاتفاق المغربي الإسباني لسنة 1767»، ضمن أعمال الدورة الثالثة لفعاليات جامعة مولاي على الخريفية، مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، ديسمبر 1991، ص 149.

(4) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 38-39.

لكم ترك أساراكم في الأسر مع الإمكان والاستطاعة ووجود ما يفتدون به من أسارى المسلمين واتساع البضاعة، فما للتغافل من الجهتين وجهه يعتبر، ولا أمر ينتظر»⁽¹⁾ وأوصاهم بهم خيرا مثلما يفعل هو مع الأسرى المسيحيين من حسن معاملتهم، مع الاعتناء بمرضاهم وإطلاق سراح الشيوخ منهم والنساء والأطفال بدون فدية.

ويذكر أن هذه الرسالة من السلطان المغربي لنظيره الإسباني جاءت بعد الرسالة التي وجهها بعض الأسرى المغاربة والمسلمين في إسبانيا إلى السلطان محمد بن عبد الله عبروا له فيها عما يعانونه من التعسف والإهانة ومما يكلفون به من الأعمال الشاقة⁽²⁾.

ليردّ الملك الإسباني على رسالة السلطان المغربي بأن سرح مجموعة من الأسرى المغاربة بإسبانيا، «ونادى في قومه بالبحث عمن بقي من أسارى الإيالة المولوية في المدن والقرى والنجد والغور، وأجاب بما فيه تطف واستعطاف»⁽³⁾ فكانت أولى خطوات التقارب في سبيل إيجاد حل لمشكلة الأسرى من الجانبين الإسباني والمغربي⁽⁴⁾.

وكذلك قام السلطان محمد بن عبد الله بإطلاق سراح عدد من الأسرى الإسبان بدون فدية، وعرض على نظيره الإسباني الدخول في عقد صلح ومهادنة (أي أن طلب الصلح كان من الطرف المغربي أولا)، وعلى إثر ذلك أرسل إليه كارلوس الثالث بعثة من القساوسة تحمل رسالة شكر وهدايا إلى السلطان، وقد طلب إليه ملك إسبانيا أن يبعث بأحد رجال دولته للاجتماع به ولزيارة المدن الإسبانية والتعرف على أحوالها⁽⁵⁾.

وافق السلطان المغربي على إيفاد سفارة إلى إسبانيا، وقد اختار السلطان رئيسا لبعثته الدبلوماسية خاله أبا يعلى عمارة بن موسى، ومعه أبا عبد الله محمد بن ناصر من قواد الجيش، ومعهما أبا العباس أحمد الغزال بصفته كاتباً للبعثة، ولما وصل الوفد إلى بعض الطريق، كتب الغزال إلى أحد وزراء السلطان يطلب إليه أن يُعرّف السلطان: «بأن هذين الرجلين لا معرفة لهما بقوانين الروم، وخفت عاقبة الأمر فلا تؤاخذني سيدي بما ينشأ عنهما، وإني بريء من ذلك»، ولما قام الوزير بنقل هذه الملاحظات إلى السلطان، أعاد النظر في تشكيل الوفد السفاري، فوضع على رأسه أحمد بن المهدي الغزال، وخلع عليه رتبة سفير وأعلم نظيره الإسباني بذلك⁽⁶⁾، ووجه معهم عدة من الإبل وعتاق

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 39.

(2) عبد المجيد القدوري، سفراء عرب في أوروبا 1610-1922 الوعي بالتفاوت، ط 1، دار السويدية للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006، ص 71.

(3) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 40.

(4) عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 3، مرجع سابق، ص 60-61.

(5) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 41-42.

(6) أبو القاسم الزباني، مصدر سابق، ص 398.

الخيّل، هدية للملك كارلوس الثالث⁽¹⁾، ولما كان أوان الرحلة إلى إسبانيا أعلم السلطان الكاتب الغزال بما يكون عمله في السفارة، وأوصاه بأن يتفقد حال الأسرى المسلمين، وأمره أن يحصيهم كل باسمه ولقبه، واسم رئيسه ومركبه، وتمييز الحامل لكاتب الله من غيره، وأمره كذلك بمنح كل منهم صلة أنعم بها عليهم السلطان⁽²⁾.

وبدأ الوفد السفاري رحلته من مكناسة الزيتون قاصدين طنجة، للعبور منها مباشرة إلى إسبانيا، ولكن حاكم سبتة الإسباني التجأ إلى حيلة اضطر معها الوفد المغربي إلى الإبحار من هذه المدينة التي وصل إليها في منتصف ذي الحجة 1179هـ/ماي 1766م⁽³⁾، وبعد إقامة استغرقت ستة أيام في سبتة أتيح للغزال زيارة معالم المدينة وتسجيل وصفها، ليبحر الوفد السفاري المغربي من سبتة اتجاه إسبانيا يوم 21 ذي الحجة 1179هـ/نهاية ماي 1766م⁽⁴⁾. سلك الغزال نفس الطريق التي سلكها قبله الوزير الغساني، فنزل بسبتة في 15 ذي الحجة 1179هـ/15 ماي 1766م، ثم أبحر نحو مرسى الجزيرة الخضراء، حيث وصل في 21 من نفس الشهر، وهناك توجه نحو مدريد صحبة رفقائه تارة على صهوات الخيل وطورا على العربات فمروا بجانب إشبيلية ثم قرطبة إلى أن حطوا الرحال بالعاصمة الإسبانية⁽⁵⁾.

(1) عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج2، مرجع سابق، ص61.

(2) المرجع نفسه، ص61-62.

(3) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص47.

(4) المصدر نفسه، ص54-55.

(5) ليفي بروفنصال، مرجع سابق، ص234.

- نتائج سفارة الغزال إلى إسبانيا

فيما يخص الهدف الأول والأساسي من سفارة الغزال؛ ألا وهو تفقد حال الأسرى المسلمين في إسبانيا وفكّك ما استطاع منهم، فإن مهمته هذه قد لاقت نجاحا كبيرا، وأدى السفير إلى إطلاق سراح الأسرى الذين احتجزوا هناك وعادوا مع ما يقرب من 290 أسيرا بين رجل وامرأة وطفل جلهم من أهل الجزائر⁽¹⁾، أما الأسرى الذين لم يستطع تحريرهم يوصي بهم ويمنح لهم العطايا تنفيذا لأوامر مرسله⁽²⁾، كما قدم الغزال وصفا نادرا لمحنة الأسرى المسلمين في إسبانيا، والأشغال الشاقة التي عانوا منها، والضغوط التي كانوا يعانون منها⁽³⁾.

وكان الغزال ناجحا بنفس القدر في مهمة إعادة عدد من الكتب والمخطوطات الإسلامية التي كانت بالمكتبات الإسبانية إلى المغرب وهي مهمة لا تقل أهمية عن تحرير الأسرى المسلمين، ويقول في ذلك: «...يأمر ملك إسبانيا بإخراجها من المحل الذي كانت به ودفعت لنا وزدنا على ما صاحبنا من كتب كتبنا من غرناطة... إلى أن قال... وذهبنا في هذه الجموع بعد أن قدمنا بثلاثمائة من الأسارى، وجعلنا على رأس كل أسير كتابا من كتب الإسلام أنقذها الله من بلاد الكفر ببركة مولانا المنصور بالله المتخلفة عن عمّار العدو من المسلمين فيما سلف، مصاحف وكتب الحديث والفقّه غير ذلك، وقد ادخر الله تعالى هذه الفضيلة لسيدنا المؤيد بالله التي عجز عنها من تقدم...»⁽⁴⁾.

وفيما يخص مهمة المباحثات حول الصلح والمهادنة فإنه رغم طول مدة بقاء الغزال في مدريد، فإننا لم نتمكن من متابعة المحادثات بما يكفي من الوضوح، حينما نقدر أن نتيجتها لا تتجاوز العودة بملف كان يعلم رأي السلطان فيه، ولا يمكن استبعاد عن هذه السفارة أنها قدمت وعودا مشجعة لحكومة مدريد تبدو من التعليمات التي جاء بها "خورخي خوان" سفير كارلوس الثالث إلى المغرب⁽⁵⁾.

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص223.

(2) المصدر نفسه، ص153.

(3) المصدر نفسه، ص 43، 124، 141-153، 142-154.

(4) المصدر نفسه، ص229.

(5) حسن الفكيكي، «الثغور المغربية المحتلة والاتفاق المغربي الإسباني لسنة 1767»، مرجع سابق، ص156-157.

2- كتابة نص رحلته

ومثل ما جرت عليه العادة مع أغلب الرحلات السفارية المغربية أن الأمر السلطاني قد يصدر أمرا إلى السفير إذا كان رجل علم وأدب، أو إلى أحد الكتاب المرافقين للسفارة ليدون كل ما يشاهده في رحلته، وهو ما كان في شأن رحلة الغزال، الذي تلقى تعليمات تقضي بأن يقيّد مشاهداته في إسبانيا ويصف المدن التي يراها، وفيها يقول صاحب الرحلة: «... ما أمرت به من الجانب المولوي أسماء الله، من أن أقيّد في هذه الوجهة الميمونة ما سمعت وما رأيت ووعيت ودريت، وأُحدِث عما أشاهده من المدن والقرى، وأصف جميع ما أبصرته في الإقامة والمسرة، فجعل الخديم ذلك بين عينيه، وأقامه مقام الواجب، ولم يزل يتشوق لما أمامه، ليستعمل في نص ما يشاهده بنانه وأقلامه، يستوعب من خبر البلاد الاصبنيولية بعضه وجله»⁽¹⁾، وتنفيذا لأوامر سيده أنتج الغزال نصا رحليا ماتعا ذا أهمية أسماء "نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد".

ويبين الغزال منهجه في كتابة نص رحلته بأنه «لم يتعرض لما هو من طريق المؤرخين من حشو مؤلفاتهم بتكرار أخبار المتقدمين، يعتمدون في ذلك على النقل، ويأتون بما هو مستحيل وما لا يجوزه العقل، ولا فائدة بالإتيان بما هو مقرر معلوم من الأخبار، ومحصوله الإعادة للأشياء بلفظها والتكرار، وقد جاء بما شاهده بالعيان على قدر الاستطاعة والإمكان»⁽²⁾ فجاءت رحلته معرضا لاهتماماته ومشاغله لأنه لم يدون إلا ما عاين، ولم يسجل إلا ما أحس، ولم ينقل إلا ما هو طريف⁽³⁾.

وعن أسلوبه في كتابة نص رحلته يذكر الغزال أنه قسم كتابه إلى قسمين؛ قسم أول جعله مقدمة لكتابه، وضح فيه وشرح وضع المغرب وأوروبا وخصوصا إسبانيا ضمن سياقات رحلته، ومبينا أهداف سفارته، وقسم ثان هو نص الرحلة: «... وأما ما بعده من الأخبار فهو جملة ما يتحدث به عن الأقاليم والأمصار، غير أنه لم يكن عن نقل وإنما هو مشاهد بالأبصار...»⁽⁴⁾.

وكعادة كتّاب الرحلات يقدم الغزال اعتذاره لقارئ رحلته عن أي خطأ أو تقصير قد يقع فيه قائلا: «... وليسأل مقيده من مطالعه القبول والرضى، والنظر إليه بعين التجاوز والإغضاء، فإن الكرام تلتبس الأعذار، وتقبل العثار، وتستتر العيوب فيما تبديه وتخفيه، والإناء يرشح بما فيه»⁽⁵⁾.

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص45.

(2) المصدر نفسه، ص45.

(3) أحمد الشتيوي، «اهتمامات الغزال من خلال رحلته»، حوليات الجامعة التونسية، ع25، 1986، ص185-186.

(4) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص46.

(5) المصدر نفسه، ص46.

ويحمل نص الغزال "نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد" عن رحلته إلى إسبانيا أهمية بالغة، فلهذه الرحلة قيمتها الأدبية والتاريخية، وتبرز أهميتها أكثر في عنصرين أساسيان؛ هما الفترة التاريخية التي أتت فيها الرحلة وكذلك الوجهة التي أخذتها، وتزداد أهمية الرحلة إذا أضفنا لها عنصرا ثالثا يتمثل في مؤلف الرحلة الكاتب والأديب والفقيه والدبلوماسي؛ أما عن أهميتها الأدبية فإننا نقف أمام نص تميز بالدقة في تصور الأحداث التي شاهدها المؤلف، والمناظر التي تأملها والآثار التي زارها في الكل المدن والقرى الإسبانية، أما عن قيمتها التاريخية فكما رأينا في مرحلة مهمة جدا في تاريخ العلاقات بين ضفتي المتوسط، مرحلة ما يزال فيها المغرب موقف الند للآخر الأوروبي.

ويستمد نص الغزال أهميته الأدبية والفكرية والتاريخية من منهجية صاحبه الذي أبى ألا يدون فيها إلا ما رآته عيناه بعيدا عن أي تأثيرات من كتاب أو رحالة سابقين، ما يجعل نصه أكثر شفافية ومصداقية معبرا بشكل دقيق عن موقف فقيه ورجل دولة وسفير يمثل الجهاز المخزني من الآخر الأوروبي.

ثانيا: محمد بن عثمان المكناسي ورحلاته إلى أوروبا

1- التعريف بصاحب الرحلة

- نسبه ونشأته

يعتبر المترجم له؛ محمد بن عثمان المكناسي⁽¹⁾ من الوجوه البارزة في الحياة الأدبية وفي التاريخ الدبلوماسي للمغرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وخاصة فيما يتصل بالعلاقات مع المملكة الإسبانية، والإمبراطورية العثمانية⁽²⁾، وعلى الرغم من المكانة العالية التي كان يحتلها ابن عثمان المكناسي على المستوى العلمي والسياسي والدبلوماسي، فإن المعطيات البيوغرافية عنه تظل شحيحة، وعلى الرغم من معاصرة ابن عثمان المكناسي للعديد من الأعلام الكبار من أمثال الزياني والضعيف، فإنهم لم يعطوا الرجل ما يستحقه، فهم لا يزيدون على التلميح إلى ابن عثمان بمناسبة سفارته إلى إسطنبول وإسبانيا وصقلية ومالطا ونابولي كما سنبينه في حينه، ولربما يرجع ذلك إلى جو التوتر والعداوة الذي كان يجمع بعض هؤلاء بابن عثمان وخصوصا الزياني⁽³⁾.

وعليه فلا نعرف الكثير عن الوضعية الاجتماعية لابن عثمان؛ أما مترجمنا فهو الكاتب السفير الرحالة الوزير الكبير⁽⁴⁾ أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب ابن عثمان المكناسي المسطاطي⁽⁵⁾، لا يعرف بالضبط تاريخ ولادته، وإنما يفترض بحسب ظروف حياته أنه ولد بمدينة مكناس أواسط القرن 12هـ/18م⁽⁶⁾.

- ثقافته ومكانته العلمية

لم تسعفنا المصادر التي اعتمدنا عليها للتعرف بشكل كبير حول تكوين ابن عثمان العلمي والثقافي، لكن تمكنا من خلال جمع بعض الشذرات في عديد المصادر حوله أن نكون صورة ولو لم تكن مكتملة عنه تماما، فالمترجم له سليل عائلة عريقة في العلم وخطة التوثيق منذ بدايات العصر السعدي⁽⁷⁾، حيث كان أبوه مورقا وواعظا وخطيبا بأحد

(1) سيظهر معنا في هذه الدراسة باسم: محمد بن عثمان، أو ابن عثمان المكناسي، أو ابن عثمان، أو المكناسي.

(2) عبد الهادي التازي، «القدس والخليل في الرحلات المغربية: رحلة ابن عثمان المكناسي أنموذجا»، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة-إيسيسكو-، السعودية، 1997، ص25.

(3) أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، الرباط، 1991، 103.

(4) عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق: علي عمر، ج4، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص192-193.

(5) محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج2، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1983، ص52.

(6) محمد الفاسي، «الوزير محمد بن عثمان»، المغرب الجديد، ع11، السنة2، فاتح ربيع النبوي 1355هـ، ص13.

(7) محمد المنوني وإحمد بن عبود، «رحلة ابن عثمان إلى القدس الشريف ومناطق من فلسطين»، مجلة المناهل، ع39، 1 ديسمبر 1990، ص2.

مساجد تلك المدينة، وخلفه ولده في ذلك بعد موته وهو ما يزال في مقتبل العمر⁽¹⁾.

وقد تم تكوين ابن عثمان المكناسي من خلال متابعة التعليم المغربي التقليدي، أولاً في مكناس المدينة الإمبراطورية التي بنيت في عهد السلطان مولاي إسماعيل ثم في جامعة "القرويين" في فاس، لاستكمال دراسته وتعميق معرفته الدينية، وانضم بعد ذلك إلى أرقى الدوائر في المدينة وأصبح رفيق الأمراء أبناء السلطان سيدي محمد بن عبد الله وخاصة الأمير مولاي علي الذي جمع قصره في فاس جميع علماء عصره، هذه الدورة جعلته يوصي لخدمة السلطان، ليس لدينا تاريخ محدد، ولكننا نعرف أنه كان أميناً في القصر، ومنذ ذلك الحين بدأ مهمة نصوغة داخل المخزن⁽²⁾.

ويجمع ابن زيدان الصفات العلمية التي اشتهر بها ابن عثمان، فيقول فيه: "فقيه علامة أديب أريب نبیه، حسن البديهة، قوي العارضة، شاعر مفلح، نقاد بليغ، يطرز كتاباته بفنون البلاغة والإنشاء وفق ما يشاء..."⁽³⁾، ويضيف صاحب إتحاف المطالع أنه كان "مشاركاً أديباً كاتباً مقتدرًا حسن السبك"⁽⁴⁾، ومن الحالات القليلة التي يصف فيها الزباني منافسه المكناسي، قدم شهادة عن مكانة هذا الأخير العلمية، فيقول في فهرسته: "أخذ من وفر ومن در كثير"⁽⁵⁾ واصفاً إياه "الفقيه النبیه"⁽⁶⁾.

ويظهر من خلال هذه الشذرات أن ابن عثمان تبوأ مكانة علمية جعلته أهلاً لكل النعوت الحميدة التي قيلت في حقه، لأنه سعى إلى الأخذ من علوم عصره، بل وشارك فيها بإنتاجه النشر والشعر وفي كتابة الرحلة، وكان شغوفا بطلب العلم أينما ارتحل مثل ما كان من شأن رحلته إلى المشرق، إذ من المعلوم أن الرحلة إلى المشرق بالنسبة للمغاربة لا تكون لأجل أداء فريضة الحج أو قضاء الأغراض الرسمية فقط، بل تعني أيضاً الرغبة في لقاء العلماء والشيوخ، وفي هذا السياق استطاع ابن عثمان الالتقاء مع نخبة من علماء المشرق؛ فاطلع على بعض مؤلفاتهم في علوم مختلفة، وقد

(1) عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج4، مرجع سابق، ص 192.

(2) Malika Ezzahidi, «Le rachat des captifs musulmans à Malte en 1782, d'après le récit de voyage d'Ibn Uthmân Al Meknassî», *Cahiers de la Méditerranée*, NO87, 15 December 2013, P02

(3) عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج4، مرجع سابق، ص 192.

(4) عبد السلام ابن عبد القادر ابن سودة، مرجع سابق، ص 88.

(5) أبو القاسم الزباني، جمهرة التيجان وفهرسة الياقوت والمرجان في ذكر المولى سليمان، تحقيق وتقدم: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص 138.

(6) المصدر نفسه، ص 143.

سمع في القسطنطينية عن العالم والقاضي صديقي مصطفى، كما سمع عن أبي علي الدقاق⁽¹⁾، وعندما انتقل إلى دمشق جالس العالم المحدث الشيخ سعد الدين الحنفي، وكذا الفقيه الأديب كمال الدين الشيخ بن محمد الشهير بالغزي الشافعي، وجرت بينهما محاورات علمية⁽²⁾، وفي طريق عودته إلى المغرب نزل السفير بتونس، فلم يفته لقاء بعض علمائها، منهم "صالح علمائها الشيخ الفقيه سيدي أحمد بن عبد الله السوسي المغربي"⁽³⁾.

وفي إسطنبول تمكن من زيارة عديد المكتبات واطلع على كثير من محتوياتها من الكتب⁽⁴⁾، وقد اعترف الزباني بذلك في الترجمانة الكبرى: "ولما أتيت أول يوم الشيخ كمال... وجدت صاحبنا السيد محمد بن عثمان المكناسي سبقني إليه، حيث بلغه اختصاري للتأليف ولم يجد إليه سبيلا، فبلغ به الحسد كل مبلغ"⁽⁵⁾، ورغم أن الزباني حاول إبراز تفوقه على ابن عثمان إلا أنه أعطى لنا صورة عن مسارعة المترجم له لأخذ العلم في البلد التي ينزل إليها. وخلاصة القول فإن ثقافة ابن عثمان ومكانته العلمية كثيرا ما كان يتم تغييبها أمام دوره كدبلوماسي، لكن هذا لا ينفي عنه صفة الأديب والكاتب البليغ المتشبع بعلوم عصره.

- نشاطه السياسي والإداري

من الناحية السياسية لا شك أننا نقف أمام شخصية ذاع صيتها ليس في المغرب فقط بل في الشرق والغرب، خاصة في مجال الدبلوماسية، إذ لعب المكناسي دورا هاما في سياسة المغرب الخارجية، وبالتحديد في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، إذ كان في خدمة ثلاثة سلاطين وهم محمد بن عبد الله (1757-1790م)، ومولاي البيزيد (1790-1792م)، ومولاي سليمان (1792-1822م).

ومثل الغساني قادت كفاءة ابن عثمان وعلمه لأن يتقرب من البلاط الملكي المغربي، ونشير أن اتصال محمد بن عثمان المكناسي بالبلاط الملكي المغربي كان منذ وقت مبكر بل وفي عنفوان شبابه، ككاتب أولا ثم ترقى في مختلف المراتب السياسية في السلك المخزني، إذ قربه السلطان المغربي محمد بن عبد الله ليكون من كتّاب بلاطه⁽⁶⁾، ولا نعلم عدد السنين التي قضاها في هذا المنصب.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، تحقيق: محمد بوكبوت، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2003، ص154.

(2) المصدر نفسه، ص242-243.

(3) المصدر نفسه، ص252.

(4) المصدر نفسه، ص92.

(5) أبو القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى، مصدر سابق، 1991، ص103.

(6) عبد الرحمان ابن زيدان، إتخاف أعلام الناس، ج4، مرجع سابق، ص192.

ولم يلبث أن عُين سفيرا للسلطان محمد بن عبد الله، في أعقاب ما نسميه "تصريح مكناس" لعام 1191هـ/1767م والذي يدعو فيه العاهل المغربي سائر الدول إلى القضاء على الرق بصفة نهائية، إذ اتبع هذا التصريح بحملة دبلوماسية مغربية مكثفة كانت تهدف إلى تبليغ هذا القرار للأمم الأخرى من جهة وإعطاء المثل والقُدوة من جهة ثانية، وهكذا دشنت حركة دبلوماسية واسعة لهذا واسعة الغرض⁽¹⁾.

استعمله السلطان محمد بن عبد الله في السفارة بينه وبين البلدان، فجال بسبب ذلك في أوروبا وأفريقيا وآسيا وما بينهما⁽²⁾، إذ قام محمد بن عثمان بأربع رحلات سفارية، ثلاثة منها أيام السلطان محمد بن عبد الله، والأخيرة على عهد مولاي اليزيد، ولعب دورا مهما في سياسة السلطان مولاي سليمان.

كانت أولى رحلات ابن عثمان الدبلوماسية عام 1193هـ/1779م، إلى إسبانيا، لعقد اتفاق مع ملكها كارلوس الثالث بغية تحرير الأسرى المسلمين المعتقلين في إسبانيا، وتحديد علائق المودة بين العاهلين المغربي والإسباني، وكان نجاح ابن عثمان في مهمته الدبلوماسية هاته وطريقة تعامله فيها ترك أثرا طيبا لدى الإسبان وجعله صديقا مقربا من رجال الدولة هناك، وكانت من أبرز نتائج نجاح مهمته إلى إسبانيا أن رقاها السلطان محمد بن عبد الله وزيرا⁽³⁾.

لتنقطع المعلومات حوله في هذه الفترة، والراجح أنه بقي منهمكا في عمله في القصر الملكي متوليا لمهمته في الوزارة، وبعد ثلاث سنوات 1196هـ/1782م، بعث السلطان محمد بن عبد الله بابن عثمان سفيرا إلى مالطا ونابولي، لافتداء الأسرى المسلمين هناك، وإبرام معاهدة صلح مع حاكم نابولي⁽⁴⁾، (وستتطرق لهاتين السفارتين بشيء من التفصيل لأنهما شكلتا إحدى محاور بحثنا لأن السفير المغربي أنتج عنها نصين رحليين كما سنبينه في حينه).

ثم غابت عنا مجددا معلومات حول مجهودات ابن عثمان الدبلوماسية⁽⁵⁾، إلى غاية سنة 1200هـ/1785م، حين أرسله السلطان محمد بن عبد الله سفيرا إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية، للاتفاق مع السلطان العثماني عبد الحميد الأول (1774-1789م) على إنهاء قضية بعض القلاقل التي تسبب فيها جنود أترك على الحدود الجزائرية-المغربية، وبعد إنهاء المهمة الموكلة إليه، قام بأداء فريضة الحج، وقدم هبات وصلات المغرب إلى شرفاء الحرمين

(1) عبد الهادي التازي، القدس والخليل في الرحلات المغربية، مرجع نفسه، ص25.

(2) عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج4، مرجع سابق، ص192-193.

(3) Abdelhadi Tazi, «Cádiz en el viaje de Muhammad Ibn 'Utman, embajador del rey Muhammad III, a Nápoles y Malta», *Al-Andalus Magreb: Estudios árabes e islámicos*, N° 6, 1998, p132.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير، تحقيق: محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، المقدمة.

(5) يضيف ابن زيدان في سرده للحركة السياسية والنشاط الدبلوماسي للسفير ابن عثمان المكناسي في أوروبا فيقول: ثم عثرت بعد ذلك على كلام بعض المؤرخين من الافرنج يدل على أنه تولى السفارة للسلطان المذكور إلى إمبراطور النمسا، لكن يبدو أن من نقل غليه ابن زيدان قد التبتت عليه سفرة محمد ابن عثمان بسفارة محمد بن عبد الملك الذي توجه إلى النمسا سفيرا للمغرب سنة 1197هـ/1783م. أنظر: محمد الفاسي، مرجع سابق، ص13.

الشريفين من قبل مخدومه السلطان محمد بن عبد الله، وطالت غيبته في هذه الرحلة الثالثة سنتين وعشر أشهر، كتب على إثرها رحلة بعنوان: "إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام"⁽¹⁾.

وبعد سفارته إلى المشرق عاد ابن عثمان إلى مهامه الدبلوماسية لدى المخزن المغربي، ومن ذلك مراسلاته بين رجال الدولة في إسبانيا والسلطان المغربي في طلبهم توسط المغرب لإطلاق سراح عدد من الأسرى الإسبان الذين احتجزوا في الجزائر⁽²⁾، ومنها مراسلاته مع قنصل إسبانيا في طنجة في شأن الأموال المتبقية من قيمة المبلغ الذي بعته سلطان المغرب إلى ملك إسبانيا ليفتدي به جماعة من الأسرى المسلمين في مالطا، كما كلف بمرافقة جماعة من الأسرى الجزائريين إلى تلمسان⁽³⁾.

وبعد وفاة السلطان محمد بن عبد الله واصل محمد بن عثمان مهماته الدبلوماسية في عهد خليفته السلطان المولى اليزيد، فأوفد بن عثمان سفيراً له للتفاوض مع إسبانيا على معاهدة سلام جديدة، في نهاية ديسمبر 1790م، قام المكناسي برحلته إلى مدريد، حيث وصل في منتصف يناير 1791م، واستقبله الملك كارلوس الرابع (Carlos IV 1788-1808م) يوم 27 من نفس الشهر، لم تنجح مساعي ابن عثمان هذه المرة، بدأ السفير المغربي عودته إلى بلاده في 18 أغسطس 1791م، في اليوم التالي أعلن كارلوس الرابع الحرب على المغرب، وفي هذه الأثناء ضحى مولاي اليزيد بسفيره ابن عثمان، وحمله مسؤولية فشل المفاوضات، ليتم عزله من منصبه ومنعه من العودة إلى المغرب، حيث عاد إلى مدريد في نهاية أكتوبر من نفس السنة، وبقي بها حتى بعد وفاة السلطان المولى اليزيد في 14 فبراير 1792م⁽⁴⁾.

بعد أن أعاد السلطان الجديد للمغرب المولى سليمان، السفير والكاظم محمد بن عثمان إلى العمل لديه، عينه حاكماً على تطوان، ومكلفاً بالاتصال بالسفراء الأجانب الذين كانوا يقيمون بطنجة وذلك بتاريخ 16 ربيع الأول 1207هـ/22 أكتوبر 1792م، وهنا تظهر الثقة الكبيرة التي حظي بها ابن عثمان عند المولى سليمان حيث مكّنه من منصبين في نفس الوقت، كاسراً بذلك برتوكول سياسي في المغرب⁽⁵⁾، ويذكر الأستاذ عبد الهادي التازي أن

(1) محمد الأخضر، مرجع سابق، ص227.

(2) Mariano Arribas Palau, «Cautiverio de cinco espanoles en Argel (1780-1782)» Hespéris- Tamuda, Vol. 16, N° 1, Rabat, 1975, p101.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص39. (جزء الدراسة)

(4) Mariano Arribas Palau, «Muhammad Ibn Utman designado gobernador de Tetuán a finales de 1792», Hespéris-Tamuda, Vol II , Rabat, 1961, p112.

(5) يبدو أن هذا هو الأمر الذي كان مثار التباس الباحثة الإيطالية "ليليا سارنلي تشركوا" التي تذكر أن ابن عثمان كان والياً على مدينة طنجة في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، ونحن نعتقد أن الباحثة وقعت في لبس بين مدينة تطوان وطنجة فالمعروف أن المكناسي تولى على مدينة تطوان وليس طنجة، أنظر: كليلا سارنلي تشركوا، «السفير محمد بن عثمان المكناسي وبعثته الدبلوماسية إلى نابولي سنة 1782/ أواسط شعبان 1196هـ»، ضمن ندوة أدب الرحلة والتواصل الحضاري، منشورات كلية الآداب، مكناس، 1993، ص220.

السلطان أرسل رسالة لسفراء الدول الأجنبية مقدا فيها ابن عثمان أحسن تقدسم⁽¹⁾، وجاء في هذه الرسالة المؤرخة بتاريخ 16 ربيع الأول 1207هـ/01 نوفمبر 1792م: «كافة القنصوات القاطنين بطنجة وبغيرها من جميع إبلتنا السعيدة سلام على من اتبع الهدى؛ أما بعد: فاعلموا أن كاتبنا الفقيه السيد محمد بن عثمان تعرفون منزلته عندنا وعند سيدنا الوالد رحمه الله صدقا وأمانة، وعرضا ومروءة ولهذه الحالة المعروف بها عندنا بعثناه لتطوان ووليناها أمرها... وهذا الفقيه له سبيل باعث على تمشية جميع الأمور على ما يناسب كل واحد، ومحافظ على المراتب والحقوق والغرض الآخر وهو جعله واسطة بيننا وبينكم، بحيث كل من يعرض له منكم امر إما من جهتكم أو جهة دولتكم فليعرضه عليه ويتفاوض معه لأنه أعلم بأحوالكم... لأنه عندنا معروف بالصدق (أي محمد بن عثمان) ولأجل اعتنائنا بأموركم قدمناه لهذا الأمر لتستمر أموركم على ما ينبغي فما عندنا أحد نصبناه للكلام معكم سواء»⁽²⁾.

وكانت آخر الإسهامات الدبلوماسية لمحمد بن عثمان المكناسي أن تم تعيينه في طرح قضية الحدود بين المغرب وإسبانيا، حيث عرض الملك الإسباني كارلوس الرابع (1788-1808م) مشروع اتفاقية إسبانية مغربية، انتهت المفاوضات باتفاقية مكناسة الزيتون الموقعة يوم 22 رمضان 1213هـ/1 مارس 1799م، وقع عليها الكاتب ابن عثمان ممثلا عن المغرب وخوان سلمون عن الجانب الإسباني، واحتوت على 38 فصلا⁽³⁾، وقد اعتبرها الدارسين لبنة أساسية في تطوير العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وإسبانيا في القرن التاسع عشر، هذا على الرغم من عدم تحقق كل أهدافها بعد وفاة ابن عثمان.

توفي ابن عثمان المكناسي بمراكش عام 1213هـ/1799م، بمدينة مراكش⁽⁴⁾، متأثرا بالوباء الذي اجتاحت بلاد المغرب وعمّ حواضره وبواديها⁽⁵⁾.

اعتبرت وفاة ابن عثمان خسارة كبيرة للمغرب ولأصدقائه في الدول الأوروبية خصوصا في إسبانيا وفرنسا، وذكر محمد الفاسي في تحقيقه لكتاب "الإكسير" أن الدبلوماسي الفرنسي طوماسي قال عنه: «ولكن أعظم ضياع بالنسبة لنا وبالنسبة لمولاي سليمان هو ما منينا به من موت وزيره الأول ابن عثمان ذلك السياسي الداهية الذي كان له استعداد للتفاهم قليلا ما نراه عند المسلمين، وقد كان صديقا لنا كما كان صديقا لإسبانيا»⁽⁶⁾.

(1) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، ج7، 1988، ص 129.

(2) Mariano Arribas Palau, **Muhammad Ibn Utman designado gobernador de Tetuán a finales de 1792**, Op.Cit, p112.

(3) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج7، مرجع سابق، 129.

(4) محمد الأخضر، مرجع سابق، ص 334.

(5) العباس بن إبراهيم السملالي، مرجع سابق، ص 145.

(6) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير في فكاه الأسير، مصدر سابق، ص: س

2- رحلة ابن عثمان المكتاسي إلى إسبانيا 1779-1780

- في السياقات والدوافع

كانت وجهة ابن عثمان السفارية الأولى إلى إسبانيا، بغرض تحرير وفكاك الأسرى المسلمين هناك، إضافة إلى مسعاه في تجديد الصلح بين المغرب وإسبانيا، يقول عن سبب رحلته: «...السعي في الصلاح في أرضه وبلاده والبحث عن أسارى المسلمين الذين بأيدي الكافرين، وقد كان عند النصارى الاصبنيول قبل هذا من أسارى المسلمين عدد كثير وجمهور غفير، وكلهم من البلاد المشرقية مثل طرابلس وتونس والجزائر وعمالاتها...ولآتيه بما تيسر لنا من أسارى المسلمين...»⁽¹⁾.

ورغم أن المكتاسي لم يعلن عن سبب سفارته الأساسي وهو المباحثة في تجديد الصلح بين المغرب وإسبانيا، لكنه أشار إليها بطريقة غير مباشرة بقوله: «...لما كنا بمدريد بعث إلينا مع وزيره الأعظم وقال: إن الطاغية يريد منك أن تتوسط له عند سيدنا ومولانا أمير المؤمنين في تجديد الصلح والمهادنة معه...»⁽²⁾.

وما ذكره السفير المكتاسي هو تأكيد لما جاء في رسالة العاهل المغربي للملك الإسباني: «...وقد وجهنا إليك كاتبنا السيد محمد بن عثمان ليتفقد أحوال أسارى المسلمين الذين بأيديكم فنحبك أن توجهه إليهم حتى ينظرهم ويختبر أحوالهم وهو وإن لم يكونوا من إيالتنا ولا هم تعلق بنا فقد وجب أن نتفكرهم ونبحث عنهم لأن كلمة الإسلام جمعتنا وإياهم فلا ينبغي لنا أن نهملهم، ولا أن نغفل عنهم، ومن أجل ذلك بعثنا إليكم كاتبنا السيد محمد بن عثمان البشاضور (من الكلمة الإسبانية El embajador أي السفير) تجديد لعهدكم وتأكيدا لمودتكم...»⁽³⁾.

هذا ويوضح أن سبب الخلاف الذي أدى لتوجهه من أجل المفاوضات وتجديد الصلح، جاء بعد حصار مدينة مليلية التي كانت تحت السيطرة الإسبانية وذلك في شوال 1188هـ/ ديسمبر 1774م⁽⁴⁾.

لكن المكتاسي يؤكد أن مهمته الأصلية والرسمية كانت بهدف تحرير الأسرى لا عقد الصلح، هذا الأخير الذي عُرض عليه فجأة وهو بإسبانيا!⁽⁵⁾ والظاهر أن صاحب الرحلة حاول تبرير رحلته وسفاريته حتى تأخذ شرعيتها الدينية، إلا أنه لا يذكر ما جاء في هذه المعاهدة⁽⁶⁾ والتي دخل فيها أيضا أمير نابلي باعتباره ابن ملك إسبانيا⁽¹⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 5-6.

(2) المصدر نفسه، ص 140-141.

(3) Mariano Arribas Palau, «Rescate de cautivos musulmanes en Malta por Mohammad Ibn Utman», Hespéris- Tamuda, VOL:x, Rabat, 1969. p328.

(4) محمد بن عثمان المكتاسي، مصدر سابق، ص 141-142.

(5) المصدر نفسه، ص 141.

(6) المصدر نفسه، ص 142.

انطلقت الرحلة يوم 20 شوال 1193هـ/ الموافق لـ 31 أكتوبر سنة 1779م، انطلاقاً من رباط الفتح⁽²⁾، لتعود إلى المغرب في رمضان 1194هـ/سبتمبر 1780م⁽³⁾، فمكث ابن عثمان ووفده السفاري بإسبانيا ما يقرب من مدة عام كامل تنقلوا فيها بين مختلف المدن والقرى الإسبانية وهي المدة التي استطاع فيها السفير المغربي تكوين صورة عن الواقع الإسباني والأوروبي في شتى المجالات.

- في نتائج الرحلة إلى إسبانيا

ويبدو أن هذه المبادرة المغربية من أجل تحرير هؤلاء الأسرى الجزائريين قد لاقى صعوبات ومعوقات من بينها عدم موافقة السلطات الإسبانية على افتدائهم بالمال، وذلك أن السلطات الإسبانية تسعى إلى المبادلة بدل الفداء، بسبب وجود الكثير من الأسرى الإسبان في الجزائر: «في شأن فدائكم بالمعاوضة بالأسارى الصبنيول الذين بالجزائر...وقد كتب سيدنا أيده الله إلى عامل الجزائر في شأن الفداء...»⁽⁴⁾.

ورغم الصعوبات التي تلقتها السفارة المغربية في مسعاها إلى مفاداة الأسرى الجزائريين لدى إسبانيا، فالسفير المغربي لم يقصر في مهمته بل سعى جاهداً إلى تحقيقها رغم العراقيل التي واجهته حيث يقول: «وما قصّرت حتى كثر القول وخشيت في المسألة العول...»⁽⁵⁾ إلا أن دبلوماسية السفير ابن عثمان المكناسي، وسعيه إلى تحرير أكبر عدد ممكن منهم، أدت إلى نجاحه في تحرير 122 أسيراً جزائرياً، «فأخرجت بفضل الله تعالى وبركة سيدنا أيده الله اثنين وتسعين أسيراً زيادة على الثلاثين الأولين، تخيرنا منهم الصبيان الصغار الذين يخشى عليهم الكفر والعياذ بالله والشيوخ العاجزين وذوي الأعذار ومن طال مكثه في الأمر نحو ثلاثين سنة...»⁽⁶⁾.

أما بخصوص مفاوضاته في تحديد الصلح والمهادنة بين المغرب وإسبانيا فكانت ناجحة واستطاع إبرام معاهدة أرانجوز (Aranjuez) التي أبرمت بتاريخ 26 جمادى الأولى 30 ماي 1780م، وهذا ما أكدته رسالة السلطان المغربي محمد بن عبد الله إلى نظيره الإسباني كارلوس الثالث، حيث جاء فيها: «...وشروط الصلح التي جعلتم مع السيد محمد بن عثمان المذكور أمضيها؛ وتصلكم مع كتابنا هذا ممضية، فابعثوا لنا نسختها التي بقيت عندكم بعد أن تمضيها، ونحن معكم على المهادنة والصلح التامين...»⁽⁷⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 143.

(2) المصدر نفسه، ص 07.

(3) المصدر نفسه، ص 194.

(4) المصدر نفسه، ص 163.

(5) المصدر نفسه، ص 164.

(6) المصدر نفسه، ص 164.

(7) Archivo Histórico Nacional, ESTADO,3372,Exp.14

وفيما يخص مهمة تحرير الكتب الإسلامية الموجودة لدى المكتبات الإسبانية فإن السفير المغربي لم يُرجع منها إلا ما كان هدية من الملك الإسباني: «...ودفع إلينا عدة كتب من كتب المسلمين رحمهم الله، وقال: إن الطاغية بعث إليك هذه الكتب على سبيل الهدية والإكرام...ويقول لك لو كان أمر كتب الأسكريال بيده لأعطاك منها جميع ما تريد، لكنها محبسة على ذلك الموضع من عهد الملوك الأول، وهي على يد البابا وإلى نظره...»⁽¹⁾.

3- رحلة ابن عثمان إلى مالطا و نابولي وصقلية 1781-1782

- في السياقات والدوافع

يظهر من خلال نص رحلة المكناسي والنصوص التاريخية المختلفة أن الهدف من توجه السفير المغربي إلى نابولي ومالطا هو توجيهه من طرف مرسله السلطان محمد بن عبد الله من أجل تحرير الأسرى المسلمين هناك: «...فوجهني إلى هذا المقصد...وأصحبني ستة وثمانين ألف ريال تصر في فداء الأسرى يبدأ بالنساء والصبيان والشيخ وذوي الأعدار، ثم غيرهم من الرجال...وذلك من جزيرة مالطا⁽²⁾ ونابلطان وما تيسر من غيرهما من البلاد والأوطان»⁽³⁾. كما مروا في رحلته هذه عبر جنوب إسبانيا، وكانت تحت حكم الملك كارلوس الثالث⁽⁴⁾.

كما كانت سياقات رحلة ابن عثمان إلى نابولي سفيرا من السلطان محمد بن عبد الله إلى ملكها فرديناندو الرابع ابن الملك الإسباني كارلوس الثالث، تندرج ضمن تطبيق البند العاشر من معاهدة أرانجوز (Aranjuez) التي أبرمها المغرب مع إسبانيا بتاريخ 26 جمادى الأولى 30 ماي 1780م، إذ نص هذا البند على إمكانية إدخال حاكم نابولي في الصلح والمهادنة مع المغرب: «إذا أراد سلطان نابولس يعمل الصلح مع سلطان الغرب فتكون له ولرعيته الهدنة والطمأنينة مع الأمان والسلامة، ويتاج رون النابوليتان في مملكته كما يتاجرون تجار اصبنيول ويعاملون معاملتهم في الصحبة والتجارة وتبطل العداوة والمحاربة مع رعايا سلطان نابولس وسلطان الغرب»⁽⁵⁾، وهذا ما أكدته ابن عثمان في ذكره سبب توجهه إلى نابولي: «... توجيهنا إليه بقصد عقد الصلح، حيث طلب له والده ذلك واشترطه في عقد الصلح الذي عقدنا معه وفداء الأسرى المسلمين في بلده وتحت حكمه»⁽⁶⁾.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسبر، مصدر سابق، ص 144-145.

(2) Mariano Arribas Palau, **Rescate de cautivos musulmanes en Malta por Mohammad Ibn Utman**, Op.Cit, p273-329.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 84، ص 101.

(4) المصدر نفسه، ص 86.

(5) Archivo Histórico Nacional, ESTADO, 3372, Exp. 14

(6) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 135.

أما رحلته إلى مالطا فكما رأينا في نص ابن عثمان الأسبق كانت من أجل افتداء الأسرى المسلمين المحتجزين فيها، وكان السلطان محمد بن عبد الله قد أرسل وفدا مغربيا إلى مالطا يقوده محمد بن عبد الهادي الحافي⁽¹⁾، وكان هذا الوفد قد سبق سفارة ابن عثمان إلى مالطا بسنة⁽²⁾، وأمره بإحصاء عدد الأسرى المسلمين هناك، وبسبب وقوع خلاف بين المغرب ومالطا عزز السلطان المغربي مجهوداته من أجل تحرير الأسرى المسلمين بمالطا بإيفاد سفارة قادها ابن عثمان.

أما عن مسار رحلته الزماني فنشير أن رحلة ابن عثمان السفارية انطلقت من مدينة مراكش يوم 02 ذي الحجة سنة 1195هـ الموافق لـ 16 ديسمبر 1781م⁽³⁾، غادر ابن عثمان قادش باتجاه مالطا يوم 05 ربيع الثاني 1196هـ الموافق لـ 19 مارس 1782م، ودامت سفارته فيها نحو أربعة أشهر ليغادر بعدها باتجاه نابولي يوم 07 شعبان 1196هـ الموافق لـ 18 جوان/ يوليو 1782م⁽⁴⁾، وبيقت السفارة بنابولي أربعة أشهر ونصف⁽⁵⁾، أنهى ابن عثمان مهمته في نابولي وغادرها باتجاه جزيرة صقلية يوم 04 محرم 1197هـ الموافق لـ 10 ديسمبر 1782م⁽⁶⁾، وبقي ابن عثمان في جزيرة صقلية 3 أشهر، حيث غادرها يوم 16 ربيع الأول سنة 1197هـ، الموافق لـ 21 مارس 1783م⁽⁷⁾.

(1) هو محمد بن عبد الوهاب الحافي، ينتمي إلى أسرة الحافي السلاوية، التي كان لها شأن وحظوة خلال القرنين 12 و13هـ/ 18 و19م، وكانت لبعض أفرادها مكانة مرموقة فمنهم الفقهاء والعلماء والولاة، كان من كتاب وسفراء السلطان محمد بن عبد الله. أنظر: المصدر نفسه، ص 102-103.

(2) المصدر نفسه، ص 102-103.

(3) المصدر نفسه، ص 85.

(4) المصدر نفسه، ص 129.

(5) المصدر نفسه، ص 249.

(6) المصدر نفسه، ص 178.

(7) المصدر نفسه، ص 203.

- في نتائج سفارته إلى مالطا و نابولي وصقلية

نجحت سفارة ابن عثمان نجاحا باهرا في تحقيق أهدافها، ففي نابولي، نجح في إبرام عقد الصلح والمهادنة بين المغرب ونابولي: «... فلما قدمنا على هذا الطاغية شرعنا في عقد شروطه، فاشتراط كل واحد منا ما فيه مصلحته لجانبه، ولما تم الاتفاق، وحصل الائتام والوفاق، استنسخنا الشروط وأنزلنا عليها الخطوط،»⁽¹⁾، ومرة أخرى لا ييوح ابن عثمان عن فحوى وشروط اتفاقية الصلح الموقعة مع الأوروبيين، وبيقت السفارة بنابولي أربعة أشهر ونصف⁽²⁾.

أما عن هدفه الثاني في فكك الأسرى فيقول المكناسي: «... ثم إن الله تعالى فتح علينا في فداء مائة أسير تصدق بهم الطاغية على بعض النصارى ليبيعوهم ويفدوا إخوانهم من الأسر، فاستقدناهم من فضل الله زيادة في الثواب والأجر، وجمعناهم مع إخوانهم الذين كانوا عندنا...»⁽³⁾، إضافة إلى تسريح 30 أسيرا كهدية من حاكم نابولي إلى نظيره المغربي⁽⁴⁾.

وكان ابن عثمان قد أشار حين لقائه مع فرناند الرابع ملك نابولي أن هذا الأخير رفض أن يسرح ويفتدي إلا الأسرى من المغرب (المغرب الأقصى) دون بقية الأسرى المسلمين سواء من الإيالات المغاربية (الجزائر، تونس، طرابلس) أو بقية المسلمين في المشرق، ويبرر السفير المغربي هذا الرفض على لسان ملك نابولي: «... ما بيننا بينهم إلا الحرب، وكذلك إخواننا عندهم أسرى بأيديهم، ولو لم يكن إخواننا الذين عندهم لسرحنا من عندنا من المسلمين ابتغاء خاطر مولانا أمير المؤمنين، وحيث كان إخواننا في الأسر نجبكم أن تسعوا في فداء الجميع...»⁽⁵⁾، ورغم هذا الرفض فإن هذا المقطع يؤكد أن حاكم نابولي عرض وساطة المغرب وسلطانه في سبيل تبادل تحرير الأسرى بينهم وبين الدولة العثمانية وإيالاتها المغاربية.

وفي مالطا يؤكد ابن عثمان أنه تمكن من فكك حوالي 613 أسيراً من الأسرى المسلمين (بلغ أسرى المسلمين في مالطا زمن سفارة ابن عثمان كما بينه هذا الأخير حوالي 1500 أسير) تم تحريرهم على دفعات، ولم يكونوا كلهم من المغرب بل من الدولة العثمانية وإيالاتها في شمال إفريقيا (الجزائر، تونس، طرابلس) وتم نقلهم عبر السفن إلى بنغازي وطرابلس، لكنه قبل هذا يشير إلى الصعوبات الكبيرة التي تلقاها في عملية الفكك، حيث أثرت الشكوك في مالطا حول هدف السفارة، خاصة بعد تجميع الأسرى وعدم نقلهم مباشرة؛ إذ أتهم السفير ووفده السفاري والأسرى

(1) المصدر نفسه، ص 175.

(2) المصدر نفسه، ص 249.

(3) المصدر نفسه، ص 175.

(4) المصدر نفسه، ص 135.

(5) المصدر نفسه، ص 135.

الذين تم الإفراج عنهم للتو بمحاولة القيام بتمرد يهدف إلى الاستيلاء على الجزيرة، وكإجراء أمني حاصرت السلطات في مالطا الأسرى المسلمين، وشدت الرقابة الدقيقة على السفير ووفده، هذا إضافة إلى الصعوبات التي تلقاها من قبل مالكي هؤلاء الأسرى، وكان تدخل حاكم مالطا فاعلا في تخفيف التوتر من خلال توفير سفن لنقل الأسرى إلى بلدانهم بأقصى سرعة ممكنة⁽¹⁾.

وقبل مغادرة مالطا إلى نابولي، أكد المكناسي أنه أحصى عدد الأسرى الذين بقوا في الأسر من المسلمين: "فكانوا سبع مائة وبعضا وعشرين" وذكر أنه تفاوض مع ملاكهم في قدر فدايتهم، وأخبر السلطان المغربي بما كان في شأنهم⁽²⁾، "فإن قومي عزم سيدنا على إخراج هذه البقية من المسلمين..."⁽³⁾.

4- نصوص رحلات ابن عثمان إلى أوروبا

نتج عن سفارات ابن عثمان ثلاث نصوص رحلية اثنتين منهما إلى أوروبا والثالثة إلى المشرق والدولة العثمانية، أما الأولى فسجل فيها مشاهداته وارتساماته عن إسبانيا التي زارها سنة 1780/1779م؛ عنوانها المؤلفة بـ "الإكسير في فكاك الأسير"، فيما نتج عن سفارته إلى مالطا ونابولي وصقلية نص آخر بعنوان "البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر" أما رحلته إلى المشرق والدولة العثمانية فكانت تحت عنوان: "إحراز المعلى والريب في حج بيت الله الحرام"

وفي دوافع كتابة نصي رحلتيه إلى أوروبا نلاحظ أنه وخلافا لما غلب في كتب الرحلات السفارية في أن الأمر السلطاني قد صدر إلى السفير إذا كان رجل علم وأدب، أو إلى أحد الكتاب المرافقين للسفارة ليدون كل ما يشاهده في رحلته كما رأينا ذلك في رحلة الغزال، لكننا لا نجد في "البدر السافر"، ولا في "الإكسير في فكاك الأسير" تعبيرا يدل على أن السلطان المغربي محمد بن عبد الله أمر ابن عثمان بتدوين مشاهداته⁽⁴⁾، تحدث ابن عثمان عن دوافع كتابة هذين النصين الرحليين فعن نص "الإكسير" يقول: «وسميته الإكسير في فكاك الأسير، وقد رأيت أن أقيد ما أبصرته في وجهتي وأوتي من المدائن والحواضر والقرى والمداشر...»⁽⁵⁾، ثم إن المكناسي كعادة الرحالة يقدم تبريراته في الكتابة: «لكنني رسمته لمن هو مثلي بالقصور معترفا ولم يكن مستنكفا، مستمدا من الله تعالى التوفيق إلى سواء الطريق»⁽⁶⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 122-123.

(2) وبالفعل تمكن السلطان المغربي محمد بن عبد الله من تحرير هذه البقية من الأسرى في مالطا سنة 1788-1789م، للمزيد أنظر:

Mariano Arribas Palau, «Un rescate de 600 musulmanes cautivos en Malta (1788-89)», Hespéris-Tamuda, VOL XXV, Rabat, 1987, p 33-89.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 128.

(4) المصدر نفسه، ص 48.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 06.

(6) المصدر نفسه، ص 06.

وهي نفس الدوافع التي ذكرها حول نص كتاب "البدر السافر" بالقول: «ورأيت أن أقيد ما أبصرته في سفري، وأنا بذلك غير حري لقصوري عن الإدراك وتترادف الشواغل والمشاق العظام على قلب الضعيف...»⁽¹⁾، حيث يبدو من كلام ابن عثمان وسياقه أن إقدامه على كتابة مؤلفيه تدفعه دوافع شخصية، ورغم هذا يشير ابن عثمان إلى تنبيه السلطان له في أن يكتب عما يشاهده في بعض المحطات الأوروبية التي نزل بها، ومنها جزيرة مالطا، والتي يقول فيها: «...وذلك أننا أقمنا بمدينة مالطة ما يقرب من شهر لنختبر أحوال البلد وأمورها في السر والجمهور...»⁽²⁾.

إن أهمية رحلتي ابن عثمان إلى أوروبا تكمن بالدرجة الأولى في مكانة مؤلفهما كشخصية بارزة في المغرب خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر، فالرجل من عيار كبار رجال الدولة الذين ساهموا بفعالية في صنع أحداث الفترة الزمنية المذكورة، حيث خلف في رحلاته هاته التي قادته إلى كل من إسبانيا و نابولي وصقلية ومالطا نصين وضح فيهما مشاهداته وارتساماته حولها.

وتمثل رحلات المكناسي إلى أوروبا مساهمة بالغة الأهمية وإثراء لا غنى عنه في الدراسات التاريخية للدبلوماسية المغربية كصورة مصغرة عن طبيعة الدبلوماسية الإسلامية كما سنبينه في حينه، بالإضافة إلى إسهاماته في رسم صورة عن العلاقات في العالم المتوسطي في فترة شهدت تغيرات عميقة على كافة المجالات، والأهم تلك الصور التي حملتها نصوص رحلاته حول واقع البلاد الأوروبية التي ارتحل إليها خاصة وأن هذه الصورة تأتي من رجل دولة مغربي مثلت أهم شخصية دبلوماسية مغربية في عصره.

وعن أهمية نص "الإكسير في فكاك الأسير" يتحدث الأستاذ محمد الفاسي الذي يقول في تقديمه لها: "أما مؤلفه هذا... فهو كتاب حي يصف الحياة الإسبانية في المائة الثامنة عشرة وصفا دقيقا، فهو مولع بمعرفة الأشياء والاطلاع على أصولها ومقاييسها وفوائدها، يهتم بالحياة الاجتماعية وبالنشاط الاقتصادي والثقافي، فما ترك مظهرا من مظاهر الحياة الإسبانية من رقص وتمثيل ولعب ثيران وتفسح في الميادين والشوارع، إلى غير ذلك من أوجه النشاط العام لهذه الأمة إلا وتعرض له بالوصف والتحليل"⁽³⁾.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 84.

(2) المصدر نفسه، ص 122.

(3) محمد الفاسي، مقدمة الإكسير، مصدر سابق، ص -ش.

أما في "البدر السافر" فنجد أن السفير كان يصف بدقة نصاهية التفاصيل الكثيرة الخاصة بالأماكن والمعالم التي سنحت له الفرصة بزيارتها، يظهر فيه الكاتب شخصية عجيبة ذو اهتمامات مختلفة وعقلية متفتحة، يقيم كل ما يراه وكل ما يقابله، ويصفه ببساطة الأسلوب المفعم بالحيوية والبارق بالحداقة والذكاء، دون أن يقع في المبالغة والابتعاد عن الواقع⁽¹⁾.

فكتابا "الإكسیر" و"البدر السافر" اللذان أنتجهما المكناسي عن رحلاته في أوروبا يزخران بمعطيات عن أوضاع البلاد المرتحل إليها والتي كثيرا ما اتسمت بدقة الملاحظة، وانتباهه إلى مختلف الميادين الدينية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والجغرافية، والتي أورد عنها صورا تبدو واقعية ومحايمة إلى حد بعيد، رغم حتمية تأثير ذاتيته على الصور التي كونها، ورغم ذلك تسهم شهادته في تشكيل صورة عن أوروبا تكمن أهميتها أكثر أنها تأتي من كاتب خارج عن المجال الجغرافي والإيديولوجي والديني الأوروبي، صورة من كاتب مغربي في وقت كانت فيه أوروبا مجهولة ونادرا ما تكون مصب اهتمام الكتّاب العرب والمسلمين والمغاربة.

(1) كليلا سارنلي تشركوا، مرجع سابق، ص. 222.

الفصل الثالث: الرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرن 19م

- أولا: محمد الصفار ورحلته إلى فرنسا 1845-1846م

- ثانيا: رحلة إدريس العمراوي إلى فرنسا 1860م

- ثالثا: رحلة الطاهر الفاسي إلى إنجلترا 1860م

- رابعا: رحلة إدريس الجعيدى إلى أوروبا 1876م

- خامسا: رحلة أحمد الكردودي إلى إسبانيا 1885م

الفصل الثالث: الرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرن 19م

تزايد التوافد الدبلوماسي المغربي إلى أوروبا خلال القرن التاسع عشر، لينتج لنا سفراء النصف الثاني من هذا القرن خمس نصوص رحلية، جاءت جميعها في مرحلة حرجة بالنسبة للمغرب (المغرب الأقصى) والبلاد المغاربية والبلاد الإسلامية على كافة المستويات مقابل تفوق أوروبي، لذا سنتعرف في هذا الجزء من البحث على هؤلاء السفراء الرحالة، مبينين دوافع رحلاتهم بشكل منفرد، باحثين في سياقاتها، الأمر الذي سوف يؤثر بلا شك في خطاب رحلاتهم حول الآخر الأوروبي.

أولاً: محمد الصفار ورحلته إلى فرنسا 1845-1846م

1- التعريف بصاحب الرحلة

- نسبه ونشأته

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الكريم⁽¹⁾ الصفار التطواني⁽²⁾، ينحدر من أسرة ذات أصل أندلسي، إذ قدم أجداده من مدينة جيان (Jaen) الأندلسية، لذا أطلق على والده لقب "الجواني" ويشير محمد داود في كتابه "تاريخ تطوان" أن أسلاف الصفار هاجروا من الأندلس بعد استيلاء الإسبان عليها ليقصدوا أولاً مدينة القيروان، أما الذين استقروا في المغرب فكان تواجدهم عبر عدة مدن منها تطوان وفاس ومكناسة الزيتون⁽³⁾، ولد المترجم له بمدينة تطوان في العشرة الثانية من القرن الثالث عشر الهجرية، ومثل كثير من أعلام عصره لا نعرف الكثير عن بداية حياته⁽⁴⁾.

- تكوينه العلمي وثقافته:

استهل الصفار مشواره التعليمي بمدينة تطوان على يد شيوخ عصره⁽⁵⁾، لينتقل بعدها إلى مدينة فاس للدراسة بجامع القرويين؛ إذ استقر هناك مدة فاقت ثماني سنوات، درس خلالها الفقه والأصول والحديث والنحو، وكان شيخه

(1) العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل بمراكش وآغامت من أعلام الناس، ج7، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1993، ص34.

(2) محمد غريط، فواصل الجمال في أنباء وزراء وكتاب الزمان، ط1، المطبعة الجديدة، فاس-المغرب، 1346هـ، ص70.

(3) محمد داود، تاريخ تطوان، ج7، المطبعة الملكية، الرباط، 1990، ص91.

(4) العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل بمراكش وآغامت من أعلام الناس، ج7 مرجع سابق، ص34.

(5) لم يترك لنا الصفار أية فهرسة تتضمن لائحة بأسماء شيوخه وعناوين الكتب التي قرأها بتوجيه منهم، أنظر: محمد الصفار، رحلة الصفار إلى فرنسا

(1845-1846)، تح: سوزان ميللر، تر: خالد بن الصغير، ط1، دار السويدية للنشر والتوزيع والمؤسسة المغربية للدراسات والنشر، أبو ظبي وبيروت،

2007، ص68. (جزء الدراسة)

الأساسي العالم ابن عبد الرحمان الحجري⁽¹⁾، ليعود بعدها إلى تطوان سنة 1252هـ/1836م، وأضحى يلقب بالفقيه لما اكتسبه من علوم شرعية وتمكن من اللغة العربية⁽²⁾، واشتغل هناك في التدريس والعدالة والإفتاء⁽³⁾.

ويُعرفه مؤلف كتاب "عمدة الراوين" بقوله: «ثم إن صاحب الترجمة مع ما كان عليه من كثرة الأشغال السلطانية، كان قواما بالليل صواما بالنهار، معمور الأوقات بقراءة القرآن والمطالعة، حتى إن جميع الكتب التي كانت عنده موقوفة وعليها أثر المطالعة والمراجعة بغاية التحقيق والتدقيق، وكانت له مَلَكَة راسخة في جميع العلوم على وجه التحرير»⁽⁴⁾، بينما يصفه محمد غريط في "فواصل الجمان" أنه "كان ذا جد وسكينة، ودراية مكينة، وأخلاق في المروءة عريقة، ومعرفة بالسيادة خليقة، وحياد وانقباض عن سفاسف الأغراض"⁽⁵⁾.

بعد إنهاء الصفار دراسته بفاس بدرجات من الامتياز كان على أتم الاستعداد لاعتلاء أعلى المراتب في المجتمع المغربي، وذلك اعتمادا على رسائل التوصية المسلمة إليه من أساتذته المرموقين، فتمكن في وقت وجيز من فرصة عمل تتلاءم وتكوينه، حيث اشتغل عدلا بمدينة تطوان، وكان العدول يحضون بالتقدير والاحترام لدى عامة الناس لمعرفةهم بأمور الشرع واتصافهم بالاستقامة والأمانة، واستطاع أن يصبح بسرعة من أبرز العدول الموجودين في تطوان، كما كان يقدم الفتاوى في القضايا الدينية وينوب أحيانا عن القاضي في اتخاذ القرارات.

بالإضافة إلى مهام العدلية كان يدرس بمساجد تطوان مواد الحديث والفقه، والشك أن تلك الأيام شكلت أوقات طمأنينة له إذ حظي لدى التطوانيين بالاحترام والتقدير، فانغمس في تلك البيئة المريحة التي وفرتها له تطوان مسقط رأسه بمهام التدريس⁽⁶⁾.

(1) أبو العباس أحمد ابن شيخ الجماعة محمد بن عبد الرحمان الفلاحي الحجري الفاسي، قاضي فاس وفقهها، النحوي الفهامة، أخذ العلم عن والده، ومحمد جنون وغيرهما، توفي سنة 1303هـ/1885م. أنظر: محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحرير وتعليق: عبد المجيد خيالي، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010، ص610.

(2) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 68-69. (جزء الدراسة)

(3) أبو العباس أحمد الرهوني، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تح: جعفر الحاج السلمي، ج6، منشورات جمعية تطاون أسمى، تطوان، 2006، ص165

(4) المرجع نفسه، ص167

(5) محمد غريط، مرجع سابق، ص70

(6) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 68-69. (جزء الدراسة)

- وظائفه السياسية والإدارية

كان الحدث الأبرز الذي هز حياة "الصفار" ونقله من طور إلى آخر، هو التغيير الذي فرضه السلطان عبد الرحمان بن هشام (1822-1859م) على مستوى البنية الإدارية لعمالات البلاد، القاضي بإلزام عمال المدن وقياد البوادي باتخاذ كتبة محترفين يسهرون على تحرير المراسلات الرسمية مع الجهاز المخزني المركزي، فما كان من باشا "تطوان" محمد أشعاش⁽¹⁾ إلا أن اتخذ من "الصفار" كاتباً رسمياً له، كيف لا وهو الفقيه العالم في كل الإيالة، وبذلك لزم "الصفار" مجلس الباشا" ومن بعده مجلس ابنه "عبد القادر أشعاش"⁽²⁾، فكان فقيهاً مستشاراً في كل الأمور التي تستشكل على "أشعاش" من الناحية الشرعية، لكن حبه للتدريس وممارسة العدلية ظل يسكنه حتى بعد أن أصبح ذو مكانة اجتماعية رفيعة، وبهذه الصفة الكاتب المخزني والفقيه العالم بأمور الشرع- وقع اختيار "عبد القادر أشعاش" على "الصفار" وكان ضمن أعضاء السفارة المغربية التي توجهت إلى فرنسا، وبعد العودة من هذه السفارة عُيّن عناً أحداث مهمة في حياة الصفار، إلا أنه على الأغلب واصل القيام بمهمة الكتابة في خدمة عبد القادر أشعاش⁽³⁾.

وبعد نكبة السلطان المغربي لآل أشعاش وإبعادهم عن الحكم في تطوان سنة 1267هـ/1850م⁽⁴⁾، مسّ هذا القرار كل من يقرب لهاته الأسرة المخزنية، وكان المترجم له من بينهم، إلا أن هذا الأخير طلب الشفاعة لدى السلطان فشفّع له⁽⁵⁾، فقربه إليه وعينه مدرساً لأبنائه ثم كاتباً لديه، قبل أن يتولى منصب الصدارة الكبرى عام 1270هـ/1854م، ثم وزارة الشكايات (وزارة العدلية) أكثر من ثلاثين (30) سنة إلى أن توفي عليها⁽⁶⁾، وبذلك

(1) محمد بن عبد الرحمان أشعاش: وليّ عاملاً على تطوان حوالي عام 1241هـ/1827م، كان حازماً في حكمه وفي عهده شاع الأمن في كافة المناطق التي تحت نفوذه فكان خادماً أميناً للسلطة المغربية بالمنطقة، وبلغت هيئته وأهته أن نافس السلاطين في ذلك، وتواردت كثير من الأخبار عن قوته وحزمه، كانت وفاته سنة 1261/1845م بتطوان. أنظر: معلمة المغرب، ج2، ص462.

(2) عبد القادر بن محمد أشعاش: بن محمد سالف الذكر، ولي على تطوان عام 1261م/1845م، بعد وفاة والده، كان ذا شخصية قوية، سار في الحكم سيرة أبيه وكان له مكانة عند السلطان عبد الرحمان بن هشام، عرف مع إخوته بكثرة الأموال والأموال، وكان السلطان المغربي قد ضيق على هذه الأسرة واستحوذ على أملاكها سنة 1267هـ، وكما سفيراً للمغرب إلى فرنسا سنة 1845م، وتشير الوثائق أنه عاد إلى حكم تطوان مرة ثانية بعد استرجاعها من يد الإسبان سنة 1278هـ، فقام بإصلاح ما خرب فيها وإعمارها، واستمر عاملاً على المدينة إلى أن عزل منها سنة 1279م، وقبض عليه من جديد قبل أن يعمل أميناً على الضرائب إلى أن توفي بمكناس سنة 1282هـ. أنظر: المرجع نفسه، ص462.

(3) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 70. (جزء الدراسة)

(4) وقد ارتبط هذا الانقلاب بالباشا "أشعاش" ثانية، ذلك أن هذا الثري، الذي قدم للسلطان خدمة تمثله أمام الفرنسيين بميزانية كاملة "من ماله"، وضعته المؤامرات أمام مكائد البلاط الغادرة فاستدرج الباشا الشاب في إحدى الأعياد الدينية إلى القصر السلطاني، وفي باله أن الأمر اعتيادي يتعلق بتسلم هدية العيد، لكن المبيت كان أكبر مما حسبه الحساب، إذ ما أن وطقت أقدامه مجال الحرس السلطاني حتى أُلقي عليه القبض، وزج به غياهب السجن.

(5) وكان الوزير محمد بن إدريس على رأس من تشفعوا للصفار لدى السلطان، بعد أن أطلع الوزير السلطان عن البطائق والرسائل التي كان يرسلها الصفار رجاء العفو عنه وهو ما كلن فعلاً. أنظر: أبو العباس أحمد الرهوني، مرجع سابق، ص165.

(6) محمد غريط، مرجع سابق، ص 70-71.

يكون الصفار قد خدم ثلاثة من ملوك الدولة العلوية: السلطان عبد الرحمان بن هشام (1822-1859م)، والسلطان محمد بن عبد الرحمان (1859-1873) والسلطان الحسن الأول (1836-1894)، وإن بقاء الصفار في القصر الملكي طيلة ثلاثة عقود من الزمن دليل على الثقة التي أولاها السلاطين المغاربة للمترجم له، ومن الأمور المثيرة المعبرة عن خصوصيات محمد الصفار صموده الطويل وبقائه طيلة هاته الفترة طرفا فعالا في مركزية السلطة المخزنية المغربية، إذ يعتبر هذا رقما له أهميته في عالم المغرب المعروف بتغييراته وتقلباته العديدة⁽¹⁾.

وكانت وفاة محمد الصفار فجر يوم الاربعاء عاشر ذي قعدة من عام 1298هـ/1881م، بعد وعكة صحية كان قد تعرض لها وهو في مهمة مع السلطان، توفي في دار ولد زيدوح بتادلا ودفن بمراكش⁽²⁾.

2- رحلة الصفار إلى فرنسا 1845-1846م

- في السياقات والدوافع

مهدت مجموعة من الظروف لرحلة محمد بن عبد الله الصفار إلى فرنسا سنة 1845م، رفقة السفير عبد القادر أشعاش، والتي جاءت في جو من الهزيمة أمام تفوق الآخر (فرنسا)، ومن جملة هاته الظروف سقوط الجزائر بيد الفرنسيين سنة 1830م، وصولا إلى هزيمة الجيش المغربي أمام الفرنسيين في موقعة إسلي المدوية سنة 1844م، وما أعقبها من شروط الصلح المحققة، من خلال اتفاقية "لالة مغنية" في 18 مارس من سنة 1845⁽³⁾.

إذ نتج عن لجوء الأمير عبد القادر الجزائري قائد المقاومة الجزائرية إلى المغرب، ممارسة فرنسا الضغط على السلطان المغربي للتراجع عن مساندته، لتتخذ منه مبررا لمهاجمة المغرب، فقامت بقصف مدينتي طنجة والصويرة في 06 أوت 1844م وخاضت الحرب مع المغرب في وادي إسلي في 14 أوت 1844م وألحقت به هزيمة قاسية نظرا لأن هذه المعركة كانت غير متكافئة بحيث كشفت عن تفوق الفرنسيين العسكري وضعف المغاربة⁽⁴⁾.

وفي هذه الظروف وجدت النخبة المغربية نفسها، بين من ينادي بالجهاد هروبا للأمام، ومن يبحث في نصوصه العتيقة عن تفسيرات لما وقع، هروبا للوراء، وبين هذا وذلك وجدت عناصر من داخل الجهاز المخزني المتهالك، بحثت في المسألة بأدوات العصر، فخلصت إلى تبدل الأحوال، وأن الذي كان بالأمس قويا، ولا يرى في المرآة إلا صورته، بات لزاما عليه البحث عند الآخر عن سر تفوقه، عله يقف عن أسرار ضعفه، بعد كل الوهن الذي اعتراه، وكان لما

(1) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 76. (جزء الدراسة)

(2) عبد السلام بن سودة، مرجع سابق، ص 273.

(3) لتفاصيل أكثر حول هذه المعاهدة المغربية الفرنسية أنظر: عبد الرحمان بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تح: علي عمر، ج5، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص 191-200.

(4) محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، ج1، مطبعة الأمنية، الرباط، 1973، ص 12-13.

خلفه الرحالة العرب، وخاصة رحلة المصري "رفاعة الطهطاوي"، كبير الأثر في تنوير من يعينهم الأمر بضرورة الاطلاع على الكيفية التي وصل بها الفرنسيون إلى هزيمة المغاربة بكل تلك السهولة، وهكذا وجدت رحلة الطهطاوي طريقها إلى خزانة وزير السلطان الصدر الأعظم "محمد بن إدريس العمراوي"، وأصبحت فكرة تسيير رحلة استكشافية إلى فرنسا أمرا ممكنا، ومن باب معرفة العدو، واتقاء مكروه⁽¹⁾.

كما أنه من الأهمية بما كان أن ننبه إلى أن فكرة توجيه سفارة مغربية إلى فرنسا أثّرت للمرة الأولى أثناء المفاوضات التي كانت جارية حول معاهدة لالة مغنية 1845م، حينما اقترح الفرنسيون على السلطان المغربي إيفاد مبعوث عنه إلى فرنسا بغرض مناقشة القضايا التي تهم الجانبين وعلى رأسها مسألة الحدود بين الجزائر والمغرب، وكذلك مناقشة قضية الأمير عبد القادر، بالإضافة أن هذه السفارة ستؤكد الصلح بين فرنسا والمغرب، وهو ما أكدته الرسالة التي أرسلها المندوب الفرنسي في المغرب الجنرال دولاو (général de La Rüe) إلى السلطان المغربي عبد الرحمان بن هشام: «... واليوم إن حصل لكم مانع سري لأجل ذلك، فالطريقة الموافقة أكثر من كل شيء هو أن ترسل أحد عمالكم من خواص حضرتهم وكنز سرهم وتكلفوه بكامل أسراركم عند سلطاننا (الفرنسي) وهو يتكلم عند سلطاننا بجميع أموركم وما يلزم أن نبين لكم أنه يكون مقبول بالفرح والسرور كما هي عادة الملوك، كما فعل جدكم المعظم المبجل المفتخر مولاي إسماعيل حين أرسل إلى جد سلطاننا لويز الرابع عشر فلا نقدر نحن ولا أنتم ننسى الخير الذي صدر من هذه المراسلة بين النصارى والمسلمين...والآن أنا قادم إلى الحدود لأجل تحديد البلاد مع نائبيكم إن شاء الله، وحين نكمل ذلك يأتيني مكتوبكم برضاكم موافقا لحين التمام، أو بإرسال نائب من سعادتكم وبموجب مرسومكم الشريف متضمنا الانتظار بتلمسان أو نقدم إلى طنجة ونركب في مركب سلطاني (الفرنسي) ونذهب سوية إلى باريز وتكون له (السفير المغربي) حرمة ورفعة كما يليق بمرسول سعادة الأعظم سلطان الإسلام الذي صار الآن محبا للدولة الفرانصوية...»⁽²⁾.

إلا أن المخزن المغربي أبدى تحفظا من إرسال سفير إلى فرنسا، فمرت عدة شهور دون أن يصدر عنه جواب في الموضوع، بينما كانت هناك بعض العناصر داخل الجهاز المخزني تتدارس الفكرة، ولم يخف بوسلهام بن علي أزطوط⁽³⁾ نائب السلطان وممثليه أمام الهيئة الدبلوماسية عن الوسيط الفرنسي في المفاوضات أنه (بوسلهام) يتبنى موقفا

(1) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 76. (جزء الدراسة)

(2) عبد الرحمان بن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 5، ص 191-204.

(3) هو الباشا بوسلهام بن علي أزطوط، حاكم العرائش وطنجة في عهد السلطان عبد الرحمان بن هشام، قام بدور علم في المفاوضات المغربية الفرنسية التي أعقبت معركة إسلي، وهو الذي وقع اتفاقية طنجة 10 سبتمبر 1844م، وناقض اتفاقية لالة مغنية مع ليون روش، توفي في فيفري 1851م. أنظر: علال الخديمي، المغرب في مواجهة التحديات الخارجية 1851-1947: دراسة في تاريخ العلاقات الدولية، أفريقيا الشرق، المغرب، 2006، ص 70.

مؤيدا للمصالحة مع فرنسا، ونتيجة لهذا الموقف المشجع للفرنسيين، كلف ليون روش (Léon Roches)⁽¹⁾ بمهمة التحضير لتلك السفارة وتنظيمها، وتحقيقا لذلك ظل روش على اتصال مستمر مع النائب السلطاني بوسلهام بن علي في العرائش وبالوزير محمد بن إدريس العمراوي في القصر السلطاني.

وفي غضون ذلك تزايد تحمس الحكومة الفرنسية للسفارة المغربية، خاصة وأن فوائدها السياسية أصبحت واضحة المعالم، لأن حلول سفير مغربي بالديار الفرنسية سيقدم للرأي العام الفرنسي الذي كان يعيش نوعا من الانقسام، والدليل القاطع على أن الأهداف المتوخاة من حرب الجزائر الطويلة الأمد والباهظة التكاليف قد تم بلوغها، وفي هذا الصدد كتب ليون روش ما يلي: «على الامبراطور (المغربي) أن يُقدم لملكنا سلاحا فعالا يمكنه من الصمود أمام الرأي العام لرعيته، والسلاح المطلوب هو السفير»⁽²⁾.

وحاول روش التأثير على المسؤولين في المغرب وتشجيعهم وإغرائهم بإرسال هذا السفير، من خلال التذكير بتلك الخطوات التي أخذتها بلدان إسلامية وحكام مسلمين آخرين بزيارة فرنسا مثل حكام تونس ومصر والدولة العثمانية الذين أرسلوا بعثات ووفود بغرض الاطلاع على العلوم والصناعات والحضارة الفرنسية الرائدة.

ومن الإغراءات التي طرحها روش على المغاربة هو أنه إذا أراد المغرب إبداء حسن نيته بقطع العلاقة مع الأمير عبد القادر الجزائري، ما عليه (المغرب) إلا تأكيد ذلك بإرسال سفارة رسمية إلى باريس لأن درجة إقناعها أقوى من الاتصالات الدبلوماسية غير المباشرة في المغرب⁽³⁾.

(1) ليون روش (Léon Roches): من موظفي الدبلوماسية الفرنسية، ولد بمدينة غرونوبل (Grenoble) الفرنسية يوم 27 سبتمبر 1809م، التحق سنة 1832م بوالده في الجزائر حيث كان من الأفواج الأولى من المعمرين، ثم انخرط في الجيش الفرنسي، وبعد معاهدة التافنة بين الفرنسيين والأمير عبد القادر، التحق بصفوف هذا الأخير وعمل كاتباً شخصياً له في الفترة بين 1837-1839م، بعد أن أظهر اعتناقه للإسلام، وفي كنف الأمير تعلم روش اللغة العربية وأجادها، وبعد أن افتضح أمره عند الجزائريين عاد للجيش الفرنسي بصفته ترجماناً للجنرال بوجو، ومع مطلع الأربعينيات سافر إلى المشرق العربي هادفاً لإخماد دعوة الجهاد التي وجهها الأمير للأمة، كان له دور حاسم في محادثات المغرب وفرنسا في قضية الحدود، ولعب دوراً حاسماً كذلك في توجيه سفارة مغربية إلى باريس سنة 1845م، عين قنصلاً في عدة دول مثل تونس سنة 1853م، في سنة 1863 عين برتبة وزير مفوض لفرنسا باليابان، وقد أحيل على التقاعد سنة 1870م، وفي سنة 1885 أصدر كتابه الذي يحمل مذكراته "إثنان وثلاثون سنة في دار الإسلام"، (توفي بفرنسا يوم 23 جوان 1901م). أنظر: معلمة المغرب، ع13، ص4479.

(2) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 35-37. (جزء الدراسة)

(3) المصدر نفسه، ص 35-37.

ولم يلبث السلطان المغربي أن وافق على الطلب الفرنسي بإرسال سفير مغربي إلى باريس، الأمر الذي تظهره الرسالة التي أرسلها السلطان عبد الرحمان بن هشام إلى نظيره الفرنسي لويس فيليب مع سفيره عبد القادر بن أشعاش يظهر أن الهدف من السفارة هو للبرهنة على المودة وتسوية الخلاف وإجابة لاقتراح الكونت دولاروا سابق الذكر⁽¹⁾.

ومن الممكن كذلك أن يكون السلطان المغربي قد اقتنع بأن التفاوض في مثل تلك الحالات يمثل أفضل الحلول ما دام أن هدف السفارة هو البحث والسعي في المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، وهو ما يذكره الصفار كعادة أصحاب الرحلات السفارية المغربية لا يعلن عن أهدافها الحقيقية، إلا أنها كما يقول كانت: «... لمصلحة تعود على المسلمين والإسلام...»، وفي ذلك طبعاً محاولة لتبرير السفر إلى أوروبا، ليضيف في تبريره هذا أنه اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين⁽²⁾.

دون الإغفال عن وجود رغبة لدى المغاربة من أجل الاطلاع المباشر على واقع فرنسا وجمع المعلومات والمعطيات مباشرة بواسطة مبعوث يحظى بالثقة الكاملة بدلا من الاعتماد على وسطاء قد تحوم شكوك كثيرة حول صدقهم ودرجة ولائهم.

كل هذه العوامل عجلت بقبول المغاربة للأمر، بل وتنافس المقربون من السلطان في اقتراح من رأوه الأنسب إلى تحقيق المراد من الرحلة، وتمثيل السلطان أحسن تمثيل، وهكذا وقع اختيار السلطان على عبد القادر أعشاش، عامله على مدينة "تطوان"، ليكون السفير المعول عليه لإنجاز المهمة، بعد أن اقترح "بن إدريس" مرشح و"بوسلهام" مرشحه، بتأثير غير مباشر من "ليون روش"، الذي وضع الصفات التي من الواجب أن تتوفر في السفير في رسالة إلى بوسلهام جاء فيها "...أن يكون ذا مظهر خارجي مهيب، متصفا بالذكاء واتقاد الذهن، وأن يكون من ذوي الحسب والنسب، ويحتل مكانة سامية في الدولة"⁽³⁾.

و"عبد القادر أعشاش" هذا هو بن "محمد أعشاش" باشا تطوان القوي، الذي استطاع أن يسدل رداء الأمن على جميع إيالاته، توفي "محمد أعشاش" فخلفه ابنه "عبد القادر" في الإيالة وهو ابن الثامنة والعشرين، ولم تمض سوى بضعة شهور حتى قلده السلطان أمر السفارة، التي كان والده قد سعى إليها، واعداد السلطان بالتكفل بكل مصاريفها، ولعل هذا هو العامل الأساسي الذي جعل السلطان يرجح كفة هذه العائلة الثرية، وفي ذلك يقول الداهية "ليون روش" أن اقتراحه (أعشاش) تحمل كل مصاريف السفارة هو الذي جعل قرار السلطان يكون لصالحه".

(1) لتفاصيل أكثر حول هذه المعاهدة المغربية الفرنسية أنظر: عبد الرحمان بن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج5، ص209-210.

(2) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 113.

(3) المصدر نفسه، ص 39-40.

- رحلة الصفار إلى فرنسا

عندما كتب السلطان إلى عامله على تطوان "عبد القادر أعشاش"، يعلمه بأن طلب والده في السفارة قد لاق القبول، ويوصيه بما يتوجب عليه القيام به والاستعداد له، استعرض السلطان بعضا من الصفات الواجب توفرها في السفير «...من النجابة والهمة والمعرفة بالأهبة والقوانين» وأضاف موجها سفيره لمن يجب أن يصحبه في سفره، من العاقلين العارفين بأحوال الأجانب، وخاصة الفقيه العالم بأمر الدين، يقول السلطان «عين من يصحبك في وجهتك من ذوي العقل والمروءة والدين والمعرفة بقوانين الأجناس، ولا بد لك من عالم صلاة وقراءة، وما يعرض من جوانب أحبارهم، فإنهم يبحثون المسلمين كثيرا، عموما وخصوصا في أمور الاعتقادات والديانات، لتوجد جامعا لما لا بد منه من الأمور»، وهي المهمة التي لم يكن في المدينة من هو أجدر من الفقيه، والعالم، والعدل، والكاتب المخزني، "محمد الصفار" صاحب الباشا "عبد القادر أعشاش"⁽¹⁾.

انطلقت الرحلة يوم 13 ديسمبر 1845 في وفد سفاري مغربي يضم السفير الحاج عبد القادر بن أشعاش، وكاتبه محمد الصفار، إضافة للسيد أبو عبد الله محمد بن الحاج محمد اللبادي وهو صهر السلطان المغربي، والحاج العربي بن الحاج عبد الكريم العطار الذي يصفه الصفار بالحاذق اللبيب الماهر بسياسات المخالطات وجوب الأقطار⁽²⁾، وكان مجموع أعضاء الوفد السفاري من المغاربة 14 شخصا بالإضافة إلى عدد من الضباط والمسؤولين الفرنسيين، ولا سيما ليون روش وأوغست بومير (Auguste Beaumier) سكرتير القنصل العام لطنجة، نزل مبعوث السلطان ورفاقه في مرسيليا في 14 ديسمبر 1845م حيث استقلوا القطار للوصول إلى باريس في 28 ديسمبر، وبقيت الرحلة في فرنسا حوالي 03 أشهر زار فيها الوفد المغربي عديد المناطق في فرنسا وإن كان أكثر مكوثهم في باريس التي تحولوا وزاروا فيها أغلب معالمها، وكان قد غادروا فرنسا يوم 02 مارس 1846م ووصلوا إلى تطوان بعد سبعة أيام من نفس الشهر⁽³⁾.

نتج عن هذه السفارة التي كان الصفار عضوا في وفدها نصا رحليا يقول فيه مؤلفه: «... وكان من الحزم لمن تغرب عن وطنه ونأ أن يقيد كل ما سمع ورأى، لما قد وجد في ذلك من العلوم والعبر... عزمت إذ ذاك بحول الله أن أسود هذه الأوراق بما نراه ونسمعه في هذه السفارة وما يتعلق بها مما رق أو راق...»⁽⁴⁾.

(1) سعيد بن رحمون، «قراءة في رحلة الصفار إلى فرنسا 1845-1846»، الحوار المتعدد- ع 3710، 2012/04/27، على الموقع:

<https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=305139>

(2) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 114.

(3) Jacques Caillé, « Ambassades et missions marocaines en France », Hespéris-Tamuda, vol. 1, NO 1, université de rabat faculté des lettres, 1960, P65-66.

(4) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 114-115.

أما موضوع الرحلة فهو تقرير عن المشاهدات التي سجلها المؤلف أثناء تواجده بفرنسا، وبعد عودته إلى المغرب كتب تفاصيلها، ورغم أن الصفار لم يكشف من كلفه بكتابة هذا النص الرحلي، إلا أنه يشير بطريقة غير مباشرة إلى أمر السلطان المغربي عبد الرحمان بن هشام⁽¹⁾: «...ولو لا مساعدة من تجب إجابته وتحتّم طاعته، لما كدت ولا قررت أن أفعل شيء من ذلك...»⁽²⁾، وكان الفراغ من كتابة نص الرحلة يوم 11 رمضان 1262هـ، الموافق لـ 02 سبتمبر 1846⁽³⁾.

وينقسم نص رحلة الصفار إلى ستة أقسام بدأها المؤلف بتوطئة وأنهاها بخاتمة، وتتوسطها أربعة فصول أساسية تتناول مواضيع مختلفة، ومن حيث البنية تجمع رحلة الصفار بين خصوصيات أدبيات الرحلة في شكلها الكلاسيكي وعناصر جديدة أكثر حداثة، ويبدو محمد الصفار متأثرا إلى حد كبير بكتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" وهو رحلة المصري رفاعة الطهطاوي الذي زار فرنسا في الفترة بين 1826-1831م، ورغم هذا التأثير إلا أن الصفار لم يكن مقلدا له تماما إذ تمكن بفضل اتساع آفاقه العلمية من إثراء مؤلفه بأشياء أصيلة نابعة عن مشاهداته ورؤيته⁽⁴⁾.

(1) السلطان محمد بن عبد الرحمان بن هشام: (ت 1290هـ/1873م)، من ملوك الدولة العلوية في المغرب الأقصى، كانت له مكانة كبيرة في شؤون الدولة في عهد أبيه السلطان عبد الرحمان بن هشام حتى قبل توليه السلطة، بيع له بالملك بعد وفاة والده سنة 1276هـ/1859م، بدأ عهده بهزيمة الجيش المغربي أمام القوات الإسبانية واحتلال هذه الأخيرة لمدينة تطوان في إحدى أكبر وأهم الهزائم المغربية أمام القوى الأوروبية، وما تلى هذه الهزيمة من ضغوط أوروبية على المغرب، وعلى إثر هذه الهزيمة عرف عزم السلطان على التوجه إلى الإصلاح والتحديث خاصة في شؤون الجيش والتصنيع والزراعة والضرائب وفي عهده دخلت المطبعة إلى المغرب، توفي بمراكش سنة 1873م. أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج6، ص198-199.

(2) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 265.

(3) المصدر نفسه، ص 265.

(4) المصدر نفسه، ص 17-18.

ثانيا: رحلة إدريس العمراوي إلى فرنسا 1860م

1- التعريف بصاحب الرحلة

- نشأته وتكوينه

أبو العلاء⁽¹⁾ إدريس الوزير بن أبي عبد الله⁽²⁾ محمد بن إدريس العمراوي بن محمد بن إدريس بن محمد بن إدريس (ثلاث مرات نفس الاسم)، لم تذكر مختلف المصادر التي اطلعنا عليها تاريخ ولادته، يرفع نسب عائلته إلى محمد بن إدريس بن عبد الله الكامل، كان مقام سلفهم بقبيلة زمور من بني عمر من عهد قيام مغراوة على الأدارسة واختفاء الأدارسة في أغمار القبائل⁽³⁾، أصله من مراكش الحمراء وهي مسقط رأسه⁽⁴⁾.

عاش في مراكش حياة الأسر المخزنية، ضمن الدائرة المقرية من السلاطين، استفاد صاحب الرحلة من ظروف التنشئة هذه، داخل أسرة ذات علم، إذ كان والده وزيرا خلال النصف الأول من القرن 19م⁽⁵⁾، فعكف على نيل العلوم والمعارف، واكتسب درية كبيرة في الفقه والأدب⁽⁶⁾، ومما اشتهر به إدريس العمراوي خطه الجميل في الكتابة، فكتب نسخا من صحيح البخاري، وغيره وباعها، فأمكنه بذلك أن يحصل على المال وأن يكسب معلومات جديدة، لا سيما في الأدب⁽⁷⁾.

هذا وأشاد كثير من الكتاب والمؤرخين بخصال المترجم له ويعلمه وثقافته، وصفه صاحب كتاب فواصل الجمان قائلا: «فريد عقد الكتاب، فيصل الفصول الصعاب، أديب تنفث الدر أقلامه ويخجل الزهر نظامه، لم يبلغ كاتب بعده في الصناعتين مده ونصيفه، ولو أسهت في وصفه ما بلغت توصيفه»⁽⁸⁾، وأضاف ابن زيدان في وصف حال العمراوي بأنه كريم السجايا، طويل النجاد، صادق اللهجة، حازم ضابط فقيه، نبه أديب لبيب، من أبرع الكتاب

(1) محمد غريط، مرجع سابق، ص 142.

(2) محمد بن مصطفى بوجدان، الاغتياب بتراجم أعلام الرباط، تحقيق: أحمد بن عبد الكريم نجيب، ط2، دار المذهب للطباعة والنشر والتوزيع، 2014، ص445.

(3) عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج2، ص42-43.

(4) محمد بن مصطفى بوجدان، مرجع سابق، ص446.

(5) عبد المجيد القدوري، سفراء مغاربة في أوروبا: في الوعي بالتفاوت، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الدار البيضاء، 1995، ص34.

(6) طيب بيوض، رحالة مغاربة في أوروبا: بين القرنين السابع عشر والعشرين: تمثلاث ومواقف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 2015، ص83.

(7) محمد الأخضر، مرجع سابق، ص445.

(8) محمد غريط، مرجع سابق، ص142.

وأنبههم، آية في الترسيل وقرض الشعر، صاحب أخلاق حسنة، وأفعال مرضية مستحسنة، سَعَاء في قضاء حوائج العباد، هين لين مقتصد بشوش⁽¹⁾، ويتحدث العباس بن إبراهيم السملالي في كتابه "الأعلام" في ترجمة إدريس العمراوي قائلا: "كان المترجم رحمة الله فقيها، أدبيا، كاتباً، بارعا، ناظما، ناثرا، وله ملكة في الترسيل، صاحب أخلاق حسنة وأفعال مستحسنة، مقتصد، في أمور معيشته"⁽²⁾.

ويبدو أن رحلته إلى الحج قد ساعدته على صقل وتنمية معارفه الخاصة بعلوم عصره، إذ توقف بعد عودته في القاهرة، شأنه في ذلك شأن كثير من الفقهاء المغاربة وأدبائهم الذين يتوجهون إلى المشرق العربي فيتوقفون في أهم مراكزه الثقافية للاتصال بأدباءها ورجال العلم فيها، فيفيدون ويستفيدون، وقد اتصل ابن إدريس خلال توقفه بأرض الكنانة بعلمائها وأدبائها من الذين سيطلق عليهم أدباء الجيل الجديد، جيل النهضة المصرية⁽³⁾.

تتكون آثار إدريس العمراوي التي خلفها من مكتوبات نثرية، وأخرى شعرية مجموعة في ديوان، فكانت من الآثار النثرية الرحلة، ورسائل عديدة إخوانية ورسمية كتبت حسب مقتضيات الظروف⁽⁴⁾، وإذا كان العمراوي ناثرا بارعا فإنه كان قبل كل شيء شاعرا مفلحا، إن لم يكن من أكبر الشعراء الذين أنجبهم المغرب، كما تشهد بذلك آثاره في الديوان الهام الذي تركه، والذي عالج فيه جميع الموضوعات وكل الأنواع الشعرية⁽⁵⁾ كما قام بجمع ديوان والده الشعري للسلطان الحسن⁽⁶⁾.

- وظائفه السياسية والإدارية

التحق العمراوي بخدمة المخزن المغربي مباشرة بعد وفاة والده الوزير محمد العمراوي، إذ عمل كاتباً للسلطان عبد الرحمان بن هشام، وفي عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان أصبح وزيرا للخارجية، ثم عزل عنها ووليها شيخه الفقيه أبو زيد عبد الرحمان الشرفي، وبعد مدة طلب إبداله فأشير على العمراوي فأعيد مرة أخرى للوزارة⁽⁷⁾، ثم فقد

(1) عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام، ج2، ص42-43.

(2) إبراهيم بن العباس السملالي، الإعلام بمن حل مراكز وأغمت من الأعلام، ج7، مرجع سابق، ص

(3) أبي عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي، الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، تقديم وتحقيق: أحمد بن يوسف الكنسوسي، ج2، [د.ن.]، [د.م.]، [د.ت.]، ص90.

(4) محمد الأخضر، مرجع سابق، ص446.

(5) المرجع نفسه، ص448. للمزيد حول شعر إدريس العمراوي ونثره أنظر: محمد غريط، مرجع سابق، ص143-162. أنظر أيضا: عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج1، ط2، [د.ن.]، [د.م.]، [د.ت.]، ص670-672.

(6) محمد بن مصطفى بوجندار، مرجع سابق، ص445.

(7) محمد غريط، فواصل الجمال في أنباء وزراء وكتاب الزمان، ط1، فاس، 1346هـ، ص142.

شيئا فشيئا ما كان له من نفوذ حتى صار كاتباً على عهد السلطان الحسن، وأصابه مرض جسدي وعقلي، كما كان الوزير العمراوي صاحباً وعيبة سر الوزير أبي عمران وجامع أسرار⁽¹⁾.

ولعل أشهر إسهامات المترجم له على المستوى السياسي الخارجي لما بعثه السلطان عبد الرحمان في مهمتين دبلوماسيتين إلى كل من إسبانيا وفرنسا، واختار أن يدون يوميات السفارة الأخيرة في كتاب عنوانه بـ "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز"⁽²⁾.

مات العمراوي بالطاعون بمدينة الرباط يوم السابع عشر جمادى الثانية عام 1296هـ/ 5 يونيو 1879م، ودفن في ضريح سيدي فاتح⁽³⁾ وفي محاولة لإبراز مكانته العظيمة في زمانه يقول بوجندار عن جنازته أنها كانت "في مظهر عظيم قلما رأى الرباطيون مثله في الحديث والقدم"⁽⁴⁾.

2- رحلته إلى فرنسا 1860م

- في السياقات والدوافع

لم تكن السفارة إلى فرنسا الأولى من نوعها إلى أوروبا بالنسبة للسفير إدريس العمراوي، فقد سبق أن توجه بسفارة للسلطان محمد عبد الرحمان بن هشام إلى إسبانيا إلا أنه لم يترك حولها نصا⁽⁵⁾، بخلاف سفارته إلى فرنسا التي خلف حولها نصا رحليا والذي سيكون أحد محاور دراستنا هذه.

وفيما يخص السياقات التاريخية التي أتت فيها هاته الرحلة السفارية إلى فرنسا؛ فهي تتشابه كثيرا مع الظروف والسياقات التي جاءت فيها رحلة الصفار سابقة الذكر، إذ أتت رحلة العمراوي في جو من الهزيمة والضعف المغربي أمام قوة الآخر الأوروبي، خاصة مع تزايد نفوذ البلدان الأوروبية في المغرب، وأصبحت كل دولة تطالب بنصيبها من النفوذ فبعد فرنسا جاء الدور على بريطانيا ثم إسبانيا، وأتت كسبب مباشر لانتهزام الجيش المغربي على يد الإسبان وسقوط مدينة تطوان سنة 1860م، هاته الهزيمة هزت المغاربة من ساسة ومثقفين، فهي لا تقل من حيث تأثيراتها السياسية والاقتصادية والنظرة للذات والآخر من تلك التي خلفتها هزيمة إيسلي سنة 1844م⁽⁶⁾.

كان وقع هزيمة تطوان شديدا على المغرب إذ زعزعت البلاد وكشفت عن ضعفها وأفقدتها ما بقي لها من الاعتبار، خصوصا أن الهزيمة جاءت أمام دولة لم تقم لها أي اعتبار وهي إسبانيا، كما أصابته أزمة اقتصادية شديدة،

(1) محمد بن مصطفى بوجندار، مرجع سابق، ص 445.

(2) طيب بيوض، مرجع سابق، ص 83.

(3) محمد الأخضر، مرجع سابق، ص 446.

(4) محمد بن مصطفى بوجندار، مرجع سابق، ص 445.

(5) أبو عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي، مرجع سابق، ص 90.

(6) مصطفى بوشعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب، ج 1، المطبعة الملكية، الرباط، 1984، ص 359-360.

فقد استنزفت موارد البلاد لأداء تعويضات الحرب التي فرضت عليه، التي بلغت مائة مليون فرنك ذهبي، أضيفت إليها عشرون مليون، وهي قيمة الفائدة والعمولة المتعلقة بالسلف الإنجليزي وقد أورد المؤرخ الناصري عن هزيمة تطوان ما نصه: «...ووقع تطاوين هذه هي التي أزال حجاب الهيبة عن بلاد المغرب، واستطال النصارى بها، وانكسر المسلمون انكساراً لم يعهد لهم مثله، وكثرت الحمايات ونشأ عن ذلك ضرر كبير⁽¹⁾».

وبعد حرب تطوان تدخلت إنجلترا للوساطة بين المغرب وإسبانيا، ويتحدث العروي عن هذه الوساطة قائلاً: «تدخلت إنجلترا مرة أخرى لتحمي المغرب من الأطماع الإسبانية، فضغطت على حكومة مدريد لتقبل مبدأ الانسحاب من تطوان بعد سنتين من الاحتلال، مقابل غرامة قدرها مائة مليون فرنك ذهبي، اضطر السلطان إلى اقتراضها من البنوك الإنجليزية، وأن يعطي كضمانة رسوم الجمرك، وهكذا دخل المغرب بدوره بعد مصر وتونس في دوامة السلف غير المنتهي الذي يؤدي حتماً إلى الإفلاس وضياع الاستقلال بعد إجهاض كل مشروع إصلاح⁽²⁾».

وخلال هذه الحقبة الحاسمة من تاريخ المغرب المعاصر، نشطت الدبلوماسية المغربية، وتوجه عدة سفراء مغاربة في مهام لدى رؤساء وملوك الدول الكبرى لتوطيد العلاقات والتذكير بضرورة احترام المعاهدات، وفي بعض الأحيان لإبرام الاتفاقيات التجارية، ووضع أسس جديدة للتعاون الاقتصادي والعسكري، ورغم أن العمراوي لم يبين كغيره من الرحالة المغاربة الذين زاروا أوروبا الأسباب الحقيقية الدافعة لسفارته هذه، إلا أنه لمح لتأثير الهزيمة المغربية في تطوان أمام الجيوش الإسبانية حتى وإن حاول تغليفه بطابع ديني تبريري: «ولما رأى أعزه الله تكالب النصارى على الثغور والمراسي، وحدثت منهم أمور تمور منها الرواسي، تدارك بسياسة ذلك الخرق فأرقعه...واقترضت المصلحة الدينية أن عين أعزه الله سفراء تتوجه للمجاورين لإيالاته المحمية من الأفرنج دمرهم الله، حرصاً على ما يدوم به الائتلاف وقطعا لمادة الشنآن والخلاف، ومسارعة إلى استجلاب ما تصان به الثغور من العدة وتنفسح لأخذ الأهبة المدة ريثما يستجمع ليته...فكان ممن عينه لذلك إدريس بن محمد بن إدريس العمراوي لطف الله به، فوجهني أعلا الله قدره ونشر في الخافقين ذكره بكتابه الشريف إلى طاغية الفرنضيص، وحملني من أوامره الشريفة ومقاصده المنيعة والتنصيص ما فيه عن الإسلام والصالح العام والمومن على هذين الأمرين حريص...»⁽³⁾.

(1) الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، القسم 3، ج9، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، ص101.

(2) عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، 2012، ص 561.

(3) إدريس العمراوي، تحفة الملك العزيز بمملكة باريز، تقديم وتعليق، زكي مبارك، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1989، ص 33-34.

أما فيما يخص مهمته الدبلوماسية إلى باريس فيظهر من خلال الرسالة التي أرفقها معه السلطان محمد بن عبد الرحمان إلى نظيره الفرنسي نابليون الثالث⁽¹⁾، أنها تحمل في طياتها تأكيد على تجديد العهد والعلاقة بين الطرفين، والحرص على المحافظة على العهود والمواثيق، وكذا إعلام السلطان المغربي الجديد محمد بن عبد الرحمان بنظيره الفرنسي بخلافة والده على السلطة في المغرب⁽²⁾، بالإضافة إلى الحديث عن مشكل الحدود، الذي نبه إليه الجانب الفرنسي بقوة⁽³⁾.

هذا ولم يتحدث العمراوي عن المفاوضات بشأن طلب المساعدات المالية التي طلبها المغرب من فرنسا والتي كانت من أهداف السفارة، إلا أن كثيرا من الباحثين رجحوا هذه النقطة الأخيرة كأحد أهم المحاور التي من المفترض أن يتحدث فيها السفير المغربي العمراوي مع الملك الفرنسي⁽⁴⁾، وربما هو الأمر الذي لمح له هذا الأخير في رده لما استقبل السفير المغربي، كما جاء في حديث العمراوي، الذي نقل كلام نابليون الثالث أثناء استقباله للسفير المغربي، حيث أكد أنه: «لا يأتي تشويش بين الدولتين إلا من عدم المحافظة على الحدود وأما المطالب فلا أقصر في قضائها على أكمل وجه، وسنأذن للوزير في استماعها منكم والمفاوضة فيها معكم». فعقب السفير المغربي بالقول: "فأجبت به بأن مولنا المنصور بالله غير مقصر في أمر الحدود وحريص على إجراء الأمر على القانون المعهود، وإن وقع شيء من رعا ع الجيران وسفهاء الناس، فعن غير رضى منه أيده الله ولا موافقة له، ولا يزال يسعى في زجر من يسعى في إفساد ما بين الإيالتين بغاية إمكانه، وحيث يسر الله في ثبوت المودة والمحبة فمباشرة أمر ذلك تسهل إن شاء الله»⁽⁵⁾.

إضافة إلى الأسباب والدوافع السابقة يظهر أن مسارعة المغاربة لإرسال سفارة إلى باريس؛ يعود في الأساس إلى تخوفهم (المغاربة) أن تشن فرنسا حربا قريبة على المغرب؛ خاصة وأن المغرب خارج من هزيمة عسكرية قريبة من الإسبان، لذا كان موجب هذه السفارة تجديد علائق الصداقة، حيث كان السفير الإنجليزي خوفاً المغاربة من حرب مع فرنسا تعقب الحرب الإسبانية المغربية، ويبدو أن العمراوي نجح في مهمته وزال عن السلطان ما كان يخشاه من أمر فرنسا⁽⁶⁾.

(1) نابليون الثالث (Napoléon III) (1808-1873م): هو شارل لويس نابليون ولد بباريس في 20 أبريل 1808 وهو ابن شقيق نابليون الأول، تربي في سويسرا بعد سقوط النظام الإمبراطوري 1815، التحق بالمدرسة العسكرية بسويسرا، حيث تخرج برتبة ضابط في سلاح المدفعية . نفي في سنة 1836 الى البرازيل ومنها الى الولايات المتحدة الأمريكية، ومنها انتقل الى بريطانيا، عاد إلى فرنسا 1848 بعد سقوط النظام الملكي، انتخب رئيسا للجمهورية الفرنسية الثانية، وفي 2 ديسمبر أعلن نفسه إمبراطورا. خاض العديد من الحروب القارية أعلن الحرب على بروسيا في جويلية 1870 انتهت بانحزام فرنسا ووقوعه أسيرا في 2 سبتمبر 1870، وبعدها نفي إلى بريطانيا، فيها توفي وكان ذلك في 9 جانفي 1873م. أنظر: ناديه طرشون، «سياسة نابليون الثالث العربية»، مجلة دراسات وأبحاث، ع 26، السنة التاسعة، مارس 2017.

(2) إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 43-44.

(3) المصدر نفسه، ص 105.

(4) مصطفى بوشعراء، مرجع سابق، ص 373.

(5) إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 106.

(6) محمد بن عبد السلام بن عبود، تاريخ المغرب، ج 2، المطبعة المهدية، تطوان، 1951، ص 41-41.

وفي باريس التقى السفير العمراوي عدة مرات وزير الشؤون الخارجية الفرنسي توفينيل (Thouvenel) وناقش معه إمكانية دعم فرنسي للمغرب لدى الحكومة الإسبانية، في شأن الانسحاب من مدينة تطوان التي احتلوها منذ 5 فبراير 1860م، ثم ناقشا مسألة الحدود الجزائرية المغربية، وأخيراً قدم السفير المغربي لنظيره الفرنسي شكوى بخصوص العملاء الفرنسيين في المغرب الذين كانوا يمارسون "سياسة التخويف" التي من المستحسن تعليقها. وبالنسبة لفرنسا سيطرت قضية الحدود على كل القضايا الأخرى ولهذا أعطى الوزير للسفير "مذكرة شفوية" أكد فيها على أن الحل يعتمد قبل كل شيء على الحكومة المغربية التي كانت مسؤولة في المنطقة، من ناحية أخرى أكد لمخاوره أنه سيتقدم خطوة إلى الأمام في مدريد، وسيضمن عدم إساءة استخدام الحماية، لكنه دافع عن سلوك وموقف عملائه في المغرب⁽¹⁾.

ويبدو أن السفير والسفارة المغربية إلى فرنسا قد تركا أثراً جميلاً عند الفرنسيين، فبعد عودة إدريس العمراوي من سفارته إلى فرنسا سنة 1860م، كتب امبراطور فرنسا للسلطان محمد بن عبد الرحمان معزيا في والده عبد الرحمان بن هشام، ومعرباً عن انشراحه لهذه السفارة، وعلى رئيسها بالأخص⁽²⁾.

وفيما يخص المسار الزمني للرحلة؛ غادر الوفد المغربي مدينة فاس يوم السبت ثاني يونيو 1860م، ليصل إلى مدينة طنجة يوم العاشر من نفس الشهر، قبل مبارحتها يوم 14 يونيو 1860، صعد الوفد السفاري من طنجة على نص فرقاطة بخارية تابعة للبحرية الفرنسية، وضم الوفد السفاري المغربي السفير إدريس العمراوي، يساعده أربعة مسؤولون من المخزن، وخمسة جنود واثنين من الخدم، كما أضيف إليه عضوان من مفوضية طنجة، القنصل بليسيه (Pélissier) ورافق السفير ترجمان يدعى الصوري، ومنها إلى مرسيليا حيث الوصول بعد أربعة أيام من السفر أي يوم الأحد 17 يونيو 1860م⁽³⁾، وبعد فترة من الاستراحة دامت يومين، بدأت الرحلة داخل التراب الفرنسي على نص القطار، حيث جرى المبيت بمدينة ليون، قبل الوصول إلى باريس يوم 20 يونيو، التي قضى فيها الوفد المغربي 42 يوماً⁽⁴⁾، غادر السفير وحاشيته باريس في الثاني من أوت، واتجهوا إلى مرسيليا قبل أن يصلوا إلى طنجة في 8 أوت 1860⁽⁵⁾.

(1) Jacques Caillé, Op.Cit, P6 -68.7

(2) عبد السلام بن سودة، مرجع سابق، ص 267.

(3) Jacques Caillé, Op.Cit, P68.

(4) طيب بيوض، مرجع سابق، ص 86-87.

(5) Jacques Caillé, Op.Cit, P68.

3- نص رحلته

عبر هذا المسار الممتد لحوالي شهر ونصف في الأراضي الفرنسية، عاد العمرأوي بمشاهدات عن الآخر الفرنسي الأوروبي عبر عنها في نص رحلي وسماه: " تحفة الملك العزيز بمملكة باريز"، وصف فيها ما شاهده من سفره من النصزهات ودور الآثار والسكك والسلاح والسياسة والنظام والمدن التي دخلها والعوائد والأخلاق التي رآها وصفا كاشفا.

يقول العمرأوي عن كتابة نص رحلته: «ولما رجعت من هذه الوجهة، وعلق بذهني بعض ما رأيت من عجائب تلك الجهة، ظهر لي أن أقيد ذلك في هذه الرسالة اقتداء بمن تقدمني من أولى النباهة والجلالة، وإن كنت لست من أهل خيل ذلك المضممار...وقد سميتها حين أمليتها: "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز"...»⁽¹⁾.

وفيما يخص مصادر نص رحلته الذي هو نتاج مشاهداته في فرنسا إلا أن العمرأوي يؤكد أن بعض ما نقله في نصه يعود لأحد نصارى الشام⁽²⁾ هذا الأخير الذي ساعده على فهم الصورة وتحليل مشاهداته والذي كان يعمل على ما يبدو ترجمانا في فرنسا: «وأكثر ما كتبت في هذه الرسالة من أحوالهم فعنه رويتها ومنه دريتها، فلا تكاد تسأله عن أمر من أحوال البلاد والعباد، إلا اجابك عنه وأفاد وأجاد، مع اختصار غير مخل بالمراد...»⁽³⁾.

وعما حملة هذا النص الرحلي في طياته يتجه العمرأوي إلى القول في نهايته نصه: «...فما على مثلي يعد الخطأ، وليظنوا بي الظن الجميل، فما زغت عن الحق ولا عنه أميل، على أني أن ظننت في بعض المحال بوصف حالهم وشقشقت بمحالمهم واستحسننت بعض أفعالهم، فمقصودي أن أزين منها ما وافق الشرع، وسلمه العقل والطبع، ولعلمهم قلدوا في بعض ذلك سلفنا الصالح الذين كانوا على السبيل الواضح»⁽⁴⁾، فصاحب الرحلة وفي القرن التاسع عشر ظهر تبريرات الرحالة المغاربة لرحلاتهم نحو أوروبا، وتبرير إعجابهم ببعض ما شاهدوه هناك.

(1) إدريس العمرأوي، مصدر سابق، ص 34.

(2) يتعلق الأمر على الأغلب بالصحابي اللبناني رشيد الدحداح الذي كان يطبع بسوريا جريدة لتأييد الامبراطور الفرنسي في سياسته بالشرق، وهو من نصارى لبنان كان كاتباً لأسرار الأمير بشير الشهابي، ولما خلع الأمير المذكور رحل إلى مرسيليا وتعاطى التجارة حتى توفي بفرنسا. أنظر: مصطفى بوشعراء، مرجع سابق، ص 373.

(3) إدريس العمرأوي، مصدر سابق، ص 100.

(4) المصدر نفسه، ص 125-126.

ثالثا: رحلة الطاهر الفاسي إلى إنجلترا 1860م

1- التعريف بصاحب الرحلة

عكس بقية الرحلات المغربية في القرن التاسع عشر فإننا لا نجد معلومات كافية حول السفارة المغربية لإنجلترا ولا عن كاتبها الذي ترك نصا دوّن فيه مشاهداته فيها، بل إن الرحلة نفسها ضلت مغمورة جدا لوقت طويل إلى حين الوقوف عليها من طرف الأستاذ محمد الفاسي.

أما صاحبها فهو أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمان الفاسي، ولد بفاس سنة 1246هـ/1830م، ودرس بها، وبعد إنهاء دراسته عُيّن في القصر الملكي من جملة كتّابه، وكان أخوه أبو محمد عبد القادر من أكابر الكتاب ويظهر من التحلية التي حلاه بها ناسخ الرحلة، أنه كان من العلماء المدرسين النافعين، فلعله هجر الكتابة بدار المخزن بعد رجوعه من السفارة، وأقبل في السنين التسع الأخيرة من حياته على نشر العلم، ولا نظن أن ذلك وقع قبل اشتغاله بالوظائف المخزنية، لأنه لما توجه إلى إنجلترا كان في السنة الثلاثين من عمره، فلا يمكن لمن تخلّى عن التدريس في مثل هذه السنين أن يقال عنه: العالم العلامة النفاة إلا إذا فرضنا أنه كان يجمع بين عمله في القصر وإلقاءه الدروس بجامعة القرويين في نفس الوقت، ولم تطل حياته، إذ توفي ببلده وهو لم ينه العقد الرابع من عمره سنة 1285هـ/1868م⁽¹⁾.

2- رحلة الفاسي إلى إنجلترا

من ناحية السياقات والدوافع الخاصة بهذه الرحلة السفارية فإنها تشترك مع سابقتها رحلة العمراوي، لأنهما توجهتا في نفس الوقت وانطلقا في يوم واحد نحو أوروبا وبالضبط إلى فرنسا بالنسبة للعمر اوي ولإنجلترا بالنسبة للفاسي، هذه السياقات التي لن نعود لتكرارها هنا، بل نشير سريعا لها فسفاراتهما كانت سنة 1860م التي تعتبر محطة مفصلية في تاريخ المغرب المعاصر، فهي سنة الهزيمة القاسية أمام الإسبان، وسنة اضطراب المغرب لأول مرة في تاريخه اللجوء إلى الاقتراض من الخارج، لأداء ما تبقى من غرامة الحرب والهزيمة. كما كانت هذه السنة أيضا بداية عهد جديد في الحكم مع السلطان محمد الرابع (1859-1873)، الذي عاش في السابق هزيمة معركة إيسلي على الميدان، كقائد للجيش المغربي فيها، ثم تابع مجريات الهزيمة في حرب تطوان كسلطان⁽²⁾.

ولا نستطيع أن نجزم بالسبب المباشر وراء هذه السفارة المغربية نحو إنجلترا، إلا أننا لا نستبعد كما سفارة العمراوي قبلها أن يكون هدفها طلب المساعدة الإنجليزية في شأن الاحتلال الإسباني لتطوان، والدعوة للانسحاب

(1) أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمان الفاسي، الرحلة الإبريزية على الديار الإنجليزية، تحقيق: محمد الفاسي، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس، المغرب، 1967، ص أ-ب

(2) الطيب بياض، «رحلة الإبريز إلى ديار اللندريز»، مجلة زمان، المغرب، 18 نوفمبر 2014.

منها، أو طلبا لقروض مالية من إنجلترا، حتى يستطيع المغرب دفع ما فرض عليه للإسبان بعد خسارته الحرب، وسبب ثالث لا يمكن استبعاده هو توجهات السلطان محمد بن عبد الرحمان الإصلاحية وتأثير بريطانيا فيها⁽¹⁾، دون أن نستبعد رغبة المغاربة في الاطلاع على الواقع الأوروبي عن قرب سعيا لإنجاح إصلاحاته.

وفيما يخص السفارة التي توجهت إلى إنجلترا فقد كلف بها الأمينان؛ الحاج عبد الرحمان العاجي ومحمد الشامي ومعهما الكاتب محمد الطاهر الفاسي، غادرت هذه السفارة (الرحلة) العاصمة المغربية في نفس اليوم الذي توجهت فيه سفارة ابن ادريس قاصدا فرنسا، أي في الرابع جويلية 1860م.

ولم يتعرض كثير من المؤرخين الذين أرحوا للتاريخ الدبلوماسي المغربي لها، فلا نجد لها ذكرا مثلا عند ابن زيدان ولا التازي ولا غيرهما من المؤرخين، ولعل هذا راجع لكون الرحلة التي ألفها ابن إدريس عن سفارته وسماها "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز"، عرفت وانتشرت، في حين أن رحلة أبي جمال الفاسي لم يقع لها مثل هذا الرواج، وربما كان ذلك بسبب وفاة صاحبها في سن مبكرة.

ولم يُعطِ المؤلف لرحلته اسما وإنما ذكر موضحا في آخرها: "هذا آخر ما يَسَّر الله كتابته في هذه البطاقة"، لذا نشير أن عنوان الرحلة هو من وضع الأستاذ محمد الفاسي محقق الرحلة الذي يقول: «لذلك ارتأيت أن أجعل لها اسما تعرف به على غرار مثل هذه الرحلات وهو "الرحلة الإبريزية على الديار الإنجليزية"»⁽²⁾.

قام أبو الجمال الطاهر الفاسي في هذه الرحلة بوصف دقيق ومباشر لكل ما شاهده منذ أن ركب الباخرة التي أقلته من طنجة إلى أن رجع للعاصمة المغربية فاس، حيث دامت الرحلة سبعين يوما، وهي تعكس تصوره لمظاهر الحداثة الأوربية الحاضرة بقوة في المجتمع الإنجليزي الحديث وموقفه منها، ويمكن تقسيم نص الرحلة إلى قسمين:

- القسم الأول: متعلق برحلته من طنجة إلى مرسى بورسموث الإنجليزي ثم لندن، والأساسي في هذا القسم هو الوصف الذي قدمه الفاسي لعدة مظاهر الحداثة الإنجليزية.

- القسم الثاني يتناول وصول البعثة السفارية إلى لندن، وإعجاب الفاسي بمظاهر الحضارة الإنجليزية، ووصفه لها خاصة: «التكنولوجيا، نظم الدولة العصرية سياسيا وعسكريا، ومظاهر التطور الاقتصادي... لكن أهم جانب ركز عليه الكاتب في رحلته هو الجيش ولم يكن هذا الاهتمام اعتباطيا بل إنه يعبر عن وعي النخبة المغربية بأهمية الجانب العسكري، خاصة وأن الرحلة جاءت في سياق مرحلة ما بعد هزيمة المغرب في حرب تطوان»⁽³⁾.

(1) لمزيد من التفاصيل أنظر: خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856-1886)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1997.

(2) أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمان الفاسي، مصدر سابق، ص. ت

(3) حسام هاب، خطاب الرحلات السفارية المغربية خلال القرن 19 م: «الرحلة الإبريزية إلى الديار الانجليزية» نموذجاً (أبي الجمال محمد الطاهر الفاسي : 1830 م 1868 م)، جريدة الاتحاد الاشتراكي، يوم 18 - 08 - 2010.

رابعاً: رحلة إدريس الجعدي إلى أوروبا 1876م

1- التعريف بصاحب الرحلة

إدريس بن محمد بن إدريس بن عبد القادر بن الحياط الجعدي السلاوي، ولد بمدينة سلا غرب المغرب، لا نعلم تاريخ ميلاده بالضبط، لكن على الغالب أنه ولد بداية النصف الثاني من القرن 13 للهجرة، أي ثلاثينات القرن التاسع عشر للميلاد، وحسب شجرة النسب التي قدمها محقق رحلته فإن نسب عائلته يعد من الأشراف إذ ينسبون أنفسهم إلى إدريس الأول باني فاس⁽¹⁾.

والمترجم له ينتمي لعائلة سبق لكثير من أفرادها تولي المسؤوليات لدى المخزن المغربي، وخاصة خلال فترة حكم السلطان محمد بن عبد الله (1757-1790م) وبعده السلطان سليمان (1792-1822م) ونذكر على سبيل المثال عبد القادر بن العباس الجعدي جد المترجم له، كان أميناً للمدفعية والبحرية بمرسى العدوتين (سلا والرباط) وأميناً لديوان الجهاد عام 1203هـ/1788م، وكان من هذه العائلة تجار وفقهاء وعدول وبحريون ومجاهدون، فالمترجم له ينتمي لأسرة علم وعمل وجهاد⁽²⁾.

لا نملك معلومات قد تفيد بنشأته وتكوينه العلمي، إلا أننا نستطيع الاطلاع على الجو العام الذي نشأ فيه صاحب الترجمة، فهو نشأ في جو صلاح وعلم وأدب متميز كانت تعيشه مدينة سلا خلال تلك الفترة، وكانت اهتمامات إدريس الجعدي العلمية منصبة تجاه علم الرياضيات وعلم الفلك والهندسة، وبرع في ذلك كاختصاص، يصف الناصري المترجم له بقوله: "الفقيه الأديب فلكي العصر وحاسبه الشريف"⁽³⁾، ويضيف الأستاذ الجارري في وصفه: "أبو العلاء الجعدي من المولعين بالرياضيات والهندسة والتعديل والرصد، مع ولوع بالأسفار والتجوال، رحل إلى أوروبا وسواها من البلاد التي زارته اتساعاً في معلوماته"⁽⁴⁾، وكذلك وصفه السملالي بـ "الشريف الأديب الفقيه فلكي عصره"⁽⁵⁾.

وكانت للمترجم له رحلة إلى المشرق بغرض الحج سنة 1277هـ/1861م، وكما هو متعارف ومتوارث أن جل من يقصد البلاد الحجازية من العلماء والأدباء ينتهز فرصة هذا السفر الطويل لطلب العلم ولقاء المشايخ الكبار،

(1) إدريس الجعدي، إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار، تحقيق وتقديم: عز المغرب معنيو، ط1، دار السويدية للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2004، ص19-20.

(2) معلمة المغرب، ع09، ص3033.

(3) أحمد الناصري، الاستقصا، ج9، مرجع سابق، ص151.

(4) عبد الله الجارري، من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين: الرباط وسلا، ج2، مطبعة الامنية، الرباط، 1971، ص275.

(5) العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حلّ مراكش وأغامت من الأعلام، مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، ط2، ج3، المطبعة الملكية، الرباط، 1993، ص39.

ونيل الإجازات وارتداد المكاتب المشهورة فكثيرا ما كانت الغاية العلمية تتحد مع أداء فريضة الحج، ومما لا شك فيه أن صاحب الترجمة قد استفاد من رحلته هذه إلى الشرق العربي الناهض⁽¹⁾.

ورغم ما عرف عن إدريس الجعيدي من شغف بالعلم، إلا أننا لا نجد له آثارا كثيرة من المؤلفات باستثناء نص رحلته التي نقل فيها مشاهداته عن أوروبا، بالإضافة إلى بعض أشعاره المتفرقة، إلا أنه ترك مكتبة عامرة مهمة من الكتب الفقهية والأدبية المتداولة في عصره، بالإضافة إلى عديد الكتب في علم الفلك والتوقيت وعلم التنجيم، ومجموعة من أدوات الرصد والقياس⁽²⁾.

وفيما يخص مهامه السياسية والإدارية عند المخزن المغربي فإننا لا نعلم له إلا مهمته كاتبا في الرحلة السفارية إلى أوروبا التي قادها السفير الزيدي، وبعد عودته من هذه الرحلة هُشم وأبعد عن أي مهام مخزنية حتى عينه السلطان الحسن الأول في ربيع الثاني من عام 1297هـ/مارس 1880م لإحصاء الصائر بمراكش⁽³⁾.

توفي إدريس الجعيدي يوم الأحد 22 صفر عام 1308هـ/07 أكتوبر 1890م، ودفن بضريح ولي الله سيدي على المليح في مدينة سلا⁽⁴⁾.

2- رحلته إلى أوروبا

- في السياقات والدوافع

جاءت رحلة إدريس الجعيدي إلى أوروبا بصفته كاتبا للوفد السفاري المغربي الذي أرسله السلطان المغربي الحسن الأول إلى أربعة دول أوروبية وهي فرنسا وبلجيكا وإنجلترا وإيطاليا، وكان السفير محمد الزيدي الرباطي⁽⁵⁾ على رأس هذه السفارة المغربية⁽⁶⁾.

(1) إدريس الجعيدي، مصدر سابق، ص 23.

(2) المصدر نفسه، ص 25.

(3) العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حلّ مراكش وأغमत من الأعلام، مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، ط2، ج3، مرجع سابق، ص 39.

(4) معلمة المغرب، ج9، ص 3034-3035.

(5) السفير الحاج محمد بن الحاج الطاهر بن أحمد الزيدي ولد بالرباط عام 1220 هـ/1805م حج مرتين، ولاه السلطان عبد الرحمان عاملا على الرباط، كما وجهه السلطان سيدي محمد لمباشرة قضية تطوان مع الإسبان كنائب سلطاني بجانب محمد الخطيب عام 1276 هـ لتفادي قيام الحرب، وله كناشة في هذا الموضوع، وبعد الحرب عين أمينا ومراقبا للحسابات التي ترد على السلطان من قبل أمناء المراسي، وبعد تولية السلطان الحسن الأول عينه على رأس مصلحة القوائم الواردة من المراسي وتسجيلها بالدفاتر في إطار إصلاح هياكل الدولة المغربية، بعدها مباشرة اختاره سفيرا رغم كبر سنه 73 سنة. أنظر: عز المغرب معنيو، «سفارة الحاج محمد الزيدي والسرقة التي تعرضت لها بإيطاليا من خلال رحلة إدريس الجعيدي (في عهد السلطان المولى الحسن الأول)»، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ع 323، جمادى 2 1417 / نوفمبر 1996.

(6) معلمة المغرب مرجع سابق، ص 3034-3035.

وإذا كان الجعيدي مثل كثير من كتّاب الرحلات السفرية لا يخبر عن أسباب الرحلة ودوافعها، فإن المسار التاريخي يجبرنا أن هذه الرحلة السفرية المغربية تأتي تحت تأثير سياقات فترة صعبة كان يمر بها المغرب؛ فبالإضافة إلى استمرار تأثير الهزائم أمام القوى الأوروبية التي ذكرناها سابقا، فإن الضغوطات الأوروبية على المغرب قد ازدادت بشكل كبير وارتفع عدد الدول الأوروبية المتصارعة على النفوذ السياسي والعسكري والتجاري في المغرب، وفي ظل هذه الظروف توجهت سفارة الزبيدي إلى أوروبا في صيف 1876م، فزارت فرنسا ثم بلجيكا ثم إنجلترا وإيطاليا، ولا بد أن نشير أن المشروع الأولي للسفارة كان زيارة فرنسا فقط، إذ كانت هذه الزيارة مبرجة لتأتي ردا على زيارة السفير الفرنسي تيسو (Tissot) إلى المغرب سنة 1873م، إذ كان مقررا أن تتم هذه السفارة سنة 1875م، إلا أن بعض الحوادث أخرت إتمام المشروع إلى السنة التالية أي 1876م⁽¹⁾، فيما يذكر ابن زيدان أن هذه السفارة جاءت ردا على سفراء عديد الدول الأوروبية الذين وفدوا قبل هذا على السلطان الحسن الأول يهنؤونه على ترقيه ملكا، والمفاوضة مع تلك الدول في شؤون امتيازات رعاياها في المغرب⁽²⁾، الأمر الذي أشار إليه صاحب الرحلة في مقدمته⁽³⁾.

وكعادة أي رحلة سفارية إلى أوروبا يأمر السلاطين المغاربة بضرورة تواجد كاتب يرافق السفير ويساعده، وعلى هذا الأساس راسل السلطان الحسن الأول خديمه الحاج محمد بن سعيد السلاوي⁽⁴⁾ يخبره بتعيين الزبيدي سفيرا إلى فرنسا، ويطلب منه مساعدته على اختيار أحد الكتّاب من أهل سلا لمرافقته، وفي ذلك يقول الجعيدي: «...وفوض إليه -أعزه الله- أن يعين كاتباً من خدامه أهل سلا، وأميناً من رباط الفتح من أهل المروءة واليقظة والعلا... فأشاروا عليه بصاحب هذا النص (أي الجعيدي) وبالغوا في إطرائه بما ليس عليه مزيد...»⁽⁵⁾.

وبسبب عديد من المشاكل والصعوبات تأجل موعد السفارة من أبريل 1875م، إلى جوان 1876م، وهذه المرة كانت الوجهة إلى أربع دول أوروبية، ويبدو أن تغير المشروع إلى زيارة أربعة دول أوروبا كان متأثرا بضغوط عديد

(1) إدريس الجعيدي، مصدر سابق، ص 25. (جزء الدراسة)

(2) عبد الرحمن ابن زيدان، **العلاقات السياسية للدولة العلوي**، مرجع سابق 1999، ص 146.

(3) إدريس الجعيدي، مصدر سابق، ص 99.

(4) القائد أبو عبد الله محمد بن سعيد السلاوي المتوفى سنة 1310هـ / 1892م، من رجال السلطة والسياسة والدبلوماسية في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن، اشتهر بخدمته لثلاثة ملوك مغاربة هم: عبد الرحمن بن هشام، وابنه سيدي محمد، وابن المولى الحسن، ونال عندهم حظوة ومكانة، تولى وظائف سلا سنة 1862م. ويظهر أن القائد بن سعيد كان من رجال الدولة الثقات، فقد استندت إليه إضافة إلى مهمته الرسمية الأولى (والي مدينة سلا)، مهمة سفير لعل أشهرها سفارته إلى فرنسا سنة 1865-1866م. للمزيد أنظر: نجاة المري، «أبو عبد الله محمد بن سعيد السلاوي وسفارته بفرنسا»، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ع 319، ذو الحجة 1416/ مايو-يونيو 1996.

(5) إدريس الجعيدي، مصدر سابق، ص 100-101.

الدول الأوروبية الذين علموا بمساعي السلطان لتوجيه سفارة إلى فرنسا، إذ سعى سفراء كل من بريطانيا وبلجيكا وإيطاليا أن تمر السفارة على بلدانهم⁽¹⁾ وكل منهم يغري السلطان بضرورة الإصلاحات وتحديث الجيش خاصة وأنه هؤلاء الدول يعلمون أن المغرب أصبح بلا شك وجهة مميزة لتصدير صناعاتهم العسكرية، لذا كان كل منهم يعرض صناعات دولته على المغاربة.

لهذا عمل السلطان الحسن الأول لمواجهة هذه الضغوط الأوروبية على ضرب سفارة بالأخرى بتغيير برنامج سفارة الزيدي الأحادية إلى فرنسا إلى سفارة متعددة الاتجاهات، مستغلا بذلك المنافسة الدولية لصالح استقلال بلاده والاستفادة من التناقضات التي كانت سائدة بين هذه الدول الأوروبية⁽²⁾.

3- كتابة نص الرحلة

ذكر صاحب الرحلة الجعيدي في مقدمته أنه بعد تعيينه كاتباً في سفارة الزيدي لم تكن عنده فكرة تسجيل تفاصيل هذه الرحلة السفارية غير أن انتشار خبرها: «...سمع به بعض علماء بلدتنا الغائبين عن حضرتنا...سيدي أحمد الناصري اقترح علي أن أجعل رحلة في سفري واستغرق نحاري وسهري، تكون جامعة لكل خبر غريب، ولما نراه في الأوطان من كل أمر عجيب، إلى غير ذلك مما لا يخطر بالضمير...فكتبت له مجيباً...سأجعل بحول الله نصاً...وأجبت به مضمناً ذلك تسلياً لخاطره، من باب الوعد الذي لا يجب إلا الوفاء به...».

كذلك لقي تشجيعاً من أمين مرسى طنجة عبد القادر غنام، الذي ذكره من جديد بضرورة تسجيل تفاصيل رحلته هذه إلى أوروبا فشرع حينئذ في كتابتها، وذكر أنه لقي تشجيعاً حتى من لدن الأوروبيين لحمله أثناء تنقله وكثرة سؤاله أثناء الرحلة⁽³⁾، والأكد أن السلطان المغربي لم يكن له يد في حث الجعيدي على كتابة نص رحلته كما تعودنا عند بقية الرحلات المغربية، وهذا ربما من الأسباب الذي جعل رحلته مغمورة إلى حين تحقيقها من قبل الأستاذ عز المغرب معنيون.

ويصف الجعيدي نصه بالقول: «...فجاء نصاً شاملاً لكل غريبة أدناها وأقصاها، لا يغادر كبيرة أو صغيرة إلا أحصاها، وسميته إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار»⁽⁴⁾، ويتحدث الناصري واصفاً نص الجعيدي قائلاً: «...قيد

(1) فبعد استقباله السفير الفرنسي طيسو بفاس سنة 1873 م، والسفير البريطاني ديموند هاي في أبريل 1875، استقبل السلطان المغربي السفير

STEFANO SCOVASSO بفاس في يونيو 1876م والذي يمثل دولة إيطاليا.

(2) المصدر نفسه، ص 29-34. (جزء الدراسة)

(3) إدريس الجعيدي، مصدر سابق، ص 101.

(4) المصدر نفسه، ص 102-103.

صاحبنا أبو العلا المذكور رحلته البديعة المسماة بتحفة الأخيار بغرائب الأخبار، قد اشتملت على كل نادرة وغريبة، وأفصحت عن صنائع الفرنج وحيلها العجيبة...»⁽¹⁾.

أما عن محتويات نص رحلته فلا نقول إلا ما قال الجعيدي في مقدمته: «...ورتبته على مقدمة وستة أجزاء وخاتمة، فالمقدمة في بيان الأجناس الذين وجه إليهم مولانا-أيده الله-هذا الباشدور (السفير) ومن معه، وذكر المدن التي دخلنا إليها من بر الروم وغيرها، ومدة الإقامة والسفر من مدينة إلى أخرى برا وبحرا، وأما الأجزاء الستة فإن كل جزء منها يشتمل على أخبار وغرائب وفوائد وعجائب، والخاتمة...في بيان معتقدنا في ذلك، والتبري مما يتحدث به العوام الذين يجولون في بلاد الروم من مدح أحوالهم وحمد قوانينهم وافتخارهم بذلك»⁽²⁾.

انطلقت الرحلة من طنجة يوم الأربعاء 07 جمادى الأولى علم 1293هـ/31 ماي 1876م⁽³⁾، ليصلوا إلى مرسى مرسيليا الفرنسي بعد ثلاثة أيام⁽⁴⁾، ليتوجهوا منها إلى باريس يوم 14 جمادى الأولى 1293هـ/07 جوان 1876م⁽⁵⁾، وغادر الوفد المغربي باريس بعد أن مكثوا فيها حوالي 20 يوما التقوا بساستها وزاروا معالمها، متجها نحو بلجيكا يوم 03 جمادى الثانية 1293هـ/26 جوان 1876م⁽⁶⁾ ليصلوا إلى بروكسل في نفس اليوم، وبعد أن مكثوا 17 يوما يتنقلون بين المدن البلجيكية غادر السفارة نحو إنجلترا يوم 20 جمادى الثانية 1294هـ/13 جويلية 1876م⁽⁷⁾، ليغادروا إنجلترا يوم الأحد منتصف رجب 1294هـ/06 أوت 1876م باتجاه فرنسا عبر الأراضي الفرنسية⁽⁸⁾، ليصلوا إيطاليا بعد 07 أيام⁽⁹⁾، وبعد أن مكث الوفد السفاري حوالي 20 يوما في إيطاليا ليغادروها يوم 16 شعبان 1294هـ/06 سبتمبر 1876م نحو طنجة التي وصلوها يوم 21 شعبان 1294هـ/11 سبتمبر 1876م⁽¹⁰⁾. وبذلك مكثت الرحلة السفارية المغربية في أوروبا تتجول بين بلدانها ومدنها حوالي 3 أشهر ونصف، مكنت صاحب الرحلة أن يقف غرائبها وعجائبها في جميع المجالات وإن أخذ الجانب العسكري والصناعي نصيب الأسد فيها.

(1) أحمد الناصري، الاستقصا، ج9، مرجع سابق، ص 151.

(2) إدريس الجعيدي، مصدر سابق، ص 104.

(3) المصدر نفسه، ص 115.

(4) المصدر نفسه، ص 123.

(5) المصدر نفسه، ص 125.

(6) المصدر نفسه، ص 205.

(7) المصدر نفسه، ص 271.

(8) المصدر نفسه، ص 318.

(9) المصدر نفسه، ص 335.

(10) المصدر نفسه، ص 400.

خامسا: رحلة أحمد الكردودي إلى إسبانيا 1885م

1- التعريف بصاحب الرحلة

- نشأته

أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد القادر الشهير بالكردودي الكلاي من العائلة الكلائية الحسنية، ولد بفاس عام 1240هـ/1825م⁽¹⁾، من الناحية العلمية كان المترجم له متضلعا بعلوم عصره، ويعد من الكتاب الفقهاء المتضلعين في الكتابة وأساليبها الرفيعة على قواعدها المعروفة عند أهل الفن، تلقى تعليمه الأول على يد والده الفقيه العلامة سيدي محمد بن عبد القادر الكردودي⁽²⁾، ثم توجه كما هي العادة للارتواء من المكاتب الابتدائية، وتهيأ لولوج القرويين حيث منار العلم والعرفان، فانخرط في حلقات أساتذتها وقد هيا لذلك على الطريقة المعتبرة عند أهل العلم، فانطلق للحصول بحمة عالية وإصرار على نيل المعالي العالمية السامية، غير أن ملازمته الكثيرة كانت لدروس والده وللفقيه سيدي محمد بن عبد الرحمان الحجري الفلاي، شيخ الجماعة بفاس ومفتيها والمتصدر في الفقه بها، وعليهما كان أكثر أخذة.

قد كانت له عناية بالتاريخ والأدب والطب معتكفا عليه "حتى أنه من كثرة انكبابه على التذكرة للشيخ داوود الأنطاكي⁽³⁾ قيد عليها حواشي كثيرة، وله خط رائع نسخ به عدة كتب، ومروءة تامة وجد واقتصاد وسمت حسن ونباعة واقتدار"⁽⁴⁾.

- وظائفه السياسية والإدارية

وهي مزايا وخصال أهله، فضلا عن غيرها، لشغل مناصب سامية؛ فكان في أول أمره عدلا من عدول سباط فاس العليا، وكان يسرد كتاب الحلية⁽⁵⁾ بكرسي ظهر منار المسجد الأعظم، ثم انتقل كاتباً مع عامل فاس الباشا الفقيه

(1) سعاد الناصر، «الأبعاد المعرفية والحضارية للغرب في رحلة الكردودي»، مجلة الفيصل، مطبعة الفيصل الثقافية، جوان 1995، ع223، ص104.

(2) محمد بن عبد القادر الكردودي: (1217 - 1268 هـ = 1802 - 1852 م) محمد بن عبد القادر بن أحمد الكلاي الحسني الإدريسي أبو عبد الله، المعروف بالكردودي: مؤرخ أديب من أهل فاس ووفاته بها. ولي القضاء مرة بطنجة. له كتب، منها "الدر المنضد الفاخر" في تاريخ الدولة العلوية بالمغرب، ونظم لشرح اصطلاح القاموس سماه "إضاءة الأدموس"، و"حلية العروس على هامش إضاءة الأدموس" و"شرح خطبة ألفية ابن مالك" و"كشف الغمة في بيان أن حرب النظام حق على الأمة" وفهرسة في أسماء شيوخه. أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج6، ص212.

(3) في إشارة إلى كتاب "تذكرة داود الأنطاكي" المسمى "تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب" ينسب إلى مؤلفه "داوود الأنطاكي" (ت 1008هـ/1599م) وهو كتاب جامع لعلم الطب والأدوية.

(4) أبو العباس أحمد بن محمد الكردودي، التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الإصنيولية، المطبعة الملكية، الرباط، 1963، ص11

(5) في إشارة إلى كتاب "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لصاحبه أبو نعيم الأصفهاني (ت 430هـ) وهو كتاب في التراجم والأعلام ترجم فيه لعدد كبير من الصحابة والمتصوفة والنسك.

عبد الله بن أحمد، ثم انتقل كاتباً لدى وزير البحرية الفقيه السيد فضول غريط الأندلسي أيام السلطان الحسن، ولعل المرحلة الأكثر إثارة في حياة المترجم له هي التي قضاها في خدمة المخزن إذ كانت من أهم المراحل التي أثرت بشكل كبير على مسار حياته، فهي مليئة بالأحداث كثيرة الاضطراب، فخلالها قام بعدة مهام سواء في المغرب أو خارجه. ولعل ما أهله لأن يحظى بهذه المنزلة ما كان يتمتع به من حنكة سياسية اكتسبها بلا شك، في وسطه الذي كان يموج بالأحداث ويشهد النقاشات المستفيضة في شؤون السياسة والاقتصاد والثقافة الأمر الذي جعل منه شخصية بالغة التعقيد، وإن مختلف المهام التي كلف بها تظهر شأوه في مختلف شؤون الحياة، لقد كلف في عدة مناسبات بمهام، وقد كان هذا الوضع الذي يحتله في النسيج المخزني يجعله دائم الاتصال به ويلزمه سلوك سنن خاص كان يخضع له كل منخرط في السلك المخزني، يحتم عليه أن يكون على قدر كبير من الحنكة والدهاء بحيث يتعامل مع كل موقف بما يستلزمه، استخدم الكرودودي كاتباً في الشكايات مع الوزير الصفار، ثم كاتباً مع الحاجب السلطاني موسى بن أحمد⁽¹⁾.

ثم كلف في سفارة لفرنسا بصفته مرافقاً للسفير القائد المعطي بن عبد الكبير الشاوي المزماني لما حظي به من ثقة السلطان الحسن الأول، وقد جاء في الرسالة (حررت بتاريخ 27 ذي القعدة 1306هـ) التي أرسل بها هذا الأخير إلى فرنسا بمناسبة تعيين السفير المغربي المذكور أعلاه جاء فيها: «...وعززناه بكاتبنا الأرضي الأنجد الأنصح الأرشد الطالب أحمد الكرودودي...»⁽²⁾، ثم مندوباً لسفارة البابا ليون الثالث عشر بإيطاليا مع النائب الطريس، فجاء في الرسالة التي وجهها السلطان الحسن الأول «...وبعد فقد اقتضى نظرنا الشريف توجيه خديمنا الأرضي القائد عبد الصادق بن أحمد الريفي⁽³⁾ سفير لعند رئيس البابليون برومة...وتعزيه بكاتبنا الأرضي الطالب أحمد

(1) مجموعة من المؤلفين، معلمة المغرب، إشراف: محمد حجي، ع20، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، الرباط-المغرب، 2004، ص6785.

(2) أحمد الكرودودي، مصدر سابق، ص98.

وهي نفس الرسالة التي أرسلت إلى الحاكم الفرنسي بالجزائر، لأن الرحلة مرت على الجزائر. أنظر: نفس المصدر ص99، أنظر أيضاً: عبد الرحمان ابن زيدان، العلاقات السياسية للدولة العلوي، ص196-197.

(3) تم تغيير السفير عبد الصادق الريفي بالوزير السفير طويس سابق الذكر، إذ أن السفير القائد عبد الصادق الريفي اعتراه المرض عاقه عن القيام بالمأمورية التي كلف بها. أنظر أحمد الكرودودي، ص105. (جزء الملاحق)

الكرودودي...»⁽¹⁾، ثم كان في سفارة إسبانيا مع القائد عبد الصادق الريفى، وفي هذه الرحلة ألف رحلته "التحفة السنية للحضرة الشريفة الحسنية بالمملكة الإصنيولية"، والتي سوف تكون محور دراستنا.

توفي المترجم له يوم الثلاثاء منتصف شهر محرم عام 1318هـ/1900م، ودفن بضريح الادريسي بزاوية سيدي محمد بن الفقيه إزاء العلامة سيدي عبد الله بن يخلف الاندلسي⁽²⁾.

2- الرحلة إلى أوروبا

كما رأينا فإن رحلة الكردودي إلى إسبانيا لم تكن الأولى من نوعها إلى أوروبا، إذ سبق له زيارة كل فرنسا والفايتكان، لكن تبقى رحلته إلى إسبانيا الوحيدة التي خلف بخصوصها نصا رحليا نقل فيه مشاهداته حولها وكان انطلاق الرحلة من المغرب وبالضبط من مراكش، يوم 25 شعبان سنة 1302هـ/ (9 يونيو 1885)⁽³⁾.

لا يجبرنا الكردودي عن الغرض المحدد من هذه السفارة، ولا نستطيع الجزم بغرضها الأساسي لكن نستطيع رسم السياقات التي أتت فيها هذه السفارة، ففي الوقت الذي بدأ فيه الكردودي رحلته، كان المغرب هدفا لأطماع إسبانيا وفرنسا وألمانيا، لذا نجد محاولة المغرب الحفاظ على استقلاله من خلال الوسائل الدبلوماسية وتأخير السقوط إلى غاية 1911م،⁽⁴⁾ وفي الوقت عينه يهدف إلى تعزيز قوته العسكرية من خلال السعي لتحديث الحصون الدفاعية في المدن البحرية، وتحديد تسليحها وفقا لأحدث الاكتشافات الأوروبية، إضافة إلى ما تميزت به العلاقة بين الطرفين المغربي والإسباني من صراع حول الثغور المغربية.

وكانت الدبلوماسية وسيلة لتقريب وجهات النظر حولها⁽⁵⁾، وهو ما أشار إليه الكردودي تلميحا لا تصريحيا وهو يوضح اختياره ضمن أعضاء السفارة المغربية يقول: «ولما كان بين هذه الدولة الشريفة، العلية المنيفة، وبين من جاورها من دول النصارى شروط محصورة، وعقود مقررّة غير محظورة، وكان من عادة أسلاف سيدنا الأكرمين... أن يوجهوا في كل دهر سفراء لتجديدها ورفع ما انثلم من قواعدها، عيّن أيده الله سفراء لمن داوره من الدول... وكان

(1) هذه السفارة هي أول سفارة من نوعها أوفدها أحد الملوك المغرب إلى أكبر شخصية في العالم الكاثوليكي، وسببها أن الحكومة الإسبانية في عام 1887/1305م أقنعت بواسطة سفيرها السلطان الحسن الأول بإرسال سفارة مغربية إلى الفاتيكان لتهنئة البابا بمناسبة احتفال هذا الأخير باليوبيل، أنظر المصدر نفسه، ص 105.

(2) محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، ج8، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1980، ص 2822.

(3) أحمد الكردودي، مصدر سابق، ص 23.

(4) Henri Pérès, *L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1610 à 1930*, Librairie d'Amérique et d'Orient, Adrien Maisonneuve Paris, 1937, P42.

(5) للمزيد حول العلاقات المغربية الإسبانية والمراسلات الدبلوماسية بينهما أنظر: عبد الرحمان بن زيدان، *إتحاف أعلام الناس*، ج2، مرجع سابق، ص 390-417.

من جملة من عين منهم لدولة الصبنيول، المفوض إليه، فيما حمّله من المقول، خلدسم شريف عتبته...أحمد بن محمد بن عبد القادر الكرودوي...»⁽¹⁾، وربما يعتقد قارئ هذه الكلمات التي يصف بها الكرودوي مهمته أنه هو من عين سفيرا باتجاه اسبانيا، والحقيقة أنه كان كاتبها فقط، أما السفير فهو السيد عبد الله الصادق بن أحمد الريفي، وقد أغفل المؤلف ذكره كما أغفل ذكر باقي أعضاء السفارة.

كتب الكرودوي نص رحلته في نص متوسط الحجم، وأهم ما قيل فيها هو ذلك التقريض الذي قدمه له العلامة أبو العباس القاضي سيدي أحمد بن سوّدة وجاء فيه: «...ولما وقفت على ما نفثه يراع الأخ الأعز الحبيب الفقيه الكاتب الشريف الأجدد الحسيب، أبي العباس سيدي أحمد ابن شيخنا وسيدنا...سيدي محمد الكرودوي الحسني في وجهته لقضاء الغرض المولوي بثغر الأندلس، ردها الله دار إسلام بجاه من له الجاه العظيم الانفس، ألفيته مجموعا دل على كمال فضل جامعته وتوقد قريحته وحسن ذكائه ونباهته، وكيف لا والدر من معدنه الأكرم، وقديما قيل: ومن يشابه أباه فما ظلم...»⁽²⁾.

(1) أحمد الكرودوي، مصدر سابق، ص 19

(2) المصدر نفسه، ص 14.

الفصل الرابع: الرحلات التونسية إلى أوروبا خلال القرن 19م

- أولا: أحمد ابن أبي الضياف ورحلته إلى فرنسا 1846م

- ثانيا: خير الدين التونسي ورحلاته إلى أوروبا

- ثالثا: محمد بيرم الخامس ورحلاته إلى أوروبا

- رابعا: محمد بن عثمان السنوسي ورحلاته إلى أوروبا

الفصل الرابع: الرحلات التونسية إلى أوروبا خلال القرن 19م

يلاحظ القارئ بلا شك أن ما ميز الرحلات المغاربية المدونة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر حول أوروبا بأن كل النصوص المدونة نصوص مغربية (المغرب الأقصى)، مقابل غياب نصوص للرحلات التونسية خلال القرنين السابقين، الأمر الذي يؤكد أن أوروبا لم تشغل مكانا كبيرا عند نخبة ومثقفي وحكام تونس خلال هذا العصر، وذلك رغم أن هذه الأخيرة ربطتها علاقات دبلوماسية مع الدول الأوروبية، فهذا الغياب عن التدوين حول أوروبا لا يعود إلى غياب التمثيل الدبلوماسي التونسي في أوروبا ولا الرحلة إليها، بل إن ما غاب هو تدوين الرحلة وليس الرحلة في حد ذاتها.

وعلى هذا الأساس نجد الباحثة "أنس دبش" (Ons Debbech) في كتابها الرحالة التونسيون في فرنسا خلال القرن 19م (Les voyageurs tunisiens en France au XIXè siècle) في إطار تقديمها للسفراء التونسيين إلى فرنسا في القرن الثامن عشر، تقدم قائمة مفصلة عن هؤلاء الرحالة، بداية بالحاج مصطفى آغا الذي زار فرنسا في مارس من سنة 1704م بتكليف من الباي إبراهيم الشريف، ثم يوسف آغا الذي كلفه الباي حسين بن علي (1705-1735م) برئاسة الوفد الذي أرسله إلى الملك الفرنسي سنة 1728م، مرورا بكل من علي آغا ومحمد خوجة (1742م)، إبراهيم خوجة (1770م)، علي شواش (1772م)، سليمان آغا (1777م)، محمد خوجة (1797م)، مصطفى أرناؤوط (1802م)، هذا التقديم المحمل لطلائع التونسيين ممن وضعوا أقدامهم في فرنسا لا كتجار أو ربما أسرى بل كسفراء⁽¹⁾ لكن ورغم ذلك لا نجد لأي من هؤلاء السفراء نصا رحليا حول سفارته مثل ما كان عليه الأمر مع بعض السفراء المغاربة إلى أوروبا.

وإن هذا الغياب عن تدوين الرحلة لا ينحصر في كونه معبر عن عدم وجود حافظ ثقافي من هؤلاء الذين زاروا أوروبا للكتابة عنها، بل يدعمه بلا شك غياب الاهتمام من الحكام والسياسيين في تونس وإعراضهم عن معرفة الآخر الأوروبي، عكس الحكام المغاربة الذين شجعوا مثل هاته الكتابات وأمروا مبعوثيهم بتدوين مشاهداتهم حول البلاد الأوروبية، بل ويرسلون معهم كتابا وأدباء لهذا الغرض إذا لم يكن السفير له من القدرات الأدبية ما يؤهله لذلك.

لذا علينا أن نتظر حتى يشرف القرن التاسع عشر على منتصفه حتى نقف عند أولى النصوص الرحلية التونسية إلى أوروبا، وهي النصوص التي سوف نعرف بها وبأصحابها في هذا الجزء من البحث، وما ميز الرحلات التونسية التي توجهت إلى أوروبا ودونت مشاهداتها حولها؛ أن أصحابها جميعا كانوا من أعلام حركة الإصلاح والتحديث التونسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الأمر الذي من شأنه أن يؤثر على نظرة هؤلاء الرحالة على نظرتهم إلى أوروبا، في نظرة أكثر عمقا وتحليلا خاصة في ظل الحرية التي تمتع بها هؤلاء الرحالة في تسجيل ارتساماتهم وملاحظاتهم، نظرة تختلف بلا شك عن نظرائهم المغاربة والجزائريين.

(1) Ons Debbech, *Les voyageurs tunisiens en France au XIXè siècle*, L'Harmattan, paris, 2016, p 15-19.

أولاً: أحمد ابن أبي الضياف ورحلته إلى فرنسا 1846م

1- التعريف بصاحب الرحلة

هو أبو العباس أحمد بن الحاج ابن أبي الضياف⁽¹⁾ بن عمر بن أحمد بن نصر بن محمد بن الولي أبي العباس الباهي العوني⁽²⁾، ولد سنة 1217هـ الموافق لسنة 1802م⁽³⁾، تلقى تعليمه الابتدائي في زاوية ابن ملوكة بتونس على يد شيخه محمد بن صالح بن ملوكة⁽⁴⁾، ليدخل بعدها جامع الزيتونة متمماً لدراسته⁽⁵⁾، زاول دراسته على يد أساتذة عصره كالشيخ محمد بيرم الثالث⁽⁶⁾ وإبراهيم الرياحي⁽⁷⁾ وأحمد بن الخوجة⁽⁸⁾ وغيرهم، وعرف عن المترجم له ميله إلى دراسة كتب الأدب⁽⁹⁾.

- (1) تنطق بالصيغة التونسية الدارجة "بالضياف"، أنظر: حسين حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، مج2، القسم1، مراجعة: محمد العروسي المطوي وبشير بكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص559.
- (2) الطاهر الحميري، «تعريف بابن أبي الضياف وتاريخه»، مجلة الفكر، ع9، تونس، 1 يونيو 1960، ص30.
- (3) محسن ابن أبي الضياف، «من هو ابن أبي الضياف»، مجلة الاتحاف، تونس، 1 مايو 1988، ص30. أنظر أيضاً: محمد السنوسي، «ذيل أقدم ترجمة لابن أبي الضياف»، حوليات الجامعة التونسية، ع5، تونس، ص116.
- (4) أبو عبد الله محمد بن صالح بن مجدي بن ملوكة التونسي (ت1276هـ/1860م) فقيه مالكي، عالم بالفرائض والحساب، كان مدرسا بجامع الزيتونة، وعرضت عليه خطط القضاء والفتوى فأعرض عنها، له كتب منها: "الشرح الصغير على الدرّة البيضاء" في الفرائض، و"الشرح الكبير" عليها، و"تفسير سورة الفاتحة" ورسائل في "فوائح السور" و"المنطق" و"أحكام التوأمين" وغيرها. أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002، ص164.
- (5) محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج3، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1984، ص264.
- (6) محمد بيرم الثالث: ولد سنة 1201هـ/1787م، تصدر للتدريس وكان متمكناً في علوم البيان والمنطق، تولى الخطابة بجامع يوسف صاحب الطابع كما عمل في الفتوى، توفي سنة 1247هـ/1832م، أنظر: أحمد بن أبي الضياف، اتحاف عهد الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، ج2، الدار التونسية للنشر، تونس، ص54-55.
- (7) إبراهيم الرياحي: هو إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد بن إبراهيم الطرابلسي الرياحي، ولد سنة 1767م، عمل على تحفيظ القرآن الكريم والتدريس كمن من سنة 1797م إلى سنة 1832م، ساهم في إصلاح التعليم الزيتوني، وعمل كسفير لتونس لدى الايالة في عديد المرات توفي سنة 1850م. أنظر: كمال عمران، «الشيخ إبراهيم الرياحي (1767م-1850م)»، مجلة الحياة الثقافية، ع176، تونس، 1 أكتوبر 2006، ص113-117.
- (8) أحمد بن الخوجة: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن الخوجة، من شيوخ تونس وعلمائها، نشأ طالباً للعلم وتصدر للتدريس كما تدرّج في الوظائف العلمية، وعمل في خطة القضاء، وبعده خطة الفتوى وقد قرأ عليه ابن أبي الضياف الحديث، توفي سنة 1843م. أنظر: أحمد ابن أبي الضياف، اتحاف عهد الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، مج4، ج7، الدار العربية للكتاب، تونس، ص142.
- (9) محمد محفوظ، مرجع سابق، ص264.

ولما أكمل دراسته ولاء حسين باي⁽¹⁾ خطة الإشهاد العام على صغر سنه، ثم رقاها إلى منصب الكتابة بديوان الحكومة سنة 1241هـ/1826م، ومازال على هذا الوظيف إلى أن آلت الدولة إلى الأمير أحمد باشا فجعله على رئاسة قلم دولته، واتخذ كاتبا سره، ولقب بشيخ الدولة⁽²⁾.

وكان الباي يعتمد في سفاراته إلى الدولة العثمانية⁽³⁾، واصطحبه في سفره إلى فرنسا سنة 1262هـ/1846م⁽⁴⁾، وكان يعتبره من مفاخر دولته، ولما تولى محمد الصادق باي⁽⁵⁾ السلطة جعله من أعضاء مجلس الشورى الخاص سنة 1277هـ/1861م، وسماه وزيرا واعتمده في شرح القانون الأساسي للدستور التونسي المسمى بعهد الأمان⁽⁶⁾.

ويبدو أنه أبعد عن السلطة سنة 1281هـ/1864م، أسوة بغيره من كبار الموظفين، وحيكت له الدسائس حتى صار فاقد الخطوة، وبعد سنة 1284هـ/1867م، لم يعد له أي نشاط ظاهر، وعندما سمي خير الدين وزيرا مباشرا في جانفي 1870م، سمي ابن أبي الضياف المستشار الأول بالقسم الثالث من الوزارة الكبرى، وهذا القسم له صلاحيات قانونية تتصل بالأحوال الشخصية، ولحقته مضايقات من الوزير الأكبر مصطفى خزندار لأنه كان من أنصار خير الدين، وفي خاتمة المطاف تفضل عليه محمد الصادق باي بلقب وزير استرضاء له حرصا على إبقائه في الخدمة، ولبت مستمرا على مباشرة الخدمة إلى أن تقدمت به السن وأقعدته العجز، فاستعفى فأعفي في ذي القعدة 1288هـ الموافق لـ جانفي-فيفري 1872م⁽⁷⁾، وافاه الأجل يوم الثلاثاء 18 شعبان سنة 1291هـ، الموافق لـ 29 سبتمبر 1874م⁽⁸⁾.

(1) الباي حسين باشا، ولد في 06 جمادى الثانية سنة 1199هـ/16 مارس سنة 1784م، وجلس على العرش في تونس في 28 رجب 1239هـ/29 مارس 1824م، وتوفي في 22 محرم سنة 1251هـ/20 ماي 1835. أنظر: محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج 1، الجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، تونس، 1999، ص 222.

(2) حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 559.

(3) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 4، مصدر سابق، ص 59.

(4) محمد محفوظ، مرجع سابق، ص 265.

(5) محمد الصادق باي: بن حسين بن محمود باي، ولد يوم 7 فيفري 1813م، تولى السلطة في تونس بعد وفاة أخيه محمد باي سنة 1859م، تولى السلطة مدة 22 سنة، عرف عهده عديد الإصلاحات، وفي عهده نصبت الحماية الفرنسية على تونس ماي 1881م، توفي يوم 29 أكتوبر 1882م. للمزيد أنظر: الشيباني بنبلغيث، الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1859-1882)، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس-تونس، 1995، ص 65-68.

(6) حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 560.

(7) محمد محفوظ، مرجع سابق، ص 266.

(8) حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 560.

ترك ابن أبي الضياف بحكم مكانته العلمية والسياسية عديد المؤلفات يعد أشهرها كتابه "إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان" محور دراستنا والذي درس فيه تاريخ تونس من الفتح الإسلامي إلى عصره (القرن 19م)، بالإضافة إلى "رسالة في المرأة" درس فيها مكانة المرأة في الإسلام وعلاقة الرجل المسلم بالمرأة، وتطوّرت إلى مسائل التعليم والميراث والمساواة والزواج⁽¹⁾، ولابن أبي الضياف أيضا أشعار ورسائل تتصل بمواضيع مختلفة، وقد اقتنى خير الدين جلّ مؤلفاته وأضافها إلى المكتبة الصادقية التي أحدثها بالجامع الأعظم، وغيرها كثير من الآثار⁽²⁾.

2- رحلته إلى فرنسا 1846م

- سياقات ودوافع الرحلة

تدرج رحلة أحمد باي⁽³⁾ (التي كان ابن أبي الضياف ضمن أعضائها) ضمن سياقات تاريخية وفترة صعبة وحبلية بالأحداث الخطيرة والحاسمة في تاريخ تونس الحديث والمعاصر، والأکید أن احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م كان له تأثيره على تونس كما أثر على كافة المنطقة المغاربية، إذ أصبحت هذه الدولة الاستعمارية الكبرى "جارة" لتونس، في وقت أصبحت الدولة العثمانية في قلق دائم من احتمال وقوع بقية الإيالات في شمال إفريقيا في قبضة الفرنسيين، فقامت بإعادة إخضاع طرابلس الغرب لحكمها المباشر سنة 1835م، وكان واضحا أن الباب العالي يفكر في أن تكون تونس هي الهدف الثاني، لكن فرنسا كانت لها دائما بالمرصاد، وخصوصا أنها تعد تونس عمقها الاستراتيجي وامتدادا للجزائر، ولم يمنع فرنسا من احتلال تونس إلا بريطانيا التي أفلقتها هي الأخرى امتداد النفوذ الفرنسي في شمال أفريقيا وسعت دائما إلى تحديده.

اعتقد أحمد باي أن الدولة العثمانية كانت تمر آنذاك بأزمات دولية وأخرى داخلية خطيرة، لم تعد ذات فائدة وجدوى لتونس بسبب الضعف العسكري وبعد المشقة، على خلاف فرنسا القوية المحاذية لتونس، فتقرب من هذه الأخيرة، واعتمد عليها في جميع محاولاته الإصلاحية المدنية منها والعسكرية، وحاول من خلالها التخلص من القيد العثماني، فاستغل الفرنسيون طموحاته، وشجعوه على توجهاته الانفصالية، فتغلغت فرنسا في مفاصل الدولة التونسية، بواسطة قناصلها وتجارها وموظفيها وضباطها، فأصبح نفوذها المالي والاقتصادي قويا، تلاه ضغط سياسي وتدخل في كافة شؤون تونس⁽⁴⁾.

(1) المنصف الشنوفي، «رسالة أحمد بن أبي الضياف في المرأة»، حوليات الجامعة التونسية، ع05، 1968، ص112-149.

(2) محمد محفوظ، مرجع سابق، ص266-267.

(3) أحمد باي: المشير أحمد باي باشا ولد في 21 رمضان سنة 1221هـ/02 ديسمبر 1806م، جلس على العرش في تونس يوم 10 رجب 1221هـ/10 أكتوبر 1837م، توفي في 13 رمضان 1271هـ/30 ماي 1855م. أنظر: محمد بيرم الخامس، مصدر سابق، ص229.

(4) إبراهيم حسين جبار، «إيالة تونس في عهد أحمد باشا باي: دراسة تاريخية»، المستقبل العربي، مج40، ع464، مركز دراسات الوحدة العربية، أكتوبر 2017، لبنان، ص65.

وعليه وفي سنة 1262هـ/1846م قرر أحمد باي القيام بعمل غير مسبوق؛ تمثل في القيام بزيارة رسمية إلى فرنسا وإنجلترا، وكان المعمول به عادة أن السياسات الخارجية للمقاطعات العثمانية تُترك للسلطان العثماني؛ لذلك ضغطت الأستانة باتجاه منع الباي من زيارة فرنسا وإنجلترا، وهذا ما أكدّه ابن أبي الضياف: «وبلغ الباي أن رسول الدولة العثمانية بباريس كاتب الوزير قزو متشكيا من قبول الدولة الفرنسية للباي بغير حضوره، فأجابه أن هذا الملك أتى زائرا لبلادنا، ولنا معه شروط مرعية، وتقدم قبول نوابه ورسله بغير حضوركم، وبالأمر قبل أولاد سلطاننا بغاية السرور والاحتفال...»⁽¹⁾.

والظاهر أن الصراع الفرنسي-الإنجليزي كان على أشده فيما يخص المسألة التونسية، فبينما قبلت فرنسا بزيارة باي تونس لها كبلد مستقل عن الدولة العثمانية، أو تعتبرها تبعية رمزية لا سياسية دبلوماسية، بينما رفضت إنجلترا مثل هذه الزيارة لأنها ترى عكس ذلك وطالبت بضرورة حضور السفير العثماني⁽²⁾، وكانت فرنسا من خلال قبولها هذه الزيارة تهدف لفصل تونس عن الدولة العثمانية تمهيدا للسيطرة عليها.

فإقدام أحمد باي على مثل هذه الرحلة تحمل في طياتها تأكيدا لمساعيه في إثبات استقلال بلده تونس عن الدولة العثمانية، كما عمل أن يتخذ نموذجا ذاتيا للإصلاح والتحديث متطلعا للنموذج الأوروبي وخاصة الفرنسي التي فضل الاطلاع عليها بنفسه في بلدها الأم (أوروبا)، في الوقت الذي كان فيه معارضا للتنظيمات العثمانية ورفض تطبيقها في بلده تونس، وقد تلقى وفقا لذلك انتقادات واسعة من قبل الباب العالي، فيذكر ابن أبي الضياف النقد الذي وجهه الصدر الأعظم العثماني مصطفى رشيد للباي في مارس 1842م/محرم 1258هـ قائلا لممثلي الباي: «لا يمكن أن السلطان (العثماني) يتصرف بقانون تنظيماته، وبأشياء تونس يتصرف في المسلمين بلا قانون شرعي ولا سياسي، ومآل ذلك إلى خراب المملكة لا محالة»⁽³⁾.

وتزامن طموح وتوجه الباي الذاتي مع جملة من السياقات الإقليمية والدولية، فتوقيت الرحلة جاء مدفوعا ومتزامنا أيضا مع أحداث إقليمية أخرى، مثل ما حدث قبل إحدى عشر شهرا من رحلة أحمد باي، والمتمثلة في زيارة الدولة التي قادت ولي العهد المصري إبراهيم باشا (1789-1848م) إلى كل من فرنسا وإيطاليا وإنجلترا⁽⁴⁾، وقد مثلت هكذا زيارة لحاكم أو ولي عهد مسلم إلى أوروبا حافزا شجع الباي التونسي على الإقدام على مثلها؛ خاصة وأن التجربة المصرية في علاقتها مع أوروبا وخصوصا فرنسا كانت مثل التجربة التونسية مرتبطة بالعلاقة مع الدولة العثمانية.

(1) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج4، مصدر سابق، ص91-92.

(2) المصدر نفسه، ص 109.

(3) المصدر نفسه، ص58.

(4) Daniel Newman, «Ahmad Bey's journey to the land of the Fransis (1846)», Revue Ibla, No 201, Tunis, 2/2007, p52.

وتأتي رحلة أحمد باي بعد زيارة أبناء الملك الفرنسي لويس فيليب (Louis-Philippe)⁽¹⁾ إلى تونس ضمن مساعي فرنسا لمواجهة النفوذ العثماني في المنطقة، فكانت زيارة الدوق مونتبنسيير (Duc de Montpensier) إلى تونس بين 20-25 جوان/يونيو 1845م في طريقه إلى مصر والقسطنطينية، في حين تم إرسال الأمير دي جوائفيل (de Joinville) مع أسطول البحر الأبيض المتوسط للسبب نفسه تقريبا بين 28 يونيو و 7 يوليو 1846م، وقرب نهاية زيارة دي جوينفيل، انضم إليه شقيقه دوق دومالي (Duc d'Aumale) 5-7 يوليو 1846م⁽²⁾.

ومهما يكن من الخلفيات السياسية لهذه الرحلة، فإنها مثلت من الناحية الحضارية حدثا مهما إذ مكنت الباي وكبار مستشاريه من الاطلاع المباشر على الغريب، والافتتاح بضخامة الهوة التي أصبحت قائمة بين التقدم الغربي الأوروبي والتأخر الشرقي الإسلامي، ناهيك أن أحمد باي الذي كان متأثرا بشخصية نابليون بونابرت كما إنه كان يطمح في أن يؤسس جيشا حديثا مثل الجيش الفرنسي⁽³⁾.

- التحضير للرحلة:

ليس من الواضح متى بالضبط قرر الباي التونسي الذهاب إلى فرنسا، أو ما إذا كان ذلك بتحريض من حاشيته، كما أنه لا توجد سجلات تشير إلى أن الزيارة جاءت بعد دعوة من الحكومة الفرنسية، ولو أننا لا نستبعد أن يكون للفرنسيين يد في هاته الرحلة، لأن زيارة الباي لفرنسا أعقبت الزيارة التي قام بها أولاد الملك الفرنسي إلى تونس في الفترة بين جوان إلى جويلية 1846م⁽⁴⁾.

وتحضيرا لهذه الرحلة كرس الباي شهر أكتوبر بالكامل من عام 1846م لطمأننة أعلام الدولة من العلماء والوزراء والقادة قبل إعلان قراره السفر على الملأ، لذا كان من الضروري ضمان استقبال أخبار جيدة من قبل رجال دولته الذين استشارهم في السفر، فكان ردهم: «إن تَحَقَّقَتْ أنك تُقبل فيها (فرنسا) قبول أمثالك (أي أن يُستقبل كملك ورئيس دولة) فهو حسن، لا سيما وأولاد سلطانهم كانوا في زيارتك بالأمس وهم الآن جيراننا» ولضمان هذا الشرط أرسل الباي أحد رجاله إلى فرنسا لاستكشاف ذلك وضمانه، ثم عرض القضية على عماله وقواده في مختلف

(1) لويس فيليب: ملك فرنسا (1830-1848) ولد بباريس، ينتمي إلى طبقة أرستقراطية، انضم إلى الثورة الفرنسية برتبة ضابط عام 1789، ويعد من القادة الليبراليين الذين عارضوا حكم شارل العاشر الملكي، اعتلى عرش فرنسا إثر ثورة جويلية بباريس عام 1830، واستمر في حكمه لفرنسا لغاية 1848. أنظر: بسام العسلي، *جهاد الشعب الجزائري*، ج 1 ط 1، دار العزة والكرامة للكتاب، الجزائر، 2005، ص 253.

(2) Daniel Newman, Op.Cit, p53.

(3) خير الدين التونسي، *أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك*، تقديم: محمد الحداد، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة وبيروت، 2012، ص 32. (جزء التقديم)

(4) أحمد ابن أبي الضياف، *إتحاف عهد الزمان*، ج 4، مصدر سابق، ص 91-92.

الأقاليم التونسية ولاقى منهم استحسانا، وكذلك كان موقف العلماء، كما عمل على تعزيز الوجود العسكري في المناطق الحدودية، وفي المناطق الجبلية، وفي أراضي القبائل التي تعتبر عرضة للاضطرابات، قبل أن يزور ضريح سيدي بلحسن الشاذلي للتبرك به، وقبيل سفره عهد لابن عمه محمد باي أن يخلفه في حكم المملكة فترة غيابه وأوصاه بالبلاد والعباد خيرا⁽¹⁾.

فكما حرص الباي على تأكيد مكانته للبلاد المترحل إليها؛ عمل كذلك على ضمان استقرار بلاده فترة غيابه، فالباي مدرك بلا شك حجم ما هو مقدم عليه، وهو زيارة حاكم تونسي مسلم لأول مرة إلى فرنسا التي ما زال يُنظر إليها أنها أرض كفر لا يجوز السفر إليها، ولنا أن نتصور الموقف من هاته الرحلة التي أقدم عليها الباي التونسي ونحن نقرأ رأي الشيخ إبراهيم الرياحي الذي صرح به أحمد باي عند عودته من سفره سنة 1846م إذ قال له: «نحمد الله على سلامتك ونشكركه... مع أن سفرك هذا لغير مكان في غير زمان»⁽²⁾.

ويبدو حرص الباي التونسي على عدم قطع العلاقة نهائيا مع الباب العالي، لذا حرص -كما يؤكد ابن أبي الضياف- على أن يكون لقاء بين الباي مع وزير الدولة العثمانية، لكن هذا الأخير لم يحضر، كرد فعل معترض عما أقدم عليه حاكم تونس، مما جعل ابن أبي الضياف يقول: «وانتظر الباي قدوم رسول الدولة العلية بباريس، فلم يقدم ولا بعث أحدا، فقوي عنده ما كان توهمه في رأي وزراء الدولة»⁽³⁾.

ورغم عدم التصريح بالهدف الحقيقي لهذه الرحلة، فإن القضية التي غالبا ما أثّرت حول مشروعية الرحلة إلى أوروبا قد عادت للواجهة في النصف الثاني من القرن 19م، وذلك من خلال التبريرات التي حاول من خلالها المشير أحمد باي تبرير رحلته بأنه لمصلحة الدين والوطن فيقول أحمد باي مبرارا هذا السفر: «... أما بعد فإن المصلحة التي أمرنا الله بمراعاتها، اقتضت أن أسافر بنفسي إلى فرانسة ولندرة (لندن)، والله يعلم أن شغفي برعيتي ومملكتي يقتضي أن نقتحم المخاوف لأمانهم، ونتحمل مشقة الأسفار لراحة أوطانهم، وحماية أموالهم وأبدانهم...»⁽⁴⁾.

انطلقت الرحلة من تونس يوم الخميس 16 ذي القعدة 1262هـ الموافق لـ 05 نوفمبر 1846م، ضمّ الوفد بشكل رئيسي: الوزير مصطفى خزندار، وزير الحرب مصطفى باش آغا، جوزيبي رافو (Raffo Giuseppe) -شخصية من أصل إيطالي من الديوان المسؤول عن الشؤون الخارجية، وكذلك الشخصيات المدنية والعسكرية محمد مرابط، صلاح شبوب،

(1) المصدر نفسه، ص 91-92.

(2) أحمد عبد السلام، المؤرخون التونسيون في القرون 17 و 18 و 19 م: رسالة في تاريخ الثقافة، ط 1، الجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، 1993، ص 561.

(3) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 4، مصدر سابق، ص 100.

(4) المصدر نفسه، ص 93، 94، 95.

حسونة متلي، خير الدين التونسي، الضابط في البحرية حسونة مورالي، وأحمد بن ضياف كاتب الرحلة، إضافة إلى مرافقة القنصل الفرنسي دي لاغاو بالطبع للرحلة وفقاً للعادات الدبلوماسية، ووصل الوفد التونسي إلى ميناء طولون بفرنسا يوم الأحد 19 ذي القعدة 1262هـ الموافق لـ 08 نوفمبر 1846م، وعادت الرحلة إلى تونس يوم 12 محرم 1263هـ الموافق للخميس 31 ديسمبر 1846م بعد أن بقيت بفرنسا حوالي شهر ونصف⁽¹⁾.

3- نص الرحلة

نشير أن ما دونه ابن أبي الضياف من مشاهدات حول الرحلة التي قادته رفقة أحمد باي وعدد من المسؤولين التونسيين إلى فرنسا سنة 1846م تقع في الجزء الرابع من كتاب "إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان"⁽²⁾، حيث يذكر الكاتب-بحكم قربه من الحدث- السياقات التي جرت فيها الرحلة وكذلك تحضيراتها كما بينا أعلاه مارا، بوصف مشاهداته في البلاد الفرنسية، وإن كان الجزء الرابع من الكتاب يحتوي على الجزء الأهم من نص هاته الرحلة فإن شذراتها منتشرة في أجزاء مختلفة منه، خاصة الجزء الأول أو العقد الأول الذي يبدو فيه حضور الفكر الأوروبي جليا.

وبالحديث عن كتاب "إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان" نقول أنه يعتبر مصدرا أصليا في تاريخ تونس خاصة خلال القرن التاسع عشر، وذلك لأسباب عديدة من أهمها أن مؤلفه منذ حداثته سنة كانت له معرفة وخلطة برجال الدولة في تونس، فقد كان يتردد عليهم وعلى دواوينهم (دواوين الحكومة)، وهو في صحبة والده الذي أدخله حمودة باشا (1759-1814م) في خدمة الدولة، ومن المناصب التي تولّاها والد ابن أبي الضياف منصب كاتب لدى الوزير يوسف صاحب الطابع وصاحب سره، ومنصب رئيس الكتبة في بيت خزندار... إلخ، وقد كان والده مطلعا على أسرار الدولة ويخبر ابنه عن كثير من الحوادث التي جرت ويفسر غموضها، وهو ما نجده في أماكن عديدة من هذا الكتاب، بالإضافة إلى هذا كان المؤرخ يذكر الكثير من أخباره مستندا إلى أقوال بعض المسؤولين الذين عاصروا وشهدوا على الأحداث وعاشوها، كما تولى ابن أبي الضياف رئاسة "ديوان الإنشاء" سنة 1827م، وعدة مناصب عالية في الدولة منها الوزارة، تؤهله للاطلاع على ما لم يتسنى لغيره الاطلاع عليه، فالكتاب غني جدا بالوثائق والمعلومات والأخبار ما يجعله يتمتع بمرتبة خاصة لا يضاهيه فيها أي كتاب تاريخ آخر في العهد الذي ندرسه⁽³⁾.

(1) المصدر نفسه، 96-97.

(2) أطلق على عنوان الكتاب تسمية أخرى هي "إتحاف أهل الزمان بأخبار عصر عهد الأمان في تاريخ إفريقية وتونس والقيروان"، أنظر: إسماعيل باشا بن محمد، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون، ج1، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ص16.

(3) رشاد الامام، سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814م، رسالة دكتوراه في الفلسفة، الجامعة الأمريكية ببيروت، ص34.

شرح ابن أبي الضياف في تأليف كتابه يوم 19 جانفي 1862م، وأنه سنة 1872م، أما الدافع الذي دفعه إلى تأليف كتابه فقد أشار إليه بقوله: «فحركتني رياح هذا الوطن إلى الإطناب، ربما استحسن في مثل هذا الباب، مع أنني لست من أولئك الرجال، ولا من فرسان هذا المجال، لاسيما الشبية ولت، والقريحة كلت، والقوى ألفت ما فيها وتخلت، لكن وراء قصوري عين الرضا، وعادات الكرام من الإغضاء»⁽¹⁾.

وكتاب "إتحاف أهل الزمان" يتكون من أربعة مجلدات مقسمة إلى ثمانية أجزاء، بداية بالمقدمة التي خصص فيها ابن أبي الضياف كلامه عن الملك وأنواعه وأصنافه ثم انتقل فيها إلى الإمام بأمراء إفريقية وبيوت الملك بالقيروان والمهدية وتونس ملوك بني الأغلب وملوك صنهاجة بإفريقية وذكر ملوك بني حفص.

أما الجزء الثاني من المجلد الأول فتناول فيه الفتح العثماني لتونس وكذا الخبر عن الدولة المرادية والدولة الحسينية بتونس، وفي الجزء الثالث يواصل ابن أبي الضياف نصه لأخبار بايات تونس وآثارهم، والجزء الرابع خصصه لذكر دولة المشير أحمد باي وذكر آثار دولته في شتى الميادين وتحدث فيه عن رحلته إلى فرنسا، وتطرق فيه أيضا إلى بعض التنظيمات الإصلاحية والحديث عن الدستور التونسي.

وفي الجزء الخامس ذكر المؤلف العديد من التطورات في البلاد التونسية سواء في نظام الحكم أو العلاقات الخارجية خاصة مشكلة الامتيازات الأجنبية والثورات الداخلية، وتحدث الكاتب عن إيقاف العمل بـ "عهد الأمان"، أما الجزء السادس فتناول فيه دولة المشير محمد الصادق باي وعلاقات تونس مع الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، فيما يخص الجزأين السابع والثامن فاشتملا على تراجم للأعلام من السياسيين والعسكريين والعلماء والأئمة والإداريين وغيرهم، وتميزت مصادر كتاب الإتحاف بالتنوع، لأنه شمل فترة تاريخية طويلة امتدت من الفتح الإسلامي لتونس إلى غاية عهد الصادق باي.

(1) أحمد بن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، مج4، ج7، الدار العربية للكتاب، تونس، ص: أ.

ثانيا: خير الدين التونسي ورحلاته إلى أوروبا

أما النص الثاني من نصوص الرحلات التونسية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر فيعود إلى واحد من أهم المفكرين والمصلحين والسياسيين ورجال الدولة في تونس والبلاد المغاربية والعربية والإسلامية خلال هاته الفترة، ويتعلق الأمر بخير الدين التونسي وكتابه الشهير "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، هذا الكتاب الذي جمع فيه مؤلفه بين أفكاره السياسية وتأملاته ومشاهداته من خلال رحلاته عما كانت عليه أوروبا القرن التاسع عشر مقارنة بما كان تعيشه البلاد الإسلامية.

1- التعريف بصاحب الرحلة

- في نشأته وتكوينه

وفي التعريف بالمترجم له نقول؛ هو أبو محمد خير الدين، اختلف في تاريخ ولادته، يذكر الزركلي أنه ولد سنة 1225هـ/1810م، وتوفي سنة 1308هـ/1890م⁽¹⁾، بينما يظهر في تراجم المؤلفين التونسيين أنه ولد سنة 1820م⁽²⁾، بينما ذكر ناصر الدين سعيدوني أن سنة ميلاده كانت عام 1237هـ/1825م⁽³⁾. وإن كنا نعلم أصله فإننا لا نعلم عن نشأته ولا عن عائلته الشيء الكثير، فخير الدين شركسي الأصل، إذ ينتسب إلى قبيلة أباطة ببلاد الشركس، الكائنة بالجنوب الشرقي من جبال القوقاز (بين أوروبا وآسيا)، وكان والده "حسن لفيش" قد قتل في معركة ضد الروس⁽⁴⁾، ليقتاد خير الدين بعدها إلى إسطنبول ويُباع في سوق الرقيق لنقيب الأشراف "تحسين بك" الذي اتخذهُ رفيقا وأخا لابنه الوحيد في الدراسة، وبقي كذلك إلى أن بلغ سن السابع عشرة من العمر ليتعرض مرة أخرى لمحنة الرق حيث بيع إلى المشير أحمد باشا باي تونس الذي ألحقه بمماليكه بقصر باردو⁽⁵⁾، ويصف خير الدين هاته المرحلة من حياته قائلا: «...وأذكر أنني قضيت فترة شبابي في إستانبول التي تحولت منها إلى تونس سنة 1255هـ/1839م للخدمة لدى الباي...»⁽⁶⁾.

(1) خير الدين الزركلي، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربة والمستشرقين)، ج 2، ط 15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002، ص 327. أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص 146.

(2) محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج 2، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1982، ص 271.

(3) ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي-تراجم ورحالة وجغرافيين، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1999، 550.

(4) ج.س.فان كريك، خير الدين والبلاد التونسية 1850-1881، ترجمة البشير بن سلامة، دار سحنون، تونس، 1988، ص 10.

(5) محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج 2، مرجع سابق، ص 271.

(6) خير الدين التونسي، مذكرات خير الدين باشا، تح وتر: محمد العربي السنوسي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون-بيت الحكمة، تونس، 2008، ص 19.

وما إن وصل خير الدين إلى باردو بتونس سنة 1838 أو 1839م، حتى ألحق بمدرسة صغار المماليك، وبعدما تعلم اللغة العربية وأتقن معارفه الدينية، انخرط في سلك مدرسة الضباط حديثة العهد، وخلال مراحل تدريسه اشتهر بالذكاء والنباهة وسرعة الاستيعاب⁽¹⁾، لكن تكوينه الأساسي كان في الحرية، واستفاد من وجود مدرّسين فرنسيين ليتقن فن الحروب الحديثة، ويتقن أيضا استعمال اللغة الفرنسية التي أصبح يتحدث بها بطلاقة⁽²⁾.

- نشاطه السياسي

ساهمت تلك القدرات التي تميز بها خير الدين، في المسارعة بإخفاه بحاشية المشير أحمد باي الخاصة، مع استمرار مزاولته العمل في صفوف الجيش التونسي، إلى أن ترقى العسكري وأصبح أمير آلاي ثم أمير لواء الخيالة⁽³⁾، وتولى تسيير المدرسة العسكرية ردحا من الزمن⁽⁴⁾، كما كان خير الدين من مرافقي أحمد باي في رحلته إلى فرنسا سنة 1846م، وكانت أولى مهماته السياسية حين توجه إلى فرنسا سنة 1853م بأمر من المشير أحمد باي قصد فض قضية ابن عياد⁽⁵⁾، إذ قضى خير الدين أربع سنوات في باريس (إلى غاية 1857م)، مدافعا عن الدولة التونسية من أجل استرداد الأموال التي انتهبها محمود بن عياد، وكانت مساعيه ناجحة في هاته المهمة، وبعد عودته إلى تونس عينه الباي في رتبة وزير البحر وكان ذلك في جانفي 1857م، وبقي في هذا المنصب إلى غاية 1862م، وخلال هاته الفترة قام بالعديد من الإصلاحات في جميع الميادين، وخلال الفترة نفسها كان عضوا في اللجنة التي وضعت نص دستور 1860م، ورئيسا لمجلس الشورى، مع الاحتفاظ بمركزه كوزير، مما يدل على ثقة الباي به، ومن ثقة الباي به أن بعثه إلى اسطنبول ثلاث مرات في سبيل إيجاد صيغة للتعبير عن علاقة تونس بالدولة العثمانية، إذ كان الباي يطمح لسد الباب أمام القوى الأوروبية وخاصة فرنسا وتثبيت تونس كجزء من الإمبراطورية العثمانية تتمتع بالحكم الذاتي، فكانت مهمة خير الدين تدرج في إقناع الباب العالي بالاعتراف بالحكم الذاتي لتونس، وبحق الأسرة الحسينية الوراثي، مقابل اعتراف الباي بسيادة السلطان العثماني ودفع الجزية له⁽⁶⁾.

(1) الصادق الزملي، أعلام تونسيون، تق وتر: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م، ص 98.

(2) رخير الدين التونسي، مصدر سابق، ص 31-32.

(3) الصادق الزملي، مرجع سابق، ص 98.

(4) ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة (1798-1939)، تر: كريم عرقول، دار النهار للنشر، بيروت، ص، 109.

(5) تتعلق هذه القضية برجل الأعمال التونسي محمود بن عياد (1810-1880م) المقرب من الوزير مصطفى خزندار، وكان ابن عياد اتهم باختلاس مبالغ معتبر من الخزينة التونسية وهرب إلى فرنسا، إذ أرسل الباي التونسي خير الدين للدفاع عن الدولة التونسية في فرنسا بغرض استرداد الأموال.

(6) المرجع نفسه، ص، 109-110.

استقال خير الدين من منصبه كوزير سنة 1862م على إثر خلاف سياسي حول مسألة المرجع الذي يجب أن يكون الوزراء مسؤولون أمامه؛ أهو الباي أم هو مجلس الشورى، إلا أن الباي لم يتخل عن مهارة خير الدين الدبلوماسية فبعثه عديد المرات إلى إسطنبول لدراسة العلاقة بين الطرفين التونسي والعثماني.

وفي سنة 1869م أدى تردي الأوضاع المالية في تونس إلى إنشاء لجنة دولية لإدارة الواردات وتعيين خير الدين رئيسا لفرعها التنفيذي، ليُعين بعدها وزيرا للداخلية والمالية والخارجية، وفي سنة 1873م أصبح رئيسا للوزراء، واحتفظ بهذا المنصب لمدة أربع سنوات مستخدما إياه لإجراء إصلاحات عدة منها: تحسين الأساليب الإجرائية في الإدارة، وإعادة تنظيم الأوقاف والقواعد الإجرائية في المحاكم الشرعية، وتحسين المدن، وإصلاح التعليم في جامع الزيتونة، وتعزيز مطبعة الحكومة وتوسيعها، وإنشاء مكتبة وطنية، وتأسيس مدرسة "الصادقية" الحديثة، غير أن العراقيل اعترضت طريق إصلاحاته منها الضغوط الخارجية بسبب الصراع الأوروبي على النفوذ في تونس والداخلية بسبب نظرة الباي أن الإصلاحات السياسية التي باشرها خير الدين تحد من سلطته الملكية، ليتم الاستغناء عن خير الدين من مهام الوزارة سنة 1877م.⁽¹⁾

وبذلك تنتهي الحياة السياسية لخير الدين في تونس، ليبدأ حياة سياسية جديدة في القسطنطينية، إذ دعاه السلطان عبد الحميد الثاني (1842-1918م) الذي كان قد اطلع على أفكاره السياسية من خلال كتابه "أقوم المسالك"، وبذلك عينه السلطان في ديسمبر من سنة 1878م كبيرا للوزراء أو صدرا أعظم.

تولى خير الدين منصب الصدارة العظمى في فترة عصيبة وحرجة كانت تمر بها الدولة العثمانية، هذه الأخيرة التي كانت تتعرض لضغوطات الدولة الأوروبية النافسة على تقسيم أملاكها، وبالرغم من هذا الانهيار، كان على خير الدين مواجهة كل ما يتعلق بالدولة خارجيا وداخليا، لكن سياسة خير الدين التي انضوت دائما على بُعد إصلاحي وعلى الاستقامة ومناهضة الفساد، سرعان ما تعارضت مع سياسة السلطان عبد الحميد، بل إن هذا الأخير وبعد ثمانية أشهر من تعيين خير الدين رئيسا لوزرائه، وجد أن هذا الأخير يريد شيئا آخر مختلفا تماما عما يريده هو، فقد رغب خير الدين في تحديث المؤسسات السياسية داخل السلطنة، وفي تطويرها بالقدر الذي يمكنها من مواجهة التحديات الجمة القادمة نحوها، وبالتحديد مواجهة التحدي الأوروبي، وهذا يحتاج إلى مزيد ديمقراطية وتوزيع للمسؤوليات، واتخاذ القرارات المصيرية بطريقة الشورى، في حين رأى السلطان عبد الحميد أن ما يريده خير الدين موجه لتقليص صلاحياته (السلطان) وعلى هذا الأساس تم عزله، وكان السلطان شديد القسوة في معاملته لخير الدين بعد العزل، إذ لم يسمح له باستقبال أحد في منزله كما مُنع من زيارة أي أحد دون أن يُعلم مسبقا الجهات المسؤولة، وبهذا تنتهي حياة خير الدين السياسية، ليعيش في عزله بإسطنبول إلى غاية وفاته سنة 1889م.⁽²⁾

(1) المرجع نفسه، ص 109-110.

(2) سمير أبو حمدان، خير الدين التونسي: أبو النهضة التونسية، دار الكتاب العالمي، بيروت، 1993، ص 54-56..

2- رحلاته إلى أوروبا

كانت رحلات خير الدين إلى حوالي عشرين بلداً أوروبياً، وقد تحدّث عنها في أقوم المسالك، وكانت أولى رحلاته الأوروبية إلى فرنسا التي زارها سنة 1846م صحبة المشير الأوّل أحمد باي بصفته مباشراً لمصرف الدراهم- على حدّ تعبير ابن أبي ضياف- وأقام أربع سنوات من 1853 إلى 1857م من أجل قضيّة محمود بن عيّاد إذ استطاع خلال إقامته الطويلة نسبياً في فرنسا دراسة الواقع الأوروبي والفرنسي بشكل أكثر دقة وقرباً، وفهم حضارتها وأنظمتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وضَمّن ذلك في كتابه "أقوم المسالك".

وبعد اعتزاله الوزارة في تونس بعد سنة 1862م كُلف بعدد المهمات الدبلوماسية إلى حوالي 20 بلداً أوروباً استطاع من خلالها تكوين صورة عامة وإن لم تكن مفصلة تفصيلاً دقيقاً كما كان عليه الأمر في رحلته إلى فرنسا التي أقام فيها طويلاً، ولا يخبر خير الدين قارئ كتابه بخبايا مهماته الدبلوماسية لتلك الدول الأوروبية، وإن كنا لا نستبعد أن يكون الوضع السياسي والاقتصادي في تونس وعلاقة الدول الأوروبية والدولة العثمانية بهاته الأخيرة من أهم محاورها، إلا أنه يخبرنا بما وعاه من واقع سياسي واجتماعي وثقافي واقتصادي في كل دولة أوروبية زارها أو سمع عنها هناك، مبيناً ملاحظاته حولها ومقارناً وواقفاً عند اختلافاتها وتبايناتها باحثاً عن الأفكار التي يمكن اقتباسها ونقلها إلى بلده وأمتة حتى يتسنى لها مواجهة هذا "التمدن الأوروبي الجارف".

3- كتابه "أقوم المسالك"

يُعدّ كتاب "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، لخير الدين التونسي، من أبرز الكتب التي حرّرت في القرن التاسع عشر وهو يدخل في باب التحرير السياسي، وحشره مؤرّخو الآداب في باب الرحلة، انطلاقاً من عنوانه وتأثرها بمقدّمته التي حوت من الآراء الجوهرية الخطيرة ما يجعل منها مرحلة حاسمة من مراحل التفكير السياسي في العالم العربي الإسلامي الحديث.

فرغ من تأليفه يوم الاثنين 10 جمادى الأولى سنة 1284هـ/ 09 سبتمبر 1867م، وتم طبعه بمطبعة الدولة التونسية في 28 ربيع الثاني سنة 1285هـ/ 18 أوت 1868م ظهر هذا الكتاب سنة 1868⁽¹⁾، وقد استعان في تحريره "ببعض أبناء الوطن" حسب عبارته، وهو يقصد بذلك الشيخ سالم بوحاجب، المدرس بجامع الزيتونة وصديق خير الدين⁽²⁾، وهو يشمل مقدّمة طويلة حلّل فيها المؤلّف وضع البلدان العربية الإسلامية المنضوية تحت لواء الخلافة العثمانية وأبرز ما يرتئيه من حلول للمعضلات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة القائمة في عصره، ثمّ نجد وصفاً

(1) المرجع نفسه، ص 54-56.

(2) أحمد عبد السلام، مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986، ص 21.

لعشرين بلداً أوروبيا من بينها الدولة العثمانية زارها المؤلف ما بين 1853 و1868م في مهمّات دبلوماسية مختلفة، ويشمل أخيرا تقارير المعاصرين من التونسيين. وينتمي هؤلاء المقرضون إلى طبقة العلماء ورجال السياسة⁽¹⁾.

و لعلّ الأهمّ في هذا الكتاب مقدّمته؛ إذ كانت برنامجا إصلاحيا لا لوضع تونس فقط، تلك البلاد التي كانت في منتصف القرن التاسع عشر على حدّ تعبير ابن أبي الضياف في إتحافه: «فقيرة حسّا و معنى» بل لكامل الإمبراطورية العثمانية «ذلك الرجل المريض» على حدّ تعبير أوروبا المستعمرة آنذاك والتي كانت متردّدة في شأنه بين عقيدتين سياسيتين: إمّا الحفاظ على كيانه حين مع توفير بعض «التنظيمات» إذ كان يحمي الطريق الموصلة إلى مستعمرات الهند و يضمن سوقا تجارية ممتازة، و إمّا التعجيل باقتسام أشلائه بإثارة الحميّة القوميّة لعدد كبير من الشعوب النصرانية المنضوية تحت لوائه.

وكان ظهور هذا الكتاب في تلك السنة بالذات 1868م، يضيفي عليه إذن أهميّة بالغة، فهو - إن نظرنا إليه من زاوية البلاد التونسية- يعتبر نتاج تجربة تونسية بحثة- من قبل مسؤول سياسي تونسي- في بلاد متأزّمة جرّبت النظام الدستوري سنة 1857م بإعلان عهد الأمان، وسنة 1861م بإعلان الدستور و تخلّت عنه عند اندلاع ثورة شعبية فلاحية عارمة سنة 1864م و هي ثورة علي بن غداهم⁽²⁾، ممّا جعل هذا المفكرّ الإصلاحي- و هو في عنفوان النشاط و النضج إذ كان في الخامسة والأربعين من عمره عند تحريره- يستخلص العبر و يتحفّز لتصميم برنامج إصلاحي واقعي ستمكّنه الظروف من إنجاز قسط وافر منه لما يتقلّد الحكم من جديد ابتداء من سنة 1869م إلى سنة 1877م باعتباره رئيسا للكومسيون المالي ثمّ وزيرا مباشرا و أخيرا وزيرا أكبر.

وإن نحن نظرنا إلى أقوم المسالك من زاوية الخلافة العثمانية وصلّيتها بأوروبا وجدنا أن هذا الأثر يعتبر معلما هامّا في تاريخ المسألة الشرقية التي بلغت أوج التآزم إثر خصومة محمد علي المصري مع تركيا وإعلان التنظيمات الخيرية سنة 1839م ثمّ مع ظهور حركة العثمانيين الجدد سنة 1865م⁽³⁾.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تمهيد وتحقيق: المنصف الشنّوبي، ج1، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة" 2000، ص22. (جزء الدراسة)

(2) علي بن محمد بن غداهم، كان يلقب بباي الشعب، قاد ثورة ضد الحكومة التونسية سنة 1864م، بسبب مضاعفة الدولة لضريبة الإعانة نظرا للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعانيها تونس، شملت الثورة عدة مناطق في الشمال الغربي، الساحل والجنوب، إلا أن القوات الباي تمكنت في نهاية المطاف من إخمادها، وتم اعتقال بن غداهم في فيفري 1866م، ومات بالسجن في أكتوبر 1867م.

(3) المصدر نفسه، ص21

فإذا اعتبرنا هذا الأثر نتاج تجربة تونسيّة منزلة في محيط عثماني، أمكن لنا أن نتساءل عن الأسباب البعيدة والقريبة الدافعة إلى تأليفه، ثمّ من خلال تحليلنا له عن مواقف خير الدين من نظام الحكم القائم في تونس خاصّة والخلافة العثمانية عامّة، باعتبار أن نظام الحكم هو المفتاح لحلّ القضية الكبرى وهي الاقتباس من الغرب في نطاق الحفاظ على الأصالة والقومية العربيّة الإسلاميّة؟

ذكر خير الدين التونسي سببين رئيسيين دفعاه لكتابة مؤلفه، فالأول: «إغراء ذوي الغيرة والجزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى حسن حال الأمة الإسلامية وتنمية أسباب تمدّنها بمثل توسع دوار العلوم والعرفان، وتمهيد طريق الثروة من الزراعة والتجارة وترويج سائر الصناعات، ونفي أسباب البطالة، وأساس جميع ذلك حسن الإمارة المتولد منه الأمن، المتولد منه الأمل، المتولد منه إتقان العمل، المشاهد في الممالك الأوروبية بالعيان وليس بعد بيان»⁽¹⁾.

والثاني: تحذير ذوي الغفلات من عوام الناس عن تماديهم في الإعراض عما يحمد من سيرة الغير، الموافقة لشرعنا، بمجرد ما انتقش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والترايب ينبغي أن يهجر، وتآليفهم في ذلك يجب أن تُنبذ ولا تذكر، حتى إنهم يُشددون الإنكار على من يستحسن شيئاً منها، وهذا على إطلاقه خطأ محض⁽²⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 11.

(2) المصدر نفسه، ص 11-12.

ثالثا: محمد بيرم الخامس ورحلاته إلى أوروبا

1- التعريف بصاحب الرحلة

محمد بيرم الخامس بن مصطفى بن محمد بيرم الثالث، الفقيه الرحالة المؤرخ الصحفي من نبعاء خريجي جامع الزيتونة، ولد بتونس في محرم 1256هـ الموافق لمارس 1840م⁽¹⁾.

من الناحية الاجتماعية نشأ بيرم الخامس في أسرة مرموقة بمجدها ومالها وعلمها، وكان أول استقرار عائلته في تونس مع بداية التواجد العثماني بها، فجذّهم حضر إلى تونس قائدا على إحدى فرق الجيش العثماني عند فتحها سنة 981 هـ/1574م.

كان جميع آل بيرم منخرطين في سلك العلماء مفتخرين بخدمة العلم إلا القليل منهم فقد دخلوا في الخدمة العسكرية، فاجتمع لهذه العائلة خدمة الدين من الطريقتين طريق العلم وطريق الجهاد⁽²⁾، وإن كانت شهرتهم في المجال العلمي أكبر إذ تداول "البيارمة" ريادة المذهب الحنفي-وهو المذهب الرسمي للحكام تونس-إفتاءً وقضاءً وتدرّيساً، وكانوا مبجلين عند حكام البلاد، وقد غنم محمد بيرم الخامس ذلك من أصوله العائلية، فعاش مرفها وتسلق الخطط والمناصب يُيسر وسرعة، وحاز ثروة طائلة من الأموال ونفائس المخطوطات، تبدأ هذه الثروة من الاسم واللقب العائلي، فقد كان جده بيرم الثالث أستاذا زيتونيا لامعا تتلمذ على يده ابن أبي الضياف وقابادو⁽³⁾، وكان عمه بيرم الرابع مدرسا وقاضيا ومفتيا مشهورا وقد ورث عنهما المترجم له اللقب والترتيب والمكانة⁽⁴⁾.

أما عن تكوينه العلمي، فقد أشرف والده على تربيته وكذلك عمه بيرم الرابع، وهما اللذان وجهاه إلى طلب العلم بجامع الزيتونة، إذ بعد اجتيازه لمرحلة التعليم الابتدائي دخل جامع الزيتونة، وقرأ على أعلامه ومن أشهرهم الشيخ سالم بوحاجب⁽⁵⁾، وكان المترجم له كثير التأثر بالشيخ محمود قابادو.

(1) محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج 1، 1982، ص143.

(2) محمد بيرم الخامس، مصدر سابق، ص111.

(3) محمود قابادو (1229-1288هـ/1814-1871م): شاعر عصره بتونس، ومفتي مالكيها، أصله من مدينة صفاقص، انتقل سلفه إلى تونس، فولد ونشأ بها. وأولع بعلوم البلاغة. ثم تصوف، ولي التدريس بالزيتونة وقضاء (باردو) ثم الفتوى على المذهب المالكي (سنة 1285) وكان مع اشتهاه بالشعر، وسرعة بديهته فيه، غزير العلم بالفقه والفنون، وقد يرجع إليه في عويص المسائل الحسائية، في الجبر والمقابلة، وفي حل أشكال إقليدس. وكان لا يجارى في التاريخ الشعري (بحساب الجمل)، شعره كثير مشنت، جمع تلميذه محمد بن عثمان السنوسي جملة منه في ديوان، أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج7، ص185.

(4) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج1، ص5-6.

(5) هو الشيخ سالم بن عمر بن سالم بوحاجب، ولد سنة 1827م حفظ القرآن وتعلم أصول الخط والكتابة في صغره قبل أن يلتحق بجامع الزيتونة سنة 1842م، حيث أخذ العلوم الشرعية وعلوم العربية على يد أبرز شيوخها، عرف عنه ذكاؤه الحاد وفكره الوقاد، وميله إلى التعمق في المسائل مما أكسبه تقدير شيوخه، بدأ التدريس في جامع الزيتونة سنة 1848/1265م، واستمر على ذلك إلى غاية 1911م، فتخرجت على يديه أجيال عديدة (ومنهم المترجم

تخرج محمد بيرم الخامس من جامع الزيتونة وسنه لم يتجاوز سبع عشر عاما، متحصلا على شهادة التطويع، ثم اجتاز بنجاح مناظرة التدريس سنة 1278هـ/ 1861م، وتولى مشيخة المدرسة العنقية في السنة ذاتها، وكانت هاته الخطة وراثية في أسرهم (أسرة البيارمة) قبل أن يصبح مدرسا من الطبقة الأولى في 15 رجب 1284هـ/ 1867م⁽¹⁾. وفي مطلع شبابه اشتغل بالمسائل السياسية والاجتماعية لأن ميوله سياسية وأدبية أكثر منها فقهية وعلمية، فكان متتبعا للأحداث في تونس وانتقادها، وبعد ثورة 1864م وتعطيل دستور عهد الأمان رحل إلى أوروبا بعلّة التداوي، ولما عُزل مصطفى خزندار عن الوزارة الكبرى في تونس سنة 1291هـ/ 1873م وخلفه في المنصب خير الدين جاهر المترجم له بنصرته في آرائه الإصلاحية، وصرح بآرائه السياسية على صفحات جريدة "الرائد التونسي". وأعجب الوزير خير الدين بنشاطه وتعلقه ومؤازرته له في منهجه الإصلاحي، فعهد إليه بتنظيم إدارة جمعية الأوقاف، واستطاع بيرم الخامس تنظيم هذه المؤسسة وجعلها قوية، وأثر عمله هذا على صحته وأجبره مرضه العصبي على قطع عمله والذهاب إلى باريس لمداواة مرضه، واغتتم الفرصة لتدوين القسم الأول من تأليفه "صفوة الاعتبار"⁽²⁾.

وفي سنة 1874م عينه خير الدين ناظرا على المطبعة الرسمية ومشرفا على تحرير جريدة "الرائد"، وفي سنة 1875م سميّ عضوا في لجنة برنامج التعليم للمدرسة الصادقية، ولترغيب الأسر التونسية لإرسال أبنائهم إلى هذه المدرسة سجل فيها ابنه الأكبر مصطفى الذي أصبح فيما بعد رئيسا لمجلس الاستئناف بالقاهرة، كما أسندت للمترجم له إدارة تأسيس المكتبة الصادقية (العبدلية) الزيتونية المؤسسة حديثا. وفي سنة 1877م عزم على التخلي عن وظائفه أسوة بأصدقائه جماعة الإصلاح الذين اضطروا لمغادرة مراكز السلطة، على أن تدخل الباي ألزمه الاحتفاظ بوظائفه، لكن المعرض الدولي المنعقد في باريس سنة 1878م هيا له ميرا لمغادرة البلاد، فزار باريس ولندن والجزائر، وسمحت له هذه الرحلة بإثراء ملاحظاته لإكمال تحرير الأجزاء الباقية من مؤلفه "صفوة الاعتبار".

له)، سمي مفتيا مالكا سنة 1905م، ثم رئيس المفتين المالكيين سنة 1919م، كان بوحاجب من المعجبين بحركة الإصلاح في تونس وكان مقربا من خير الدين التونسي بل إنه هو من حرر كتابه "أقوم المسالك"، لم يترك الشيخ بوحاجب أثارا علمية كثيرة، حيث اقتصر تأليف على شرح الموطأ والبحاري، ومن مساهماته الثقافية تأسيس جريدة الحاضرة التونسية سنة 1888م، وتأسيس الجمعية الخلدونية سنة 1897م، وغيرها، توفي بضواحي مدينة تونس يوم 14 ذي الحجة 1342هـ/جويلية 1924م. انظر: محمد الطاهر ابن عاشور، **جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور**، جمع وتوثيق: محمد الطاهر الميساوي، ط1، عمان-الأردن، 2015، ص947.

(1) محمد محفوظ، **تراجم المؤلفين التونسيين**، ج 1، مرجع سابق، ص143.

(2) المرجع نفسه، ص144.

وعندما رجع إلى تونس أصبح عضوا في اللجنة التي كلفت بتنظيم مستشفى العاصمة التونسية، الذي دشنته الأمير محمد الصادق باي رسميا 10 فيفري 1878م، وأصبح يعرف بالمستشفى الصادقي، على غرار المؤسسات الصحية الأوروبية.

وبعد المضايقات التي تعرض لها على غرار غيره من دعاة الإصلاح التونسيين قرر بيرم الخامس مغادرة تونس، وطلب الإذن من الباي بنية أداء فريضة الحج، إلا أنه لم يتحصل على الإذن إلا بعد تدخلات عديدة من أصدقائه العلماء، ليبارج تونس سنة 1296هـ/1879م، ومر بمصر في طريقه إلى الحرمين الشريفين، ليزور بعدها سوريا، ثم سافر إلى إسطنبول، حيث كان في انتظاره الصدر الأعظم خير الدين، وأكرمت الدولة العثمانية وفادته، إلا أن الوزير التونسي مصطفى بن إسماعيل⁽¹⁾ أحاك عديد المؤامرات ضد بيرم الخامس، وكتب إلى الباب العالي طالبا إعادته إلى تونس، واتهمه باختلاس أموال جمعية الأوقاف وجرده من عناوينه الجامعية، لكن خير الدين انتصر له ولم يسلمه.

وخلال هاته الفترة قام المترجم له برحلة إلى فيينا وبودابست وبلغراد، وبعد عودته إلى إسطنبول لاقى مضايقات أخرى واتهم بالمشاركة في ثورة عرابي عند مروره بمصر⁽²⁾، ليضطر بعدها لمغادرة إسطنبول وتوجه إلى مصر، هذه الأخير التي استقبل فيها استقبالا يليق بمكانته العلمي والسياسية من قبل حكام مصر وعلمائها⁽³⁾.

ولما استقر بالقاهرة استأنف نشاطه السياسي والثقافي، وأصدر جريدة "الإعلام" التي كان لها دوي بالمشرق والمغرب، ووصفها خير الدين: "إن هذه الصحيفة يمكن أن تصبح "تيمس الشرق الأدنى" (في إشارة لصحيفة التايمز The Times البريطانية)، وفي سنة 1887م علق نشاط "الإعلام" مؤقتا، للسفر إلى معرض باريس وزار لندن وإيطاليا، وعند رجوعه إلى القاهرة أسندت إليه مهمة تكوين جمعية الأوقاف، كما سمي قاضيا بمحكمة القاهرة الابتدائية، وكثيرا ما كلفته وزارة العدل كتابة ملاحظاته عن القضاء الشرعي لأنه كان واسع الاطلاع فيه.

توفي محمد بيرم الخامس بمدينة حلوان المصرية يوم الأربعاء 25 ربيع الثاني 1307هـ الموافق لـ 18 ديسمبر 1889م، ودفن بالقاهرة قرب ضريح الإمام الشافعي⁽⁴⁾.

(1) مصطفى بن إسماعيل: (حوالي 1850-1887م)، مغامر مجهول الأصل قربه محمد الصادق باي، وعينه وزيرا أكبر في 24 أوت 1878م، وبقى في الخطة إلى 12 سبتمبر 1881م، تورط في قضايا مالية كثيرة، واستغل نفوذه في تشجيع المطامع الأجنبية (الفرنسية والإيطالية)، توفي بالآستانة في حالة فقر مدقع، أنظر: محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مصدر سابق، ج5، ص2174.

(2) الثورة العربية في فترة 1879-1882م هي الثورة التي قادها أحمد عرابي (1841-1911م) ضد الخديوي توفيق والتدخل الأجنبي في مصر وقد تزامن مرور بيرم الخامس على مصر مع بدايات هذه الثورة.

(3) محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج 1، مرجع سابق، ص144-146.

(4) المرجع نفسه، ص146.

2- رحلاته إلى أوروبا

الرحلة الأولى: أما عن رحلاته إلى أوروبا، فالأولى منها كانت بسبب التداوي، إذ أن وفرة الأعمال التي كان بيرم الخامس مضطربا بها قد أنهكت قواه وأثرت في صحته، فكانت ابتداء أسفاره إلى أوروبا من أجل العلاج، انطلقت هاته الرحلة من تونس يوم 19 شوال 1292هـ/أواخر نوفمبر 1875م، ورجع منها إلى تونس أوائل محرم سنة 1293هـ/أوائل جانفي سنة 1876م، زار أثناءها إيطاليا ثم فرنسا، وكان معه في هاته الرحلة خادمان أحدهما يتكلم اللغة الإيطالية والفرنسية والألمانية والعربية، وكان رفيق سفره الشيخ سالم بوحاجب الذي كان في مهمة إلى إيطاليا، وهناك اجتمع فيها بأشهر الأطباء⁽¹⁾.

الرحلة الثانية: عاد بيرم الخامس في رحلة إلى أوروبا مرة ثانية سنة 1295هـ/1878م، وكانت وجهتها فرنسا، شهد خلالها معرض باريس الدول⁽²⁾، وكان مقصده الأساسي إلى باريس هذه السنة أيضا بغرض العلاج من مرضه، ولقي الترحاب والإكرام لدى الماريشال ماكهمون رئيس الجمهورية الفرنسية⁽³⁾، ليزور بعدها لندن بإنجلترا وعاد إلى تونس عن طريق الجزائر⁽⁴⁾.

الرحلة الثالثة: قام محمد بيرم الخامس برحلة ثالثة إلى أوروبا عن طريق إيطاليا، ومنها إلى فرنسا ومنها إلى إنجلترا، وكان ذلك في رجب سنة 1296هـ/أوائل سبتمبر سنة 1879م، وكانت عودته من هاته الرحلة أواسط رمضان سنة 1296هـ/أوائل سبتمبر 1879م، ورغم أن دافع رحلته هاته كان بغرض التداوي والعلاج، إلا أنها لم تخل من أشغال سياسية، ففي باريس قدّم بيرم الخامس تقريرا سياسيا سريا إلى غامبيتا⁽⁵⁾ رئيس مجلس النواب الفرنسي الأكبر، فكانت هذه الرحلة الثالثة مزدوجة الغرض بين التداوي من المرض والقيام بمساع سياسية، ولاقي في كلا الغرضين الإخفاق؛ إذ أن صحته زادت اختلالا، ولم يلق نجاحا في مسعاه السياسي بسبب الدسائس، في حين يظهر

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج3، دار صادر، بيروت، 1974، ص2-3، ص22-23.

(2) المصدر نفسه، ص74.

(3) باتريس دو مكماهون (بالفرنسية Patrice de Mac Mahon): (1808-1893م) عسكري وسياسي فرنسي، كلان نشاطه العسكري في الجزائر، وفيها جابه بشدة المقاومة الشعبية الجزائرية وزعمائها، شارك في حرب القرم سنة 1854م، ثم عين حاكما عاما للجزائر من سنة 1864 إلى سنة 1870م، شارك في الحرب الفرنسية الألمانية سنة 1870م والتي انهزم فيها فرنسا، انتخب رئيسا للجمهورية الفرنسية في 24 ماي 1873م إلى غاية 1879م. أنظر: محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، بيت الحكمة، ج1، مصدر سابق، ص217-218.

(4) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج5، دار صادر، بيروت، 1974، ص ي-ب،

(5) ليون غامبيتا (Léon Gambetta): (1838-1882م) محامي وسياسي فرنسي، تولى رئاسة مجلس النواب سنة 1879م إثر استقالة ماكهمون، وتولى رئاسة الوزراء من نوفمبر 1881-جنتفي 1882م. أنظر: محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، بيت الحكمة، ج1، مصدر سابق، ص 220-221.

أن مروره بإنجلترا كان بدافع السياحة وهو ما يبينه قوله: «وقد تقدم أني أقمت في باريس سنة 1296هـ نحو شهر، وحيث كنت علمت أغلب ما فيها (باريس)، لزمني انتظار أشياء يتوقف عليها رجوعي إلى تونس أحببت أن أقضي بعض أيام في رؤية إنكلترا لشهرتها مع قربها من باريس...» وكان توجهه إليها في رمضان 1296هـ/جويلية 1879م⁽¹⁾، ودامت إقامة الشيخ بيرم الخامس في باريس قرابة الشهرين.

الرحلة الرابعة: هذا إضافة إلى رحلته إلى المشرق التي مر فيها بمالطا: ذكر بيرم الخامس سبب رحلته إلى مالطا، وبين أنه فرّ بجسده بعد استيلاء فرنسا على تونس: «...وفي أسباب سفري، ولم نجد مخلصا إلا التخلص برأسي وطلبت ذلك من الوزير (مصطفى بن إسماعيل) كتابة إعفائي من الوظيف متعللا بحالة بدني، فأجابني كتابة بالمنع، فطلبت الإذن بالتوجه إلى الحج...فأنقذني الله من شرهم، وأخذت ورقة الجواز وسافرت أواسط شوال من تلك السنة (1296هـ) إلى الحج عن طريق مالطا بحرا...»⁽²⁾.

3- كتاب "صفوة الاعتبار" ورحلات بيرم الخامس إلى أوروبا

يُعتبر كتاب "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" أشهر آثار محمد بيرم الخامس العلمية، ويعرف المؤلف كتابه "صفوة الاعتبار" أنه نتاج رحلاته وأسفاره إلى مختلف الأقطار التي زارها وسافر إليها، فيقول: «... وكان مما عرض للعبد الحقير أن بليت بمرض أعيا علاجه أطباء قطرنا الشهير، وأشير عليّ بالسفر لأجل ذلك الغرض، فاستخرت الله تعالى واستشرت الأصدقاء لتحصيل ذلك الحق المفترض، فجبت بحارا وقفارا، ومدنا وأمصارا على حسب ما يسره المقدور، وساعفت الوسائل على الوصول إلى مشاهدته من المعمور، ورأيت بعيني البصر والبصيرة. أمورا عجيبة خطيرة. أحببت نظمها في عجالة حفظا لها من الإهمال، وتطفلا على منح العلماء أولي الكمال...وهي وإن كانت بالنسبة لمعارف الكاملين والفحول، ليست مما يلتفت إليه أو يلاحظ بالقبول، لكنها على كل حال بضاعة من علم، تلاحظها بالإغضاء أعين أهل الحلم، فلعل الله بفضله يفيد بها أهل وطننا وإخواننا المسلمين، ويهدينا إلى إحياء معالم ديننا المتين، وسميتها: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار...»⁽³⁾.

وفيما يخص محتويات كتابه فإننا نقول فيها كما قال بيرم الخامس في مقدمته، فهاته الرحلة مرتبة على مقدمة ومقصد وخاتمة؛ فالمقدمة فيها ثلاثة أبواب: الباب الأول: في السفر من حيث هو؛ ويشتمل على ثلاثة فصول الباب الثاني: في السفر لغير أرض الإسلام وفيه فصلان الباب الثالث: في تقسيم أحوال أهل الأرض وفيه خمسة أقسام وستة وثمانون فصلا، والمقصد أو العرض؛ فيه ثلاثة عشر بابا: الأول: في سبب سفري. الثاني: في مملكة تونس، الثالث: في

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج4، دار صادر، بيروت، 1974، ص21.

(2) المصدر نفسه، ص 71.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، بيت الحكمة، ج1، مصدر سابق، ص 03.

مملكة إيطاليا. الرابع: في مملكة فرانس. الخامس: في قطر الجزائر. السادس: في مملكة إنكلترة. السابع: في جزيرة مالطة. الثامن: في قطر مصر، التاسع: في الحجاز وجزيرة العرب، العاشر: في بقية الممالك العثمانية. الحادي عشر: في مملكة أسفيسره (سويسرا) الثاني عشر: في مملكة النمسا. الثالث عشر: في مملكة رومانيا. وكل باب يشتمل على فصول حسبما فيه من الفروع، أما الخاتمة فهي نتيجة ذكر فيها الكاتب بعد رحلات ومشاهدات في الأقطار ما ينبغي للأمة الإسلامية اتخاذه من زيادة بث المعارف وما تثمره من الخيرات.

رابعا: محمد بن عثمان السنوسي ورحلاته إلى أوروبا

1- التعريف بصاحب الرحلة

محمد بن عثمان بن محمد السنوسي، أبو عبد الله⁽¹⁾، ولد بتونس يوم 22 ذي القعدة 1267هـ/18 سبتمبر 1851م⁽²⁾، الفقيه الأديب الشاعر المؤرخ، الصحفي، الرحالة، من بيت علمي نبه في دولة البايات بتونس، من أحفاد سيدي عساكر من السلالة الإدريسية الحسنية، والسنوسي ليس اسما العائلة إنما هو اسم أطلقه الجد على ابنه تيمنا وتقديرا للعالم التلمساني (من رجال القرن التاسع هجري)⁽³⁾، وإن أصبح هذا الاسم فيما بعد علما على هذه العائلة، وكان والده الشيخ عثمان قاضيا بجبل المنار بتونس وكذلك كان جده.

قرأ السنوسي بجامع الزيتونة على يد أعلام منهم المشايخ سالم بوحاجب ومحمود قبادو، وغيرهم، وبعد إحراره شهادة التطويع درس مدة بجامع الزيتونة متطوعا على العادة المتبعة في ذلك العصر إذ أن الحائز على شهادة التطويع يقرئ صغار الطلبة، وفي الوقت نفسه يتابع تعليمه العالي، ثم باشر عمله عدلا موثقا في خطة الإشهاد، ثم تولى التدريس بزاوية سيدي الهياص في الضاحية الجنوبية من مدينة تونس⁽⁴⁾.

وذاع صيته ليختاره مستشار التعليم الجنرال حسين⁽⁵⁾ ليكون معلما للشباب الأمير محمد الناصر بن محمد باي، وكانت له علاقات متينة مع أسرة "البيارمة" القوية الأرستقراطية العلمية، وكانت له صداقة مع الشيخ محمد بيرم

(1) خير الدين الزركلي، الأعلام، ج6، مرجع سابق، ص263.

(2) علي الشنوفي، «قصب من الرحلة الحجازية لمحمد السنوسي (الخبر عن التونسيين بالآستانة)»، حوليات الجامعة التونسية، ع07، 1970، ص80.

(3) إشارة إلى محمد بن يوسف السنوسي التلمساني كان من كبار علماء تلمسان ومتصوفتها في عصره، توفي في تلمسان سنة 895هـ/1490م.

(4) محمد النيفر، عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص952

(5) الجنرال حسين (1822 - 1887م/1237-1304هـ) من أصل شركسي جيء به إلى تونس غلاما صغيرا، عسكري وإصلاحي ورجل دولة تونسي، كان ذا تكوين عسكري وديني، التحق بعد تخرجه بالجيش التونسي ورقى إلى عدة رتب حتى صار أمير لواء، ترأس الجنرال حسين المجلس البلدي لمدينة تونس، في محرم 1275هـ/1858م، ساهم في إنشاء أول مطبعة تونسية وإصدار جريدة "الرائد الرسمي التونسي" عام 1277هـ/1860م، وكان هو مديرها، ساهم في صياغة دستور 1861م، كان من الوجوه الإصلاحية في تونس وداعما لخير الدين التونسي، توفي بفلورنسا بإيطاليا في جويلية 1887م

الخامس، واشترك معه في بعض المسؤوليات الهامة التي قام بها في حكومة خير الدين، ومنذ 30 محرم 1291هـ/19 مارس 1874م، عمل المترجم له كاتباً بجمعية الأوقاف، وفي 05 شعبان 1293هـ/ 26 أوت 1876م عيّن محرراً بجريدة "الرائد التونسي" والعمل بالمطبعة الرسمية، وحرر غالب افتتاحيات "الرائد" وعددا من فصوله، وهو أول تونسي جذبته الصحافة كصناعة، وبفضل تكوينه المتين وذوقه الصحفي جعل من جريدة الرائد دورية ثرية نصوعة في مستوى المنشورات الشرقية، وكانت أفكاره قريبة من أفكار الاتجاه الإصلاحية الذي كان يقوده خير الدين التونسي⁽¹⁾.

في بداية الحماية الفرنسية على تونس جُرد المترجم له من إدارة الرائد، إلا أنه استمر كاتباً في جمعية الأوقاف التونسية، انتابه قلق وضيق من الوضعية السياسية الجديدة التي آلت إليها تونس لذا كان إلحاحه في السماح له بالسفر خارج البلاد لضرورة الراحة ومتعللاً بأداء فريضة الحج، ليؤذن له سنة 1882م فسافر إلى إيطاليا ومن ثم إلى المشرق ونزل باسطنبول وهناك التقى ببيرم الخامس وخير الدين، قبل أن يعود إلى تونس مفضلاً الاستقرار بها بعد أن أدى فريضة الحج، وزار بلاد الشام⁽²⁾.

وبعد أوبته من هذه الرحلة الحجازية في 26 ربيع الأول 1300هـ/ 04 فيفري 1883م التحق بوظيفته التي كان تخلى عنها بجمعية الأوقاف، وعُيّن مدرّساً في جامع حمودة باشا المرادي، وفي 18 جمادى الثانية 1302هـ/ 04 أبريل 1885م تزعم المظاهرة الاحتجاجية الكبرى ضد النظام البلدي، ووصلها بحركة جمعية العروى الوثقى، وفي 06 شعبان 1302هـ/ 21 ماي 1885م ألقت السلطات الفرنسية القبض عليه وعزلته عن وظيفته ونفته مدة ثلاثة أشهر إلى مدينة قابس (جنوب شرقي تونس)، ليدخل بعدها في مناصب قضائية بالحكمة المختلطة ثم بالعدلية التونسية⁽³⁾.

أما عن موقفه من الحماية الفرنسية على تونس وحكومتها هناك فيما بعد يظهر أن السنوسي قد تأرجح بين موقفين؛ موقف أولي استهجن فيه السيطرة الفرنسية على تونس داعياً إلى إصلاح داخلي تيمنا بزملائه من الإصلاحيين التونسيين حتى أننا نجده مفضلاً الهجرة على البقاء تحت الهيمنة الفرنسية ونجده يُعزل عن منصبه كمحرر لجريدة الرائد التونسي، لكن هذا الموقف سرعان ما تغير إلى النقيض إذ نجده مدافعاً عن الحضارة الأوروبية والفرنسية على وجه التحديد، حيث أبان على رضا بالسياسة الفرنسية، ومما لا مجال لنكرانه أنه كان متوظفاً نشيطاً في حكومة

أنظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، ط1، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ودار الجيل، تونس وبيروت، 2005، ص713-717.

(1) علي الشنوني، قصب من الرحلة الحجازية لمحمد السنوسي، مرجع سابق، ص80.

(2) محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج 3، مرجع سابق، ص73-77.

(3) علي الشنوني، «قصب من الرحلة الحجازية لمحمد السنوسي (الخبر عن التونسيين بالآستانة)»، مرجع سابق، ص80.

الحماية شارحا في بعض الأحيان ومبررا للإجراءات التي تتخذها، ففي سنة 1305هـ/1889م أيد في افتتاحية جريدة "الحاضرة" (كان السنوسي محررها) المنع من الحج بسبب وباء جارف في الشرق الأدنى وأشار إلى هذه المسألة في "الاستطلاعات الباريسية"⁽¹⁾.

ترك محمد بن عثمان السنوسي آثارا أدبية معتبرة، من أهمها: "مجمع الدواوين التونسية" جمع به دواوين الشعراء التونسيين المتأخرين، في عدة مجلدات، من بينها "ديوان محمود قابادو"، "مسامرات الظريف بحسن التعريف"⁽²⁾، وهو تاريخ لقضاة تونس وأئمة جامعها والمفتين⁽³⁾، كتاب "درّة العروض"، "الاستطلاعات الباريسية"، "الرحلة الحجازية"، وغيرها من الكتب والمقالات في الصحف التونسية⁽⁴⁾.

وفي السنوات الأخيرة من حياته أصابه مرض عضال أودى بحياته في 24 رجب 1318هـ/17 نوفمبر 1900م.

2- رحلاته إلى أوروبا

- الرحلة الحجازية

ربما استشكل على القارئ وهو يقرأ عنوان رحلة محمد بن عثمان السنوسي "الرحلة الحجازية" كيفية التوفيق والجمع بين زيارة أوروبا والحج إلى البقاع المقدسة في الحجاز والشرق العربي، ولما كان الغرض الأساسي من رحلة محمد السنوسي الأولى هو أداء فريضة الحج الأمر الذي جعله يعنون كتاب رحلته "الرحلة الحجازية"، إذ يقول: «... وبما أن أصل السفر للحجاز كان هو أول غرض فيما عرض، نسبت جميع الكتاب اعتبارا لشرف ما اختص به من المزية، وسميته الرحلة الحجازية»⁽⁵⁾، وفي طريقه إلى المشرق العربي مرت رحلته على إيطاليا وبالضبط بمدينة نابولي التي نفل مشاهداته عنها في رحلته الحجازية، وهذا من الجديد الذي ميّز كثيرا من رحلات القرن التاسع عشر إضافة إلى الطريق البري والبحري التقليدي الذي يمر فقط بالبلاد الإسلامية صارت هاته الرحلات تمر على إيطاليا أو فرنسا مرورا بدول البلقان واسطنبول، ولهذا التغير عظيم الدلالة على تغير النظرة إلى أوروبا⁽⁶⁾.

(1) محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج 3، مرجع سابق، ص78.

(2) محمد بن عثمان السنوسي، مسامرات الظريف بحسن التعريف، تحقيق وتعليق: محمد الشاذلي النيفر، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994.

(3) خير الدين الزركلي، الأعلام، ج6، مرجع سابق، ص263، أيضا: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، مرجع سابق، ص594.

(4) علي الشنوني، «قصب من الرحلة الحجازية لمحمد السنوسي (الخبر عن التونسيين بالآستانة)»، مرجع سابق، ص80.

(5) محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق: علي الشنوني، ج1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1976، ص43.

(6) أحمد عبد السلام، مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية، مرجع سابق، ص155-156.

أما عن سبب رحلته، فإضافة إلى الدافع الديني وهو الحج، فإن السنوسي يذكر أن شغفه الكبير بالسفر طالما حفزه للترحال خارج تونس، فبعد سرده للآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على أهمية الترحال والسفر يتحدث عن شغفه الشخصي بالسفر قائلا: «هذا وللعبد الضعيف... منذ عقلت فضيلة الاجتماع، وأدركت سر الله في التعاون لتجاذب الانتفاع رغبة تدعوه في كل وقت للسياحة للحصول على النظر الذي حمد الدين بنجاحه...»⁽¹⁾، ورغم الرحلات التي قام بها السنوسي داخل التراب التونسي قبل رحلته إلى الحج، إلا أنه لا يرى في ذلك كثير فائدة: «إلا أن هذه الأسفار داخل المملكة بمثابة من لم يخرج من الدار، لأن التنقل من حالة إلى مثلها أو دون، وليس ذلك مما يتنافس فيه المنافسون»⁽²⁾.

أما عن سياقات رحلته هاته فقد جاءت بعد إعلان الحماية الفرنسية على تونس سنة 1882م، ولأن المترجم له كان من وجوه الإصلاح التونسيين الذين بقوا بتونس بعد هجرة أعلامها وقادتها وعلى رأسهم خير الدين التونسي ومحمد بيرم الخامس، وفي هذا السياق أراد محمد السنوسي أن يلعب دورا مركزيا في الحركة الإصلاحية التونسية، ورجى أن تدعم الحكومة التي يقودها الوزير مصطفى بن إسماعيل مساعيه، إلا أنه اصطدم بوجود تباين وهوة شاسعة بين أفكاره وأفكار الوزير، ما أشعره بالخيبة من إصلاح الوضع السائد؛ هذه الخيبة التي انتابت صديقه بيرم الخامس قبله، لذا فضل السير على طريقه مفضلا الهجرة إلى بلاد المشرق تاركا مناصبه الإدارية⁽³⁾.

- كتابة نص الرحلة

قبل أن ننتقل إلى تحليل نص رحلة السنوسي الحجازية، لا بد أن نقف عند الظروف التي كتب فيها هذا الكتاب، فلم يغفل في مقدمة كتابه الحديث عن العوارض التي عرقلت سير كتابة نصه، منها مشاركته في الاحتجاجات ضد الإدارة الفرنسية سنة 1885م، والتي جرت له مراقبة السلطة لنشاطاته، فتعرض لتفتيش منزله وحجز وثائقه ونصاته المتعلقة بنص الرحلة، وقد تمنعت الإدارة من إعادة ما حجزته، إلا أن تدخلا مساعدا مكنه في نهاية الأمر من استرجاع نصاته، ومن أجل ذلك تأخر تحرير نص الرحلة، ولم ينته المؤلف منه إلا في أوائل سنة 1303هـ/أواخر سنة 1885م، ولعل تلك الحادثة بالإضافة إلى مضمون الكتاب كان سببا في بقاء الرحلة في شكل مخطوط لم يطبع إلى غاية سنة 1965م⁽⁴⁾.

(1) محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، ج1، مصدر سابق، ص40.

(2) المصدر نفسه، ص41-42.

(3) المنصف الشنوي، «مصادر عن رحلتي الأستاذ الإمام محمد عبده إلى تونس (6 ديسمبر 1884-4 جانفي 1885 و9-24 سبتمبر 1903)»، حوليات الجامعة التونسية، ع3، 1966، ص78.

(4) محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، ج1، مصدر سابق ص26-27.

أما عما احتوته هذه الرحلة من مشاهدات فيوجزها المؤلف في قوله: «وصيرتها إلى تأليف نستحسن موقعه في هذه العصور، وإن لم يخل باع جامعته من القصور، جمعت فيه ما شاهدته من الآثار، مشروحة الأصول بما يفيد الاعتبار، كما شرحت ما عرض من كل جديد، ومُختَرَع مفيد، شرحا يحتاج إليه كل بارع أديب ولع بمحاسن التهذيب، وربما أدرجت فيه من التاريخ والأحكام ما لا يستغني عنه الناقد الهمام... إلى غير ذلك مما يفيد السفر...».

هذا ويتحدث السنوسي عن أسلوبه الذي يراه مختلفا عن غيره من الرحالة العرب إذ يرى أنه أسلوب شخصي متفرد: «بحيث أني اجتنبت ما رأيت عليه الرحلات في جميع الحالات، وفرعت طريقة عذراء، ولم أرجح مما وقفت عليه طريقة على أخرى، ولست أريد بهذا ثلما لما رأيته من الرحلات الموفية بأغراض مؤلفيها على اختلاف الاعتبارات، ولكن قل كل يعمل على شاكلته...»⁽¹⁾.

ونجد السنوسي يُقسّم كتاب رحلته إلى ثلاثة أجزاء، فاستهل الجزء الأول بذكر الآيات والأحاديث الخاصة بالحج وعقّب بحديث عن فوائد السفر، ثم تحدث عن مبدأ سفره وعن أقسام القارة الأوروبية، وعن إيطاليا التي أسهب في وصف معالم مدنها ولا سيما نابولي وبومباي وليفورنو واصفا معارضها ومتاحفها ومسارحها وأسواقها وعادات أهلها، أما الجزء الثاني فيحتوي على ذكر السفر إلى آسيا وابتدئ بوصف بلاد الترك وعاصمتها الآستانة، فيسهب في وصف جوامعها ومتاحفها ويخصص فصلا للسلطان عبد الحميد الثاني، ثم آخر للتونسيين المقيمين بإسطنبول، ثم يصف مدينة أزمير، لينتقل إلى وصف سفره إلى مكة المكرمة ومناسك الحج، ويذكر الأعلام من العلماء الذين لقيهم بالحرمين الشريفين، ثم يتحدث عن المدينة، ومنها رحل قاصدا دمشق حيث اجتمع بالأمر عبد القادر الجزائري، وكانت مدينة بيروت خاتمة المطاف، فبصف عودته إلى تونس عن طريق مالطا وبذلك ينتهي الجزء الثاني، أما الجزء الثالث والأخير فيحتوي على تراجم الأعلام الذين اتصل بهم أثناء رحلته⁽²⁾.

فبعد أن استفاد من إذن السفر من الحكومة التونسية ركب البحر في 08 رجب 1299هـ/25 ماي 1882م على باخرة البريد الإيطالي "برانيس دي نابولي" التي حملته من حلق الوادي بتونس إلى نابولي بإيطاليا التي وصلها يوم 10 رجب 1299هـ/27 ماي 1882م، وبارح إيطاليا في 02 رمضان 1299هـ/18 جويلية 1882م على نص باخرة وكالة الأسفار البحرية، متجها إلى إسطنبول التي نزلها يوم 06 رمضان/22 جويلية من نفس السنة⁽³⁾، والتي مكث بها مدة من الزمن قبل أن يسير قاصدا الحج فزار الحرمين الشريفين، والتقى بأعلامهما ثم اتجه نحو الشام حيث

(1) المصدر نفسه، ص43.

2 علي الشنوفي، «قصب من الرحلة الحجازية لمحمد السنوسي (الخبر عن التونسيين بالآستانة)»، مرجع سابق، ص80.

(3) محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج 3، مرجع سابق، ص75.

اجتمع بالأمر عبد القادر، قبل أن يختم رحلته هاته بزيارة بيروت، وما يهمنا في رحلته هذه أن السنوسي بقي في نابولي مدة قاربت شهرا ونصف نصقلا بين معالمها وأسواقها ومؤسساتها راصدا طبائع أهلها لتحتل مشاهداته فيها القسم الأكبر من نصه الرحلي إذ أفرد لها الجزء الأول بأكمله.

- الرحلة إلى باريس 1889م ونص "الاستطلاعات الباريسية"

ولما عُرف عليه مترجمنا من حب وتعطش للرحلة والمعرفة، كانت له رحلة ثانية إلى أوروبا، وهاته المرة إلى باريس لزيارة معرضها الدولي وكان سفره يوم الجمعة 8 ذي القعدة 1306هـ/04 جويلية 1889، ورجع إلى تونس في غرة أوت 1889م، وقد دامت هاته الرحلة مدة شهر بناء على الرخصة التي كان يحملها السنوسي من الحكومة⁽¹⁾، وعن هذه الرحلة وانطباعاته دَوّن كتابه "الاستطلاعات الباريسية" الذي أَلّفه في نفس السنة على الأغلب، وأبان فيه عن إعجابه بالحضارة الأوروبية الحديثة التي كان له وقت للتأمل في مظاهرها المختلفة، وحصر موضوعات هذا الكتاب في:

- مبادئ السفر ومحاسنه وفوائد السياحة في الأرض

- الأصول السياسية والحكومية والبلدية

- في اجتماعات الأهالي العمومية والزيارات الشخصية ومنافعهم الخيرية

- في أحوال المعارف والمدارس والمكتبات والمتاحف والمجامع العلمية.

- في المعارض والمعروضات

وهو عندما يصف مظاهر الحياة الحضارية يقف مقارنا لها بما صنعتته الحضارة الإسلامية في عهد ازدهارها جالبا للنماذج والشواهد داعيا قومه إلى الاقتداء والمحاكاة في أسلوب قريب من أسلوب خير الدين ورفاعة الطهطاوي.

ويصف السنوسي ما جاء في رحلته "الاستطلاعات الباريسية" أنه امتداد لما كان قد ذكره في رحلته الحجازية التي زار فيها إيطاليا: «جعلت هاته الفرصة موقعا لتذليل الرحلة الحجازية، وسميت ما حررته في هذا الصدد بالاستطلاعات الباريسية، وقد استحلّيت بما أبصرته في وجيز من المدة بحسب ما وصل إليه جهدي...»، ويصف ما حمله نص رحلته: «... ولهذا نعد هاته الاستطلاعات من محاسن المحاضرات ولطائف المسامرات...»⁽²⁾.

وعكس "الرحلة الحجازية" إذ ضيّقت عليه السلطات الفرنسية أشدّ التضييق حتى أنه بقي نصه مخطوطا لم يطبع إلى سنة 1965م، بينما أشادت الإدارة الفرنسية بما احتوته صفحات "الاستطلاعات الباريسية"، ولندع الكاتب العام للإدارة الفرنسية الذي أشرف على طباعة الكتاب بتونس يعبر عن ذلك فيقول: «العالم الفاضل الزكي

(1) محمد السنوسي، الاستطلاعات الباريسية، المطبعة الرسمية، تونس، 1892، ص 04.

(2) المصدر نفسه، ص 04.

المدرس الشيخ محمد السنوسي حرسه الله، أما بعد فإن كتابكم... وصل بما أتمتم تأليفه في الكتاب المسمى بالاستطلاعات الباريسية، ووقع الاطلاع على مناظره الجامعة للأصول السياسية والإدارية والعوائد واحوال المعارف والمعرض العام، على وجه جزيل النفع وسهل المناولة والفهم، فإنه حاو على طريق التآلف بين الأمة التونسية العربية وبين أسباب التقدمات الفرنسية، ودال على سعي الدولة الجمهورية الفخمة في تيسير أسباب التمدن بهذه المملكة، على أسلوب لا يبعد عما تقتضيه الأخلاق العربية، فنشكركم على ما بذلتم من الجهد في تأليف هذه الاستطلاعات...»⁽¹⁾.

(1) المصدر نفسه، ص01.

الفصل الخامس: الرحلات الجزائرية إلى أوروبا خلال القرن 19م

- أولاً: رحلة سليمان بن صيام إلى فرنسا 1852م
- ثانياً: محمد السعيد ابن علي الشريف ورحلته إلى فرنسا 1852م
- ثالثاً: أحمد ولد قادي ورحلته إلى فرنسا 1878م

الفصل الخامس: الرحلات الجزائرية إلى أوروبا خلال القرن 19م

تأتي الرحلات الجزائرية إلى أوروبا في موقف متفرد عن بقية الرحلات المغاربية خلال القرن التاسع عشر، فهاته الرحلات تأتي بعد سقوط الجزائر في هيمنة الاستعمار الفرنسي 1830م، وكان مقصدها واحدا وهو فرنسا، وتمت بتوجيه من الإدارة الفرنسية وعلى نفقتها، ونصوصها كتبت تحت إشرافها، أما كتابها فهم من الأعيان الجزائريين الذين سعت السلطات الفرنسية إلى توظيفهم خدمة لأغراضها الدعائية في الجزائر وفرنسا، وذلك بعد أن وظفتهم من أجل السيطرة على البلاد وضرب المقاومة الجزائرية وتمزيقها، فكانوا يخططون بأن يتوسطوا بالعائلات الكبيرة في حكم الجزائريين، واعتبروا هذه القيادات متعاونة معهم من أجل مصالحها الخاصة، فأسندوا إليها دورا بارزا في بادئ الأمر، وأضفوا عليها الألقاب والنياشين والمال والأرض والجاه، وسموها الارستقراطية العربية، وكانت بعض هاته العائلات المتعاونة مع السلطات الفرنسية من فئة الأجداد أو رجال الحرب، إضافة إلى عائلات دينية لها مكانتها ونفوذها الروحي والاجتماعي في أواسط المجتمع الجزائري⁽¹⁾.

وبعد أن وظفتهم فرنسا للسيطرة على الأرض الجزائرية انتقل هدفها من أجل توظيفهم للسيطرة على الإنسان والعقل الجزائري، إذ وجهت بعض من هؤلاء الأعيان إلى باريس بهدف إبحارهم بمظاهر الحضارة الأوروبية "الهائلة" وحاولت من خلال نصوص رحلاتهم التي دونوا فيها مشاهداتهم عن تلك المظاهر تحويلهم إلى بوق يخدم الاستعمار، ويشيد بفضائل الحضارية، وهو ما جسّدته هاته النصوص إذ أصبحت هذه الرحلات ذات طابع سياسي، ومهمتها خدمة المصالح الدعائية للسياسة الفرنسية، الزامية إلى تطويع الجزائريين وإخضاعهم، ففرنسا منذ احتلالها للجزائر سنة 1830م سعت إلى تلميع صورتها في أعين الجزائريين، واستعمار عقولهم من خلال إبحارهم بالتفوق الحضاري الفرنسي، واعتمدت في هذه العملية على وسائل عدّة، كإدخال التعليم الفرنسي للأقاليم المحتلة، وإرسال بعض الجزائريين إلى فرنسا ليطلّعو على تمدّنها، ثم زيّنت هذه العملية بشعارات الرّسالة الحضارية المقدّسة، وهي كلّها مساع تهدف إلى جعل الأهالي يولعون بمحاسن الخضوع للسيطرة الفرنسية ثم تبنّيهم تدريجيا لهذه السيطرة طواعية.

أدرك المحتل الفرنسي، وبحكم ما لديه من وسائل السيطرة والتخطيط الجيوسياسي أهمية الرحلة ودورها في مساعيه الاستعمارية، خاصّة أنه اطلّع على الدور الذي لعبته الرحلة الإسلامية في العهود السابقة من تأثير على الرأي العام، وتحديد نظرة المسلم للآخر، لذلك سارع المحتل الفرنسي إلى خلق شكل جديد من الرحلة، يكون فيها الموجه لمسارها، والحدّد لمهامها، والمخطّط لأهدافها، حتى تساعد على تكريس هيمنته الاستعمارية، "على هذه الرحلة لن تفشل مهما كانت باهظة الثمن لأنه من الضروري أن يعامل هؤلاء القادة معاملة حسنة وأن يتم تحمل جميع نفقاتهم

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص 326-327

...في إفريقيا، سيعيدون القصص التي ستمنح العرب فكرة عالية عن عظمتها⁽¹⁾، وبصورة أوضح فإن المحتل جند أدب الرحلة لتنفيذ مخطّطه التالية:

- ترسيخ أطروحة الفارق العلمي والثقافي بين المستعمر وبين الخاضع للاستعمار، وغرس فكرة التفوق الذهني للجنس الفرنسي.
- نشر فكرة نزاهة الفرنسي، وتميّزه بالعدل وحسن الخلق، والتحضر وبالتالي ضرورة إتباعه وتقليده.
- الترويج لمستوى الفارق العسكري والإمكانات التي يتوفّر عليها المستعمر، وبالتالي عدم جدوى محاربة ذلك الفرنسي الذي لا يُقهر، بل لابدّ من الخضوع له.
- إنشاء طبقة جزائرية موالية للاستعمار بكسب ولاء أفرادها من خلال إرسالهم إلى فرنسا واستقبالهم بحفاوة، وإقامة المآدب لهم ومنحهم الأوسمة.

وكان هؤلاء الرحالة الجزائريين يلقون معاملة خاصة في المدن الفرنسية التي يزورونها، فمن أجلهم تُصقّف الموائد، وتُلقى الخطب وتُقام المعارض، وتُنظّم الزيارات لأماكن مختارة ومحدّدة مسبقاً، وهذا ما سنلمسه بوضوح من خلال عرضنا لتلك الرحلات التي أشرف عليها المحتل الفرنسي وحدّد مسارها وأهدافها، ثم توظيف الاستعمار الفرنسي للرحلة الجزائرية (القرن 19م) و توجيهها وفقاً لمنطقه الثقافي والفكري قام بنشر وترجمة ما عاد به هؤلاء الرحالة من انطباعات، الذي يصبّ معظمها في التبشير بالحضارة الفرنسية والتهليل بتقدّمها المادّي والفكري، وهو ما قامت به جريدة المبتشر الحكومية، التي بادرت إلى نشر هذه الرحلات حتى يطلع عليها الجزائريون ويتأثروا بأفكارها⁽²⁾.

لقد اختارت السلطات الفرنسية هؤلاء الأعيان بعناية فائقة حتى يتمكنوا من إعطاء الصورة المرجوة من هاته الرحلات، نتج عن ذلك كتابة ثلاثة نصوص رحلية متوسطة الحجم، اثنتان منهما كانت في رحلة سنة 1852م لكل من سي سليمان بن صيام حاكم مليانة، والثانية لمحمد السعيد بن علي الشريف صاحب زاوية شلاطة بأقبو ببجاية، والثالثة كانت سنة 1878م من قبل سي أحمد ولد قادي باشاغا فرندة(غرب الجزائر)، وفي هذا الجزء من البحث سنحاول التعريف برحلات هؤلاء وأصحابها.

(1) Idir Hachi, *Le regard du vaincu: deux algériens à Paris en 1852, Périples au Maghreb: Voyages pluriels de l'Empire à la Postcolonie (XIXe – XXIe siècles)*, Ouvrage sous la direction de Fabienne le Houerou, Octobre 2016, P47.

(2) عوادي مسعود، «توظيف الاستعمار الفرنسي للرحلة الجزائرية (القرن 19م) وتوجيهها وفقاً لمنطقه الثقافي والفكري»، مجلة المصادر، ع25،

يونيو 2012، ص19-20.

أولاً: رحلة سليمان بن صيام إلى فرنسا 1852م

1- التعريف بصاحب الرحلة

هو سليمان بن صيام، ولد بمدينة مليانة غرب الجزائر في شهر فيفري سنة 1817م، وتوفي في مدينة حسين داي يوم 14 جوان 1898⁽¹⁾، لا نعلم الكثير عن نشأته وتكوينه العلمي والثقافي. ارتبط اسم ابن صيام كعائلة بالسلطة قبل وجود الاستعمار الفرنسي، إذ كان لأسرته مناصب متعددة في بايلك الغرب ربما كان آخرها منصب في الجهاز المالي لهذا البايك، فكان والد المترجم له هو السيد محمد خوجة بن صيام يشغل هذا المنصب، والذي ورث منصبه السياسي ومكانته الاجتماعية لأولاد من بعده، ومع مجيء الاستعمار الفرنسي وزحفه نحو ناحية الغرب الجزائري، تحالف معه، وذلك لأنه كان في نزاع وصراع مع باي وهران الأخير حسن باي، وبعد وفاة الوالد خلفه ابنه حمدان بن صيام، شقيق سليمان بن صيام، وبقياً على ولائهما للسلطات الفرنسية، وشارك الجيش الفرنسي في السيطرة على منطقة شرشال، كما شارك سليمان في محاربة الأمير عبد القادر إلى جانب الفرنسيين.

خلف سليمان بن صيام شقيقه في قيادة الأسرة والمنطقة، وظل يتسلق سلم المسؤوليات والمناصب نظراً للخدمات الكبيرة التي كان يقدمها للاستعمار الفرنسي⁽²⁾، ليحتل منصب حاكم مليانة في عام 1842م، وكان عمره لا يتجاوز 25 سنة حينها، وهو حسب الملف الشخصي الذي ورد في نياشين فرقة الشرف الفرنسية كان برتبة "آغا" الفخرية (Agha Honoraire) في مدينة مليانة وكان ذلك بالتحديد يوم 09 نوفمبر 1854م، أي بعد مضي سنتين عن رحلته إلى فرنسا⁽³⁾.

حصل ابن صيام على عديد من الأوسمة والنياشين نظير خدماته الكبيرة للإدارة الفرنسية، ففي سنة 1853م تسلم وسام فارس جوقة الشرف (Chevalier de la Légion d'honneur)، وفي سنة 1860م حاز وسام ضابط جوقة الشرف (Officier de la Légion d'honneur)، وفي سنة 1866م حصل على وسام قائد جوقة الشرف (Commandeur de la Légion d'honneur)، بالإضافة إلى ذلك مُنح نيشان الشرف الذهبي من الرتبة الأولى لوفائه خلال الأوبئة التي تفشت في الجزائر خلال سنتي 1867-1868م⁽⁴⁾.

(1) نيومان دانيال، «رحلة سليمان بن صيام إلى فرنسا (عام 1852 م) صفحة منسية في تاريخ الجزائر»، كرونوس، ع17، جامعة البلمند، لبنان، 30 يونيو/حزيران 2008، ص148

(2) Idir Hachi, **Op.cit**, P64.

(3) نيومان دانيال، مرجع سابق، ص148-149.

(4) المرجع نفسه، ص148-149.

يعد ابن صيام من الأغنياء والمتقنين، ومن الأجواد أيضا، ولعبت أسرته أدوارا في السياسة العامة وبقيت في خدمة فرنسا عسكريا وإداريا، وأصبحت من كبار ملاك الأراضي⁽¹⁾، وكان بن صيام رئيسا للمكتب الخيري ثم الجمعية الخيرية بالعاصمة، وحين وقعت ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864م⁽²⁾، أرسل سليمان بن صيام وغيره من الرؤساء العرب بيانا إلى نابليون الثالث؛ يستنكرونها ويعلنون الولاء لفرنسا، وكان من بين الذين استقبلوا نابليون الثالث عندما زار الجزائر للمرة الثانية عام 1865م، وهو يحتل منصب الآغاوية، وقد تناول مع الامبراطور والامبراطورة طعام الغداء صحبة الأعيان في قصر الصيف-قصر الشعب حاليا- بالجزائر العاصمة⁽³⁾.

ولم يلب سليمان بن صيام أيضا دعوة الحاج محمد المقراني إلى الثورة سنة 1871م، بالرغم أن هناك ما يدل حصول اتفاق سابق بينهما على الثورة واقتسام مناطق النفوذ⁽⁴⁾، ومهما كان الأمر فإن سليمان بن صيام قد واصل مهمته الإدارية حتى بعد أن قلص الفرنسيون من نفوذ الأجواد وخفضوا من شأنهم⁽⁵⁾.

كما دلت تقارير الضباط الفرنسيين على أن ابن صيام كان حليفا مخلصا ووفيا لجهود السلطات الفرنسية الاستعمارية في الجزائر، يصفه الجنرال الفرنسي مارغريت (Marguerite) بأنه الرجل المرموق الكبير الأهمية في كامل الوطن وأن نزاهته وثقافته وكرمه وغناه قد أكسبوه نفوذا كبيرا، ويضيف مارغريت واصفا ثقافة ابن صيام إذ يذكر أنه علّم هذا الأخير اللغة الفرنسية، كما تعلم هو بدوره العربية عنه وتفاصيل الحياة الدينية وأسرارها، وهو ما يدل على الثقافة الواسعة التي يتمتع بها صاحب الرحلة، كما أن لويس رين (Louis Rinn) يقول في: «... أنه من أقدم و أحسن المتعاملين مع الإدارة الفرنسية في الجزائر حيث عمل على إخضاع عدد كبير من سكان مليانة... وقد ساعدته مكانته وذكاءه الحاد ووعيه الصافي ودوره في دعم الحملات العسكرية على أن يصبح حاكم مليانة...»⁽⁶⁾.

(1) James McDougall, *A History of Algeria*, Cambridge University Press, 2017, P 82.

(2) أبو القاسم يعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، دار الغرب الإسلامي، ص 474-475.

(3) الزبير سيف الإسلام، رواد الصحافة الجزائرية، ط1، مطابع دار الشعب، القاهرة، 1981، ص 28-29.

(4) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص 474-475. أنظر أيضا:

Louis Rinn, «Deux documents indigènes sur l'histoire de l'insurrection de 1871», *Revue Africaine*, VOL 35, année 1891. Paris. P34.

(5) أبو القاسم يعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، مرجع سابق، ص 474-475.

(6) محمد كراغل، «صورة الآخر في رحلة سليمان بن صيام الملياني إلى باريس (1852م)»، ضمن كتاب: المحركة: الحراك والنفي وآثارهم على

الصعيد الثقافي واللغوي، إشراف: كمال فيلاي، جوان 2010، ص201.

2- رحلته إلى فرنسا

توجه ابن صيام في رحلة إلى فرنسا استغرقت شهرا انطلقت الرحلة حسب صاحبها يوم 25 أفريل 1852م من مدينة الجزائر، وكان الوصول لفرنسا يوم 27 أفريل 1852م⁽¹⁾، أما نهاية الرحلة وانطلاق الوفد الجزائري نحو العودة لمدينة الجزائر فكان يوم 25 ماي 1852م⁽²⁾.

كان ابن صيام واحدا من مجموعة من الأعيان الجزائريين الموالين للإدارة الفرنسية من العمالات الجزائرية الثلاث⁽³⁾ ولم يسافروا من تلقاء أنفسهم، وإنما كانوا مأمورين؛ فقد أمرهم الحاكم العام الماريشال "راندون"، بالتوجه إلى العاصمة الفرنسية لحضور توزيع الألوية على الجنود وكبار الجيش الفرنسي تحت إشراف نابليون الثالث⁽⁴⁾، يقول صاحب الرحلة عن رحلته: «...وبعد فيقول العبد الضعيف إلى ربّه السيد سليمان بن صيام...أني أمشي لرؤيا أرض الشمال ذات المحاسن العديدة والكمال أمرني من يجب علي امتثال أمره وهو والي قطر دايرة الجزائر وقطبه...سعادة السيد القبرنور راندون...وركبت من مليانة دار السكنى إلى الجزائر الغراء، دخلتها حماها الله يوم 23 أبريل سنة اثنين وخمسين وثمانية عشر مائة...ووجدت بها جماعة من رؤساء العرب مأمورين مثلي بالسفر لهاتيك البقاع والمنازل، كما أمر أسعده الله رؤساء الإيالتين؛ أعني وهران وقسنطينة بالسفر مثلنا لينخرط الجميع في سلك أولئك الأفاضل يوم اجتماع المحافل لتفريق البنود على كبراء الجنود...فامتثلت أمره السعيد»⁽⁵⁾.

يبدو الهدف الظاهر من الرحلة هو تكريم هؤلاء الأعيان المتعاونين مع فرنسا وتقليدهم النياشين والرتب، لكن الهدف المخفي كان تقديم صورة عن عدالة وقوة فرنسا، وعادات وقوانين العاصمة باريس⁽⁶⁾، الأمر الذي لمح إليه وزير الحرب الفرنسي لما استضاف الوفد الجزائري في باريس، فقال لهم: «...أنعم علينا سعادة الوزير سيدنا الجنرال سانطارنو بضيافة في داره...فمن بعض ما تحدث به معنا أن قال: يا معشر العرب نعلمكم أنكم عندنا بمنزلة إخواننا

(1) سليمان ابن صيام، كتاب رحلة السيد سليمان بن صيام إلى بلاد فرانسة، مطبعة الدولة، الجزائر، 1852، ص 03

(2) المصدر نفسه، ص 28.

(3) رغم عدم ذكر ابن صيام هؤلاء الأعيان الذين توجهوا معه إلى باريس لكن دراستنا يمكن إيرادهم على النحو التالي: بالإضافة إلى سليمان بن صيام حاكم "مليانة"، كان هناك أيضا من الأعيان: محمد السعيد بن علي الشريف عن منطقة "آقبو"، وبلقاسم أوقاسي باشاغا "سباو"، وبوعلام بن شريف باشاغا "جندل"، إضافة إلى وعلي بن باحمد خليفة "قسنطينة"، ومحمد بن الأخضر المقراني "ابن خليفة بجانة". أنظر: أحمد مريوش، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، ج 1، ط 1، منشورات كنوز الحكمة، 2013 الأبيار-الجزائر، ص 23.

(4) الزبير سيف الإسلام، مرجع سابق، ص 15.

(5) سليمان ابن صيام، مصدر سابق، ص 02-03.

(6) Idir Hachi , Op.cit, P64.

الفرانساوية، ولا فرق بينكم وبينهم عندنا في المحبة والمكانة فأجبناه بأننا لا نعتقد خلاف ذلك...»⁽¹⁾، وربما يبرز لنا هذا القول الغاية الحقيقية من هذه الرحلة أو الزيارة التي برحمت إلى فرنسا ربما الهدف منها هو إبحار هؤلاء القوم بقوة فرنسا ومحاولة إبراز معالم الحضارة الأوروبية، وهذا من أجل إظهار الفرق بين الأنا والآخر الذي يتولد لدى من قاموا بالرحلة، وهذا ما لاحظناه من خلال أسلوب المقارنة الذي ما فتأ يكرره ابن صيام في كتابة رحلته مثل قول: "وعندنا نحن في الجزائر" وما شابه ذلك.

كما لاحظنا سابقا في الرحلات المغربية التي حاولت كثيرا تبرير السفر نحو أوروبا، معللة إياها بالمصلحة العامة أحيانا، أو المصلحة الخاصة وفق نظرة فقهية معينة مثل الحج أو السفر من أجل العلاج كما ظهر ذلك في الرحلات المغربية والتونسية في القرن 19م، لكن هذه التبريرات غابت في نصوص الرحلات الجزائرية التي يبدي أصحابها في نصوصهم سعادتهم وتشوقهم للرحلة وزيارة فرنسا، فاستقبل ابن صيام خبر دعوته واختياره ضمن الوفد المكون من الأعيان الجزائريين المختارين لزيارة فرنسا: «... وكان ذلك عندي كالموسم الجديد...»⁽²⁾.

3- كتابة نص الرحلة

المرجح أن كتابة الرحلة تمت بتشجيع من السلطات الفرنسية، لأنها أرادت تدوين مشاهدات البعثة في كتاب تستطيع هذه السلطات استعماله كوسيلة دعائية لإقناع الشعب الجزائري بنعم فرنسا وأغراضها النبيلة والفوائد التي يجنيها من الاحتلال الفرنسي، كما أن ما يدعو إلى الاعتقاد بأن كتابة الرحلة هذه أسندت إلى ابن صيام نظرا للثقة الكبيرة التي قد حظي بها بحكم علاقته الوطيدة بالسلطات الاستعمارية⁽³⁾.

وقد نشر ابن صيام نص رحلته في جريدة "المبشر" الناطقة بالعربية عبر حلقات متسلسلة بلغت خمس(05) مقالات طويلة بعنوان "كتاب رحلة السيد سليمان بن صيام إلى فرنسا" أو "الرحلة الصيامية"⁽⁴⁾، وقد جمع أسلوبه في العرض بين أسلوب الرحالة القديم وأسلوب الربورتاج المعاصر، وعلى هذا الأساس يعتبر الأستاذ الزبير سيف الإسلام "ابن صيام" من الجزائريين السابقين للعمل الصحفي، رغم أنه لا يوجد له انتاجات أخرى بخلاف هذه الرحلة، يقول:

(1) خمس رحلات جزائرية إلى باريز 1852-1902، جمع وتقدم: علي تابلت، منشورات خمسينية جامعة الجزائر، الجزائر، 2012 ص32.

(2) سليمان ابن صيام، مصدر سابق، ص02.

(3) نيومان دانيال، مرجع سابق، ص 152-153.

(4) أنظر الفصل الأول من نص رحلة ابن صيام في جريدة المبشر، ع115، 15 جوان 1852.

الفصل الثاني من نص رحلة ابن صيام في جريدة المبشر، ع116، 01 جويلية 1852.

الفصل الثالث من نص رحلة ابن صيام في جريدة المبشر، ع117، 15 جويلية 1852.

الفصل الرابع من نص رحلة ابن صيام في جريدة المبشر، ع118، 01 أوت 1852.

الفصل الخامس من نص رحلة ابن صيام في جريدة المبشر، ع119، 15 أوت 1852.

«ابن صيام أول "صحفي جزائري"، أو أول كاتب يظهر اسمه على أعمدة الصحافة في الجزائر، فمنذ أن ظهرت الصحافة، وفن الصحافة، في ديار الجزائر عام 1830 إلى عام 1852م، لم يظهر كاتب جزائري أو كاتب جزائري على صفحات الجرائد العديدة التي انتشرت في كل مدينة من وهران إلى عنابة، رغم احتكاك الجزائري بهذا الفن منذ أكثر من 22 سنة»⁽¹⁾.

ويبدو أن النص الذي كتبه ابن صيام في وصفه لفرنسا وحضارتها قد لاقى قبولا واستحسانا لدى الإدارة الفرنسية التي عملت على نشره على شكل كتاب باللغتين العربية تحت عنوان "كتاب رحلة السيد سليمان بن صيام إلى فرنسا" والفرنسية "Relation du voyage en France de Si-Sliman-Ben-Siam" ونشرته مطبعة الدولة بالجزائر، التي كانت تحت رقابة سلطات الاحتلال الفرنسية في عام 1852م⁽²⁾ وهذه النشرة ثنائية اللغة عربية-فرنسية (32/29 صفحة).

ثانيا: محمد السعيد ابن علي الشريف ورحلته إلى فرنسا 1852م

1- التعريف بصاحب الرحلة

هو محمد السعيد بن علي الشريف، من مواليد سنة 1238هـ / 1820م في "ايلولة" من بلاد الزاوة⁽³⁾، من الناحية الاجتماعية ينتمي إلى عائلة لها نفوذ اجتماعي وروحي، فهو يُنسب إلى أشرف الأدارسة، حسب سجلات عائلته، وترجع الأسرة إلى عبد السلام بن مشيش⁽⁴⁾، كانت من العائلات الدينية التي أصبحت عائلة مخزنية خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر استوطنت الأسرة زاوة منذ قرون، وبني جده "الشريف موسى وعلي" زاوية "شلاطة" التي أصبحت مركزا مشعا في زاوة وخارجها⁽⁵⁾.

من الناحية العلمية يبدو أن محمد السعيد كان يتمتع بزاز علمي ومعرفي (يخص علوم عصره وبيئته) جعلت زاويته "زاوية شلاطة" تتمتع بسمعة كبيرة، إلى درجة أنها اشتهرت أيضا باسم "زاوية ابن علي الشريف"، وكانت له مؤلفات وطلبة ومريدون⁽⁶⁾، نشرت المبشر له أيضا العديد من المقالات في مختلف المواضيع مثل موضوعه عن

(1) الزبير سيف الاسلام، مرجع سابق، ص15.

(2) نيومان دانيال، مرجع سابق، ص148.

(3) أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906، ص533.

(4) Mohammed Brahim SALHI, *La tariqa Rahmaniya De l'avènement à l'insurrection de 1871*, Haut-Commissariat à l'Amazighité, 2008, P 84-85.

(5) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، مرجع سابق، ص476.

(6) المرجع نفسه، ص476.

الخييل⁽¹⁾، يصفه زبير سيف الإسلام بأنه: من أوائل الكتاب الجزائريين الذين كتبوا سلسلة من المقالات ذات الطابع الصحفي، بلغت أكثر من سبعة عشر(17) مقالا في جريدة المبشر، وكان داعيا لنشر العلم والمعرفة والثقافة التي بها تزدهر الحضارة وتتقدم الأمم في الإطار الفرنسي، وكان أول من طالب بازدواج اللغة-عربية وفرنسية-في التعليم بوجه عام⁽²⁾.

كان عمر محمد السعيد عشر سنوات عندما احتلت فرنسا الجزائر، ولكن احتلال منطقة زواوة وقع بالتدرج، وبعد المهجمات التي قام بها الجنرال الفرنسي بيجو (Bugeaud)⁽³⁾ خلال 1844 و 1847م، بدأت علاقات الشاب محمد السعيد مع السلطات الفرنسية تتضح، فقد تولى للفرنسيين منصبا إداريا-رغم طابع الزاوية الديني-وعمره 27 سنة فقط، وتعلم الفرنسية، ولم يكد يبلغ الثلاثينات من عمره حتى كان من الأعيان الذين استقبلهم نابليون الثالث ومنحهم أوسمة الشرف⁽⁴⁾، في عام 1869م أصبح سي سعيد بن علي الشريف باشاغا (Bachagha) ليصبح عنده ثقل سياسي أكبر على المنطقة إضافة إلى نفوذه الروحي⁽⁵⁾.

عاش ابن علي الشريف كل تقلبات الأحوال في زواوة بين 1847م و 1896م تاريخ وفاته، ومن التواريخ الهامة التي عاشها ثورة الشريف بوبغلة أوائل الخمسينات في المنطقة التي كانت تابعة لنفوذه (ابن علي الشريف) إذ كان في موقف صعب بين التصدي له أو التغاضي عنه، ولم يفده طلب الرخصة للحج لتفادي المواجهة مع الطرفين: ببوغلة من جهة والفرنسيين من جهة أخرى، ثم وقع الاحتلال الثاني، وربما الحاسم لزواوة وهو سنة 1857م، وكان عليه أن يظهر التعاون مع الفرنسيين، وأكبر اختبار واجهه كان سنة 1871م أثناء ثورة المقراني والحداد، ورغم مناوآته، فإن ابن علي الشريف واجه المحاكمة وحكم عليه بالسجن خمس سنوات وكان الفرنسيون بصفة عامة لا يريدون معاقبته بشدة إذ كان له خصوم وأنصار، وهذا ما خفف عنه الحكم بعض الشيء قياسا على ما وقع لزعماء آخرين⁽⁶⁾، توفي ابن علي الشريف يوم 14 جمادى الأولى سنة 1896/1314م⁽¹⁾.

(1) جريدة المبشر، ع 117، 15 جويلية 1852

(2) الزبير سيف الإسلام، مرجع سابق، ص 33.

(3) بيجو (Thomas Robert Bugeaud) ماريشال فرنسي ولد بمدينة ليموج الفرنسية سنة 1784م، كان من أهم قادة الاحتلال الفرنسي بالجزائر، وتم تعيينه سنة 1840 حاكما عاما للجزائر، وكان داعما لسياسة الاستيطان الفرنسي على الأراضي الجزائرية ويعد أشهر وألد الأمير عبد القادر قائد المقاومة الجزائرية، قاد وانتصر في معركة إيسلي ضد القوات المغربية سنة 1844م، وعلى إثرها لقب بلقب دوق إيسلي (Duc D'Isly)، توفي يوم 10 جوان 1849م متأثرا بمرض الكوليرا. للمزيد أنظر: بسام العسلي، الماريشال بيجو 1784-1849، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982.

(4) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، مرجع سابق، ص 476.

(5) Mohammed Brahim SALHI, Op.Cit, P 89

(6) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، مرجع سابق، ص 476-477.

2- الرحلة إلى فرنسا

جرت هذه الرحلة في نفس السنة مع ابن صيام المذكورة سابقا، وقد ترافق الرجلان في السفر لنفس الغرض، يقول ابن علي الشريف عن أسباب توجه رحلته إلى فرنسا: «...فأراد (نابليون الثالث) إنشاء مهرجان عظيم، ويسرد جيوشه لأخذ الرايات من يده الكريمة، ولذلك عزم على إحضار ولاية العرب فانتخب إذ ذاك سعادة والي الجزائر السيد راندون بعض الأعيان ذوي القدر والشأن من كل عمالة رجالا، فأهل وهران سافروا من مرساها، وأهل قسنطينة من سكيكدة، وأهل الجزائر من مرساها، وكان رئيس القوم في هذه السفرة المباركة الليث المقدم السيد الكولونيل دوريوا، وقد التقى الجميع بباريس...»⁽²⁾.

وعن دوافع كتابته لفصول رحلته ومشاهداته عن فرنسا يقول: «أما بعد فيقول العبد الفقير إلى سيده ومولاه، السائر حيث وجهه وولاه محمد السعيد بن علي الشريف صاحب زاوية شلاطة، القاطن دارا ومنشأ بقطر بجاية... لما رقم اسمي في جملة المسافرين إلى دار الملك بباريس أشار علي بعض الأمراء المحبين بتسطير ما نشاهده ببر فرنسا، وما نعاينه من الأمور القريبة والأشياء العجيبة، فأجبت لمراده خشية الملام»⁽³⁾.

لا يخبرنا صاحب الرحلة عن الجهات التي طلبت منه تدوين مشاهداته، إلا أنها في الغالب جهات فرنسية، وعلى رأسهم السيد راندون والي وحاكم الجزائر كما لمح إلى ذلك في مقدمة نصه، يقول: «هذه الرحلة الخيرية فيما عاينه ناظمها الآتي ذكره ببر فرانسة، هدية منه لسعادة والي المملكة الجزائرية السيد الجنرال راندون المرجو منه قبولها بالرضى والإحسان»⁽⁴⁾، ما يؤكد أن الرحلة كانت خدمة للأغراض الاستعمارية الفرنسية بالجزائر.

وقد أجابهم السيد محمد بن السعيد بن علي الشريف لمطلبهم بكلمات متواضعة بسيطة شرح فيها عدم كفاءته في هذا الميدان، ميدان سرد الحوادث وتدوين الملاحظات فيقول: «أجبناهم مع قصر فهمنا وعدم حقوقنا بهذه المرتبة-أي مرتبة الكتاب الأدباء-التي تتفاخر بها فحول الرجال المطلعين على دقائق المسائل ومغزى الأقوال، وحيث لم يبق خلاف -أي لم يبق له أي عذر-أقول ما استطعت بحمد الله تعالى وحسن توفيقه" وأسأله أن ييسر أمورنا ويبلغنا الأمل، ويجعلنا من الباذلين جهدهم في معونة هذه الدولة الفرنسية بصدق نية وحسن عمل»⁽⁵⁾.

(1) أبو القاسم الحفناوي، مصدر سابق، ص 533.

(2) خمس رحلات جزائرية إلى باريز، مرجع سابق، ص 49.

(3) المرجع نفسه، ص 39

(4) المرجع نفسه، ص 39

(5) جريدة المبشر، ع 130، مطبعة الدولة، الجزائر، 30 جانفي 1853م.

وكانت السلطات الفرنسية قد نشرت نص رحلة ابن علي الشريف في جريدة المبعثر عبر حلقات متفرقة⁽¹⁾ وعنوانت مقالاته أحيانا بالعنوان التالي: "من كلام الأديب محمد السعيد بن علي الشريف"، ولا يوجد عنوان صريح للرحلة، لكن يذكر السيد محمد السعيد بن علي الشريف ما يمكن أن يكون عنوان لرحلته: «الرحلة الخيرية (أو الخيرية) فيما عاينه ناظمها الآتي ذكره بير فرانسة»⁽²⁾.

يعبر ابن علي الشريف عن أسلوبه في كتابة رحلته فيقول: «... هذا ما شهدته حواسنا كالدعوى، والدعوة تثبت بالدليل، ولذلك ذكرت كل صفة في محلها، قدمت الكلام على العقل والعلم والعدل في أول الرحلة والنجاة هنا، قويتها بالدلائل والنقول والحكايات، فيطمئن بذلك الواقف على هذه الرحلة ويتوثق مما ذكرناه فيها فتحصل له الإفادة بالعلم واليقين...»⁽³⁾.

إن أهمية رحلة محمد السعيد بن علي الشريف تظهر من كونها تعكس رأي الشاب في أوائل عهده بالتأثر الفرنسي، وهو من المرابطين النصارى مع الأجواد، وقد رأينا أنه وقف إل صالح الأخذ من الفرنسيين أنواعا من تمدنهم، ولكنه لم يدرك أن ذلك غير مفتوح للجميع، وأن هناك ثمنا غاليا يدفعه الجزائري ليصل إلى ذلك الهدف⁽⁴⁾.

(1) حيث نشرت الرحلة عبر حلقات عديدة فكان الفصل الأول من الرحلة نشر في العدد 130 المؤرخ بيوم 30 جانفي 1853م، فيما نشر الفصل الأخير في العدد 145 المنشور بتاريخ 15 سبتمبر 1853م.

(2) خمس رحلات جزائرية إلى باريز، مرجع سابق، ص 39

(3) المرجع نفسه، ص 70.

(4) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، مرجع سابق، ص 478.

ثالثا: أحمد ولد قادي ورحلته إلى فرنسا 1878م

1- التعريف صاحب الرحلة

أحمد ولد قادي ولد سنة 1805⁽¹⁾، وهو أحمد بن محمد بن البشير ولد قادي⁽²⁾، ينتمي إلى عائلة أولاد قادي التي تعتبر أهم بطن من أسرة "البهايشية"⁽³⁾ وسط قبيلة الدواير المعروفة تاريخيا بالقبيلة المخزنية، (Tribu - makhzen)، وعرفت هذه العائلة كلها بثرائها الواسع في المنطقة الوهرانية غرب الجزائر⁽⁴⁾، وكانت قبيلة الدواير والزمالا من أولى القبائل التي ارتبطت بخدمة الاحتلال الفرنسي⁽⁵⁾ بداية من اتفاق الكرمة سنة 1835م⁽⁶⁾.

كان أحمد ولد قادي قد سبقه العديد من أفراد أسرته في خدمة فرنسا، وكان قد عين قائدا على قبيلته وما جاورها بداية من 11 نوفمبر 1843م، وانضم للجنرال بيجو في 31 ماي 1844م، لمحاربة القبائل الموالية للأمير عبد القادر، كما شارك في معركة إيسلي ضد الجيش المغربي بقيادة بيجو سنة 1844م.

(1) Saddek Benkada, « Cimetières et extension urbaine en situation coloniale : le cas du cimetière musulman d'Oran (1868) », *Insaniyat*, No68, 2015, P98.

(2) *Livre d'Or de l'Algérie 1830-1889*, Par Narcisse Faucon, Paris 1889, pp. 499-505.

(3) البهايشية: ينتمون إلى أولاد السعود بن سويد، وينحدرون من عرب بني هلال حسب ما ذهب إليه المزاري، وكان جدهم المسعود صاحب الرياسة على سويد خلال عهد بني مرين وبني زيان، وتوارث أبناؤه الرياسة أب عن جد خاصة فيعهد الأتراك العثمانيين. للمزيد أنظر: الأغا بن عودة المزاري، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990، ص30-31.

(4) إبراهيم مهديد، «الأرستقراطية التقليدية الوهرانية خلال القرن 19م والرأسمالية الاستعمارية: إشكالية الاندماج الاجتماعي»، *مجلة انسانيات*، ع4، جانفي-أفريل 1998، ص80-81.

(5) ومن أشهر أعلام هذه العائلة الذين خدموا فرنسا نذكر: إسماعيل ولد قادي -المشهور- والذي توفي سنة 1864 برتبة ملازم صبايحي، وتزعم القبيلة من بعده أخوه سي أحمد ولد قادي الذي تقلد منصب باش -آغا فرندة. وهو حامل وسام جوقه الشرف. أما ابنه الأول "علي"، فكان قائدا على قبيلة شلاق؛ وابنه الثاني الحبيب ولد قادي، "فايد" قبيلة لمحاميد. أما ابن أخيه محمد بن اسماعيل ولد قادي فكان آغا على قبيلة "الحشم شرقا". أنظر: المرجع نفسه، ص80-81.

(6) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج7، مرجع سابق، ص473.

وقعت اتفاقية الكرمة بين الطرف الفرنسي وقبائل الدواير والزمالا حيث مثل الطرف الأول الجنرال تريزل، بينما مثل المزاري الطرف الثاني، وكان تاريخ الاتفاقية في 15 جوان 1835م بمنطقة الكرمة، ليتم الاصطلاح عليها بـ"اتفاقية الكرمة" حيث أكدت هذه الاتفاقية على انضمام هاته القبائل إلى السلطة الفرنسية وتزويد هذه الأخيرة بالفرسان من هذه القبائل. للمزيد أنظر: عائشة ناقل وكريم ولد النببة، «**فرق الصباحية واستغلالها داخل الاستراتيجية الاستعمارية في الجزائر 1830-1845**»، *الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية*، مج12، ع1، جامعة سيدي بلعباس-الجزائر، ديسمبر 2019، ص143.

ثم بعد ذلك ترقى في المناصب نظير خدماته التي يقدمها للفرنسيين، حيث عين آغا على فرنده سنة 1848م، وقلد وسام فارس جوقة الشرف (chevalier de la légion d'honneur)، كما ألقى القبض على العديد من الثوار الجزائريين أو زعماء القبائل التي لم ترضَ بالوجود الفرنسي، وكُرم من طرف المارشال بيجو بعد مشاركته في الحملة الفرنسية على الأغواط سنة 1852م، كما شارك في الحملة العسكرية التي قادها الجنرال (Randoun) وذلك سنة 1853م، وكلف سنة 1864م بشن حملة عسكرية بإيعاز من الجنرال (Deligny)، باتجاه البيّض أيام مقاومة أولاد سيدي الشيخ.

وحصل أحمد ولد قادي على كثير من هذه الأوسمة نظير خدماته الكبيرة لفرنسا؛ منها: "فارس في فيلق الشرف" (Chevalier de légion d'honneur)، 17 أغسطس 1841م، ثم ضابط (Officier) في 22 ديسمبر 1852م، وفي 16 مارس 1865م عين "باشا آغا" على فرنده، ومُنح وسام الضابط الأكبر من وسام جوقة الشرف (Grand officier de la légion d'honneur) وبعدها الضابط الكبير (Grand officier) في 13 أبريل 1867م، كما كان عضو دائم في المجلس العام في وهران⁽¹⁾.

وبالرغم من الخدمات التي قدمتها هاته العائلات الأرستقراطية لفرنسا إلا أن هذه الأخير عملت دائما خاصة بعد 1871م على تقليص دورها النصفذ، وقد تعرض ابن قادي لهذا التضييق والمراقبة، ففي سنة 1881م وقعت حادثة في سيدي بلعباس تعرف "بمؤامرة 1881م" وهي التي زعم فيها الفرنسيون أن اجتماعا سريا حضره ولد قادي، وكان هذا في قانون الأهالي (الأنديجانا) الذي يحرم على الجزائريين الاجتماع بدون رخصة، فكانت نتيجة ذلك أن سجن الفرنسيون الآغا ولد قادي وبعد خروجه من السجن كتب كتابا بعنوان: "كتاب الدوائر والزماله وحركاتهم"، وهو كتاب يجمع بين التاريخ والأنساب، صدر هذا الكتاب سنة 1883م، وأرخ به مؤلفه للدوائر والزماله، ويعتبر تسجيلا لدورهم منذ الاحتلال ودورهم في التاريخ عموما باعتبارهم من الارستقراطية المخزنية النصفذة، وفي الكتاب منّ على الفرنسيين وشكوى من حالة هذه القبائل بعد القوانين التي مست الأرستقراطية (الأجواد) العربية بصفة عامة، مثل قانون سنة 1863، وسنة 1873م⁽²⁾.

توفي أحمد ولد قادي يوم 8 جانفي 1885، بعد مرض قصير عن عمر يناهز 80 سنة، كتبت عنه معظم الصحف الصادرة بالفرنسية في الجزائر خاصة L'Echo d'Oran، وقد حضر جنازته جنرالات وضباط سامون لعمالة وهران، وممثل عن الوالي العام للجزائر⁽³⁾، عرف في المراجع الفرنسية بالصدّيق الوفي للقضية الفرنسية⁽¹⁾.

(1) Livre d'Or de l'Algérie 1830-1889, Op.Cit, pp. 499-505.

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، مرجع سابق، ص 364-365.

(3) Livre d'Or de l'Algérie 1830-1889, Op.Cit, pp. 499-505.

2- الرحلة إلى فرنسا 1878م

استفاد الفرنسيون من تحالفهم مع الزمالة والدوائر، وحفظوا لهم المصالح، واستدعوا رجالهم إلى فرنسا لحضور المناسبات الهامة إظهارا لتعاطفهم، ومن هؤلاء ابن قادي نفسه، وسنرى أنه اغتنم فرصة وجوده في باريس سنة 1878م، فكتب رحلة وقدم مطالب باسم الجزائريين تعتبر عندئذ جريئة⁽²⁾.

انطلقت الرحلة من ميناء مدينة الجزائر في بداية شهر شعبان الموافق لأوت سنة 1878م في جماعة من أعيان العرب، وكان الهدف المسطر من الرحلة هو زيارة المعرض الدولي في باريس المقام سنة 1878م، وحضور مهرجان العروض العسكرية لتسلم النياشين⁽³⁾، وبدا ابن قادي منشرجا مسرورا لأن الاختيار وقع عليه مرة أخرى (سبق للمترجم له أن زار فرنسا مرتين) من بين عديد المتعاونين الجزائريين مع فرنسا لزيارة باريس يقول: «وبعد لما تعلق القلب بزيارة فرنسا مرة ثالثة واشتأقت النفس للتمتع برؤية تلك المدن العظيمة والأمصار... رجوت أن أكون مع من حضر وقلت لعل غرس التمني يثمر، فكان الأمر بحول الله...»⁽⁴⁾.

وربما تظهر الأسباب الحقيقية للرحلة بشكل جلي في قوله: «وقد كان العرب يظنون فرنسة عندما لحظتها عيون السوء انتقاص شأنها، فلما وقفنا بها وجدناها قذى في أعين الحاسدين وأنها أجلّ قدرا وأعظم قوة مما كانت عليه من كثرة الجيوش والاقامة والآلات الحربية...»⁽⁵⁾، وكأن ابن قادي يشير إلى أنه موجه لكي يوضح ويفند النظرة أو الفكرة التي كانت عند العرب والجزائريين خصوصا حول اهتزاز المكانة العسكرية الفرنسية وأنها ربما ضعفت وهانت بعد الهزيمة أمام ألمانيا سنة 1870م.

أما عن كتابة نص رحلته فيقول: «ثم خطر ببالي بعد الرجوع إلى وطني أن أجمع بينة أذكر فيها بعض ما عاينته في السفر قصدا في انتفاع من لم يكن معنا حاضرا، لا أنا مباه بها ولا مفاخر... وسميتها الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية...»، فالعنوان أيضا معبر عن هدف الرحلة وغاياتها، وهو التشهير بمحاسن الحضارة الفرنسية والترغيب فيها.

(1) Michel Antar. Chevauchées d'un futur Saint-Cyrien à travers les Ksour et oasis oranais. Hetzel. Paris. 1907. p50

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، مرجع سابق، ص 364-365.

(3) Le Progrès de Bel-Abbès. Journal L'arrondissement de Sidi-Bel-Abbès.No 1424. Année 10. Sidi-Bel-Abbès .Samedi 11 Novembre 1899. P02.

(4) أحمد ولد قادي، الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية، الجزائر، 1878، ص 3-4.

(5) المصدر نفسه، ص7.

ورتب المؤلف نص رحلته على أربعة فصول: الفصل الأول: محاسن فرنسة وملاقاة أعيان العرب مع أرباب الدولة، أما الفصل الثاني فذكر فيه عجائب معرض باريس وما يتعلق، في حين خصص الفصل الثالث لوصف تسراد الجيوش الفرنسية وتنظيمها، وتحدث في الفصل الرابع: عن توديع أعيان العرب لفرنسا عند خروجهم منها وعرض حال الجزائريين لولاها⁽¹⁾.

وفي ختام هذا القسم نشير أننا استثنينا في هذا البحث بعض النصوص المغاربية التي قد يدرجها بعض الباحثين ضمن سياقات هذا الدراسة، مثل كتابات الجزائري حمدان بن عثمان خوجة، إذ كثيرا ما احتوت مؤلفاته تصورات عن أوروبا خلال القرن التاسع عشر سوء في كتابه "المرآة"⁽²⁾ أو "إتحاف المنصفين"⁽³⁾ إلا أنها كانت عبر ملاحظات وصور سريعة ومتفرقة في مضان هاته الكتب، وإن كنا لا ننفي أهميتها في الوعي بالذات والآخر في مرحلة مهمة جدا ومفصلية في تاريخ المغرب، كما استثنينا بعض الرحلات التي اعتبرناها خارج الحيز الزمني للدراسة على شاكلة رحلة التونسي محمد بلخوجة إلى باريس المعنونة "سلوك الإبريز في مسالك باريس"، ولا نحسب أن هذه الكتابات تختلف عما دونه أصحاب الرحلات المدروسة في هذا البحث في نقلها لصورة أوروبا القرن التاسع عشر.

وعلى العموم كانت هاته مجموع الرحلات المغاربية التي توجهت إلى أوروبا وكتبت عنها خلال ثلاثة قرون وعلى امتداد العصر الحديث، وبعد أن تعرفنا على أصحابها ومؤلفيها وسياقاتها التاريخية التي أتت فيها نسعى فيما سيأتي من فصول إلى دراسة خطاب هذه الرحلات محاولين إبراز نظرة المغاربة للآخر الأوروبي خلال الفترة المدروسة.

(1) المصدر نفسه، ص 3-4.

(2) حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزيري، منشورات ANEP، الجزائر، 2005.

(3) حمدان بن عثمان خوجة، إتحاف المنصفين والادباء في الاحتراس عن الوباء، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968.

القسم الثاني: صورة أوروبا في نصوص الرحلات المغربية خلال القرنين 17 و18م

- الفصل الأول: تمثلات الرحالون المغاربة للواقع الديني الأوروبي خلال القرنين 17 و18م
- الفصل الثاني: تمثلات الرحالون المغاربة للواقع السياسي في أوروبا خلال القرنين 17 و18م
- الفصل الثالث: الواقع العسكري الأوروبي في نصوص الرحالة المغاربة خلال القرنين 17 و18م
- الفصل الرابع: المجتمعات الأوروبية في نصوص الرحالة المغاربة خلال القرنين 17 و18م
- الفصل الخامس: الواقع العلمي والثقافي في أوروبا خلال القرن 17 و18م
- الفصل السادس: واقع الاقتصاد الأوروبي في نصوص الرحلات المغربية خلال القرنين 17 و18م

الفصل الأول: تمثلات الرحالون المغاربة للواقع الديني الأوروبي خلال القرنين 17-18م

- أولاً: الآخر الأوروبي المختلف دينياً
- ثانياً: دين الآخر في نصوص الرحالة المغاربة
- ثالثاً: الرحالون المغاربة يكشفون فساد الكنيسة
- رابعاً: الحركة الدينية في أوروبا في نصوص الرحلات المغربية
- خامساً: أوروبا التعصب الديني
- سادساً: صورة الإسلام والمسلمين في أوروبا خلال العصر الحديث

الفصل الأول: تمثلات الرحالون للواقع الديني في الأوروبي خلال القرن 17-18م

إن اختيارنا هذا الفصل فاتحة لبحثنا في سياق سعينا لاستنباط صورة الآخر الأوروبي، ينطلق من تلك المحورية التي يمثلها "الدين" بالنسبة للناظر والمنظور إليهم من الرحالة المغاربة ونظرائهم الأوروبيين، فحديثنا عن تصور الآخر دينيا في نصوص الرحالة المغاربة في هذا الجزء من البحث يهدف إلى عرض وتبيين المعالم الكبرى للنظرة التي سطرها أصحاب هذه النصوص في فترة أكثر من قرنين، فالنظرة الدينية هيمنت في تصوير "الآخر" من كلا الطرفين "المغاربي والأوروبي" "المسلم والمسيحي"، سياسيا واجتماعيا وثقافيا، وهو ما سنتناوله بتفصيل في حينه، كما نسعى من خلال هذا العرض للوقوف على مدى اطلاع هؤلاء الرحالة عما كان يحدث في أوروبا من تغيرات وأحداث في فترة كان الدين فاعلا فيها، راصدين الصور التي أنتجها هذا الآخر الأوروبي عن الإسلام والمسلمين.

أولا: الآخر الأوروبي المختلف دينيا

يجب أن نشير أولا إلى نقطة نعتقد أن لها تأثير في تشكيل الصورة وإنتاجها وعلى فهمها كذلك، وهي أنه ورغم أن الاختلاف الديني كان له بدون شك أثره البارز في تشكيل صورة الآخر دينيا، سواء عند المسلمين أو عند المسيحيين، لكن يجب التأكيد كذلك إلى كون الشرط التاريخي بوصفه عاملاً حاسماً ومؤثراً في العلاقات الحضارية⁽¹⁾، ولا سيما في ظل الاحتكاك الكبير بين العالمين الإسلامي والمسيحي، والذي فرض مظهرًا جديدًا من مظاهر التفاعل الحضاري.

إذ أصبح الصراع بين المسلمين والأمم الأخرى ذا مرجعية دينية، فكما شكلت الحروب الصليبية انطلاقا للصورة التي سجلها "النصارى" في العصور الوسطى عن الإسلام، تعاقبت محطات تاريخية فاصلة خلال العصر الحديث كترسّت الصور النمطية لدى كل طرف حول الآخر، فأحداث مفصلية مثل سقوط الأندلس سنة 1492م، وقبلها فتح العثمانيين للقسطنطينية 1453م، ومعاناة المسلمين في إسبانيا والحروب الأوروبية الإسلامية في المتوسط والمحيط الأطلسي وعلى السواحل الأوروبية والمغاربية والتوسعات العثمانية في أواسط أوروبا، كل هذه الأحداث شكلت دواعي لإعادة إحياء وتحديد الصراع الإسلامي الصليبي، وتشكيل صورة عن الآخر من كلا الطرفين.

وعليه فقد سجلت الرحلات المغربية خلال القرن السابع عشر والثامن عشر تمثلاتها عن الآخر الأوروبي دينيا، وهي بلا شك تمثلات تنبع من تأثيرات الاختلاف الموجود بين الديانتين الإسلامية والمسيحية (النصرانية)، إضافة إلى تأثير الأحداث العسكرية والسياسية سابقة الذكر والتي زامننا رحالتنا وتأثروا بها، لذا نتساءل عن طبيعة الصورة التي

(1) إبراهيم خليل الشبلي، «المساران التاريخي والديني في وعي (الآخر) عند حسين العودات»، قلمون للدراسات والأبحاث، ع4، ديسمبر/جانفي 2018، ص53.

أنتجها الرحالة المغاربة عن الآخر الأوروبي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر؟ وما هي الصورة التي اكتشفوها عن ذاتهم التي رآهم بها هذا الآخر؟

ويظهر الأوروبي في رحلات المغاربة أولاً وقبل كل شيء "مشرك" "كافر" "نصراني"⁽¹⁾، ولا يبدو أن هذه الصورة للآخر الأوروبي تم تمثيلها بعد وصول هؤلاء الرحالة إلى البلاد الأوروبية أو بعد عودتهم منها، إذ أن هذه النظرة تخص رؤية كل مغربي مسلم ينظر إلى الآخر غير المسلم، وهي ليست نظرة انفرد بها المسلمون عن غيرهم من الشعوب في نظرهم للآخر المختلف دينياً⁽²⁾، فكما كان ينظر المسلمون للعالم والآخر المختلف دينياً في العصر الحديث كذلك كان يُنظر إليهم، في عصر اشتد فيه الصراع الديني، كما ازداد فيه تركز كل شعب بدينه سواء المسلمين أو المسيحيين. ورغم أن الخطاب الغالب في نصوص الرحلات-محور دراستنا- كان موجهاً نحو تمثيل وتصوير الآخر الأوروبي، نلاحظ أن ظهور بعض الملامح والصور السريعة حول تمثل هذا الآخر للمسلمين، تثبت كذلك طغيان الرؤية الدينية من الطرفين سواء المغربي أو الأوروبي، فمثلاً كان الدعاء على الآخر المختلف دينياً متشابهاً، فكان دعاء الحجري لله: «أن ينصر جميع المسلمين على القوم الكافرين...»⁽³⁾، فيما كان يرجوا النصارى الأوروبيون أن تكون "عقوبة المسلمين في الآخرة شديدة لأنهم غير نصارى"⁽⁴⁾، وهي صورة تعكس بلا شك أن النظرة للآخر كانت مرتكزة على أسس دينية ليس فقط من قبل المسلمين بل حتى في نظرة الأوروبيين النصارى للمسلمين، إذ يبدو أن المقياس الديني للتطابق والاختلاف كان عالمياً⁽⁵⁾.

وبخصوص رحلاتنا فإن هذه الصيغ في التعبير عن الآخر تظهر منذ الوهلة الأولى من خلال عناوين هذه الرحلات، فالآخر عدو كافر، وهذا ما يظهر في رحلتي الحجري الذي يظهر مراده ونظرته للآخر من خلال عنوان كتابه: "ناصر الدين على القوم الكافرين"، أما المكناسي فيسمي عنوان رحلته الثانية: "البدر السافر في فكاك الأسير من يد العدو الكافر"، وبالتالي يستطيع القارئ من خلال العنوان أن يستبين طغيان "النظرة الدينية للآخر" قبل أن يغوص في نصوصها التي سوف تؤكد ذلك أكثر.

(1) عبد السلام حيمر، «صورة الآخر من خلال تقارير الرحلات السفارية المغربية في أوروبا»، ضمن كتاب صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، تحرير: الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، ص 315.

(2) عكس ما قال به بعض الباحثين وعلى رأسهم برنارد لويس بتأكيد أن هذه النظرة انفرد بها المسلمون دون سواهم من المسيحيين. أنظر برنارد لويس، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ترجمة وتعليق وتقديم: ماهر عبد القادر محمد، دار المعرفة الجامعية، 1998، مصر، ص 195-196.

(3) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 49.

(4) المصدر نفسه، ص 103.

(5) برنارد لويس، مرجع سابق، ص 194.

وإذا غصنا في هذه النصوص نلاحظ أن كلمة "كافر" أو "نصراني" لم تكن تستخدم فقط في التعبير عن بعض الإشارات القومية والسياسية الخاصة بالأوروبيين، ولكنها كانت تستخدم كصورة متكررة لتحل محل كلمات أساسية مثل الشخص أو الرجل أو الإنسان، أو حتى البلد الأوروبي المرتحل إليه؛ أي أن كلمة "كافر" و"نصراني" شملت الأرض ككيان وأيضا الإنسان، فعبر هؤلاء الرحالة عن الآخر الأوروبي؛ بوصفه نصرانيا وجمعه نصارى⁽¹⁾، و"البلاد الأوروبية" يُعبّر عنها بـ"بلاد النصارى" أو "بر النصارى"⁽²⁾، وملوكهم "ملوك نصارى"، أو "سلاطين النصارى"⁽³⁾، ونفس الشيء في استخدام كلمة "الكفار" أو "الكفرة"⁽⁴⁾، فكان استخدام كلمة "الكفار" مرادفا لكلمة إسباني مثلا، و بلادته "بلاد الكفر"⁽⁵⁾ والتي تعني أوروبا أو أي من بلدانها، ويقابلها "بر الإسلام"⁽⁶⁾.

والآخر الأوروبي أيضا بوصفه "مشركا"⁽⁷⁾، فكان الانتقال من المغرب "بر الإسلام" إلى أوروبا هو انتقال من أرض "التوحيد" إلى أرض "الشرك"، فيتحدث الحجري عند وصوله إلى مرسى لوهافر (Le Havre) أولى محطات رحلته بفرنسا: «... فتلك الليلة على طولها نرى في النوم بأي كنت نتلوا سورة "الإخلاص" وبعد أن نزلنا بان لي أن قراءة "قل هو الله أحد" كان لي تثبيتا على التوحيد، والأمر من الله إذ كنا نازلين ببلاد الشرك...»⁽⁸⁾.

وعبر الرحالة المغاربة عن هذه النظرة وهم في أرض أوروبا؛ إذ تتضح صورة هذا النصراني الكافر وتزداد شدة من قبل الرحالة المغاربة كلما اقترب هذا "الآخر" من مقدساته، حيث لا يلبث الحجري أن يصف أحد الفرنسيين أنه "نجس كافر" بمجرد أن وجده يحمل بين يديه نسخة من القرآن الكريم: «... فتغيرت حين رأيت كتاب الله العزيز بيد كافر نجس...»⁽⁹⁾، وهو ربما استحضار للنص القرآني حول موجبات حمل المصحف الشريف في قوله تعالى: «لَا يَمَسُّهُ

(1) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 47، 69 وغيرها، محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 32. 181.

(2) المصدر نفسه، ص 98.

(3) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 99.

(4) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 49، أحمد بن المهدي الغزال، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، مصدر سابق، ص 35، 49، ص 99... إلخ، محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 05، ص 39، 190، 191...

(5) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 204.

(6) المصدر نفسه، ص 197.

(7) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 33، 37.

(8) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 79.

(9) المصدر نفسه، ص 85.

إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ»⁽¹⁾، فالقرآن هو المقدس دون الكتب الأخرى، وهنا تتأكد مرة أخرى غلبة النظرة الدينية لأوروبا في رحلة الحجري، وما فتأت هذه الصورة أن تتكرر مع الغزال في القرن الثامن عشر فوصف الإسبان الذين غيروا في بعض ملامح مسجد قرطبة ومحاولتهم تدنيس بعض الجدران المنقوش عليها آيات من القرآن الكريم⁽²⁾، أما المكناسي فتحصر على بقاء كتب المسلمين "بأيدي الكفرة"⁽³⁾.

ونشير أن نظرة المسلمين للآخر الأوروبي خلال هذه الفترة كانت غير مبنية على البعد الجغرافي، وخاصة رحلات القرنين 17 و18م نحو أوروبا، وإنما كانت مؤسسة على البعد الديني بالدرجة الأولى، لهذا ظهرت إسبانيا في نصوص هذه الرحلات كبلاد إسلامية تم احتلالها من قبل "النصارى الكفار"، وبذلك فهي "أرض كفر" في "مقابل بر الإسلام"⁽⁴⁾، لذا كثيرا ما أتبعنا بالدعوات بالقول "أعادها الله دار إسلام"⁽⁵⁾، فالغساني والمكناسي والغزال دائما ما يكررون هذه الجملة حتى في الأراضي غير التابعة جغرافيا لأوروبا لكن تحت حكمها، مثل ما كان عليه الأمر حول مدينتي سبتة ومليلية⁽⁶⁾، ومنطقيا -حسب هذه النظرة للعالم- ما دامت هذه المدن تخضع لحكم غير إسلامي فهي أرض كفر داعين الله أن تعود "دار إسلام"، وعليه فقد كان الدين هو الاختلاف الحقيقي دون إعطاء أهمية للبلاد المرتحل إليه أو القانون الذي يحكمه، أما الذين رفضوا الإسلام فهم "كفرة" بغض النظر عن تواجدهم الجغرافي.

وجعل الغساني المعيار الديني مقياسا لتمييز البلدان ورؤية الآخر لدى المسلم، فبينما يشير إلى بلاد العدو وهي الأندلس أنها أرض محتلة راجيا الله أن تعود دارا للإسلام، ووضع حدا فاصلا بين هذه العدو إضافة إلى البلاد التركية، وأن الحد الفاصل بينها وبين بقية الدول الأوروبية هو كفر هذه الأخيرة وعدم دخولها في الإسلام، وذلك رغم تقاربها ومجاورتها الجغرافية مع بقية البلدان الأوروبية واصفا إياهم بالكفرة يقول مثلا: «... وإلا فبلاد العدو ليست بجزيرة لاتصال برها وامتداده إلى البلاد التركية وغيرها من بلاد الكفرة مثلا فلانض وبلاد إيطالية ولامانية...»⁽⁷⁾، وهكذا كان الكافر مساويا للنصراني من ناحية النظرة والصورة، والأقطار التي تتكون منها أوروبا طبقا لتصورها (الرحلات المغربية) الخاص كانت بالنسبة للمسلمين أراضي للكفرة⁽⁸⁾.

(1) سورة الواقعة، الآية 79.

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 97.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 126.

(4) محمد بن عبد الوهاب الغساني، رحلة الوزير إلى فكاك الأسير، مصدر سابق، ص 50، أحمد بن المهدي الغزال، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، مصدر سابق، ص 180.

(5) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 69.

(6) المصدر نفسه، ص 52، أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 42.

(7) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 49.

(8) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 99.

ووفقا لهذه الصورة يعتبر الأوروبي مختلفا لا لأنه ينتمي إلى بلد آخر أو لحاكم آخر، أو لأنه يعيش في مكان آخر أو يتحدث بلغة أخرى، ولكنه مختلف لأنه يتبع ديانة أخرى، فالمتخيل الإسلامي-ومنه المغاربي طبعاً-طيلة العصر الوسيط وامتدادا إلى العصر الحديث (إلى غاية نهاية القرن الثامن عشر) يستمد من المرجعية الدينية أساس النظر إلى العالم والمجتمع والإنسان⁽¹⁾.

إن هذه الصيغ في التعبير عن الآخر المختلف دينيا "كافر"، "عدو الله" "مشرك" وبدرجة أقل "نصراني" بالإضافة إلى الدعاء على الآخر الأوروبي، كانت أكثر ظهورا في الرحلات المغربية خلال القرن الثامن عشر مقارنة بنظيراتها في القرن السابع عشر، وهذا ربما مما يستغرب منه رغم أن نص رحلة الحجري هو في الأساس نص جدل ديني، ورغم خلفيته وتكوينه وأصله المورسيكي الذي كان قريب عهد بل شاهد عيان على التعصب الديني في إسبانيا إلا أنه أظهر نوعا من عدم التعصب الديني في رؤيته ولا حتى ألفاظه المعبرة عن الآخر، فنجدته يسمي الفرنسي إفرنجي والهولندي فلمنكي، والإسباني إسباني، بدون خلفية دينية أما حين يجمع فيقول بلاد النصراني، إلا في ما ندر، وحتى السلاطين والملوك يسميهم بمناصبهم لا بخلفية سياسية دينية مثل ألفاظ "الطاغية" وما شابه، حتى حين ذكر الملك الإسباني الذي تسبب في قهر الأندلسيين وطردهم لم ترد عنه تسميات ونعوت مشابهة، ونرجح أن ذلك يعود إلى عدة تفسيرات نعتقد أنها ساهمت في هذا التمايز، أولها هو تكوين الحجري الأدبي وعدم تعود فكره وقلمه على هكذا مصطلحات، كما أن طبيعة نص الحجري كنص جدل ديني يمنعه من استخدام ألفاظ أكثر عدائية تجاه الآخر والاكتفاء بالردود النقلية والعقلية في طرحه لحججه، أما الغساني في نهاية القرن السابع عشر فإن ارتحاله والمغرب في موقف قوة من الناحية السياسية والعسكرية جعل نصه أكثر بعدا عن هكذا مصطلحات، عكس الغزال والمكناسي في القرن الثامن عشر الذين أحسا في كثير من المواقف (كما سنرى في ما يأتي من البحث) تفوق الآخر الأوروبي النصراني، ما جعلهم يركنون إلى الدين في الرد عليه.

ولما كان أساس النظرة للآخر تعود في الأساس إلى الاختلاف الديني نتساءل ما هي الصورة التي أنتجها رحالتنا المغاربة عن دين الآخر؟ وكيف نظر الآخر الأوروبي للإسلام والمسلمين؟

(1) محمد نور الدين أفاية، الغرب المتخيل: صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000، ص 101.

ثانيا: دين الآخر في نصوص الرحالة المغاربة

لما كانت أوروبا في جل الرحلات المغاربية يُعبر عنها بأوروبا النصرانية، والأوروبي هو "نصراني"، فإن معرفة دين النصراني ونظرة رحالتنا المسلمين المغاربة لهذا الدين من الناحية العقائدية وكذا الممارسات الدينية كان لها ظهور في عدة صور، ونشير أن درجات التفاوت كانت جلية في بروز هذه الصور بين مختلف هذه الرحلات، وهذا يرجع بالأساس إلى زمن الرحلة وظروفها وتكوين الرحالة، وعلى هذا الأساس سوف تظهر في نص رحلة الحجري مطلع القرن السابع عشر معرفة معمقة بدين النصراني، نظرا لمعرفته بدين الآخر ولغته مقارنة مع بقية رحالي هذه الفترة.

1- الجدل الديني ومعرفة دين الآخر

كان الجدل الديني أو الردود الكلامية والمناظرات بين هؤلاء الرحالة ونظرائهم من الأوروبيين، أحد أهم الأساليب التي صوّر فيها رحالتنا المغاربة دين الآخر ومدى معرفتهم به، فالاختلاف الذي استوجب التناظر بين الطرفين المسلم والنصراني خلال القرن 16 و17 و18م لم يكن يبدو آتئذ بمظهر الاختلاف في درجة التمدن والتقدم العسكري والتقني التكنولوجي والعلمي كما كان عليه الشأن في القرن التاسع عشر؛ بل كان يبدو جليا في تباينها الديني العقائدي، فهذا التناظر هو تعبير عن صراع أعمق وأشمل بين ما كان يسميه فقهاء الإسلام بـ"دار الكفر" أو "دار الحرب" من جهة، و"دار الإسلام" من جهة أخرى، ولما كانت المشاكل والنزاعات الدنيوية بين الجماعات والحضارات المختلفة تعبر عن ذاتها خلال هذا العصر في صورة نزاعات دينية ثقافية، فإن المناظرة الدينية كان ينظر إليها الطرفان بوصفها أداة للمواجهة ضد "الآخر"، لا تقل سلطة وتأثيرا عن أي أداة مواجهة أخرى.

ونشير بداية أن جدالات الرحالة المغاربة في أوروبا كانت مع اليهود كما مع النصراني لكن الجدل مع النصراني أخذ القسط الأكبر في هذه الرحلات، فإن حضر الجدل الديني مع اليهود ولو بشكل موجز في رحلة الحجري فإنها غابت عن نصوص بقية الرحالة، لذا سوف يكون تركيز دراستنا عن الجدل النصراني الإسلامي وموقف الرحالة من "دين النصراني".

وعليه فقد حاول جل الرحالة المغاربة الذين توجهوا إلى أوروبا طوال الفترة المدروسة اتباع أسلوب الجدل الديني والردود الكلامية في لقاءهم مع الآخر الأوروبي "النصراني"، لكن عامل اللغة كان عائقا أمام هؤلاء الرحالة، إذ استلزمت محاورة ومعرفة هذا "الآخر النصراني" ودينه من طرف المسلم اطلاعا على كتاباته وتمكنا من اللغات التي تؤلف بها⁽¹⁾، فإن كان الحجري لم يجد صعوبة في اتخاذ هذا الأسلوب؛ نظرا لمعرفته بعدة لغات أوروبية وإتقانه لها

(1) المصدر نفسه، ص109.

سواء إسبانية أو فرنسية وحتى برتغالية⁽¹⁾، فإن الرحالة الذين أتوا بعده خانتهم الدراية باللغات الأوروبية، ورغم ذلك حاولوا قدر جهدهم الدخول في هذه الجدالات، فاستغل الغساني وجود راهب يتقن اللغة العربية وأصله من الشام ودخل معه في جدال حول أصل المسيح⁽²⁾، بينما لجأ المكناسي في القرن الثامن عشر تارة للاعتماد على الترجمان من أجل مجادلة أحد الرهبان، وتارة أخرى مجادلة راهب نصراني أصله من بلاد الشام يتقن العربية وهو ترجمان للملك الإسباني⁽³⁾.

فكان ميدان الجدل الديني من أفضل المداخل إلى معرفة حقيقة الدينين، الدين المدافع عنه والدين المهاجم، وتبيين خصائصهما الأساسية، ذلك أن المجال مضطر بطبيعة هذا الجدل إلى التركيز على مميزات كل دين الإيجابية منها والسلبية في نظرة كل طرف إلى دين الآخر، لغاية الجدل قد يؤدي إلى تشويهه أو السكوت-عن قصد أو عن غير قصد-عن مزاياه من وجهة نظر أصحابه⁽⁴⁾، وعلى هذا كان الغرض من الجدل الديني هو دحض عقائد النصرانية، وكثيرا ما يكون موجها إلى المسلمين بالدرجة الأولى لثبيت عقيدتهم وتحذيرهم من ضلال النصارى وتضليلهم، وإن احتوى على الدعوة إلى اعتناق الإسلام والفروق عن النصرانية⁽⁵⁾، وقد حملت رحلة الحجري مطلع القرن السابع عشر هذا التوجه، باعتبار أنه موريسكي مسلم عايش "حالة الصدام العنيف بين النصرانية والإسلام"، أو بين المسلمين والنصارى، وكان هدف الحجري هو إرسال رسالة لأهله من المرويسكيين على الخصوص بأحقية الدين الإسلامي وضلال معتقدات النصرانية، فذ: «وذكرتُ هذا كله لتعلموا ما بين هذه العبادة (النصرانية) وعبادة المسلمين، ولنشكروا الله على ما أنعم به علينا باعتقاد الحق، وطهارة الجسد والملبس والجامع الطاهر النقي من الأوثان لأنها من أعظم النعم...»⁽⁶⁾، ونشير أن هؤلاء الرحالة لم يهتموا كثيرا بعلاقة الأوروبيين بدينهم "النصراني" أو مدى حضوره في حياتهم وتأثيره عليها، بل كان توجههم لنقد الأسس والقواعد التي قامت على أساسها عقائدهم وشعائريهم.

(1) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 113.

(2) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 139.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 122.

(4) عبد المجيد الشرقي، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/العاشر، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، تونس، الجزائر، 1986، ص 17.

(5) المرجع نفسه، ص 13.

(6) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 94-95.

2- في العقائد النصرانية

شملت المناظرات الدينية للرحالة المغاربة المتوجهين إلى أوروبا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر على القضايا الخلافية المعروفة وأبرزها:

- المرجعية الدينية للنصارى وتحريف الكتاب المقدس

ففي إطار نقض أسس الطرف المقابل خلصت المجادلة التي وضع النصارى المسلمون قواعدها في تأكيدهم على أن النصارى لم يتبعوا دين المسيح الصحيح⁽¹⁾، وما اختلاف طوائفهم وجماعاتهم إلا تأكيد لذلك، وعبر الحجري عنها بقوله: «...ولما التقيت بالقاضي كان يشكر دينه، حتى قال لي مرارا يا فلان رأيت أنه يليق بك ترجع نصرانيا، قلت له على أي مذهب من مذاهب النصارى؟ قال: ليس لنا إلا مذهب واحد، قلت له: لو كان يحبي الله نصرانيا من زمن سيدنا عيسى عليه السلام ثم يحبي نصرانيا من كل قرن من القرون الماضية وجميعها ست عشر قرنا، فكل واحد يقول عن غيره: أنهم كفار، ولما يرى من الزيادة والنقصان عند غيره في الدين...»⁽²⁾، إذ الإنجيل بقي على أيديهم تركيب بشري صرف⁽³⁾.

أي أن النصارى خلقوا هوة سحيقة بين النصوص المقدسة وبين ما يعتقدونه، فضلا عن أن هذه النصوص تعرضت للتحريف، فتطرق الحجري إلى مسألة تدخل الكنيسة في تحريف الأحكام الواردة في الإنجيل، وأن هذا الأخير ليس مما نزل على عيسى عليه السلام، حيث يقول: «...قلت: دينكم بأنه مفتوح على الزيادة والنقصان، لأن كل باب (البابا) له أمر عندكم ليزيد وينقص ما يظهر له في الدين... قلت: ليس أحكامكم وشرعكم مأخوذا من الإنجيل، إنما شرعكم على مذهب الجحوس الذين كانوا برومة، وكتب شريعتكم مترجمة من كتبهم...»⁽⁴⁾.

والحجري لا يكتفي بالتنويه والإشارة للزيادة والنقصان في الأناجيل المختلفة، بل نراه يُدعم رده بذكر أمثلة من الأحكام التي أدخلها الباباوات على المسيحية، وقد عددها صاحب الرحلة⁽⁵⁾، وهدفه من ذلك التشكيك فيما جاء بهذه الأناجيل المتعددة والتناقض الموجود بينها، مما يؤكد فعلا عن سعة اطلاعه على المسيحية وتاريخها.

(1) حسام الدين شاشية، «الجدل الديني من خلال كتاب "ناصر الدين على القوم الكافرين"»، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2015، ص11.

(2) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 91-92.

(3) عبد المجيد الشرفي، مرجع سابق، ص193.

(4) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص92.

(5) المصدر نفسه، ص92-97.

وإن كان الرحالة المغاربة الذين أتوا بعد الحجري أقل اطلاعا منه مباشرة على هذه الكتب بما فيها الإنجيل سواء في لغتها الأصلية أو مترجمة، إلا أنها لم تغيب هذا الاتهام في تحريف كتب الأناجيل المسيحية، إذ ينظر الغساني إلى المعتقدات الدينية في أوروبا على أنها معتقدات مزورة محرفة عن أصل الدين المسيحي، وأن هذا التحريف تنزعه الكنيسة البابوية: «وسبب تصميم هؤلاء الكفرة أخزاهم الله على اعتقادهم الفاسد هو اتباعهم للبابا الذي يدين لهم الأديان، ويشرع لهم الشرائع، وهو ناهج في ذلك منهج أهل الزيغ والضلال من المتقدمين مثل بولس الذي روى لهم ما بيدهم من الأناجيل المفتعلة على لسان أربعة زاعمين أنهم من الحوارين وحاشاهم من ذلك، وهم يوحنا ومرقس ولوقا ومتي... وروى لهم هذه الأناجيل على حسب وفق ما أراد (بولس) هذه الأناجيل والعياذ بالله، وعلى سننه الضال هم مارون...»⁽¹⁾، «...ولم يزالوا من ذلك العهد يحدثون في أديانهم واعتقاداتهم الفاسدة وصلاتهم ما يحدثه لهم البابا الذي برومة ألحقه الله بأكابر قومه»⁽²⁾، وفي تأكيد للدور البشري المحدد لعملية التحريف التي طالت عقائدهم.

ومثل ما سبقه بقية نصوص الرحلات حمل نص رحلة المكناسي في نهاية القرن الثامن عشر التشكيك في التعاليم الدينية التي يؤمن بها النصارى في أوروبا أنها محرفة من وضع البابا في روما: «رومة محط رجال الكفرة وزعماء الظلال، الذين أضلوهم وأوهموهم أنهم لهم من عذاب الله حفرة...»⁽³⁾، فالدين المتبع في أوروبا هو من ضلالات البابا وأتباعه، وأن المسيح منهم براء.

- أصل المسيح ومسألة الخلاص والصلب:

كانت مسألة أصل المسيح والفداء والصلب⁽⁴⁾ من المكونات الأساسية للمنظومة اللاهوتية المسيحية⁽⁵⁾ من القضايا التي شغلت الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، وعمل الرحالة المغاربة على تبين خطأ وزيف المعتقدات النصرانية في هذا الباب والرد عليها بحجج عقلية وغالبا ما أفحمت مجاديلهم النصارى؛ كما يؤكد ذلك الحجري في جل محاوراته، حيث يقول: «...واشتغل بمدح دينه (القيسيس) إلى أن قال: أن سيدنا عيسى عليه السلام كان ابن الله وابن إنسان وأنه مات ليخلص الذنب الأول...»⁽⁶⁾، فجاء رد الحجري حول هذه المسألة ردا ارتكز فيه على أدلة

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 140.

(2) المصدر نفسه، ص 60.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، ص 137-138.

(4) ارتبط الاعتقاد بأن تعرض عيسى للصلب كان رغبة منه في فداء الجنس البشري من الخطيئة التي ارتكبها آدم في حق الله بأكله من الشجرة التي نهي عنها، بالاعتقاد بألوهيته وفي علاقته الفريدة مع الله أنظر: عبد المجيد الشرفي، مرجع سابق، ص 377.

(5) حسام الدين شاشية، مرجع سابق، ص 09.

(6) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 80.

عقلية لا قرآنية: «... قلت له: على هذا القياس كان سيدنا عيسى يحتاج أن يكون له ولد مثله وابنه يكون له ابن آخر، وتكثر الآلهات إلى ما لا نهاية، قلت ماذا تقول؟ فبهت...»⁽¹⁾.

وتعود هذه المسألة الجدلية لتظهر في نص الغساني، فحين لقائه ببعض الرهبان من البلاد العربية في إسبانيا: «...قلت له: ما تقل في المسيح؟ فقال إنه من الله، فقلت له: من هذه إن قلت أنه كالبعض من الكل جزأته، والباري جل جلاله لا يتجزأ، وإن قلت أنه كالولد من الوالد أوجبت ثانيا من الأولاد وثالثا ورابعا إلى ما لا نهاية له، وإن قلت على سبيل الاستحالة أوجبت فسادا، والباري جل جلاله لا يستحيل ولا ينتقل من حال إلى حال، فلم يبق إلا أن يكون على سبيل الخلق من الخالق وهو الذي لا شك فيه، فصمم الكافر أخزاه الله على ما هو عليه اعتقادهم واعتقاد البابا دمرهم الله تعالى في الاستحالة، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا»⁽²⁾، فظهر الغساني مستهجننا من الآخر واعتقاداته واعتبرها مجانبة للصواب: «...وتكلمنا معهم في أمور ما يدعونه من الدعوة في المسيح، تعالى الله على قولهم، فوجدناهم أفسد الناس وأكثرهم تصميما»⁽³⁾.

ولا يختلف المكناسي في القرن الثامن عشر عن سابقيه من الرحالة، وإن كان اعتماده على حجج عقلية من القرآن، فاعتبر أن ما يقرؤه النصارى في دينهم هو "كفريات" خاصة ما تعلق بصور الصليب يقول: «...فالتفت في إحدى الكنائس فنظرت الصليب عليه صورة نبي الله عيسى عليه السلام في زعمهم الفاسد دمرهم الله، فلم أملك نفسي أن قلت له هذا محض كذب وافتراء لم يقع بنبي الله شيء من هذه المثلة بل منعه الله تعالى منهم ورفعهم إليه، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، فأخذ في الجدال والتصميم على الباطل فخشيت أن أجاريه في الكلام لا يطلعني على أحوال المسجد المذكور...»⁽⁴⁾، لذا يخرج المكناسي بنتيجة مفادها: «...حاصله كل من لهم من التيقض وحدة النظر في الدنيا هم على خلافه في أمور الدين...»⁽⁵⁾.

فالصورة المرتسمة في نصوص هذه الرحلات لا تختلف عن نظرة إسلامية عامة في تصورها للنصرانية وإلى الآخر عموما في هذه المرحلة من تطور الرؤية الإسلامية إلى الذات وإلى العالم خضعت لمسبق كثيف الدلالات تمثل في اتخاذ الإسلام كمنظومة شاملة المعيار المحدد للإدراك والوعي والتقييم، فالمناظر المسلم لا يستسيغ وجود علاقة أنطولوجية وجودية بين الله والإنسان، والإيمان بأن يكون أحد إلهها وإنسانا في نفس الوقت هو عين الشرك، إذ استند الرحالة

(1) المصدر نفسه، ص 90.

(2) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 139-140.

(3) المصدر نفسه، ص 141.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 60.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 202-203. محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 115-116،

المغاربة كسابقيهم من أصحاب الردود الكلامية إلى أسلوب عقلي في تأكيدهم أن عقائد النصارى "لا معقولة" إذ يصعب على العقل أن يتقبل ربوبية إنسان أو أن يشترك إنسان مع الله في الربوبية⁽¹⁾.

3- الشعائر الدينية النصرانية:

وإذا كان إثبات التحريف الحاصل في الكتب المقدسة عند النصارى ضربة قوية لأسس الاعتقاد المسيحي فإن إثبات هذا التحريف سيؤدي بالضرورة إلى وضع عبادات النصارى موضع مساءلة وتشكيك⁽²⁾، وعلى هذا الأساس وجه الرحالة المغاربة-مثلما درج عليه أصحاب الردود المسلمين-نقدهم إلى عبادات النصارى، ووضعوها موضع مساءلة وتشكيك، وقد أطنب الحجري في ذلك، وبدرجة أقل الغساني والمكناسي في عرض عبادات النصارى وبيان فسادها، وكان الهدف من ذلك كما يعبر عنه الحجري هو إرسال رسالة للمسلمين عامة ولأهله من الموريسكيين على الخصوص بأحقية الدين الإسلامي وضلال معتقدات النصرانية، فيقول: «وذكرتُ هذا كله لتعلموا ما بين هذه العبادة (النصرانية) وعبادة المسلمين، ولنشكروا الله على ما أنعم به علينا باعتقاد الحق، وطهارة الجسد والملبس والجامع الطاهر النقي من الأوثان لأنها من أعظم النعم...»⁽³⁾.

وكجزء من المنظومة الإسلامية دخل رحالتنا في سجلات كلامية مع النصارى وتولوا الرد عليهم (وخاصة الحجري) نقدا للممارسات الدينية المسيحية، وليس لهذه الظاهرة-حسب الشرقي-سوى تفسير واحد؛ وهو أن أصحاب الردود من المسلمين قاسوا مبدئيا طرق العبادة عند أتباع الديانات الكتابية على طرق العبادة في الإسلام، وكانوا واثقين أن تعبد عيسى لا يمكن أن يختلف في شيء من تعبد محمد، وانتهوا تبعا لذلك إلى أن النصارى قد حادوا عن سنة المسيح⁽⁴⁾.

ونشير في البداية أننا لا نتوخى في هذا الجزء من البحث تعقب كل الطقوس والممارسات الدينية النصرانية التي وردت في نصوص هذه الرحلات بل الوقوف على أهمها فقط مثل الطهارة والصوم والصلاة وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير وغيرها.

- النظافة والطهارة: كانت الطهارة من أهم المسائل التي أولاها الإسلام والمسلمين مكانة مميزة، لذا فقد أعاب الرحالة المسلمون على النصارى عدم قيامهم بفروض الغسل والوضوء كما يفعلون هم (أي المسلمين)، لذلك كانت ملاحظات الرحالة لا تغفل عن ذكر النظافة في نصوصهم، فذكر الحجري عن النصارى: «...وكذلك النصارى لا

(1) محمد نور الدين أفاية، مرجع سابق، ص 109.

(2) عبد المجيد الشرقي، مرجع سابق، ص 443.

(3) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق ص 94-95.

(4) عبد المجيد الشرقي، مرجع سابق، ص 433-434.

يقربون الماء أبدا إلا مرة في العمر، وهذا الغسل عند دخولهم دين النصارى المسمى عندهم بالمعمودان، وكم من مسلم في الدنيا من يجب عليه الغسل يقوم من فراشه عند السحر في أيام البرد ولا يجد سبيلا لتسخين الماء ويغتسل به باردا لئلا تفوته صلاة الصبح»⁽¹⁾.

وظهرت كذلك صورة الآخر النصراني(الأوروبي) غير الطاهر، النجس في الجسد والملبس والمكان: «...ولا يتوضئ أحد منهم ولا يغتسل أبدا، بل هم ناجسون ظاهرا وباطنا، أما الباطن باعتقادهم الشرك، والباطل في الجانب الأعلى وفي أجسامهم وما يلبسون...»⁽²⁾.

حتى ذكر الحجري تعجب واستغرب الأوروبيين من نظافة المسلمين الذين يصادفونهم في حديثه مع قسيس في فرنسا يقول: «...قال لي (القسيس): لقيت في البندقية بعضا من أهل دينكم(المسلمين)، ورأيتهم يعملون شيئا كأنه عبث لا أصل له في الدين، قلت: ماذا رأيت منهم؟ قال: إذا نزلت نجاسة أو بول في حوائجهم يغسلونه بماء، ذلك وسألتهم على السبب الموجب لغسله فلم أجد عندهم خبر، قلت: السبب في ذلك أن كل مسلم هو عليه فرض أن يصلي خمس صلوات...ومن فرائض الصلاة أن يكون طاهرا في جسده ولباسه، لأنه يناجي ربه، وينبغي أن يكون في أفضل حالة»⁽³⁾.

ثم إن الغساني يرى أن النظافة من الدين، وأن الدين الإسلامي ركز عليها جدا، بل جعل لها باب سمي "باب الطهارة"، لذا تحدث عن إعجاب الإسبان ذوو الأصل الأندلسي من مسألة الطهارة في الإسلام إذ يقول: «...ولقد كانوا يسألون عن دين الإسلام وعن أشياء منه، فحين يسمعون ما نجيبهم به عنه من الديانات وأحكام الطهارة التي بني الإسلام عليها وغير ذلك، يعجبهم ما يسمعون وينصتون إليه ويشكرونه بمحضر النصارى...»⁽⁴⁾، وبالتالي يعطي الغساني صورة الأوروبي البعيد عن النظافة والطهارة مقارنة بما للمسلمين، وهو بذلك يتشابه كثيرا لما قاله الحجري قبله. هذا ويظهر المكناسي موقف آخر عن عدم اهتمام الأوروبيين بالنظافة، فحين زار منار إحدى قصور اشبيلية يقول: «...إلا أن الكفار الساكنين بالصومعة المذكورة قد أفسدوا داخلها بالبول والقذرات حتى لا يمكن للإنسان أن يطلع إلا ممسكا أنفه من شدة النتن، طهر الله منهم البلاد، وجعلهم فينا وغنيمة للعباد، فإننا لله وإنا إليه راجعون...»⁽⁵⁾، فعدم طهر الطاهر في تصور الرحالة ينم عن عدم طهر الباطن، بل إن هذا الأخير مسؤول عن الأول⁽¹⁾.

(1) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 111-112.

(2) المصدر نفسه، ص 94.

(3) المصدر نفسه، ص 102-103.

(4) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 73.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 39.

- **الصوم:** وكان الصوم من أكثر العبادات تعبيرا عن الاختلاف بين الدينين المسيحي والإسلامي، لذا نجد حوله مجادلات كثيرة بين الطرفين ومن ذلك الحوار بين الحجري وأحد القضاة بباريس: «...قال لي: هل عندكم صيام في دينكم فرض؟ قلت له: عندنا شهر قمري في العام، قال لي: كيف هو صيامكم؟ قلت له نمسك عن الأكل والشرب من انشقاق الفجر إلى غروب الشمس...قلت له: كيف هو صيامكم... قال: ...في أوله نأكل أقل طعاما مما أكلنا في نصف النهار...»⁽²⁾.

وهنا تظهر الغيرية والاختلاف في طريقة ممارسة الصوم بين النصارى والمسلمين، ما جعل الحجري يتساءل عن جدوى الصيام عند النصارى مستحضرا غايته عند المسلمين، هذه الغاية التي لا نجد لها حساب تصور الحجري عند الأوروبيين النصارى: «قلت له: ما السر في الصوم والمراد به؟ لأننا في ديننا هو لنرد النفس عن الشهوات ونزيل من قوتها بالصوم، قال لي ونحن كذلك، قلت له: بل تزيدون في قوتكم بهذا الصيام...» واستعمل الحجري في مخاطبة مخاطبه حجج عقلية وطبية استند فيها لأقوال أطباء أوروبيين ومسلمين⁽³⁾.

ورغم عدم اعتماد بقية الرحالة المغاربة على الجدل الديني لانتفاء أهم شروطه وهو عامل اللغة، فإن نظرهم لطريقة عبادة الآخر النصراني تشابه مع الصورة التي رأيناها عند الحجري، فالغساني يقارن بطريقة ضمنية غير مباشرة ما هو موجود في معتقد النصارى بما هو موجود في الدين الإسلامي يقول مثلا: «وهذا الصوم الذي يصومونه ليس هو بإمساك عن أكل أو شرب أو جماع»⁽⁴⁾.

أما موقف المكناسي فكان التشكيك وعدم تصديق معتقداتهم الدينية، فيصف صومهم "صومهم الفاسد" مبينا طريقة هذا الصوم والتي وقف منها موقف المتعجب، فهو صوم يختلف تماما عما هو موجود في الإسلام: «وعامتهم يأكلون السمك والخضر والبيض على الشرط المتقدم ويشرب من الخمر ما شاء ويستعمل طابقوا (Tabaco) ويجمع ولو زانيا، ويستعمل طابقوا (أي يدخنون وهم صيام)»⁽⁵⁾، فكانت نظرة المكناسي إلى بعض هذه الطقوس الدينية مثل الصوم بناء أو انطلاقا من نظرتهم للدين والشعائر الإسلامية، لذا نراه يستغرب مثلا طريقة صوم النصارى الذين يأكلون فيه بعض أكلهم ويشربون الخمر ويجمعون نساءهم بل ويوزنون فيه، وهو ما استغربه وندد به صاحب الرحلة، لأن الصورة التي رآها تتناقض تماما مع مفهوم الصوم عنده.

(1) عبد النبي ذاكر، العين الساهرة: أقنعها وقناعاتها في الرحلة العربية، المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، المغرب، مارس 2000، ص31.

(2) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص64.

(3) المصدر نفسه، ص64.

(4) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص132.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق ص 111-112. محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 186-187.

- **دفن الموتى:** وشكلت طريقة دفن الموتى النصرى موقفا آخر ظهر فيه بالتأكيد الاختلاف في الطقوس الخاصة به عن تلك التي تعود عليها السفراء المغاربة كمسلمين وبعد أن يصفها الغزال بقوله: «وقد شاهدنا مواضع داخل الكنيسة ما أظن وصلها أحد من المسلمين قبلنا، وهي مواضع دفنهم يسمونها "بيت الموت" وهذا البيت فيه عدة بيوت فوق بعضها بعض، وقدر كل بيت ما يسع الميت مستلقي أو على جنبه، فهو كالقبور، غير أن أبواب كل بيت من هذه البيوت من جهة الرأس أو الرجلين، وبنائها كمن وضع صندوقا فوق صندوق مفتوح أحد الطرفين، فإذا مات احدهم حشروه فيه وأغلقوا عليه بالبنيان وكتبوا اسمه وصوروا فوقه صورة آدمي قد تلاشى لحمه ولم يبق إلا عظمه وسموا الصورة بالموت» لذا نجد يعقب في صيغة مفاضلة واستهجان: «وقد انفصلنا عنهم حامدين الله تعالى على نعمة الإسلام التي لا نعمة بعدها»⁽¹⁾.

- **شرب الخمر:** هذا وانتقد الحجري في جدالاته مع النصرى كثير من طقوس النصرى خاصة تلك التي لا تتوافق مع دينه، مثل شرب الخمر «...وقال لي: ما السبب حتى منعكم نبيكم الخمر؟ قلت: منعه الله لأن أفضل ما تكرم به على بني آدم هو العقل والذي يزيله هو الخمر»، ليجيبه القاضي الفرنسي: «حتى عندنا هو ممنوع أن يشرب الإنسان منه حتى يسكر...»، لكن الحجري يؤكد أنه حتى عند النصرى حرم عليهم شربه الخمر إلا أن النصرى عصوا حتى أمر دينهم الذي يتبعونه⁽²⁾.

- **أكل لحم الخنزير:** وكذلك الأمر في جدالهم مع الحجري في أكل لحم الخنزير: «ثم قال لي القاضي: ولحم الخنزير، لماذا هو ممنوع هندكم؟ قلت: لأنه نجس... وحتى في الإنجيل هو ممنوع، قالوا ليس بممنوع، ليين لهم الحجري موضع المنع في الإنجيل»⁽³⁾.

وفي جميع ما سبق من مواقف يؤكد الحجري بعدهم عن شريعة الإنجيل، وبالتالي شريعة عيسى. وأن كل ما يفعلونه هو "عكس دينهم"⁽⁴⁾.

وأما بقية الطقوس فهي حسب نظرة ابن عثمان وسلفه الغساني ليست حقيقة بل مزاعم، لذا كثرت عبارات "وزعموا"، "يزعمون"، "حسب زعمهم" "نوى الصوم في زعمه" كثيرا في الصفحات التي ذكر فيها المكناسي الواقع الديني هناك، أما عن ممارستهم الصلاة وبقية الممارسات والشعائر الدينية فهي عبارة عن كفريات يشرعها البابا⁽⁵⁾،

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 49.

(2) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 64-65.

(3) المصدر نفسه، ص 66-67.

(4) المصدر نفسه، ص 67.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 111.

ليجمل الكناسي فيها القول: «...ولهم أشياء متعددة ومعتقدات فاسدات أهلك الله جميعهم»⁽¹⁾، ومن خلال طرح الكناسي فدين الآخر ضال، فيما أن تردد المسيحيين على الكنائس في أوروبا إنما هو "تجديد لكفرهم وفجورهم"⁽²⁾، وطقوسهم مجرد مزاعم لا أساس لها، وحتى التعليم الديني إنما هو تعليم للكفر حسب⁽³⁾، هذا ويلمح إلى تبرئة الدين المسيحي منها، بل إن ما أضاف إليها البابا من شرائع هي التي آلت بهم للانحراف عن الدين المسيحي الصحيح والابتعاد عن الأخلاق⁽⁴⁾.

ولا غرابة في هذه الصور ما دام هؤلاء الرحالة ينطلقون من خلفية ثابتة في كون معتقد الآخر مزيف ومحرّف ودين النصاري «دين معوج»⁽⁵⁾، وبالتالي فإن كثيرا من ممارساتهم وشعائهم ما هي إلا عمل بشري، ويقدم الإسلام على أنه الدين الصحيح، لذا فقد: «...اغتر هؤلاء الضلال بما عليه مصممون من الاعتقاد الفاسد البين والتنكب عن النهج القويم والحجة البيضاء ودلاهم الشيطان بغرور أصلهم عن سواء السبيل، فلقد صمموا على الكفر...»⁽⁶⁾. ووفقا لهذه النظرة التي يظهر فيها دين "الأنا" متعال عن أي شبهة ودين "الآخر" دين مشوه محرّف لا يلبث أن يقف أمام حجج منتقديه، ونجد الحجري أفضل من يعبر عن هذه النظرة، فكثيرا ما نجده مؤكدا أحقية دينه، من خلال حرصه على تبيان انتصاراته على مناظريه النصاري الذين كانوا يصابون بالذهول والإحراج أمام سعة علمه وقوة حجته، فكان غالبا ما يختم جداله معهم بعبارات مثل: «فبهت التاجر»⁽⁷⁾، «فخرص الراهب وبهت»⁽⁸⁾، «ففرح القاضي وأظهر لي صحبة ومودة ونفعني»⁽⁹⁾، «فتوقف القسيس بل الراهب عن الجواب»⁽¹⁰⁾، فالحجري نسج خطابا أحادي النظر، أكد فيه أحقية دينه وبطلان ما يعتقده الآخر، واستند السفير المغربي لإثبات أحقية دينه إلى قاعدة أخرى طالما ما اعتمدها النصارى المسلمون بتأكيدهم بأن انتشار الإسلام ودخول الناس فيه أفواجا من جميع الألوان والأجناس وغلبة الدولة التي أسسها كل ذلك دليل على صحة هذا الدين وأحقيقته بالاتباع⁽¹¹⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 121.

(2) محمد بن عثمان الكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 167.

(3) محمد بن عثمان الكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 127.

(4) المصدر نفسه، ص 110.

(5) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 187.

(6) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 139.

(7) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 80.

(8) المصدر نفسه، ص 81.

(9) المصدر نفسه، ص 82.

(10) المصدر نفسه، ص 89.

(11) عبد المجيد الشرفي، مرجع سابق، ص 193.

وما يجب الإشارة إليه ختاماً أن الرحالة المغاربة لم تكن نظرتهم لدين النصارى في أوروبا تهدف لاكتشاف هذه الصورة، بل جل الرحالة كانوا مزودين بزيادة معرفي هائل وصورة نمطية مسبقة عن "النصارى" ودينهم سواء في عقائدهم أو عاداتهم وطقوسهم الدينية، فالنصراني لم يكن غريباً على هؤلاء الرحالة، بل جل ما كان يحفزهم للدخول في هذا الصراع هو محافظتهم على تقاليد إسلامية في الرد على الآخر النصراني، بهدف الدفاع عن الإسلام والخط من النصرانية المزيفة، وما يرجح فعلاً أن ردود الرحالة المغاربة ونظرتهم للنصرانية كانت موازية ومطابقة للردود الإسلامية السابقة رغم تغير الزمان والمكان، خاصة وأن مواضيع الجدل الديني قد تحدت بصفة شبه نهائية منذ العصر الوسيط إلى غاية منتصف القرن التاسع عشر واستقرت أغراضه الكبرى وسماته المميزة⁽¹⁾.

(1) المرجع نفسه، ص 15.

ثالثا: الرحالون المغاربة يكشفون فساد الكنيسة

1- الكنيسة والفساد الاجتماعي

تحمل الرحلات المغاربية إلى أوروبا كثيرا من الصور المعبرة عن الفساد الذي اعترى الكنيسة ورجالها طيلة العصر الحديث، فأمام التغيرات والإصلاحات الدينية في أوروبا، يبدو أن الكنيسة في إسبانيا خلال هذا العصر عملت جاهدة من أجل التمسك بنفوذها وأواسط المجتمع الإسباني، وتظهر إسبانيا في العصر الحديث باعتبارها "حامية الكاثوليكية" والسند الأقوى للسلطة الكنسية والبابوية في أوروبا، وهو الأمر الذي لاحظته السفير الغساني الذي يشير إلى ارتفاع عدد الرهبان والقساوسة في إسبانيا: «...ومن كثرة الفرايلية⁽¹⁾ والكليريكوش⁽²⁾ قلّ ما تجد دارا من ديار النصرى إلا وفرايلي (راهب) يتعهدا في كل يوم ليلقي على أهلها من الكفر ما يلقي...»، وازدادت قوة أتباع الكنيسة إلى درجة أن: «...لا يقدر أحد على الطعن في أحد من الفرايلية بوجه من الوجوه ولو شاهده على أقبح الحالات...»⁽³⁾، في صورة عن التمكين الذي كان لدى قادة وزعماء الطرق الدينية في أوروبا مستغلين نفوذهم الروحي والاجتماعي والسياسي، لدرجة لم يستطع أحد أن ينقدهم أو يبين مخالفتهم ومفاسهم ولو ظهرت للعيان، ثم يعطي الغساني انطباعه الديني تجاههم فيقول عن الرهبان القادة: «... فلقد ضلوا وأضلوا أحلى الله منهم الأرض وعمرها بدوام ذكره...»⁽⁴⁾.

هذه السطوة والمنعة رافقها فساد داخل مؤسسة الكنيسة، كان من مظاهرها تفرغ الرهبان لجمع المال والترف الهائل، فتحدث الغساني عن إقبال رجال الكنيسة على مظاهر الحياة، وتعول رؤساء هذه الفرق من الرهبان وتوجههم إلى غرض الدنيا، والتعويل على غيرهم في معيشتهم، فيقول: «...فمن الفرايلية من تجده جعل في يده تلك الخطة سببا وتحيلا على الدنيا وجمعها، فإن كانت له يد عن المخزن⁽⁵⁾ يقبض من وفر الحبس الآلاف زاعما أنها لمعاشه، ومنهم من جعل تلك الخطة سببا للاستراحة من تعب الدنيا ومشقتها وتكفيه الراحة، ومنهم من جعلها في يده درقة يستتر بها لتقيه وتمنعه من كلام الناس، فلا يقدر أحد أن يتكلم في أحد من الفرايلية بعب أو يلمزه بقبيح ولو شاهده

(1) "الفرايلية" من اللفظ الإسباني (frailes) أي الرهبان ومفرده فرايلي أي راهب.

(2) يقصد به "الكليريكوس" (Clerikos) التي تعني المؤمن الذي يمارس الشعائر، ويحتفل بالقداس باسم الكنيسة الكاثوليكية (القس، الراهب، الأسقف...) ومن هذه الكلمة ستشتق كلمتان أخريان في القرن السادس عشر وهما "Clergé" "Clerc" أي رجل الدين والأكليروسي، ويقصد به صاحب الرحلة رجال الدين.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 141-142.

(4) المصدر نفسه، ص 77.

(5) المخزن: مصطلح مغربي يعني يطلق على السلطة أو الحكومة.

وحقيقته...»⁽¹⁾، صحيح أن الغساني يظهر غير مستحسن لهذه الطرق على الأقل على المستوى الداخلي لها من حيث سيطرة أقلية هم الزعماء على الأغلبية وهم الرهبان الأتباع: « وقد جرّ بنا الحال إلى ذكر هذا»⁽²⁾، فكان مجرد الانتساب إلى الكنيسة والرهبنة ميزة كبيرة تمنح صاحبها الغنى المادي، والراحة النفسية والمعنوية، والسطوة والمهابة الاجتماعية.

وفي تأكيد لصورة هذا الفساد ظهرت الكنيسة وأتباعها في رحلة المكناسي خلال القرن الثامن عشر مستغلين لمختلف الطقوس الدينية لجمع المال، فيقول المكناسي متحدثا عن هذه الطقوس التي استحدثتها الكنيسة: «فتلك المدة التي أقمنا بمدريد يخرج هؤلاء الفرياليية بين العشائين ويوقدون عدة منارات يرفعونها على أعمدة ويحملون معهم صورة يزعمون أنها صورة السيدة مريم... ويرفعون أصواتهم في الأزقة بألحان مضمناها المسئلة مستشفعين بالصورة ويتصدق عليهم النصارى، وما رأيتهم أبطلوا عملهم ذلك مدة مقامنا، وكان ذلك في فصل الشتاء وشدة القر، ويظهرون مع ذلك خشوعا ووقارا، ورعدة واقشعرارا، وفاقا واضطرابا...»⁽³⁾. فالمكناسي يفسر هذه الطقوس الدينية في مدريد أن غايتها ليست دينية بحتة بل هدفهم من ذلك المسألة وجمع المال، وأن الرهبان: «جعلوا تلك الحرفة التي بأيديهم من إظهار الزهد وهم أشد الناس حرصا أحبولة نصبوها على هؤلاء الحمر الذين طبع الله على قلوبهم...»⁽⁴⁾.

ومن مظاهر فساد الكنيسة توجهها لاستغلال "صكوك الغفران" مقابل مبالغ مالية محددة، فأشار المكناسي إلى توجه الرهبان لشراء الإعفاءات من الفرائض الدينية من خلال "جعل" معين تجدد كل مناسبة وكل عام، واعتبر استعمال هذه الصكوك من الحيل والدسائس التي استعمل في الترف والغنى لرجال الكنيسة، فمثلا في الصيام: «...تجعل أوراق لا تعد ولا تحصى فيها إذن البابا في أكل ما ذكر، وهي موضوعة عند من هو معين لذلك من قبل البابا، فنجد النصارى كل واحد يدفع قدرا معلوما في ورقة يستبيح أكل ما ذكر، وتجد الفقير يتطلب ما يشتري به البولة ويجمع في ذلك مال كثير لا عد له موقوف على أن يصرفه الطاغية على المراكب البحرية، فانظر إلى ما هو عليه هذا البابا أخزاه الله من الحيل والدسائس، وفي كل سنة يعطي إذنا جديدا في البولة المذكورة، ولم يكنفي بإذن واحد وذلك منه حيلة على جمع المال المذكور...»⁽⁵⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 77.

(2) المصدر نفسه، ص 77.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 106-107.

(4) المصدر نفسه، ص 106.

(5) المصدر نفسه، ص 110.

ورغم نقل الغزال لنفس الممارسات إلا أنه ذكرها في إطارها الديني ولم يركز على خلفياتها وتأثيراتها الاجتماعية والاقتصادية على المجتمع الإسباني⁽¹⁾، حيث اكتفى بذكر صفة صكوك الغفران دون إبداء أي رد فعل تجاهها «...إلا من أراد أن يغفر له ولا يصل إليه إلا بعد بذل المال الذي له بال...»⁽²⁾.

فيما نجد الغساني يقدم نقدا صريحا لهذه الظاهرة وانعكاساتها الاجتماعية خاصة على الفئات الفقيرة من المجتمع الإسباني: «...وقد أحدث لهم أيضا (البابا) فيما أحله لهم أكل بيض الدجاج في أيام الصوم بعد أن يأخذ الإذن من الفريالية ويعطي على ذلك جعلاً معلوما قدر ثمن ريال عن كل نفس صغيرة أو كبيرة، فيتحصل من ذلك مال كثير للطاغية فيه الثلث يصرفه على سفنه البحرية...»⁽³⁾، وقد استهجن الغساني مثل هكذا ممارسات ولاحظ تأثيرها على المجتمع الإسباني، إذ أثقلت مثل هذه الممارسات كاهل السكان: «...فتجد الرجل المسكين الذي لا يملك درهما يتطلب في الأسواق ليجمع ما يشتري به البولية...»⁽⁴⁾.

2- الفساد الأخلاقي لرجال الكنيسة

هذا ووقف الرحالة المغاربة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر على مظاهر الانحراف والفساد التي اعترت الكنيسة وأتباعها من الناحية الأخلاقية، وحملت هذه الصورة في طياتها نقدا ضمينا للعقائد الدينية النصرانية التي تحمل -حسب الرحالة- ممارسات الفساد الاجتماعي والانحلال الأخلاقي خاصة بعد ما ظهر في هؤلاء الرهبان: «من النقائص والخداع والأمور التي ينكرها العقل والطبع مع الدعة والراحة التي هم مجبولون عليها...»⁽⁵⁾، وكانت الممارسات الدينية التي تفرضها الكنيسة وبمارستها رجالها تعبر حسب الصورة التي نقلها الرحالة المغاربة عن أهم مظاهر الانحلال الخلقي، ومن ذلك:

- "الاعتراف بالذنب": انطلاقا من دينهم وبيئتهم الإسلامية التي تمنع لقاء الرجل مع المرأة إلا في إطارها الشرعي، رأى الرحالة المغاربة في طقس "الاعتراف بالذنب" عند النصارى الذي كان من طقوس التعبد في المذهب الكاثوليكي النصراني أنه تعبير عن فساد أخلاقي أباحت الكنيسة واستغله رجالها، ففي حوار الحجري مع قس في فرنسا انتقد فيه السفير المغربي مثل هذه الممارسات: «قلت له: أنتم القسيسون تزورون النساء وتستخلون بهن وهن يحسن إليكم بالصدقات فتقول لك نفسك: سر إلى فلانة، إنها من الصالحات، واذكر شيئا من ذكر الله، وألهمها إليه، ويحصل لك أجر وحسنة. وهذا هو باب الحسنة، وغرضها منك أن تقرب منها حتى تتمكن المحبة من قلوبكما، فإما تغلبكما حتى تقعا في المعصية والحرام»⁽⁶⁾.

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 50.

(2) المصدر نفسه، ص 100.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 132-133.

(4) المصدر نفسه، ص 133.

(5) المصدر نفسه، ص 143.

(6) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 86.

وفي صورة مشابهة اعتبر الغساني أن الخلوة التي تكون بين القس والمرأة في جلسة الاعتراف بالذنب تعبير عن مفسد الكنيسة، إذ: «...يخلو الواحد منهم بالمرأة في بيت مغلق عليها ساعة إقرارها بالذنوب الصادرة منها من زنى وغيره، لا تخفى عنه شيئا ولا تغيب عنه ذنبا صدر منها، فإن أقرت بذنوب من زنى أو شبهه وخلا بها كيف يمكن تورعه عنها مع ما هو فاش في بلادهم من الزنى»⁽¹⁾، و«... وإذا دخل زوجها ووجدتها مع الفريالي (الراهب) وقد خلا بها لا يقدر الزوج على الولوج عليها ولا يمكنه إزعاجهما ما لم يقضيا الشأن الذي دخلا إليه...»⁽²⁾.

- **منع تزويج الرهبان:** ويعرج الغساني ضمينا عما جناه المجتمع النصراني في إسبانيا من "منع تزويج الرهبان" هذا المنع الذي أدى بالرهبان للبحث عن طرق أخرى لإشباع غريزتهم، ولو بارتكاب مفسد أخلاقية كبيرة، ويقدم السفير المغربي صورة تثبت الفساد الناجم عن مثل المعتقد في قوله: «...وصدور ذلك من بعض الفريالية غير مستغرب، مثلما وقع هذه السنة بمادريد من ظهور حمل بينت بكر، وحين سألت عن ذلك أقرت بأخ لها كليريك فقبض وبعث إلى السفن المسماة الأغرية، وكذلك أخبرني من أثق به بمعرفة ابنة بمدينة سبتة... كانت من الحسن بمنصب ومكان، فافتض بكارتها خالها الفريالي، وكشف عن أمرها فلم تتزوج بعد ذلك... وأخبارهم في هذا الباب كثيرة لا حاجة بذكرها...»⁽³⁾.

- **صكوك الغفران:** كما كانت صكوك الغفران التي فرضتها الكنيسة على أتباعها محملة بعدد من الممارسات الفاسدة، ومن ذلك -حسب رحالتنا- أن الرهبان العاملين عليها جعلوها أداة ووسيلة للتكسب والجاه ولو كان على حساب الدين المسيحي نفسه، فيرجع الغساني كثير من حالات الفساد الاجتماعي في إسبانيا للمؤسسة الدينية البابوية، التي كانت تتدخل في ضبط التشريعات العامة، بل أنه يبرئ الديانة المسيحية من بعض المفسد وينسبها للكنيسة وأتباعها من الرهبان.

ومن أمثلة ذلك حديثه عن كون زواج المحارم محرم وممنوع في الديانة المسيحية، إلا أن الكنيسة أباحت بمقابل مالي، فيقول: «...ويمنع أهل الصليب أن يتزوج أحد قريبته أو بنت عمه أو خالته أو خاله إلا إذا أخذ الإذن من عنده (يقصد البابا) وأحل له ذلك...» ويضيف: «...وعندهم في ذلك إنفاق مال كثير لمن يحتاج الإذن من عنده في تزويج قريبته بما يدفعه للوسائط والطريق من بعد المسافة ولا يسهل عليه في ذلك إلا إذا كان ذا جاه أو مال يجد السبيل للإذن في التزويج...»⁽⁴⁾.

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 143.

(2) المصدر نفسه، ص 142.

(3) المصدر نفسه، ص 143.

(4) المصدر نفسه، ص 135.

كذلك حمل المكناسي مسؤولية هذا الفساد الأخلاقي والاجتماعي-حسبه- إلى أعلى سلطة دينية نصرانية ألا وهو البابا: «...وهو الذي يحل لهم ويحرم عليهم ويشرع لهم شرائع كفرياتهم على وفق إرادته، ويحل لهم نكاح المحارم مثل بنت الأخت متى كان ذا مال وجاه، ويعطي على ذلك أموالا كثيرة، فحينئذ يأذن له في تزوجها لمسوغ يستنبطه، وقد رأيت حاكم فالص تزوج ابنة أخته، فهم له أتبع من ظله، وأطوع من نعله»⁽¹⁾.

وهنا يقدم كل من الغساني والمكناسي نفسيهما شاهدين عن الفساد المستشري في أواسط المجتمع الإسباني خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، هذا الفساد-حسبهما- تزعمته الكنيسة وروجت إليه مقابل الحصول على امتيازات مالية واجتماعية، فكلا الرحالتين لا يكتفي بنقل ما قيل لهما أو ما اطلعا عليه من خلال وسائل مختلفة بل كشاهدي عيان.

هذا ولم يغفل الغساني عن رصد ردود فعل السكان الإسبان من أفعال الكنيسة وأتباعها، هذا الموقف الذي يبدو ممتعضا من ممارساتها الاجتماعية والمالية، ففي حوار مع إحدى النساء الإسبانيات، عبرت هذه الأخيرة عن امتعاضها الشديد من أفعال الرهبان، يقول في ذلك الغساني: «...ويشهد لذلك ما سمعته من امرأة بمدينة اشبيلية...وقد جرى ذكر الفرايلية والكليركوس بالجمع وكثير من النصارى حضور، فتنهدت وقالت: الفرايلية ملعون من يأمن بهم، فسألناها عن سبب ذلك فقالت: أنا أعرف بهم من كل واحد ولا أحتاج مع قولي هذا إلى تفسير...»، وقد استغرب الغساني من رد فعل مماثل من أحد فئات المجتمع الإسباني على الرهبان: «فقضينا العجب من قولها مع حضور بعض الكليركوس وقلة مبالاها بهم مع مكانتهم عند النصارى ومنزلتهم لديهم...»⁽²⁾، وبلا شك يسجل الغساني في هذه الصورة وعي المجتمع الإسباني بمفاسد الكنيسة، وربما كان استغرابه من جهر هذه المرأة ببغضها للرهبان ومفاسدهم، وهذا الاستغراب ناتج عما رآه من نفوذ كبير لأتباع الكنيسة في إسبانيا، فرد فعل مشابه قد يؤدي بصاحبه إلى التهلكة، كما بينه الغساني: «...غير أن النصارى وإن ينوون فيهم أو في بعضهم (يقصد الرهبان) نقيصة أو خيانة، فمن الكبائر عندهم التي لا تغفر أن يتفوه أحد منهم بشيء في أحد الفرايلية، أو يلمز بعب ولو شاهده وحققه، فواجب عليه أن يلتمس له عذرا أو مخرجا مع تحقق سائر النصارى معائبهم ونقائصهم...»⁽³⁾.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 110.

(2) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 143.

(3) المصدر نفسه، ص 142-143.

وفي ختام هذا الجزء من البحث نقول أن الصورة التي حملتها نصوص الرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر حول فساد الكنيسة قد تحمل تفسيرين اثنين؛ الأول: أن هذه الصورة كانت معروفة عند المسلمين-وخاصة العلماء منهم-منذ القرن الوسيط، وهذا ما أكدته الردود الجدالية الطويلة والمتعدد حولها حينها، فنجد كثير من علماء المسلمين قد تولوا الرد على النصارى وعابوا على الكنيسة مفسدها من رغبة الرهبان في المأكول والمشرب واكتناز الفضة والذهب والتعويل في معيشتهم على غيرهم، كما شاعت في العصر الوسيط صورة الكذب والجهل والحرص على الدنيا وطلب الرئاسة من قبل هؤلاء الرهبان: « فإن الواحد منهم يترهب وما معه شيء ويصير كلا على غيره، وما تمر الأيام حتى صار ذا مال كثير...»⁽¹⁾، وقدم أصحاب الردود من المسلمين قدحا في عفة الرهبان، وقدموا وصفا عن المفاسد الاجتماعية للرهبان، ونقدوا كبير لمظاهر الاعتراف والغفران وجعل الجعالة⁽²⁾.

لكن يبدو أن هذه الصورة المسبقة عن فساد الكنيسة وممارسات أتباعها؛ قد عززت لما وصل هؤلاء الرحالة إلى أوروبا لما شاهدوه بأعينهم من هذه المظاهر الفاسدة، كما أن تواجد رحالينا هناك في أوروبا تزامن مع حركة دينية قوية تقاطعت مطالبها مع تلك الاتهامات والانتقادات التي كالحا الرحالة المغاربة وقبلهم أصحاب الردود الكلامية من المسلمين لمؤسسة الكنيسة وأتباعها.

إذن فالصورة التي يقدمها الرحالة المغاربة خلال هذه الفترة-القرنين السابع عشر والثامن عشر-لا تختلف عما حملته النصوص الإسلامية المختلفة بالرد على النصارى، بل كانت امتدادا لها، فهؤلاء الرحالة، لم يأتوا بجديد غريب وعجيب في معرفته بدين النصارى وعقائدهم وشعائهم وطقوسهم، ولا ننفي أن يكون احتمال أن يكون هؤلاء الرحالة محملين بنفس الصورة قبل سفرهم لأوروبا، وعند وصولهم لأوروبا دعموا هذه النظرة ولم يغيروها، بإضافة ما شاهدوه وسمعوه من مظاهر هذا الدين في أوروبا وتأثيراتها السياسية والاجتماعية، بالإضافة لما اطلعوا عليه من حركة دينية في أوروبا.

(1) عبد المجيد الشرقي، مرجع سابق، ص442.

(2) المرجع نفسه، ص442-443.

رابعاً: الحركة الدينية في أوروبا في نصوص الرحلات المغربية

تعتبر الحركة الدينية التي اشتدت جذوتها في القرن السادس عشر ميلادي من أكبر وأبرز معالم التاريخ الأوروبي الحديث، ولا تزال نتائجها باقية حتى اليوم، تتمثل في المذاهب الجديدة التي أتت بها حركة الإصلاح الديني، وفي الانقسام الديني في أوروبا بل وفي العالم الذي يدين بالمسيحية، وقد وقف الرحالون المغاربة الذين زاروا أوروبا خلال القرنين 17 و18م على فحوى هذه الحركة الدينية وأوضاع أوروبا جراًها.

1- حركة الإصلاح الديني

تزامنت زيارة الحجري إلى أوروبا مع صعود حركة الإصلاح الديني خلال القرن الـ16م، وانتشارها في هولندا، وفرنسا وإنجلترا، ونقل الحجري صورة عن هذه الحركة الدينية وبين روادها ومبادئهم، يقول: «...وبعد أن ظهر في النصارى في تلك البلاد الجوفية رجل عالم يسمى بُلطَر⁽¹⁾، ثم عالم آخر نصراني أيضاً يسمى بقلبن⁽²⁾، وكتب كل واحد منهما ما ظهر له في دين النصارى من التحريف، والخروج عن دين المسيح والإنجيل، وأن البب (أي البابا) برومة يُضلون الناس بعبادة الأصنام وبما يزيدون وينقصون، وبمنع القسيسين والرهبان من التزويج، وغير ذلك كثير، دخل في هذا المذهب أهل فلنضس... وأيضاً سلطنة الأنجلز وكثير منهم بفرنجة...»⁽³⁾.

فالحجري ينظر إلى الحركة الدينية الناشئة في أوروبا كحركة إصلاحية تهدف إلى تقويم الكنيسة فشرح بذلك الدوافع الدينية التي أدت إلى هذه الحركة ومبادئها والتي بينها مارتن لوثر وبذلك انقسمت أوروبا دينياً، فدخلت هولندا وإنجلترا وجزء كبير من فرنسا حسب الحجري في المذهب البروتستانتي⁽⁴⁾.

ويقدم الحجري كذلك صورة عن تفاوت انتشار المذهب البروتستانتي في البلدان الأوروبية فإن كان المذهب الجديد قد شمل جل الأراضي المنخفضة، فإنهم في فرنسا كانوا منقسمين بين بروتستانت وكاثوليك: «لأنهم كانوا مختلفين، أعني أصحاب الباب، وكان القاضي منهم، وبين النصارى الذين يكفرون به، وبكل ما يقول ما عدا التثليث»⁽⁵⁾.

(1) في إشارة إلى مؤسس المذهب البروتستانتي المصلح الديني الألماني مارتن لوثر (Martin Luthaer) الذي عاش في نهاية القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر.

(2) هو عالم اللاهوت الفرنسي، وأحد أتباع المذهب اللوثيري جون كالفن (Jean Calvin).

(3) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 118.

(4) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 105-106.

(5) المصدر نفسه، ص 106.

ولم تغب صورة تأثير هذه الحركة الدينية في أوروبا على العلاقات الأوروبية مع العالم الإسلامي، فأشار إلى التوجه للتسامح الديني مع المسلمين من طرف البروتستانت⁽¹⁾، فعند قراره التوجه إلى هولندا يبرر الحجري ذلك بقوله: «...بل نمشي إلى فلنضس، لأنهم لا يضرون المسلمين بل يحسنون إليهم...»⁽²⁾.

ونعتقد أن هذه النظرة تجاه الهولنديين البروتستانت التي وضع فيها الحجري لها مبرراتها الدينية والسياسية؛ أما الدينية فيمكن إرجاعها للتوافق الشكلي أو التقاطع إذا صح التعبير بين هذه الحركة الدينية الجديدة في أوروبا وبين نظرة المسلمين للنصرانية الكاثوليكية وموقفهم من البابا كما رأينا أعلاه، فهذه الإشارة التي يقدمها الحجري عن ميل البروتستانت للمسلمين ربما يعود لكون المسلمين أكثر قربا من الكاثوليك في نفهم لعقيدة "عبادة الأصنام" أو "التجسيم" التي تؤمن بها الكنيسة الكاثوليكية البابوية⁽³⁾، وتحريف الكتب المقدسة، وتزويج الرهبان وغيرها.

وأخرى سياسية؛ إذ استخدم دعاة الإصلاح الديني في أوروبا الموقف من الآخر المسلم، أو من الإسلام ذريعة في الصراع مع منوئهم من البابوية، إذ عندما حدث الانشقاق مع الكنيسة الكاثوليكية استخدم لوثر الإسلام ليشن هجوما على البابوية معتبرا أنها أشد خطرا على المسيحيين من الإسلام، يقول الحجري: «...وحذرهم علماءهم من الباب، ومن عبادة الأصنام، وأن لا ييغضوا المسلمين لأنهم سيف الله في أرضه على عباد الأصنام، وبسبب ذلك لهم ميل إلى المسلمين»⁽⁴⁾، بالإضافة إلى وجود دافع وسبب سياسي ممثل في صراع مع عدو مشترك هو الإسبان، فلهولنديين كانوا خارجين من حروب انفصال عن إسبانيا حامية الكاثوليكية في أوروبا، لذا حاولوا الاتحاد مع المسلمين وسلاطينهم في الدولة العثمانية والمغرب من أجل القضاء على إسبانيا.

2- الحركة الدينية في إنجلترا

وإن كنا نرجح أن الحجري قد استقى معلوماته عن حركة الإصلاح الديني في أوروبا من خلال قرب عهده بها ومزامنته إياها، كما أن رحلته إلى أهم معاقل هذه الحركة في فرنسا وهولندا واحتكاكه المباشر بعلمائها ومستشرقها، وإطلاعه عما يكتب هناك جراء معرفته باللغات الأوروبية، كلها أسباب يحتمل أنها ساعدت الحجري في معرفة مسار هذه الحركة الدينية، إلا أنه لا يمكننا أن نرجح احتمالا قد يقودنا لمعرفة مصادر الغساني في نهاية القرن السابع عشر، فالرجل يتحدث عن أحداث وقعت في النصف الأول من القرن السادس عشر تميز نقله لها بدقة كبيرة، لذا نبقي تساؤلنا مفتوحا من أين استقى الغساني معلوماته عن الحركة الدينية في أوروبا عموما وفي إنجلترا على وجه الخصوص؟

(1) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق ص 118.

(2) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 105.

(3) برنارد لويس، مرجع سابق، ص 200.

(4) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 106.

وكان سياق حديث الغساني عن الصراع السياسي بين إسبانيا وإنجلترا قد جره إلى ذكر تأثير الاختلاف الديني العقائدي الموجود في أوروبا في ذلك، وظهور البروتستانت في مواجهة الكاثوليك والبابوية، مبرزاً أهم محاور الخلاف بينهما، فيقول: «...إذ جنس الانجليز لا يعبدون صلباً...»⁽¹⁾، ويضيف: «...وقد كان جنس الإنجليز والفلامنك قبل هذا أيضاً لم يدخلوا مدخل هؤلاء الأجناس المسيحية في حرب، لأنهم لم يكونوا معدودين عندهم نصارى بسبب اختلاف ما بينهم من عدم المبالغة في اتباع البابا كما يتبع سائر النصارى عبدة الصليب، والإنجليز والفلامنك هم حالة واحدة ينكرون على الصليبيين أموراً وأشياء ابتدعوها من الضلالة...وبسبب ذلك يسمون المسيحيين هؤلاء الإنجليز والفلامنك الريكيس⁽²⁾ ومعناه الروافض...»⁽³⁾.

والغساني نراه دائماً يحاول إيجاد أسباب دافعة للتغيرات الموجودة في أوروبا، ونراه يملك معلومات مميزة عنها ومن ذلك ذكره الأسباب التي دفعت حكام وشعوب أوروبا الشمالية على الخصوص للخروج عن طاعة البابا: «...وسبب مخالفة الفلامنك والإنجليز لأديان الصليب فيما قيل أن بعض الفريالية كان وقع له مع البابا تنافر ومشاحنة»⁽⁴⁾، أدى إلى سجنه وحيث وقع لهم السراح نفروا من البابا وانحازوا إلى طاغية الفرنسيين (الأصح هو الملك الإنجليزي)، وصاروا يحدثون له من الديانات ما يوافق هواه، إلى أن جوزوا له تزويج امرأة كان عشقها، وأحلوا له أخذها مع زوجته الملكة، وقد كان البابا نهاه عن ذلك...فخالف البابا في ذلك...»⁽⁵⁾.

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 117.

(2) يقصد اريخيس (Herjes) التي تعني هراطقة أو روافض؛ أي الذين أنكروا عقيدة من عقائد الدين المسيحي ورفضوا الخضوع لسلطة البابا.

(3) المصدر نفسه، ص 121.

(4) وتؤكد الدراسات التاريخية ما ذهب إليه الغساني، فلما كان هدف هنري الثامن من وراء الانفصال استبدال سلطة البابا بسلطة الملك ومن أجل تحقيق ذلك الغرض استعان بخبرة رجلين مؤيدين لسياسته الانفصالية ومن ذوي الميول اللوثرية، الأول توماس كرومويل Cromwell Thomas (1485-1540م)، وهو معروف في الأوساط السياسية الإنكليزية، كان له الفضل في إقناع ودفع الملك هنري الثامن باتجاه الانفصال عن كنيسة روما أسوة بالأمرء الألمان الذين تحرروا من سلطة البابوية وأقاموا كنائس أهلية، وقد عينه الملك هنري الثامن في بداية الأمر مستشاراً له ثم ما لبث بفضل ذكائه وكفاءته أن تدرج في المناصب العليا حتى رئيساً للوزراء، وكان خلال الفترة الممتدة ما بين (1531-1540م) المدير الأكبر لشؤون الحكومة باعتباره منفذاً مطيعاً لإرادة الملكية

أما الثاني فهو توماس كرافر Cranmer Thomas (1489-1556م)، أستاذ اللاهوت في جامعة كامبرج الشهيرة والذي عينه الملك هنري الثامن رئيساً لأساقفة كانتربري Archbishop of Canterbury وذلك في شهر آب من عام 1532م، الذي أصدر اعلاناً بإلغاء زواج الملك من الملكة كاترين والموافقة على زواجه من آن بولين وكان ذلك في أيار من عام 1533م. أنظر: فارس فرنك نصوري، «الملك هنري الثامن والانفصال عن الكنيسة الرومانية (1509-1547)»، مجلة أبحاث البصرة (العلوم الإنسانية)، مج 37، ع7، السنة 2012، ص118.

(5) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 131-132.

وبذلك يشير الغساني أن الأسباب الدافعة لنشوء حركة الإصلاح الديني في إنجلترا كانت شخصية وسياسية بحثة قبل أن تتحول إلى حركة دينية تهدف إلى محو "ضلالة الكنيسة الكاثوليكية".

إذن فالغساني يؤكد ما ذكرته الكتابات التاريخية في السبب الرئيسي الذي حمل الملك الإنجليزي للانفصال عن سلطة البابا هو رغبته في تحقيق الطلاق من كاترين الأرغونية التي أنجب منها ابنته "ماري"، لكن هنري الثامن أراد أن يكون له ابن يرث الحكم من بعده، إضافة رغبته في التخلص من زوجته كاترين والزواج من آن بولين، هذا ما دفعه إلى السعي لإقناع البابا بالموافقة على تطليقه لكاترين، ونظرا لرفض البابا للانصياع لرغبة ما أدى بهذا الأخير للضغط على البرلمان من أجل قطع بعض واردات البابا من الإنجليز، ورغم كل هذه الضغوط إلا أنها لم تجدي نفعا مع البابا ولم تساهم في السماح له بالطلاق، هذا ما دفع بهنري إلى الزواج سرا، وقد أعلن البرلمان بعد هذا أن زواجه من كاترين غير شرعي، لينتهي هذا الصراع بين الملك والبابا إلى فصل الكنيسة الإنجليزية عن كنيسة روما بقرار من البرلمان الإنجليزي سنة 1534م، وعُده ملك إنجلترا رئيسا أعلى للكنيسة بدلا من البابا، ولكن بقيت طقوس الكاثوليكية كما هي⁽¹⁾.

1 جفري براون، تاريخ أوروبا الحديث، تر: علي المزروقي، ط 1، الأهلية للنشر والتوزيع، لبنان، 2006، ص 195.

خامسا: أوروبا التعصب الديني

من خلال نصوص الرحالة المغاربة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر؛ نلاحظ بالفعل أن جلهم أكدوا على صورة التعصب الديني في أوروبا طيلة ثلاثة قرون متتالية (القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر)، ومثلت إسبانيا الكاثوليكية محور ومركز هذا التعصب الذي مس كافة الطوائف والأقليات وحتى الأفراد الذين لا يدينون بالكاثوليكية كدين واعتقاد، وقد شكلت محاكم التفتيش وممارسات السلطات الكنسية المنتشرة في أوروبا الصورة الأوضح عن هذا التعصب، وعليه فقد سجل هؤلاء الرحالة ما عايشوه أو شاهدوه أو سمعوه عن هذه الواقع معبرين عن موقفهم تجاهه.

1- معاناة المورييسكيين صورة من صور التعصب الأوروبي نهاية القرن 16 ومطلع القرن 17م:

يعد الحجري أهم من نقل صورة عن التعصب الديني الأوروبي والإسباني على وجه الخصوص، كيف لا والرجل يعتبر شاهد عيان وفردا من الجالية الأندلسية التي عاشت زمنا تحت كنف التعسف والاضطهاد ذات الصبغة الدينية، لذا نجده وهو يعبر عن هذا الواقع يتحدث بكثير من الحسرة والأسى عن ملامح التضييق على الممارسات الدينية الإسلامية وحتى اليهودية التي مورست من طرف السلطات الإسبانية ومحاكم التفتيش، هذه الأخيرة ورغم أنه لم يسميها مباشرة إلا أنه عبّر عنها باسم "الحرقاين" والفاعل دال عن الفعل وفداحته يقول: «وذكرت كيف كان حال المسلمين بين النصرى بعد أن أدخلوهم جميعا كرها منهم في دينهم وكانوا يعبدون دينين؛ دين النصرى جهرا ودين المسلمين في خفاء من الناس وإذا ظهر على أحد شيء من عمل المسلمين يحكمون فيه الكفار الحكم القوي، ويحرقون بعضهم، كما شاهدت حالهم أكثر من عشرين سنة قبل خروجي منها»⁽¹⁾.

إذ كانت هذه المحاكم والسلطات تتابع وتحارب كل ما له علاقة بالدين الإسلامي أو شبهة بالثقافة العربية، فمن وجد عنده القرآن: «يقتلونه ويأخذون ماله ويحرقونه...»⁽²⁾، ويضيف: «قلت في نفسي: كيف الخلاص والنصرى تقتل وتحرق كل من يجدون عنده كتابا عربيا أو يعرفون أنه يقرأ بالعربية...»⁽³⁾، وتحمل الصورة التي قدمها الحجري تأكيد أن التضييق على استعمال اللغة العربية هو تضييق على الإسلام، ولا بد أن رجال الكنيسة أدركوا هذه

1 رحلة أفوقاي، ص48.

2 الحجري، زروق، ص101.

(3) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد زروق، مصدر سابق، ص29.

الجدلية- كما أدركها الموريسكيين ممثلين في الحجري-أي ارتباط اللغة العربية بالإسلام كعقيدة وتشكلهما في ثنائية ذات علاقة تبادلية يصعب الفصل بينهما⁽¹⁾.

ويبدو أن محاكم التفتيش ورجالها أصبحوا يمثلون فعلا هاجسا مرعبا لكل إنسان يحمل دينا مختلفا عن دينهم، وتعبيرا عن الخوف الذي ينتاب الموريسكيين من ذلك، يقول الحجري: «...وبينما كنت أطلع إذ جاء بعض المسافرين من بلادي إلى مدينة غرناطة...فمشيت إليهم والكتاب عندي، وبعد السلام والكلام فتحت الكتاب، فلما رأوه مكتوبا بالعربية دخلهم الخوف العظيم من النصارى...وكان أهل بلدي يظنون أن الحراقين من النصارى الذين كانوا يحكمون ويحرقون كل من عليه شيء من الإسلام، أو يقرأ كتب المسلمين يحكمون»⁽²⁾.

فإسبانيا مدفوعة بحقد ديني وحضاري عنيف عملت على تمزيق النسيج الاجتماعي الموريسكي، لذا أشار الحجري إلى الانعكاسات الاجتماعية التي فرضتها تدابير محاكم التفتيش على المجتمع الموريسكي المسلم إلى درجة أن أفرادهم كانوا يخافون بعضهم بعضا ويتجنبون الاجتماع مع بعضهم خشية أن تكون بأحدهم شبهة فيطالهم العقاب جميعا: «ومن أجل ذلك الخوف العظيم كان الأندلس يخاف بعضهم من بعض ولا يتكلمون في أمور الدين، إلا من كان ذمة...وكثير منهم كانوا يخافون بعضهم من بعض، وكان فيهم من يحب يتعلم شيئا من دين الله ولا يجدون من يعلمهم...ولما رأى الأندلس الحالة التي كنت عليه كانوا يقولون فيما بينهم: لا بد لهذا من الوقوع في أيدي الحراقين، وبلغ الحال بي حتى إذا وقفت مع جماعة للكلام نرى كل واحد منهم ينسل حتى أبقى وحدي منفردا...»⁽³⁾.

وجزاء ما لقيته الطائفة الموريسكية في إسبانيا من مضايقات على دينها وثقافتها ومكوناتها الحضارية من قبل محاكم التفتيش، فضل كثير منهم-أي الموريسكيين-الهجرة من إسبانيا جماعات وفرادى، وذلك قبل قرار الطرد النهائي الذي أتى بعد ذلك (سنة 1609م)، وفي ذلك قدم لنا الحجري هجرته الملحمية، فرغم كل الامتيازات التي حظي بها في إسبانيا والتي لم يكن يتصورها هو نفسه كما يقول (كان ترجمان لأساقفة غرناطة)، فإنه خير المهروب إلى المغرب تقريبا سنة 1598، في رحلة معقدة وخطيرة، في ظل القوانين الإسبانية التي كانت تمنع الموريسكيين من السفر⁽⁴⁾، واصفا لنا معاناته أثناء رحلة فراره بعد تبين إسلامه وما لاقاه من مشقة من مطاردة الإسبان له ولكل من تبين إسلامه

(1) عبد الله حمادي، الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس 1492-1616، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، تونس، الجزائر، نوفمبر 1989، ص 39.

(2) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 29.

(3) المصدر نفسه، ص 29.

(4) حسام الدين شاشية، «قرار الطرد في الكتابات الإسبانية والموريسكية: بين مقاربتين من التأريخ التبريري»، ضمن أعمال المؤتمر الخامس عشر والسادس عشر حول الدراسات الموريسكية: الأبحاث الجديدة للموريسكيولوجي خلال العقود الثلاثة الماضية، إشراف وتقديم عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والترجمة الموريسكية، ومنشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي، أيار 2013، ص 162.

أو حاول الفرار لدار الإسلام⁽¹⁾، حتى أنه شبه ذلك بأهوال يوم القيامة ونجاته منهم بدخول الجنة: «وشبهت ما أصابنا من خوف النصارى وما رأينا من التعب في الطريق إلى أهوال يوم القيامة، ووصولنا إلى المسلمين للدخول في الجنة...»⁽²⁾، أما من فضل البقاء في إسبانيا فقد عاش حاملا لدينين وثقافتين ولغتين وحضارتين الإسلامية العربية باطنا والمسيحية الإسبانية ظاهرا مفضلين التقية خوفا من المحارق.

ويبدو من خلال الصورة التي يوردها الحجري أن كل أفعال وممارسات محاكم التفتيش تجاه المسلمين في إسبانيا لم تؤت نتائج كما يريد أصحاب القرار هناك من إجبارهم على اتباع دين غير دينهم، وتكلم لغة غير لغتهم، وهنا بلغ التعصب الديني منتهاه؛ فما كان من الإسبان إلا أن يلجؤوا إلى إجلاء المسلمين من إسبانيا كحل جذري للتخلص من هذه الأقلية التي أصبحت تشكل خطرا دينيا ودنيويا يهدد باستمرار إسبانيا (تبعاً للنظرة الإسبانية).

كما أن الرسالة التي بعثها الملك الإسباني فيليب الثالث (1527-1621م) لعامله في فالنسيا-والتي ترجمها الحجري في نص رحلته- تؤكد في ديباجتها أن العامل الديني هو أولى الأسباب التي استوجبت طرد مسلمي الأندلس سنة 1609م، وهو الأمر الذي يؤكد فعلا صورة التعصب الديني الذي نتحدث عنه، ومما جاء في ديباجة الرسالة⁽³⁾: «...وَحُكِمَ عَلَيْهِمُ (الموريسكيون) أَنَّهُمْ مُنَافِقُونَ وَأَعْدَاءُ لِلْمَقَامِ الإلهي وَالْإِنْسَانِي...»⁽⁴⁾ فالسبب الأكبر في طرد المسلمين هو محافظتهم على دينهم الإسلامي وعدم ميلهم للنصرانية، ومما جاء في هذه الرسالة: «قد علمت ما صنع وعمل النصارى الجدد⁽⁵⁾ الأندلس أهل تلك السلطنة وقشتالة على طول السنين الكثيرة الماضية من التحريف والإرشاد لإثباتهم في ديننا المجيد وإيماننا (يعني دين النصرانية) ولا نفع معهم قليلا ولا كثيرا لأنه لم يجد واحد من هو نصراني حقيقة...»⁽⁶⁾.

فإسبانيا لم تتصرف بحقد عنصري فقط، بل بحقد حضاري وديني أيضا، وكان الطرد انفجارا لهذا الحقد، وشهادة عجز للإسبان الذين عجزوا على التعايش مع الآخر المختلف دينيا، الأمر الذي أكد عليه الحجري بأن إسبانيا لجأت إلى الإجلاء والطرد في حق الموريسكيين لأنهم رفضوا الاندماج في الدين والحضارة الإسبانية مطالبين بالحفاظ على هويتهم الحضارية وعلى دينهم وروابطهم الاجتماعية التي كانت تشدهم إلى عوالم الإسلام، وفي المقابل

(1) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 69.

(2) المصدر نفسه، ص 76.

(3) ويؤكد الحجري وفقا للرسالة التي بعثها الملك الإسباني فيليب الثالث لعامله بمدينة فالنسيا، وما حملته هذه الرسالة كانت نتيجة مشاورات بين الحكومة الإسبانية والكنيسة، أنظر: أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 112.

(4) المصدر نفسه، ص 111.

(5) المقصود هم المسلمين الذين أجبرتهم محاكم التفتيش على التحول للنصرانية.

(6) المصدر نفسه، ص 111.

كان يستحيل على إسبانيا التعايش مع مركز إسلامي يقوم في قلبها-وهذا اعتراف بعجزها-فوجدت نفسها في مواجهة خيارين اثنين؛ إما اقتلاع ذلك المركز من جذوره، وإما التعايش معه بغية إدماجه وهضمه على نحو شامل، لتختار أخيرا الحل الأكثر جذرية وراديكالية؛ اقتلاع الموريسكيين ونفيهم⁽¹⁾.

ومهما كانت الغايات التي حركت الحجري للكتابة عن أسباب الطرد المباشرة، ومهما اختلفت القراءات حولها، إلا أنه يبقى ما ذكره في نص رحلته عن معاناة الموريسكيين من تنكيل وإحراق للمسلمين من قبل محاكم التفتيش والتضييق على الممارسات الدينية والثقافية من طرف النصارى الكاثوليك بإسبانيا قبل الطرد، وذكره لقرار الطرد كذلك يؤكد فعلا صور التعصب الديني في إسبانيا خلال الفترة، مهما جدا في رسم صورة أوروبا الدينية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وتكمن أهمية ما ذكره الحجري مقارنة مع ما سيأتي من نصوص رحلية مغربية في كونه عايش هذه المحنة الإنسانية التي تسبب فيها هذا التعصب الديني بإسبانيا وأوروبا.

2- مظاهر التعصب الديني في أوروبا نهاية القرن 17 و18

هذا وحملت نصوص رحلات نهاية القرن 17 والنصف الثاني من القرن 18م صورا معبرة عن استمرار مظاهر التعصب الديني والعنف ضد الآخر المختلف دينيا وعقديا في إسبانيا، ومواصلة في رصده لمظاهر التعصب الديني في إسبانيا يقدم الغساني نهاية القرن السابع عشر حول هذا تنظيم محاكم التفتيش تستحق أن نقف عندها، وسوف نرى موقف السفير المغربي من هذه الآلة الجهنمية التي تدعي تقوية العلاقة مع الله بالنسبة للنصارى الكاثوليك، كما أنها تعطي وتعب عن مشاعر الآخر تجاه أولئك الذين يدينون بدين واعتقاد آخر.

ويقدم الغساني تعريفا شاملا لمحاكم التفتيش والتي يسميها "الأنكيشيون" (Inquisition)⁽²⁾، فيقول: «...ديوان فيه من علماء ملتهم (النصارى الكاثوليك) عدد كثير وكلهم من ذوي السن الكثيرة، يسمون ديوانهم الانكيشيون يبحثون عن فيه لمز من يهودية، ولو بأدنى سبب فيقبضون عليه ويجعلونه في السجن بعد أن يأخذوا ماله وجميع متاعه وذخائره فيقتسمونه بينهم من حينه...»⁽³⁾.

ويظهر من خلال الصورة التي قدمها الغساني أن قضاة محاكم التفتيش يتمتعون بسلطات غير محدودة، حتى أنه لا يمكن لأحد مهاجمتهم أو اتهامهم بأي مخالفات، بل حتى الملك لا يستطيع الشفاعة في أي أحد حكمت عليه محاكم التفتيش: «ولا يقدر أحد على الطعن فيهم أو يلزمهم بباطل أو شهوة فيجدون عليه سببا وللوثوب عليه سلما، ولا يقدر أحد على فكاك أحد من يدهم ولو كان الملك نفسه...»، ولو كان من المقربين والعمال المخلصين،

(1) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي، نعريب: مروان أبي سمرا، دار المنتخب العربي، بيروت، 1993، ص 140.

(2) الانكيشيون: وهي الرسم العربي لكلمة Inquisicion وهو النظام الذي كان معمولا به في إسبانيا والبرتغال لمطاردة غير الكاثوليكين.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 99.

وقدم الغساني مثالا عن حادثة كان شاهدا عليها وقعت لأحد المسؤولين الكبار والمقرب جدا من الملك الذي تم اعتقاله وإساءة معاملته وسجنه وصودرت ممتلكاته⁽¹⁾.

ولا يكتفي الغساني بهذه الصورة، فيشير إلى كون محاكم التفتيش لم تكن بإرادة ملوك الكاثوليك فقط في ممالك إسبانيا والبرتغال، بل كان بموافقة وعناية خاصة من الكنيسة الباباوية في روما، ومتابعة وإشراف رجالها في هذه الممالك على سير عمل هذه المحاكم ضد كل من لا يدين بالكاثوليكية ف: «من أهل هذا الديوان رجل من عند البابا الذي بروما —أخزاه الله— يأتي بقصد النيابة عنه في هذا وما يشبهه، ويسمونه بلسانهم النوسيو...»⁽²⁾.

وقد استفردت هذه المحاكم باليهود بعد طرد المسلمين من الأندلس، فحسب الغساني بدأت مصائب اليهود بعد هزيمة المسلمين مباشرة رغم أنه لم يحدد الزمن المقصود بذلك، ويضيف أن هؤلاء اليهود فروا إلى بلدان أخرى فرارا بدينهم وخاصة إلى البرتغال التي أخفوا فيها دينهم، فالغساني يفسر هذه الظاهرة (محاكم التفتيش) ببعدها الاجتماعي والسياسي والديني.

تهدف هذه المحاكم لمعرفة من هم المسيحيون الحقيقيون أو الذين يشتبه أنهم تسللوا إليهم، وقد أجبر اليهود كالمسلمين من قبل إلى التحول إلى المسيحية، «...وإن ثبت عليه ما اتهم به أو أمر على نفسه، يلزمونه الخروج عن دين اليهودية والدخول في دين النصرانية، فإن هو رجع عنها ودخل دين النصرانية يخرجونه ويطوفونه ويعبرون به في الأسواق، ويجعلون له على كتفه صليبا أصفر، يكون ذلك اللون هو إشارة كونه من اليهود وعلامة على تنصره»⁽³⁾، وإذا رفض التخلي عن عقيدته: «يحرقونه بالنار من غير قبول شفاعة فيه، وذلك هو السبب في عدم دخول اليهود سائر بلاد إسبانيا والبرتغال»⁽⁴⁾، بل إن اليهودية صارت تهمة يلزم بها الشخص منافسه ومن معه عداوة ولو كان ليس على حق⁽⁵⁾.

والغساني لا يظهر له أي موقف من هذه المحاكم والممارسات ضد كل من لا يدين بالكاثوليكية في إسبانيا والبرتغال، فيبدو أن السفير المغربي ظهر بمظهر المؤرخ المحايد في هذا المحور، فهو يكتفي بالإخبار والوصف، إلا أنه

(1) المصدر نفسه، ص100.

(2) المصدر نفسه، ص100.

(3) المصدر نفسه، ص100.

وكانت الصورة التي حملها نص رحلة الغساني وحتى المكناسي بعده حول التشهير باليهودي مطابقة تماما لما حملته النصوص والكتابات التاريخية الأوروبية، انظر: جيري بروتون، عصر النهضة: مقدمة قصيرة جدا، تر: إبراهيم البيلي محروس، مراجعة: هبة نجيب مغربي، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014، ص71.

(4) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص100.

(5) المصدر نفسه، ص99.

وأمام ما شاهده من تعسف تجاه اليهود، استوقفت هاته المحاكم انتباه مؤلفنا، ففضل إعطاء صورة عن تاريخ اليهود في ظل الحكم الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث كانوا يتمتعون بحماية واهتمام خاص، وفي ذلك يقول الغساني: «والمتهمون باليهودية في هذه الأجناس كثيرون وأكثرهم من جنس البرتغال، وجلهم كان من اليهود سكان هذه البلاد. على عهد الأندلس بعهدهم وذمتهم...»⁽¹⁾، وهو ربما فيه إشارة إلى استحضر التسامح الديني الإسلامي في مقابل التعصب المسيحي ضد مخالفينهم من المسلمين واليهود.

وما استفرد به الغساني عن بقية أصحاب الرحلات السفارية المغربية خلال هذه الفترة، هو إشارته أن التعصب الديني في أوروبا خلال العصر الحديث قد بلغ مداه؛ ليس فقط ضد الأقليات التي لا تدين بالمسيحية مثل الأقلية المسلمة والأقلية اليهودية، بل يسجل مساعي الكنيسة الكاثوليكية وأعاونها وأتباعها في الممالك الأوروبية التضيق على كل داع للخروج على عقائدها وممارساتها، وبذلك ينقل السفير المغربي ما لاقاه الداعين للإصلاح الديني المسيحي من سجن وتعذيب ومضايقات وكانت الكنيسة تصفهم كما عبر عنها الغساني "الريكيس" (Herejes) أي "الروافض" والمهرطقة⁽²⁾.

ولم تغب صورة التعصب الديني في إسبانيا عن نصوص الرحلات المغربية خلال القرن الثامن عشر، وخاصة حضور محاكم التفتيش وممارسات أفرادها في هذا المشهد من الواقع الديني في إسبانيا في النصف الثاني من هذا القرن، أما المكناسي فقد شابهت الصورة التي حملها نص رحلته سلفه الغساني تماما، بل تكاد تتطابق؛ فهو مثل سابقه قدم صورا عن نفوذ سلطة محاكم التفتيش، وعن معاناة الأقلية اليهودية في إسبانيا التي كانت تتعرض "لمحارق محاكم التفتيش" هناك⁽³⁾، هذه المحارق التي وقف المكناسي عند إحداها أثناء مروره بمدينة قرطبة، فيقول: «...وهذه القصة اليوم هي معدة لإحراق اليهود، وفيها نصارى ساكنون بقصد إحراق من يطلع عليه في بلادهم من اليهود يعني إذا كان نصرانيا على دين النصرانية ثم رجع إلى دين اليهود في باطنه واطلع عليه فإنه يحبس ويحصن عليه جميع ما يملك حتى يبحثون في أمره البحث التام، فإن حققت عليه الدعوى فإنهم يراودونه على أن يرجع على دين النصرانية ويتوب، فإن رجع فإنهم يجعلون له علامة على كتفيه يتميز بها حتى يعلم أهل البلد كلهم أنه كان يهوديا في الباطن وتاب ورجع إلى دين النصرانية، وإن صمم على دين اليهودية ولم يرد الرجوع إلى دين النصارى فغنهم يحرقونه...»⁽⁴⁾،

(1) المصدر نفسه ص100.

(2) المصدر نفسه، ص 121.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 63-64.

(4) المصدر نفسه، ص 63-64.

وبذلك يقدم المكناسي نفسه شاهدا على بقاء محاكم التفتيش وممارستها سارية المفعول والتطبيق في البلاد الإسبانية في حدود النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

لكن الغريب فيما ذهب إليه المكناسي هو عدم استنكاره ولا استقباحه مثل هذه الأفعال من قبل النصارى في إسبانيا ضد اليهود، بل لا نجد له قدحا لهم في تصرفاتهم تلك، حتى أنه يذهب لتبريره، كأنه يحاول تحميل مسؤولية ما يحدث للأقلية اليهودية لليهود أنفسهم، بقوله: «...والسبب في عدم دخول اليهود إصباية هو أنهم لما كانوا فيها كانوا يقتلون الصبيان الصغار خفية، فكل من قبضوه وخلوا به يقتلونه واطلع عليهم في ذلك ما هم معروفون به من الغش والتدليس وإعطاء المعاملة بالريا...»⁽¹⁾.

فالمكناسي بلا شك عبّر عن الموقف الرسمي للكنيسة البابوية في إسبانيا وأوروبا تجاه اليهود، فهذه الاتهامات التي يقدمها صاحب الرحلة عن اليهود كانت جزءا من مجموعة اتهامات التي كانت تكال من قبل الكاثوليك ضد اليهود انطلاقا من القرن السادس عشر، فقد تراوحت هذه الاتهامات ما بين تسميم الآبار إلى قتل الأطفال المسحيين وغيرها⁽²⁾، وربما ساهمت الرؤية التقليدية التي يرسمها المسلمون والمغاربة عن اليهود عموما في تبني هذا الموقف.

ورغم مرور أكثر من قرن ونصف من الطرد النهائي للموريسكيين المسلمين من إسبانيا، فإن السفير المغربي أحمد الغزال في النصف الثاني من القرن الثامن عشر لا يلبث أن يشير إلى بقاء أقلية أو عناصر ذات أصل مسلم تمارس التقية الدينية وتخفي إسلامها في وسط الإسبان، كل ذلك -حسبه- خوفا وتوجسا من الإسبان: «وأما إن جهر أحد بذلك، فلا يستتاب ولا يحكم عليه إلا بالقتل»⁽³⁾.

ولا يبدو أن الصورة التي حملتها نصوص الرحالة المغاربة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر حول التعصب الديني وجرائم محاكم التفتيش كانت تحت تأثيرات صورة نمطية مجسدة سابقة؛ حول معاناة سكان الأندلس المسلمين، بل هي أقرب لصورة حية تثبت بقاء واستمرار ممارسات التعصب الديني وما نتج عنه من عنف تجاه الآخر المختلف دينيا، حيث يقدم هؤلاء الرحالة أنفسهم كشهود عيان على هذه الممارسات.

(1) المصدر نفسه، ص 64، 78.

(2) جيري بروتون، مرجع سابق، ص 71.

(3) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 175.

سادسا: صورة الإسلام والمسلمين في أوروبا خلال العصر الحديث

وفي إطار تسجيلهم لصورة الآخر الأوروبي المسيحي النصراني لم يغفل الرحالة المغاربة عن تسجيل الصورة العكسية للآخر المسلم التي ارتسمت في أوروبا مطلع العصر الحديث، وهي صورة على ما يبدو لا تخرج عن امتدادات الصورة المتخيلة التي رسمها المخيال الأوروبي حول الإسلام والمسلمين خلال العصر الوسيط، وكان الجدل الديني فرصة للاطلاع على هذه الارتسامات، ورغم أن عامل اللغة كان سببا في تغييب جزء كبير من ملامح النظرة والصورة للآخر من الطرفين المغربي والأوروبي، وخاصة النظرة الدينية التي كان يرى بها الأوروبي نظيره المغربي، إذ نلاحظ أن رحلة الحجري كانت النص الوحيد من نصوص الرحلات المغاربية التي حملت بعضا من ملامح هذه الصورة، فيما غابت في بقية النصوص لعجزها عن محاوره الآخر ومعرفة موقفه ونظرة للمسلمين والدين الإسلامي، وعليه فقد جاءت هذه الصورة وفق عدة تمثيلات:

1- الإسلام والعنف

وقد بقيت هذه الصورة الدموية العنيفة للآخر "المسلم" تنتقل من عصر إلى عصر في أوروبا، فقد ظل طيف الدين الإسلامي والمسلمين يثير الخوف، ويسكن الأدب والمخيال الأوروبي كالهواجس ويسلط عليه جاذبيته طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر⁽¹⁾، فهو دين شعاره السيف والحرب والقتال، وهي صفات تمثل النقيض المباشر للمسيحية، إذ المسلم يتقدم إلى مساحة الإدراك المسيحي الأوروبي باعتباره رجلا محاربا، شرسا، متوحشا، يقوم بكل أنواع النهب والتنكيل؛ فيصبح المسلم ممثلا لكل التعبيرات العدوانية، يحركه ميل قوي للقتل⁽²⁾، ومن ذلك ما ذكره الحجري من استغراب الأوروبيين من محاوريه ظاهرة "قتل الإخوة" في العائلة الحاكمة العثمانية، هذه الصورة وإن رسمت صورة الحاكم العثماني الدموي القاسي، الذي لا يتوانى عن قتل ابنه للمحافظة على كرسي حكمه واتهام المسلمين بأعمال السرقة⁽³⁾، وهو الأمر الذي استدعى من صاحب الرحلة الرد عليه بحجج عقلية، ويبدو أن التوسعات العثمانية في أواسط أوروبا وحرهم ضد الأوروبيين على مستوى عدة مجالات؛ قد أحيى هذه الصورة عن المسلمين في أوروبا والتي كانت امتدادا لصور مشابهة ومتطابقة عما رسمه الأوروبيون عن المسلمين في القرون الوسطى.

(1) خوان غويتسولو، في الاستشراق الإسباني، تعريب: كاظم جهاد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، ص71.

(2) محمد نور الدين أفاية، مرجع سابق، ص 136.

(3) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص79.

2- الإسلام والعلم

فمناظري "أفوقاي" الأوروبيين كانوا يكررون اندهاشهم_ في المدن التي زارها_ من كونه لا يزال مسلما رغم ثقافته الواسعة: «قالا لي: تعجبنا منك تحفظ الألسن وتقرأ الكتب وسرت في المدن وأقطار الدنيا، ومع هذا تكون مسلما!»⁽¹⁾، وكأن المسلم في مخيلتهم الجماعية مرادف "الأمي" و"الجاهل"، أو أن الانفتاح الحضاري وسعة الأفق والثقافة وتعدد اللغات والمعارف لا يتناسب مقامها والإسلام!⁽²⁾، وربما كانت التغيرات الكبرى التي حصلت في القرن 16م قد أثرت في موقف المسيحيين إزاء الإسلام والمسلمين وتشكيل هذه الصورة، حيث أن الأوروبيين بدأوا يلمسون كيف أن السبق الثقافي أصبح يتحول إلى صفهم، وبدءا من نهاية العصر الوسيط لم يعد الأوروبيون ينظرون إلى الإسلام بوصفه منافسا جديا في ميدان العقل والعلم، دون أن ننفي إحياء الأوروبيين لصورة القرون الوسطى التي تشكلت للإسلام هناك، وأن المسلمين معادون للعقل والعقلانية، وذلك لما اقتربت الجيوش العثمانية من أواسط أوروبا⁽³⁾.

3- الإسلام واللذة والمفاسد الأخلاقية

ومن الصور النمطية التي صاغتها المخيلة المسيحية في أوروبا عن الإسلام ما تعلق بموقفه من المرأة وبموقفه من المسألة الجنسية⁽⁴⁾، فمن المسائل التي عرضت على الحجري في فرنسا هو تصوير الأوروبيين الإسلام مبيحا للمفاسد الأخلاقية من زنى وسرقة، فيقول مجادله: «...وقال: المسلمون في دينهم مباح الزنى والسرقة...»، ويبدو أن مجادله كان مطلعاً على اللغة العربية⁽⁵⁾ لذا نراه يقدم كدليل على كلامه حديثاً للرسول صلى الله عليه وسلم أخذه على ظاهره فيقول مؤكداً هذه الآفات الأخلاقية عند المسلمين: «لأني سمعت لعلمائكم يقولون أن بعضاً سأل نبيكم بأن قال: المؤمن يزني؟ قال: يزني، قال له: المؤمن يسرق؟ قال: يسرق، قال أيضاً: المؤمن يكذب؟ قال له: المؤمن ما يكذب» وهي الصورة التي حاول الحجري تفنيدها بقوله: «قلت له: هذا باطل... المؤمن الذي ما يكذب فلا يسرق ولا يزني، وكيف تقول ذلك وعندنا أن من سرق ما يساوي ربع دينار تقطع يده، وإذا زنى المحصن يرحم إلى أن يموت...»⁽⁶⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 89.

(2) رشا الخطيب، أحمد بق قاسم الحجري الأندلسي "أفوقاي" المترجم والرحالة والسفير، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2018، ص 63.

(3) أليسي جورافسكي، الإسلام والمسيحية، سلسلة عالم المعرفة، نوفمبر 1996، ص 83.

(4) محمد نور الدين أفاية، مرجع سابق، ص 138.

(5) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 79.

(6) المصدر نفسه، ص 80.

وتظهر هذه الصورة المعبرة عن "إباحة اللذة في الإسلام" أيضا في الحوار الذي جرى بين الحجري ومناظريه في فرنسا حول تعدد الزوجات في الإسلام، فرغم أن الحجري فضل الصمت وعدم إبراز الانتقادات والمآخذ والصور التي رسمها المسيحيين في أوروبا حول ذلك ومحاولته توجيه الخطاب إلى الضفة الأخرى والتركيز أكثر على زيف دين الآخر "النصراني" ومعتقداته ففي حوار مع إحدى النساء في باريس: «...قالت المرأة: كيف أباح لكم نبيكم أن تنكحوا أربعة نساء، والله تبارك وتعالى لم يعط لأبينا آدم-عليه السلام- إلا امرأة واحدة» ليظهر الحجري مدافعا عن دينه أمام هذه المسألة العقلية، ليرد عليها بحجج عقلية كذلك مبينا أن آدم-عليه السلام- اتخذ زوجة واحدة لأن أمنا حواء ظهر فيها بركة أكثر مما تظهر في أربعة نساء من زماننا، كما حاججها بأدلة من دينهم فذكر أن نصوص التوراة أكدت أن الأنبياء الأوائل كانت لهم نساء كثرات وحواري مثل ما كان الشأن مع إبراهيم ويعقوب عليهم السلام، أما سليمان فتذكر التوراة- كما يقول الحجري- أنه اتخذ سبعمائة زوجة وثلاثمائة جارية⁽¹⁾.

فحوض المسيحيين لسجلات كلامية بخصوص ظاهرة تعدد الزواج في الإسلام يؤكد استحضارهم للصورة التي رسمها المخيال المسيحي حول الإسلام والمسلمين في قرون سابقة، وكانت هذه الصورة تهدف للحط من مكانة نبي الإسلام وتشويهها، وذلك بالتأكيد أنه "رجل شبعي" يتنعم في عوالم اللذة، ويقول بتعدد النساء، وبالتمتع بالحياة معهن، في مقابل المسيحي الداعي إلى الورع والتقشف والتعالي عن اللذة والانصاع عن الزواج، فيما يمثل هذا السلوك حسبهم-النصارى- قمة التفسخ والانحلال الخلقي⁽²⁾.

ومن الارتسامات المعبرة عن صورة الإسلام والمسلمين لدى الأوروبيين خلال هذه الفترة (القرن السابع عشر) أنه دين يبيح مفاسد أخلاقية أخرى مثل "اللوواط"، فقد نُعت المسلمون بكونهم يمارسون الشذوذ الجنسي، ولا يتورعون في جعل الجنس مسألة حيوية في علاقاتهم ووجودهم، يقول في ذلك الحجري: «...وقرأت يوما في القرآن الذي كان له (مجادله الفرنسي) وجدت بالفرنجي مكتوبا في طرة الكتاب: "من هنا أخذ التركيون"⁽³⁾ إباحة اللواط"، قلت له: من قال لك أن ذلك مباح عندنا؟ قال: ظاهر من هذه الآية: "نساؤكم حرثكم فأتوا حرثكم أين شئتم"....» وهذه الصورة طبعا كغيرها من الصور التي شوهت الإسلام في أوروبا تعد امتدادا لما أنتجه الأدب والمخيال المسيحي القروسطي المعادي للإسلام ناسبا "لمحمد" وأتباعه كل ما يخطر على بال من انحرافات وجرائم، وقد اجتازت هذه الصور والحكايات السلبية المنسوجة حول "محمد" و"الإسلام" عصورا عديدة وجاءت إلينا من القرون الوسطى إلى عصر الأنوار مروراً بعصر النهضة⁽⁴⁾.

(1) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين علي القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص66.

(2) محمد نور الدين أفاية، مرجع سابق، ص139.

(3) أريد بذلك المسلمين.

(4) خوان غويتسولو، مرجع سابق، ص69-70.

وكعادته راح الحجري يفند كل هذه الافتراءات التي رسمها الأوروبي عن الدين الإسلامي مستعملا في ذلك أسلوبا جدليا تدعمه الأدلة والحجج العقلية⁽¹⁾ والأحكام القرآنية: «قلت: نحن عندنا أن اللواط أعظم من الزنا لأن إذا زنى محصن يرجم إلى أن يموت، وإذا كان غير محصن يُجلد مائة جلدة ويُغرب عن بلده ويُسجن فيه عاما...»⁽²⁾، ويضيف الحجري أن مثل هذه الأفعال ألصقت وشوهت صورة الإسلام لأنه يوجد من المسلمين من يفعل تلك الأفعال الذميمة وهي ليست من الإسلام في شيء: «وأما هذا الفعل القبيح فقد اشتهر عند المسلمين حتى توهم النصراني أن ذلك مُباح في ديننا، وذلك لشهرته...»⁽³⁾.

فالأوروبيون لا يدخرون الأحكام المهينة ضد الإسلام خاصة كدين باطل وعرضة للعنف والمتعة الدنيوية. في مواجهة مصداقية المسيحية التي لا جدال فيها، يعارض الإسلام الحجج ضد السبب الأساسي، بمذاهب سخيفة بالنسبة لهم.

4- صورة نبي الإسلام في أوروبا العصر الحديث

نأتي الآن إلى الصفات المتخيلة التي ألصقتها المسيحيون بالإسلام ونبيه، وقد حملت رحلة الحجري على الخصوص تمثلات هذه الصورة عند الأوروبيين مطلع القرن السابع عشر، رغم أن صاحب الرحلة نراه يتحاشى نقل الصورة التي كان يحملها الأوروبي عن النبي-صلى الله عليه وسلم- ويكتفي ببعض الإشارات السريعة ولا يطلعنا عن ارتسامات كثيرة حولها: «حتى أن بعضهم يقولون عند مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم (من قبل الحجري): وهذاك السيد محمد نبيكم عمل كذا وقال كذا، وجاوبتهم بما يُلهمني الله المعين العليم الحكيم...»⁽⁴⁾.

فأشار الحجري محاولة مناظرية بفرنسا الخوض في مسألة تتعلق بالدين الإسلامي والتشكيك أنه من ابتداء "محمد" وليس دينا إلهيا، وقرن الأوروبيون تشكيكهم بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم بعدم وجود معجزات تثبت نبوته ففي أمستردام بهولندا: «جاء رجل حكيم مشهور في الطب والعلوم، قال:... ليس معجزة لنبيكم كما عندنا في الإنجيل، وقال: هل عندكم كتب معجزات نبيكم؟» وهنا وجدنا الحجري يرد عليه محاولا لإثبات معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال التأكيد على أميته؛ يقول: «ولما رأى الناس فضله وبركاته وصدقه في القول والفعل وتوحيده، مع أنه لم يعرف يقرأ، فدخلت الناس في دينه»⁽⁵⁾.

(1) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 86-87.

(2) المصدر نفسه، ص 85-86.

(3) المصدر نفسه، ص 87.

(4) المصدر نفسه، ص 88.

(5) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 121.

ورغم ذلك يصر هذا الهولندي على موقفه ويعتبر ما ذكره الحجري من معجزات للرسول صلى الله عليه وسلم فيها كثير من الشكوك والاحتمالات، «لأن كثيرا يصنعون مسائل بواسطة الشيطان»، وإن سلوك مناظر الحجري هذا المسلك هو تشكيك منه أن يكون الإسلام نتيجة وحي رباني أنزل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، بل هو تلبس شيطاني، وبين الحجري لمخاطبه أن معجزات النبي مذكورة ومفصلة في كتاب القاضي عياض، وشرح له الفرق بين المعجزة الربانية والألاعيب الشيطانية⁽¹⁾.

والظاهر أن تشويه صورة الإسلام ونبيه كان بليغا في أوروبا بداية القرن السابع عشر، وهذه الصورة لا تأتي من عامة الناس هناك؛ بل أيضا من خاصتهم من علماء أوروبيين والقضاة والمثقفين والمستشرقين، مثل ما ساقه الحجري مع أحد القضاة بفرنسا الذي نسب خرافات وأساطير لا صحة لها عن الرسول صلى الله عليه وسلم: «...قال لي: كيف أنت على دين المسلمين؟ قلت له: لماذا؟ قال: لأن عندنا في كتبنا أن المسلمين يزورون مكة ليروا نبيهم في الهواء في وسط حلقة حديد في الهواء...وتبقى الحلقة في الهواء بنبيكم، والمسلمون يعتقدون أن ذلك معجزة لنبيهم...»، وهو تلميح كون هذه معجزات نبي الإسلام مجرد خرافات لا يصح لعامل طبقا لها أن يتبع دينه (الإسلام)، وهو الأمر الذي رأى فيه الحجري كذب وافتراء من النصارى وراح يتساءل إذا كان الهدف من وراء ذلك هو تشويه صورة الإسلام وتزيين دينهم؟ «قلت له: هل يجوز في دينكم لأحد أن يكذب، وإن كان بنية تقبيح دين غيره لتحسين دينه وتزيينه لأهل ملته؟ قال: لا يجوز ذلك، قلت: النصارى الذين قالوا ذلك أذنبوا ذنبا كبيرا في دينكم...لأن النبي صلى الله عليه وسلم مدفون في المدينة، وبينها وبين مكة عشرة أيام، والمسلمون يزورون الكعبة لأنها دار مباركة بناها سيدنا إبراهيم عليه السلام...»⁽²⁾.

وكان شيوع هذه الصورة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في أوروبا خلال العصر الحديث امتدادا للصورة التي رسمها الأدب الشعبي الأوروبي في العصور الوسطى، ومن ذلك الحكايات عن ضريح نبي الإسلام وتأرجحه بين السماء والأرض مغناطيسيا، فقد ابتدعت الخيلة الأوروبية عن الإسلام ونبيه أقاصيص خرافية وأسطورية، وترددت هذه الصورة الخيالية المتكونة عن الإسلام في أوروبا جيلا بعد جيل دون أن يطرأ عليها تعديل ملحوظ، وهكذا بقي الإسلام وبقي نبيه عند الأوروبي مسجونين في الصورة الخيالية الأولى لعدة قرون⁽³⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 119-120.

(2) المصدر نفسه، ص 79.

(3) ريتشارد سودرن، صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، تر: رضوان السيد، ط2، دار المدار الإسلامي، طرابلس-ليبيا، 2006، ص 66_67.

ويبدو أن هذه الصورة غير ناتجة عن وعي ومعرفة كافية بالإسلام بل عن جهل وتعصب، وقد تركت هذه الصورة عن الإسلام آثارا واضحة في أوروبا إلى وقت متأخر⁽¹⁾.

وما يمكن التأكيد عليه بعد عرضنا لارتسامات وتمثلات كل طرف للآخر دينيا سواء صورة النصراني عن المسلم أو العكس نقول أن الصورة المسجلة من خلال نصوص رحالتنا المغاربة خلال العصر الحديث لم تحمل أي جديد عن تلك الصور التي أنتجها الطرفان عن بعضهما البعض في القرن الوسيط، وبذلك تكون تمثلات العصر الحديث امتداد فقط لسابقه، فهي صورة تعبر عن حدود تواصل لا قطيعة بين الصورة المنتجة خلال هذين العصرين.

لكن من جانب آخر تبرز أهمية ما دونه أصحاب الرحلات المغربية حول الأحداث الدينية المهمة والتغيرات الطارئة على المشهد الديني الأوروبي طيلة العصر الحديث ما يؤكد أن المغاربة كان لهم دراية واطلاع دقيق جدا عن أحداث من أصل الصراع الديني الأوروبي وحركة الإصلاح الديني وتبعاتها في العصر الحديث، وعكس النظرة التي نظر بها هؤلاء الرحالة للجانب العقدي والممارسات الدينية النصرانية في أوروبا فإنهم وقفوا موقف المشاهد الحيادي الذي يصف ما تراه عيناه وتلتقطه أذناه بخصوص هذه الأحداث.

(1) المرجع نفسه، ص70.

الفصل الثاني: تمثلات الرحالون المغاربة للواقع السياسي في أوروبا خلال القرنين 17 و18م

- أولا: في العلاقة مع الآخر الأوروبي سياسيا
- ثانيا: صورة الدولة العثمانية في أوروبا نهاية القرن 16 وبداية القرن 17م (القوة الإسلامية ورعب أوروبا)
- ثالثا: تضخيم الأنا وتقزيم الآخر: صورة المغرب وأوروبا في رحلات القرنين 17-18م
- رابعا: العلاقات الإسلامية-الأوروبية خلال القرنين 17 و18م (القلق المتبادل)
- خامسا: العلاقات الأوروبية-الأوروبية خلال القرنين 17 و18م
- سادسا: النظام السياسي الأوروبي في رحلات القرنين 17-18م
- سابعاً: المؤسسة الدبلوماسية (اكتشاف الرحلات المغربية للدبلوماسية الأوروبية الحديثة وآلياتها)

الفصل الثاني: تمثلات الرحالون المغاربة للواقع السياسي في أوروبا خلال القرنين 17 و18م

نسعى في هذا الجزء من البحث للوقوف عند الصور والتمثلات التي رسمها الرحالة المغاربة حول الآخر الأوروبي من الناحية السياسية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، إذ أن نصوصهم الرحلية حفلت على كثير من الإشارات التي من شأنها أن تكشف الكثير عن النظرة التي رسمها المغربي عن الأوروبي سياسيا وكذا مدى إدراكه للواقع الأوروبي من علاقات أو مؤسسات ونظم سياسية، واقفين عند الصورة وردود فعل هؤلاء الرحالة تجاه ما رأته أعينهم أو التقطته آذانهم وكذا ما ارتسم في مخيالهم حول هذا "الآخر" في البلاد المرتحل إليها.

أولا: في العلاقة مع الآخر الأوروبي سياسيا

ولأننا ندرس الارتسامات والتمثلات التي دوّنها رحالتنا في كتبهم حول أوروبا ودولها سياسيا خلال الفترة المدروسة، ارتأينا أنه لا بد أن نطلع على الأسس والقواعد الضابطة للعلاقات والتعاملات السياسية بين الدول الإسلامية مع الدول غير الإسلامية، هذه الأسس التي شكلت بلا شك منطلق هؤلاء الرحالة في نظرهم لهذا الآخر الأوروبي بصفتهم سفراء مغاربة، وعبروا عنها في نصوصهم، فصحيح أن الدين الإسلامي هو المشرع الأساسي في تحديد طبيعة العلاقة مع الآخر غير المسلم سياسيا، إذ أن المسلمين وجدوا في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أساسا مكنهم من الدخول في هذه العلاقة، إلا أن فقهاء الإسلام اختلفوا في الأساس الذي تكون عليه العلاقة بين الدولة أو الدول الإسلامية مع الدول غير الإسلامية، وهنا انقسموا إلى فريقين؛

- فريق يقول إن الأصل في العلاقة تكمن-وخاصة في حال اكتمال القوة والغلبة للمسلمين- في تخيير غير المسلمين من المشركين والكفار بين الإسلام أو القتال، أما أهل الكتاب فإنهم يخبرونهم بين الإسلام أو الجزية أو القتال.

- والحال على خلاف فريق آخر من الفقهاء والمفسرين إذ يرى أصحاب هذا الفريق أن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والحروب التي خاضها الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده تشير على الجملة إلى أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو السلم حتى تكون دواعي القتال والحرب.

- ويتوسط هذان الاتجاهان فريق ثالث ينطلق في مذهبه على اعتباره بفكرة "الطبيعة المرحلية" للأحكام؛ بمعنى أن لكل حكم من الأحكام معنى محددا ينطبق على وضع معين في زمان معين وظروف محددة، فأصحاب هذا الاتجاه في نظرهم أن الأساس الشرعي لعلاقة الدولة الإسلامية في المجال الخارجي تتحكم به الظروف والأحوال الموجبة لذلك⁽¹⁾.

(1) أحمد عبد الويس شتا، العلاقات الدولية في الإسلام: الأساس الشرعي والمبادئ الحاكمة للعلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، ضمن كتاب العلاقات الدولية في الإسلام، ج1، ص35.

وفي علاقتهم بالدول غير الإسلامية ذهب المسلمون إلى تقسيم العالم إلى قسمين؛ القسم الأول: وعرفوه باسم دار الإسلام؛ وهي البلاد التي تظهر بها شعائر الإسلام وتطبق فيها أحكامه، والقسم الآخر هو دار الحرب؛ وهي البلاد التي لم يغلب الإسلام على أهلها ولم تقم فيها أحكامه، ومع تطور العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية واقتضاء دخولها في علاقات سلمية مع جيرانها، ظهر من الفقهاء من وضع الظروف التي مرت بها الدولة الإسلامية في اعتبارهم وكونوا رأيهم القائم على تقسيم العالم إلى ثلاثة أقسام، عرفوها باسم دار الإسلام ودار الحرب ودار الصلح، أو دار العهد، وبناء على هذا التقسيم الثلاثي أصبح من المؤلفين قيام علاقات دبلوماسية وعهدية بين الدول الإسلامية وغيرها، وذلك على أساس من التعايش السلمي بين دار الإسلام ودار الحرب⁽¹⁾.

ولما كان للفقهاء طيلة العصر الحديث دور كبير في ضبط أسس العلاقات السياسية المغربية مع الدول غير الإسلامية، فإن السلاطين المغاربة غالبا ما كانوا يستشيرونهم قبل الإقدام على أي خطوة قد يبادرون بها، مثل ما كان عليه الأمر في استشارة السلطان إسماعيل الفقهاء في شأن الأسرى الإسبان التي كانت ضمن سياقات رحلة الغساني، والأمر نفسه في الدور الذي لعبه الفقهاء في موقفهم من محاولات انفتاح السلطان محمد بن عبد الله على البلدان الأوروبية في أمور الدبلوماسية والتجارة.

كما لا يخفى أن كل الرحالة المغاربة الذين توجهوا إلى أوروبا في هذه المرحلة كان لهم تكوين ديني عالي المستوى، وثقافة دينية وفقهية معتبرة، لذا لم تغب عنهم النظرة الفقهية الإسلامية للعلاقة مع الآخر غير المسلم، فهم على دراية كاملة بكل التفاصيل التي تحكم "دار الإسلام" بـ"دار الكفر" أو "دار الحرب" من الناحية الثقافية والسياسية، كما أنهم يتوجهون إلى أوروبا ليس كممثلين لسلطان المغرب فحسب بل وممثلين لـ"سلطان الإسلام"⁽²⁾، كل هذا سوف يؤثر بلا شك في نظرهم "للآخر الأوروبي النصراني"، من الناحية السياسية، لذا نتساءل كيف عبر السفراء المغاربة عن علاقة بلدهم المغرب والدول الإسلامية عموما مع الدول غير الإسلامية انطلاقا من موقفهم كسفراء وممثلين رسميين للمخزن المغربي وكفقهاء عارفين بالأسس الضابطة للعلاقة التي حددها الشرع الإسلامي مع هذه الدول؟ وإلى أي مدى ساهمت الظروف والسياقات السياسية العامة في تشكيل الموقف من الآخر سياسيا في نصوص هذه الرحلات؟

(1) عمر كامل توفيق، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين: دراسات تحليلية وثائقية في التاريخ الدبلوماسي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1986، ص 23-24.

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 62.

• أساس العلاقة هو الحرب "الجهاد"

فبناء على ما سبق نلاحظ أن أبو القاسم الحجري مطلع القرن السابع عشر اعتبر أن المسلمين والنصارى الأوروبيين في حالة حرب وصراع، إذ كانت رحلة الحجري قد رسمت صورة لتوتر العلاقة بين أوروبا والعالم الإسلامي، توتر أصبحت كلمتا "الجهاد" في الجانب المغربي و"الاسترداد" في الجانب الإسباني-الأوروبي تشكلا سمة العصر وعنوانه⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس ووفق نظرة مغربية فإن العلاقة الوحيدة التي يجب تكون مع الأوروبيين "الكفار" هو "الجهاد"، ولا غرابة في هذه الرؤية من الحجري، فمن المعلوم أن حمولات هذا التصور تأثرت بشكل كبير بالتحويلات التاريخية والسياسية في عصره؛ فعصره عصر صراع ديني بالدرجة الأولى بين العالمين الإسلامي والمسيحي، عصر عرف طغيان الصورة الدينية من الطرفين في رؤيتهما للآخر، عصر شهد نكبة أهله الموريسكيين في إسبانيا وتشردهم في العالم وأوروبا، عصر كانت فيه المواجهة بين القوى الإسلامية والأوروبية في أوجها في أوروبا والبحر المتوسط وعلى السواحل المغربية، لذا كان الجهاد العلاقة الأقرب في تسيير علاقاتهم مع أوروبا النصرانية الكافرة، وفي ذلك يقول الحجري: «لأن المسلمين مأمورون بالجهاد للكفار والمشركين، قوله تعالى: "جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم"⁽²⁾، فالمسلمون منصورون من الله بالجهاد للكفار وبتركه يبتليهم الله فيما بينهم...» لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما تواطأت قوم على ترك الجهاد إلا ابتلاهم الله فيما بينهم"⁽³⁾.

ولأن الحجري تعذر عليه الجهاد بالسيف اعتبر مناظراته وجدالاته الكلامية الدينية مع الأوروبيين بوصفها جهادا في "الآخر"، جهاد بالكلام واللسان لا يقل سلطة وتأثيرا عن الجهاد بالسيف والسنان، وفي ذلك يقول: «ولما رأيت ذلك وتحققت وفهمت أن الله سبحانه أراد مني أن نجاهد معهم بقوة، فكنت أقول لهم ما لا سمعوه من مسلم قط، وينصرنى الله عليهم»⁽⁴⁾، فهو يرى أن ردوده الكلامية هذه لا تقل في حدتها عن السيف لذا نجده يصف كتابه "ناصر الدين على القوم الكافرين" بـ "السيف الأشهر على كل من كفر"، وأسند الحجري موقفه هذا إلى رأي الفقهاء في المغرب فيقول: «وقال لي قاضي المسلمين بمراكش العلامة الخير عيسى ابن عبد الرحمان السكتي⁽⁵⁾: "أن الجهاد

(1) عبد السلام حيمر، مرجع سابق، ص31

(2) سورة التوبة، الآية 73.

(3) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص98.

(4) المصدر نفسه، ص52.

(5) الأصح هو عيسى بن عبد الرحمان السكتاني المراكشي (ت 1062/1652م) قاضي مراكش وعالمها، له عديد المؤلفات بعضها جمعها تلاميذه في ثلاثة أقسام: عبادات، أحوال شخصية، وبيع وأقضية. أنظر محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج2، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، المغرب، 1978، ص391.

يكون بمحاربة الكفار وبالرد عليهم فيما يقولون من الكذب في ديننا ودينه"، وفرحت بذلك إذ جاهدنا معهم»⁽¹⁾، فلم يكن الجدل الديني العقائدي عملاً ذهنياً مجانياً البتة، بل كان سلاحاً نضالياً لبلوغ أغراض دينية ودينية معاً، كان يستجيب لضرورة الدفاع عن النفس ودعم تماسك البنية الاجتماعية القائمة، ويستجيب في الآن نفسه لمقتضيات الحرب النفسية وما تتطلبه من زرع بذور الشك عند الطرف المقابل⁽²⁾.

• أساس العلاقة هو الخضوع والتبعية والمصلحة العامة

وفي القرن الثامن عشر لما تغيرت الظروف والسياسات والأهداف السياسية، وتوجه المغرب على عهد السلطان محمد بن عبد الله (1757-1790م) إلى الانفتاح الدبلوماسي والتجاري مع الدول الأوروبية، نجد أن كل من الغزال والمكناسي رغم تزامنها وتمثيلهما لنفس السلطان كسفراء له إلى أوروبا، إلا أن في محاولتهما لإيضاح رؤية المغرب الرسمية في هذه العلاقة ولتبرير توجهات السلطان المغربي لإنشاء علاقات أكثر ودية مع الدول الأوروبية-خاصة للمعارضين لوجود علاقة مماثلة من فئة الفقهاء- كانت متباينة، إذ أنتج كل من الرحالتين المغربيين نصين عبرا فيها عن الموقف من الآخر الأوروبي سياسياً وفي العلاقة الممكنة معه.

أما الغزال فقد بيّن وفصّل في مقدمة نص رحلته أن المغرب على عهد السلطان محمد بن عبد الله لا يخرج في علاقته مع الدول الأوروبية عن الضوابط التي حددتها الشريعة الإسلامية في العلاقة مع الدول غير الإسلامية، وهو ما يظهر في قوله: «فرض علينا الجهاد بالكتاب والسنة، وقرر أحكامه الشارع-صلى الله عليه وسلم، فإننا لا نؤمن أعداء الله ولا نسلمهم إلا إذا قالوا لا إله إلا الله، فإن لم يقولوها يقاتلوا قتالاً ذريعاً بنص الكتاب المكنون أو يعطوا الجزية عن يد وهو صاغرون»⁽³⁾.

وبناء على ما سبق نجد الغزال يلمح أن المغرب انطلق في علاقاته مع الدول الأوروبية من موقف قوة، لذا نجده يؤكد مكانة الجهاد لدى المغاربة خلال هذه الفترة وأن السلطان محمد بن عبد الله العلوي لم يقصر على الجهاد بل كان "بجاهدا في سبيل الله" و «إمام جزعت مدن الكفر لسطوته وفزعت سفن المردة لعظمته وقوته»⁽⁴⁾، وللتأكيد على قوة المغرب وجهاد سلطانه ضد قوى الكفر؛ يُذكر الغزال قراءه بصولات السلطان محمد بن عبد الله وجولاته مع بعض القوى الأوروبية مثل ما كان عليه الأمر مع فرنسا التي عملت على قبلة بعض السواحل والثغور المغربية إلا أنها هزمت شر هزيمة⁽⁵⁾.

(1) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 196.

(2) عبد المجيد الشرقي، مرجع سابق، ص 12-13.

(3) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 35.

(4) المصدر نفسه، ص 34.

(5) المصدر نفسه، ص 36-37.

فالغزال يحاول تمرير رسالة مفادها أن السلطان المغربي في علاقته مع القوى الأوروبية ينطلق من موقف قوة، الأمر الذي جعل هذه القوى تتقرب إليه وتتوسله الصلح والمهادنة: «مثل جنس الفرنضيص؛ فقد طلب المهادنة»⁽¹⁾ فمنع وطرده، وسعى جهده في التقرب فخيب وتتابعت على جنسه مهانة السبي والأسر»⁽²⁾، ومنها مهادنة المغرب مع إسبانيا سنة 1766-1767م، فقد ذهب السفير المغربي إلى التفسير الفقهي الثاني بتأسيسه لخطاب يؤكد فيه أن الإسبان طلبوا المهادنة من المغرب وسلطانه على أساس الجزية، إذ أن الغزال فسّر شروط المهادنة مع إسبانيا -رغم أنه لم يطلعنا عليها في نص رحلته- على أنها معبرة وتحمل في فحواها كل معاني الجزية إذ يقول: «...ولا شك أنها تقوم فيهم مقام الجزية...» وذلك استنادا إلى الضوابط الإسلامية الضابطة والمحددة لشروط المهادنة والمعاهدة مع الآخر غير المسلم والتي يجب فيها أن تكون في صالح المسلمين⁽³⁾.

ليضيف الغزال في مسعاه لتبرير توجهات وسياسات السلطان محمد بن عبد الله مع إسبانيا موقفا آخر وهو "المصلحة العامة" أو "المصلحة الإسلامية" التي فرضتها السياقات العامة، وهي بالتأكيد لا تتعارض مع النظرية الإسلامية في العلاقة مع الآخر غير المسلم، يقول: «...فعارضته (السلطان المغربي) في ذلك أمور أيده الله اقتضتها المصلحة الإسلامية في الحال، وأكدتها المنفعة في المثال، فلم يسعه أدامه الله بعد أن تأمل وتدبر إلا الإجابة»⁽⁴⁾.

فالغزال برر الموقف السلطاني عن طريق إدخال مفاهيم تتلاءم والواقع الجديد، فنراه يتكلم عن المصلحة العامة، وحاول من جهة أخرى التخفيف من مسؤولية السلطان باستعماله كلمات توشي بعدم قدرة هذا الأخير الموضوعية لا الذاتية، فالسلطان ملم بالكتاب والسنة، لكن ما هي المصلحة العامة التي من أجلها أبرم المغرب معاهدة مع إسبانيا؟ ليجيب الغزال: «...مما يعود نفعه على الإسلام وينتج المصلحة التامة في العاجل والآجل، والخاص والعام، أعظمها فكاك الأسارى من المسلمين وإنقاذهم من العذاب، وجلب ما يستعان به على الجهاد من بارود ومدافع وآلة السفن من بلادهم (إسبانيا)...»⁽⁵⁾، فرغم توجيه الغزال خطابه إلى التأكيد أن المهادنة التي وقعت مع الإسبان كانت بمثابة الجزية، إلا أنه يشير أن المصلحة العامة للمسلمين هي من اقتضت التوجه لهذه المهادنة (بعد استشارة الفقهاء)، ليؤكد الغزال بذلك على قاعدة أخرى من قواعد السياسة الإسلامية التي وضعها الفقهاء.

(1) وفي المعاهدات التي عقدها المسلمون مع المجتمعات السياسية الإسلامية منها وغير الإسلامية، كانت أهم مصطلحات خاصة شاعت بينهم فقد عرفوا المعاهدات باسم عقود صلح إذا كانت بين الدول والإمارات المستقلة الإسلامية بعضها وبعض، أما إذا كانت معاهداتهم مع دول وإمارات غير إسلامية بما في ذلك دول الفرنجة فكان المسلمون يطلقون عليها المهادنة أو المودعة أو المسألة أو المقاضاة أو المواصفة، وهذه كلها أنواع أو مسميات مختلفة للمعاهدات التي عرفها المسلمون. أنظر: عمر كامل توفيق، مرجع سابق، ص 190.

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 36.

(3) المصدر نفسه، ص 35.

(4) المصدر نفسه، ص 35.

(5) المصدر نفسه، ص 35-36.

ويلاحظ القارئ بلا شك أن الغزال استعمل كل النظريات التي وضعها الشرع الإسلامي وأقرها الفقهاء لتبرير توجهات مرسله في إقامة علاقات سياسية سلمية مع الدول الأوروبية غير الإسلامية، فمن جهة يؤكد أن نشوء الصلح والمهادنة أساسه قبول الإسبان دفع الجزية، ليضيف إليها مقتضيات المصلحة العامة من جهة أخرى.

• أساس العلاقة هو السلم

ورغم أن ابن عثمان المكناسي سار على نهج الغزال، في تأكيد أن المغرب انطلق من موقف قوة في علاقته مع الدول الأوروبية، من خلال تأكيده أن طلب الإسبان للصلح والمهادنة جاء بعد محاصرة السلطان المغربي محمد بن عبد الله لمدينة مليلية: «...ثم إن مولانا أيداه الله من كثرة رغبته في الجهاد والذب عن العباد والبلاد ظهر له أن يربط على قلعة مليلية أعادها الله دار إسلام...»⁽¹⁾، وبالتالي فإن شروط الجهاد وظروفه متوفرة في الحالة المغربية، إلا أن المكناسي يؤكد أن السلطان المغربي فضل المصلحة العامة وهي تحرير الأسرى والاستجابة لطلب الصلح لما عرض عليه.

فالمكناسي خالف سلفه الغزال في تفسير العلاقة مع الآخر غير المسلم، فنجد أنه يؤكد على شرعية إقامة علاقة سلمية مع الإسبان بتأكيده أن الإسلام في علاقته مع غير المسلمين لا يقر العدوان، وأن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو السلم فاستحضر دبلوماسية الرسول صلى الله عليه وسلم وشرعية القرآن لتبرير الصلح مع إسبانيا حيث يقول: «...نتعين أن أجيبه (الملك الإسباني) لما طلب امتثالاً لقول الله عز وجل لنبيه المفضل "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله"»⁽²⁾، وهي بلا شك محاولة من المكناسي لتبرير توقيع المهادنة إذ يشرح نصاً فقهيّاً آخر يتيح إقامة علاقة سلمية وتوقيع معاهدة مع الدولة غير الإسلامية إذا طلبت ذلك، حيث يفضل الإسلام الدخول في السلم إذا جنح إليه المعتدون، كما أن المصلحة العامة يقول المكناسي كان لها دور في هذا التوجه السياسي.

ومهما كان الخطاب الذي أنتجه ووجهه مدوني هذه النصوص الرحلية، فإنه يؤرخ لجانب مهم جداً في العلاقات الدولية الإسلامية مع "الآخر" ممثلاً في الدول غير الإسلامية في العصر الحديث، مؤكداً محوراً للموقف الديني والفقه في تحديد العلاقة الممكنة مع أي طرف، دون إغفال تأثير الظروف والسياقات السياسية التاريخية كمحدد مهم في ذلك، كاشفين عن مرونة النص الفقهي في التعامل مع المتغيرات السياسية.

وتزداد أهمية ما حملته نصوص هؤلاء الرحالة أكثر، من الناحية التاريخية والسياسية، لما ندرك أن هذه الصورة التي أنتجها هؤلاء هي نتاج العقل السياسي والدبلوماسي المغربي؛ لأن هؤلاء الرحالة هم أنفسهم سفراء وممثلي الدبلوماسية المغربية لدى أوروبا، وبالتالي ما حملته خطابهم يجسد في كثير من أجزائه رؤية المغرب الرسمية في محور العلاقات الخارجية مع الدول غير الإسلامية.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 141.

(2) المصدر نفسه، ص 141.

ثانيا: صورة الدولة العثمانية في أوروبا نهاية القرن 16 وبداية 17م (القوة الإسلامية ورعب أوروبا)

ولأن خطاب الرحلة يحمل وجهين؛ الأول نظرة الرحالة للآخر المرتحل إليه، والثاني يجسد نظرة هذا "الآخر" "للذات"، ولأن الدولة العثمانية تمثل امتداد للذات الإسلامية إذا كانت في مواجهة الآخر النصراني الأوروبي، إذ أن مفهوم "دار الإسلام" ببعده السياسي والثقافي يشمل كل بلد قامت فيه أحكام الإسلام بغض النظر عن لغته أو موقعه وجغرافيته، لذا نجد الحجري يرصد صورة الدولة العثمانية لدى الأوروبيين نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، هذه الصورة التي عُبر عنها بعدة تمثيلات وارتسامات:

1- هبة الدولة العثمانية وسلطانيتها في أوروبا

تمثل أكثر أركان هذه الصورة رحلة الحجري، إذ ينطلق في حديثه من التفوق الإسلامي على أوروبا، انطلاقا من تفوق "دار الإسلام" مهما كانت ممالكها وممثليها على "دار الكفر" التي كانت بلا شك تمثلها أوروبا النصرانية، وهي صورة تبدو واقعية أكثر منها متخيلة من قبل صاحب الرحلة، بعيدا عما إذا كانت هذه الصورة كانت مرتسمة في مخيال الحجري قبل سفره إلى أوروبا أو اطلع عليها أثناء تواجده هناك،، وقد ظهر هذا التفوق الإسلامي على مستوى المجالات الجغرافية والسياسية والعسكرية كيف لا: «...وأكثر معمر الدنيا للمسلمين نسأل الله العظيم أن يقوي الإسلام عليهم، حتى يأخذوا ما بقي لهم، وإن يكون ذلك في وقت قريب»⁽¹⁾، وأخذت الدولة العثمانية حصة الأسد في هذه الصورة.

يعبر الحجري بفخر عن صورة القوة التي كانت مرتسمة في أوروبا نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر حول العثمانيين، وتظهر أولى هذه الصور في تعبير الحجري عن خوف وارتعاد وقلق الساسة والملوك الأوروبيين من قوة الدولة العثمانية وسلطانيتها: «...وكل واحد من السلاطين النصارى يرتعد ويخاف من سلاطين الإسلام والدين، المجاهدين في سبيل رب العالمين، وهم السلاطين الفضلاء العثمانيين التركيون، وقد تقدم لنا ذكر ما رأيت وفهمت من النصارى في بلادهم من الخوف العظيم الذي في قلوبهم منهم، ورأوا ملوك النصارى أنه يليق بهم صحبتهم على وجه الدين واللفظ...»⁽²⁾.

وبانتشار هذه الصورة في البلاد الأوروبية حول الدولة العثمانية؛ صار السلطان العثماني يعرف هناك باسم التفخيم والعظمة، وأطلق عليه صفات التبجيل؛ مثل "التركي الكبير"⁽³⁾ أو "السيد الكبير"⁽⁴⁾، وهذه الصورة كانت

(1) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 96.

(2) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 99.

(3) المصدر نفسه، ص 112.

(4) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق ص 84.

مرتسمة عند الأوروبيين منذ عهد السلطان العثماني "سليمان القانوني"⁽¹⁾ الذي كان يعرف في أوروبا بسليمان الكبير أو سليمان العظيم⁽²⁾، لقد كانوا ينظرون إلى التركي الكبير باعتباره "العدو القوي والهائل" للمسيحية⁽³⁾.

وتعبيرا عن هذه المكانة والخطوة التي تمتع بها السلاطين العثمانيين حتى في البلاطات الملكية الأوروبية يصف الحجري أمر تنفيذ الفرنسيين لأوامر السلطان العثماني في شأن استرداد ما نهب للأندلسيين في البحر المتوسط، فيقول: «...قالوا للقضاة: نأمركم أن تقفوا مع وكيل جميع المسلمين لأن السيد الكبير (يراد به السلطان العثماني) كتب لنا في شأنهم وهذا الاسم لا يسمونه به أحدا من ملوك الدنيا وذلك ببركة الإسلام في الدنيا إذ هو أعظم سلاطينها»⁽⁴⁾ وهو تأكيد آخر على الصورة التي كان ينظر بها للدولة العثمانية من طرف الأوروبيين في هذه الفترة وهي فترة ما زالت فيها العثمانيين في أوج قوتهم أمام أوروبا.

ويبدو أن هذه الصورة الدالة عن مكانة الدولة العثمانية في أوروبا استمرت مرتسمة لدى الأوروبيين إلى العقد الأخير من القرن السابع عشر وهذا ما يؤكد الغساني في حديثه عن ردة فعل الإسبان لما وردهم خبر الانتصارات العثمانية في شرق أوروبا واسترداد مدينة بلغراد وما جاورها حتى أنهم (أي الإسبان): «...وكان النصرى يرون له بفتحه تلك المدينة واسترجاعها قوة وبدأوا يذكرونه أحسن الذكر»⁽⁵⁾.

(1) سليمان القانوني: ولد السلطان سليمان القانوني في مدينة طرابزون-شمال شرق تركيا على البحر الأسود- في 06 تشرين الثاني (نوفمبر) 1494م، وهو عاشر السلاطين العثمانيين، وصلت الدولة في عهده (1520-1566م) إلى أوج عظمتها، حيث سن العديد من القوانين وأنجز العديد من التعديلات والإصلاحات الإدارية؛ لذا سمي بـ"سليمان القانوني"، ووصف عهده أنه العهد الذي تمت في إدارة أعظم دولة بأرقى شكل إداري حينها، وتوسعت الدولة؛ فاستولى على بلغراد سنة 1521م، وغزا رودس سنة 1522-1523م، وكذا المجر سنة 1526م، وفتح بودابست، وفي عهده تم حصار فيينا سنة 1529م، وقاد حوالي 13 حملة عسكرية، توفي السلطان سليمان القانوني في أيلول (سبتمبر) 1566م، لمرض ألم به في أثناء حصاره لقلعة آزلوا واستدعى ابنه سليم الثاني (1566-1574م) ليخلف والده في حكم الدولة العثمانية. أنظر: أحمد صالح عبوش، قادة الإصلاح والتشريع عبر التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 68-71. أنظر أيضا: يلماز أورتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مج 1، تر: عدنان محمود سلمان ومحمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، إسطنبول-تركيا، 1988، ص 353-357.

(2) المرجع نفسه، مج 1، ص 353.

(3) ويبدو أن هذه الصورة للسلاطين العثمانيين في أوروبا ظلت متداولة إلى غاية فشل القوات العثمانية أمام أسوار فيينا سنة 1683م.

(4) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 84.

(5) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مضدر سابق، ص 55-56.

2- الأوروبيون لا يعرفون المسلمين إلا أتراكا

إن صيت العثمانيين وطغيان هيبة دولتهم في أوروبا، جعل الأوروبيين في الفترة الحديثة لا يميزون بين مختلف شعوب العالم الإسلامي، إذ كانوا يُطلقون على كل المسلمين صفة "التركي" وهو من المظاهر المعبرة قوة العثمانيين، حيث أدرك الحجري أن الأوروبي لا يميز بين المسلم والتركي، فكل المسلمين في نظره كانوا أتراكا⁽¹⁾، ففي مدينة روان (Rouen) الفرنسية خاطب أحد الفرنسيين الحجري بـ "أنتم التركيون"⁽²⁾، وفي باريس كانت النخبة الفرنسية تلقب أفوقاي بـ "الرجل التركي"، وفي جداله مع المرأة الباريسية، «قالت لي أنت تركي؟، قلت لها مسلم والحمد لله»⁽³⁾، وينسبون الدين الإسلامي للأتراك لا العكس فيقولون «دين التركيين»⁽⁴⁾، ويبدو أن تكرارها كثيرا في مختلف الأوساط الأوروبية، جعل الحجري يقدم شرحا موجزا حول الموضوع، فيقول: «لأن الفرنج لا يقولون للمسلم إلا تركي»⁽⁵⁾، و«...ويقولون هذا رجل تركي، لأن في بلاد الفرنج وفي كثير من سلطانات النصارى لا يسمون المسلم إلا تركيا...»⁽⁶⁾.

وكانت ملاحظة الحجري صحيحة، فمنذ منتصف القرن الخامس عشر، أصبح من المعتاد مساواة المسلمين بالأتراك. عندما تتحدث النصوص الحديثة المبكرة عن شخص ما "تحول إلى تركي"، فهذا يعني أنه تحول إلى الإسلام. وهكذا كانت الفئة الإثنية "التركية" مرادفة للفئة الدينية "مسلم". كان هذا الاستخدام اللغوي مكافئا إلى حد كبير للوصف الإثني للمسلمين بأنهم "مسلمون" في العصور الوسطى. وهو مصطلح لم يعد مستخدما خلال الفترة الحديثة المبكرة. لقد حل الزوجان المعارضان من "الأوروبيين" مقابل "الأتراك" محل ازدواجية القرون الوسطى بين "المسيحيين" مقابل المسلمين⁽⁷⁾.

وكان يقع لهم هذا الخلط بسبب الوزن الذي كانت تحظى به الإمبراطورية العثمانية على الساحة الدولية؛ إذ كانت تتدخل في القضايا الدولية الكبرى، إضافة إلى سيطرة الأتراك العثمانيين على معظم البلاد الإسلامية، إلا بوجود بعض الاستثناءات في المغرب الأقصى الذي كان تحت حكم السعديين وقتها ثم العلويين، وكذا استقلال بلاد

(1) عبد المجيد القدوري، مرجع سابق، ص 54.

(2) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 47.

(3) المصدر نفسه، ص 71.

(4) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 89.

(5) المصدر نفسه، ص 86.

(6) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 104.

(7) Felix Konrad, «From the "Turkish Menace" to Exoticism and Orientalism: Islam as Antithesis of Europe (1453–1914)» in: European History Online (EGO), published by the Institute of European History (IEG), Mainz 2011-03-14.

فارس عن النفوذ العثماني، حتى أن هذه المكانة التي ميزت الدولة العثمانية وقتئذ جعلت من يسافر إلى أوروبا ينعت أنه تركي، بل ويقدر ويوضع مكان عليا، وتقضى له أغراضه حتى وإن كان مسلما غير منطوق تحت سلطان العثمانيين⁽¹⁾.

3- صورة الدولة العثمانية في نبوءات الإسبان والموريسكيين

هذا وعبرت النبوءات التي ظهرت في إسبانيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، عن قوة العثمانيين عند الأوروبيين كما عند الموريسكيين، واعتقد بها الموريسكيين المسلمين كما اعتقد بها الإسبان المسيحيين، حيث عمد الفريقان إلى استثمار معرفتهما بطريقة متفردة في هذا المجال، فكل منهما كان يمد مجموعته بنبوءات تخدم صالحه السياسي والإنساني والديني على حد سواء، وقد ظهرت في هذه الفترة نبوءات وتكهانات عديدة وأخرى معاكسة لها حول تدمير إسبانيا كما يراه الموريسكيون وتدمير الإسلام كما يفكر فيه المسيحيون⁽²⁾.

ومثلت الدولة العثمانية حينها محور هذه النبوءات إذ تظهر هذه الدولة عند الإسبان والأوروبيين عموما أنها مركز قوة الإسلام التي لا بد أن تسقط لتنتصر المسيحية، بينما مثلت عند الموريسكيين نفس الدولة القوية التي يجب أن تنتصر للإسلام والمسلمين، وقد حمل نص رحلة الحجري مطلع القرن السابع عشر بعض هذه النبوءات التي حملت توقعاً لمستقبل الدولة العثمانية، وهي بلا شكل تعبر أيضا عن مكانة وصورة الدولة العثمانية عند كل طرف الأوروبي والموريسكي⁽³⁾.

فبينما عمد الأوروبيين لنشر نبوءة تتوقع سقوطا قريبا للدولة العثمانية وانهارها، إذ كانت الدولة العثمانية في أوج صعودها كقوة إسلامية عسكرية، وأصبح التماس مباشرة مع العالم الكاثوليكي اللاتيني، وبالتالي تجدد الخوف من الإسلام بسبب التوسع العثماني في وسط أوروبا، لذا نجد الأوروبيين دائمي الذكر لها ولسلاطينها، حتى ذكرت في أسفارهم التي تحمل تنبؤاتهم⁽⁴⁾، التي تتحدث عن السقوط القريب للإمبراطورية العثمانية، فحول إحدى هذه النبوءات

(1) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 104.

(2) للمزيد أنظر: لوي كاردياك، «ظاهرة التكهن علامة من علامات الهوية الموريسكية»، مقال منشور ضمن كتاب: تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الإسبانية والعربية الإسلامية منها، منشورات مركز الدراسات والترجمة الموريسكية ومنشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، فيفري 2011، ص 125-135.

(3) هشام بن سنوسي، «نبوءات الموريسكيين بين الحقيقة التاريخية والمغامرة اللاهوتية: مختصر أبو القاسم الحجري نموذجا»، الحوار المتوسطي، ع 13-14، ديسمبر 2016، ص 82.

(4) كانت النبوءات التي تسمى "وصايا" قد شاعت خلال القرن السادس عشر ميلادي، وكانت النبوءة التي تجمع بين كل النبوءات التي كانت سائدة في إسبانيا في ذلك القرن هي الأمل في تحقيق النصر والإيمان بانتصار الإسلام انتصارا كاملا، وقد كانت أغلب الوصايا تنبأ بأن النصر يأتي على أيدي الأتراك أو مسلمي شمال إفريقيا. أنظر: حوى النبي علي صالح، «الموريسكيون الأندلسيون»، مجلة الفيصل، ع 349، أغسطس 2005، ص 92.

يقول الحجري: «وقد شاهدت في كثير من بلادهم (الأوروبيين) وكتبهم وتحقق من خاصتهم وعامتهم أن الخوف الذي في قلوبهم منهم (العثمانيين) يُكدر فيهم في الليل والنهار، وانقطع رجاءهم الذي كانوا يرجونه أن الدولة العثمانية يكون انقراضها عند السادس عشر من سلاطينهم، واستدلوا بذلك من قول يوحنا الحوري... فتأولوا بعض رموزه على مقتضى غرضهم ومُرادهم، فأظهر الله بالبرهان أن قولهم كان باطلاً، إذ هو السلطان الموجود الآن... الثامن عشر من السلاطين»، وحسب علماء الدين النصاري أن من بركات الإنجيل أن يشغل العثمانيين عن أوروبا⁽¹⁾.

فهذه النبوءات رغم طابعها الكرامي (من الكرامات) والأسطوري، إلا أنها تكشف تمثل الآخر الأوروبي للقوة العثمانية وأمله في سقوطها حتى لو كان ذلك بقوة غيبية، فالإمبراطورية العثمانية تحضر في أوروبا في الفترة الحديثة كقوة إسلامية مُهددة للمجال المسيحي، خصوصاً بعد السيطرة على القسطنطينية (1453) والتوسع في شرق أوروبا، مع دخول القوات العثمانية إلى بلغراد 1521، رودس (1523) وهنغاريا (1526)، ثم محاصرة فيينا (1529)، بالإضافة إلى السيطرة على كل شمال إفريقيا باستثناء المغرب، لتهيمن بذلك سفن الأسطول العثماني على مناطق واسعة من البحر الأبيض المتوسط، مهددة النفوذ المسيحي التقليدي في هذا الفضاء⁽²⁾، الأمر الذي يفسر هذا الشعور بالقلق في أوروبا، وتشكل هذه النبوءات تأكيداً عن الخوف والقلق من العثمانيين من الجانب الأوروبي خلال العصر الحديث خاصة في إسبانيا أكثر الدول الأوروبية عداء للدولة العثمانية.

فيما حملت نبوءة الموريسكيين توقعات بانتصار الإسلام، ويذكر الحجري نبوءة تقول أن المسلمين سوف يرجعون من جديد ليحكموا إسبانيا ويدخلونها فاتحين من أربع جهات⁽³⁾، وأن «الله تعالى قادر على أخذ الحق منهم في الدنيا على يد من فضله الله واختاره من سلاطين المسلمين»⁽⁴⁾، ومثلت الدولة العثمانية مركز هذا الأمل بالنسبة للموريسكيين في إسبانيا، وحملت نبوءاتهم توقعاً بتواصل زخم الفتوحات العثمانية في أوروبا والتضييق على الأوروبيين⁽⁵⁾.

(1) غانم زكريا الأندلسي (إبراهيم الرياش بن أحمد) مصدر سابق، ورقة 118-119.

(2) حسام الدين شاشية، «صورة المسلم في الميخال الغربي خلال الفترة الحديثة»: تجذر القلق، الكراسات التونسية، ع218-219، 2014، ص48-49.

(3) لوي كاردياك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجابهة الجدلية (1492-1640)، ترجمة: عبد الجليل التميمي، ط1، منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية، تونس، الجزائر، 1983، ص62.

(4) رحلة الحجري، رزوق، ص118.

(5) ومنها نبوءات تقول أن السلطان العثماني محمد (الثالث 1595-1603م) اقترح على ابنه فتح روما ورودس والبندقية وإيطاليا وكل إسبانيا، أنظر: لوي كاردياك، مرجع سابق، ص61.

ومن هذه النبوءات تلك المتعلقة بقرب سيطرة العثمانيين على جزيرة مالطا، فذكر الحجري أنه لما كان بإسبانيا طُلب منه ترجمة ما وجدوه من آثارهم التي تتنبأ بأحوالهم⁽¹⁾ التي جاء فيها: «...هذا الذي كتب في زمان سيدنا عيسى عليه السلام أو بإثره فهو عندي أصبح من الذي عنده الآن وأيضاً كان فيه مكتوب يقول: من أقصى المغرب على ماء البحر يأتوا سريع أقوام إلى بلاد النصارى وتصل الحملى إلى رومة، وذكر مما ينزل بنصارى من الشر شيئاً كثيراً»، ثم ذكر البيت الذي وجدوه وطلبوا منه شرحه: «إذ يأتي الوقت بالانفصال، مدينة البحر يملكها الشرقي بلا محال، ولم يشك أحد ممن سمع ذلك أن الشرقي هو سلطان الشرق وأنه السلطان اسطنبول (اسطنبول)»⁽²⁾.

ولأن الموريسكيين بصفة عامة والحجري بشكل خاص كانوا ينظرون إلى الدولة العثمانية بإعجاب كبير، واعتبروها الدولة الإسلامية الوحيدة القادرة على مواجهة القوى الأوروبية، الأمر الذي جعل الحجري ينفي أن يكون سلطان المغرب هو المعني بالنبوءة رغم رجاء هذا الأخير أن يكون هو من يفتح مدينة مالطا كما ذكرت النبوءة بدل السلطان العثماني، حتى يقول الحجري في ذلك: «وأما ما ذكر في الرق أن علامة النحاس الذي ينزل على النصارى تكون أخذ الشرقي مدينة البحر وقد أظهرت نسخة من الرق المذكور لمولاي أحمد سلطان المغرب رحمه الله وقال لي واحد من قواده: لو كنت تبدل القاف بفاء ليقول مدينة البحر يملكها الشريف (بدل الرأي كما هو في أصل الوثيقة أو النبوءة)، قلت لا أبدل شيئاً إن شاء الله»⁽³⁾.

وكان إيمان الموريسكيين بفكرة المخلص قد ذاع من خلال هذه النبوءات وإيمانهم بعودة أرضهم لهم، فقد كانوا يعتقدون بإمكانية تحقيقه في أي وقت، فعندما كانوا بإسبانيا اعتقدوا أول الأمر أن المقصود بالفتاح في أجفارهم هو سلطان المغرب، ولدى بروز الأتراك كقوة بحرية بشمال أفريقيا اعتقدوا أن المقصود بالفتاح هو سلطان الأتراك الذي كان يمثل الأمل الأكبر، إلى أن وقع الطرد وحملوا معهم هذه النبوءات⁽⁴⁾.

(1) ولا يُستبعد أن تكون هذه التنبؤات والكتابات من وضع الموريسكيين بإسبانيا أنفسهم لزيادة خوف الإسبان من القوة العثمانية المترتبة بالعالم المسيحي من كل حذب وصوب، فقد عمل الموريسكيون على ابتكار مخيال خاص بهم قوامه ملاحم وبطالوات عن ماض مشرق، و"جفرا" ينبؤهم بمستقبل موعود، وكل هذا لتقوية العزائم على الصبر والصمود وللإبقاء على الأمل، للمزيد حول هذه القضية أنظر: علي اومليل، في شرعية الاختلاف، ط2، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، 1992، ص 65، ص 77-78.

(2) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 59.

(3) المصدر نفسه، ص 61.

(4) محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، ط3، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1998، ص 248.

4- التمثيل الدبلوماسي دليل قوة العثمانيين في أوروبا

وحاول الحجري التعبير عن واقع سائد معبر عن تفوق الدولة العثمانية على أوروبا، مقابل ضعف هذه الأخيرة ودولها إذ هم أقل شأنًا، حيث حاول إبراز هذا التفوق وفق عدة صور من بينها تبادل السفراء بين دول أوروبا والقسطنطينية، ورأى في إرسال الأوروبيين سفراء إلى الدولة العثمانية وإحجام الأخيرة عن ذلك دال على تفوق العثمانيين، ويقول في ذلك: «...حتى أن كل واحد منهم يبعث رسوله ليقعد على الدوام والاستقرار في القسطنطينية العظمى، يطلب منهم الصلح والرضى عنهم ومنهم، نصرهم الله وخلص ملكهم»، لكن يبدو أن الحجري لم يأخذ هذه الصورة في إطارها الدبلوماسي، بل يرى فيه صورة تغلب للمسلمين على الأوروبيين، لذا فقد غابت أهمية المؤسسة السفارية بالنسبة له، بل أنه يفخر بأن العثمانيين لا يبعثون سفراء مماثلين: «...نصرهم الله (العثمانيين) وخلص ملكهم، وجعل النصارى الأعداء تحت أقدامهم، لا يبعثون رسولاً لكافر على وجه القعود في بلادهم...»⁽¹⁾، وسوف نحلل هذه الصورة أكثر حين نتطرق لموضوع الدبلوماسية الأوروبية.

ربما يطرح سؤال لماذا عمل الحجري على التركيز على صورة الدولة العثمانية وسلطانيتها في أوروبا ومكانتها المهمة عند الأوروبيين دون أن يذكر صورة مماثلة عن المغرب وهو الذي توجه (أي الحجري) سفيراً مثلاً لسلطان المغرب لدى فرنسا؟ وهنا نقول أن تأثيرات القضية الموريسكية كان لها التأثير الأكبر على الصورة، فلم يكن للمغرب تلك الخطوة لدى الأوروبيين حتى أن رسالة السلطان زيدان في شأن الموريسكيين لم يكن لها أي تأثير على مستوى النتيجة المرجوة في استعادة الأموال المنهوبة للمهجرين الأندلسيين، الأمر الذي أدى بالحجري للعمل بشكل شخصي لمحاولة إيجاد حل لهذه القضية، عكس ما كان في شأن الدولة العثمانية التي كان تدخلها حاسماً في استعادة جزء من ممتلكات الموريسكيين ليس في فرنسا فقط بل لدى كل الدول والإمارات الأوروبية التي كانت تربطها علاقات ودية مع الدولة العثمانية.

وتجدر الإشارة أن الصورة المرتسمة في نص رحلة الحجري عن العثمانيين كانت موجودة فعلاً في أوروبا كما نقلها، وبالتالي أن نفوذ وقوة السلطان العثماني كانت أكبر من نفوذ وصيت سلطان المغرب الأقصى رغم المكانة التي حازها السلاطين السعديين بعد معركة واد المخازن 1578م خاصة خلال فترة حكم السلطان أحمد منصور الذهبي. كما يجب الإشارة إلى عامل نعتقد أنه مهم أيضاً في هذا التوجه من الحجري؛ ألا وهو طبيعة رحلته، فهي رحلة لا تشبه كثيراً بقية الرحلات السفارية المغربية إلى أوروبا، التي عادة ما تكون تحت رعاية السلطان وخطابها موجه إلى تضخيم مرسله، فالحجري في تحرير رحلته يتمتع بشيء من الحرية وانعدام الضغوط الرسمية كما في رحلات الغساني أو الغزال أو المكناسي فيما بعد.

(1) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 99.

ثالثا: تضخيم الأنا وتقزيم الآخر: صورة المغرب وأوروبا في رحلات القرنين 17-18م

يلمس القارئ لنصوص رحلات السفراء المغاربة إلى أوروبا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أنها تحمل في ثناياها شعورا بالقوة والاستعلاء، يقابله شعور بدونية الآخر الأوروبي ونزول مقداره⁽¹⁾، فقد استمرت صورة التفوق مرتسمة في نصوص رحلات هذه الفترة وذلك رغم تغير العلاقة السياسية مع الآخر الأوروبي من المواجهة إلى المهادنة والسلم، إذ حاول الرحالة المغاربة تأسيس خطاب في اتجاه أحادي ذاتي يهدف إلى رسم صورة معينة أساسها تضخيم الأنا المغربي وتقزيم الآخر الأوروبي.

1- مكانة المغرب وهيبته وسلطانيته/ ضعف الأوروبيين ومذلة ملوكهم

بالغ الرحالة المغاربة في مغالاتهم ومبالغتهم في تضخيم صورة المغرب وهيبته سلطانه، في مقابل الحط من صورة نظرائهم من الأوروبيين، فنجد الغزال يضع الآخر الإسباني لا في موقف الند، بل في صورة المنهزم الذي فضّل "الجزية" خشية من قوة سلطان المغرب وجنده، فوضع السلطان المغربي في حكم "السيد" الذي يأمر فيقطاع، والملك الإسباني في حكم "العبد المطيع"، بل إن السفير المغربي يذهب بعيدا في تعظيم سيده وسلطانه، ليقول على لسان الملك الإسباني حين لقائه به: «ما أنا إلا واحد من خدام سلطانك، وعند أمره ونهي، وكل ما يأمرنا به نفعله، وقد فرحت بهذه المهادنة التي أنعم بها سيدنا علينا، نسأل الله أن تكون دائمة»⁽²⁾.

ويُصور استحابة السلطان المغربي لعرض المهادنة الإسباني على أنه منّة من الأول على الثاني لذا كان: «...من جملة ما قاله (الملك الإسباني) أن هذا اليوم هو عنده أعظم عيد فرحا بما تفضّل به علينا سيدنا المنصور بالله...»⁽³⁾، وقد كرر مثلها كثيرا في رحلته، فكان خطاب حاكم سبتة للغزال: «هذه الفرحة والنزهة تعظيما لكم وفرحا بهذا الصلح الذي تفضل به علينا سلطانكم وانص به على سلطاننا، نسأل الله أن يجعله دائما»⁽⁴⁾.

وهو ما سار عليه المكناسي في مبالغته في مكانة مرسله لدى الآخر الإسباني، حيث يقول لما ألقى رسالة السلطان المغربي إلى نظيره الإسباني: «...وقرأه الطاغية وعرف مضمونه وما أشار به إليه سيدنا أمير المؤمنين من تسريح أسارى المسلمين بإشارة لطيفة تضمنتها الصدقة المبعوثة من عند سيدنا ومولانا صحبتنا إليهم...فتلقى الأمر (أي

(1) سعيد بن سعيد العلوي، مرجع سابق، ص 41.

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 128.

(3) المصدر نفسه، ص 138.

(4) المصدر نفسه، ص 57.

الملك الإسباني) المطاع بالانقياد، وأخذ يدبر ما يتلقى به أمر سيدنا ومولانا...»⁽¹⁾، فيصور الآخر الإسباني أنه ذليل ضعيف راضخ أمام المغرب وسلطانها، وقد تكررت هذه الصور كثيرا في مواضع مختلفة من نص رحلته إلى إسبانيا. وأعطى الغزال مضمون الصلح قراءة مغربية رسمية، فأكد أن الصلح جاء بطلب من إسبانيا؛ ورأى في ذلك عزا للمغرب وسلطانها ومذلة لإسبانيا وملكها: «... فلم يسعه أدامه الله بعد تأمل وتدبر إلا الإجابة للمهادنة بما هو في نفوسهم أدهى وأمر من تحملهم الشروط الشاذة المثبتة للكافر مذلتة وخزيه، ولا شك أنها تقوم فيهم مقام الجزية فأذعنوا لما أمروا به وتحملوه وارتضوه لأنفسهم وقبلوه...»⁽²⁾، وهي دلالة حسب الغزال أنه: «... لا خفاء أن ذلك قهرا لهم وفيه مذلة لهم وإغلاب...»⁽³⁾.

ووفق نظرة الغزال فإن إسبانيا بطلبها للمهادنة (الجزية) أرادت الدخول في حرمة السلطان المغربي محمد بن عبد الله: «وأجاب (الملك الإسباني) بما فيه تल्प واستعطاف... وطلب الدخول في حرمة سيدنا... مثل ما تقدم من الأجناس، وألزم نفسه بالخدمة والطاعة في الحركة والأنفاس وبث ذلك في قومه»⁽⁴⁾. ولا يكتفي الغزال بإظهار الآخر ضعيفا، بل تجاوزه لاحتقار الطرف الإسباني ودولته، ويظهر ذلك في طلب الملك الإسباني بإيفاد مبعوث مغربي إلى إسبانيا للتفاوض، لكن الغزال عبر عن هذا الطلب وصاغه بكثير من صيغ الاحتقار: «... ومن جملة ما طلب (يقصد الملك الإسباني) من سيدنا المنصور بالله أن يتفضل عليه ببعث أحد خدام حضرته العلية ليظاً بالنعل أرضه ويستوعب من إقليمه جله وبعضه»⁽⁵⁾.

وتعود هذه الصيغ والصور لتظهر أيضا في محادثات إبرام المعاهدة بين الطرفين المغربي والإسباني سنة 1779-1780م، حيث يصور المكناسي الملك الإسباني خائفا منتظرا ومستجديا قبول المهادنة من السلطان المغربي، فالمكناسي يحاول التأكيد أن مهمته تنتهي بتخليص وفكاك الأسرى المسلمين في إسبانيا وفقط، إلا أن الملك الإسباني ظهر بعد ذلك مستجديا له وملكه المغربي طالبا للمهادنة، فيظهر المكناسي الطرف المغربي في موقع وموقف قوة، والطرف الإسباني في موقف ضعف، هذا الأخير الذي: «... بقي حيرانا لا يهتدي سبيلا، وبقي خائفا يترقب...» إلى غاية تحقيق الصلح مع السلطان المغربي⁽⁶⁾.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 96.

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 35، ص 76.

(3) المصدر نفسه، ص 36.

(4) المصدر نفسه، ص 40.

(5) المصدر نفسه، ص 42.

(6) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 142.

بل إن المكناسي قرأ وفسر العناية التي لقيها من الإسبان بأنها تليين للموقف المغربي قبل طلب الصلح، إذ يقول: «...لأننا لما كنا بمدريد بعث إلينا مع وزيره الأعظم، وقال: إن الطاغية يريد منك أن تتوسط له عند سيدنا ومولانا أمير المؤمنين في تجديد الصلح والمهادنة معه لأن له محبة قوية في جانبه الشريف، فيريد أن يكون معه على أكمل الحالات، ويجب أن يكون هذا الأمر على يديك، وأعاد ذلك علي مرارا مشافهة وبالرسائل، وهذا كله من شدة ما ألقى الله تعالى في قلوبهم من الرعب من سيدنا ومولانا أمير المؤمنين...»⁽¹⁾.

وهو ما نجده في رحلة الغساني قبلهما في حديثه عن وضعية ملك إسبانيا لما اطلع على رسالة مولاي إسماعيل: «...وناولناه الكتاب السلطاني دفعه إلى النصراني الحلبي ليت ترجمه ويعجمه، فلما أن عجم الكتاب وقرأه ورأى ما فيه وما أشار به عليه أمير المؤمنين أيده الله من إعطاء خمسة آلاف كتاب وخمسمائة أسير، وثقلت عليه الوطأة العلوية، ولم يدر أين يتلقى هذه الإشارة وعرف أنها عزمة من الملك نصره الله، لم يمكنه الاضطراب لما شرب في قلبه وقلب أهل ديوانه من صيت هذه الإمامة العلوية وعلو همتها أبقاه الله بمنه، ووقعت المشورة في ذلك منه مع أهل ديوانه، فرأوا أن الإجابة إلى ما دعاهم إليه المولى الإمام والامتنال لأمره المطاع أعزه الله تعالى أولى لهم وأوفق...»⁽²⁾.

وبصرف النظر عن مثل هذه النماذج من الغلو والمبالغة فإن نصوص هذه الرحلات كثيرا ما ترددت فيها الصيغ والتعابير والمفردات التي تحيل إلى وجود وضعية متميزة لسلطين المغرب في مواجهة حكام أوروبا فنجد لدى الجانب الأول الصيت، المهابة، علو المهمة، الوطأة، الإنعام... ولدى الجانب الثاني: الامتنال، الاضطراب، الرعب، الإذعان، الانصاف، الانقياد...⁽³⁾.

2- البروتوكولات الدبلوماسية صورة من صور هيبة الأنا وضعف الآخر

وتعود هذه الصيغ لتظهر في البروتوكولات الدبلوماسية التي حظي بها السفراء المغاربة في أوروبا، فبدافع من شعورهم بالقوة والتفوق، نلمس من قراءة الرحلات المغربية خلال هذه الفترة، خاصة رحلات الغزال والمكناسي، وبدرجة أقل رحلة الغساني؛ أن الموضوع الأساسي في تدوين رحلاتهم هو جمع الحجج والبراهين الدالة على ما لقيته بعثات السلطان المغربي من تعظيم وإجلال من قبل الملوك الأوروبيين ورجال دولهم⁽⁴⁾.

وتتجلى مظاهر التبجيل والتعظيم التي رسم الرحالة المغاربة صورتها عند أول لقاء مع الآخر الأوروبي، لذا اعتبر المكناسي إسقاط أو تقليص مدة الحجر الصحي (الكرتينة) عن وفده السفاري في إسبانيا دليل على الحفاوة التي

(1) المصدر نفسه، ص 140-141.

(2) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 104.

(3) أحمد المكاوي، الرحالون المغاربة وأوروبا، جذور للنشر، الرباط، 2007، ص 32.

(4) سعيد بنسعيد العلوي، مرجع سابق، ص 38.

حظيت بها السفارة المغربية هناك، وكل ذلك دليل على قوة وهيبة المغرب وسلطانه: «...ونحن من مهابة سيدنا ومولانا وعلو قدره ومنصبه لم يجعلوا لنا شيئا من ذلك... وقالوا لنا تجعلون الكرنطينة بهذه الدار أربعة عشر يوما فقط على أعين الناس...»⁽¹⁾، وكذلك كان الأمر في نابولي: «...يقولون أنه من العادة أن يجعل الكرنطينة كل وارد، وأن الطاغية أمر بإسقاطها عنك فرحا بقدمك...»⁽²⁾.

وكانت لحظة اللقاء مع الملوك الأوروبيين أقوى اللحظات التي استشعر فيها الرحالة المغاربة أهمية إظهار مهابة المغرب وسلطانه، يقول الغساني أثناء لقائه بالملك الإسباني في مدريد وتسليمه رسالة السلطان المغربي: «... فوجدنا الطاغية واقفا على قدميه... وعن يمينه طبله من ذهب مرصعة أعدها ووضعها أمام مقامنا بعد وصولنا ليجعل عليها البراءة السلطانية إجلالا وتعظيما لمرسلها أعزه الله (يعني بذلك السلطان إسماعيل)...»⁽³⁾، ويضيف أن الملك حين تسلم الرسالة السلطانية: «...وناولناه الكتاب السلطاني بعد تقييله ووضع على الرأس...»⁽⁴⁾.

وبالغ الغزال والمكناسي في تفسير رؤيتهما لبروتوكولات الاستقبال الرسمية والشعبية التي كانت تقام على شرف الوفد السفاري المغربي، وكانا يصوران ذلك على أنه اعتراف بمكانة مرسلهما وبلادهما⁽⁵⁾، لذا كانت الحفاوة وحسن الاستقبال "إجلالا لمنصب سيدنا ومولانا"⁽⁶⁾.

إذ تعكس هذه البروتوكولات الدبلوماسية في استقبال السفراء في إسبانيا وفق ما تمثله الغزال تعبيرا آخر عن عزة الإسلام وعظمة السلطان المغربي، فيصف استقباله من قبل أعيان مدينة مدريد: «وقد استعملنا السير في وسط هذه الجموع وشلظاظهم (جنودهم) تدفع عنا القوم بالسيف، وأعيانهم راجلين أمامنا متأدين كأنما على رؤوسهم الطير، فانظر إلى عزة الإسلام وما أودع الله تعالى في سيدنا المنصور من السر والعظمة»⁽⁷⁾. وفي اشبيلية كانت الجماهير التي خرجت لرؤية الوفد المغربي دليل كاف عند الغزال لتظهر: «عزة الإسلام وعظمة مولانا المنصور بالله في نفوسهم بالخاصة والحمد لله»⁽⁸⁾.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 10.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 131.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 89.

(4) المصدر نفسه، ص 90.

(5) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 48.

(6) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 09، 23، 28-29، 50، 98. وغيرها

(7) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 112-113.

(8) المصدر نفسه، ص 86.

وحتى الدور التي ينزل بها الوفد السفاري المغربي كانت تعبر عن هيبة المغرب وسلطانه ورساله، كيف لا ومثلها لم تعط لغيرهم من سفراء وقناصل الدول الأخرى، وكذا اختيار أفضل العربات للوفد المغربي دليل على التعظيم يقول الغزال: «...قدموا لنا أكداشا ركبناها لجودتها عن الأكداش التي كنا بها، وكل ذبل زيادة في التعظيم والترحيب»⁽¹⁾.

وكذلك الاستقبالات لم يحظ بها غيرهم قبلا مثل قوله: «...ودخلنا المدينة في هيئة عظيمة وعز وكرامة لم تحصل لمن قبلنا من رسل الملوك المتقدمة ولا شاهدوا ما شاهدناه»⁽²⁾، وخلال نقله انطباعات سفراء البلدان المختلفة عن هذه السفارية والحفاوة التي لقيها أعضاؤها بمديرد: «وقد بعث الباشدورات المذكورين من ملاقاتنا بالطاغية على تلك الحالة التي لم تحصل لغيرنا من المسلمين فضلا عن الكافرين، وكتبوا بذلك لطعاتهم»⁽³⁾.

ومثل الغزال حاول المكناسي إعطاء صورة عن هيبة المغرب ومكانته دون سواه من البلدان، وذلك من خلال الاستقبال الذي حظي به قبيل لقائه مع الملك الإسباني: «...وعادة الطاغية فيمن يرد عليه من وفود الملوك أن يضيفه ثلاثة أيام ونحن من شدة اعتناؤه بسيدنا ومولانا أمير المؤمنين أكرم مثوانا وأحسن ضيافتنا اثني عشر يوما التي قبل الملاقاة، وقد ذكر لنا جميع أعيان إصبانية وأكابر دولته أن ذلك خصوصية لنا وتعظيم لشأننا...»⁽⁴⁾.

ومكانة المغرب في إسبانيا ذات منصب عالي مرموق بين الدول، ودليل ذلك أن علمه ورايته ترفرف أعلى من رايات بقية الدول، فيذكر المكناسي ذلك بافتخار: «...وتوجهنا إلى المراكب فأخرج حاكم البلد من أبراجها عدة مدافع وقصدنا المراكب فإذا هي معلق عليها علامات كثيرات على اختلاف ألوانها، وعلم مولانا المنصور وهو الأحمر من فوق الجميع، كل ذلك رفعة لجانب سيدنا أمير المؤمنين أعزه الله ببقاء الدين...»⁽⁵⁾.

ولأن المواجهة مع الآخر الأوروبي تأتي تحت تأثيرات الصراعات الدينية والحضارية كان الاستقبال الشعبي للوفد المغربي في المدن الإسبانية أنه دليل خنوعهم وامتثالهم "لأهل التوحيد المسلمين"، فيقول الغزال: «ولما اختلطنا بالقوم ترجل جميعهم وأدوا الواجب كما يجب، وبالغوا في التعظيم والتبجيل والمباشرة اللائقة بالمقام الإسلامي الذي جعل الله لعباده المؤمنين من غير اعتبارهم لذلك، وإنما خضوعهم وإذعانهم وامتثالهم وانقيادهم بالخاصية لأهل توحيده، ولو كان ذلك خاصا بأمر طاغيتهم، لظهرت المباشر من بعض دون بعض، ولما كانت نورانية الإسلام هي الفاعلة،

(1) المصدر نفسه، ص 74.

(2) المصدر نفسه، ص 113، 194 وغيرها.

(3) المصدر نفسه، ص 129، ص 139.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 84.

(5) المصدر نفسه، 192.

استغرقت الكل منهم في الخدمة والامتثال...»⁽¹⁾. فالغزال كأنه يستدرك في تفسيره لأمر الاستقبالات الرسمية والشعبية التي حظيت بها السفارة المغربية، فبعد أن أولها قبلا بأن ذلك إنما هو امتثال لأمر الملك الإسباني، يعود ليستدرك ويحاول أن يعطي تفسيراً دالاً على أحقية الدين الإسلامي وأنهم منصورون من الله، وإلا ما خرجت كل هذه الوفود بعفوية لتعلن امتثالها وخضوعها!

ويظهر الغزال قد فسر كل تصرفات الضيافة وعادات الأوروبيين الإسبان في ذلك أنه عز للإسلام والسلطان، ودلالات ذل وإذعان من الآخر الإسباني، وفي حديثه عن الاستقبال الذي حظي به الوفد السفاري المغربي قرب مدينة اشبيلية يقول: «... كل مدينة نشاهد مباشرة أهلها ما فيه زيادة على تقدمهم، كل ذلك من فضل الله تعالى، وما أودع الله في سيدنا المنصور بالله من السر والعظمة في نفوس الإسلام وانقياد الكفرة لأمره المطاع، حتى إنهم إذا ذكر اسم سيدنا أيده الله وهم حاضرون لا يسعهم إلا نزع الشمارير عن رؤوسهم طاغيتهم فمن دونه، تعظيماً لجناب سيدنا وتبجيلاً، وفي ذلك آية يستدل بها على عز الإسلام ونصر دين الله القويم، وتأيد سيدنا المؤيد بالله وعظمته»⁽²⁾.

ومثل ما افتتح ابن عثمان رحلته بالتعبير عن هبة ومكانة المغرب عند الآخر الأوروبي من خلال ما عبرت عنه بروتكولات الاستقبال الدبلوماسية؛ يختتم بها كذلك حين أوبته ونهاية رحلته فعند وصوله إلى سبتة في طريقه إلى المغرب: «...وجدنا بباب المرسى جماعة كبيرة من صناديد الكفرة وخلفهم العسكر وجميع أهل بلدهم فتقدم رؤوس الكفرة وأظهروا من الأدب والتواضع والخضوع في المثل والفعل ما ليس بمعهود وكل ذلك مهابة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين...»⁽³⁾.

فإن كان الاستقبال الرسمي من أعيان وقادة المقاطعات والمدن معبر عن بروتكول سياسي معتاد في أوروبا وما يرافقه من عادات الأوروبيين في ذلك من موسيقى وطقوس معينة، فإن الاستقبالات الشعبية التي كان يرى فيها الغزال والمكناسي كذلك تعبيراً عن التعظيم إنما هي في الغالب دالة على حالة من الفضول الأوروبي والتعجب من رؤية هؤلاء القوم الغرباء عنهم في الهندام والشكل واللباس وغير ذلك، ثم إن هذا الأمر يحمل دلالة عكسية دالة على صورة المغربي لدى الأوروبي فكما كان المغربي ناظراً للآخر كان منظوراً إليه في نفس الوقت، إلا أن الرحالة المغاربة أبوا إلا أن يصوروا ذلك أنه دليل عز وهبة للمغرب وسلطانه مقابل ضعف الآخر الأوروبي وإذعانه.

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 74.

(2) المصدر نفسه، ص 74.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 190.

3- اللقاء مع الآخر الأوروبي فرصة لإظهار الهيبة والتفوق

وبعد أن فسروا بروتوكولات الاستقبال الدبلوماسية أنها تعبر عن قوة المغاربة وعزة دينهم وهيبة سلطانهم، نجد أن هؤلاء الرحالة المغاربة سعوا لتأكيد وتحسيد هذه الصورة، وعليه فقد كانت فرصة لقاء الآخر الأوروبي-العدو-في أرضه فرصة لإظهار عزة الإسلام وسلاطينه، لذا حرص كتاب الرحلات كذلك بفعل هاجس إظهار الهيبة والأهبة والتفوق⁽¹⁾، على عدم ارتكاب كل ما من شأنه أن يقلص منهما أو يחדشهما مستندين في الغالب إلى خلفية دينية⁽²⁾، وهذا ما يفسر الحال الذي كان عليه الغزال قبيل لقائه بمضيفه الملك الإسباني إذ يقول: «فتهايا الطاغية للملاقة من الغد، وقد أعلمنا الوزير بذلك، فجعلت أفكر فيما أحاطب به الطاغية عند ملاقاته بما يسوغ شرعا، وقد لخصت من الكلام ما لا محذور فيه، ثم مثل في فكري أني داخل على الطاغية وقد تذكرت قوله تعالى: "أدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون"⁽³⁾...»⁽⁴⁾.

من جانبه ظل الغساني يحاول إبراز جانب الندية للآخر الإسباني، ولا يحاول إبداء أي فعل أو قول قد يطيح بسمعته وبمكانة مرسله وأحقية دينه، فيقول عن الجدل الذي دار بينه وبين مسؤول الاستقبال لدى الملك الإسباني حول طريقة السلام وبروتوكولات الحديث مع الملك، إذ أصر السفير المغربي على الحديث مع الملك الإسباني وفق ما هو متداول في خطاب الدبلوماسية الإسلامية منذ زمن، فيقول في ذلك: «...قدم علينا القند الموكل بنا يعلمنا يتهايا عظيمه للملاقة، وبدأ يستفهمنا عن حال سلامنا ليخبره به قبل دخولنا عليه، لكونه لم يتقدم له قبل ملاقة مع أحد من أهل ملتنا أعزها الله تعالى، فأخبرناه بسلامنا عن بعضنا البعض وبسلامنا على غير أهل ديننا، وأنه قول: السلام على من اتبع الهدى من غير زيادة عليها»، ويضيف أن الموكل بالبروتوكول قد تعجب من ذلك السلام كونه لم يعتد عليه: «ولم يمكنه سوى قبوله حيث عرف تصميمنا على ذلك وعزمنا عليه من غير زيادة»⁽⁵⁾.

(1) وهو الأمر الذي يدخل الضوابط الذي وضعها الفقهاء المسلمون لمن أوكلت لهم مهمة التفاوض مع الآخر غير المسلم، حيث عرف المسلمون استعمال الأسلوب المناسب واللهجة اللائقة في إشاراتهم إلى كل العاقدن بما يليق من مكانة التعظيم أو انحطاط الرتبة واستعمال ما يتطلبه كل موقف من ملاينة أو تشدد، فإن كانت المهادنة بين متكافئين تطلب ذلك المساواة بينهما في التعظيم، وإن كانت المعاهدة من قوي إلى ضعيف (وهو ما يأخذ به الرحالة المغاربة) أخذ في الاشتداد، ويظهر ذلك بشكل خاص عندما يكون المتعاقد القوي مسلما والمتعاقد الضعيف أوروبيا، ويضاف إلى ذلك ذكر ما للإسلام من عزة... أنظر: عمر كمال توفيق، مرجع سابق، ص202.

(2) أحمد المكاوي، مرجع سابق، ص32.

(3) سورة المائدة، الآية 23.

(4) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص127.

(5) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص88.

كما حرص هؤلاء الرحالة السفراء على إظهار تعفّفهم مما لدى الآخر؛ حتى وإن كان في إطار المسائل الدبلوماسية، ففي إطار الاعتداد بالذات لم يستجب أعضاء سفارة الغساني لما عرضه عليهم ملك إسبانيا من قضاء ما يرغبون فيه من أغراض⁽¹⁾، ويصرح الغساني أنه يحاول من خلال مثل هذه التصرفات أن يرفع ويعلي بالمنصب الإسلامي يقول: «...دخلنا على الطاغية...وسأل الترجمان هل لهم غرض نسرع لقضائه: فأظهرنا من الإعراض عن ذلك ما هو لائق بالمنصب الإسلامي والحمد لله»⁽²⁾، وهو نفس الطلب الذي طلبه أمير هولندا من الحجري، إلا أن الأخير لم يأخذ الموقف الذي ذكره الغساني، فالحجري كان أكثر مرونة في التعامل مع هكذا مواقف، والأمر يعود طبعا لتغير ظرفيات الرحلة وطبيعة الرحالة وخلفياته وأسباب ودوافع كتابة رحلته والضغط الممارسة حيال ذلك.

وبمثل ذلك رفض الغزال ومن معه في الوفد السفاري المغربي عرض الملك الإسباني لإكرامهم بأي شيء يطلبونه، فجاء رد السفير المغربي حول هذا العرض: «قلنا له: قد وفيت بما كنا نأمله من فكاك الأسارى...وأما غير ذلك من حطام الدنيا فلا نلتفت إليه، ولا نرضى أن نخاطب به، ولدينا من الذهب والفضة واليواقيت شيء كثير، فنحب من الطاغية ألا يساومنا بذلك ويحفظ علينا مروءتنا...»⁽³⁾.

وفي موقف مشابه نجد المكناسي يرفض قيام الإسبان بدفع تكاليف إقامته: «...فأجبت الخزندار بأن الله تعالى أغنانا بسيدنا ومولانا فلا نتوقف على شيء...»⁽⁴⁾ وأيضا إظهار عزة الإسلام: «...وورد علينا الذي بيده الدخل والخرج فسلم وقال إن الطاغية أمره أن يكون عند أمرنا منفذا لجميع مئارينا ما دمنا ببلده، فأظهرنا من التعفف والإعراض عما بيده ما يناسب جلال الإسلام...»⁽⁵⁾.

كما سعى الرحالة المغاربة كذلك لكسب هذه الهيبة في الأوساط الشعبية الأوروبية من خلال إظهار غناهم المالي وإغداقهم للسكان في أوروبا لهم به، يقول الغزال: «وكلما حللنا مدينة يأتي المتولي أمر الشلظاظ بعدد منهم للدار التي نحن بها فيمكنون بالباب مدة اقانصا زيادة في التعظيم والتنويه بنا، ولا ينصرف أحد منهم إلا بعد سيرنا، فنكرمهم بما يناسب وتقتضيه المروءة الإسلامية ونصرف عنهم، ومن عادتهم أنهم يتحدثون بما أكرموا به، ولهم في ذلك فخر وعظمة من إكرام الباشدور إياهم، وهكذا في كل مدينة...»⁽⁶⁾.

(1) أحمد المكاوي، مرجع سابق، ص 33.

(2) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 153.

(3) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 142-143.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 22، 52، 56.

(5) المصدر نفسه، ص 172.

(6) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 173.

وحاول المكناسي إبراز عزة الإسلام وعزة مرسله في كل موقف، ومن ذلك أنه لما زار دير الراهبات اللاتي طلبن مساعدة مالية منه: «...ثم أخذت تشتكي من أهل البلد من أنهم لا يواسونهن بشيء من الصدقات...ونصبت أحبولتها وكان معنا جمع غفير من أعيان الروم، فواسيتهن بما تيسر، مرغما بالله أنوف من كفر...»⁽¹⁾.

وتواصل هاجس إظهار الأبهة عند الرحالة المغاربة ليس فقط خلال تواجدهم في أوروبا بل حتى بعد عودتهم إلى المغرب؛ فلما رافق السفير الإسباني الغزال ممثلا لبلاده في محادثات الصلح عمل المغاربة أن يهيئوا له أحسن استقبال ورأى الغزال في ذلك عزا للمغرب وعظمة للمسلمين «...نهيء ما لا بد منه مما هو مناسب لأبهة المسلمين عند ملاقة الباشدور بالقوم وأن نحتفل بما فيه زيادة على ما شاهدناه ببرهم عند ملاقاتهم إيانا...»⁽²⁾.

فعمد المغاربة لإخراج وإطلاق المدافع، وإعلام حكام المدن بالخروج مع ساكنتها لاستقبال السفارة الإسبانية، وما رافق ذلك من احتفالات ورقص بالخیل وإطلاق البارود⁽³⁾، واختيار أحسن دور المدينة لينزل بها السفير الإسباني المرافق للبعثة المغربية⁽⁴⁾، كما بالغ المغاربة في إبراز هذه الأبهة في الإطعام، وكان الهدف المرجو من هذه الحفاوة المغربية هو التغلب عن تلك الأبهة التي أُستقبل بها السفراء المغاربة في إسبانيا وتأكيدا لغنى بلاد الإسلام وخصبها: «...مما فيه زيادة عما شاهدناه من طعام طاغيتهم، مما يدل على خصب بلاد الإسلام، وما هي عليه من بسط النعم والخيرات التي لا حد لها ولا نهاية...»⁽⁵⁾.

ونهج المكناسي على سبيل سلفه الغزال، فحين نزوله بسبته في أوبته من رحلته إلى إسبانيا رأى: «كانت ترد علينا الفلائك من تطوان وطنجة بأمر مولانا المنصور بالله حاملة الغنم والبقر وجميع ما نتوقف عليه من المؤن، فكان ذلك من إظهار رفعة الإسلام وإعزاز الدين ما لا خفاء فيه...»⁽⁶⁾.

ويبدو أن المغاربة وصلوا إلى هدفهم في التعبير عن قوتهم وعز بلادهم وسلطانهم وذلك ما يظهر من تلك الفقرات التي أوردها الغزال وتصور ضيوفهم الأوروبيين مندهشين: «...وقد شاهد هذا الكافر ما لم يشاهده غيره من الباشادورات من المباشرة التي في طيها قمع الكفرة والغلظة عليهم وإظهار قوة الإسلام...»⁽⁷⁾، «...وشاهد الكافر

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 158.

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 222.

(3) المصدر نفسه، ص 225.

(4) المصدر نفسه، ص 221.

(5) المصدر نفسه، ص 224. محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 191.

(6) المصدر نفسه، ص 190.

(7) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 228.

من ذلك ما أذهله»⁽¹⁾، «ولم يزل الباشدور يتحدث هو وقومه عما شاهدوه، وكل واحد يزيد عن الآخر في الحديث، وقالوا: "لو سمعنا أن المسلمين على هذه الحالة ما صدقناه، ولا شيء أقوى من المشاهدة والأعيان»⁽²⁾.

ويظهر الرحالة المغاربة نصاقضين في تفسيرهم للاستقبالات الدبلوماسية والشعبية التي حظوا بها في أوروبا، وتلك التي قدموها هم للسفراء الأوروبيين الذين زاروا المغرب، فبعد أن اعتبر كل من الغزال والمكناسي أن الأولى تعبير عن التعظيم والإجلال للسلطان المغربي، وعز للدين الإسلامي، وتشريفا للسفير المغربي، وإذلالا واحتقارا للأوروبي المضيف، كان من الغريب أن نراهم يسجلون صورة عكسية حين استضافتهم للسفراء الإسبان في المغرب أو قرب الثغور، صورة أرادوا من خلالها تأكيد هيبة المغرب وقوته وكرمه وخصب بلاده وقوة جيشه، صورة أراد من خلالها -ربما- الغزال على وجه الخصوص محو تلك الصورة التي نقلها عن إسبانيا، واعتبار الضيافة وقرى الضيف "السفير" مجالا آخر للتنافس بين المغرب وإسبانيا، أو بين المسلمين والنصارى، كيف لا والغزال يفسر ما ظهر عليه الإسبان الذين استقبلوه من رفاة عيش في مأكل وملبس وحلي يراد به حسبته: «... أن القصد منهم هو إظهار القوة والسعة في المال وما هم عليه من البسط والنعم...»⁽³⁾، وبذلك كانت حفاوة الاستقبال مجالا آخر للتعبير عن الذات.

ولا عجب أن يُنتج مدونو هذه الرحلات صورا مماثلة ما دام أن هؤلاء السفراء موظفين لدى سلطان المغرب وأن هذه النصوص الرحلية سوف ترفع في الغالب كتقارير للسلطات العليا في المغرب بل وفي كثير من الأحيان تكتب تحت إشرافها، وهي تكتب غالبا بعد العودة من الرحلة، أي أن صاحب الرحلة لا يكتب متحررا تماما من أي قيود، وفي الحقيقة فإن هذا الأمر صعب جدا من فهم الآخر الأوروبي، واكتشاف مكان قوته وضعفه، بل إن الرحالة المغاربة عكسوا الصورة التي كانت مرتسمة في مخيال المغربي الجازمة بالتفوق الإسلامي والمغربي في مقابل دونية الآخر الأوروبي وضعفه.

(1) المصدر نفسه، ص 226.

(2) المصدر نفسه، ص 226-227. ص 222. ص 223.

(3) المصدر نفسه، ص 89.

رابعاً: العلاقات الإسلامية-الأوروبية خلال القرنين 17 و18م (القلق المتبادل)

تميزت العلاقات الإسلامية-الأوروبية منذ مطلع العصر الحديث بوضع اتسم بالتشنج والصراع والخوف والقلق المتبادل، إلا أنه لا ينفي وجود محطات خلال هذه الفترة اتسمت بالتوجه إلى التقارب والمهادنة، وهو ما أكدته الصور التي حملتها نصوص رحلات السفراء المغاربة إلى أوروبا منذ مطلع القرن السابع عشر إلى الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وهي بلا شك قضايا ساهمت بشكل كبير في تشكيل أو إعادة إحياء أو ترسيخ "صورة الآخر" من كلا الجانبين، وقد ظهر هذا الصراع على مستوى عديد المجالات وفي عدة قضايا:

1- القضية الموريسكية وأبعادها

- القضية الموريسكية بين نظرتين

شكلت القضية الموريسكية إحدى أهم قضايا التوتر بين العالمين الأوروبي والإسلامي منذ مطلع العصر الحديث، فمن سقوط الأندلس 1492م، وصولاً إلى الطرد النهائي لبقايا الأندلسيين هناك عام 1609م، كان الصراع الإسلامي الإسباني محتدماً، إذ كانت هذه القضية أحد أهم القضايا التي شكلت صورة "الآخر" "المسلم" و"النصراني" لكل طرف، وساهمت في تشكيل تمثلات حوله لم تبق حبيسة زمنها بل امتدت لتصل حتى الفترة المعاصرة، وعليه فقد انفردت رحلة الحجري بسرد ما لقيته الطائفة الموريسكية في إسبانيا وأوروبا أكثر من غيرها من الرحلات، باعتبار صاحبها معني بالقضية وشاهد عيان حولها، وتظهر في نص رحلته كأهم حدث سياسي في أوروبا والعالم الإسلامي مع نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر.

ويلخصها أحمد الحجري في رحلته وفق نظرتين؛ نظرة موريسكية (يمثلها الحجري نفسه) تحدث فيها عما عايشته هاته الأقلية في إسبانيا قبل الطرد، وكان تركيزه حول التضييق على الممارسات والطقوس الدينية التي مورست على الأندلسيين فكل من كان له صلة بالإسلام ورموزه كان يعذب ويلقى في المحارق أو يهجر، كما وضحنا ذلك في الفصل المتعلق بالتعصب الديني الأوروبي، وهو موقف ظهرت فيه إسبانيا التعصب الديني، إسبانيا الناكثة للعهود والمواثيق، إذ أنها أخلت بالتزامها بمنح الحرية الدينية للطائفة الموريسكية بعد سقوط غرناطة وفرضت عليهم التنصير أو الموت والطرده وهو ما كان.

ليتطرق الحجري بعدها لخلفيات ودوافع وحيثيات الطرد النهائي لمسلمي الأندلس سنة 1609م، معتمداً الرواية الرسمية للسلطات الإسبانية في تبريرها لهذا الطرد⁽¹⁾، فمن المهم التأكيد أن الحجري يبين بصفة مباشرة أنه

(1) ويشير محقق رحلة الحجري حسام بن شاشية أن توظيف الحجري للرواية الرسمية الإسبانية -حول قرار الطرد- يأتي في إطار توظيفه لهذه الأخيرة في إطار رؤية تجعلها خادمة للرواية التي حاول تقديمها عن الجماعة الموريسكية، كجماعة مسلمة هاربة بدينها من العدو الكافر، بمعنى أن الرواية ليست موجهة فقط

سيذكر الأسباب التي برر بها ملك إسبانيا عملية الطرد، يقول: «...وذكرنا أيضا الأسباب التي قال سلطان النصارى إنها حملته على إخراج المسلمين من بلاده...»⁽¹⁾ وأجل الحجري هذه الأسباب والدوافع كما يلي:

- دينيا: في صورة يظهر فيها الموريسكي معاديا للعقيدة المسيحية؛ والتقية التي التزم بها الموريسكيون أنها نفاق، وتبين رسالة الملك الإسباني لعامله في فالنسيا- التي ترجمها الحجري- قبيل الطرد 1609م، أن الموريسكيين يمثلون تهديدا صريحا (وفق النظرة الإسبانية) للوحدة الدينية والعقائدية في إسبانيا ومما جاء في ديباجة الرسالة⁽²⁾: «... وحكم عليهم (الموريسكيون) أنهم منافقون وأعداء للمقام الإلهي والإنساني...»⁽³⁾ فالسبب الأكبر في طرد المسلمين هو محافظتهم على دينهم الإسلامي وعدم ميلهم للنصرانية، ومما جاء في هذه الرسالة أيضا: «قد علمت ما صنع وعمل النصارى الجدد»⁽⁴⁾ الأندلس أهل تلك السلطنة وقشتالة على طول السنين الكثيرة الماضية من التحريف والإرشاد لإثباتهم في ديننا المجيد وإيماننا (يعني دين النصرانية) ولا نفع معهم قليلا ولا كثيرا لأنه لم يجد واحد من هو نصراني حقيقة...»⁽⁵⁾.

- ديمغرافيا: كان العامل الديمغرافي سببا آخر للطرد؛ ففي إجابته عن سؤال الأمير الهولندي: «ما السبب الذي ظهر لك في حمل سلطان إسبانيا على إخراج الأندلسيين من بلادهم؟» يذكر الحجري تخوف السلطات في إسبانيا من تزايد خطر الموريسكيين الديمغرافي؛ مقارنة مع نظرائهم الإسبان المسيحيين، وعن سبب هذا التفاوت الديمغرافي يلاحظ الحجري أن زيادة عدد المسلمين عائد لعدة أسباب وهي؛ عدم مشاركتهم في الحروب؛ والحرب كما قال: «تفني كثيرا من الناس»، وذلك راجع إلى انعدام ثقة السلطات الرسمية الإسبانية في صدق إيمان الموريسكيين وولائهم للتاج جعلها لا تعتمد عليهم (الموريسكيين) في الخدمة العسكرية وإشراكهم في الحروب الإسبانية، ومنعهم الإبحار: «والبحر يفني كثيرا من الرجال»، مضيِّفاً إلى ذلك عدم انخراط أفراد الجماعة الموريسكية في أنظمة الرهينة (عدم زواج الرهبان)، التي تحد من الزيادة الديمغرافية في أعداد المسيحيين⁽⁶⁾.

إلى المهجرين، بل أساسا إلى جماعات الاستقبال المحلية، فكأن الراوي يجعل الأسباب التي قدمتها السلطات الرسمية لطرد الموريسكيين، خصوصا مقاومتهم لعمليات التنصير، وتآمرهم مع الأعداء على الدولة الإسبانية، أدلة على صدق إيمان هؤلاء، وانتمايتهم إلى العالم الإسلامي، لا المسيحي، مسألة كما سنرى في بقية الكتابات الموريسكية، ظلت محل شك في بلدان الاستقبال حتى بعد أكثر من قرن من صدور قرار الطرد، تغذيها بعض الأحداث والمواقف الموريسكية من حدث الطرد

(1) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 121.

(2) ويؤكد الحجري وفقا للرسالة التي بعثها الملك الإسباني فيليب الثالث لعامله بمدينة فالنسيا، وما حملته هذه الرسالة كانت نتيجة مشاورات بين الحكومة الإسبانية والكنيسة. أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 112.

(3) المصدر نفسه، ص 111.

(4) المقصود هم المسلمين الذين أجبرتهم محاكم التفتيش على التحول للنصرانية.

(5) المصدر نفسه، ص 111.

(6) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 122.

وما دليل هذا التخوف الإسباني من النمو السكاني لمسلمي الأندلس إلا تلك الإحصاءات التي درج الملوك الإسبان على القيام بها في حقهم، ومنها الإحصاء الذي قام به الملك فيليب الثاني (1556-1598)، يقول الحجري: «وهذا فيليب الثاني أمر في بلاده كلها قبل خروجي منها أن يزمو جميع الأندلس صغارا وكيارا حتى التي في رحم النساء بظهور الحمل، ولا علم أ حد السر في ذلك... ثم بعد ذلك بنحو السبع عشرة سنة عملوا زماما آخر مثل الأول... إنهم أرادوا أن يعلموا هل كانوا في زيادة أم لا، ولما وجدوا زيادة كبيرة أمروا بقرب ذلك بإخراجهم»⁽¹⁾.

فيما يذكر الغساني سببا غريبا لهذا الطرد لم تتطرق إليه كثير من المدونات التاريخية، وحتى القرية منها مثل الحجري نفسه، فذكر أن الطرد كان استجابة لطلب الدولة العثمانية بإجلاء المسلمين هناك: «فرعموا أن ملك الترك كتب حينئذ كتابا إلى وزير فلب طرسير (فيليب الثالث)، يطلب منه أن يتسبب في إخراج من بهذه العدو من بقايا الجنس الذي غلب عليه، ويتخذ بذلك عنده يد وصحبة»، ويبدو أن السفير المغربي كان في موقف شك من هذه الرواية التي لم يطلعنا عن مصدرها، كما أنه يحمل الإسبان مسؤولية الطرد بعد أن لمسوا الزيادة العددية للسكان الموريسكيين مقارنة بالنصارى هناك وتخوفهم من الثورة عليهم⁽²⁾.

- **سياسيا:** وبقدر ما كان للعامل الديني والديموغرافي من تأثير في إصدار السلطات الإسبانية لقرار الطرد في حق الموريسكيين المسلمين سنة 1609م، فإن الأسباب السياسية لا تقل أهمية في ذلك، فحسب الصورة التي ينقلها الحجري فإن الإسبان نظروا إلى الوجود الموريسكي كمركز إسلامي في قلب إسبانيا باعتباره تهديدا قويا للكيان السياسي الإسباني ووحده، بل ونظر الساسة الإسبان لمسلمي الأندلس كقوة مساندة لأي تهديد خارجي محتمل ضد إسبانيا سواء من شمال إفريقيا أو من الأتراك العثمانيين، واحتمال تواجدهم كدعم للهولنديين البروتستانت في حربهم ضد الإسبان، وهذا ما أكدته رسالة الملك فيليب الثالث (1598-1621م) إلى عامله في فالنسيا أيضا: «...وصح من وجوه أنهم بعثوا (أي الموريسكيين) للتركي الكبير باصطنبول، ومولاي زيدان بمراكش رسلهم يطلبون منهم أن ينجدوهم، وأنهم عندهم مائة وخمسون ألف رجلا مسلمون مثل الذين ببلاد المغرب الأفريقية، وأيضاً بعثوا لأعدائنا البحرية بالجهة الشمالية التي تحت القطب، وأنعموا أنهم يعينهم بسفنهم...».

ويشير فيليب الثالث في رسالته كذلك أن الظروف الدولية مواتية للموريسكيين لتنفيذ تهديدتهم ضد إسبانيا: «وأما سلطان اصبطنبول قد اصطلح مع سلطان الفرس لأنه كان يشغله، وأما سلطان مراكش فقد عزم على تدويخ البلاد وتسكينها، وإذا اتفقوا جميعا مع هؤلاء نرو نفوسنا في الأمر الذي لا يخفى، وللقيام بما لزمنا من حفظ مملكتنا،

(1) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص111.

(2) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص98.

ودفع ما يعرض لها اتفق نظرنا...على إخراج جميع الأندلس الذين هم من تلك السلطنة (فالنسيا) لأنه أقرب للغرر، ولا إنجاز ذلك أمرنا بإشهار هذا الأمر وينادي به»⁽¹⁾.

وعلى هذه الأسباب مجتمعة صدر قرار الطرد في حق الموريسكيين بتاريخ 22 سبتمبر 1609م، وحدد لهم مهلة ثلاثة أيام للخروج من إسبانيا، مع السماح لهم بأخذ كل ما يستطيعون حمله، وتوعد بقتل كل من لم يغادر البلاد أو يحاول دفن أمتعته، كما سمح القرار لجيران الموريسكيين بالسهر على تنفيذ الأمر الملكي، فحصلت بسبب ذلك تجاوزات وانتقامات، شاهدة على حقد حضاري وعنصري إسباني وعجز عن التعايش مع هذه الأقلية⁽²⁾.

- القضية الموريسكية قضية دولية

قدم لنا الحجري من خلال نص رحلته الأبعاد التي أخذتها القضية الموريسكية بعد الطرد النهائي للمسلمين من إسبانيا على عهد الملك فيليب الثالث بداية من سنة 1609م، ووفقا للصورة التي حملها نص رحلته تظهر هاته القضية في صدارة القضايا الدولية في هذه الفترة، لذا حاول السفير المغربي إبراز تأثيراتها على العلاقات سواء الإسلامية-الأوروبية، أو العلاقات الأوروبية-الأوروبية.

فبعد الطرد شكلت محنة الموريسكيين المهجرين إحدى أكبر المشاكل الإنسانية والعرقية والدولية نهاية القرن 16 وبداية القرن 17م، وتناولها الحجري كجزء من هذه المعاناة، فيذكر أنه بخروجهم إلى البحر تتواصل محنة الأندلسيين، حيث تم سرقتهم ونهبهم من طرف قراصنة أوروبيين، لذا لجأ هؤلاء إلى المغرب الأقصى والسلطان حينئذ زيدان السعدي، يقول الحجري في ذلك: «...واتفق لكثير من مسلمي الأندلس عند خروجهم بأن نهبهم في البحر النصارى؛ وأكثرهم الفرنج البحرية الذين اكتروهم ودفعوا لهم أجرهم على أن يبلغوهم في عافية وأمان إلى بلاد المسلمين...وبعد أخذ كل ما كان لهم أخرجوهم في بعض الجزر من بلاد المسلمين...»⁽³⁾.

أما على مستوى الدول الإسلامية فكانت هذه القضية من المسائل التي اهتم بها الحكام المسلمين مشرقا ومغربا، واتفق حولها الطرفين المغرب والعثماني، مستغلين السبل الدبلوماسية لمساعدة الموريسكيين في محنتهم؛ ليعرج الحجري على تدخل سلطان المغرب في القضية الموريسكية من أجل استعادة ما نهب الأوروبيين منهم، فيؤكد قدوم بعض الموريسكيين على السلطان زيدان السعدي طلبا للمساعدة، فما كان من هذا الأخير إلا أن وجه رسالة إلى فرنسا حملها الحجري نفسه بهدف إيجاد حل لهذه الأزمة⁽⁴⁾، إلا أن الأزمات الداخلية والفتن الطويلة التي كان يمر بها المغرب منعت من أن تكون مساهمتهم أكبر على المستوى الدولي.

(1) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص111.

(2) عبد المجيد القدوري، مرجع سابق، ص58.

(3) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص46.

(4) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص46.

وأعطتنا رحلة الحجري كذلك رؤية تعكس إحدى مواقف الدولة العثمانية من القضية الموريسكية وخاصة الموريسكيين الذين هجروا إلى مختلف البلدان الأوروبية⁽¹⁾، فلما كانت العلاقات العثمانية الفرنسية جد مميزة خلال القرن السادس وحتى القرن السابع عشر، ذكر الحجري أن السلطان أحمد الأول (1603-1617م) وجه رسالة إلى السلطات الفرنسية⁽²⁾ بهذا الشأن: «...ولما صح عند سلطان إسطنبول بخروج الأندلس الذين يسمونهم ببلاد الترك بمدجنين كتب كتابه السني إلى سلطان فرنجة بالوصية عليهم، ونفع ذلك الكتاب الأندلس نفعا عظيما»⁽³⁾، لذا لم يتباطأ الفرنسيين في تحقيق مأرب السلطان العثماني: «...قالوا للقضاة: نأمركم أن تقفوا مع وكيل جميع المسلمين لأن السيد الكبير (يراد به السلطان العثماني) كتب لنا في شأنهم وهذا الاسم لا يسمونه به أحدا من ملوك الدنيا وذلك ببركة الإسلام في الدنيا إذ هو أعظم سلاطينها»⁽⁴⁾، ورغم تباين التأثير والثقل السياسي لكل دولة في تدخلها لصالح الموريسكيين لدى الدول الأوروبية، إلا أنها تعبر بلا شك عما مثلته القضية الموريسكية في أجدات أهم القوى السياسية الإسلامية حينئذ.

من جهة أخرى كرست القضية الموريسكية استمرار الصراع والقطيعة بين قوى العالم الإسلامي وإسبانيا الكاثوليكية، والنفور من السفر إلى هذه الأخيرة ولو على سبيل العلاقات الدبلوماسية، وفي ذلك يقول الحجري حول رفض الدولة العثمانية لإقامة علاقات دبلوماسية مع إسبانيا: «...وصح أن سلطان اشبانية-وهي بلاد الأندلس-أراد أن يبعث رسولا للقعود مثل سائر ملوك النصارى ولم يقبلوه، لما تحقق من عداوته للإسلام، وغدره فيما مضى...والعهود الذي عاهد المسلمين حين أخذ بلادهم ثم نكثها، وأن حين أمر على الأندلس بالخروج من بلاد... ولم يكن لسلاطين المسلمين أعداء ولا أضر من سلاطين اشبانية، ويضرون سلاطين المسلمين وهم لا يشعرون...»⁽⁵⁾.

(1) وتعددت الرسائل التي بعثها السلطان العثماني أحمد الأول لحكام وملوك أوروبا بخصوص القضية الموريسكية؛ سواء مع بريطانيا وملكها جيمس الأول، وطلب مساعدته في احتضان الموريسكيين الذين غادروا إسبانيا وتنقلهم إلى أراضي الدولة العثمانية، إلا أن بريطانيا سبق وعقدت معاهدة سلم مع إسبانيا سنة 1604م ولم تستجب للسلطان العثماني، كما تدخل الدولة العثمانية لدى دوق البندقية من أجل نفس القضية وتسهيل مرور الموريسكيين عبر أراضيهم للمرور للبلاد الإسلامية. عبد الجليل التميمي، *الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين*، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان-تونس، 1989، ص 43-44.

(2) ويعد ما ذكره الحجري متطابقا جدا مع ما أكدته الوثائق التاريخية ومنها الرسالة التي وجهها السلطان العثماني أحمد الأول إلى ملكة فرنسا ماري دي ميدتشي (Marie de Medecis) الوصية على ابنها لويس الثالث عشر، وهي الرسالة التي التي يطلب فيها السلطان أن تساعد الموريسكيين الذين نزلوا بجنوب فرنسا وتوفير عدد من السفن ليتم نقلهم إلى أراضي الدولة العثمانية أو إلى حيث يرغبون من البلاد الإسلامية، وقد استجابت الملكة لنداء السلطان. أنظر: المرجع نفسه، ص 43.

(3) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 49.

(4) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 84.

(5) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 99.

ولم يكتف الحجري بذلك بل أعطى معلومات مميزة عن محاولة بعض الأطراف الأوروبية في إطار الصراعات الأوروبية-الأوروبية استغلال الأزمة الموريسكية؛ مثل ما كان عليه الأمر من محاولة أمير هولندا واقتراحه لتحالف بينه وبين المسلمين في المغرب والقسطنطينية وبقايا الأندلسيين بإسبانيا من أجل شن حرب على إسبانيا في ظل الصراع الهولندي-الإسباني الناتج عن الصراع الديني البروتستانتي-الكاثوليكي، ويقول الحجري في فحوى الحوار الذي دار بينه وبين أمير هولندي بمدينة لاهاي بعد أن شرح له الحجري وضعية الموريسكيين: «...قال لي (أي الأمير الهولندي) لو اتفقنا مع كبراء الأندلس، ونبعث لهم عمارة من سفن كبيرة ليركبوا فيها مع جنودنا نأخذ إسبانيا، قلت: لا يمكن للأندلس أن يتفقوا على هذا إلا بإذن السلاطين الذين خرجوا ببلادهم وسكنوا بها، قال: لو كنا نتفق مع سلطان مراكش، ونبعث للسيد الكبير-أعني السلطان الأعظم، سلطان الإسلام والدين-ونتفق على سلطان إسبانية نظفر به، ونأخذ بلاده، قلت له أمر عظيم لو حصل، وفي تحصيله شك، وأما لو كان هذا الاتفاق فيأخذون بلاد الأندلس- أعادها الله دار إسلام-...»⁽¹⁾.

وبالحديث عن الهولنديين يقدم لنا الحجري صورة عن علاقاتهم مع العالم الإسلامي، إذ كانت العلاقات بين الطرفين جيدة (خاصة مع المغرب الأقصى)، يقول في ذلك: «...ولما رأيت وتحققت من عمل الفرنج البحرية مع المسلمين قلت بل نمشي إلى فلنضس (هولندا) لأنهم لا يضرّون المسلمين بل يحسنون إليهم...»⁽²⁾.

وكانت هذه العلاقة الطيبة سببا في نقل صورة عن هولندا أقل حدة من نظيراتها في أوروبا، والحقيقة أن هذا التقارب الإسلامي الهولندي جاء بسبب وجود عدو مشترك بين الطرفين ألا وهو "إسبانيا الكاثوليكية" التي مارست اضطهادات ضد مسلمي الأندلس، والعداء المباشر لإسبانيا للمسلمين في البحار وتحرشاتها على سواحل شمال أفريقيا، والأمر نفسه ينطبق على هولندا التي كانت في صراع من أجل التخلص من الهيمنة الإسبانية، أي أن العدو المشترك هو الذي قرب العلاقات بين المسلمين وهولندا.

ومن مظاهر هذا التقارب الهولندي-الإسلامي كان الهولنديون في إطار الصراع الهولندي الإسباني، عندما يستولون على سفينة إسبانية محملة بالأسرى بالمسلمين يُطلق سراحهم وتُبعث إلى بلاد المسلمين أي إلى مراكش، ولا بد أن السبب في ذلك هو بهدف التقرب من سلطان مراكش الذي كان عدوا للإسبان، فعُدو العدو صديق، ولا أدل من ذلك من عرض الأمير الهولندي (موريس دي ناسو Mourice de Nassou)، الذي عرض على الحجري إمكانية تحالف بلاده هولندا مع المغرب والدولة العثمانية من أجل تحرير الأندلس⁽³⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 109.

(2) أحمد الحجري (أفواي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 117.

(3) المصدر نفسه، ص 122.

2- الصراع على الحدود والثغور المغربية

ظهرت صورة هذا القلق المتبادل بين المغرب وإسبانيا «على أن هذا الجنس هو أشد عداوة وبغضا للمسلمين، حتى أنه يلقب بالعدو الأزرق...»⁽¹⁾، على الثغور المغربية المحتلة، فذكر الحجري صورة التأهب العسكري الذي أظهره كلا الطرفين في سياق التوجس الذي طبع العلاقات، حتى أنه يتعجب من حالة التحصين الإسباني في مدينة البربجة: «...وتعجبت المنع الذي في بنيان صورها هو أساسه على حجر ووسعة ثلاثة عشر ذراعاً ولا يبالي بكور الأنفاط (المدافع) في إتقانه وصلابته وغلظته»⁽²⁾، أما عن الجانب المغربي: «...ثم صعدنا الجبل ورأينا المسلمين يحصدون فلما قربنا منهم جاؤوا إلينا بأسلحتهم، ولما وصلوا قلنا: نحن مسلمون...»⁽³⁾.

وبالرغم من إرادة السلم والوفاق التي عرفها المغرب في عهد السلطان محمد بن عبد الله خلال النصف الثاني من القرن 18م، إلا أنها شهدت فترات صراع مع الدول الأوروبية، واتخذ هذا الصراع أشكالاً مختلفة، مثل الصراع بين المغاربة والإسبان على الحدود في مدينة سبتة، إذ ركز الغزال عن معاناة الإسبان من الحصار المغربي، وكان يتناول المسألة بنوع من الافتخار والاعتزاز: «فانظر عزة الإسلام وهيبة الله تعالى التي ألقاها على عباده المؤمنين، حتى أن حاكم سبتة طلب منا أن نتكلم مع المجاهدين على أن يتركوا رعاة ماشيتهم يسرحون قرب موضع رياضهم بقليل...»⁽⁴⁾، وهي نفس الصورة التي أكدها ابن عثمان بعده⁽⁵⁾.

ولم تقتصر المواجهة المغربية الإسبانية على مرابطة المجاهدين ومحاصرتهم الدائمة للثغور المغربية المحتلة، بل كانت أحيانا مفتوحة وتتم بإعلان الحرب بين الطرفين، ومنها حصار وفتح مدينة العرائش على يد السلطان مولاي إسماعيل سنة 1689م كما بين ذلك الغساني، وسجل المكناسي في هذا الصدد حصار السلطان محمد بن عبد الله لمدينة مليلية سنة 1774م: «ثم إن مولانا أيده الله من كثرة رغبته في الجهاد والذب عن العباد والبلاد، ظهر له أن يربط على قلعة مليلية...وخيم على القلعة-أعادها الله دار إسلام- في أوائل شوال من سنة ثمانية وثمانين ومائة وألف، وحميت الحروب وطال الحصار نحو الأربعة أشهر»⁽⁶⁾.

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 78-79.

(2) أحمد الحجري (أفواي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 69-70.

(3) المرجع نفسه، ص 75.

(4) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 54.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، الأكسير، مصدر سابق، ص 07-08.

(6) المصدر نفسه، ص 141.

وبذلك شكلت حدود التماس تعبيراً آخر عن حالة الصراع بين الطرفين المغربي والإسباني على حدود المدن المغربية المحتلة من قبل الإسبان، فتظهر هذه المدن على أنها قلاع وحصون عسكرية أكثر منها مدن أهلة بالسكان، والأمر نفسه ينطبق على المدن والمراسي الأوروبية حتى أن أكثر ساكنة مدينة جبل طارق من الجنود: «...وهي مدينة متوسطة إلى الصغر أقرب وأكثر عُمارها الشلظاظ (الجنود) ومن في معناهم، وليس بها كبير تجار ولا عمار مثل الخواص التي تقصد للسكنى حيث كانت طرفاً وفي مقابلة بر الإسلام...»⁽¹⁾.

كما كان للهجمات الأوروبية على السواحل المغربية دور أساسي في ازدياد القلق والخوف بين الطرفين، وذكر الغزال مثلاً على ذلك في الهجوم الفرنسي على المدن الساحلية المغربية 1764-1765م⁽²⁾، إذ كان الجانب الفرنسي قد: «...هياً عدة مراكب.. وقصد بها الثغور الإسلامية...رمى مرسى سلا من الأنفاط والبونبة ما ظن أن يحصل به على طائل، فأجيب بضعف ذلك، فلم يلبث إلا وأجفانه هاربة تقفوا أواخرها الأوائل، وفرّ هارباً مهزوما ساقط الألوية...وأعاد الكرة...ووثب على مرسى ثغر العرائش...واقترحها بالبنب والمدافع وشحن القوارب الجديدة بالشلظاظ والفسيان ما يزيد على الثمانمائة...» ويتحدث الغزال عن الهزيمة الفرنسية في العرائش بافتخار واعتزاز كبيرين: «فهم بين غريق وقتيل وأسير...ووقعت فيهم غزوة شهرتها كافية عن التصريح بها، وأخبارها في برّ العجم والعرب غنية عن تصنيفها، وقد كساهم الله ثوب المذلة والهوان وملاً قلوبهم رعباً وعمهم الجذع والخذلان...فلم يسعهم إلا الإذعان وطلب الامن والأمان...»⁽³⁾.

بينما يشير المكناسي للحملة العسكرية الإسبانية على الجزائر سنة 1775م، التي قادها الكونت أورللي: «...وهذا الحاكم المذكور هو عدو الله الذي حرّك وتوجه إلى الجزائر في البحر في سنة تسعة وثمانين ومائة وألف، في خمس وعشرين ألفاً، ونزل في البر بقرب الجزائر بنحو ميل، فردّ الله تعالى كيده في نحره وهزم أقبح هزيمة ونصر الله دينه ورجع مذموماً مفلولاً مدحوراً...»⁽⁴⁾.

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 50.

(2) لتفاصيل أكثر حول هذه الهجومات أنظر: محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ج 4، ص 169-170.

(3) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 51.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، الأكسير، مصدر سابق، ص 29.

3- الصراع البحري في البحر المتوسط

إذ كان البحر المتوسط ميدان آخر للصراع المغاربي الأوروبي، وكان الخوف والقلق متبادلا بين الطرفين الأوروبي والإسلامي، واتهام كل طرف للآخر بالقرصنة البحرية، بلغ هذا النشاط ذروته في الفترة الحديثة، وكان له تأثير كبير في الصور التي رسمتها شعوب المتوسط عن «الآخر المسيحي» بالنسبة إلى المسلمين و«الآخر المسلم» بالنسبة إلى المسيحيين⁽¹⁾، فاتهم الأوروبيون المسلمين، لذا جاء تعبير الحجري: «...قلت في نفسي: النصارى تقول عن المسلمين أنهم يطمعون كثيرا في متاع الناس»⁽²⁾، وعلى الطرف الآخر كان الحجري متوجسا من القرصنة الأوروبية بل كان سبب انتقاله إلى هولندا رغبة منه للعودة إلى المغرب في السفن الهولندية لأنه يخشى السفر عبر سفن الفرنسيين لما فعلوه من قرصنتهم لسفن الموريسكيين في البحر المتوسط⁽³⁾.

وتظهر مالطا كمركز للقرصنة وشبكاتها في أوروبا، فقد كانت هذه الجزيرة التي كانت تحت حكم فرسان القديس يوحنا بحكم موقعها الاستراتيجي في البحر المتوسط، تضر كثيرا بالمسلمين حسب ما ذهب إليه الحجري، حتى أن هذا الأخير في قراءته لإحدى النبوءات في إسبانيا تمنى أن تكون الجزيرة المعنية بالفتح العثماني هي مالطا: «وهذا مدينة البحر رجوت الله أن تكون مالطة، لأنها في البحر، وليس للمسلمين أضر منها...»⁽⁴⁾، ما يؤكد فعلا على أهميتها في هذا الصراع، وتأكيده للضرر الذي ألحق بالمسلمين من قبل فرسان مالطا يضيف الحجري: «إن المسلمين الذين فيها أسارى هم خمسة آلاف وخمسمائة رجل، عشرين منهم أندلسي، والباقي تركيون وأولاد عرب...»⁽⁵⁾، فإشارة الحجري هذه تؤكد أن الصراع كان بين العثمانيين والفرسان المالطيين ولا شك أن هذا الصراع يمثل طرفه الإسلامي بشكل أكبر الإيالات العثمانية المغاربية إضافة إلى المغرب الأقصى.

ووافق المكناسي في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ما ذهب إليه الحجري، في حديثه عن مكانة مالطا في الصراع الإسلامي-الصلبي وسط البحر المتوسط، فتكلم في رحلته "البدر السافر" عن فرسان القديس يوحنا وحروبهم ضد المسلمين: «...ولنقص خبرهم-نعني حكام مالطة-فهم لقطاع من مردة الشياطين على إذاية المسلمين في تلك الجزيرة مرابطين...إن رؤساء مالطة شرذمة من بني ملاقطه مجتمعون من زبد كل قبيلة...من سبعة ألسن عبدة الصليب

(1) حسام الدين شاشية، «تطور صناعة صورة المسلم في العقل الأوروبي خلال الفترة الحديثة: تجذر القلق»، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2019، ص 16.

(2) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 122.

(3) المصدر نفسه، ص 117.

(4) المصدر نفسه، ص 61.

(5) المصدر نفسه، ص 62.

الذين لهم لإذاية المسلمين تحديق وتصويب...مضميرين للمسلمين المكر والعدوان...فمن أراد من هؤلاء الأجناس (الأوروبية) المذكورين الدخول في هذا الاتفاق الفاسد... فأول خدمة يخدمها هو أن يسافر في مراكبهم الحربية سنتين بقصد إذاية المسلمين...»⁽¹⁾.

وفي صورة معاكسة كان المكناسي قد عبر عن حجم القلق الذي كان ينتاب الأوروبيين من المسلمين، الأمر الذي تظهره ردود فعل حكام مالطا لما علموا بوصول السفينة التي تحمل الوفد السفاري المغربي وفي أعلاها الراية المغربية: «...حين رأى علم المسلمين أعلا صار المركب، وتلك عندهم علامة على حمل كبير...وانتقل هذا التوجس إلى البعثة المغربية أيضا فنجد ابن عثمان يقرأ وجود مرافق مالطي للوفد المغربي أثناء تأدية فترة الحجر الصحي المفروضة على أنه "جاسوس يتجسس على أهل الكرنتينة"»⁽²⁾.

وبذلك يكون أصحاب الرحلات المغربية وفق نظرة ذاتية متحدثين عن قرصنة أوروبية كانت جزيرة مالطا مركزا لها، وهم في ذلك لا يخرجون عن الخطاب الذي أنتجته الإستوغرافيا الإسلامية حول هذا الموضوع، في مقابل أستوغرافيا أوروبية تحدثت عن قرصنة إسلامية واضعين الإيالات المغربية كمركز لها في شمال إفريقيا، في حين يبدو أن ظاهرة القرصنة في هذا العصر كانت ظاهرة دولية كما يقول بروديل لا دين لها ولا وطن، كما أنها تعبر عن شكل آخر من أشكال المواجهة والحروب وهي حروب ثانوية حلت محل الحروب الكبرى بين القوى الإسلامية والمسيحية في البحر المتوسط بعد القرن السادس عشر⁽³⁾.

4- التوسع العثماني في أواسط أوروبا: وتحتل الحروب العثمانية الأوروبية موقعا مهما في رحلة الغساني نهاية القرن السابع عشر، حيث يعرض للحروب التي قادها سليمان الثالث من أجل استرجاع مدينة بلغراد وما حولها في السنة التي كان فيها السفير الغساني مقيما في مدريد⁽⁴⁾ وعبر السفير عن رد فعله والإسبان من هذه الفتوحات العثمانية: «واستبشرنا إذ ذاك بما خول الله تعالى من نصر للمسلمين، وكان النصارى يرون له بفتح تلك المدينة واسترجاعها قوة وبدأوا يذكرونه أحسن ذكر»⁽⁵⁾، ويبدو الغساني ملما جدا بهذه الأخبار حتى أنه ينقل تفاصيل الإصلاحات التي قام بها العثمانيون بقلعة بلغراد بعد فتحها.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص113.

(2) المصدر نفسه، ص102.

(3) فرنان بروديل، مرجع سابق، ص151-154.

(4) وكان العثمانيون قد استعادوا مدينة بلغراد بعد أن فقدوها لصالح الألمان سنة 1688م ليعاد فتحها يوم 08-10-1690م. أنظر: بلماز أوزتونا، مرجع سابق، ص563.

(5) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص55-56.

5- تبادل وافتكاك الأسرى والمهادنة صفحة أخرى من العلاقات الأوروبية المغربية: ورغم أن الطابع المميز للعلاقات الأوروبية المغربية على امتداد العصر الحديث هو الصراع والتنافس والحروب التي اتخذت أبعاد سياسية وعسكرية وأشكال متعددة تحت تأثيرات وحملات دينية وحضارية وتاريخية وحتى اقتصادية، هذه الصراعات التي أنتجت عدد معتبر من الأسرى على الجانبين، وبقدر ما اعتبرت هذه الظاهرة شكلا من أشكال الصراع ونتيجة له، فإنها اعتبرت كذلك سببا ودافعا من دوافع التقارب الأوروبي المغربي، على الأقل على المستوى السياسي والدبلوماسي، إذ كان لقضية الأسرى أثر كبير في العلاقات بين العالمين المسيحي والإسلامي بصفة عامة، وتظهر هذه الرحلات سعي السلاطين المغاربة لفكاك وتبادل الأسرى خاصة على عهدي السلطانين المولى إسماعيل وحفيده السلطان محمد بن عبد الله، ما فتح للمغاربة بابا للاتصال الدبلوماسي وتبادل السفراء والرسائل والهدايا، قبل أن تتطور إلى معاهدات للمهادنة والصلح، وقد كنا في القسم الأول من البحث قد لاحظنا بشيء من التفصيل أن مسألة الأسرى بين الطرفين المغربي والأوروبي كانت أحد أهم محاور التقارب والحوار بينهما عبر عديد محطات العصر الحديث.

خامسا: العلاقات الأوروبية-الأوروبية خلال القرنين 17 و18م

ولم تخل نصوص الرحلات المغربية خلال هذه الفترة من تقديم صورة كانت فقراتها مهمة جدا، فإن كان الاهتمام بإعطاء صورة للعلاقات الإسلامية-الأوروبية يمكن إرجاعه لمكانة هؤلاء الرحالة واطلاعهم على فحوى هذا الصراع، فإن نص هؤلاء الرحالة نصوصا من تاريخ العلاقات الأوروبية-الأوروبية كان شيئا مميزا، خاصة لما يأتي هذا الاهتمام من رحالة وكتاب مغاربة في تلك الفترة، وعليه فإننا سوف نقف عند أهم ما دونه هؤلاء الرحالة فيما يخص هذا الجانب.

1- الحجري يرصد الصراع الهولندي-الإسباني (1568-1648)

أما الحجري ورغم قلة اهتمامه بهذا الواقع فإنه أعطى صورة عامة حول الجو العام الذي كان يطبع العلاقات الدولية الأوروبية خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، فزامن سفره إلى هولندا ميلاد أوروبا الشمالية كقوة اقتصادية وعسكرية وسياسية قادرة على تجاوز إسبانيا⁽¹⁾.

فتحدث عن العلاقة التي ربطت هولندا بإسبانيا، حيث بين في إطار تعريفه بهولندا أن الأولى كانت تحت نفوذ الثانية، كما أشار إلى حرب الانفصال الهولندية ضد إسبانيا في النصف الأول من القرن 16م: «ومن الجزر السبعة عشر التي ذكرنا، السبع منها قامت على سلطان إسبانية... وكان قوامهم قبل هذا العهد بنحو السبعين سنة⁽²⁾، ولم يقدر عليهم حتى آيس منهم...»، ونوه إلى أن قوة الهولنديين البحرية كانت فارقا في هذا النزاع: «وهم أقوى من جميع النصارى في البحر بالسفن»⁽³⁾.

هذا وقد ربط الحجري تدهور العلاقات الهولندية الإسبانية بالصراعات والانقسامات الدينية التي ظهرت في أوروبا خلال القرن السادس عشر: «...واعلم أن هذا فلنضس هي سبع عشر جزيرة، وجميعها كانت لسلطان بلاد الأندلس، وبعد أن ظهر في تلك البلاد رجل عالم يسمى بلطري (لوثر)، وعالم آخر يسمى بقلبن (كالفن)، وكتب كل واحد منهما ما ظهر له في دين النصارى من التحريف... وقاموا على سلطانهم إلى الآن»⁽⁴⁾.

ولا شك أن هذا الصراع أدى بطرفيه إلى استغلال ما يمكن للفوز به، وقد أشار الحجري إلى طرح الأمير الهولندي إمكانية التحالف مع المسلمين ومالكهم من أجل شن حرب على إسبانيا كما رأينا سابقا.

(1) عبد المجيد القدوري، مرجع سابق، ص 60.

(2) كان الحجري دقيقا جدا في ذكره لمدة الصراع الهولندي الإسباني بذكره أن الحرب بينهما إلى وقت كتابة نص رحلته سنة 1637م، كان سبعين سنة، إذ اندلعت الحرب سنة 1568م، لتستمر بعد وفاة الحجري إلى سنة 1648م، وقد عرفت بحرب الثمانين سنة.

(3) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 106.

(4) المصدر نفسه، ص 105-106.

2- الصراعات الأوروبية-الأوروبية خلال الربع الأخير من القرن 17م

أما الغساني الذي زار إسبانيا سنة 1690-1691م ونقل في نص رحلته صورة عن العلاقات الأوروبية-الأوروبية في الربع الأخير من هذا القرن، إذ تظهر خلال هذه الفترة؛ أوروبا النصارعة فيما بينها، أوروبا الحروب، أوروبا الصراعات بين بلدانها المختلفة وداخل الدولة الواحدة، وفي خضم ما يحصل في أوروبا حاول الغساني إعطاء صورة عن هذا الواقع، وهي صورة اتسمت بالدقة في أغلب النقاط التي تطرق إليها.

- فرنسا في مواجهة أوروبا

يبدو أن العنوان الأبرز للواقع السياسي الأوروبي حينئذ هو "هيمنة فرنسا على أوروبا"، نعم يبدو أن هذا هو العنوان الأقرب للصورة التي نقلها الغساني حول الصراعات في أوروبا نهاية القرن السابع عشر، فالظاهر أن موازين القوى هناك قد تغيرت، إذ يلمس القارئ لنص رحلة الغساني ويلاحظ بلا شك بروز فرنسا لويس الرابع عشر (1643-1715م) أنها القوة الأكبر في أوروبا، فرنسا التي تتدخل في كافة البلدان الأوروبية فمن التوسعات الجالية والجغرافية والدخول في حروب مع معظم القوى الكبرى في أوروبا، إلى التدخل في الشؤون الداخلية لبعض الدول.

وربط الغساني خروج فرنسا عن العقد الأوروبي بسببين: أولهما؛ محاولات فرنسا لويس الرابع عشر التوسع جغرافيا على حساب عدة بلدان أوروبا، غير آبهة بتحذيرات البابا في ذلك، والسبب الثاني في صراع فرنسا مع بقية الدول الأوروبية (التي كانت مجتمعة تحت فكرة الإمبراطورية المسيحية والتي كانت مدعومة من البابا) هو علاقة فرنسا مع الدولة العثمانية: «...وفي أثناء ذلك وقع بين الفرنسيين أيضا وبين الانبرادور ملك لامانيا كلام في شأن المهادنة التي بينه وبين ملك الترك-قواه الله-ودعاه إلى إفساد هذه المهادنة ورجوعه عن مواصلته، فلم يكن من الفرنسيين التفات إلى الانبرادور وإلى ما دعا إليه، فحين صار بينهما ما ذكر من الشنآن أنكر الأجناس الآخر (الآخرون) من المسيحية على الفرنسيين تصممه على خلاف الانبرادور وعدم مساعفته إلى ما دعاه إليه من طرح المهادنة...»⁽¹⁾.

وهذا ما أدى إلى تشكيل حلف أوروبي⁽²⁾ والدخول في حرب ضد فرنسا، يقول في ذلك الغساني: «...فحيث رأوا ما أجمع عليه من عداوتهم لم يكن لهم بد من حربه، حيث أشهدوا على أنفسهم بذلك، واشتعلت

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص119.

(2) وهو ما يعرف في الأدبيات التاريخية بحلف أوغسبورغ وأمتد هذا الحلف بين لمدة تسع سنوات (1688-1697م) حيث تحالفت عدة دول أوروبا ضد فرنسا مدعومة بسلطة البابا والإمبراطور، ففي سنة 1688 تكون تكتل ضد فرنسا ضم ملوك إسبانيا والسويد والإمبراطور وكثير من الدول، وهدف هذا الحلف إلى المحافظة على التوازن الدولي ضد عمليات لويس الرابع عشر العسكرية الممكنة. أنظر: جفري برون، تاريخ أوروبا الحديث، ترجمة: علي المرزوقي، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 2006، ص298-299.

الحرب بينهم بسبب هذا برا وبحرا وما زالت إلى الآن في هياج واشتعال» أما عن الدول التي دخلت في هذا الحلف: «وهذه الأجناس المذكورة هي «الاصبنيول ولامانيا وإيطاليا والسويسة الي يسميها النصارى بيسيية وسابوية...»⁽¹⁾، ولا يكتفي الغساني بذكر الدولة المشاركة في هذا الحلف، بل تعداه لذكر بعض الدول التي لم تشارك فيه مبينا أسباب ذلك، فالبرتغال وجنوة كانت في هدنة مع فرنسا، فيما يذكر الغساني أن الاختلاف المذهبي كان سببا في غياب هولندا وإنجلترا عن هذا الحلف، وعليه تعددت الحروب الفرنسية الأوروبية طيلة هذه الفترة: «وللفرنسيين أيضا حروب أخرى مع أهل بينيسية وإيطاليا ولامانيا وسابوية...»⁽²⁾.

- الثورة الإنجليزية 1688م وأثرها في أوروبا

ومن الأحداث البارزة على الصعيد الأوروبي خلال الربع الأخير من القرن السابع عشر كانت الثورة الإنجليزية سنة 1688م، حيث يقف الغساني عند هذا الحدث في سياق حديثه عن مكانة فرنسا الأوروبية، فرنسا التي تتدخل في كل بؤرة توتر في أوروبا، وهذه المرة في إنجلترا، ورغم ذلك إلا أن الغساني يعطي صورة دقيقة جدا عن أسباب هذه الثورة في إنجلترا، إذ لعب العامل الديني دورا أساسيا في ثورة الشعب الإنجليزي على ملكه "جاك الثاني"⁽³⁾، الذي تخلى عن الكنيسة الأنغليكانية وأعلن اعتناقه الكاثوليكية وقد سبقه في ذلك أخوه "شارل الثاني"⁽⁴⁾.

وقد كان لهذا التحول الديني لملوك إنجلترا انعكاساته على المستوى المحلي ممثلا في اندلاع الثورة هناك، يقول الغساني: «...فحين رأى جنس الإنجليز ما حل بهم من مخالفة ملكهم دينهم واتباعه دين أهل الصليب خافوا سريان ذلك الداء إلى عامتهم، فلا يمكن حسم تلك المادة، وأنكروا على الطاغية ما فعله من التدين، فدونوا ديوانهم مزمرين على قتله، فلما أحس بذلك منهم هرب إلى ملك الفرنسيين هو وزوجته واحتفى به».

واستعرض الغساني كذلك انعكاسات هذا الحدث على العلاقات الأوروبية، إذ دخلت فرنسا في مواجهة الشعب الإنجليزي بدعمها للملك الفار إليها، الأمر الذي كان سببا في التدخل الفرنسي في إنجلترا: «فأزمع الفرنسيين نصرته ومحاماته كرها من الإنجليز ورغمما على أنفسهم، فحاطبوه في ذلك، وصار بينهم كلام كان من الانفصال فيه أن

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 120.

(2) المصدر نفسه، ص 120-121.

(3) جاك الثاني (Jacques II): ولد بلندن سنة 1633م، وتوفي سنة 1701م، ولي ملك إنجلترا متلقيا باسم "جاك السابع"، اعتنق المذهب الكاثوليكي وذلك من سنة 1685م إلى سنة 1688م حين اضطر إلى الفرار إلى فرنسا وبها مات سنة 1701م. أنظر: محمد بيرم الخامس، مصدر سابق، ص 2150.

(4) هو شارل الثاني (Charles II) ولد بلندن سنة 1630م وبها توفي سنة 1685م، تولى ملك إنجلترا سنة 1660م، إثر عودته من منفاه، سلك سياسة التسامح مع الكاثوليك، وخلفه أخوه جاك الثاني. أنظر: المرجع نفسه، ص 2150.

قال لهم: أتم جميع لي عدو مثل سائر النصارى فاستعدوا لحربي إلى أن أرد الهارب إلى داره ومملكته بالرغم منكم»⁽¹⁾، وبذلك كانت الحرب بين فرنسا وإنجلترا.

ومن انعكاسات هذه الثورة كذلك دخول الهولنديين في الحرب ضد فرنسا، وحسب الغساني كانت هذه الحرب نتيجة للتدخل الفرنسي في إنجلترا، ولأن الأراضي المنخفضة حكومات وشعوبا كانت على مذهب البروتستانت مثل الإنجليز دخلوا في حرب مع فرنسا بهدف منع توسعها في إنجلترا ونصبوا أحد أمرائهم ملكا عليها: «وأزعموا على حرب الفرنسيين برا وبحر...»⁽²⁾.

ويتحدث الغساني عن تفوق الفرنسيين في هذه الحرب وحصارهم للمدن الهولندية وسيطرتهم عليها: «فنهض إليهم الفرنسيين هذه السنة بمحلة أصحبها ولده الدلفين»⁽³⁾... فخيم على قاعدتها مدينة مونص وحاصرها... فحيث رأوا ما حل بهم من التضيق وخافوا الهلاك، أعطوا القيادة فملك القاعدة وجميع ما هو مضاف إليها من عمالتها وقراها ومدنها...»⁽⁴⁾.

3- الصراعات الأوروبية في القرن الثامن عشر

هذا وسجلت نصوص الرحلات القرن الثامن عشر ارتساماتها عن أهم الأحداث السياسية في أوروبا، وأخذت رحلتي المكناسي حصة الأسد في هذا الاهتمام، إذ يظهر السفير المغربي فيهما ملما جدا بهذه الأحداث التي جرت ويقدم نفسه مرة أنه سارد لتاريخها ناقلا من مصادر لم يعلن عنها، ومرات أخرى كشاهد عيان عن بعض الأحداث خاصة تلك التي زامت وجوده في إسبانيا، وعليه جاءت أهم الأحداث الأوروبية في نصي رحلتيه كالتالي:

- حرب الوراثة الإسبانية 1702-1713م والصراع الأوروبي-الأوروبي

وكانت حرب الوراثة الإسبانية؛ أي وراثة العرش الإسباني بين الأمراء الأوروبيين، قد لاحت في الأفق من خلال نص رحلة الغساني نهاية القرن السابع عشر، إذ أشار صاحب "رحلة الوزير في فكاك الأسير" إلى ملامح وإمكانية انتقال الملك في إسبانيا إلى عائلة فرنسية؛ وهي عائلة "البوريون" التي كان يتزعمها الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، مبينا أن السبب الرئيسي لانتقال الملك هو المصاهرات المتعددة بين الملوك والأمراء في أوروبا من نظرائهم هناك: «...ومن أجل ميراث النساء على هذه الصورة صار هذا الجنس الاصبنيولي يتوقعون تولية الفرنسيين عليهم بإحدى الأمرين، إما بالميراث إذا لم يولد لطاغيتهن، وذلك أن الفرنسيين (لويس الرابع عشر) كان تزوج ابنة فلب كوارط

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 122.

(2) المصدر نفسه، ص 122.

(3) دلفين (Dauphin) لقب ولي العهد في اصطلاح الفرنسيين، بدأ استعماله في أواخر القرن الرابع الميلادي، ثم أطلق على الابن الأكبر للويس الرابع عشر. أنظر: محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 141.

(4) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 122-123.

(فيليب الرابع) أخت⁽¹⁾ هذا الطاغية لأبيه... فإن مات هذا الطاغية كرلوس شكوند (كارلوس الثاني) وليخلف من يلي ملك لإسبانيا من نسله صار ملكها لولد الفرنسييس بالميراث من قبل أمه...»⁽²⁾.

ويبدو أن استشراف وتوقع الغساني حدوث صراع حول وراثة العرش الإسباني بين أمراء أوروبا لم يأتي عبر استنتاج شخصي من صاحب الرحلة، بل إن الغساني ينقل ما تتداوله الأوساط السياسية في إسبانيا وأوروبا حينئذ وتساؤلاتها عن مصير الإمبراطورية الإسبانية عند موت الملك كارلوس الثاني؟ فمنذ تولي هذا الأخير الحكم سنة 1665م طرحت مثل هذه التساؤلات نظرا لما كان يعانيه كارلوس الثاني من اضطرابات صحية، إضافة إلى عدم وجود ولي للعهد من نسله يخلفه بعد موته⁽³⁾، ورغم ذلك لا يجب أبدا إغفال وعي الغساني بطبيعة الأحداث السياسية في أوروبا نهاية القرن السابع عشر واطلاعه الجيد على محددات انتقال الملك في بلدانها.

ليأتي المكناسي في القرن الثامن عشر ليؤكد لنا صحة توقعات سلفه الغساني، فالقارئ لرحلة المكناسي "الإكسبير" يحس فعلا أنها متممة لرحلة الغساني، سواء من حيث الأسلوب أو طريقة الوصف ونقل الصورة، فبعد توقف الأول عند إرهابات حرب الوراثة الإسبانية حول العرش، وإمكانية انتقاله لعائلة وأسرة أوروبية أخرى عن طريق الوراثة، نجد الثاني يؤكد وقوع هذا الصراع ويقدم صورة دقيقة حوله؛ مبينا أسبابه وأطرافه النصاعين: «...ولما مات كارلوس سكوند (كارلوس الثاني) لم يترك عقبا يرث ملكه، وكان لأخته التي عند الفرانصيص ولد يسمى دلفين (ابن لويس الرابع عشر)، ولأخته التي عند لنبرطور ولد يسمى كارلوس، فنهض كارلوس ابن لنبرطور (إمبراطور ألمانيا) إلى طلب ملك خاله أخي أمه، وأما دلفين ولد أخته التي عند الفرانصيص فقد تعين عليه ملك فرانصية بعد موت أبيه، فلا يمكن أن يتركه ويأتي إلى إسبانيا، وكان له ولد يقال له فلب كنت (فيليب الخامس)⁽⁴⁾، فورد على إسبانية ليرث ملك خال أبيه، فوقع بينه وبين كارلوس ولد الانبراطور⁽⁵⁾ ولد خاله أبيه محاربة كبيرة طالت بينهما نحو ثمان عشر سنة، حتى مات الانبراطور وتعين ملك لمانية على كارلوس المذكور، فورث ملك لمانية، وخلصت مملكة إسبانية لفلب كنت...»⁽⁶⁾.

(1) هذه الأخت هي ماريا تيريزا أخت الملك الإسباني كارلوس الثاني، وزوجة الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، وكان هذا الأخير قد تنازل على حقوق الوراثة بعد أن تزوجها، لكنه عاد للمطالبة بها

(2) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 131.

3 أنظر: هيرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث: من النهضة إلى الثورة الفرنسية، ط3، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1970، ص 321.

(4) فيليب الخامس (Felipe Quinto) 1683-1746م، ملك إسبانيا ما بين 1700-1746م، عرف في البداية بلقب دوق أنجو، جعلته وصية

كارلوس الثاني ورثا لعرش إسبانيا. أنظر: محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 141.

(5) المراد به هو كارلوس السادس (شارل السادس) ابن إمبراطور ألمانيا ليوبولد الأول، وهو حفيد الملك الإسباني كارلوس الثاني من ابنته.

(6) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسبير، مصدر سابق، ص 88-89، ص 93-94.

- حرب الاستقلال الأمريكية وتأثيرها على أوروبا

يذكر المكناسي أنه زامن فترة الصراع الأوروبي-الأوروبي خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر بين فرنسا وإنجلترا من جهة، وبين إنجلترا وإسبانيا من جهة أخرى، ويرى أن السبب الرئيسي لهذه الحروب يعود إلى حرب الاستقلال الأمريكية⁽¹⁾ وتأثيراتها في العلاقات الأوروبية-الأوروبية⁽²⁾.

وفي هذا السياق يعطي ابن عثمان تفسيراً موجزاً لأسباب حرب استقلال أمريكا عن إنجلترا، ورأى في العامل الاقتصادي تأثيراً كبيراً في اندلاعها، فبسبب زيادة حجم الضرائب المفروض على سكان أمريكا: «...وهي رعية للنجليز، وبالمدخل الذي كان يتحصل له منهم قوي على سائر أجناس النصارى، فذكر أنه شدد عليهم في المكوس وكثر اللوازم... فانصعوا وطلبوا منه أن يقبل منهم المال الذي أراد منهم ولا يحرق عليهم عادة، فأبى إلا نفوذ أمره، فأظهروا الخلاف عليه والاستقلال برأيهم...»⁽³⁾.

أما عن سبب الصراع الإسباني-الإنجليزي فكان حسب ما ذهب إليه المكناسي نتيجة شكوك إنجلترا في دعم بعض القوى الأوروبية للأمريكيين في ثورتهم ضدها، لذا راحت تهاجم سفن وأساطيل من تشك في دعمه لثوار أمريكا⁽⁴⁾، ويذكر: «وكان من جملة المراكب التي كان يؤذيها النجليز بالبحث فيها مراكب الصبنيول، فكاتبه طاغية

(1) حرب الاستقلال الأمريكية: 1775-1783م، اندلعت حرب الاستقلال بين المستوطنين الأمريكيين وبريطانيا عام 1775م، وقاد جيش المتطوعين جورج واشنطن بدعم من قوات فرنسية قادها الجنرال دي لافاييت، أعلن الاستقلال في 04 جويلية (تموز) 1776م، من قبل ممثلي الولايات المتحدة الأمريكية، وقد كتب توماس جيفرسون (1743-1826م) وثيقة الاستقلال، وبمقتضى معاهدة باريس عام 1783م تم الإعلان رسمياً عن استقلال الولايات المتحدة الأمريكية من قبل الحكومة البريطانية. أنظر: ميثاق بيات الضيقي ووليد فتحي محمد الصميدعي، أسرار وخبايا الانقلابات السياسية الفرنسية 1793-1797، ط1، منشورات E-kutub Ltd، لندن، مار 2008، ص 21.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 95.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق ص 97.

كان ابن عثمان دقيقاً جداً في ذكره للسبب المباشر للثورة الأمريكية ضد الإنجليز ممثلاً في زيادة فرض الضرائب على السلع؛ سواء ضريبة الدمغة أو الضريبة على الزجاج والرصاص والورق الشاي عام 1767م، الأمر الذي أثار سعي السخط في المستعمرات ووصل إلى أعلى درجات الهياج، لهذا قامت ثورة كانت نتيجتها نهاية السيطرة الإنجليزية على أمريكا واستقلال هذه الأخيرة يوم 04 جويلية 1776م. أنظر: هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث: من النهضة إلى الثورة الفرنسية، ط3، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1970، ص 421-422.

(4) يبدو أن المكناسي ينقل في وجهة نظر رسمية إسبانيا في أسباب الصراع الإنجليزي الإسباني، إلا أن دوافع إسبانيا في دخولها الحرب ضد إنجلترا لا يخرج عن ذلك الذي دخلت من أجله فرنسا، إذ دخلت إسبانيا هذه الحرب حاقدة على إنجلترا لسلبها إياها كثيراً من مستعمراتها، وخاصة بعد احتلال هذه الأخيرة لجبل طارق سنة 1704م، وكان من نتيجة هذه الحرب هزيمة الأسطول الإنجليزي في أكتوبر 1781م

الصبنيول أن يترك عنه مراكب رعيته ولا يؤذيها لأن هذا الفعل غير جار على قوانين الصلح، فأبى إلا تماديا على فعله، فوقعت الحرب بينهما بسبب هذا»⁽¹⁾.

وتظهر أولى صور هذه الحرب بالنسبة للمكناسي لما نزل بميناء قادش الإسباني، ولاحظ قلة السفن الحربية فيه قبل أن يعرف أنها وجهت للحرب ضد إنجلترا⁽²⁾، وفي أوبته من رحلته ذكرنا خبر عن حصار جبل طارق التي كانت تحت السيطرة الإنجليزية من قبل القوات البحرية الإسبانية⁽³⁾، حيث يضع المكناسي نفسه موضع شاهد عيان عن هذا الصراع الأوروبي: «وجرد الصبنيول محلة كبيرة أنزلها مقابلة جبل طارق من ناحية البر وجرد عسكريا آخر وبعثه في المراكب في البحر وحاصروا جبل طارق ليلا يدخل أحد قوتا أو ميرة أو ما أشبه ذلك، ولهم في حصاره الآن نحو العشرة أشهر...»⁽⁴⁾.

وشكلت الدبلوماسية ميدانا آخر ومظهرا من مظاهر الصراع الإسباني الإنجليزي، ومما ذكره ابن عثمان من سحب السفير الإنجليزي من إسبانيا كاعتراض من الانجليز عن دعم الإسبان للأمريكيين في حرب استقلالهم عن بريطانيا⁽⁵⁾.

في حين ربط ابن عثمان المكناسي الصراع الفرنسي-الإنجليزي، بدعم الفرنسيين للأمريكيين في حربهم ضد إنجلترا: «...ولما أحس اللنجليز بأن الفرائصيص يعين أهل ماركة (أمريكا) على خلافه ومحاربه، نهاه عن ذلك، فقال: ليس بيني وبينهم كلام، فكان يمدهم سرا، فوقعت بين اللنجليز والفرائصيص حروب كثيرة...»⁽⁶⁾.

وإن كان دخول إسبانيا الحرب ضد الإنجليز كما بين ابن عثمان دفاعا عن سفنها وتجارها، فإن دخول فرنسا في خط المواجهة مع الإنجليز ودعمهم للأمريكيين كان بدافع سياسي وعسكري؛ يهدف من خلاله الفرنسيين للحد من التفوق والهيمنة الإنجليزية خاصة على البحار، فيقول ابن عثمان: «...وجعل الفرائصيص يمدهم (أي الأمريكيين) بما يتوقفون عليه في محاربة اللنجليز؛ يريد بذلك أن يختل حاله ويضعف أمره، لأنه كان أقوى أجناس النصرى في البحر، وكان له الظهور عليهم وأعياهم أمره لما اشتد كلبه...»⁽⁷⁾.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 97-98.

(2) المصدر نفسه، ص 21.

(3) المصدر نفسه، ص 188.

(4) المصدر نفسه، ص 97-98.

(5) المصدر نفسه، ص 96-97.

(6) المصدر نفسه، ص 97.

(7) المصدر نفسه، ص 97.

وما يمكن ملاحظته أخيرا أن الرحالة المغاربة كانوا دقيقين جدا في نقل صورة العلاقات الأوروبية-الأوروبية، كل في زمنه، فنجد الحجري يؤرخ للصراع الهولندي الإسباني بدقة نصاهية وذلك رغم أن نقولاته حولها كانت مختصرة جدا، ولا نستغرب مثل هذه الدقة من الحجري لأنه سافر إلى هولندا والتقى مباشرة بعلمائها ومستشرقها ودبلوماسيها وحكامها ولا بد أنه استقى معلوماته مباشرة من مصدرها.

أما الغساني ورغم أنه لم يطلعنا عن مصادر معلوماته إلا بالإشارة أنها "مكتوبة في تاريخهم" فلا يرتكب في كتاباته عن تاريخ أوروبا سوى بعض الأخطاء الطفيفة، إلا أن أهمية ما ذكره تكمن في كونه من أوائل المغاربة الذين كتبوا تاريخ أوروبا في العصور الحديثة، فكان من الطبيعي أن يرتكب هذه الأخطاء على قلتها.

والمتتبع لنصوص رحالتنا يلاحظ فعلا وعيا منهم بالقوى المؤثرة في أوروبا كل في زمنه، إذ يستطيع الباحث في التاريخ الأوروبي أن يلاحظ من خلال كتابات هؤلاء الرحالة تتبع الواقع السياسي الأوروبي في صورته الشاملة لا الدقيقة؛ فيلاحظ صعود قوى ونزول أخرى طيلة ثلاثة قرون من الزمن، من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، فالحقار يلاحظ بلا شك تزعم إسبانيا لأوروبا نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، وهو ما تكشفه رحلة الحجري وما أكدده بعده الغساني في رصده لتاريخ إسبانيا، وفسر ذلك أيضا تفسيرا اقتصاديا نظرا لما كسبته إسبانيا من أموال وذهب وفضة القارة الأمريكية بعد اكتشافها، أما القرن السابع عشر، أو لنقل النصف الثاني منه وبداية القرن الثامن عشر هو فترة ظهور فرنسا بلا شك في واجهة وزعامة أوروبا وهو ما أكد الغساني وبعد المكناسي.

والملاحظ أيضا أن المكناسي وعى جيدا الواقع الأوروبي خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، والذي ظهرت فيه إنجلترا أنها القوة الأكبر والأقوى في القارة الأوروبية، وهو لا يكتفي بذلك بل يفسر سبب هذه القوة؛ ورأى في العامل الاقتصادي سببا في ذلك، أي بسبب الأموال التي يجنيها الإنجليز من أمريكا: «وبالمدخول الذي كان يتحصل له منهم قوي على سائر أجناس النصارى»⁽¹⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 97.

سادسا: النظام السياسي الأوروبي في رحلات القرنين 17-18م

1- نظام الحكم

لم تُظهر نصوص الرحالة المغاربة اهتماما بواقع نظام الحكم وما رافقه من شؤون الدولة في أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، فلم يكن في نظام الحكم في هذه البلدان ما قد يثير الغرابة والدهشة لدفعهم للبحث فيه والتساؤل عنه، لأنه على وجه عام كان مشابها لما هو في المغرب، فلم يكن شائعا في أوروبا العصر الحديث إلا الحكم الملكي الوراثي⁽¹⁾.

ولعل أكثر ما اهتم به رحالتنا المغاربة في موضوع الحكم وخصوصا الغساني والمكناسي هي الأسس التي ينتقل فيها الملك في أوروبا، أو ولاية العهد، فكانت في إسبانيا تمنح أولوية وراثة العرش في العادة للابن الأكبر⁽²⁾، حيث يرث الولد الحكم عن أبيه، على أن يكون الولد شرعيا: «...وكان لفلب كوارط (فيليب الرابع) طاغية إصبايا أولاد عدة لكنهم لم يرثوا الملك في قوانينهم لأنهم أولاد زنى...»⁽³⁾، فإن لم يوجد ولد في نسل الملك المتوفي حكمت عنه أمه: «حين مات فلپ كوارط وترك ولده صغير ملكت أمه»⁽⁴⁾، وتحكم ابنته بالوراثة كذلك⁽⁵⁾، ويحكم ابن البنت حتى لو كان من غير تلك البلاد مثل ما كان عليه الأمر حين حكم شارل الخامس⁽⁶⁾ المملكة الإسبانية من أمه "كونا" ابنة ايزابيلا⁽⁷⁾، وذلك لما توفي الملك الإسباني ولم يعقب خلفا يورثه، كما أنه في بعض الأحيان يرث الأخ ملك أخيه يقول الغساني: «...مثل ما لبعضهم من العوائد عند ملوك العجم...إذا انقرض أخوه الوارث من غير عقب، ووقف الأمر عليه في عوائد ميراثهم، وأما إذا لم يكن في عوائد ميراثهم أن الأخ يرث أخاه إذا لم يكن له ولد فإن غيره من نسل أخيه يرث الملك سواء كان حفيدا أو ابن حفيد أو ابن أخت أو بنت أخت...»⁽⁸⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 86، 89، محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 142-143.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 94.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 102. محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 93.

(4) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 102.

(5) المصدر نفسه، ص 93.

(6) هو كارلوس الخامس (Carlos Qinto) أو شارل الخامس (Charles Quint) (1500-1558م) الإمبراطور الألماني الشهير الذي ساد أوروبا في القرن السادس عشر، حمل في البداية لقب كارلوس الأول، ثم إمبراطور ألمانيا. أنظر: محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 119.

(7) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 93، محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 89-96.

(8) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 118.

هذا وشكلت هذه القوانين في تولي السلطة وانتقال الحكم عدة اضطرابات سواء بين الدول الأوروبية خاصة المصاهرات، ومن ذلك حرب الوراثة الإسبانية والتي فصل الغساني والمكناسي كما رأينا سابقا، أو داخل الدولة الواحدة؛ مثل ما كان عليه الأمر في الصراع على السلطة في إسبانيا بعد وفاة فيليب الرابع (1621-1665م) كما بين الغساني⁽¹⁾.

فيما شكل نظام الحكم في جزيرة مالطا التي كانت تحت حكم فرسان القديس يوحنا الاستثناء في ذلك، لأنها تعتمد نظاما يُنتخب فيه الحاكم من مجموعة ضيقة من الفرسان، يقول ابن عثمان: «وأما كبيرهم فيسمونه المعلم الكبير، ويقولون له بلغتهم "فران ميستر" (Grande Maestro)⁽²⁾...»، أما عن كيفية توليته الحاكم فيقول ابن عثمان: «...وكيفية توليته؛ هو أنه إذا مات معلمهم يبقى خليفته يحكم مكنته ثلاثة أيام، وهناك أقوام يُلقب كل منهم "بالبلي"»⁽³⁾، فمن 00 اجتمعت عليه الألسن السبعة⁽⁴⁾ أو أكثرها فإنه يتولى، وربما يجتمع لأحد الأكثر وللآخر الأقل، فيعطي صاحب الأقل لصاحب الأكثر مالا ويسلم له الأمر، وذلك باختلاف الأغراض والبواعث... فإن كملت ثلاثة أيام يجتمع أهل المدينة كلهم في باب دار الولاية ينتظرون خبر المتولي فيكمل الاتفاق، ويشرفون عليهم من أحد مراتب الدار ويقولون لهم: إن فلانا هو "فران ميستر" (Grande Maestro) «...»⁽⁵⁾.

2- الحكام الأوروبيون في رحلات المغاربة

- في الصورة

حرص الرحالة المغاربة على تقديم وصف حول الملوك الأوروبيين الذين يُرسلون موفدين إليهم، وقيمة هذا الوصف على اختصاره الشديد أنه يقدم الهيئة الجسمانية التي كان عليها الملك، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن كتاب الرحلة كان موجها للسلطان المغربي، حيث جرت العادة عند الملوك والسلاطين في الفترة الحديثة معرفة كل شيء

(1) المصدر نفسه، ص 103.

(2) يسمى بالإيطالية (Grande Maestro) وتعني "السيد الكبير" وهو اللقب الذي يحمله القائد الأعلى لفرسان القديس يوحنا بمالطا، بدأ استعمالهم لهذا اللقب منذ سنة (1247م) ويتم انتخاب هذا السيد مدى الحياة من طرف الفرسان الذين جاوزت أعمارهم ثماني عشر سنة، وشاركوا في ثلاث حملات عسكرية على الأقل ضد "الكفار" -أي المسلمين- وهذا الانتخاب يتم بعد مرور ثلاثة أيام على موت السيد القلم، كما يشرح ابن عثمان أعلاه، وتُسند للسيد الجديد مهام الحكم بأكملها على المستوى الداخلي والخارجي. أنظر: محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 120.

(3) البلي (Baille-élu) وتكتب أيضا (Le pilier) وهو حامى الدين، والزعيم الذي يمثل كل لسان من الألسن الثمانية، وتختلف مهمته من لسان إلى آخر، فإن كان فرنسيا يلقب "الفارس الكبير"، وإن كان إسبانيا يلقب "الجواخ"، أي الذي يُعد لباس الفرسان وإن كان برتغاليا يسمى "رئيس القضاء" وإن كان إيطاليا يسمى "أمير البحر"، أما إذا كان ألمانيا فيسمى "قائد الفرسان". أنظر: المصدر نفسه، ص 114.

(4) يقصد بالألسن: اللغات التي يتكون منها نظام فرسان القديس يوحنا وعددها ثمانية وليس سبعة كما ذكر صاحب الرحلة، وهي كالألي: ثلاثة ألسن لفرنسا، لسانان لإسبانيا والبرتغال، لسان واحد لإيطاليا، ثم لسان لإنجلترا، واللسان الثامن لألمانيا. أنظر: المصدر نفسه، ص 113.

(5) المصدر نفسه، ص 120.

عن ملوك الدول التي تربطهم بهم علاقات سياسية ودبلوماسية⁽¹⁾، فيصف الغساني الملك الإسباني كارلوس الثاني: «...والطاغية هذا رجل صغير السن له نحو ثلاثين عاما، وهو أيضا أبيض اللون قصير القامة وجهه إلى الطول واسع الجبهة، واسمه كرلوس شكوند، ومعنى شكوند الثاني ويعنون به ثاني اسم كرلوس من سلفه...»⁽²⁾، ويواصل في التعريف بالملك الإسباني متحدثا عن نسبه: «...فهو—أخزاه الله—كرلوس شكوند(كارلوس الثاني) بن فليب كوارط(فيليب الرابع) بن فليب طريسير(فيليب الثالث) بن فليب شكوند(فيليب الثاني) بن كرلوس كينط(كارلوس الخامس) بن فليب الموص...»⁽³⁾، مضيفا أن الملك كارلوس الثاني: «...لم يتقدم إلى موضع من المواضع ولا سحب محلة ولا برز إلى حرب، وهو من الحضارة بمكان لا يركب فرسا ولا غيره...»⁽⁴⁾.

ونلاحظ أن السفير المغربي قد تغاضى في نص رحلته عن استحضار الوضعية الصحية للملك كارلوس الثاني، الذي كان يعاني من اضطرابات ذهنية وعلل جسدية كانت موضوعا لعدد من الأوصاف الأجنبية وخاصة منها الأوروبية، حتى عرف في الأدبيات الأوروبية بـ"المسحور"، إذ زامت زيارة الغساني لمدرية فترة كان يعاني فيها الملك من عدة تشوهات، فقد ضاعت منه كل أسنانه، وتساقط شعره، ولم يعد بقادر على الوقوف كثيرا، ونعتقد أن إعراض الغساني عن ذكر عيوب الملك الإسباني خاصة الخلقية منها، يخل في إطار ثقافته الإسلامية التي تنبذ التعرض لمثل هاته المواضيع، كما أنها تدخل في إطار لباقة وكياسة ودبلوماسية السفير المغربي، وإن كنا نتوقع أن تكون وضعية الملك الإسباني قد وصفت للسلطان المغربي وحاشيته لأنها تبقى مهمة في رسم تصورهم عن الآخر، خاصة إذا علمنا أن الرحلات السفارية رحلات دبلوماسية رسمية ونصوصها غالبا لا تبيح عن كل ما يراه مؤلفوها.

فيما يقول المكناسي في وصف الملك الإسباني كارلوس الثالث: «والطاغية المذكور رجل قصير أبيض، أزرق العينين، طويل الأنف الغاية، قد خرج من الكهولة، عمره خمس وستون سنة، وبه ارتعاش كثير، إلا أنه لا زال مولعا كثيرا بالصيد وركوب الخيل...»⁽⁵⁾.

أما حاكم مالطا فيظهر في رحلة ابن عثمان: «...صفته أبيض ريعه، قليل الكلام، لباسه السواد مثل الرهبان اسمه "مَنْوِيل دَرْو"⁽¹⁾...عمره سبعة وخمسون سنة، فهو من الفرنضيص في الأصل ونشأ وترى عند الاصبنيول...»⁽²⁾.

(1) مصطفى الغاشي، مرجع سابق، ص 540.

(2) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 90.

(3) المصدر نفسه، ص 93.

(4) المصدر نفسه، ص 104.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 87.

في حين كان ملك نابولي: «...صفته أبيض طويل، أزرق العينين، أصهب الشعر، حتى شعر حاجبيه وأشعار عينيه، عمره أحد وثلاثون سنة، اسمه فرناند الرابع... والطاغية المذكور فرانصيصي الأصل إصليوني الدار نابولي المنشأ، وهو ولد ملك إصبانيا كارلوس الثالث...»⁽³⁾.

- في الخطاب

إلا أن ما يجب الوقوف عليه؛ هو الخطاب الذي كان يخاطب به الملوك الأوروبيين عند المغاربة، فقد كانت النقطة الأولى ذات الأهمية في التعامل مع الأوروبيين، هي تحديد وتسمية حكامهم، لذا شاع لقب "الطاغية"⁽⁴⁾ عليهم في الرحلات المغربية خلال القرنين 17 و18م، ثم إن هذا اللقب له دلالة دينية وسياسية⁽⁵⁾، فمفهوم الحاكم الطاغية بالنسبة للمسلمين هو الحاكم الذي يحكم بغير شرع الله، وكان المغاربة يطلقونها على حكام الأمم غير الإسلامية⁽⁶⁾، وكان هذا المصطلح مرادف لمصطلح "الملك" أو "الحاكم"، وقد استخدم للإشارة للحكام الأوروبيين-وهي صيغة ممتدة من تعبيرات القرون الوسطى-للتمييز بين الحاكم المسلم والحاكم الكافر⁽⁷⁾، فيقول المكناسي: «لأمر الفلاني إن كان مسلماً، أو إلى الطاغية الفلاني إن كان من طواغي الكفر...»⁽⁸⁾.

وتجدر الإشارة إلى الرحالة المغاربة لم يستشعروا الحاجة إلى شرح السبب الذي يحدوهم إلى إطلاق نعت الطاغية على ملوك أوروبا، لأن من يكتبون لهم على دراية بفحواها مادام السفير ابن هذه البيئة "دار الإسلام"، إذ يبدو أن استعمال مصطلح "الطاغية" في خطاب الملوك غير المسلمين أصبح مما شاع في الخطاب السياسي الإسلامي والمغربي وتعارفت عليه الكتابات التاريخية الأدبية ومنها الرحلية.

ورغم كون لقب "الطاغية" هو الشائع في نصوص الرحلات المغربية للتعبير عن الملوك الأوروبيين، لكن نعتقد أنه أصبح خطاباً أدبياً أكثر من كونه خطاباً رسمياً؛ لذا نجد هؤلاء السفراء المغاربة أثناء مقابلتهم الملوك الأوروبيين أو

(1) المقصود هو (Emmanuel de Rohan Polduc) الذي حكم جزيرة مالطا من 1775م إلى سنة 1797م، أحد الأمراء الفرنسيين المنحدرين من أسرة (Rohan) الإنجليزية التي ينحدر منها العديد من الأمراء الدوقات. أنظر: محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص121.

(2) المصدر نفسه، ص121.

(3) المصدر نفسه، ص142.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص19، محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص86.

(5) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص86.

(6) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص86.

(7) برنارد لويس، مرجع سابق، ص234.

(8) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص247.

أحد خدامهم وموظفيهم مباشرة في المحادثات الخاصة أو استقبالهم من قبل هؤلاء الملوك، نجدهم يستخدمون مصطلحات الفخامة والمكانة العالية مثل "العظيم"⁽¹⁾.

وبذلك تكون الرحلات المغربية حملت خطابين اثنين، خطاب موجه للمغاربة قارئ رحلتهم والذي كثيرا ما تكرر باستعمال لفظ "الطاغية"، وخطاب رسمي كثيرا ما حملته رسائل ورسائل الملوك المغربية إلى نظرائهم في البلاد غير الإسلامية، حيث يخاطبونهم بـ"العظيم"، مثل قول المكناسي: «...فبعثني أدام الله أيامه... للبلاد الاصبنيولية وإلى عظيمها...»⁽²⁾، بينما يخاطب السفير المغربي الملك الإسباني: «لأنك لست عنده كغيرك من عظماء الروم»⁽³⁾، وتظهر صيغة التعظيم أكثر في المراسلات بين هؤلاء السفراء والملوك الأوروبيين: «...وكتبنا إلى عظيم إصبانية، وأعلمناه بحلولنا في بلده وبما فعل معنا خدامه من برور، وأنا متوجهون من عند مولانا أمير المؤمنين إلى ولده عظيم نابل...»⁽⁴⁾. وفي حديث الغزال مع أحد أعيان الدولة في إسبانيا: «...فحدثناهم بما تطيب به نفوسهم من قول سيدنا على عظيمه وأنه متقدم على عظماء الروم ومميز عنهم...»⁽⁵⁾.

وإن كنا لا ننفي أن ألفاظ مثل "الطاغية" كانت تستعمل في الرسائل والخطب الرسمية التي يوجهها الملوك المغربية إلى نظرائهم الأوروبيين، إلا أنه مع مرور الوقت وتغير موازين القوى لصالح الأوروبيين أو التوجه للصالح أصبحت هذه الألقاب تبدو غير مستحسنة ومهينة عند الحكام الأوروبيين في المعاملات والمراسلات والخطابات الدبلوماسية مع الحكام والسفراء المسلمين؛ لذا نجد مطالبة بعضهم بتغييرها وتسمية كل ملك باسمه الذي ينادى به في مملكته، مثل ما كان عليه الأمر في شأن روسيا مع الدولة العثمانية بعد توقيع معاهدة 1774م⁽⁶⁾، وكذلك الأمر مع المغرب الذي توصل لاتفاق مع الدول الأوروبية بتحديد الألقاب المستعملة⁽⁷⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 86، 88، 89، 101.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 06، ص 08.

(3) المصدر نفسه، ص 86.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 45.

(5) الغزال، ص 76، 140، رحلة المكناسي، البدر السافر، ص 88.

(6) برنارد لويس، ص 237.

(7) عبد الهادي التازي، «صقلية في مذكرات السفير ابن عثمان»، مجلة المناهل، ع 10، السنة الرابعة، إصدار وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط، نوفمبر 1977، ص 183.

3- الحكومة

وهي الهيئة الحاكمة التي تدير شؤون الدولة والمكونة من الوزراء ومختلف رجالات الدولة، أو النظام السياسي المسير للحكم، والملاحظ أن الرحالة المغاربة لم يقدموا معلومات وافرة تخص هذا الجانب السياسي والإداري في الدول الأوروبية التي زاروها، فكانت معلوماتهم عبارة عن إشارات مقتضبة وقليلة تخص بعض رجال الدولة الذي التقوهم في مسار رحلاتهم.

ويفسر برنارد لويس عدم اهتمام السفراء المسلمين عموما بالتركيبة الحكومية للممالك والدول الأوروبية؛ كون هؤلاء السفراء كانوا يعطون كل اهتمامهم وانتباههم للحكام المعتمدين لديهم، أما الشخصيات الأقل تكافؤا لا يعطوهم إلا اهتماما ضئلا، وذلك يُذكر عادة بشكل رئيسي في سياق اجتماعاتهم ومراسلاتهم أو تبادلهم معهم⁽¹⁾.

وعليه جاءت بعض الإشارات المتفرقة والقليلة في نصوص الرحالة المغاربة إلى وجود عديد من الوزراء وقد ذكروا على سبيل الجمع في إشارة سريعة مثل ما كان في عدهم مع من استقبلهم في اللقاء مع الملك الإسباني⁽²⁾، أما من ذكروا على سبيل التخصيص فكانوا ممن احتكوا بهم في مهمتهم السفارية، وكان هؤلاء الوزراء مكلفين بعدة مهام من طرف ملوكهم، فمن الوزير الأعظم: «الذي عليه مدار جميع أمور الطاغية البرية والبحرية فكلها ترجع إليه...»⁽³⁾، وهو نفس ما ذكره ابن عثمان في رحلته نحو نابولي، حيث يوجه حاكمها وزيره للمحادثات مع السفارة المغربية عوضا عنه: «...هذا وزير هو العوض عني في الكلام معك فكل ما يفعل معك فأنا راض به...»⁽⁴⁾، وقد سبقه الغزال لنفس الملاحظة: «...وأمر وزيره في الحال أن يتعاهدنا، ويتفقد أحوالنا، وأن يباشرنا بمباشرته لعظيمه ويمثل أمره في جميع الأشياء من غير أن يستشير في شيء منها...»⁽⁵⁾.

ومن ذلك ذكر الغساني وزير الشؤون الخارجية بالمصطلح المعاصر دون أن يسميه طبعا فيقول: «... فلقينا رجلا من أعيان خدام الطاغية يسمى كارلوس دو القشطيلي ويلقب بالقند راكبا في كدش للطاغية نفسه، وقد وجهه للملاقة إذ أن هذا القند هو المعين عنده للقاء الوفود الواردة عليه من ممالك أخرى إسلامية وغيرها، وهي في خطة هذا القند لا غير»⁽⁶⁾.

(1) برنارد لويس، مرجع سابق، ص 238.

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مرجع سابق، ص 125.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 144، ص 85.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 134، وكان قد ذكر نفس الصورة في رحلته الأولى لإسبانيا، محمد بن عثمان المكناسي،

الإكسير، مصدر سابق، ص 86.

(5) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 129.

(6) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 86.

والجملة الأخيرة دالة عن وجود تنظيم معين في التنظيم السياسي الإسباني أو الأوروبي، حيث لكل قطاع مسؤول خاص به، ولا يكتفي الغساني بذكر المنصب وصلاحياته، بل يقدم فكرة عن نظام الأجور الخاص بموظفي الدولة من الوزراء، حيث يقول عن هذا الوزير: «...وله عليها من المراتب ثلاثة آلاف ريال عن كل سنة»⁽¹⁾.

فيما قدم الغزال صورة عن مكانة الوزراء في التنظيم السياسي الإسباني، ففي حالة شغور منصب الملك لعارض معين، فإن الوزير ينوب عنه في تسيير الدولة وذكر مثالا حين شغل منصب الملك بسبب حزنه عن وفاة والدته: «...وقد أقام مقامه الوزير في مباشرتنا ومؤانستنا برسائله...»⁽²⁾، وعليه فقد أطلق عليها رحالتنا اسم "المخزن"⁽³⁾ في محاولة منه إلى إسقاط الاسم المنتشر في المغرب على ما وجد في أوروبا.

وللصورة التي شاهدها الرحالة المغاربة ربما نظرة للذات لأنه تعبر عن استغراب من مشهد لم يألفوه وهو ترك الملك الإسباني تسيير الدولة للوزراء، في وقت كان فيه السلطان المغربي مستول على جل الصلاحيات في بلده وإليه ترجع الأمور كلها⁽⁴⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 86.

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 114.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 77.

(4) لم تكن للمغرب في العصر الحديث وملكه بالأصح وزارة مستقلة ووضعيته الخاصة، إذ كان السلطان هو المسير لكل شيء في داخل القصر وخارجه، وهو صاحب الرأي والتنفيذ في جميع الشؤون. للمزيد أنظر: عبد الرحمان بن زيدان، **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، ج1، مطبوعات المطبعة الملكية، الرباط، 1961، ص 271.

سابعاً: المؤسسة الدبلوماسية (اكتشاف الرحلات المغربية للدبلوماسية الأوروبية الحديثة وآلياتها)

تكتسي ظاهرة الدبلوماسية أهمية بالغة إذ تحتل الموقع البارز والأساسي في تطور العلاقات الدولية، وتبرز أهمية موضوع الدبلوماسية من خلال نشوء وتطور العلاقات بين الجماعات البشرية منذ القدم، واعتمدتها لتنظيم علاقاتها فيما بينها، وعليه فقد أولى رحالينا المغاربة الذي توجهوا إلى أوروبا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بحكم- منصبهم الدبلوماسي كسفراء- أهمية بالغة لهذا المحور من خلال ما نقلوه من صور للنظم الدبلوماسي الأوروبي خلال العصر الحديث، وفي هذا الجزء من البحث سوف ننقل هذه الصور ومدى استيعابهم لها وموقفهم منها.

ولا بد أن نشير أن الصورة المستخلصة من مدونات هؤلاء السفراء حول الدبلوماسية الأوروبية جاءت هنا بغض النظر عن مدى استيعاب هؤلاء الرحالة لما شاهدوه في أوروبا عن هذه الدبلوماسية رغم نقلهم لهذه الصورة، فمهما كان وعيهم فقد أعطوا معلومات مهمة جدا عن المؤسسة الضابطة للعلاقات الدولية في أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

كما نشير أنه لا يمكن أن نستوضح صورة الدبلوماسية الأوروبية الواردة في هذه النصوص الرحلية إلا عن طريق الرؤية المقارنة واستحضار أشكال الدبلوماسية المغربية (الإسلامية)، وما ذلك إلا سعياً لتأكيد وجود ما يأتلف معها في عصرها وما تمر به من تطور، وإما من اكتشاف ما تختلف فيه هاتين الدبلوماسيتين⁽¹⁾.

1- في مفهوم السفير

إن أول ما نقف عنده ونحن ندرس تمثلات الدبلوماسية الأوروبية في نصوص الرحالة المغاربة؛ هو المصطلح المستخدم من قبل هؤلاء، المعبر عن مهامهم الدبلوماسية، فرغم استخدامهم مصطلحات عربية مثل "مبعوث" أو "سفير" أو "رسول"، إلا أن التأثير الأوروبي كان جلياً من خلال إدخال مصطلحات مثل "الباشطور" أي سفير وهو ترجمة للفظة الإسبانية (Embajador)، وجمعه "البشادورات"⁽²⁾ أو "الأنباشدوريس" (Embajadores)⁽³⁾ في معاملاتهم.

والثير أن هذا التأثير والإعجاب بالهيئات الدبلوماسية الأوروبية لم يكن مقتصرًا على هؤلاء الرحالة، بل امتد إلى السلاطين المغاربة في مراسلاتهم ورسائلهم مع نظرائهم الأوروبيين، مثل ما عبرت عنه رسالة السلطان محمد بن عبد

(1) محي الدين قاسم، «التعاملات والمراسيم الدبلوماسية في الدولة العثمانية»، مجلة الاجتهاد، ع43، السنة 11، دار الاجتهاد، بيروت-لبنان، صيف 1999، ص 09-10. (بتصرف).

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 111.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 87. محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 96.

الله إلى حاكم نابولي: «إلى سلطان نابلس وصقلية وغيرهما... أما بعد فقد وجهنا إليكم باشطورنا... السيد محمد بن عثمان... فبعثنا إليكم البشطور المذكور ليجعل الصلح معكم...»⁽¹⁾.

لذا طغت لفظة "الباشطور" على السفراء المغاربة المتوجهين إلى أوروبا فنجدهم يسمون أنفسهم بهذا الاسم "الباشطور" ويمثل ذلك عرّفهم سلاطينهم كما رأينا أعلاه، وذلك بالرغم أن المصطلح قد لا يتناسب مع المفهوم المغربي للسفارة مقارنة مع نظيره الأوروبي، خاصة وأن مهامهم تتمثل في الغالب كمبعوثين ورسول يؤدون مهمة في فترة وجيزة ويعودون.

2- اكتشاف الرحالون المغاربة الدبلوماسية الأوروبية المقيمة (الدائمة)

وفي أوروبا تعرف الرحالة المغاربة على مفهوم "الدبلوماسية الدائمة" أو "الدبلوماسية المقيمة"⁽²⁾، ووقفوا عند مفهوم السفير المقيم، مبينين مهامه المتمثلة في الوساطة بين سلطات بلده والبلد الذي يعين فيه، وأن هذا السفير يقيم لمدة طويلة في البلد الذي يعين فيه، فيقول الغساني: «...إلى أن وصلنا دارا هي بقرب دار الطاغية، وهي دار كبيرة معدة عنده لنزول من يرد من بلدان بعيدة من غير جنس النصارى، إذ عوائدهم في ذلك أن ينزلوا عنده ثلاثة أيام وينظرون لأنفسهم ديارا يسكنونها، حيث كانوا يردون بقصد المقام والسكن، فإن من عوائد ملوك العجم أن يبعثوا إلى ملوك أمثالهم مراسيل يسمونهم "الأنباشدوريس" يكونون هنالك وسائط بينهم وبين الملوك فيما يعرض لبعضهم عند بعض المحاطبات وغيرها، ومن ورد من غير هذه الأجناس هو ينزل في تلك الدار إلى أن ينصرف...»⁽³⁾.

وفي صورة مشابحة يقول المكناسي: «...إلى غير ذلك من النباشدوريس، وهؤلاء يردون بقصد المقام بديارهم وسائط بين ملوكهم وبين الطاغية فيما يعرض لأحدهما عند الآخر فيقيم العشرة أعوام أو نحوها ويأتي من يخلفه ويتوجه هو...»⁽⁴⁾.

فالغساني وابن عثمان قدما تعريفا "للباشدور" بنبرة لا تخلو من تعجب وتفصيل حتى لا يتركأ قارئ نصوصهم في حيرة⁽⁵⁾، فقدما صورة تحمل اكتشافهم معنى الدبلوماسية المقيمة والدائمة بين الدول الأوروبية.

(1) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج9، مرجع سابق، ص280.

(2) الدبلوماسية الدائمة: أو الدبلوماسية المقيمة، وهي الدبلوماسية التي انتشرت في أوروبا منذ مطلع العصر الحديث، وتقوم على تعيين سفير أو ممثل أو وفد دبلوماسي يستقر بصفة دائمة لدى الدولة المرسل إليها، لتأخذ هذه الدبلوماسية طابعها الرسمي بعد صلح ويستفاليا سنة 1648م الذي استدعى أن تقوم الدول المعنية بإنشاء السفارات الدائمة لتقوم على موافاتها بالمعلومات اللازمة عن غيرها من الدول. أنظر: عز الدين فودة، النظم الدبلوماسية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1961، ص165.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص87.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص96.

(5) عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي، 2003، ص307.

ما يؤكد أن الدبلوماسية المغربية ما زالت تعمل في إطار الدبلوماسية القديمة غير الدائمة، مثل عموم الدبلوماسية الإسلامية، فملوك المغرب خلال العصر الحديث لم يألفوا تعيين سفراء مغاربة قصد الإقامة لمدة طويلة في البلدان الأجنبية، على عكس ما كان حاصلًا في الفترة نفسها في أوروبا؛ إذ أخذت الدبلوماسية الأوروبية مكانة مميزة، لأنها كانت أداة توغل للدولة الحديثة، فالسفارة في أوروبا لم تكن عملاً معزولاً؛ بل هي مؤسسة خاصة للقانون العام الهادف إلى تحقيق المصلحة⁽¹⁾، فيما كانت مهمة الدبلوماسية المغربية تقتصر على أداء مهام محدودة لتحقيق أغراض خاصة في فترة وجيزة، وإذا تم تجاوز هذه المهمة عادت تلك البعثات من حيث أتت.

وكان الحجري قد أشار-عرضاً- لأهمية السفير المقيم بالنسبة للدول الأوروبية، وذلك أثناء حديثه مع الطبيب والدبلوماسي الفرنسي إتيان هوبارت (Etienne Hubert) الذي شغل منصب سفير مَثَلًا لفرنسا بالمغرب عن لسان هذا الأخير: «...كنت بمدينة مراكش، وهناك تعلمت نقراً، وكان جلوسي هناك على أمر سلطان فرنجة لنعلمه بحروف الرمز كل ما يعلم أنه يقع لسلطان مراكش في ديوانه وحركاته»⁽²⁾، وتنتهي صورة الدبلوماسية الأوروبية عند الحجري هنا، فالرجل لم يناقش ما قاله له السفير الفرنسي ولا علق عليه، إلا أن رد الدبلوماسي الفرنسي بخصوص استعمال الدبلوماسية كأداة للتجسس حيث استعملتها الدولة الحديثة في أوروبا من أجل التوغل اقتصادياً سياسياً في العوالم الأخرى⁽³⁾، يحمل في طياته تأكيداً لتلك الانتقادات التي طالما وجهت للدبلوماسية ومهام السفراء الذين كان ينظر إليهم بعين الازتياب في أوروبا مطلع العصر الحديث، لكن ماذا عن علاقة الدبلوماسية الإسلامية بأوروبا؟

ليجيبنا الحجري عن ذلك في حديثه عن تبادل السفراء بين دول أوروبا والقسطنطينية، ورأى في إرسال الأوروبيين سفراء ممثلين لهم عند الدولة العثمانية وإحجام الأخيرة عن ذلك دليل على تفوق العثمانيين، ويقول في ذلك: «...حتى أن كل واحد منهم يبعث رسوله ليقعد على الدوام والاستقرار في القسطنطينية العظمى، يطلب منهم الصلح والرضى عنهم ومنهم، نصرهم الله وخلص ملكهم»، بل أنه يفخر بأن العثمانيين لا يبعثون سفراء ممثلين للعواصم الأوروبية: «...لا يبعثون رسولا لكافر على وجه القعود في بلادهم...»⁽⁴⁾.

وأكد الغساني على ما ذهب إليه سابقه، لذا نجد أنه ينفي أي علاقة دبلوماسية عثمانية مع إسبانيا وبشكل أدق نجد أنه يكذب إرسال وفود دبلوماسية تركية مقيمة في مدريد في قوله: «...مثل وفود الترك التي وردت على إصبايا

(1) المرجع نفسه، ص 307.

(2) أحمد الحجري (أفواي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقدم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 85.

(3) عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا، مرجع سابق، ص 320.

(4) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفواي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 99.

فإنما قبل منذ أربعين عاما⁽¹⁾، زعموا أنها من إسطنبول، والصحيح أنها كانت من عند بعض السفهاء الذين يريدون التخليط على ملك القسطنطينية⁽²⁾.

وكان عدم تواجد سفراء عثمانيين مقيمين في أوروبا يحمل عدة تفسيرات؛ الأول هو إحساس العثمانيين فعلا بالتفوق، فقد كانت الدولة العثمانية تنظر إلى التبادل الدبلوماسي مع أوروبا بنوع من الدونية، فأوروبا هي التي كانت بحاجة إلى الدولة العثمانية⁽³⁾، وأنهم-أي العثمانيين-ليسوا بحاجة للذهاب إلى العواصم الأوروبية، بل الأوروبيين هم من لهم أغراض في الدولة العثمانية لأنهم أقل شأنا، وأن وجود بعثات دبلوماسية من طرف "السيد العظيم" كانت تعكس من وجهة نظر العثمانيين اعترافا بالتفوق والسمو على تلك الكيانات، فطالما كانت الدولة العثمانية قوية، وكانت سيادتها وتكاملها الإقليمي غير قابلين حتى لمجرد التحدي؛ فإن عدم التبادل الدبلوماسي يشكل مصدرا للقوة وليس مؤشرا لضعف الدولة⁽⁴⁾.

أما نظرة الأوروبيين من تواجد سفراء عثمانيين دائمين في عواصمهم، فلا تخرج عن إطار التوجس والخيفة من الدولة العثمانية، وهو الأمر الذي أكدده أحد الوزراء الفرنسيين في مذكراته في حثه الأمراء على عدم قبول السفراء الذين يلجؤون إلى الإقامة الطويلة لأنهم غالبا ما يكونون جواسيس بلدانهم وعيونها⁽⁵⁾، وعليه فلا شك أن العثمانيين والأوروبيين قد اختلفوا بهذه العلاقات الدبلوماسية، أي بمواصلة أعمالهم في إسطنبول بعيدا على العواصم الأوروبية.

(1) ورغم أن كثير من الباحثين في العلاقات الدبلوماسية العثمانية الإسبانية ينفون وجود سفارة مماثلة طيلة القرن السابع عشر بين الطرفين، إلا أن ما أشار له الغساني حول السفارة التركية التي توجهت إلى مدريد منتصف هذا القرن يتعلق بسفارة الرسول أحمد آغا الذي توجه مبعوثا عن الصدر الأعظم التركي سنة 1649 من أجل دراسة مشروع للسلام بين الدولتين، وقد مكث السفير العثماني في مدريد قرابة السنة تحللها إرسال مبعوث إسباني إلى القسطنطينية من أجل تبين الأمر، وقد أريكت هذه المبادرة العثمانية الإسبانيين لأنها كانت الأولى من نوعها على هذا المستوى في ظل الصراع القائم منذ القرن الماضي بين الطرفين، أما ما جعل الغساني يفند وجود هاته السفارة فراجع إلى كونها لم تكن تحت إشراف السلطان العثماني مباشرة بل من قبل الصدر الأعظم الذي اغتيل فيما بعد، ولأن الدولة العثمانية في هذه الفترة قد شهدت صراعات على السلطة وصغر سن السلطان ما جعل الصادور العظام والسلطانات الأمهات يستولين على القرار في القسطنطينية فقد حدث فيها هذا الإرباك، ومما يكن من شأن هذه السفارة التركية وردود الفعل الإسلامية والأوروبية حولها، فإنها دشت عهدا جديدا خاصة لدى الإسبان في التعامل الدبلوماسي مع الوفود السفارية الإسلامية، ولعدم تعودهم تواجد سفارات إسلامية في مدريد فقد بقي صدى هذه السفارة راسخا لدى الإسبان ولا بد أن زيارة الغساني قد أحييت ذكراها لذا أعاد صاحب الرحلة استحضارها، وكان ذلك تحت تأثير استحضار الإسبان أنفسهم لها خاصة في ظل حاجتهم لمعرفة بروتوكولات الدبلوماسية الإسلامية بغرض التعامل معها وتطبيقها على وفد الغساني، للمزيد حول السفارة العثمانية لإسبانيا 1649-1650 أنظر:

Miguel Conde Pazos, «La embajada turca en Madrid y el envío de Alegreto de Allegretti a Constantinopla (1649-1650) », Libros del a corte.es, Vol 3, No3, 2011, p10-17.

(2) محمد بن عبد الوهاب الغساني مصدر سابق، ص 87.

(3) محمد أفندي، جنة الكفار: سفير عثماني في باريس سنة 1721 سفارتنامه محمد أفندي، دراسة وتحقيق: عبد الرحيم بنحادة، منشورات دار أبي رقرق، الرباط، 2017، ص 21.

(4) محيي الدين قاسم، مرجع سابق، ص 58.

(5) عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا، مرجع سابق، ص 314.

ويبدو أن مفهوم وممارسات الدبلوماسية الإسلامية في علاقاتها مع الدول الأوروبية كانت شاملة طيلة العصر الحديث، فالصورة التي يذكرها الحجري والغساني عن عدم وجود سفراء عثمانيين مقيمين في البلدان الأوروبية خلال القرن السابع عشر، أكدها المكناسي في نهاية القرن 18م كذلك مبينا موقف المغرب من ذلك، في رؤية دينية عززت بمواقف سياسية وأخرى شخصية حول مكوث السفير المسلم بين ظهراي النصارى إذ يراها ابن عثمان مهانة كبيرة بقوله: «...لأن كثرة المقام في بر النصارى بلا فائدة مهانة زائدة»⁽¹⁾.

وبذلك يكون كل من الحجري والغساني والمكناسي قد قدموا لنا صورة عن الاختلاف في النظرة "للدبلوماسية" بين العالمين الإسلامي ممثلا في الدولة العثمانية والمغرب، والعالم المسيحي مثلته دول أوروبا الغربية بالخصوص.

3- ضوابط وأعراف الدبلوماسية الأوروبية الحديثة

وبعد أن تعرفنا على مفهوم الدبلوماسية الأوروبية المقيمة ومهام السفراء، ومقارنتها بنظيرتها الإسلامية نقف الآن عند تعرف الرحالة والسفراء المغاربة على جملة من ضوابط وأعراف الدبلوماسية الأوروبية الحديثة، راصدين مواقفهم منه:

- **الصدارة والأفضلية الدبلوماسية:** ففي مواصلة اهتمامهما بالمؤسسة الدبلوماسية في أوروبا، يذكر كل من الغساني وابن عثمان المكناسي أن اختلاف العلاقات بين الدول الأوروبية وتباينها والتميز الحاصل بينها، جعل هناك علاقات دبلوماسية مميزة مع دول وأخرى عادية⁽²⁾، ما أدى إلى وجود نوعين من السفراء، ومن ذلك إشارته إلى وجود سفراء فوق العادة في إسبانيا تضبطها العلاقات العائلية، لهذا عرفوا بـ: «لنبشدرس دي فميلية»، ويعني سفراء العائلة (Embajadores de familia)، وأعطى أمثلة كسفير فرنسا وسفير نابولي أو مالطا: «لأن نباشدور افرانصية من جنسه، وانباشدور نابل من أهل مملكته الأولى ومملكة ولده من بعده...»⁽³⁾.

وقد سبقه الغساني في هذه الملاحظة في قوله: «ومعادريد أيضا انباشدور بلنسية والبرتقال، فهؤلاء مقرون مستوطنون بأولادهم ونسائهم، والغير يقدم بقضاء ما يأتي إليه ويرجع في حاله...»⁽⁴⁾، كما لاحظ الغساني

(1) محمد بن عثمان المكناسي، *البدور السافر*، مصدر سابق، ص 129.

(2) كان كل من الغساني ومن بعده المكناسي دقيقين جدا في نقل هذا التمايز الموجود بين السفراء، رغم أنهما اكتفيا بالإشارة إلى أن التفاضل بينهم يكمن في مدى القرابة العائلية للملك هذه الدول فقط، بينما يمكن تسجيل أسباب أخرى لهذه المفاضلة بين مختلف السفراء؛ حيث شاع التنافس الدبلوماسي الأوروبي خلال العصر الحديث حول "الصدارة والأفضلية في التمثيل الدبلوماسي"، فهناك سفراء مميزون في كل دولة أوروبية نظرا لاختلاف طبيعة العلاقات بين هذه الدولة وتلك، وغالبا ما شكلت هذا التمييز في الصدارة والأسبقية صراعات بين هذه الدول. أنظر: محيي الدين قاسم، مرجع سابق، ص 31.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، *الإكسير*، مصدر سابق، ص 96.

(4) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 117.

والمكناسي وجود سفراء بين الدول الأوروبية والبابا⁽¹⁾ ويعرفه ابن عثمان: «...نبشدر الباب ويسمى التونسي»⁽²⁾، فقد استمر تمثيل الكرسي البابوي حاضرا في الممالك الأوروبية الكاثوليكية منها على وجه الخصوص.

- **عدم مكوث أكثر من سفيرين للدولة الواحدة:** ويقضي العرف الدبلوماسي الأوروبي كذلك أن لا يتواجد سفيرين لنفس البلد في نفس الوقت في بلد ما، وهنا أشار المكناسي لاستغراب الأوروبيين في مالطا من وجود سفيرين مغربيين في الوقت نفسه الأمر الذي زاد من قلق وتوجس المالطيين، وذلك في حديثه عن تواجد السفير المغربي "محمد الحافي" الذي سبق المكناسي إلى مالطا في شأن الأسرى، ومزامنة وصول هذا الأخير سفيرا ثانيا لملك المغرب، فشرح المكناسي سبب ردة فعل حكام مالطا قائلا: «...لأن من جملة قوانينهم أنه إذا بعثوا البشطور إلى ملك من ملوكهم يعينون له المدة التي يقيمها سنتين أو ثلاث أو أكثر، بحسب ما يظهر له، ويكون واسطة بين ملكه والملك الذي هو عنده في جميع الأشياء، فإذا أراد طاغيته أن يخلفه يبعث بشطور آخر فيقدم عليه، ويتولى الكلمة الثاني، ويتوجه الأول...»⁽³⁾.

وهنا تظهر صورة الغيرية أو الاصطدام بتنظيمات وقوانين الآخر، ما يظهر عدم تعود المغاربة على مثل هذه القوانين في التسيير الدبلوماسي على الأقل مع الطرف الأوروبي⁽⁴⁾، ليؤكد المكناسي أن هذه المواقف من عدم الاستيعاب أربك الأوروبيين بمثل ما أربك المغاربة، وذلك راجع حسب اختلاف القوانين: «...وقع التخليط عليهم بحساب اختلاف القوانين التي يعهدونها، وبقوا مفكرين يتخافتون لا يدرون ما يأتون»⁽⁵⁾.

- **تكاليف السفراء:** ولأن العرف الدبلوماسي الأوروبي خلال العصر الحديث كان يقضي أيضا بأن يتحمل الحكام الذين أرسلوا المبعوثين دفع نفقات الدبلوماسيين وليس الدول المستقبلة لهم، فإن المبعوثين غير الأوروبيين، ومنهم المغاربة طبعاً، ظلوا يتوقعون أن تتكفل الدول المستضيفة بتكاليفهم، وهو الأمر الذي يفسر ردة فعل السفير المغربي المكناسي الذي استهجن من عدم قيام السلطات في مالطا بالتكفل بمصاريف إقامته هناك، يقول: «فبعث إلينا رسوله (يقصد حاكم مالطا) وقال: «... أما الدار بنزولكم بمائها فعليه، وأما القرى فلا تتشفون إليه، فقلت يا للعجب كيف سموت لهذه الرتب! حتى صرتم تتحرزون منها وتتنكبوا عنها، أف لمن لا يقدر مقداره...أفي مثلكم

(1) المصدر نفسه، ص 117. محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 96.

(2) وكان لممثلي البابا الأولوية على سائر ممثلي الدول، ويليهم ممثل الإمبراطور الروماني المقدس. أنظر: محيي الدين قاسم، مرجع سابق، ص 31.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 103.

(4) فهذه القوانين الدبلوماسية لم يكن يعمل بها في البلاد الإسلامية، فمثلا فيه هذه الفترة (1785) توجه سفيرين مغربيين وهما ابن عثمان المكناسي وأبو القاسم الزباني إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية في نفس الوقت، ولم تثر نقاشا دبلوماسيا مثل ما كان عليه الأمر في مالطا، وهو ما يؤكد أن الأعراف الدبلوماسية الإسلامية كانت نفسها مشرقا ومغربا. انظر: محمد بن عبد الوهاب المكناسي، إحراز المعلى والرقيب، مصدر سابق.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 103.

يطمع...أتظنوني قدمت عليكم كالغير هملا... فإن الله تعالى أغنانا بسيدنا ومولانا الإمام على جميع الأنام»⁽¹⁾، وربما كان هذا الموقف هو وقوع التباس وعدم وضوح نظم دبلوماسية الآخر لكلا الطرفين، فبينما كانت النظم الأوروبية تفرض على دولة السفير المبعوث إليها القيام بمصاريفه كانت الدول الإسلامية تقوم بكافة أعباء السفراء. لكن يبدو أن هذه الأعراف في تكفل الدولة المضيئة بأعباء إقامة السفراء والدبلوماسيين كانت تختلف بطبيعة العلاقة مع الطرف الآخر، فلما كانت مالطا في حالة صراع مع المغرب رأينا منها ما رأينا من عدم ليونة في المواقف والأعراف الدبلوماسية، بينما نجد العكس تماما في السفارات المغربية إلى إسبانيا، إذ كانت هذه الأخيرة تتعامل بليونة دبلوماسية فائقة، لأنها كانت ترجوا إقامة علاقات سلمية مع المغرب، لذا تم عرض التكفل بكافة تكاليف إقامة السفراء والمبعوثين المغاربة في مدريد فوجد المكناسي يقول: «...وورد علينا الذي بيده الدخل والخرج فسلم وقال إن الطاغية أمره أن يكون عند أمرنا منفذا لجميع مآربنا ما دمنا ببلده...»⁽²⁾.

- **تأثير العلاقات السياسية على التمثيل الدبلوماسي:** واكتشف الرحالة المغاربة أنه برغم هذه الأسس الضابطة لعمل السفير في أوروبا، إلا أن العلاقات بين الدول هي من تتحكم في التمثيل الدبلوماسي، ومن ذلك إشارة كل من الغساني وبعده المكناسي إلى سحب السفير في حالة توتر العلاقات⁽³⁾؛ فحديث المكناسي عن سحب السفير الإنجليزي من أرض إسبانيا أو أرغم على الذهاب منها بسبب الحروب التي كانت تخوضها بلاده في أمريكا التي كانت تطالب باستقلالها⁽⁴⁾، وقد سبقه الغساني إلى الإشارة إلى صورة مماثلة بعد سحب السفير الفرنسي من إسبانيا بسبب الصراع الفرنسي-الإسباني قائلا: «ولقد كان قبل هذه الساعة انباشدور افرانسية، ولما وقع بين أجناس النصر ما بينهم اليوم من الفتن والحروب والعداوة...ورجع في حاله إلى مخدومه»⁽⁵⁾.

- **موظفي التشريفات:** ومن مظاهر التنظيمات الدبلوماسية التي وقف عندها رحالتنا المغاربة خلال هذه الفترة في أوروبا وجود موظفين تتحدد مهامهم وواجباتهم في استقبال الدبلوماسيين ومتابعتهم، وفض ما شجر بينهم من خلاف من مسائل المراسيم والاستقبال، ولهذا الغرض صار يدعى بمقدم السفراء (Conducteur des

(1) المصدر نفسه، ص104.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 172، محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 153، أحمد بن المهدي الغزال، ص142-143.

(3) وترتبط أعمال السفير بطبيعة العلاقات بين الدول، فإن كانت ضعيفة فإن الروابط الدبلوماسية تنقطع أو ينخفض مستواها مما يضمن أن تؤثر فترات الصراع تأثيرا كبيرا في نطاق التمثيل وطبيعته، وهناك أنواع أخرى من النزاعات التي تؤدي إلى قطع الروابط الدبلوماسية، وما الأمثلة التي ذكرها كل من الغساني والمكناسي إلا دليل على ذلك. أنظر: جيري بلاك، تاريخ الدبلوماسية، تر: أحمد علي سالم، مراجعة: سعيد الغانمي، ط1، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة-كلمة-، أبو ظبي، 2013، ص 111.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 96.

(5) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص117-118.

ambassadeurs) أو مدير المراسيم أو رئيس التشريفات (Maitre des Cérémonies) ويصف الغساني دوره في قوله: «...قدم علينا القند الموكل بنا يعلمنا يتهياً عظيماً للملاقاة، وبدأ يستفهمنا عن حال سلامنا ليخبره به قبل دخولنا عليه، لكونه لم يتقدم له قبل ملاقاته مع أحد من أهل ملتنا أعزها الله تعالى، فأخبرناه بسلامنا عن بعضنا البعض وبسلامنا على غير أهل ديننا، وأنه قول: السلام على من اتبع الهدى من غير زيادة عليها.. فانقلب القند المذكور ويده ورقة مكتوب فيها صفة الدخول ومن بالباب من المعنيين للقائنا، ومن أمامهم لنكون على بصيرة في أمرهم...»⁽¹⁾.

فيعطي البرتوكول الدبلوماسي الذي شرحه موكل الملك للغساني صورة واضحة للتنظيم الأوروبي في هذا المجال بداية من إصرار الإسبان على معرفة الطقوس البروتوكولية للوفود القادمة إليهم إلى غاية التنظيم داخل القصر الملكي أثناء الاستقبال الملكي للسفراء وممثلي الدول.

وأكد المكناسي ما جاء به الغساني قبله من وجود وزير معين يعنى بإعلام السفراء بالضوابط الأوروبية للقاء الملوك: «في اليوم العاشر من مقامنا تلاقينا مع الوزير الأعظم الذي عليه مدار جميع أمور الطاغية، فسلم علينا وقال إن الطاغية يريد ملاقاتكم اليوم الفلاني وسأبعث إليكم كاغدا مرسوما فيه كيفية ذلك...»⁽²⁾، وفي نابولي: «...بعث إلينا الوزير بقصد ملاقاتنا معه أولاً، وتلك هي العادة عندهم فيمن يفد على ملوك الروم، أن يتلاقى أولاً مع الوزير ويعطيه نسخة من الكتاب الوارد به فيطالعه الوزير ويعلم منزلة حامله، وما ورد على شأنه ويُعلم بذلك الطاغية ليكون على بصيرة في ملاقاته الوارد عليه فينزله منزلته التي يستحق، ويقابله في الملاقاة والكلام بحسب ما يجب عليه ويحق...»⁽³⁾.

- اعتماد السفراء: وتطرق المكناسي لكيفية اعتماد السفير في البلاد الأوروبية: «فمن المعلوم والقانون الذي هو عند النصارى في الدفاتر مسطر مرقوم، ويعلمه كل من يتردد في البحر من الرؤساء وأصحاب البضائع والتجر أن الإنسان لا يركب البحر من بلد إلا بعد إحصاء عدد من معه، وفي كل مرسى ينزل إلا ويخبرون عددهم مع ما هو مكتوب في البطاقة المكتوبة في المرسى التي ركبوا منها، فإن وجدوا عندهم نقصاً أو زيادة لا يقبلوهم إلا بعد البحث في أمرهم البحث التام، ولا سيما من هو مسافر مثل سفرنا من قبل مولانا أمير المؤمنين، فإن المكاتب تكتب بخبره جميع الأقاليم بأن فلانا عينه سيده وأميره للتوجه إلى الأمير الفلاني إن كان مسلماً أو إلى الطاغية الفلاني إن كان من طواغي الكفر، ومع كذا وكذا من الناس كل بخدمته وحرفته...»⁽⁴⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 88-89.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 85.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 133.

(4) المصدر نفسه، ص 247.

ويبدو أن المغاربة كانوا قبل هذا على علم بالقوانين الأوروبية في ذلك، فكانت رسالة السلطان المغربي محمد بن عبد الله إلى حكام مالطا وصقلية في أمر تعيين ابن عثمان سفيرا له: «إلى سلطان نابلس وصقلية وغيرهما... أما بعد فقد وجهنا إليكم باشطورنا... السيد محمد بن عثمان... فبعثنا إليكم البشطور المذكور ليجعل الصلح معكم...»⁽¹⁾.

- **بروتوكول نهاية مهام السفراء:** وتعبيرا منه على إعجابه وتأثره ببعض التقاليد الدبلوماسية الأوروبية مثل ظاهرة توديع السفراء بعد انتهاء أعمالهم، نجد السفير المغربي المكناسي يقدم على تقليدها، وذلك بعد أن يعرف قارئ رحلته على هذا التقليد إذ يعمل الدبلوماسيين الأوروبيين على توديع أعيان وحكام البلاد التي بعثوا سفراء إليها، يقول: «...لأنه لما يقدم الواحد على بلادهم يردون عليه كلهم بقصد السلام عليه، فيلزم أن يودعهم عند توجهه من بلادهم، فيطبع قراطيس صغارا يكتب فيها اسمه، ويبحث كل بطاقة لدار كل واحد من الأعيان، فيكفيه ذلك في الوداع... ومن لم يفعل يعد عندهم بربريا لا يفقه صوابا، ولا يعقل خطابا.. فأشرت على القبطان الذي كان ملازما لنا منذ طلعا من قالص أن يطبع القراطيس...»⁽²⁾، ويرر المكناسي سلوكه مسلك الأوروبيين الدبلوماسي بقوله: «...فيتعين على العاقل الذي قُدر عليه جوب البلاد، وملاقة الأجناس من العباد، أن يسلك مسالك القوم، ليلا يتوجب إليه عتاب أو لوم، وذلك أسلم لنفسه، وعدم تكدير يومه وأمه»⁽³⁾.

وإذا كان الغساني قد عبر عن رفضه اعتماد الأساليب والتنظيمات الدبلوماسية الإسبانية حين لقائه بالمسؤولين الإسبان، معبرا بفخر واعتزاز باستعمال أساليب الدبلوماسية الإسلامية والمغربية، إلا أن المكناسي في القرن الثامن عشر، وتعبيرا منه عما "اقتضته الدبلوماسية من مسaire" فقد رضى لهذه التنظيمات الأوروبية مبديا إعجابه ببعضها. وربما عبرت هذه الصورة عن وعي ابن عثمان بأهمية هاته التنظيمات الدبلوماسية التي كانت سائدة في أوروبا، إلا أنه لا يقدم دعوة لأصحاب القرار في المغرب من أجل تبنيها لا بالتصريح ولا بالتلميح، وربما يرجع ذلك إلى عدم انتشار فكرة الأخذ من الآخر، خاصة مع سيطرة التأثيرات الفقهية والنظرة للآخر الأوروبي والنصراني، فرغم محاولة المكناسي إبداء احترامه وتماشيه مع تلك القوانين إلا إعجابه بالتنظيم المشار إليه يبقى داخل البلد المرتحل إليه، وأنها عادة خاصة بأوروبا يجب أن تبقى فيها لا أن تنتقل إلى المغرب لأنها "من قوانينهم"! ونقول هذا لأن المكناسي لم يشر على الإطلاق إلى إمكانية نقل مثل هذه التنظيمات لبلده.

(1) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج9، مرجع سابق، ص280.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص143-144. محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص177.

(3) المصدر نفسه، ص176.

وما يمكن الخروج به أخيرا في نهاية هذا الفصل أن القارئ لنصوص الرحالة المغاربة حول أوروبا يستطيع بلا شك أن يقف عند الضوابط المحددة لأي علاقة بين الدول المغربية والإسلامية عموما مع الدول الأوروبية خلال العصر الحديث، وأن يستوضح الأرضية التي نظر بها المغاربة إلى نظرائهم الأوروبيين وهي نظرة تعبر عن التفوق والاستعلاء مقابل تقزيم الآخر الأوروبي وتحقيره، كما أن هذه الرحلات جاءت كل منها في سياقات تاريخية وسياسية مهمة ومفصلية سواء بخصوص العلاقات الإسلامية الأوروبية أو الأوروبية-الأوروبية، خاصة وأن هذه الرحلات أتت متوزعة عبر قرنين كاملين ما يتيح تشكيل صورة قريبة عن واقع الأحداث، وتكمن أهمية ما نقله هؤلاء الرحالة في أهمية مكانتهم السياسية والثقافية والدينية كرجال دولة ودبلوماسيين وفقهاء عبروا عن هذا الواقع والعلاقات الدولية وفق نظرة مغربية أقرب ما تكون نظرة رسمية.

الفصل الثالث: الواقع العسكري الأوروبي في نصوص الرحالة المغاربة خلال القرنين 17 و18م

- أولاً: الاستحكامات والتحصين العسكري.

- ثانياً: التسليح والصناعة العسكرية

- ثالثاً: التنظيمات العسكرية الأوروبية.

الفصل الثالث: الواقع العسكري الأوروبي في نصوص الرحالة المغاربة خلال القرنين 17 و18م

احتل الواقع العسكري في أوروبا مكانة مميزة في نصوص الرحلات المغربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، ويعود الاهتمام بهذا القطاع للمكانة التي يمثلها في خضم الصراع بين الطرفين الأوروبي والمغاربي أو الإسلامي الصليبي، وما يجب الإشارة إليه قبل أن نستعرض الصورة التي حملتها هذه الرحلات في هذا الشأن، أننا لا نسعى في هذا الجزء من البحث إلى تتبع الواقع العسكري من حيث هو حروب ووقائع حربية، بل نهدف إلى تتبع نظرة السفراء المغاربة للنظم العسكرية والحربية الأوروبية، محاولين الوقوف على موقفهم منها وردود فعلهم تجاهها، وإن المتتبع لرحلات القرنين السابع عشر والثامن عشر يسجل تركيز رحالة هذه الفترة على ثلاثة محاور في اهتماماتهم بصورة الواقع العسكري الأوروبي، أما الصورة الأولى والتي تناولها كل الرحالة؛ فهي صورة التحصينات العسكرية الأوروبية، أما المحورين الباقيين وهما ما انفرد بهما بشكل خاص رحلات النصف الثاني من القرن الثامن عشر وهو التنظيمات العسكرية، وكذلك الصناعة العسكرية الأوروبية.

أولاً: الاستحكامات والتحصين العسكري

شكلت التحصينات العسكرية الأوروبية واحدة من أهم صور الواقع العسكري في أوروبا التي أثارت انتباه الرحالة المغاربة؛ نظراً لما حملته من تعبير عن غيرة واختلاف جلي فيما يخص أساليب الحرب المعتمدة بين ضفتي البحر المتوسط، إذ كان الاهتمام بتشديد الحصون والقلاع العسكرية ميزة خُصت بها الضفة الشمالية للمتوسط على نظيرتها الجنوبية، وهو ما يذكره بروديل⁽¹⁾ بتأكيده أن تشديد الحصون شاع في أوروبا بشكل أكبر خلال القرن السابع عشر، إذ شكّلت إبانها مراكز حماية في البلدان المسيحية، ما كان يعكس عقلية هذه البلدان وذهنيتها، فيما لم يستخدم العالم الإسلامي مثل هذه القلاع وتلك الحصون، فقد كانت الخطوط الدفاعية سياسة مسيحية غريزية لم يتبعها العثمانيون ولا المغاربة، فالدول المسيحية أقامت بوجه الإسلام سلسلة من الجبهات المحصنة⁽²⁾، وهذا ما يفسر اهتمام الرحالة المغاربة بها لأنها تدخل في حكم العجيب بالنسبة إليهم، والغريب عن نظم وأساليب حربهم.

(1) فرنان بروديل (Fernand Braudel) ولد في عام 1902م وتوفي سنة 1985م، يعتبر بروديل ركن المدرسة التاريخية الفرنسية الحديثة، وقد شرع في الكتابة بمجلة الحوليات (Annales) الشهيرة وذلك سنة 1946م، قبل أن يُنتخب أستاذاً للتاريخ في "كوليج دو فرانس" (Collège de France) عام 1949م، ورئيساً للقسم الرابع في "مدرسة الدراسات العليا" الفرنسية سنة 1956م، وفي سنة 1962م أسس "بيت علوم الإنسان" في باريس، لينتخب بعدها عضواً في "الأكاديمية الفرنسية" تقديراً لأعماله، ومن أهم الأعمال التي تركها بروديل: "المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني" الذي صدر بالفرنسية سنة 1949م ليترجم بعدها إلى عدة لغات، إضافة إلى مؤلفه الموسوعي بعنوان: "الحضارة المادية والاقتصادية والرأسمالية من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر" الذي استغرق منه ربع قرن لإنجازه، وبعد وفاته صدر له كتابه "الهوية الفرنسية". أنظر: مروان أبي سمر، «فرنان بروديل مؤرخ المتوسط والعالم المتوسطي: الصحراء، البدو، والإسلام قطب المتوسط التاريخي»، مجلة الاجتهاد، ع17، السنة 4، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، خريف عام 1992م، ص183.

(2) فرنان بروديل، مرجع سابق، ص 147-149.

وإضافة إلى كون هذه التحصينات لقيت اهتمام الرحالة المغاربة كونها تعبر عن مظهر من مظاهر الاختلاف في أساليب الحرب، نلاحظ أن جملة من الدوافع والسياقات المرحلية أدت لاهتمامهم بها أكثر، منها دافع ذاتي يتمثل في رغبة المخزن المغربي في معرفة مدى حصانة هذه القلاع، خاصة تلك التي كانت على الثغور وبالمدين المغربية المحتلة من طرف الأوروبيين على أمل فتحها، إذ كان مرورهم على هذه القلاع يشكل فرصة من قبل الوفود السفارية المغربية كي يقدموا تفصيلا دقيقا للمخزن المغربي ربما يساعد في قضية حصارها وفتحها، فطيلة قرنين من الزمن كانت الحروب على أسوار هذه المدن المغربية المحتلة بين الطرفين.

ولا عجب في هذا الاهتمام فرحلة الغساني تأتي بعد اقتحام المغاربة حصون مدينة العرائش 1689م التي كانت تحت سيطرة الإسبان وسيطرتهم عليها بعد حصار شديد كما رأينا في القسم الأول، وكذا رغبة السلطان إسماعيل في استعادة باقي الثغور، وتكرر نفس الموقف خلال القرن الثامن عشر مع السلطان محمد بن عبد الله الذي جعل استعادة هذه المدن والحصون المغربية أبرز اهتمامته، لذا يقول ابن زيدان أن السلطان محمد بن عبد الله: «توجه إلى سبتة (قبل رحلة الغزال لإسبانيا) فوقف عليها وشاهد حصانتها ومنعتها، فتيقن أن لا مطمع في قصدها»⁽¹⁾، فأثت رحلة الغزال في هذا السياق، وكذلك أثت رحلة المكناسي بعد حصار السلطان محمد بن عبد الله لسبتة سنة 1774م والتي استعصت عليه، لذا توجه رحالتنا لمعرفة حصانة هذه الثغور. على أمل أن يمدوا الدولة المغربية بأوضاعها من الداخل فيها حتى تتأهب لمحاصرتها من جديد.

ولا بد أن نشير إلى عامل آخر نعتقد أن له نصيب في التأثير على توجه الرحالة المغاربة للاهتمام بالتحصين العسكري للمدن المغربية التي كانت تحت الاحتلال، ويتمثل هذا العامل أساسا في توجيه الإسبان أنفسهم لهؤلاء المغاربة لرؤيتها، ويبدو الهدف من ذلك هو إرهابهم بقوة التحصين، وهذا ما يفسره إصرار حاكم سبتة الإسباني على تغيير مسار رحلة الغزال التي كان من المفترض أن تنطلق من طنجة نحو إسبانيا إلا أنه وجهها إلى سبتة المحتلة وبقي فيها الوفد المغربي ستة أيام شاهد خلالها "عظم تحصيناتها"⁽²⁾.

1- في الصورة

وعلى العموم تعطينا المشاهدات التي سجلها رحالتنا في نصوصهم صورة البلاد الأوروبية والمسيحية التي تحيط نفسها بالحصون والأسوار في وجه الإسلام والمسلمين، في حين كان يبدو الاهتمام الإسلامي بالحروب الهجومية (ربما

(1) عبد الرحمن ابن زيدان، تحاف أعلام الناس، ج3، مرجع سابق، ص191.

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص46-47.

نتيجة نظرة التفوق، فالمسلمين يهاجمون ولا يدافعون) ما أدى إلى عدم اهتمامهم بالتحصن والدفاع⁽¹⁾، وكانت التحصينات الأوروبية منتشرة عبر كل المجالات الحدودية مع الإسلام في شمال إفريقيا وعلى السواحل الجنوبية للحوض الغربي للمتوسط أو على تخومه الشرقية واستفادة الأوروبيين من التحصينات الطبيعية.

وصف الرحالة المغاربة مشاهداتهم للتحصين العسكري الأوروبي في شمال إفريقيا وفي المدن المغاربية المحتلة، فذكر الحجري التحصينات العسكرية الكبيرة في القلاع الإسبانية وأعطى مثالا على ذلك قلعة "البريجة" التي كانت محتلة من طرف الإسبان فيقول: «...وتعجبت المنع الذي في بنيان صورها (يقصد مدينة البريجة التي كانت على يد الإسبان وقتها) هو أساسه على حجر ووسعة ثلاثة عشر ذراعا ولا يبالي بكور الأنفاط (المدافع) في إتقانه وصلابته وغلظته»⁽²⁾.

أما في رحلات القرن الثامن عشر فكان الاهتمام بالواقع العسكري أكبر، فانتبه الغزّال إلى واقع التحصينات الإسبانية على مستوى المدن المغربية المحتلة، وبين عمرائها، وعبر عن إعجابه بها، وتعجبه منها، وذلك في وصفه لتحصينات مدينة سبتة: «وللمدينة ثلاثة أسوار، اثنان داخل القنطرة المضروبة على رجل البحر المحقق بالمدينة، والثالث خارج القنطرة، والباب الذي هو متصل بالقنطرة هو أكبر الأبواب، داخله قنطرة من اللوح مثل القنطرة الخارجة عنه مرتفعة فإذا نزلت للأرض بما لها من الحركات، ارتفعت القنطرة الخارجة من الباب، فهما ككفتي الميزان، فإذا جن الليل وسدت البابة يرفعون القنطرة الخارجة بنزول الأخرى داخل الباب زيادة في التحصين، ولهذه الأسوار أبراج كالشواهد، وعن خارج السور حفيران وإرشاق وإغرابات، ومخادع يمرون إليها من باطن الأرض، وأبوابها داخل المدينة...»⁽³⁾.

ومما لفت انتباه الغزّال والمكناسي بخصوص هذه الحصون هو طريقة المراسلة بين أفرادها من جنود وقادة في صورة غريبة عليهم قائلا: «ومن جملة ما رأيت من خوفهم من الإسلام، أن ضربوا حبلين رقيقين من أعلى سور المدينة إلى بالرج المقابل له من خارج، وجعلوا وفي الحبلين ربيعة صغيرة جدا لسر في ذلك وهو: إذا حدث أمر ليلا خارج

(1) فعكس الأوروبيين لم يحظ التحصين العسكري باهتمام كبير لدى المغاربة، فخلال القرن الثامن عشر كانت كل التحصينات قديمة ما عدا التحصينات في الداخل ضد القبائل البربرية، أما التحصينات الساحلية فهي قديمة ومتآكلة فيها كثير من الثقوب، وبعض قطع المدفعية، والدليل على قيمة هذه التحصينات الساحلية المغربية أن السلطان محمد بن عبد الله قال لأحد القناصل الأوروبيين: "سيدك يهددني بإحراق تحصيناتي البحرية؟ كم تظن أن هذا سيكلفه؟ فقدّر هذا ب 08 ملايين فرنك، فقال السلطان: قل لسيدك أن يرسل لي نصف هذا المبلغ وأنا أحرقها بنفسني". أنظر: ثريا برادة، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1997، ص 166.

(2) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 69-70.

(3) أحمد بن المهدي الغزّال، مصدر سابق، ص 50.

الباب يكتب به صاحب العسة المعين لذلك، ويجعل الكتاب داخل الربيع، فيجذبها إليه العساس الذي داخل الباب، ويذهب الكتاب لحاكم البلاد في أي وقت كان من الليل فيجيب بما يظهر له في الوقت ولا يؤخر الأمر المحدث إلى الغد خشية التفويت»⁽¹⁾.

وكذلك يلاحظ القارئ لنص رحلة المكناسي اهتمامه الكبير بوصف الحصون العسكرية الإسبانية، ومما لاحظته صاحب رحلة "الإكسبير" أن الأوروبيين أول ما يقومون به في حملاتهم على شمال أفريقيا والنزول بها هو تشييد الحصون العسكرية بها، وذلك حين ذكره للحملة الإسبانية على الجزائر سنة 1775م التي قادها الكونت أورلي (Conte Oreilly) الذي «...أنزل في البر آلات البناء والمدافع وشرع في بناء الحصن...»⁽²⁾.

وعند وصوله إلى مدينة سبتة تحدث عن طريقة التحصين فيها والتي بدت غريبة بالنسبة له: «مع أن التحصن الذي في سبتة ما أظنه موجودا في غيرها»⁽³⁾؛ فالتأمل لوصف المكناسي للتحصينات الإسبانية لهذه المدينة يكاد يجزم أن الرجل بُعث جاسوسا لتسجيل معلومات عسكرية حول ذلك أو ما شابه، فيبدو وصفه دقيقا راصدا كل صغيرة وكبيرة في حصون المدينة الموجودة على خط التماس مع الحدود المغربية من هندسة البناء إلى عدد الجنود بالقلاع والأبراج وعدد الفياق وطريقة المراسلة بين الجنود في هذه الحصون وعدد الأسوار وطريقة فتح وغلق أبوابها مارا بوصف الخنادق المحيطة بها وأبراج المراقبة وكل ما له علاقة بهذه الحصون⁽⁴⁾.

ما يدل فعلا عن إحساس المغاربة بقوة الآخر والبحث في مقومات هذه القوة، خاصة وأن المغرب كان خارجا من حصار لمدينة مليلية التي كانت تحت يد الإسبان ما جعلهم يكتشفون فعلا أهمية الحصون في الحروب لذا راح المكناسي يصف تحصين مدينة سبتة، وعلامات الغرابة والتعجب ظاهرة على لغته في حديثه عن ظاهرة التحصين العسكري الإسباني، فنجدد يكرر كلمة "عندهم" بما يوحي بعدم ألفته رؤية ذلك، وأكثر ما شدّ انتباه المكناسي لهذه التحصينات هو الخنادق الموجودة بالمدن سواء من الداخل أو الخارج: «...ودخلنا المدينة (سبتة) من ناحية البحر بعد أن دخلنا الباب الأول والثاني، ولما وصلنا الباب الذي هو باب المدينة وجدنا دونه حفيرا متسعا جدا كثير العمق أدخلوا فيه البحر، وتجوز فيه المراكب الصغار، فصارت سبتة بذلك جزيرة محيطة بها الماء من جميع جهاتها»⁽⁵⁾.

وتأكيدا عن الفوارق في الاهتمام بالتحصين العسكري والاختلاف في أساليبه بين المغاربة والإسبان ما حمله المقطع الذي ذكره المكناسي منذ أول وهلة ينزل فيها بإسبانيا، فصاحب رحلة الإكسبير يسجل حالة الصراع بين

(1) المصدر نفسه، ص 51-52، محمد بن عثمان المكناسي، الإكسبير، مصدر سابق، ص 11.

(2) المصدر نفسه، ص 29.

(3) المصدر نفسه، ص 08.

(4) المصدر نفسه، ص 10-11.

(5) المصدر نفسه، ص 08.

البلدين وتوجس كل واحد منهما من الآخر، ويذكر تحصين كل طرف، أما الطرف المغربي فكان يتحصن في "آشبار"، وهو محل يتخذ المقاتل درقة في الحرب، ويتكون من كوم الحجارة مصففة يختفي وراءها ويصلي منها العدو بقذائفه، وربما كانت من حصون طبيعية، بينما نجد تحصين الإسبان: «موضع تحت الأرض خارجا من سورهم من ناحية المسلمين، يسمونه الغراب، وعندهم منه خمسة صورة ذلك... وقد جعلوا هذه الأغربة خارجة عن سورهم مما يلي المسلمين، ويأتون إليهم من داخل السور، فإذا كانت الحرب يملأهم بعسكرهم، فيضرب من تحت الأرض بحيث لا يراه أحد...»⁽¹⁾.

وانتشرت هذه القلاع والحصون كذلك عبر كثير من المراسي والمدن الساحلية الأوروبية المقابلة للساحل المغربي، فتحدث الغساني عن التحصين العسكري للمدن الساحلية الإسبانية: «...لأن النصارى لم يكن لهم اعتناء ببناء الأسوار ولا بتحصين المدن إلا في البعض مما قارب البحر كقلاص من جهة المرسى ومدينة جبل الفتح...»⁽²⁾، ومن ذلك وصفه لمرسى جبل طارق: «...ومرسى جبل طارق هي مرسى كبيرة واسعة الجوف، وعلى بابها حصن منيع مبني أحسن بناء، وبه من العدة والمدافع ما شحنه، إذ هو موضع مبيت العسس وأهل الحرس...»⁽³⁾، وفي جزيرة قرب الجزيرات «شيدوها بيوتا للعسة هي مقابلة لجبل طارق»⁽⁴⁾.

وتحدث المكناسي عن تحصينات مرسى قادش في إسبانيا: «...إلا أن هذا المرسى صعب في الدخول والخروج، حتى أن أهل البحر يقولون: "من زعم أنه في البحر رايس يخرج من مرسى قادش"»⁽⁵⁾.

أما على التخوم الشرقية للبحر المتوسط فقد لفتت التحصينات الطبيعية الأوروبية انتباه ابن عثمان المكناسي، حيث كانت تقوم في وسط المتوسط حدود طبيعية تمتد من سواحل نابولي وجزيرة صقلية وصولا إلى مالطا، ويصف هذه الأخيرة: «وأما جزيرة مالطا فقد اعترضت في حلق البحر الشامي (البحر المتوسط) شجى وقلما سلم المار من كيدها ونجى... أما تحصينها من جهة البحر والبر فشيء لا يدرك ولا يعبر عنه، أما تحصينها من جهة البحر فظاهر، وأما من جهة البر، فكنت أستشكله، فقل أنهم لا يأمنون أن ينزل عدوهم في طرفي الجزيرة ويأتي في البر... وجل أسوار هذه المدينة من أصل الحجر نفسه من غير بناء، وإنما نحتوا الجبال من خارجها فبقيت مستقيمة كأمنع الأسوار...»⁽⁶⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 7-8.

(2) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق ص 58.

(3) المصدر نفسه ص 49-50.

(4) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 57.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 91-92.

(6) المصدر نفسه، ص 110.

فيما كانت التحصينات الطبيعية تحمي نابولي: «...ومعظم المدينة اكتنفاه جبالان في ترتيب وإتقان، كأنما اجتمع على صنعه الثقلان، مثلثة الشكل والمبنى ضخمة البناء لطيفة المعنى قد أحكمت نشأة ووضعاً...»⁽¹⁾، في حين كان يحمي مضيق مسينا (Messina) صقلية: «...وهذا المجاز صعب الغاية يدور به الماء قلما تنجو منه المراكب، وبه أناس ساكنون في قرى على ساحليه لهم معرفة بهذا المجاز...»⁽²⁾ لتشكيل مسينا الموقع الأساسي للغرب المسيحي في مواجهة القوات الإسلامية.

2- في الموقف (ردود فعل الرحالة المغاربة تجاه التحصين العسكري الأوروبي)

ولما شكل الجانب العسكري إحدى أهم محاور الصراع مع الآخر الأوروبي، فقد أثارت هذه الصور من التحصينات الرحالة المغاربة الذين عبروا عن ردود فعلهم تجاهها؛ أما ابن عثمان المكناسي فكان رد فعله بعد وصفه لكل تحصين إلا بالدعاء بالدمار والهلاك على الأوروبيين كقوله: «استأصل الله شأفتهم وأسكت قامتهم، وطهر منهم البلاد»⁽³⁾، «دمرهم الله»⁽⁴⁾، «دمرهم الله وخذلهم»⁽⁵⁾، فأمام كثرة حصون سبتة وحصانيتها لا يجد ابن عثمان إلا الركون إلى الدين داعياً الله أن يدمرها⁽⁶⁾.

وقد تكررت كثيراً هذه الصيغ من الدعاء على الآخر الأوروبي كلما وقف عند هذه الحصون، فرغم أن الدعاء على الآخر الأوروبي بالدمار والهلاك هو في الغالب أسلوب أدبي تعود عليه المغاربة حين ذكرهم للآخر "العدو الكافر"، إلا أننا نلمس صدق التعبير عن ذلك الدعاء حين وقوف هؤلاء الرحالة على قوة الأوروبيين خاصة من الناحية العسكرية.

صحيح أن إقامة الأوروبيين لهذه الحصون والقلاع كان تخطيطاً دفاعياً ضد هجمات محتملة من قبل المسلمين، إلا أن رحالتنا أنتجوا خطاباً بالغوا فيه من تضخيم القوة المغربية والإسلامية، كما بالغوا في تضخيم الخيفة والتوجس الأوروبي في المجال العسكري، إذ يتجه الغزال لتضخيم صورة الأنا معتبراً كثرة الحصون الإسبانية وقوتها تعبيراً آخر عن تهيئهم وتخوفهم من قوة المسلمين، في خطاب يحمل في ثناياه عدم إدراك واستيعاب هؤلاء الرحالة لنظم وأساليب التحصين الموجودة في أوروبا لذا يتساءل الغزال عن جدوى وفائدة وجود حراس داخل هذه القلاع رغم حصانيتها: «وبأحد أبواب المدينة أثرة كرة خرقت الباب، وأصلها من رمي المسلمين على عهد مولانا إسماعيل رحمه الله، أبقوها

(1) المصدر نفسه، ص 136.

(2) المصدر نفسه، ص 198.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 14، 131.

(4) المصدر نفسه، ص 08.

(5) المصدر نفسه، ص 09.

(6) المصدر نفسه، ص 192.

على حالها...وأثر هذه الكرة تركوه وأجمعوا على بقاءه تذكرة لهم، وسموا الباب باب الكرة وما زالوا يتحدثون بها...ومنذ ذلك الزمن وهم مجدودون في العسة والحراسة إلى الآن، ومما يُتَعَجَّب منه أن العسة داخل أبواب المدينة لا ينامون ولا تفارقهم عدتهم على ما هم فيه من التحصن، خوفا من الإسلام...».

كما تؤكد الصورة عدم استيعاب الغزال لأهمية نظام الحراسة على هذه الحصون والأبراج لذا تحدث مستغربا ومستفهما، «وأي فائدة للعاس داخل الأبواب الموالية للمدينة والأبواب مغلقة أمامه وخلفه ومبيته على قدمه ويده على زناد مكحلته متهيئ لإخراجها»، ليجيب هو نفسه عن تساؤلاته: «فهذا والله دليل على ما هم فيه من الجزع والفزع، فقد قذف الله في قلوبهم الرعب وألبسهم ثوبا الروح والخذلان»⁽¹⁾.

ولا يختلف المكناسي فيما ذهب إليه الغزال قبله فذ: «...كل ما ذكر من التحصن لم تطمئن به نفوسهم من شدة ما ألقى الله تعالى من الرعب في قلوبهم، ظفر الله بهم المسلمين وجعلهم غنيمة لهم بمنه وكرمه...»⁽²⁾، «...ومع كثرة هذه الإقامة والعدة والتحصن تبیت حرسهم يصيحون بالليل من شدة الفرق والرعب الذي خامر عقولهم...»⁽³⁾، وتكررت هذه العبارات كثيرا كلما وقف الرحالة عند هذه الحصون: «وكل هذا حذرا من المسلمين وجزعا منهم»⁽⁴⁾، و: «...مروا بنا على حصونهم التي اتخذوها ملاجئا ومعاقلا لما يترقبونه من المسلمين، ومنجى لما ألقى الله تعالى في قلوبهم من الرعب والفرق الذي منعهم الكرى ومنحهم الأرق...»⁽⁵⁾.

ورغم محاولات الاستنقاص من القوة والتنظيم العسكري الأوروبي، وعدم الإقرار بذلك التنظيم العسكري المغاير لنظمهم الحربية، فإن وقوف هؤلاء الرحالة على التحصين والتسليح والتنظيم العسكري يدل على عدم تعودهم عليه، خاصة إذا اعتبرنا تأكيدهم في جل مقدمات رحلاتهم أنهم سوف ينقلون العجيب والغريب مما يرونه في أوروبا، إلا أنه يجتم بتقزيم الآخر، ومحاولة تصويره ضعيفا أمام الأنا، وذلك بالركون إلى الجانب الروحي والديني.

ولم تتوقف ردود فعل الرحالة المغاربة في تسجيلهم لردود فعلهم بخصوص التحصينات العسكرية الأوروبية هنا بل دخلوا في مفاضلة بينها وبين أسلوب الحرب عند المسلمين وفي المغرب على وجه الخصوص؛ فكانت نتيجة هذه المفاضلة هي تحجيم الأول و ترجيح الثاني فيقول الغزال: «وأما المحاربة على بسط الأرض بالخيول والرماة مكافحة من غير حصن، فلا طاقة لهم بذلك، فإن المائة ألف منهم تقاومها العشرة آلاف من المسلمين بنص الكتاب العزيز»،

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 50-51.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 12. وأيضاً ص 192.

(3) المصدر نفسه، ص 14، ص 10.

(4) المصدر نفسه، ص 11.

(5) المصدر نفسه، ص 192.

وبذلك فعساكر المغرب أقوى : «ولو لا أن حماهم البحر لاستوعبهم الهلاك في أقرب مدة، وهم عارفون بذلك»، ويبرر أن الإسبان إنما شيدوا الحصون خوفا من المغاربة: «ولذلك استعملوا جهدهم في تحصين المدن بالمدافع وغير ذلك، المدن المتصلة ببرنا يجعل الأبراج والبساتين وتعدد الأسوار وتنظيمها بالمدافع من آلات الحرب، ويوهمون أن مدتهم مثلها في التحصين، دفعا لما عسى أن يقع في نفس الإسلام من الاهتمام بالقطع إليها مثلما تقدم القطع الأول»⁽¹⁾.

فهذه الحصون حسب قراءة الغزال لا تُغني على الأوروبيين شيئا أمام قوة المغاربة والمسلمين، بل هي تعبير آخر عن ضعفهم (الأوروبيين) كيف لا وهم لا يستطيعون مجابهة المغاربة مباشرة إلا من وراء جدر أو باستعمال الحيل: «ومع هذه الجموع لا قدرة لهم على مباشرة القتال صفا صفا، إلا ما كان من رمي المدافع والبنب (قنابل) واستعمال الخدائع، وما في معنى ذلك»⁽²⁾، إن هذا القدح والنقد الذي قدمه الغزال يبدو أنه من موقف ضعف وسداحة، أو هو مكابرة على الواقع يعززه بلا شك شعور جارف بالتفوق.

ورغم ذلك فهو يؤكد عن غير قصد منه أهمية التحصين الأوروبي وتأثيره في نتائج الصراعات الإسلامية الأوروبية، وهو دليل على تخطيط الغزال في حديثه عن قوة التحصينات العسكرية الإسبانية خاصة في المدن المغربية المحتلة من الإسبان والتي كثيرا ما استعصت على المغاربة رغم طول الحصار لها، ويبدو لنا أن الخطاب الموجود في ثنايا رحلتي الغزال والمكناسي، أنه موجه إلى العامة من القراء وليس إلى الدوائر الحاكمة في المغرب التي هي على دراية كاملة ومفصلة بقوة الحصون الأوروبية.

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 112.

(2) المصدر نفسه، ص 112.

ثانيا: التسليح والصناعة العسكرية

شهدت أوروبا حركة صناعية كبرى منذ منتصف القرن الثامن عشر، هذه الحركة التي كان لها انعكاسها بلا شك على كافة المجالات هناك، وكان المجال العسكري من أهمها، واستطاع الرحالة المغاربة الذين زاروا أوروبا خلال الفترة المذكورة الوقوف على حجم التطور التقني في المجال العسكري، ولا بد أن اهتمامهم بهذا الجانب كان لسبب ذاتي وآخر قصري:

أما الذاتي فيرجع أساسا إلى حاجة المغرب للاطلاع على السلاح بغرض اقتنائه من أوروبا، في تأكيد لتوجه السلطان محمد بن عبد الله للانفتاح التجاري مع أوروبا بغرض تسليح جيشه بالأسلحة الأوروبية الحديثة رغبة منه في خدمة مشروعه في تحرير الثغور المغربية المحتلة وتحديث جيشه⁽¹⁾، ما يكشف لنا أن المغاربة كانوا على دراية بحجم التحاوز التقني والصناعي العسكري الأوروبي مقارنة مع المغرب، لذا لا يجد الغزال حرجا في التعبير أن من بين مهام رحلته لإسبانيا جلب العدة العسكرية من هناك وذلك في حديثه عن أهداف سفارته ونتائجها: «وانعقدت المعاهدة بين عدة من الأجناس على أحكم قواعد وأوثق أساس... مما يعود نفعه على الإسلام وينتج المصلحة التامة في العاجل والآجل، والخاص والعام، أعظمها فكاك الأسارى من المسلمين وإنقاذهم من العذاب، وجلب ما يستعان به على الجهاد، من بارود ومدافع وآلة السفن من بلادهم...»⁽²⁾.

أما السبب القصري فيعود بالأساس إلى محاولات الأوروبيين أثناء تواجد السفراء المغاربة في بلدانهم إلى توجيههم لرؤية منجزاتهم التقنية الحديثة في مجال الصناعة والتسليح العسكري، سواء كان ذلك بدافع إبداء الكرم والضيافة بتوجيههم لزيارة معامل السلاح وعروض الرماية، أو بغرض إبحار الضيف المغربي وإرهابه برؤية قوتهم العسكرية، وفي ذلك يذكر الغزال لما وصل إلى مدينة إشبيلية: «ومن الغد حتم علينا ولد الحاكم أن نذهب إلى الدار التي تصنع فيها المدافع والقراريط⁽³⁾ ومقصوده بذلك اطلعنا على الأمور التي نسأل عنها من قبل طاغيتهم عما شاهدناه بمدينة إشبيلية...»⁽⁴⁾.

ولأن هذه الرحلات كانت وجهتها الأساسية إلى إسبانيا أو إحدى ممالكها في إيطاليا (نابولي-صقلية) فقد تزامنت رحلاتهم مع التغيرات الكبرى في إسبانيا خلال منتصف القرن الثامن عشر والتي كانت سائرة في طريق الإصلاحات في شتى المجالات وخاصة العسكرية منها، ففي سعيها إلى منافسة القوى الأوروبية الصناعية خاصة

(1) حسن الفكيكي، جهاد الدولة العلوية في حماية الثغور، مرجع سابق.

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 35-36.

(3) القراريط: من الكلمة الإسبانية Carreta ومعناها عجلة لنقل المدافع وما شابه.

(4) المصدر نفسه، ص 86، 188.

بريطانيا، توجهت إسبانيا لأول مرة منذ أكثر من 150 سنة لتغير استراتيجيتها العسكرية من وضع المشتري إلى المصنع للأسلحة⁽¹⁾.

ولأن لم يسجل رحالتنا الأبعاد الاستراتيجية والعسكرية لما كانت تعيشه إسبانيا من تغيرات، إلا أنهم قدموا صورا حية في مشاهداتهم للصناعة العسكرية هناك، لذا توجه الغزال للاهتمام بصور التصنيع العسكري الإسباني في مجال السلاح من مدافع وعربات حاملة لها وبارود وغيرها من عدة الحرب.

ففي إسبانيا زار الغزال مصنعين عسكريين للسلاح، الأول بإشبيلية مخصص لصناعة المدافع، كان العمل فيه شبه آلي في جميع مراحل الإنتاج، ويصفه وصفا دقيقا: «...الدار التي تصنع فيها المدافع وهي دار كبيرة اشتملت على بلاطات(ورشات) عديدة كل بلاط منها مستقل بعمل يتعلق بأمر المدافع، فالبلاط الأول به عدة مدافع كملت ولم يبق لها إلا الحمل على القاريط، والثاني به عدة من المدافع أخرجت من البريم ونقلت للخرط والمحرك للمدافع حال الخراط ناعورة تدور بحركات لا تعب على محركها والمعلم الذي يخرطه بيده آلة يمر بها على المدافع من رأسه إلى ذنبه حتى يخلص، والثالث فيه أيضا عدة مدافع من البريم، وكيفية تزييمها منها ما هو يبرم مثل المكحلة مبسوطا، وهو المدفع المتوسط، ومنها ما يبرم قائما وهو المدفع الكبير، يربط بين السواري بقعمنات في الهاء، وفمه مقابل الأرض والبريم ممكنة في جوفه تدور بثلاث نواعر...واستقلت حركة هذه النواعير الثلاثة بحركة بهيمية واحدة، حركات في النزول شيئا فشيئا حتى يستوعب البريم منه القدر المحتاج إليه، ثم البلاط الرابع، وهو الموالي للمحل الذي تفرغ فيه المدافع، وبه عدد كبير من القوالب، وقد وقفنا على الموضع الذي يذوب فيه النحاس...وصورته كالصهرج وقد علتة قبة لها باب واحد يدخل منه النحاس، ثم يلقي على الخطب ثم يسد بالبنيان وله منافس يخرج منها الدخان وتنفض الرياح لدخل» وبقرب هذا المصنع ورشة أخرى لصناعة المركبات الخاصة بالمدافع يعمل بها عمال خاصين سماهم بالمعلمين ينتهي عملهم في هذه الورشة فقط⁽²⁾.

«ولهم قرب باب المدينة إرشاق عليه عدة مدافع ومهاريس، ثم جعلوا أمامها علامات، وجعلوا يرمونها بالكور ثم بالبنب، وقد تجاوزوا الحد في إصابة الرمي، ومراد طاغيتهم فرجتنا بذلك والتنويه بقدرنا...»⁽³⁾، فيما يبدو أن هدف الأوروبيين لتوجيه الوفود السفارية المغربية لرؤية ذلك بهدف إبهارهم وإغاثتهم.

(1) Agustín González Enciso, «Asentistas y fabricantes: el abastecimiento de armas y municiones al Estado en los siglos XVII y XVIII», Studia Historica., NO 35, February 2013, p295-297.

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 87-88.

(3) المصدر نفسه، ص 146.

هذا وتوسع الغزّال نوعا ما في وصف العتاد الحربي للسفن الإسبانية وكل ما تعلق بها من تجهيزات، إلا أننا لا نراه يقارن بتاتا بمثل ما هو موجود في المغرب، بل نراه مرات غير مستوعب لما يشاهده من العدد والعدة والتطورات على المستوى العسكري البحري تقنيا، فيقول مثلا عن تقنيات إنقاذ السفن من الغرق أنها تتم بـ"حركات معينة" الظاهر أن الغزّال لم يستوعبها⁽¹⁾، فما لاحظناه أن الغزّال فضّل الصمت هنا على إبداء المواجهة ولا المقارنة مع الآخر، فلم يعقب هنا بقوة الإسلام ولا قوة السلطان ولا هيئته، بينما تظهر هذه الهيبة في أمور أقل شأنًا من الواقع العسكري.

ويعود الغزّال مرة أخرى للحديث عن صناعة السلاح في إسبانيا، فنراه يتحدث بإعجاب ودهشة في نفس الوقت عن البنادق المتطورة وجودتها فعند ذكره لاستعمال البارود وتصنيعه في مدينة "دوسان خوان" يقول: «... غير أن هذه اختصت بحكمة في صنع البارود المنتخب المشكر عندهم بالبلاد الاصبنيولية، حتى أن صانعه رمى كرة بمهراس وزنها أربعة وستون رطلا بثلاث أواقي من هذا البارود المذكور من غير دك ولا سجن عليها داخل المهراس⁽²⁾، حسبما شاهدناه فتصعد الكرة في الجو صعودا فادحا وتسقط على بعد من المهراس بمائة وستين خطوة لجودة البارود المصنوع عندهم بتلك القرية، وبها تصنع سيوف كسيوفنا»⁽³⁾، فنرى الغزّال لا يعلق ولا يعقب بتاتا عن صناعة البارود، إلا أن نبرة الاختلاف في تصنيعه وعدم تعود الرحالة على رؤية مثل ما رآه تبدو واضحة في الجملة السابقة، كما أن الغزّال يحاول كلما وصل إلى الواقع العسكري الإسباني أو الأوروبي التهرب أو عدم وضع مقارنات عنه، بل نجده يركن إلى مقارنات بما هو موجود في المغرب كأن يقول: "وبها تصنع سيوف كسيوفنا" بينما تغيب المقارنة في صناعة البارود!

ولأن أصحاب الرحلات تعودوا على أسلوب المقارنة لأي شيء يصادفونه في أوروبا من خلال استحضارهم للنموذج الإسلامي والمغربي في مواجهة النموذج الأوروبي، مقارنة غالبا ما تنتهي بمفاضلة الأول على الثاني، لذا نرى الغزّال يحاول تحجيم دور الصناعات العسكرية الأوروبية في الحروب، فبعد مشاهدته تدريبا وعرضا عسكريا استعملت فيه القنابل والذخيرة، واندعاش صاحب الرحلة من دقة هذه الأسلحة وقوتها، الأمر الذي جعله يتوجه للمفاضلة بين اعتماد الأوروبيين على المدافع والبارود، واعتماد المغاربة على القوة البدنية والمهارات الفردية، مؤكدا أن هذه الأخيرة هي الحاسمة: «... ثم اطلعنا على ما هم عليه من الاعتناء بما يتعلق بالحرب وإظهار القوة، فقلت: إن حرب الإسلام لا يلتفتون للمدافع ولا للنبب حال القتال، وإنما الشأن عندهم السيف والرمح والنبل، واستعمال البارود إنما هو عند

(1) المصدر نفسه، ص 189-190.

(2) في استحضار غير مباشر من الغزّال لما كانت عليه البنادق المغربية التقليدية، التي كانت تشحن من الفم وتدخل فيها حبة صغيرة من البارود مستديرة، وهذه البنادق لا تتعدى رمايتها 200 متر وتتوقف عن العمل إن ابتلت بالماء وتنفجر في بعض الأحيان. ثريا برادة، مرجع سابق، ص 177.

(3) أحمد بن المهدي الغزّال، مصدر سابق، ص 170-171.

الصدمة الأولى فقط، فإذا اختلط القوم بالقوم، فما عندنا إلا السيف، وما أضيف إليه من رمح ونبل، ومجال الخيل بين الصفوف هزيمة للجيش وما كان من المدفع والمهراس، إنما هما آلتان من آلات أهل البحر والمدن التي حصرها العدو، وتدفع بذلك عن نفسها لعجزها عن مقاومة من حصرها...»

ثم يضيف السفير المغربي محاولاً تغليب رأيه وصحة قوله، وأن ما ذهب إليه هو الحق بلا ريب في محاولته إقناع نظرائه من الإسبان بحقيقة تلك المفاضلة التي خرج بها في مقارنته بين عدة الجيشين المغرب والإسباني ففي حوار مع أحد الوزراء الإسبان: «فقال الوزير ما قلت إلا حقاً، والصواب والحق في إظهار القوة والثبات عند مكافحة القتال صفاً»، وهذا اختص به الإسلام وقد وهنت ما أبدوا من القوة بالأنفاط والبنب وأقنعتهم بذلك ولم يجد بداً من قبول ما حدثته به»⁽¹⁾، ويبدو أن الوزير الإسباني كان يساير الغزال في طرحه هذا، برد دبلوماسي لم يرد فيه الإسبان التشويش على ضعفهم المغربي في سبيل إنجاح مفاوضات الصلح.

وواصل الغزال محاولاته من أجل تأكيد موقفه من أن المهارات الفردية للفرسان المغاربة أهم من الأسلحة الأوروبية المتطورة، فيذكر أن وفد السفارة الإسبانية التي رافقته للمغرب قد تعجب من الواقع العسكري المغربي: «استعمل الباشدور في كل ما شاهده بهرنا وصار يقيد ما يتعجب منه مما هم عاجزون عن بعض بعضه من حركات الخيل وجولاتها في ميدان العساكر وتلاعب فرسانها على قدر إرادتهم بحيث يتصرف الفارس في مركبه كما شاء من فرّ وكثر ولا قدرة للفارس من الكفرة على قهر فرسه ورد الجموع من الخيل بما هو معلوم من الفرسان، وإنما هو ركوبهم فيما شاهدنا تارة بلفظ السرج أماما وتارة خلفاً، وهو فيما بين ذلك مشفق يترقب الوقوف»⁽²⁾، ولتأكيد دهشة الوفد الإسباني مما رآه من عرض فرسان القبائل ولعبهم بالبارود: «ولم يزل الباشدور يتحدث هو وقومه عما شاهدوه، ول واحد يزيد عن الآخر في الحديث، وقالوا: "لو سمعنا أن المسلمين على هذه الحالة ما صدقناه، ولا شيء أقوى من المشاهدة والعيان»⁽³⁾.

ونستطيع أن نفسر أن الرؤية التي ينظر بها الغزال لموضوع المقارنة بين أهمية الآلة الحربية العسكرية الأوروبية الحديثة في حسم المعارك، وقدرات الفرد المغربي الذاتية على ذلك، ينطلق من موقف نعتقد أنه أساسي في هذه النظرة، وهي أن الجيوش المغربية والمغربية عموماً لم تكن قد تلقت بعد هزائم مدوية وفاصلة قد تجعلها تعيد النظر في موقفها هذا، فالمغاربة انطلقوا من موقف قوة وثقة بالنفس حول إمكانية هزيمة الآخر الأوروبي مهما بلغت عدته الحربية من تطور تقني، كيف لا والغزال يأتي بنشوة انتصارات المغاربة على الفرنسيين في هجوماتهم على السواحل المغربية في

(1) المصدر نفسه، ص 146.

(2) المصدر نفسه، ص 226.

(3) المصدر نفسه، ص 226-227.

العرائش وسلا وغيرها، رغم ما كانت تملك السفن الحربية الفرنسية من مدافع متطورة وقوية، كما أنهم محملين بإرث وسمعة تاريخية مبنية على انتصارات ماضية شهيرة ظلت عالقة بالأذهان على بعدها كواقعة وادي المخازن وأخرى قريبة وصغيرة لم تمتحن فيها القوة الحقيقية للجيش المغربي مثل هزيمة الفرنسيين في هجومهم على سلا والعرائش، ومحاصرة السلطان محمد بن عبد الله لبعض الثغور المحتلة مثل مليلية واسترداد بعضها مثل الجديدة.

وهذا الطرح في المفاضلة جعل الغزّال يستدعي الماضي لتأكيد موقفه من تأثير الإمكانات العسكرية المادية في الحروب، لذا استحضّر هزيمة المسلمين بالأندلس وطردهم منها على يد الإسبان وفسر ذلك بأنه لا يعود لإمكانات الإسبان العسكرية بقوله: «فإن عورض هذا محاربتهم للأندلس واستيلائهم على الجزيرة، فيجاب عن ذلك بالحقيقة والشرعية، أما الحقيقة: وكان أمر الله قدرا مقدورا، تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد، وبالشرعية: "قل لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"، فإن تعدد الأمراء وانتصار بعضهم على بعض واتباع الأهواء، يفضي إلى الخراب والمحق والعياذ بالله» ويضيف: «وأما العدو الكافر: فقد وعد الله تعالى عباده بالنصر عليه والظهور فلا يلتفت للكثرة ولا للقلة، وهذا أمر مسلم»⁽¹⁾.

فانظر إلى هذه المقارنات التي تخفي الحقيقة أكثر مما تبديها، فبينما يتوجه الإسبان إلى إبراز قوتهم العسكرية برا وبحرا من تصنيع وتنظيم واختراعات، يلجأ الغزّال وغيره من الرحالة المغاربة الذين زاروا أوروبا للتأكيد على تفوق الفرد المغربي في المهارات والحركات الحربية من مهارة ركوب الخيل، واستعمال السيف، ثم إن الغزّال الذي دائما نعود ونؤكد تناقضه الفاضح يؤكد في بداية رحلته أن من أسباب سفارته هو شراء الأسلحة من إسبانيا، فكيف يتوجه لشرائها ثم ينتقدها وينتقد استعمالها وضعفها؟

فلاحظ أن نبرة التردد أو عدم الاستيعاب أو المكابرة، لما هو حاصل في أوروبا من متغيرات، أو محاولة للهروب حتى لا يخرج الحكومة المغربية، بل نلاحظ خطابا متخبطا غير مستقر ولا ثابت عند الغزّال في نظراته للواقع العسكري، وعدم استقراره على رأي وموقف ثابت في رؤيته هذه.

ويبدو ابن عثمان أكثر وعيا بالحركة الصناعية في أوروبا وتأثيرها على الجانب العسكري في نهاية القرن الثامن عشر، فذكر مستغربا ومندهشا تطور حماية البارود من المخازن من الصواعق⁽²⁾ وقال في ذلك: «...وقيل إن هذه الحكمة استنبطها لنجليز ووجدوا هذه السلاسل في بعض مراكب لنجليز التي أخذها الاصبنيول في الحرب التي كانت

(1) المصدر نفسه، ص 112.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 94-95.

بينهم»⁽¹⁾، ثم إن هذه الصورة تؤكد حجم الفوارق بين ما وصلت إليه الصناعة العسكرية الإسبانية الفتية ونظيرتها البريطانية.

كانت هذه الصناعة من بين المواقف التي وقف عندها الرحالة المغاربة عاجزين تماما عن استيعابها شكلا ومضمونا، فيقول ابن عثمان عند وصفه دار الأسلحة في نابولي: «...ثم دخلنا الدار التي تصنع العدة للطاغية، المكاحل والسيوف، فرأينا من خدمتهم العجب المبين بحركات الماء في إسراع كثير...» ليسترسل بعد ذلك واصفا طريقة عمل المصانع والصناعات فيها ليختم بالقول: «...وكل من له شغل أو عمل في شأن العدة فهو هناك، فطائفة يصنعون الجراب، وطائفة يخلصون داخلها، ويصقلون ظاهرها، وطائفة يصنعون الزنادات، وطائفة يصنعون الأسدة، وآخرون يصنعون المداد، وآخرون يصنعون العوالي تشبه أسنة الرماح، الحاصل هم في تلك الدار في شغل شاغل ومهرجان كأنهم عفاريت الجان»⁽²⁾، لأن «...الحاصل أن الاعتناء والاهتمام بهذه الأمور عليهم مقصور» وذلك في وصف ابن عثمان لصناعة البارود بنابولي هذا المصنع الذي قال فيه: «ورأينا هناك الدار التي يصنع بها البارود وهي من العجائب أيضا»⁽³⁾.

إن الرحالة المغاربة في نقلهم لصورة الواقع العسكري في أوروبا القرن 18 على الخصوص، نجدهم عندما يقفون عند الصناعات والتطورات العسكرية البحرية منها والبرية خاصة من ناحية العتاد نجدهم منبهرين جدا من ذلك وغير مستوعبين مما يرون حتى أن ابن عثمان يشبه العاملين فيها بعفاريت الجان؟؟ وهم بذلك لا يستطيعون مقارنة ما يرون بما هو الحال عندهم في المغرب، إلا محاولات منهم لاستحضار الأنا المغربية في بعض التشبيهات، مثل تشبيه ابن عثمان للغرايل المستعملة في صناعة البارود بنابولي بما يشبهها في المغرب⁽⁴⁾.

بعد رؤية التطورات الصناعية الأوروبية خاصة في الجانب العسكري وهو الجانب الذي كثيرا ما امتدح فيه الرحالة المغاربة بلاده فيه وانتقصوا من صورة الآخر الأوروبي، إلا أننا نجد مثل هذه الصورة قد تقلصت ولا بد أن رحالة مثل المكناسي أدرك الفرق خاصة في رحلته الثانية، لذا لم يجد بدا من نقل الصورة كما هي وبتعبيرات دالة على العجز والصدمة، كما أنه لم يسعى لمقارنتها مع ما هو موجود في المغرب بل لم يذكر اسم المغرب هنا بتاتا، وغابت صورة الآخر المرعوب والخائف من الأنا عسكريا؟

(1) المصدر نفسه، ص 95.

(2) المصدر نفسه، ص 157.

(3) المصدر نفسه، ص 159.

(4) المصدر نفسه، ص 159.

ثالثا: التنظيمات العسكرية الأوروبية

يعود اكتشاف المغاربة للتنظيمات العسكرية الأوروبية الحديثة إلى الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وليس إلى منتصف القرن التاسع عشر كما هو شائع في الأدبيات التاريخية، في كون أن النخبة المغربية لم تطلع على هذه التنظيمات إلا بعد تواجد العساكر الأوروبية كقوى محتلة في داخل البلاد المغربية، لكن المغربي لم يدرك أهمية هذه التنظيمات في حينها، بل انتظر حتى هزم عسكريا وفي عقر داره، لينظر بعدها لهذه التنظيمات العسكرية على أنها مكامن قوة الآخر وليست مجرد اختلاف في ميدان الحرب، وعليه فقد حملت نصوص الرحالة المغاربة خلال القرن الثامن عشر صور من هذه التنظيمات، حيث تم التركيز في هذه الصورة عند محورين أساسيين هما النظام والانضباط العسكري، وكذا التعليم في المدارس والأكاديميات العسكرية، الذي يبدو غريبا وجديدا عندهم.

1- الترتيب والانضباط العسكري

فمنذ لحظاته الأولى في إسبانيا لمس الغزال أن الجيش هناك يسير بنظام وترتيب غير الذي عرفه في المغرب لذا يبدو متفاجئا من تدريبات الجنود الصباحية، يقول: «...ومبلغ العسكر الذي يسرد كل يوم خمسمائة، تضل في عستها وتمسي، ومن الغد تسرد خمسمائة أخرى ثم تذهب للعشية الخمسمائة الأولى...وتقدمهم للتسرد على حالة هي من العجب بحيث يأتي الشلظاظ (الجنود) في أثر صيحات الطنبور على ثلاثة صفوف كل صف فيه ستة رجال ثم ثلاثة صفوف أخرى مثل الأولى، ثم مثل الثاني، وهكذا إلى تمام الخمسمائة، وقدر ما بين الصفين من الوسع والصفوف التابعة لها قدر ما أخذوا نصيبهم من الأرض فلو فتح ضابط وقيس به ما أخذت أشباح الصفوف وما تركت من الوسع الفاصل بين الصفوف من الوسع وبين التابعة لها، لوجدتها واحدا لا يزيد القدر المعمور على الفراغ قدر اصبع وذلك مما يتعجب منه، والموكل بتسردهم أمامهم على فرس إذ أمر بتحريك عدتهم أو ما يتعلق بأمور التسرد من تقديم أو تأخير، أجابوه إجابة رجل واحد»⁽¹⁾، والعجب هنا الذي يعبر عنه الغزال ليس دالا على الإعجاب، بقدر ما هو دال على الدهشة والصدمة لما رآه ودال على عدم تعود رؤية مثله في بلاده المغرب.

ومثل سابقه لفت انتباه المكناسي لحظة وصوله للأراضي الإسبانية الانضباط والتنظيم للجيش الإسباني حيث: «...كانت الدار التي كنا بها مشرفة على موضع متسع يسمونه البلاصة؛ يأتي إليها عسكريهم صباحا ومساء كل قائد معه أصحابه يؤدبهم ويعلمهم كيفية الحرب، ومع كل قائد طبل فكل ما يريد القائد من أصحابه من تقديم أو تأخير أو إسراع في المشي أو غير ذلك يشير به صاحب الطبل وينقر لهم نقرا مخصوصا، ويفهمون من ذلك ما يراد منهم»،

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 50.

ويظهر تعجب ودهشة المكناسي أكثر حين يقول: «وقد كنا عندهم في فصل الشتاء وما رأيناهم أبطلوا عملهم ذلك»، كل ذلك من كثرة الرعب الذي ألقى الله تعالى في قلوبهم⁽¹⁾، فالمكناسي يقف عند طريقة غير معهودة في التدريب أساسها الانضباط والنظام ووصفه: «ترتيب غريب وزى عجيب»⁽²⁾.

وامتد هذا النظام والترتيب من الجنود إلى تنظيم العدة العسكرية والأسلحة، فيصف ابن عثمان مرسى قرطاجنة والترتيبات المضبوطة داخله: «...ومن شدة اعتنائهم بأمور البحر دمرهم الله أن جعلوا لكل مركب من مراكب الحرب خزينا موضوع فيه إقامته على حدثها مكتوب على بابه هذا خزين المركب الفلاني الذي رئيسه فلان كما أخبرني بذلك رئيس المرسى...»⁽³⁾.

ومن صور التنظيم العسكري وجود سلم يحدد الرتب العسكرية ورواتب العساكر: «... حتى أن عسكرهم تجده مميزا فيه الكبير من الصغير، ولكل درجة ومرتبة مخصوصة يستعملها أصحابها في ثيابهم المرتدين بها بحيث ترى الرجل من العسكر تعرف مرتبته إن كبيرا أو صغيرا ولكل مرتبة راتب معلوم فمهما علت المرتبة يعلوا معها الراتب...»⁽⁴⁾، فحالة الضبط والترتيب التي رآها المكناسي في الجيش الإسباني لم تكن نتيجة الصدفة، بل إن أساسها قوانين عقلية ضابطة في صورة مشابحة لما نقله الصفار خلال القرن التاسع عشر.

إن ما يكرس هذا الترتيب والنظام داخل الجيوش الأوروبية حسب ابن عثمان هو وجود قوانين ضابطة لأن: «...سائر أمورهم جارية على القوانين في غاية الضبط...»⁽⁵⁾.

وفي لحظة تعبير عن الغيرية والاختلاف اكتشف ابن عثمان أن أساليب الحرب وتنظيم وتعبئة الجيوش الأوروبية يختلف عن نظيرتها في العالم الإسلامي، فأثناء وجوده بمدينة قرطاجنة: «...فإذا بها عسكرهم على صفوف وتعبئة مخالفة لعمل المسلمين، ولهم أطبال فإذا نقر فيها يعلمون ما يراد بذلك من تقديم أو تأخير أو إخراج المدافع أو تعميرها، كل ذلك بالنقر في الطبل...»⁽⁶⁾، وفي ذلك إشارة للجيوش النظامية عكس ما هو حال جيوش المسلمين ومنهم المغاربة طبعاً⁽⁷⁾.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 10.

(2) المصدر نفسه، ص 191.

(3) المصدر نفسه، ص 162.

(4) المصدر نفسه، ص 120.

(5) المصدر نفسه، ص 120.

(6) المصدر نفسه، ص 166.

(7) إن هذا التأكيد على الاختلاف في أساليب الحرب الذي أشار إليه ابن عثمان يبدو قريبا مما دونه ابن خلدون في ذات الشأن، إذ يقول هذا الأخير: «وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين: نوع بالزحف صفوفاً، ونوع بالكر والفر، أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على

وفي نابولي لاحظ المكناسي أن من أهم مقومات تنظيم الجيوش الحديثة في أوروبا هو ذلك الانضباط العسكري الذي يميز أفرادها، والامثال للأوامر العسكرية مهما كانت، مع التأكيد على العلاقة التراتبية التي تربط بين الجنود وقادتهم، يقول: «...فقل الطاغية أقبل...ومن ورائه عسكر من الرماة يتبعه على شكل واحد من اللباس حتى استكمل تعبته ووقوفه، ورتب صفوفه، ثم صاح بهم الطاغية فتغيروا إلى تعبئة أخرى⁽¹⁾، ثم صاح بهم مرة ثالثة وجعل يأمرهم وينهاهم في أمور الحرب وهم يظهرون ما عندهم في ذلك، ثم وضعوا العدة من أيديهم على الأرض، ونزل الطاغية من الفرس وأتى إلينا فأعاد السلام وقال: هؤلاء أبناء الأكابر وأنا قائدكم لا يأمرهم ولا ينهاهم غيري، فشكرتهم وشكرت لتربيته وتدريبه إياهم على الحرب، فأنشرح لذلك، ثم أخذ يستفهمني عن عسكر بلادنا وعن أحواله، فأخبرته بما أنكاه حتى ندم على سؤاله...»⁽²⁾، ومن خلال سؤال أمير نابولي هذا يتضح أيضا تعمد الأوروبيين إظهار قوتهم وتنظيمهم أمام الوفود السفارية المغربية، ربما أحس المغاربة بذلك فعليا وجواب المكناسي دليل آخر على ذلك، حيث نلمس انتباه المكناسي لما أراده الأمير إلا أنه لم يصرح به وعامله تقريبا بالمثل من خلال التأكيد على قوة الجيش المغربي.

كما يحمل رد المكناسي شعورا تملؤه الحصرة بقوة الآخر، إلا أنه يأبى ويرفض الاعتراف بضعف جيش المغرب، ربما كان ذلك عن مكابرة وهربا إلى الأمام من قبل السفير المغربي، إلا أننا قد نعذر المكناسي في رده على سؤال حاكم نابولي حول وضعية الجيش المغربي مقارنة بنظيره الأوروبي، فالمكناسي وكل أصحاب الرحلات الذين توجهوا إلى أوروبا أتوا محملين بثقة عالية في قوتهم هذه الثقة التي عززتها بلا شك عديد الانتصارات على القوى الأوروبية سواء كانت انتصارات قريبة أو بعيدة، كبيرة أو صغيرة، ثقة استمدتها المغاربة من أسطول مغربي مازالت له هيئته في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، والأهم من ذلك أن المغاربة لم يتعرضوا بعد إلى هزائم مدوية كانت لتغير نظرتهم للآخر.

تعاقب أجيالهم، وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب، وقاتل الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر، وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف، وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة، ويمشون بصفوفهم إلى العدو قُدُما، فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو...». أنظر: عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط1، دار العقيدة، الإسكندرية، 2008، ص286.

(1) وأمام تسجيل هذا المشهد المعبر عن الانضباط والقيادة والامثال والتدريب لذي شاهده ابن عثمان لا بد أن نقف عند صورة الجيش المغربي حينها، ففي الوقت الذي كانت فيه الجيوش الأوروبية على تنظيم واحد وزى واحد كان الجيش المغربي إلى حدود منتصف القرن التاسع عشر يتكون من عناصر مختلفة لا تجمع بينها تدريبات مشتركة ولا تكامل في الاختصاصات المنوطة بكل فرقة، ولا تشابه في الزي أو في الأسلحة أو الأولوية، ولا قيادة موحدة، إذ كل قبيلة كان يرأسها قائدها أو يعينه القائد أو القبيلة، أنظر: ثريا برادة، مرجع سابق، ص153.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص166-167.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ما شاهده الرحالة المغاربة من أسلوب الحرب الأوروبي بالنسبة إليهم لا يغدو إلا أن يمثل محورا آخر من محاور الاختلاف والتباين في الأساليب التي تتميز بها حضارة عن أخرى، فرغم إعجابهم بما رأوه من تنظيم وترتيب عسكري إلا أننا لم نلمس عندهم توجيه رسالة لا بالتلميح ولا بالتصريح للسلطات في المغرب لتبني النظام العسكري الأوروبي، فالرحالة المغاربة والمسلمين ما زالوا يعتقدون أن هذه خاصية أوروبية ولكل بلاد نظامها وتعبيرا عن الغيرية وفقط، خاصة وأن هؤلاء الرحالة لم يشعروا أن هذه القوة العسكرية الأوروبية وتنظيمها وتطور قدراتها الفردية والحربية يمكن أن تشكل تهديدا لبلادهم يوما ما.

2- التعليم العسكري في أوروبا

يبدو أن النظام والترتيب العسكري في أوروبا الذي اكتشفه الرحالة المغاربة خلال القرن الثامن عشر لم يأت من فراغ، بل هو مستند إلى قاعدة صلبة قوامها التعليم العسكري، هذا التعليم الذي وقف عنده كل من الغزال والمكناسي أثناء زيارتهما للمدارس والأكاديميات العسكرية الإسبانية الخاصة بتكوين وتدريب الضباط في إشبيلية وشقوبية، ووصفوها بدقة نصاهية، يقول الغزال واصفا المدرسة العسكرية بإشبيلية: «ثم عبرنا دارا قريبة من هذه، فإذا هي قدر قرية في غاية الطول والعرض، وبها عدة مقاعد كل مقعد به عدة من الصبيان، على قدر الطبقات في التعليم، ممن يتعلم الحروف إلى من فوقه، ثم الذي فوقه ثم الذي فوقه وهكذا، وعدد هؤلاء الصبيان الحاضرين في الوقت مائة وخمسين، وهذا العدد عندهم لا ينقص، وكل من استكمل علمه وذهب لما هو مهيب إلى من السفر في البحر، يخلفه غيره، والصبيان لا يخرجون من الدار المذكورة قط»⁽¹⁾.

أما التكوين في هذه المدارس فلاحظ الغزال أنه لا يمكن له أن يكتمل إلا بمرافقة ومزامنة التعليم النظري بالتعليم التطبيقي مباشرة، فيقول: «وبأحد المقاعد سفينة صغيرة قدر الفلوكة مشملة على جميع ما تحتاج إليه السفن إجمالا وتفصيلا، بحيث يقرأ الصبي الكتب المشتملة على علوم البحر، وما يتعلق بألة المركب وكل مسألة ترسخ في ذهنه عن طريق القراءة، تؤيدها مباشرة للمركب الحاضر معه، فيحصل على اليقين علما ومباشرة... ولا يخرج أحد منهم من المحل المذكور حتى يستكمل معرفته للأمر الذي هو معين إليه، ويسافر حينه رئيسا كان أو من تحته»⁽²⁾.

وهذا ما وقف عنده المكناسي في قوله: «وبالدار المذكورة مكان آخر فيه سفينة بقلوعها وأحبالها وجميع إقامتها من مدافع وغير ذلك، فمن نجب من الصبيان في الكتابة والحساب ينتقل من تلك المرتبة إلى المرتبة التي فيها

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 88، 144.

(2) المصدر نفسه، ص 88.

السفينة ويتعلم فيها أمور البحر مباشرة، وعندهم بالبيت المذكور كثير من الآلات التي يتوقفون عليها في البحر مثل القوس والبوصلة وكورة العالم وما أشبه ذلك»، هذا إضافة إلى التدريب على استعمال السلاح⁽¹⁾.

ولتكتمل الصورة أكثر أشار صاحب رحلة "نتيجة الاجتهاد" إلى المعلمين في هذه المدارس: «ومعلمو الصبيان ثلاثة شيوخ ضاعنون في السن، ثم عدة ممن دونهم في العلم والسن، يباشرون تعليم الصبيان الصغار المبتدئين»⁽²⁾، فيما أشار المكناسي إلى نوعية المعارف النظرية التي تلقن لمنتسبي هذه الأكاديميات: فأول ما يتعلمه هؤلاء الصبيان الكتابة والحساب، قبل أن ينتقلوا إلى التعليمي التقني التطبيقي.

وكان إعجاب ابن عثمان جليا في حديثه عن الكفاءة والمهارة والانضباط التي يتمتع بها طلاب المدارس العسكرية في إسبانيا، والتي كانت بلا شك نتاج المهارات التي تعلموها هناك، وذلك في عرض أقيم على شرف السفير المغربي أثناء زيارته لأكاديمية إشبيلية يقول: «...ولما كنت بالموضع الذي فيه السفينة المذكورة أمر القيم الموكل بالصبيان المتعلمين أن يخدم كل واحد منهم خدمته المعين لها في السفينة، ففي لحظة تعلق الصبيان بالسفينة وشدوا حبالها وأخرجوا قلعوها وعمرها مدافعها في أقرب مدة، وبالدار المذكورة موضع متسع وبيت فيه مدفع صغير وجميع ما يتوقف عليه من الإقامة من البارود والكور، ويجعلون علامة صغيرة في الجدار المقابل للمدفع، ويتعلم الصبيان هنالك الرماية بالمدفع وقد أخبرنا القيم أنهم يتعلمون الرماية بالمدفع في السفن، وقد اختبر صبيا أمامنا عمره اثني عشرة سنة فضرب بالمدفع المذكور فصادف العلامة»⁽³⁾.

فيما جذبت الحياة داخل المدرسة انتباه السفيرين المغربيين، فأعطى المكناسي تفصيلا عن طريقة إقامة الطلاب هناك، يقول: «وبالدار المذكورة موضع مستطيل فيه فرش الصبيان لنومهم بالليل، فقد رأيت ما ينيف على أربعمئة فراش، ولما كنا بالدار المذكورة حضر وقت الغداء، فأدخلونا موضعا وجدنا الصبيان مجتمعين فيه وفي ذلك الموضع سوارى من الرخام في طول ذراع أو نحوه وضعت عليها سرائر خشب عنده مع جدارات الموضع المذكور لتوضع عليها غداء الصبيان ولذلك الموضع مطبخة وقد وجدت طبّاخها أخرج طنجيرا كبيرا مملوء لحما وجعل يفرقه في الأواني وقد فرق عليهم قبل ذلك الخبز فلما تأهبوا للأكل وقف نصراني بالبواب وتكلم بكلام وأجابه الصبيان، فسألت عن ذلك فقليل أنه يأمرهم أن يسموا الله تعالى، وبالدار المذكورة بيت كبير فيه المال المعين لصائر الدار لأنه كلما يلزم الصبيان

(1) المصدر نفسه، ص 146.

(2) المصدر نفسه، ص 89.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 42، ص 129.

من مأكول ومشروب وملبوس كله من عند عظيمهم وقد عين المال المصروف على ذلك وبإزاء ذلك الموضع موضع معد لكتاب الدار يحصون فيه الصائر»⁽¹⁾.

ومما تعجب منه الغزال وهو يرصد هذه المدارس هو النظام والترتيب الذي عليه التلاميذ المقيمين فيها: «...ومن العجب أن عدد الفرش شيء كثير...وقد مازحت عدة منهم بسؤال واحد: أين فراشه، فيهتدي إليه من غير توان ولا تأمل، ولا يرتاب أحد منهم في محله...وأعجب من هذا أن صاحب الطعام يعرف كل آنية وصاحبها ولا يتمارى فيها حلل تفريق الطعام...»⁽²⁾.

وفي ظل مشاهداتهم الخاصة بتطور التعليم العسكري الإسباني لم يغفل الرحالة المغاربة الوقوف على تلميحات يبدو فيها أن أسلوب الحياة الطبقية الخاص بطبقة النبلاء قد انتقل فعليا إلى هذه المدارس، إذ يشير الغزال أن التوجه إلى هذا النوع من التعليم (علوم البحر) محصور في أبناء طبقة الأعيان، يقول عن زيارته للمدرسة العسكرية بمدينة شقوية: «...وبقنة الجبل قصبة من عمل الروم في غاية الضخامة والعلو بها عدة مقاعد معمورة بأبناء الأكابر، يتعلمون ما تعلق بأمور البحر...»⁽³⁾، ويبدو أن الفروقات الطبقية داخل هذه الأكاديميات كانت واضحة للعيان لدرجة لم يبذل رحالتنا جهدا لملاحظتها، ليعود المكناسي ويؤكد ما ذهب إليه سابقه: «...وقد رأيت بإشبيلية أيضا دارا كبيرة معدة لتعليم الصبيان علم البحر وخدمة المراكب، وبها قيم معين من قبال الطاغية، ويجتمع عنده في تلك الدار اليتامى المهملون وأبناء المستضعفين، وكذا أولاد الأكابر يدفعهم آباؤهم إلى تلك الدار يتعلمون...»⁽⁴⁾.

ولا يبدو أن السفيرين المغربيين قد أنتجوا هذه الصورة بحكم احتكاكهم الكبير بطبقة النبلاء بحكم مناصبهم الدبلوماسية، بل هو يعبر عن واقع سائد لدى الأوساط العسكرية الإسبانية كانت مشاهدات الغزال المحصورة غالبا في هذه الطبقة هو سبب ذكره ذلك، أما أن التعليم في إسبانيا كان فعلا كما ذكر، أم أن المميزات الذي يحظى بها الجانب الاقتصادي البحري هو الذي جعل الأعيان يوجهون أبناءهم إليه، دون سواهم من السكان؟، ونحن نعتقد في الجانب الاقتصادي هو السبب الأقرب لتوجيه الأعيان أولادهم له.

وختاماً نقول أن مظهر الأكاديميات العسكرية الأوروبية وما رافقها من أساليب تكوين وتعليم وتنظيم وترتيب بدا غريبا على هؤلاء الرحالة، وهذا ما كشفه غياب ردود فعلهم التي تعودنا حضورها عند كل مشهد يظهر فيه الآخر

(1) المصدر نفسه، ص 45.

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 144-145.

(3) المصدر نفسه، ص 144.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 42، ص 129.

عسكريا، إذ تخلّى كل من الغزال والمكناسي على ما دأبوا عليه من أسلوب الدعاء على الآخر أو المقارنة والمفاضلة وتقزيم منجز الآخر مقارنة مع الأنا، إلا أن ما لم يتخل عنه الغزال هو عاداته في تغيير مسار المشهد والصورة، حيث ينتقل بالقارئ من جو هذه الأكاديميات وعلومها وتنظيمها مباشرة إلى مشهد يظهر فيه السلطان المغربي ومرسله في موقف الهيبة والحظوة والتعظيم، فيقول في ختام زيارته لمدرسة إشبيلية العسكرية فيقول: «وقد أوقفوا الصبيان أماننا حال التشيع صفوفنا، أدبا وتعظيما لنا، فأمرناهم بتسريحهم ثلاثة أيام رحمة بهم واستراحة مما هم فيه من السجن، وقد أجاب المعلمون لذلك فخرج الصبيان ولهم ضحيج يقول: "بيبا راي مؤوك بيبا"⁽¹⁾ "الله يعيش الباشدور»⁽²⁾.

ما يمكن استخلاصه في ختام هذا الفصل أن الرحالة المغاربة نظروا إلى الواقع العسكري الأوروبي بنظمه وتنظيمه وتسليحه وإمكانياته الصناعية فوجدوا أنها جميعا تختلف عما ألفوه عندهم في المغرب سواء في أسلوب الحرب أو نظامه أو آله، الأمر الذي جعل هؤلاء الرحالة السفراء يعبرون عنها بردود فعل امتزجت بين الإعجاب بما لدى الآخر الأوروبي ومحاولة التقليل منه وتقزيم قوته في الآن نفسه، منطلقين في ذلك من شعور جارف بالتفوق، وهي نظرة بلا شك ساهمت في تغييب قوة الآخر المشاهد عن النخبة الحاكمة والمثقفة في المغرب، إذ اتجهوا إلى عدم التصريح بقوة الأوروبيين في المجال العسكري، وما كان لهم ذلك خاصة وأن هذا الجانب كما قلنا في مستهل هذا الفصل يمثل مجال المواجهة بين الطرفين.

(1) Viva el Rey Marruecas Viva أي

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 89.

الفصل الرابع: المجتمعات الأوروبية في نصوص الرحالة المغاربة خلال القرنين 17 و18م

- أولا: الطبقات والمكونات الاجتماعية في أوروبا
- ثانيا: بقايا الموريسكيين في إسبانيا خلال القرنين 17 و18م
- ثالثا: المرأة الأوروبية في نصوص الرحلات المغربية
- رابعا: في الأعياد والاحتفالات الأوروبية
- خامسا: في التسلية والترفيه
- سادسا: في الأكل والمائدة الأوروبية
- سابعا: المؤسسات والنظم الصحية والاجتماعية في أوروبا

الفصل الرابع: المجتمعات الأوروبية في نصوص الرحالة المغاربة خلال القرنين 17 و18م

كان حضور الواقع الاجتماعي الأوروبي في نصوص الرحالة المغاربة قويا، وكان عجيب وغريب عادات هذا المجتمع وقيمه قد جذب هؤلاء الرحالة لمعرفة والاطلاع عنها، فنظروا إليه بأعينهم المغربية، وقدموا حولها أحكاما وتصورات نابعة من ثقافتهم ومجتمعهم، فلم يترك هؤلاء الرحالة أي ملمح اجتماعي في أوروبا إلا ورصدوه، ونشير بداية لأننا لا نسعى لتتبع كافة المظاهر الاجتماعية الأوروبية، لكننا تتبعنا المحاور الكبرى المعبرة عن هذه المجتمعات.

أولا: الطبقات والمكونات الاجتماعية في أوروبا

ما يجب الإشارة إليه ونحن بصدد دراسة حضور هذا الملمح الاجتماعي عند الرحالة المغربية خلال هذه الفترة، أن جل ما سيذكر متعلق بمجتمع بلد واحد في الغالب؛ وهو إسبانيا أو أحد ممالكها التابعة لها في أوروبا، لأن جل الرحلات كان وجهتها إلى هذا البلد، أما تركيز الحجري فكان منصبا حول وضعية الأقلية الموريسكية في إسبانيا قبيل الطرد سنة 1609م، لذا نجد أنه يقدم المجتمع الإسباني خلال النصف الأخير من القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، مجتمع طبقي كان أساس التمايز فيه هو الاختلاف الديني والعرقي، ووفق هذه النظرة فإن المجتمع الإسباني الحديث يتكون من فئتين؛ الفئة الأولى والمهيمنة هم المسيحيين ذوو الأصل الإسباني أو كما يسميهم "النصارى القدماء" (Cristianos Viejos)، وهي العبارة التي كانت تستعمل في إطار المجتمع الإسباني لتمييز المسيحيين أصحاب التدين الكاثوليكي الموروث عن المعتنقين الجدد للمسيحية (Cristianos nuevos) خصوصا من الموريسكيين ذوي الأصل المسلم وكذا اليهود والذين يمثلون الفئة الثانية⁽¹⁾.

أما الفئة الأولى فكانت مُغيبية في نص الحجري، لأن محور حديثه منصب لوصف حال الفئة الثانية وهم الموريسكيون، الذين ظهروا كفئة منعزلة، حافظت على خصائصها وترابطها بعيدا عن المجتمع الإسباني النصراني، غير مخالطة له في مختلف المعاملات حتى في الزواج والتزويج، وهو ما بينه الحوار الذي أجراه مع أحد الرهبان في قرطبة حوار يظهر فيه أن كل طرف يحمل الآخر المسؤولية في خلق هذه الهوة الاجتماعية والتسبب فيها، يقول: «...ولكن أنتم أهل الأندلس فيكم عادة غير محمودة، قلت وما هي؟ قال: أنكم لا تمشون إلا لبعضكم مع بعض ولا تعطون بناتكم للنصارى القدماء، ولا تتزوجون مع النصرانيات القدماء»⁽²⁾.

(1) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 66.

(2) المصدر نفسه، ص 67.

ويبدو أن الموريسكيين كانوا يمثلون عددا كبيرا من المجتمع الإسباني قبيل الطرد 1609م، إذ يذكر الحجري أن عدد الأندلسيين المسلمين الذين طردوا وهجروا بعد قرار الطرد النهائي بلغ كما روي له: «بنهاية الجمع بصغارهم لثمان مائة ألف مخلوق...»⁽¹⁾.

أما الأقلية اليهودية في إسبانيا فرغم أنها عانت مثلما عانى هؤلاء الموريسكيين من التعصب الديني، إلا أنها تظهر فئة وطبقة منبوذة في المجتمع الإسباني، حتى أن كل فعل سيء يُنسب لليهود، لكنهم وعكس الأندلسيين المسلمين حاولوا الاندماج في المجتمع النصراني (الأوروبي) وكانوا أكثر اختلاطا بالنصارى من خلال المعاملات والعلاقات الاجتماعية مثل الزواج منهم، ولا يرى الحجري في هذا الاختلاط إلا سببا في طلب الرياسة والمناصب⁽²⁾.

ورغم أن ملاحظات الحجري عن الواقع الاجتماعي في مختصر رحلته إلى فرنسا وهولندا كان قليلا جدا وفي إشارات سريعة⁽³⁾، إلا أنه أعطى في هذه الإشارات صورة عن طبقة المجتمع في فرنسا، صورة هيمن عليها طابع الإقطاع وسيطرة النبلاء، وهذا ما دل عليه وصفه لمنزل أحد أعيان مدينة بوردو الفرنسية: «...وصلنا إلى داره وكانت خارجا عن البلد على قرب النهر، وهي مانعة كبيرة، مبنية بالحجر المنجور، وفيها بعض المدافع وبقرها بستان كبير وغبات، وبلاد واسعة للزراع، كل ذلك للقائد المذكور، وأقبلت علينا زوجته وخدامها من البنات والرجال...»⁽⁴⁾.

وحملت نصوص الرحلات التي تلت رحلة الحجري صورة أكثر قربا ودقة عن المجتمعات المرتحل إليها، ولأن وجهة هؤلاء الرحالة كانت موحدة باتجاه إسبانيا فإنها أنتجت صورة أكثر تكاملا عن واقعه الاجتماعي، ونظرا لطبيعة هاته الرحلات كرحلات سفارية دبلوماسية فإن احتكاك أصحابها كان أكثر ما يكون مع طبقات المجتمع العليا، فظهرت بجلاء طبقة الأعيان التي كان يسميهم الغساني "ذوي الأقدار"⁽⁵⁾، ويعرفها باسم "الكبيرة": «والكبيرة عندهم هو أن يعمل على كتفه صليبا في ثوبه المدثر به، برقم معلوم عندهم، وهي درجة كبيرة»⁽⁶⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 91.

(2) المصدر نفسه، ص 107.

(3) وإن لم يظهر الحجري تفاصيل كثيرة عن الواقع الاجتماعي في مختصر رحلته إلى أوروبا إلا أننا نرجح أنه سجل معلومات لا بأس بها في هذا الجانب في نص رحلته الضائع (رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب)، الأمر الذي يؤكد أنه ذاته في رسالته للأعيان الموريسكيين بالقسطنطينية سنة 1611م، يقول: «أردت أن عرف بعض الأشياء من أجل تدوينها حول هذه العاصمة (باريس) كعدد السكان، والنبلاء والحروب... مدينة باريس كبيرة جدا، يقولون أن بها سبعمائة ألف شخص في ازدهار متزايد...» أنظر: المصدر نفسه، ص 160.

(4) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص 69.

(5) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 129، 132.

(6) المصدر نفسه، ص 92.

وفي القرن الثامن عشر ظل المجتمع الإسباني محتفظا بطابعه القديم رغم التغيرات التي حدثت في أوروبا خلال هذا القرن، وهذا ما نلاحظه من تشابه الصورة التي ذكرها كل من الغزال والمكناسي، مع تلك التي أوردها الغساني قبل ذلك، وقدم هؤلاء الرحالة صورة مفصلة جدا عن واقع طبقة النبلاء؛ بدءا في كيفية الوصول والارتقاء لهذه المكانة الرفيعة في المجتمع الإسباني؛ فكانوا يصلون لهذه المرتبة إما عن طريق:

- العراقة في دين النصرانية: وكان هذا الشرط هو الأهم من بين شروط الانتماء لطبقة الأعيان بإسبانيا: «ويعد لنفسه فيها سبعة أجداد بإشهاد من نصارى كل زمان... فحينئذ يؤمر بعمل الصليب على كتفه...»⁽¹⁾، ولم يكن مجرد الادعاء بالعراقة في النصرانية موصلا لهذه المرتبة الاجتماعية بل: «لهذا الأمر قوم معنيون للبحث بمن يطلب ذلك، فيبحثون عنه وعن أبيه وأمه وأسلافه حتى يتحققوا ويكونوا على بصيرة فيه...»⁽²⁾.

- القوة الاقتصادية الفاحشة جدا: وحسب الصورة التي نقلها الغساني، فإن هذه الطريق كانت أصعب السبل للوصول لطبقة الأعيان، فلا يدخلها إلا من: «كان تاجرا ذا مال كثير من التجار الذين لا يرفعون ميزانا ولا يجلسون في دكان، مثل التجار الكبار الذين لهم المتاجر العظيمة والأموال الجسيمة... فإن هذا يلحق الكبيرة مع تركه للتجارة وعدم التفاته إليها أصلا...»⁽³⁾.

- الخدمة العسكرية: والتي كانت من أسباب الوصول لهذه المرتبة «...ولجنس الإصبيول عادة فيمن يحب الكبيرة ولم يظهر له من أين يدركها، أو لم تكن له يد عند المخزن يلحق بها ما يعيش به ويكفيه عن معاطاة الأسباب، وغيرها أن يقصد بلاد لأمانيا على بعدها ويحضر هنالك لحرب المسلمين أعزه الله، ويجعل بيده إشارات وبنات تثبت له خدمته وبذل مجهوده، وحين يرجع إلى بلاد إصبانيا يستظهر بالإشهاد الذي بيده... فيدرك بذلك الكبيرة... فيطلب منزلة أو راتباً يتسع فيه حاله... وهذه من عوائد الشلظاظ منهم من الذين يحبون الكبيرة...»⁽⁴⁾.

فكانت طبقة الأعيان طبقة جاذبة لفئات المجتمع الإسباني للانطواء تحتها، إذ كانت تجذب جميع تطلعات الطبقات الاجتماعية الفقيرة والمتوسطة الطامحة لتغيير وضعيتها الاجتماعية والاقتصادية، والتحرر من البؤس⁽⁵⁾، وهذا ما أكد عليه الغساني الذي لم يكتف بالصورة الماثلة أمامه بل كعادته نجده يبحث في تفسيرات لهذه الظاهرة، أي

(1) المصدر نفسه، ص 92.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 120-121.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 92.

(4) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 129.

(5) عبد المنعم بونو، «إسبانيا في رحلة الوزير الغساني»، ضمن كتاب: إسبانيا بعيون الرحالة المغاربة، تنسيق شعيب حليفي، منشورات المختبرات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسك، الدار البيضاء-المغرب، 2011، ص 85.

"ظاهرة بحث الإسبان عن مكان تحت ظل "طبقة الأعيان"، وبرر ذلك بوجود "اقتصاد ريعي" -إذا صح التعبير- يصبو الجميع للاستفادة منه، ممثلا في أموال المستعمرات الأمريكية على الخصوص، بالإضافة إلى الامتيازات التي يحظى بها منتسبي هذه الطبقة، إلى درجة أن التاجر العظيم هناك قد يتخلى عن تجارته مقابل أن يلبس ثوب الأعيان ويسمى بألقابهم، الأمر الذي سوف تكون له انعكاسات وخيمة على الاقتصاد والدولة الإسبانية، كما سنبينه في الفصل القادم حيث أصبح المجتمع الإسباني مجتمعا حاملا كسولا مترفا حتى أن الفرد الإسباني المنتمي لطبقة الأعيان لا يرضى بعمل مثل التجارة والحرف والزراعة، لأنه يراه عملا مهينا⁽¹⁾.

ولاحظ الرحالة المغاربة تكريس هذا النظام الطبقي في إسبانيا خلال العصر الحديث عملية "الانتقال الاجتماعي"، إذ كان الانتماء إلى طبقة النبلاء يورث أب عن جد ف: «الكبيرة التي يتوارثها النصارى خلفا عن سلف مثل الدوق أو القند وشبيهها...»⁽²⁾، إلا أن الغساني لاحظ أن هذا الانتقال الاجتماعي لا يتم دائما على هذه الصيغة عند كل النبلاء لأن: «...لهم في الميراث عادات ليست جارية على قانون واحد في ميراث الكبيرة، مثل ما لوزير من وزراء الطاغية... وذلك أن عاداته الموروثة من أسلافه إذا مات ولم يخلف ولدا فإن ميراثه وكبيرته لا يرثها أحد من قرابته، وإنما يرثها رجل أجنبي من خدامه الأول منهم فالأول...»⁽³⁾.

كما يظهر من خلال الصورة التي دونها رحالتنا المغاربة أن النبلاء و"ذوي الأقدار" غير متساوين داخل هذه الطبقة، إذ يوجد درجات فيها عليا وسفلى، وتظهر هذه الصورة أكثر لحظة استقبال الملك الإسباني للسفراء المغاربة⁽⁴⁾.

هذا وتمتعت طبقة الأعيان والنبلاء في أوروبا بامتيازات معتبرة، استطاع الرحالة المغاربة تقديم صورة حولها، إذ احتكرت هذه الطبقة العليا في المجتمع الأوروبي والإسباني بشكل خاص المناصب السياسية والوظائف الإدارية، ومن ذلك قول الغساني: «...فلا يتولى الكوشطة⁽⁵⁾ الموالية لبرنا إلا من له أصالة في الكبيرة، ومن له لقب الدوك أو القند لا غير»⁽⁶⁾، وإمساكها باقتصاد البلاد، إذ تمتع بعض النبلاء بحقوق إقطاعية معتبرة قد تصل حد سيطرتهم على

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 92.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 121، محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 129.

(3) المصدر نفسه، ص 129.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 86.

(5) الكوشطة: من الكلمة الإسبانية Costa أي الساحل، ويعني بها المدن الساحلية الإسبانية المقابلة للمغرب.

(6) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 51.

خيرات مدن ومقاطعات بأكملها، ويعطي المكناسي مثالا عن أعيان مدينة ألكريو (El Carpio): «وهذه المدينة بجميع دورها ومنافعها وبساتينها وجميع ما احتوت عليه من المنافع هي ملك لأحد الأعيان من النصارى»⁽¹⁾.

فيما شكلت الاستقبالات الرسمية والمأدبات التي أقيمت على شرف السفارات المغربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أول فضاء اتصل من خلاله رحالتنا بهذا المجتمع الذي أثار فضولهم، ودفع بهم إلى تسجيل كل مشاهداتهم عن سلوكياته ونمط عيشه، ومما سجله ابن عثمان من مظاهر رقي هذه الفئات أن أصبحت لها أماكن خاصة للترفيه وقضاء أوقات الفراغ، وهي الأندية التي دعي إليها ابن عثمان ولجى الدعوة، فقال يصف نادي الأكابر في نابولي: «ومن حضارة هذه المدينة وفراغ أهلها دار كبيرة يجتمع فيها الأعيان والأكابر، بقصد المآنسة والمحادثة...»⁽²⁾.

وتعبيرا عن ذلك يصف الغزال حال أحد هؤلاء الأعيان مشيرا إلى نفوذه الاجتماعي وقوته الاقتصادية ومظهره المبهر، يقول: «...تقدم إلينا أحد المراكيس»⁽³⁾ وهو من أعيان القوم لقربته من طاغيته، ومكانته المكيمة عنده وبيت مال عظيمة الذي هنالك تحت يده، ومفتاحه من الذهب معلق في عنقه بسلسلة من الذهب أيضا، بحيث كل من رآه يقدر قدره ويخاطبه بما يناسب مرتبته من الأدب، والحاكم بنفسه إلى نظره...»⁽⁴⁾.

هذا إضافة إلى معيشتهم الدالة على الرفاهية واصفا بيوتهم التي تضاهي قصور الملوك في إسبانيا، وذلك عند نزوله ضيفا في بيت أحد الأعيان بمدريد: «فإذا دارها من خيار الدور، فيها مقاعد غير بعيدة عن مقاعد الطاغية في البنيان والفرش والستور والتصاوير وما يضاف لذلك»⁽⁵⁾ واستعمالهم للخدم، ومجالسهم فيما بينهم⁽⁶⁾، ويصل بهم الأمر حتى إلى استقبال الوفود السفارية الدولية التي تمر على مدن إقامتهم، وقدم كذلك وصفا عن ملامح نساء هؤلاء الأعيان وترفهن وتمتعهن بالحياة من لباس وزينة ومعيشة⁽⁷⁾، فالوضعية التي كان عليها هؤلاء النبلاء جعلتهم ينافسون الملوك في أجهتهم.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 67.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 66.

(3) جمع مركيز Margués من الألقاب الأرستقراطية العالية.

(4) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 69.

(5) المصدر نفسه، ص 156.

(6) المصدر نفسه، ص 69-70.

(7) المصدر نفسه، ص 69، وغيرها

ثانيا: بقايا الموريسكيين في إسبانيا خلال القرنين 17 و18م

لما كانت الرحلة إلى إسبانيا ليس كالرحلة إلى بقية البلدان الأوروبية بالنسبة للرحالة المغاربة خلال القرنين 17 و18م، لما تحمل هذه الوجهة من إرث تاريخي وحضاري، لذا كان توجه هؤلاء الرحالة أثناء نزولهم بأرض "الأندلس" هو البحث عن كل أثر يربطهم بماضيها التليد؛ فمن الأرض إلى الآثار العمرانية والمادية التي طالما ذكروهم بهذا الماضي، إلا أنهم لم يغفلوا أيضا أن يبحثوا عن بقايا الإنسان الأندلسي، وهنا ربما كان التساؤل: هل بقي وجود للأندلسيين في إسبانيا بعد الطرد الإجباري والجماعي سنة 1609م؟

وتأتي الرحلات المغربية التي توجهت إلى إسبانيا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر للإجابة عن هذا التساؤل كمصادر شاهدة ومؤكدة وجود فئة اجتماعية وهي بقايا الأندلس، لكن نعود ونطرح سؤال آخر: هل كان ظهور هذه الفئة الاجتماعية ذات الأصل الموريسكي في نصوص هذه الرحلات معبرا عن وجود فعلي لها أم أنها مجرد استحضر من قبل هؤلاء الرحالة لماضيهم في إسبانيا؟ وربما كان السؤال أيضا؛ إن كان هناك أثر لوجود بقايا الموريسكيين هناك فكيف بقوا في إسبانيا رغم إجراءات الطرد القاسية؟ ثم كيف تعرف عليهم الرحالة المغاربة؟ وما هي وضعيتهم داخل المجتمع الإسباني خلال هذه الفترة؟ وما هو موقف هذه البقية الباقية من الموريسكيين من الإسلام والمسلمين؟ كل هذه التساؤلات سنحاول الإجابة عنها من خلال استخلاصنا وجمعنا لتلك الإشارات التي تركها لنا الرحالة المغاربة خلال القرن السابع عشر والثامن عشر في نصوص رحلاته

أما كيف بقوا في إسبانيا، فيجيب الغساني عن هذا السؤال قائلا أن من بقي هناك كان؛ ممن تنصر لغرضه (بإرادته)، وهذا أكثر عددا مما تنصر رغما⁽¹⁾، أو اختفى تحت أحد أو انصع بأحد ولم يُعلم به⁽²⁾، وعلى كل حال

(1) بعد سقوط غرناطة 1492 وقبلها اعتنق النصرانية طوعية جماعة من الأمراء والأعيان، فقد تنصر الأميران سعد ونصر ابنا السلطان أبي الحسن، كما رجعت أهمها ثريا إلى دينها النصراني، وغير اسم الأمير سعد إلى "دوق فراندو دي غرناطة"، وعمل قائدا في الجيش القشتالي، وأصبح الأمير نصر "دون خوان دي غرناطة"، وتنصر الأمير يحي النيار ابن عم أبي عبد الله الزغل وقائد ألميرية عقب تسليمه الميرية وتسمى "دون بدرو دي غرناطة"، وتنصر زوجته وتنصر ابنه عي تحت اسم "دون ألونسو دي غرناطة بنيغش"، وتزوج وصيفة الملكة الكاثوليكية، وتنصر معظم آل بنيغش، وتنصر يوسف بن كماشة وأصبح راهبا وغيرهم كثير. أنظر: علي منتصر الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005، ص60.

(2) استمر عدة آلاف من الموريسكيين بإسبانيا بعد الطرد 1609م، وربما كان هذا الاستمرار لعدة أسباب منها: أنه استحال اجتثاث المسلمين الأندلسيين وطردهم، فقد بقي من اتخذ من التقية شعارا وتظاهر باتباع الدين المسيحي، ولكن هؤلاء مارسوا شعائهم سرا، كما أن الآلاف من الأطفال المسلمين منعوا من مغادرة الأندلس وتم تدوينهم في المجتمع الإسباني الكاثوليكي، كما أن الآلاف ممن خشوا ويلات الوقوع في أيدي البحارة الأوروبيين الذين استولوا على أموالهم أثناء إبحارهم وفضلوا البقاء مع العلم أنهم منعوا من بيع عقاراتهم ولو بأبخس الأثمان... وغيرها من الأسباب. أنظر: عبد الجليل التميمي، مرجع سابق، ص65. وكذلك يشير الحجري في رسالته إلى أعيان الموريسكيين بالقسطنطينية سنة 1611م، أن بعض من هجروا قد عادوا إلى إسبانيا عبر فرنسا، أما الذين بقوا متخفين واكتشفت السلطات الإسبانية حالهم فقد وجه كثير منهم إلى البحر للتجديف بالسفن الإسبانية. أنظر: أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق ص161-162.

فحيث كانوا كثيرون لم يكن الاستقصاء في تفتيشهم في جميع العدو لاختلاطهم ونسيانهم الإسلام⁽¹⁾.

وأشار الرحالة المغاربة أنهم استطاعوا التعرف على هذه البقية الباقية من الأندلسيين من خلال عدة ضوابط؛ فإن لم يعلن هؤلاء على أنفسهم بشكل صريح في المدن والقرى التي زارها الرحالة المغاربة عبر أرجاء إسبانيا؛ إلا أنه ما لبث أن يظهروا في عدة صور؛ فشككت الإيماءات والمعاملات والسلوك والأسماء والصفات وحتى الملامح الجسدية سببا ليتعرف الرحالة على بقايا الأندلس هناك.

فكثيرا ما عبر ساكنة المدن والقرى التي يمر بها السفراء المغاربة على انتسابهم لأصلهم الأندلسي المسلم، وكان ذلك يتم بالتصريح علانية أو بالإشارة خفية، لذا تكررت عبارات مثل: «... وفيها انتسب لنا البعض إلى الأندلس بإشارة خفية لم يقدر على التصريح بغير كلام خفي...»⁽²⁾ أو: «ولا مرية في أنهما من بقايا الأندلس، وقد التقينا برجل من طلبة المدينتين اسمه بلاشكو... وقد أظهر من الميل إلينا ما غلب على الظن أنه مسلم، وصار يشير بإشارة خفية، ويكثر من الالتفات حال مخاطبته إيانا، ولم يستطع التصريح بما في باطن الأمر...»⁽³⁾، «... والكثير من ألقابهم موجودة عندنا في الإسلام، فمنهم من يشير خفية ومنهم من يجهر بذلك، ولا مرية في أنهم من بقايا الأندلس...»⁽⁴⁾.

ومن الضوابط التي اعتمدها الرحالة المغاربة كذلك في تمييز السكان ذوي الأصل المسلم الأندلسي عن غيرهم من السكان الإسبان، هي صفاتهم الخلقية والخلقية (الميزات الجسدية)، وهو ما وقف عنده السفير المغربي الغزال في منتصف القرن الثامن عشر، لما تحدث عن بلدي بلاسيوس (Palacios) وبلافرانكا (Vilafranca) المتجاورتين (مقاطعة أشبيلية) بما يلي: «وجاء بنت له عليها أثر العريان بعيدة الشبه بالروم خلقا وخلقا...»⁽⁵⁾، أما أهل مدينة أطريرة (Utrera) (مقاطعة إشبيلية) ف: «... دمهم دم العرب وأخلاقهم مباينة لأخلاق العجم، وميلهم للمسلمين وتحننهم للجنس وأسفهم عند التشيع يقطع أنهم من بقايا الأندلس وقد طال عليهم العهد وربوا في بحبوحة الكفر والعياذ بالله»⁽⁶⁾، وكذلك كانت أخلاق أهل مدينة أندوخر (Andújar) (مقاطعة جيان) (Jaén) مغايرة لأخلاق

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 98-99.

(2) المصدر نفسه، ص 58.

(3) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 72-73.

(4) المصدر نفسه، ص 213.

(5) المصدر نفسه، ص 72-73.

(6) المصدر نفسه، ص 73.

الروم (الإسبان): «...وأهلها أهل حضارة، وقد أخذوا نصيبهم من الحسن، وأخبرنا أن الكثير منهم من بقية الأندلس ولا يستبعد ذلك لأن أخلاقهم ليس كأخلاق الروم، وفي ميلهم للإسلام ومحبتهم ما فيه أكبر علامة لذلك...»⁽¹⁾.

ولأن احتكاك السفراء المغاربة كان غالبا مع الطبقة العليا من المجتمع المرتحل إليها بنحدهم يتعرفون ويعرفون قارئ نصوصهم ببعض ألقاب العائلات الأندلسية من الذين التقوا بهم، وهم في الغالب من العائلات ذات النسب الرفيع، الذين أصبحت لهم مكانة اجتماعية مرموقة أواسط المجتمع الإسباني الحديث، فذكر الغساني لقاءه في مدينة اطريرة بأعيان إسبان ينتهي نسبهم إلى آخر ملوك غرناطة المسلمين: «...ولقد شاهدت ابنتين إحداها بنت حاكم البلد والأخرى بنت القاضي في غاية الحسن...وهما من بنات الأندلس ومن دم ملك غرناطة الأخير الذي غلب عليها وهو الملك المعروف عندهم بالري الشيك ومعناه السلطان الصغير»⁽²⁾، ولقد أخبرني بمدينة مدريد رجل يسمى دون ألونص حفيد موسى أخ السلطان حسن المتغلب عليه بغرناطة⁽³⁾ أن البنتين بأطريرة من دمه...»⁽⁴⁾.

وفي مدينة أندخور (مقاطعة جيان) يقول الغساني: «والغالب على غمارها(أهلها) أنهم من بقايا الأندلس وجلهم من أولاد السراج الذين كانوا تنصروا على عهد السلطان أبي الحسن آخر ملوك غرناطة...»⁽⁵⁾، ولم يكفي الغساني بذلك بل بحث في الأسباب التي أدت بهؤلاء إلى التحول إلى النصرانية، مؤكدا أنها كانت بدافع الحمية والأنفة والحنق بعد نكبة أفراد من عائلة أولاد السراج من قبل ملك غرناطة «...ركبوا من ساعتهم وقصدوا طاغية الوقت فتنصروا على يده، وخرجوا من عنده قاصدين غرناطة فأغاروا عليها وحضروا بعد ذلك مع الطاغية في حروب غرناطة وأحوازها، نعوذ بالله من الضلال بعد الرشاد ومن الغواية بعد الهداية...»⁽⁶⁾.

أما الغزال فأكد أن كثيرا من ألقاب من لقيهم موجودة في المغرب: «والكثير من ألقابهم موجودة عندنا في الإسلام، كغبريرة وقرنطاش وبريشة وابن بيدس وارميرو واقفريكو واللمب وأولاد خويا وخيرون وراغون وبائص ومنضوضة وغير ذلك»⁽⁷⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 104.

(2) المقصود هنا هو أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني نصر وفي عهده سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين بإسبانيا سنة 1492م، أما كلمة "الري الشيك" فهو من الكلمة الإسبانية "El rey Chico" التي تعني الملك الصغير.

(3) ويراد به السلطان أبو الحسن علي بن سعد من أواخر حكام بني الأحمر على غرناطة حكم بين (868-887هـ/1464-1482م)

(4) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 58، 59-60.

(5) المصدر نفسه، ص 71-72.

(6) المصدر نفسه، ص 71-72.

(7) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 73.

وكذلك التقى المكناسي بعضا من العائلات التي عبرت عن نسبها وأصلها الأندلسي ففي أندوخر: «...جاءت ضامة(سيدة) من الأكابر وقالت...نحن من أولاد قردناش وأمي بنت برقاش وأظهرت التودد والمحبة شيئا كثيرا وأتى رجل...قال: وأنا أيضا من أولاد بريس وأمي بنت برقاش، فقلت لهم أن إخوانكم في بلادنا لهم وجاهة وهم عندنا من الأعيان فهلا لحقتم بهم، فقال: ما وجدنا إلى ذلك سبيلا، وقد ذكر لنا كثيرا من قبائل أهل الأندلس الذين نعرفهم في بلادنا مثل تطوان والرباط وهم أهل رفاهية وسعة في الدنيا قد غلبت عليهم الشقاوة وخاضوا بحار الضلالة وربوا في مجبوحة الكفر والعياذ بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله...»⁽¹⁾.

وإن أكثر ملامح الصورة التي نستطيع استخلاصها من خلال مشاهدات الرحالة المغاربة هو واقع بقايا وأحفاد الموريسكيين الاجتماعي ونشاطاتهم الاقتصادية في إسبانيا، وهي المشاهدات التي تتعلق حصرا بالطبقة العليا من هذه الأقلية من العائلات الأندلسية ذات النسب الرفيع التي أعلنت تنصرها قبل سقوط غرناطة وكانت لهم مساهمات للدولة الإسبانية خصوصا من الناحية العسكرية والإدارية⁽²⁾، ورغم هذه الخدمات التي قدمها هؤلاء للدولة الإسبانية وإبراز حسن تنصرهم إلا أنهم بقوا يمثلون أعيان من الدرجة الثانية ضمن ترتيب السلم الاجتماعي الإسباني، وهو ما أشار إليه الغساني وهو يصف حال أعيان مدينة أندوخر من ذوي الأصل الموريسكي: «هؤلاء النصصرة الذين بأندوخر يعد من أكابر أهل البلد، غير أنه لا يعد عند النصارى مثل ما لهم من الكبيرة التي يتوارثها النصارى خلفا عن سلف مثل الدوك أو القند وشبههما وأكثر ما يحصل لهم اليوم من الكبيرة أن يرث عمل الصليب على كتفه يرقمه في ثوبه المتدثر به فتلك علامة الأكابر منهم».

وتبعا لهذا الواقع يفصل الغساني في الوظائف التي يستطيع هؤلاء الأعيان الموريسكيين أن يشغلوها ويرتقوا فيها في إسبانيا الحديثة قائلا: «والخطط التي يتولونها بقايا هذا الجنس المذكور هي الكتابة وحكمة البلدان والشرطة وغيرها مما ليست له وجاهة كبيرة وولاية شنيعة مثل التصرف في المحال والولاية للأقاليم الكبيرة والمدن والقواعد مثل أشبيلية وما شاكلها، وعلى كل حال فهم في هذه النواحي كثيرون لا يحصون...»⁽³⁾، والتقى الغزال أحد هؤلاء الأندلسيين

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسیر، مصدر سابق، ص 70.

(2) وتؤكد كثير من الدراسات الأرشيفية الإسبانية ما ذهب إليه الرحالة المغاربة، إذ تشير إلى الدور التجاوزي الذي لعبه هؤلاء الموريسكيين في إسبانيا بين القرنين 17 و18م في المجتمع المحلي وعلى المستوى الاقتصادي، إذ كان كثير منهم من الحرفيين والتجار الأثرياء، وتتراوح المناصب التي تقلدوها بين المؤثمين العامين والمحامين والمستشارين في بعض البلدات، وعدد معتبر كان من الفرسان، بالإضافة إلى تقلدهم مناصب رجال دين مسيحيين كقساوسة ورهبان. أنظر:

Enrique Soria Mesa, «Los moriscos que se quedaron. La permanencia de la población de origen islámico en la España Moderna: Reino de Granada, siglos XVII-XVIII», *Vínculos de Historia*, NO1, 2012, p206.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص72-73. أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص72-73.

كان: «من أعيان العدول عندهم»⁽¹⁾.

إضافة إلى ترقّهم في سلك الجندي وفي ذلك يذكر الغساني: وفي اطريرة: «...ولقد أخبرني بمدينة مدريد رجل يسمى دون ألونص حفيد موسى أخ السلطان حسن المتغلب عليه بغرناطة أن البنتين بأطريرة من دمه، ودون ألونص هذا رجل حسن الأخلاق، حسن الشباب له قوة وشجاعة معروفة عند النصارى وهو معدود من فرسانهم الشجعان، يتقدم إلى المحال وإلى الشرور قبطانا على جماعة من الخيل، والنصارى يعتدون بشجاعته، ومع هذا فهو مائل إلى من يلقاتهم أهل الإسلام، ويذكر نسبته ويعجبه ما يسمعه من الحديث عن الإسلام وأهله»⁽²⁾.

ومن هذا الجنس من اشتغل في سلك الشرطة ففي غرناطة صادف المكناسي: «...أحد أصحاب الشرطة ممن له غلظة وتجبر، وقد رأيت فيه ظلمه كثيرا، يضرب النصارى ويشتمهم، وقد أتاني ذات يوم فقال: إني من المسلمين، وإنما جعلت هذه الخطة سببا للوصول إلى إذابة هؤلاء الكفرة، وأنا من أولاد صيرون...»⁽³⁾.

ويبدو أن أحفاد الأندلسيين ظلوا محتفظين بشيء من خصائصهم الثقافية والاجتماعية، وهو ما يعبر عنه هذا الحوار الطريف الذي دار بين الغساني وأحد الموريسكيين النصصين الذين التقاهم: «ولقد حدثني عن أمه أنها حيث حملت اشتت الكسكس، فقال لها أبوه: لعل هذا الحمل الذي في بطنك من ضنو المسلمين إذ كانوا لا ينفرون من نسبتهم لعلمهم بها...»⁽⁴⁾، فذكره أكل الكسكس دليل آخر على أصل من يقابلهم الغساني، فهو تعبير عن هوية ثقافية واجتماعية لا يزال بقيا الأندلس محتفظين بها ولو في ذاكرتهم الجمعية المعبرة عن الثقافة الأندلسية والمغربية، لذا فقد منعت السلطات الإسبانية ظهور مثل هذه العادات، وما اشتياق المرأة لهذا النوع من الغذاء إلا دليلا آخر على منعه.

ولاحظ الرحالة المغاربة كذلك أن الخوف من محاكم التفتيش ما زال جاثما على صدور هؤلاء البقية الباقية من الأندلسيين المنتشرة في كثير من مناطق إسبانيا، الأمر الذي أكدته ردود أفعال وحركات ممن لقيهم رحالينا عبر مسارات رحلاتهم، لذا كان كثير ممن يلقاتهم الرحالة المغاربة يعبرون عن أصلهم خفية؛ خيفة مما قد يلقونه من هذه المحاكم⁽⁵⁾، بل إن كثيرا منهم يأبى الانتساب رغم ما يبدو عليه ويظهره من الرغبة في لقاء هذا الوفد السفاري المسلم: «...وأما إن جهر أحد بذلك، فلا يستتاب عندهم ولا يحكم عليه إلا بالقتل»⁽⁶⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 72-73.

(2) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 58، 59-60.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 183.

(4) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 60.

(5) المصدر نفسه، ص 58، 59، 61.

(6) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 175.

وكانت ملاحظة الغساني أدق حين أشار أن كثيرا ممن كانوا يعبرون عن ذاتهم وينتسبون، كانوا يشغلون وظيفاً مميّزا لدى الحكومة الإسبانية: «فمنهم من ينتسب ومنهم من ينفر من سماعه الانتساب ذلك...والذين بيدهم ولاية أو خطة من الخطط المخزنية من أهل هذا الجنس لا ينفرون من الانتساب»⁽¹⁾، ولا شك أن مكانة هؤلاء الاجتماعية كانت تحميهم في حال التصريح بأصلهم، لكن كثيرا ممن لم يكن لهم مناصب عالية، ومكانة اجتماعية أقل كانوا يُخفون أصلهم ونسبهم ولا يجهرن به.

وبقدر ما أحييت الرحلة إلى إسبانيا في الرحالة المغاربة ماضيها الأندلسي التليد، فراحوا باحثين في آثارها وجغرافيتها التي كثيرا ما عبرت عن هذا الماضي، وكذلك بحثهم عن الإنسان الأندلسي بين ثنايا المجتمع الإسباني الحديث، بقدر ما أحيوا وصول هؤلاء الرحالة والسفراء المسلمين في هذه البقية من الأندلس الرغبة في التواصل مع هؤلاء السفراء المغاربة والتقرب إليهم، وأحيوا فيهم ذاكرتهم الجمعية الإسلامية؛ فراحوا يعبرون عن الحنين والتحنن لأصلهم الإسلامي، كيف لا ونادرا ما كان يصل مسلم ومغربي إلى بلاد إسبانيا في العصر الحديث، فكانت الزيارات تغد إلى هؤلاء السفراء من قبل بقايا الأندلس جماعات وفردى.

ويبدو أن هؤلاء البقية من الأندلس قد أظهروا من الشوق واهتمامهم بالإسلام ومثليه من السفراء المغاربة المسلمين؛ ما جعل الغزال يُصرح أن أهل مدينة إشبيلية لو عرض عليهم الإسلام لأسلموا: «ومما غلب على الظن من ظهور انقيادهم وامتثالهم وفرحتهم بالمسلمين أنهم إذا عرض عليهم الإسلام لأجاب جميعهم لو لم تكن بين ظهورهم الفرائلية...وهذا ما أبدته الفراسة في القوم عند مباشرتهم واختبار أحوالهم من غير لفظ ولا إشارة إلا ما كان من بعض بقية الإسلام فمنهم من لفظ ومنهم من أشار، نسأل الله تعالى أن يهدي جميعهم للإسلام»⁽²⁾، وفي حديثه عن ساكنة مدينة ايلشي (Elche)، عبر هؤلاء حسب الغزال عن: «ميلهم للمسلمين بالقلب والقالب، والظاهر دال على الباطن، ولا شك أن فيهم عرقا عريقا في الإسلام حيث أن أسلافهم على الدين القويم، فهم يستأنسون بذلك ويقرون بأن الدين الإسلامي أشرف الأديان، وأن المسلمين هم على الحق ومن سواهم على الباطل، لكن لم تصلهم الدعوة وعلى تقدير وصولهم البحر الآن لم يمكنهم حفظها والعمل بها...»⁽³⁾.

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 72-73.

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 79.

(3) المصدر نفسه، ص 175.

وتكررت هذه المواقف والتعبيرات مع الغزال في كل مدينة فيها كثير أو قليل من بقايا الأندلس⁽¹⁾، فأهل لورقة (مقاطعة مورية): «لهم محبة كبيرة في الإسلام»⁽²⁾، أما أهل لوخة (مقاطعة غرناطة): «فهم على قدم غرناطة في الميل للمسلمين والمحبة الدالة على أن فيهم عرقا يهشم للإسلام بالخصوصية رجالا ونساء وصبياننا بزيادة على غيرهم»⁽³⁾.

بينما يظهر ابن عثمان تعجبه الشديد من الطريقة التي قابل بها سكان مدينة أسبخة من ذوي الأصل الموريسكي أعضاء السفارة المغربية والفرح الكبير الذي أبدوه قائلا: «ورد علينا نصراني من أعيان البلد، فسلم علينا سلاما كثيرا، وأظهر فرحا كبيرا، وقال أنني سمعت أنك تبحث عن بقية آثار المسلمين، وأنا من أولاد قردناش وأتى بي إليكم الشوق إلى لقاءكم والشوق إلى نظركم، ومعه أخته بنت صغير، فتقضينا العجب من ذلك...»⁽⁴⁾.

وبالرغم مما أبداه هؤلاء من التحنن والرغبة في معرفة المسلمين والسؤال عن الإسلام، إلا أن الرحالة المغاربة لم يجدوا في بحثهم هذا الإنسان الأندلسي المسلم؛ بل وجود أناسا انصهروا وذابوا في المجتمع "النصراني الكافر"، فبدل "المسلمين" وجدوا "نصصرة"، وقد عبر الرحالة المغاربة عن ذلك بنبرة تحمل كثيرا من الحسرة، وقليلًا من أمل عودة هذه البقية ذات الأصل المسلم إلى إسلامها لذا تكررت عبارات مثل: «...من بقايا الأندلس إلا أن العهد طال عليهم وربوا في مجبوحة الكفر فغلبيت عليهم الشقاوة والعياذ بالله»⁽⁵⁾، «نعوذ بالله من الخذلان والغواية ونسأله التوفيق والهداية»⁽⁶⁾ أو «... نسأل الله تعالى أن يهدي جميعهم للإسلام»⁽⁷⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 91.

(2) المصدر نفسه، ص 192.

(3) المصدر نفسه، ص 213.

(4) محمد بن عثمان المكتاسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 53.

(5) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 58، 59، 61، أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 213، محمد بن عثمان المكتاسي،

الإكسير، مصدر سابق، ص 70.

(6) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 60، 71-72.

(7) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 79.

وتكمن الأهمية التي يقدمها هؤلاء الرحالة وتحملها هاته النصوص في توثيقهم الدقيق لتواجد هذه البقية من أحفاد الأندلسيين في إسبانيا أنهم قدموا معلومات يستطيع الباحث المدقق في هذا الموضوع تتبع آثارهم وتشكيل خريطة توزع هؤلاء وأماكن تواجدهم، هذا التوزيع الذي يشغله بالأساس إقليم "الأندلسية" جنوب إسبانية والذي يمثل المعقل الكبرى والتقليدية للموريسكيين إذ ينتشر هؤلاء حسب الصورة التي قدمها الرحالة المغاربة في القرنين السابع عشر والثامن عشر في مدن مثل إشبيلية وغرناطة وقرطبة وجيان على ما احتوت عليه من قرى ومدامر وما قرب إليها من ضواحي.

وتزداد الأهمية التاريخية لهذا الرصد الذي قدمه الرحالة المغاربة عن هذه البقية الباقية من الأندلسيين في إسبانيا خلال القرنين 17 و18م أن نصوصهم من الكتابات العربية القليلة التي اهتمت بهذا الموضوع، فمعظم الكتابات الحديثة والمعاصرة توجهت أكثر لواقعة الطرد والبحث في واقع الموريسكيين في الشتات في البلاد الأوروبية والإسلامية وآثارهم العلمية والثقافية والاقتصادية في بلاد الشتات إلا أن موضوعا يبحث في واقع الموريسكيين الذين بقوا في إسبانيا بعد الطرد ظل بعيدا عن كتابات المصادر الإسلامية وتزداد أهمية الرحلات المغربية باعتبارهم مصدرا أصيلا حول الموضوع إذ كان احتكاكهم مباشرا بهذه الفئة في المجتمع الإسباني.

ثالثا: المرأة الأوروبية في نصوص الرحلات المغربية

لم يحظ ملمح ولا مكون اجتماعي بذلك الاهتمام الذي نالته صورة المرأة الأوروبية في النصوص الرحلية المغربية، ولا غرابة في ذلك لما تمثله المرأة أولا كآخر للرجل، أو ما تمثله المرأة الأوروبية للآخر المغربي، وعليه رصد الرحالة المغاربة صورة المرأة في أوروبا بكل تماثلاتها وتمظهراتها واقفين عند واقعها، والتي يمكن حصرها في المحاور التالية:

1- جمال المرأة الأوروبية في نصوص الرحالة المغربية (الصورة والموقف)

إن ما نتوقعه في الرحلات المغربية إلى أوروبا هو كسر قيد الرقابة الذاتية والجماعية لعلاقة الرحالة/الرجل بالمرأة، ذلك أن الرحالة وهم بين ظهري الآخر المفارق والمختلف في رؤيته للمرأة وصاحب العلاقة المغايرة بها، سيعمدون إلى تسجيل انطباعاتهم وتوثيق تصوراتهم عن المرأة عبر مختلف تجلياتها، بغير قليل من الحرية والجرأة، ثم إن صورة المرأة في نص الرحلة المغربية إلى أوروبا تتدفق بشكل يفوق في وضوحه وأصالته وقوته وصدقه وأحيانا عنفه الصور التي عرفت لها في حقول أدبية أخرى أو أمكنة وأزمنة مغايرة⁽¹⁾.

وإن أول ما يقف عنده قارئ نص الحجري في تمثله لصورة المرأة الأوروبية هو تلك الصورة التي تعبر عن الاختلاف في تصنيف جمال المرأة بين الثقافات والحضارات البشرية؛ إذ يبدو أن معيار جمال المرأة يختلف بين الجنس البشري، ومن مجتمع إلى آخر، والذي قد تتحكم فيه مجموعة من العوامل الجغرافية والبيئية والاجتماعية، وعلى هذا الأساس كان مقياس الجمال مختلفا بين الأوروبيين ونظرائهم المغاربة، الأمر الذي عبر عنه الحجري وهو يصف جمال المرأة الفرنسية التي التقاها في مدينة بوردو: «...ثم جاءت البنت وقالت لي: أن أصف حال النساء التي هن غاية الحسن والملاحة عندنا (يقصد بالمغرب)، وذكرت لها ما تيسر، قالت: أنتم على حق، وذلك أنها كانت بيضاء بشيء من الحمرة، وشعرها أسود، وشعر الحواجب، وأشعار العين، وكحل العين في غاية، والمرأة عند الفرنج على هذه الحالة مهمولة عندهم في الحسن ويقولون أنها سودا...»⁽²⁾، إذ يبدو الحجري معجبا بجمال الفتاة الفرنسية ومستغربا في الآن نفسه من نظرة الأوروبيين الذين لا يرون فيها ذلك الجمال الذي يراه هو.

وأغرت المرأة الأوروبية بصورتها المكشوفة الرحالة المغاربة، صورة جعلت الحجري لا يتهيب أن ييوح بمشاعره تجاه المرأة الفرنسية التي شغفته حبا، لذا جاء قوله: «وقد كنت أذكر لأصحابي بعض الحكايات فيما وقع للرجال الصلحاء الواقفين على الحدود، لنقويهم على نفوسهم ونفسي على دعاوي النفس والشيطان في شأن المحرمات، لأن بسبب

(1) سليمان القرشي، «صورة المرأة الغربية في الرحلة المغربية إلى أوروبا»، ضمن أعمال ندوة: الرحالة العرب والمسلمين: اكتشاف الآخر-المغرب منطلقا

وموثلا، ط1، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، المغرب، نوفمبر 2003، ص 72.

(2) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق ص 69.

الحريم المكشوف كان الشيطان يوسوسنا كثيرا وكنا صابرين، وكانت البنت تزين نفسها وتسألني: هل في بلادنا من يلبس لباسات الحرير مثلها؟ ثم قالت لي: أعلمك تقرأ بالفرنج، وصرت تلميذا لها، واخذت في إكرام أصحابي، كثرت المحبة بيننا، حتى ابتليت بمحبتها بلية عظيمة...»⁽¹⁾، إن هذه الصورة جعلت الحجري يصدر أحكاما قيمية، إذ وجد نفسه وجها لوجه أمام المرأة الأوروبية المكشوفة، وهو ما لا تقبله ثقافته وبيئته ودينه.

وإن لم يبدِ الغساني اهتماما ذا بال بالمرأة الأوروبية كمشهد جاذب له، إلا أن صورتها لم تغب على وجه الإطلاق عن نص رحلته، فيقول عند وصوله إلى مدينة أطيرة الإسبانية: «...ولقد شاهدت ابنتين إحداها بنت حاكم البلد والأخرى بنت القاضي في غاية الحسن والجمال والكمال، لم تر عيني في جميع ما رأت عيني في بلاد إصبانيا على سعتها أجمل منهما...»، إن أول انطباع رآه الغساني في المرأة الأوروبية هو جمالها وكمالها، لكن هذا الجمال والكمال لا ينسبه للمرأة ذات الأصل الإسباني بل إلى أصولهن الأندلسية، وهو بذلك ينسب كل جميل إلى الذات، سواء الحاضرة أو الماضية فالبتان اللتان رآهما: «...هما من بنات الأندلس، ومن دم ملك غرناطة الذي غلب عليها وهو الملك المعروف عندهم بالري شيك»⁽²⁾.

ويظهر من نصوص الرحلات المغربية أن جمال المرأة الأوروبية جاء على نوعين: منه ما كان جمالا طبيعيا يرتبط بالجانب الخلقى، ومنه ما يظهر من خلال الزينة والأدوات التي تستخدمها المرأة لإظهار مفاستها، الأمر الذي لفت انتباه السفير المغربي الغزال في وصفه للنساء الأوروبيات اللاتي حضرن مجلسه: «فدخلن بعدد كثير نساء وأبكارا، ومن دونهن في السن، الجل في غاية الحسن وقد لبسن ما حسن من الثياب...»، وعما تركته في نفسه من جمالهن يضيف صاحب الرحلة: «...إن هذا المجلس هو بستان، والنسوة التي فيه أصناف النوار وللناس فيما يعشقون مذهب...»⁽³⁾، وفي مدينة خيريز يضيف الغزال: «...وقد استقلت الصقالة التي نحن بها بالنسوة والبنات المقطوع بحسنهن ولبسن من الحلل ما يناسبهن وتقلدن من اليواقيت ما لا يصفه واصف، والحلل المختلفة الألوان...فالناظر للمقاعد المظلة بأنواع الستور على اختلافها في الألوان وتخالف ألوان الحلل التي على النسوة يحسب ما يشاهده من ذلك بطائح من النور مختلفة الألوان»⁽⁴⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 69.

(2) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 59.

(3) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 52.

(4) المصدر نفسه، ص 68-69.

ولقد أفاض ابن عثمان من حيث أفاض بقية الرحالة في تعبيره عن إعجابه بجمال المرأة فيقول واصفا بنات مدينة أسيخة، مبديا إعجابه بجمالهن وتعجبه بأدبهن ولطافتهن: «...وفي نسائهم من الحسن الباهر والمعنى الزهي الزاهر ما اختصهم الله تعالى به دون سائر بلاد الأندلس، حور مقصور عليهن الحور...»⁽¹⁾. ومثل الغساني ينسب المكناسي هذا الجمال للمناطق ذات الأصل الإسلامي، فانحصر كل جميل وكرم وحسن في بقية سكان الأندلس دون سواهم من الإسبان.

وتفاجأ المكناسي من اجتماع مظاهر الزينة مع الأدب الجم في مشهد واحد عند الإسبانيات اللاتي شاهدن السفارة المغربية: «فخرجت فإذا بجمع كثير من النساء قد أظهرن زينتهن وتبرجهن تبرج الجاهلية الأولى، فأظهرن من الفرح والسرور والأدب ما قضينا منه العجب وقابلنهن بما يناسب وانصرفن»⁽²⁾، فحملت الصورة موقفين؛ موقف استنكر فيه السفير المغربي تبرج هؤلاء النسوة، ليتحول للتعبير عن تعجبه وصدمة من فرجهن وأدبهن، فالمكناسي حكم على الشكل المظهري أولا فرفضه، ثم وقف على أدبهن فأعجب به وتعجب منه، كأنه يقول كيف اجتمع هذا السفور والتبرج الذي شبهه بتبرج الجاهلية الأولى بأدبهن الباهر؟!

وكانت الصورة الأكثر إثارة تلك التي رسمها المكناسي للمرأة الأوروبية في وصفه لفتاة مسرح نابولي، في موقف لم يستطع هذا الرحالة كبح جماح إعجابه بجمال المرأة الأوروبية وافتتانه بها، يقول مستعرضا مشاهداته حولها: «...ثم رفع الحجاب وفتح الباب وبرزت فتاة من خدرها تتأبى في حلة بيضاء أحاطت ببدورها، ثم عرجت إلى معارج في الصدر وطلعت فيها بازغة كالبدر، فأشرك من ذلك النفر جمع كبير وكفر...وهذأت الأصوات والقوم أحياء في حيز الأموات، كأنما الطير منهم على الرؤوس، فلا يتكلمون إلا رمزا أو إشارة بحاجب أو غمزا، فإن نقرت آلة تشبه العود أنستك مزامر داود، وإن غنت بلا آلة بفيها أنستك الدنيا بما فيها، تحفة من تحف الزمن، لا هي في الشام ولا في اليمن، لا شيء يعادلها في الدنيا ولا يكافئها، فإن مشيت الهوينا فضحت فيما صنع ردينا، وإن أفترت باسمه كانت للقلوب قاسمة، وإذا نظرت بلحاظها شذرا تركت القلوب متألمة حسرا، فإذا أقبلت قتلت، وإذا ولت استوطنت القلوب وحلت، بعدما أضلت العقول والأحلام وأزلت...»⁽³⁾.

وفي لحظة يخاطب فيها المكناسي قارئ نص رحلته طالبا منه فيها أن يعذره فيما قال في رسمه لصورة هاته الفتاة الإيطالية التي أذهلت لبه وأذهبت عقله: «...ولعل متطلعا يقف على ما رسمنا، فيتعرض ويقول إن هذا الواصف

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 53.

(2) المصدر نفسه، ص 30.

(3) المكناسي، محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 148.

يتشخص الحال ويفترض، أقول مجيباً له حيث لم يكن بنظره هنالك مبصر: ولو أبصروا ليلي أقرأوا بحسنها وقالوا بأني في الشاء مقصر»⁽¹⁾.

وأمام هذا الموقف تجاه جمال المرأة الأوروبية كانت الأحكام الدينية والخلفية الثقافية والاجتماعية سدا حاجزا أمام الرحالة المغربي للقاء هاته المرأة، الأمر الذي حتم على ابن عثمان الانسحاب من المسرح من بعد أن جذبته جمال الفتاة وخاف على نفسه ارتكاب الخطأ: «...فما رأيت أمراً عجبا، واتخذت استرقاق مبصرها مذهباً، طلبت...فخشيت أن أكون ممن جنى بصره على قلبه، فيعاقب البريء بذنب غيره...هممت أن أسر قبل أن نسحر، وأن أروح سليماً قبل أن نكون سُليماً، وأن لا أكون لها كليماً، فأسير بلحاظها كليماً... ثم أزمعت على الانتقال قبل الوقوع في حبال الهوى والاعتقال...»⁽²⁾.

ولم يقف المكناسي عند مشهد ليصفه بتلك الدقة وبذلك الإحساس مثل ذلك الذي كان في شأن مشهد فتاة مسرح نابولي، مشهد استعمل فيها الرحالة المغربي أفضل شعره وأفخم نثره ليعبر عما يعيشه من أحاسيس ومشاعر تجاه ما يرى.

2- العلاقات بين الأفراد في أوروبا المرأة/ والرجل

اكتشف الرحالة المغاربة أثناء إقامتهم بالبلاد الأوروبية أن علاقة المرأة مع محيطها كانت مغايرة تماماً عن ذلك العالم الذي تركوه خلفهم في المغرب والبلاد الإسلامية، علاقة كانت فيها المرأة الأوروبية أكثر انفتاحاً وكشفاً، خاصة في علاقتها مع "الآخر" الرجل.

وظهرت أولى الصور المعبرة عن هذا الواقع الأوروبي، في نص رحلة الحجري مطلع القرن السابع عشر؛ إذ كانت "علاقة المرأة بالرجل" إحدى محاور جدالاته ومضيفيه في فرنسا، فلما كان صاحب الرحلة ناظراً ومنظوراً إليه؛ فقد طرحت جدالات الحجري مقارنات بين مكانة المرأة في مجتمعه "المغربي المسلم" ومجتمع الآخر "الأوروبي النصراني"، جدالات حاول فيها كل طرف معرفة الآخر وتشكيل صورة حوله، وظهرت هنا صورة المرأة الإسلامية والمغربية "المحبة العفيفة" التي لا تكون لها علاقة مع الرجل إلا وفق ضوابط محددة، مقابل صورة المرأة الأوروبية "السافرة" التي تظهر أنها تخلت عن أي ضابط "اجتماعي وديني وقيمي أخلاقي" -على الأقل في تصور الرحالة- قد يكبح أو يضيق مجالات لقاءها مع محيطها الخارجي ومع الرجل بشكل أدق.

(1) المصدر نفسه، ص 149.

(2) المصدر نفسه، ص 148-151.

وتتضح هذه الصورة من خلال الحوار بين الحجري وإحدى نساء مدينة بوردو بفرنسا التي أكثرت من الأسئلة في مواضيع تهم واقع المرأة المغربية المسلمة، وهكذا سألتها عن الحجاب وتعدد الزوجات في الإسلام، ثم عن العشق والزواج، «... قالت: والنساء عندكم محجوبات؟ قلت لها: نعم، قالت: وكيف يكون العشق عند البنات ومن ينكحهن؟ قلت لها: لن يراها أحد ممن يخطبها حتى تكون له زوجة، ومعنى قولها وسؤالها عن العشق قد تقررت العادة ببلاد الفرنج والفلمنك أن كل من يريد أن يتزوج بنتا فهو له مباح من قربتها أن يزورها وينفرد بها للكلام لتحصل المحبة بينهما، فإذا ظهر له أن يخطبها، وللبنت أيضا، حينئذ يقع الكلام عن النكاح، وإذا ظهر غير ذلك فلا يلزمه شيء فيما فات من مخالطتها، وقد يكون للبت غير واحد يزورها على الوجه المذكور».

ويعبر الحجري بغرابة أن تكون هذه العلاقة بين الرجل والمرأة قبل أن تكون زوجته كما هو الشأن في أوروبا، حتى أنه جاهد نفسه والشیطان، رافضا أن يسير على مسرى الأوروبيين في علاقتهم مع المرأة، لذا أورد هذا الحوار الذي جرى بينه وبين صاحبه بعد ما بدا من مشاعر الحب بينه وبين المرأة الباريسية: «...العادة الجارية في هذه البلاد أن الرجل يمد للبت ويلعبها، وليس بعيد عند أحد من هذا الناس، وهي تقف أمامك مرارا قريبا منك تنتظر أن تلاعبها، وأنت لا تفرحها ولا تشرحها، قلت في نفسي هذا أقوى من الشيطان، قلت يا صاحبي هذا عندنا في ديننا أمر بالمنع من ذلك...» فالحجري رأى أن ما بدر منه من مشاعر تجاه المرأة الفرنسية ذنبا أوجب منه التوبة والاستغفار لينهي ذلك بالدعاء: «...واستغفر الله من الكلام الذي صدر مني إليها والنظر...»⁽¹⁾، إذ شكل الدين حاجزا بين الحجري وتلك المرأة.

ليرد بعدها الحجري مستقبحا عادات الأوروبيين في التعارف خارج إطار شرعي ضابط وهو الزواج، مستنكرا المخالطة واللقاء بين الجنسين، في أسلوب مفاضلة رجح فيه طهر الدين والمجتمع الإسلامي من مثل هذه المظاهر، لذا: «وجب للمسلم أن يشكر الله على دين الإسلام ونعمته وصفائه...»⁽²⁾.

وصدم رحالتنا المغاربة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بالمرأة الأوروبية حاضرة في جميع الفضاءات العامة والخاصة تجالس الرجال وتمازجهن وتخالطهن، ويظهر ذلك من خلال تواجدها في الاستقبالات الشعبية المرافقة لوصول الوفود السفارية المغربية، وحضورها في المسارح والمنتزهات في العريات وفي الشوارع وفي الأسواق.

(1) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، ص 70-71.

(2) المصدر نفسه، ص 72-73.

وأكثر ما أثار استغراب الرحالة المغاربة في تسجيلهم للعلاقات بين الرجال والنساء في أوروبا هي المعاملة التي يعامل بها الرجل الأوروبي المرأة هناك؛ إذ بدت الدهشة على أحمد الغزال لما رأى النساء الأوروبيات على شرفات المنازل، مستغريا من "أدب رجالهن معهن" وذلك ما يبدو في قوله: «ونسأؤهم ملازمات للشراحيب يسلمن على الذهاب والآيب ورجالهن في غاية الأدب معهن»⁽¹⁾، في مشهد بدا فيه أن السفير المغربي استحضر فيه صورة مجتمعه المغربي معاكسة تماما لما اكتشفه بإسبانيا.

ومن المشاهد التي لم يستوعبها الرحالة المغاربة هو رؤية الرجل الأوروبي يُسر ويفرح إذا أمتدحت زوجته أو ابنته وغيرها إذا أثني على طريقة رقصها أو كلامها حتى مع الرجل الأجنبي بالنسبة لها بالنظرة المغربية، وهو ما عبّر عنه الغزال بقول: «وجعل كل يعرف بزوجه وبنته، القاضي والحاكم فما دونهما، وقال القاضي: أية امرأة في النسوة الحاضرات ترضيك ومن فيهن أحسن وأجمل من الأخرى؟ وقصده المباشطة والمداعبة...وجل الأزواج كل واحد يعرف بامرأته وبنته وأخته إن كانت، ولا يكمل فرحه إلا إذا استحسنت زوجته أو بنته»⁽²⁾، «ومازال من حضر من أعيانهم يحدث عن محاسن زوجته، ويلزم الترجمان أن يبلغ ذلك إلينا، لنجيبه بما يقصه عليها من استحساننا، ولهم بذلك اهتمام وولوع يفتخر بعضه على بعض لذلك»⁽³⁾، ولا بد أن الغزال كان ينقل الصورة بذهنية المغربي المسلم المحافظ اجتماعيا، لذا نراه متعجبا لا مستنكرا أو ناقدا.

ويبدو أن الصورة النمطية المسبقة عن علاقة الرجال بالنساء في أوروبا كانت غائبة عن الرحالة المغاربة في هذه الفترة، لذا كان تصور الغزال أن تواجد المرأة في محيطها الخارجي ولقائها مع الرجل هو تعبير عن حياة أراذل القوم هناك وعامتهم، ليتفاجأ أن مثل هذه اللقاءات لا تخص فئة دون أخرى أو طبقة دون أخرى، بل هي صفة يشترك فيها أدنى القوم بعليتهم، فإن تفتن الغزال أن المخالطة بين الجنسين مما هو مباح عند الإسبان، فإنه استغرب أن تأتي من علية القوم من ساسة وقضاة وقادة وحكام لهم شأن في بلدهم، لذا نراه يتعجب لما استقبل في مدينة "مدينة" من أحد قواد الملك الإسباني، الذي يصفه صاحب الرحلة بالعقل والدهاء، فكيف لهذا أن يفعل مثل بقية العامة من المخالطة؟ يقول في ذلك: «...وصاحب الطاغية الذي ظننا أنه صاحب عقل وتميز ومختار عند عظيمه واقف على أن يجلس كل واحدة من النسوة والبنات بالموضع المناسب لها... فلم نلبث إلا وهو آخذ بيد شابة من حسائهن،

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص52

(2) المصدر نفسه، ص56.

(3) المصدر نفسه، ص 71.

وجعل يرقص معها فتعجبنا من فعله مع ما ظهر لنا من ثباته ودهائه، وأنه مبعوث من طاغيته لأصحاب سلطان الإسلام يجب عليه أن يفعل ما تطول به رقبة مرسله إلى غيره كل من الأمور الواجبة عليه مراعاتها قولاً وفعلًا».

والظاهر أن الغزال قاس الأمر بمقياسه و نظر إليه بعينه كسفير ممثل لسلطان الإسلام يجب أن يظهر هيبة ومكانة صاحبة وهكذا كان على عامل الملك الإسباني أن يفعل، إلى أن: «كشف الغيب أن الرقص عندهم من كمال المروءة وأداء الواجب عليهم في إكرام الضيوف من ذوي الأقدار»⁽¹⁾.

وفي اشبيلية استثقل الغزال المرور بأحد منتزهاتها لما رآه فيها من مخالطة بين الجنسين، يقول: «فلم نشعر إلا ونحن ببلاصة ذات أشجار عديدة طويلة جدا خارجة عن المدينة قريبة من سورها... فإذا بالموضع محل مستراحهم، ومن أعظم منتزهاتهم، وبه يجتمع كل أنيس بأنيسه وحبيب بحبيبه من الذكور والإناث في كل عشية... وقد استثقلنا العبور في ذلك الجمع ومزاحمة القوم، فإذا بالقاضي في كدش مصاحب لزوجته وغيرها ممن رغب في مؤانسته من النسوة، فتحققنا أن ذلك عندهم لا حرج فيه ولا منقصة، وقصد ولد الحاكم بالمرور من هناك نزهة لنا وفرجة، وقد كان طلب منا مصاحبته لذا المحل فاعتذرنا له بتلطف...»⁽²⁾، ولا بد أن حالات الاختلاط المشاهدة من الغزال هي التي أثرت في موقفه من المنتزهات، إلا أن السفير المغربي لا يلبث أن يدرك أن ذلك ليس بمعيب في المجتمعات الأوروبية، وذلك لما رأى عليه القوم يمارسون ما يمارسه عامتهم.

إن عوائد الفصل بين الرجال والنساء التي خلفها الرحالة المغربي وراءه قد استبيحت بقوة، كما انتهكت كل الحدود الفاصلة بين عالمي الرجال والنساء، فالعلاقات بين الطرفين بدت غريبة ومثيرة، بل إنها بدت أحيانا مستفزة ومستنكرة، فالعلاقة بين الأزواج التي كانت في مغرب الرحالة قائمة على أسس مضبوطة ومحددة، أصبحت خلال مدة قصيرة لا تتجاوز زمن الرحلة علاقة من نوع مغاير تماما، علاقة بدت في نصوص الرحلات المغربية إلى أوروبا مختلفة وغير صحيحة.

لذا حكم هؤلاء الرحالة على ما يشاهدونه في أوروبا بمنظورهم المغربي فأروا في هذه العلاقة بعدم الغيرة وأنها تعبير عن مظاهر الفسق والزنى، فلما شكلت الطقوس الدينية النصرانية ميدانا آخر للقاء المرأة مع الرجل "الغريب والأجنبي" إذا نظرنا بعين الرحالة الفقهية وخلفيته الثقافية والاجتماعية، نقف عند استنكار واستهجان كل من الغساني وابن عثمان انفراد رجال الدين من الرهبان والقسيس بالمرأة النصرانية في البلاد المرتحل إليها أثناء طقوس "الاعتراف

(1) المصدر نفسه، ص 62-63.

(2) المصدر نفسه، ص 85-86.

بالذنب"، وفي ذلك يقول الغساني: «...وإذا دخل زوجها ووجدها مع الفريالي وقد خلا بها لا يقدر الزوج على الولوج عليها ولا يمكنه إزعاجهما ما لم يقضيا الشأن الذي دخلا إليه...مع ما أودع في هذه الأجناس من قلة الغيرة على المحارم لدخول الرجل على النساء الغير من غير حضور الزوج أو مع حضوره»⁽¹⁾، فرغم أن السياق الذي جاء فيه هذا النص يندرج في تأكيد فساد الكنيسة وأتباعها من قبل الغساني في نشر هكذا ممارسات؛ إلا أننا نراه يستنكر حالة الاختلاط أو الخلوة بين المرأة والرجل الغريب عنها، بل ذهبنا بعيدا في ذلك واصفين الرجل الذي يقبل ذلك لزوجه أو ابنته أو أخته بعدم الغيرة.

وتوقف الغزال عند هامش الحرية الذي تتمتع به المرأة الأوروبية في علاقاتها مع الرجل "الآخر" الأجنبي بالنسبة لها: «وللنساء رغبة وغبطة في الحديث والمنادمة من غير أزواجهن في الجماعة والخلوة، ولا حجر عليهن في ذهابهن حيث شئن، وقد يأتي نصراني داره فيجد امرأته أو ابنته أو أخته مع نصراني غيره أجنبي يشربون وبعضهم متكئ على بعض، فيشرح لذلك، ويرد الجميل للنصراني المنادم لزوجه أو غيرها من محارمه على ما قيل، والذي يؤيد ذلك ما شاهدناه من أعيانهم حيثما حللنا ببلادهم من استيذائهم لدخول نسائهم علينا بقصد السلام، فذلك عندهم من الأمر الأكيد المحتم، فلم يسعنا إلا الإيجاب...»⁽²⁾.

وهنا تظهر بوضوح الغيرة والاختلاف في القيم الأخلاقية والمجتمعية بين المجتمع الإسلامي ونظيره الأوروبي، ربما في لحظة استحضر فيها الغزال رد فعل رجل مغربي تجاه موقف مماثل مع امرأته أو ابنته، ما يثبت أن الرحالة المغاربة قد قاسوا هذه الصور في لحظة الصدمة الأولى بمقياس قيمهم وأخلاقهم وخلفياتهم الدينية والثقافية والاجتماعية، قبل أن يكتشفوا بعد تكرار الموقف وجلاء الصورة، أن المخالطة واللقاء بين الجنسين جائز ومحتم في المجتمعات الأوروبية

وبعد اكتشافه أن هذه العلاقة بين الرجل والمرأة ووجود هذه الأخيرة في المجالس العامة والخاصة وفي كل مرفق كان بالمدن الأوروبية، وإقراره أن ذلك غير معيب في هكذا مجتمعات، وأنها دليل على الاختلاف والغيرة الأخلاقية والقيمية للأفعال بين المجتمع المغربي المسلم والمجتمع الأوروبي النصراني، إلا أن الغزال لا يلبث أن يرى في هذه الصورة تعبيرا عن تلوث وتشوه أخلاقي واجتماعي وديني، شاكرًا الله ومستعيذا به عز وجل على صفاء مجتمعه ودينه منه:

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 142.

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 52.

«ولما انفصل الجمع ورجعنا لموضعنا، ونحن نستعيد بالله مما عليه هؤلاء الكفرة من عدم الغيرة وتوغلهم في الكفر، نسأل الله سبحانه ألا يؤاخذنا بما اقترناه من مخاطبتنا إياهم بما أوجبه الوقت وتعين الحال»⁽¹⁾.

وفي موضع آخر بعد أن حضر وشاهد الغزال إحدى حفلات الاستقبال والرقص التي اختلط فيها الرجال بالنساء ووصف فيها طريقة التحية واللباس والزينة وأطرب بغناء الحسناوات ينهي هذا المشهد بقوله: «...ونحن نحمد الله على نظافة ديننا وطهارته»⁽²⁾.

ولا ينفك المكناسي يكرر نفس الصورة والموقف وهذه المرة في الاحتفالات: «...فتجد الرجل جالسا وامرأته أو ابنته ترقص مع أجنبي ويناجي بعضهم بعضا خفاء ولا حياء وكلام الناظرين يذهب جفاء ولا يبالي أحد بذلك مع ما هو معلوم فيهم وشائع في بلادهم الفسق والزنى، ويعرف ذلك بعضهم في بعض، ومع ذلك فلا يباليون بشيء فقد جبلوا على عدم الغيرة قبحهم الله وطهر منهم البلاد...»⁽³⁾، فالمكناسي يرى في عادات الاختلاط مظهر من مظاهر الفسق والزنى.

وبعيدا عن الإعجاب الذي أبداه الرحالة المغاربة بصورة المرأة الأوروبية وجمالها وزينتها وأدبها وتلطفها نجد أن هذه العلاقة تحولت في كثير من النصوص إلى علاقة نفور واشتمزاز، أو مواقف تنديد واستنكار، يقول المكناسي بعد حضوره اجتماعا للفرجة في "مجلس الأكابر" بنابولي اختلطت فيه النساء بالرجال: «...وأخذوا في نقر الأوتار، وخلع العذار، ووصف كؤوس العقار، وأطرحوا الحشمة والوقار، نساء وولدانا، اتخذناهن أحيانا، والولدان قد خصوا لتبقى أصواتهم عند الغناء رقيقة، مستحسنة أنيقة، تشاكل أصوات النسوان في كل أوان، وهم يمكنون أنفسهم من الخصي باختيارهم لاحتياجهم وافتقارهم، فيتوصلون بالغناء إلى الغنى...وقد قيل إن النساء يملن إلى هؤلاء الأخصياء بسبب التهمة التي بعدت، والأمن من ظهور حمل مع بلوغها ما أضمرت ووجدت-قبحهم الله وقبح حالهم وقلل أمثالهم...ورأينا ما هم عليه من عدم الغيرة، وجنود إبليس بما تريد عليهم مغيرة، جمعتهم رجالا ونساء، كبيرة وصغيرة، قد شربوا وطربوا فرفعوا العقيرة، كأنهم تيوس في الحظيرة، فلما رأيت القوم قد خبثت أنفاسهم بما انطوت عليه منهم السرية...وأزعمت تحولا عنهم ورحيلا، وتركتهم والشيطان قد أوثقهم باشيطان...»⁽⁴⁾.

وفي نهاية نص رحلته "الإكسیر" اعتبر ابن عثمان هذا الاختلاط من أعمال الشيطان: «...فإذا بتلك الدار كل من له بال وشأن منهم حتى امتلأت الدار نساء ورجالا ونالوا الجميع ما ذكر وأدخلوا أصحاب الموسيقى وأخذوا في

(1) المصدر نفسه، ص 71.

(2) المصدر نفسه، ص 57.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسیر، مصدر سابق، ص 161.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 143-144.

استعمالها وغنين الفتيات من الضامات بأصوات حسان ورقة ألحان، فقلت لهم قد لحقنا تعب اليوم، وأنتم مخيرون في تميم عملكم، أو انصرف إلى منازلكم، فقالوا قد اخترنا الأمر الأول، وعليه المعول، فتركتهم مختلطين نساء ورجالا، وأبو مرة لا يألوهم خبالا»⁽¹⁾. فيما فضل السفير الانسحاب من هذا المجلس.

وعلق ابن عثمان عن مظاهر الاختلاط التي رآها في صقلية بمناسبة عيد ميلاد حاكمها بأسلوب ساخر: «...ولا ناهي ولا ناكِر، علمت أنها ليلة مناكِر، فشمرت للمسير في بقية الليل قبل أن يشمر قوم آخرين الذيل وتركتهن نساء ورجالا مختلطين، وما أدري ما يفعل بعدي، أظنهم يصبحون كالكلاب مرتبطين»⁽²⁾.

وعليه فقد تباينت ردود فعل المغاربة قبيل وأثناء وبعد مشاهدتهم وحضورهم صور معبرة عن لقاء الجنسين الرجل والمرأة في أوروبا، فبعد التردد في ذلك واضعين تبريرات متعددة، إلى قبول حضور المناسبات التي تظهر فيها المرأة، مبررين ذلك بالمسايرة والمدارة الدبلوماسية التي تفرض على الضيف مدارة مضيفه في عاداته، ولما كانت رغبة هؤلاء الرحالة في اكتشاف كل غريب في البلد المرتحل إليه فقد كان حضور المرأة في هذه المجتمعات المزاراة أحد أهم مظاهر الغريب هناك، لذا راحوا يصفون بدقة نصاهية حضورها وتحركاتها وعلاقتها مع الرجل هناك، قبل أن يعودوا لإنكار هذه الصورة الدخيلة عنهم والمنافية لشرائع دينهم وتقاليدهم مجتمعاتهم.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 184.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 252-253.

3- واقع المرأة الأوروبية في نصوص الرحلات المغربية:

وكذلك رصدت نصوص الرحلات المغربية مشاهد كثيرة معبرة عن واقع المرأة الأوروبية في مختلف المجالات جاءت كما يلي:

- المرأة الأوروبية في المجال السياسي

ظهرت في نصوص الرحالة المغاربة صورة مميزة لمشاركة المرأة وتأثيرها في الواقع السياسي في أوروبا طيلة العصر الحديث، إذ كان حضور هذه الصورة في نصوص رحالتنا المغاربة لافتا ومتباينا من حيث الاهتمام، إذ حظيت المرأة النبيلة بالخصوص في كثير من المجتمعات الأوروبية التي زارها الرحالة بمكانة رفيعة مما مكنها من أن تقوم بدور في إدارة شؤون الدولة أو المشاركة فيها، فرغم أن زيارة الحجري إلى فرنسا كانت على زمن وصاية الملكة ماري دي ميديشي (Marie de Médicis)⁽¹⁾ على ابنها الملك لويس الثالث عشر (Louis XIII)⁽²⁾ الذي كان صغيرا، إلا أن السفير المغربي مرّ على ذكرها مرورا سريعا⁽³⁾.

لكن حضور المرأة في هرم المشهد السياسي الأوروبي ظهر بشكل أكبر في نص رحلة الغساني، ففي سياق سرده للتاريخ السياسي الإسباني منذ نهاية القرن الخامس عشر إلى زمنه (نهاية القرن السابع عشر) لاحظ السفير المغربي حضورا قويا للمرأة في المجال السياسي، خاصة في الفترات المفصلية في تاريخ إسبانيا، إذ بلغت المرأة أعلى المراتب السياسية، ولا يمكن الحديث عن دور المرأة السياسي في أوروبا دون ذكر الملكة إيزابيل الكاثوليكية التي آلت لها الإمارة وقيادة الجيش وغير ذلك بعد وفاة زوجها فردناند الكاثوليكي: «...فملكته بعده زوجه زابيل، وهي ابنة ملك راغون...وأقامت في ملكها سنين وكانت تخرج وتدخل وتركب الفرس وتركض وتتصرف تصرف الرجال»⁽⁴⁾.

(1) ماري دي ميديشي: (26) Marie de Médicis أبريل 1575م-03 يوليو 1642م) ولدت في فلورنسا بإيطاليا، وماتت في كولونيا، ملكة فرنسا بعد زواجها من هنري الرابع (Henri IV) سنة 1600م، تولت مسؤولية وصاية العرش على ابنها لويس الثالث عشر بعد وفاة زوجها سنة 1610م، غير أنها دخلت في صراع مع ابنها مما اضطره إلى إقصائها عن الحكم وشؤون الدولة بعد سنة 1617، فهربت إلى هولندا سنة 1630م، وماتت في منفاه، أنظر:

SAUPIN Guy, **La France à l'époque moderne**, Armand Colin, Paris, 2004, p.281

(2) لويس الثالث عشر (Louis XIII): هو أكبر أبناء هنري الرابع ملك فرنسا (1589-1610م) وماري دي ميديشي، كان وريثا للعرش الفرنسي بعد مقتل والده، لتتولى أمه الوصاية عنه على العرش، وعند بلوغه سن الخامسة عشر استلم السلطة الفعلية، ليصبح فيما بعد واحد من الأمثلة المتعدد على الحكم المطلق، أنظر: نور الدين حاطوم، **تاريخ القرن السابع عشر في أوروبا**، دار الفكر، دمشق، 1986، ص36.

(3) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، **ناصر الدين على القوم الكافرين**، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص104.

(4) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 90-91.

وتعود المرأة الأوروبية لتلعب دورها في إحدى أشد مراحل إسبانيا مفصلية سياسيا، فعاد الغساني في القرن السابع عشر للحديث الدور الذي تلعبه "والدة الملك" في السياسة الإسبانية، إذ وقف عند تولي "الملكة ماريا دي أوسطوريا" زمام الحكم كوصية لابنها كارلوس الثاني بعد موت زوجها فيليب الرابع: «...وحين مات فلب كوارط وترك ولده ملك أمه»⁽¹⁾.

هذا ومنحت الأعراف والقوانين الأوروبية المرأة حقوق ومسؤوليات سياسية معتبرة، إذ حولت لها أن ترث العرش وفق شروط معينة، مثلا: «على طريقة قوانينهم ومذاهبهم في وراثة الملك للمرأة إذ لم يكن ذكر»⁽²⁾، وقدم الغساني عدة أمثلة على ذلك، مثل ما كان الأمر عليه في حالة والدة الملك الإسباني شارل الخامس وابنة إيزابيلا خوانا⁽³⁾، التي ورثت عرش إسبانيا بعد وفاة الملك يقول: «...وكان لزابيل هذه ابنة تسمى كوانا زوجتها من قند فلانص...ولما ماتت الملكة زابيل وكانت ابنتها من الملك فرناند متزوجة في فلاننص بعثوا إليها لترث ملك سلفها...»⁽⁴⁾.

بينما حمل نص ابن عثمان المكناسي في القرن الثامن عشر فقرات تحمل بين ثناياه ملامح من النفوذ السياسي الكبير الذي تمتعت به "ماريا كارولينا"⁽⁵⁾ زوجة حاكم نابولي في إدارة شؤون الحكم هناك، يقول عن استقبالها إياه: «...وقال: إن الطاغية متأهب لملاقاتك وكذلك زوجته مُسَلِّمة عليك، وهي أيضا في انتظارك بعد ملاقاتك مع زوجها، وإن كان ليست العادة ملاقاتها...»⁽⁶⁾، ولم يكن حضورها مجرد الحضور الشكلي في المشهد السياسي بنابولي، بل جاوزته للمشاركة الفعلية فيه، وأشار ابن عثمان لتدخلها في الأمور السياسية بقوله: «...ثم قيل: إن الملكة في انتظارك...فلما دنونا منها قالت: مرحبا بك وبقدومك، وقد طال انتظارنا إليك، وكل ما يصعب عليك من أمورك عند الطاغية نقف لك في قضائه...»، وبعد لقائه بها استبشر السفير المغربي قضاء ما جاء من أجله إلى نابولي وأنشد قائلا: ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزا مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا⁽⁷⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 102.

(2) المصدر نفسه، ص 97.

(3) الملكة خوانا وتعرف بالحمقاء (Juana La Loca) ملكة قشتالة ابنة فرناندو وإيزابيلا، ووالدة كارلوس الخامس، نودي بها ملكة على قشتالة سنة 1504م، أصابها الجنون بسبب مصابها بوفاة زوجها فيليب الجميل أرشيدوق النمسا.

(4) المصدر نفسه، ص 93.

(5) هي ماريا كارولينا (1752-1814) (Maria Carolina) ابنة ماريا تيريزا، تزوجت من فرناندو الرابع وأصبحت ملكة لنابولي وصقلية، اشتهرت بالدور الكبير الذي لعبته في تسيير شؤون المملكة. أنظر: محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 133.

(6) المصدر نفسه، ص 133.

(7) المصدر نفسه، ص 134-135.

ولفت ظهور المرأة النبيلة كورقة سياسية واستراتيجية بين الدول من خلال الزيجات والمصاهرات السياسية التي كانت تقام بين مختلف الدول الأوروبية انتباه الرحالة المغاربة، فكانت تساهم في تحسين العلاقات أحيانا⁽¹⁾، أو في توتيرها أحيانا أخرى في حالة عدم وجود توافق على المصاهرة يقول الغساني⁽²⁾، ولعل من أبرز القضايا المتعلقة بتدخل المرأة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في انتقال الملك التي لاقت اهتمام رحالتنا هو قضية وراثة العرش الإسباني وما تسببت فيه من نزاعات وحروب، وقد سجل الغساني ذلك بكل دقة في قوله: «...ومن أجل ميراث النساء على هذه الصورة صار هذا الجنس الاصبنيولي يتوقعون تولية الفرنسيين عليهم...»⁽³⁾.

ومما يمكن إضافته عن مكانة المرأة السياسية في أوروبا هو تلك المشاهدات التي تكررت في نصوص الرحالة المغاربة في كل البلاد التي زاروها من تعظيم الأوروبيين لنسائهم وفق ما تفرضه عليهم تقاليدهم وأعرافهم، وعلى هذا الأساس وقف الرحالة المغاربة مطولا عند حضور المرأة جنبا إلى جنب مع الرجل في المجالس السياسية في أوروبا، وحتى المهمة منها؛ فيقول الغساني عندما أُستقبل من قبل الملك الإسباني: «...وعن يمين الوزير المذكور زوجة الطاغية ومعها الضامات⁽⁴⁾ وبنات الأكابر عدد كثير...»⁽⁵⁾.

وإن لم تُظهر إلا مشاركة بروتوكولية إلا أنه تؤكد عن مكانة المرأة النبيلة في المشهد السياسي الأوروبي⁽⁶⁾. ولا شك أن هذه الصور جميعا متعلقة بفئة واحدة من النساء وهن نساء الطبقة العليا في المجتمعات الأوروبية أو طبقة الأعيان، لذا جاء قول الغزال: «...ودخل علينا النسوة والبنات ما يقرب المائة، وقد أخذن نصيبهن من الحسن، وفيما يغلب على الظن أنهن منتخبات من بنات المدينة منهن زوجة الحاكم وغيرها من الأعيان...»⁽⁷⁾.

- المرأة الأوروبية في المجال الاقتصادي

كما أنتجت النصوص الرحلية المغربية على امتداد قرنين من الزمن ظهور صور للمرأة الأوروبية العاملة في المجال الاقتصادي، ووجودها إلى جانب الرجل في المجال العام، ولم تفت الرحالة الإشادة بمهارة النساء وحذقهن في العمل

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 93.

(2) المصدر نفسه، ص 88.

(3) المصدر نفسه، ص 131، محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 89-95.

(4) يقصد السيدات، وهو جمع على الصيغة الإسبانية لكلمة سيدة: (Dama).

(5) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 89، 152.

(6) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 96-97.

(7) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 62.

وعدم تكاسلهن أو ترددهن في الكسب⁽¹⁾، وإن اختفت ارتسامات هذه الصورة عن رحلة الحجري، فإنها لم تغب عن نصوص من تولده، إلا أن حضورها في نصوصهم كان عبر إشارات سريعة وقليلة، وإن كانت الصور المسجلة تعبر غالباً عن طبقة واحدة من النساء هن نساء العامة أو الطبقات السفلى من المجتمع الأوروبي عموماً والإسباني خصوصاً، كما أن مجالات العمل التي اقتحمتها كانت نصوغة، فالحقيقة إن المواضيع التي ذكرت في نصوصهم حول اشتغال المرأة سواء في التجارة والحرف والصنائع وغيرها كثيرة جداً، فلا يكاد يذكر أي عمل اقتصادي إلا ذكر فيه وجود المرأة، حتى أن القارئ يحس وهو يقرأ رحلات المغاربة أن النساء هن عصب الاقتصاد الأوروبي أو الإسباني، ونحن نعتقد أن كثرة تكرار هؤلاء الرحالة لعمل المرأة الأوروبية هو غرابته عليهم.

أما في قطاع التجارة فذكر الغساني في مدريد: «...وجل ما يؤكل منه (يريد الخبز) في مدريد يأتي من القرى التي بخارجها يجلبه النساء فيأتين به راكبات على الدواب ويقفن في الأسواق لبيعه على ظهور الدواب، والبعض منهن يقصدن الديار بتبليغهن إليها الخبز على قدر ما تستحقه الدار...»⁽²⁾ ويضيف الغساني عمل نساء مدينة قرطبة: «...ولما أن دخلنا المدينة رأيناها مدينة كبيرة عامرة مشحونة بأنواع الحرف والصنائع وأكثر باعته نساء...»⁽³⁾، وتكررت هذه الصيغ والتعبيرات في رحلات الغزال والمكناسي في القرن الثامن عشر وتصدرت المرأة مجال التجارة وفي وصفه مدينة مدريد: «...وأسواقها عامرة مشحونة بأهل الحرف والصنائع والتجارة والبضائع وجل باعته النساء...»⁽⁴⁾، وتكرر هذا الوصف وبنفس الصيغ في كثير من المدن التي يمرون عليها⁽⁵⁾.

والظاهر أن شيوع امتهان المرأة الأوروبية للتجارة لم يقتصر على بلدان أوروبا الغربية فقط، بل حتى إلى بلاد الشمال: «...فقد زعموا أن نساء الفلامنك يمررن على الجليلد بأن يجعلن لنعالهن صفائح من حديد ويقصدن بلاداً بعيدة صبيحة النهار بقصد السبب والبيع والشراء ومن المساء يرجعن إلى مقرهن»⁽⁶⁾.

وامتد مشاركة المرأة المجال الاقتصادي وهذه المرة باشتغالها في الأعمال اليدوية من صناعة حرير وحرف إلا أن حضور هذه الصورة كان عبر إشارات سريعة على قلتها، أما الغزال فيصف عمل نساء شقوبية: «...وجل نساء

(1) مليكة نجيب، المرأة في الرحلة السفارية المغربية خلال القرنين 18 و19، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار السويدي للنشر والتوزيع والإعلان، أبو ظبي، 2013، ص 222.

(2) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 108.

(3) المصدر نفسه، ص 65.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 83، أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 155.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 161.

(6) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 106.

المدينة يستعملن غزل الصوف وبطرف المدينة بلاطات عديدة ينسجون بها الملف...»⁽¹⁾، وهو يوافق قول المكناسي عن نساء هذه المدينة: «وأهل شقوبية القديمة أهل تقشف، والغالب عليهم أنهم أهل حرف ونسائهم يستعملن الغزل كثيرا»⁽²⁾.

بالإضافة إلى عمل المرأة الأوروبية في مجال التجارة والحرف، نراها قد اقتحمت أيضا مجال الخدمات جنبا إلى جنب مع الرجل، خاصة في الفنادق ودور النزل الخاصة بالمسافرين يقول في ذلك الغساني: «... فإن أراد الخروج من الفندق أو الدار المعدة لذلك تأتيه زوجة الموكل بالموضع أو ابنته بزمام في يدها وقد حسبت ما صيرته عليه من ثمن الطعام والعلف وكراء المسكن والفراش فلا يمكنه إلا إعطاء جميع ما تحسبه عليه من غير مناقشة...»⁽³⁾، ونرى المرأة عاملة في المطاعم والأسواق وبائعات متجولات وغيرها من الأعمال⁽⁴⁾، وبنفس الصفة تواصل عمل المرأة الأوروبية في هذا المجال كما بينته نصوص رحالة القرن الثامن⁽⁵⁾.

ومع ظهور المصانع الكبرى في إسبانيا خلال القرن الثامن عشر توجهت المرأة للعمل في مصانع إسبانيا الحديثة⁽⁶⁾، وفي نابولي شاهد المكناسي عمل النساء في مصنع الورق⁽⁷⁾.

أما ابن عثمان المكناسي فتطرق للتوجه الاقتصادي للنساء المترهبات: «...ولهن صنائع فائقات من الرقم والنسج، وصناعة النوار المستعمل من الكاغد والكتان الذي لا يشك فيه أنه نوار، وأما صناعة الحلوي على اختلاف الأنواع فشيء انفردن به...»⁽⁸⁾، وقوله: «وأرونا مواضع نسج الحرير...ومن غريب ضبط هؤلاء الكفرة وتبصرهم بأمور دنياهم أن جمعوا في هذه الدار من الصبيان اليتامى والأرامل عدد كثيرا، وكلهم هناك بقصد أن يتعلموا الصنعة... والطاغية ينفق عليهم... إلى أن يتعلموا من الصنعة ما يقوم بمعاشرهم...»⁽⁹⁾، وقد تكرر ذكر مثل هذه الإشارات كثيرا في رحلته⁽¹⁰⁾، فرغم أن هذا النص يظهر ربما اهتمام النظم الأوروبية آنذاك بإدماج شرائح ضعيفة من المجتمع مثل

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق ص 144.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 128.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 78.

(4) المصدر نفسه، ص 108-109.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 33، 75.

(6) المصدر نفسه، ص 131.

(7) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 158.

(8) المصدر نفسه، ص 164.

(9) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 147.

(10) المصدر نفسه، ص 147، ص 131، ص 128، محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 207، ص 212، ص 244.

الفتيات اليتيمات والأرامل وذوي الاحتياجات الخاصة اللاقي كانت الأديرة والكنائس ملاذاً لهم، عبر تحمل تكوينهم وتعليمهم لضمان طرق الكسب وإيجاد مكانة بالمجتمع⁽¹⁾، ولا شك أن توجه الراهبات لتعلم حرف معينة يعود أساساً للحياة التي يعيشونها، لأنه لا منفق عليهن سوى أنفسهن أو من الصدقات التي تمنح لهن.

ربما كان عمل المرأة في أوروبا من الغرائب التي لاحظها الرحالة المغاربة الذين توجهوا إليها، لهذا نجد حاضرة في كل الرحلات تقريباً على مدى ثلاثة قرون، ورغم ذلك إلا أننا لا نجد قدحاً أو شتماً أو استهزاءً، ولا حتى استحساناً أو قبولاً لتلك الصورة، فالرحالة هنا نقلوا المشهد على غرابته بالنسبة إليهم ولبيئتهم التي أتوا منها الدينية والاجتماعية والخلفية الثقافية، ونقول مجدداً أن الرحالة اصطدموا أولاً بمخالطة المرأة الأوروبية للرجل في كل شيء وكل ميدان تقريباً، وكان ذلك في بداية رحلاتهم، لذا كان رد فعلهم تجاه عملها عادياً لا استحسان فيه ولا استقباح.

- المرأة الأوروبية في المجال الديني

لعل من أكثر الصور التي ركز عليها الرحالة المغاربة ونالت اهتمامهم بخصوص المرأة الأوروبية، هو ارتباط هذه الأخيرة وحضورها بالمجال الديني الأوروبي، وتظهر أولى صور هذا الحضور في رحلة الحجري من خلال السجلات الدينية مع مضيفيه في هولندا وفرنسا، وهي السجلات التي عبرت فيها المرأة عن معرفتها ودرايتها بدينها ومحاورها دين الآخر، وربما الأمر من مأتاه لا يستغرب خاصة إذا علمنا أن العصر الذي جاءت فيه رحلة الحجري هو عصر صراع وجدال ديني استقطب بلا شك مختلف فئات ومكونات المجتمع ومنها المرأة طبعاً، وهذا ما أظهرته إحدى سيدات مدينة بوردو بفرنسا اللاقي حاورهن تبدو من: «...حال لباسها أنها من الأكابر»⁽²⁾، وهي تتمتع بتعليم ديني: «...فنظرت إليها، ورأيت تحت إبطها كتاباً كما هي عادة بنات التجار والأكابر من الفرنج، كل واحدة تحمل كتاباً...»⁽³⁾، ويّين السفير الامتعاظ والاحتقار للذين أظهرتهما هذه الأخيرة عندما التقت به، واستغرب بغضب من طبيعة الأسئلة التي طرحتها عليه، فقد تبنت أسلوب المقارنة والمفاضلة بين المسيحية والإسلام، وحاول الحجري مناظرتها من داخل دينها، وبالاتماد على ما جاء في الإنجيل، وتمكن من ذلك، فاعترفت له بالحجج التي قدمها إليها.

ومن الصور التي أثارت ربما انتباه واستغراب الغساني نهاية القرن السابع عشر والمكناسي في القرن الثامن عشر في رحلاتهما هو تواجد المرأة في الوسط الديني في إسبانيا، ليس من خلال اطلاعها على أمور دينها كما رأينا عند

(1) مليكة نجيب، المرأة في الرحلة السفارية المغربية خلال القرنين 18 و19، مرجع سابق، ص222.

(2) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، ص 71.

(3) المصدر نفسه، ص71-72.

الحجري، بل من خلال حضورها المكثف في المؤسسات الدينية خاصة الأديرة، التي اقتحمتها أو أقحمت فيها، فكيف كانت صورة النساء المترهبات⁽¹⁾ في أوروبا من خلال رحلات المغاربة؟

إن أبرز ما لفت انتباه الرحالة المغاربة هو حياة هؤلاء النسوة داخل الدير، وأعطى كل من الغساني والمكناسي صورة متكاملة عن ذلك، فانطلق الغساني أول الأمر في رصد الفئات من النساء اللاتي يستطعن دخول الدير والعيش فيه، فلاحظ أنه لا يوجد حصر لهذه الفئات إذ تدخله: «...منهن الصغيرة من سبعة أعوام إلى العجائز المتجالات وهنّ أبكار، وعادتهن في ذلك أن جميع من أحب الترهّب والترهد تدخل الكنبنت⁽²⁾ المعد لذلك سواء كانت صغيرة أو كبيرة...»، ولا يكون دخولهن إلا بعد موافقتهن على شروط الدير: «...بعد أن تحلف وتشهد على نفسها أنها لم تؤثر الدخول لذلك الموضع إلا بعد أن لم يبق لها في الدنيا إرب ولا غرض ولا تتعلق بشهوة في رجل ولا في نظر ولا في دخول ولا في خروج، فتدخل الكنبنت وتلبس من اللباس ما خشن، فإن كان لها مال يجري عليها منه القسط ومن ليس لها مال منهن تخدم غيرها وتعيش معها وتأكل من الحبس الموقوف عليهن...»⁽³⁾، ويحمل المقطع الأخير من هذه الفقرة صورة من التمييز بين النساء في الأديرة فلم يكنّ في كفة واحدة ما يؤكد أن التسلسل الهرمي الذي تم إنشاؤه داخل الدير قد استنسخ بطريقة ما التقسيم الطبقي الاجتماعي للعالم الخارجي في إسبانيا.

أما عن وضعية المرأة وحياتها داخل الأديرة فإنها ارتبطت حسب الغساني كثيرا باختلاف الطرق الدينية التي ينتمين إليها في تشدها الديني: «...ولهؤلاء الراهبات مذاهب وطرق بعدة مذاهب الفريالية وطرقهم، منهم جنس يسمى الأمكالصوص⁽⁴⁾، مذهبهم في الترهّب ألا يكسبوا ولا يخزنوا فلسا ولا دينار ومعيشتهم من الصدقات التي يزعم النصارى أنها صدقة، وكذلك في النساء الفرياليات جنس هن في الترهّد طريق ضيقة متعبة، وهي ساعة تريد المرأة الدخول للكنبنت المعروف لهذا الجنس يوخد عليها العهود والمواثيق والأيمان أنها لم يبق لها غرض في الدنيا، ولا شيء من أمورها، وألا تفتح عينها في أحد ممن هو ليس من أهل الكنبنت، حتى إذا أحب أبوها أو أمها رؤيتها تجعل على وجهها برقا يمنعها من النظر فيهما، وهن في غاية المهنة والتقشف، بخلاف غيرهن من أهل المذاهب الأخرى، وحتى الشباييك الموضوعة هن بينهن وبين الكنيسة لسماع الكفر جعلت شباييك ضيقة جدا في موضع مظلم، وخارج

(1) التي عبّر عنها السفيرين المغربيين الغساني والمكناسي باسمها العجمي "المنكاص" أو "المنخات" من اللفظ الإسباني "Monjas".

(2) من اللفظ الإسباني "Convento" أي الدير.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 74.

(4) ربما يريد بها دصكلصوص، وهي طريقة رهبانية الحفاة Descalsos، أنظر محقق الرحلة، ص 76.

الشبابيك فيما يلي الكنيسة كلاليب وخطاطف ومسامر كثيرة تمنع من القرب إلى الشباك مع ضيق عيونه لثلا يقرب أحد إلى الشباك، وقد جعل هذا الشباك صغيرا في موضع مظلم بحيث لا يرين منه ولا يرين»⁽¹⁾.

ولم يكتف الغساني والمكناسي بنقل الصورة الماثلة أمامهما من صور للمرأة الأوروبية داخل الدير، بل عملا على البحث في الأسباب التي أدت بها إلى ذلك، ومن خلال الارتسامات التي نقلها رحالتنا يمكننا أن نصنف هذه الأسباب كما يلي:

- دينية: بما أن الأديرة مؤسسات ومراكز دينية فإن الغالب على انتساب النسوة إليها يدفعه شعور ديني وهو ما عبر عنه الغساني: «...ومنهن من تؤثر المقام بما يغلب على ظنهن أنهن على طرق قديمة...»⁽²⁾.

- اقتصادية: ولعلها من أهم الأسباب في دخول النساء الأوروبيات إلى الأديرة وخاصة في إسبانيا، إذ لعبت القوانين والأعراف الاجتماعية التي تفرض على المرأة دفع المهر إلى من يريد الزواج منها صعوبات اقتصادية للأسر عموما والنساء خصوصا، وبذلك كانت الأديرة ملجأ تفر إليه المرأة الأوروبية، وفي ذلك يقول الغساني: «...والغالب على دخولهن الكنبط هو عدم وجود الصداق الذي تعطيه المرأة على زوجها للرجل، ففي عوائدهم المرأة تدفع المهر من عندها، وصاروا يتغالون في ذلك حتى آل إلى عدد كثير لا يقدر عليه إلا من له وفر ومال أو ميراث كثير، فصرن يدخلن هذا الموضع المعد لذلك حيث لا يجدن اتساعا في المال». فلم تكن المرأة الإسبانية والأوروبية عموما تتمتع بالمهر حتى ولو كانت نبيلة.

- أسباب اجتماعية وأخلاقية: حيث يلجأ الأهل في أوروبا إلى إدخال بناتهن إلى الأديرة هروبا من الآفات الاجتماعية المنتشرة في مجتمعاتهم، والرغبة في تربيتهن تربية حسنة يقول الغساني: «منهن من يحب أبوها وأمها صونها من الآفات الدنيوية وعار الأحداث النفسانية فيودعها هناك بقصد التحفظ والصون، إلى أن يبلغ وقت تزويجها ويخرجها»⁽³⁾ «...»⁽⁴⁾، وتظهر هذه الفئة مميزة داخل الدير عن غيرها من الراهبات: «... كما رأيت في كنبط للمونكاكس الراهبات من مدينة إشبيلية صبية في غاية الحسن والجمال واعتدال القامة وصباحة الوجه... لباسها غير

(1) المصدر نفسه، ص76.

(2) المصدر نفسه، ص75.

(3) وأكد الغساني على ما سجلته المصادر والمراجع الأوروبية عن وضعية المرأة الإسبانية وسط مجتمعاتها إذ تظهر كعنصر هش، لهذا السبب احتاجت إلى حماية خاصة من خلال العزلة في الأديرة بإرادة من أسرتها ووالديها، فكانت النساء الإسبانيات محملات بثقل مسؤولية أخلاقية واجتماعية وتربوية للحفاظ على شرف الأسرة، فقد كانت سمعة المرأة تعتمد كثيرا على التقييم الاجتماعي الذي تم تكوينه عن عفتها وفضيلتها وإخلاصها مهما كانت رتبته الاجتماعية.

(4) المصدر نفسه، ص75، محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص164.

لباس الراهبات، فسالت عنها وعن سبب مخالفة لباسها لجميع الراهبات، فقلن أنهما مودعة هنالك بقصد الصون والتحفظ إلى أن تتزوج، أودعها أبوها قبل أن تستكمل لبنها وهي ابنة عشرين شهرا...»⁽¹⁾.

- أسباب ذاتية: فهربوا من ضغوطات المجتمع قد تلجأ المرأة للفرار إلى الدير خاصة المرأة الإسبانية النبيلة يقول الغساني: «ومنهن من تكون من الأعيان ذوي المال الكثير فترغم أحمأ زهدت ورفضت الدنيا والرياسة وحب الكبيرة، وتدع كبيرتها ورياستها لغيرها من أخواتها وأهاليها وتدخل الكنبط...»⁽²⁾، وبالرغم مما تظهره هذه الصورة في أن دخول النساء النبيلات إلى الأديرة كان بإرادتهن في ذلك، إلا أنهن في الغالب يدخلنها مرغمت تحت طائل العادات والضغوط الاجتماعية، فغالبا ما كان تواجدهن في الأديرة هروبا من أخطاء أخلاقية يكن قد ارتكبتها فيكون تواجدهن هناك كفارة وتوبة عن ذنبهن، أو أنهن من النساء اللواتي يهربن من زواج متفق عليه من غير رضا منهن.

وربما صدم ابن عثمان من عدد النساء المترهبات الذي بلغ في مدينة نابولي وحدها نهاية القرن الثامن عشر خمسة آلاف راهبة⁽³⁾، عدد كبير جدا يجب الوقوف علده، خاصة إذا أخضعناه للأسباب التي ذكرها ابن عثمان والغساني قبله خاصة الاقتصادية والاجتماعية وما تعانيه المرأة فيهما!

يبدو أن ارتفاع عدد المنتسبين إلى الكنيسة والأديرة في الدول الأوروبية شكل معضلة اقتصادية كبيرة بالنسبة للحكام هناك، خاصة مع تزايد نسبة البطالة بينهم والكسل في العمل والرغبة عنه، وتوجه الرهبان والراهبات إلى الاعتماد على الصدقات والتسول تحت غطاء ديني، الأمر الذي حثم على الحكام الأوروبيين خلال القرن الثامن عشر (تزامنا مع ضعف الكنيسة) البحث عن حلول قد تخفف من هذه الأزمة، وقد أعطى السفير المغربي ابن عثمان المكناسي أثناء تواجده في نابولي صورة عن نماذج من الإجراءات التي طبقتها السلطات في ألمانيا وإمبراطورها الذي توجه لحل الأزمة جذريا: «...وقد أخبرت أن نبراطور دلمانية أخرج جميع الراهبات المذكورات وأمرهن أن يتزوجن، وأمر بإبطال هذه الديار، وبلغ ذلك البابا قاعدة الكفر فأثر فيه ذلك أثرا عظيما، وخشي على دعائم كفره أن تنقص شيئا فشيئا ويسمع بذلك النصارى فيتبعونه...»، في حين كانت إجراءات السلطات في نابولي أكثر ليونة مع هذه الفئة من خلال محاولة الحكام هناك دمج هؤلاء النسوة اللاتي في الأديرة في القطاع الاقتصادي حيث أصبحت: «...لهن صنائع فائقات من الرقم والنسج، وصنعة النوار المستعمل من الكاغد والكتان... وأما صناعة الحلواني على اختلاف الأنواع والألوان فشيء انفردن به...»⁽⁴⁾.

هذا ولم يكتف الرحالة والسفراء المغاربة بسرد ووصف صورة المرأة الأوروبية في الأديرة، بل عبروا عن ردود فعلهم تجاهها، ردود الفعل هاته التي تنطلق من خلفيتهم الدينية والاجتماعية والثقافية كمسلمين ومغاربة، فعبر الغساني عن

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 75.

(2) المصدر نفسه، ص 75.

(3) وحسب ما ذكرته محقق الرحلة فإن بنابولي 37 ديلا لراهبات، محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 164.

(4) المصدر نفسه، ص 164.

امتعاضه الشديد من الصورة التي رأى فيها ما تعيشه المرأة في أوروبا من الضيق والمعاناة داخل هذه الأديرة حتى أنه شبه وجودها هناك بمثابة الموت بالنسبة لها: «ودخول المرأة للكنبظ هو بمثابة موتها، إذا لم يبق لها إرب في شيء من الأشياء...»⁽¹⁾، فيما كان الدير عبارة عن سجن يعيش فيه لأنه: «عليهن ضيق السجن وعدم الخروج والتزويج والتمتع في الملابس وغير ذلك من أحوال الدنيا»⁽²⁾، بينما توجه المكناسي لنقد دخول المرأة في أوروبا إلى الأديرة بتلك الصورة التي رآها وانصاعهن عن الزواج، واعتبر ذلك سببا مؤديا لمفاسد أخلاقية عبر عنها في قوله: «... وشأن هؤلاء الراهبات في عزلتهن منكر معتكفات عليهن قد جالوا من المساحقة في مجال مع إبليس حيثما جال، واستغنوا عن الرجال...»⁽³⁾.

إن الصورة التي قدمها الغساني وابن عثمان عن هذه الوضعية التي تعيشها المرأة الأوروبية داخل الأديرة تحمل في طياتها بلا شك نقدا لمبادئ الكنيسة البابوية التي ما فتأت تطالب بالمحافظة على هذه المؤسسات الدينية، خاصة وأن المذهب المسيحي الرسمي يدعو إلى الترفع عن ملذات الدنيا والإعلاء من شأن العذرية بالنسبة للنساء "الراهبات" والعزوبة عند الرجال "الرهبان"، وذلك أن الفوبيا الحقيقية لدى الرهبان إزاء "الجنس" مثلت المصدر الأولي للخطيئة⁽⁴⁾. ويبدو الرحالة كمسلم مؤمن قوي، فاحتكاكه مع الراهبات واطلاعه على طقوسهن لم يزد إلا تشبثا بثقافته وإيمانه لأن هاته المرأة: «...اختارت الدخول في هذا الاتفاق الفاسد الذي هو عن طريق الهدى منكب حائد...»⁽⁵⁾، حيث يحكي لنا الغساني عن بعض الجدال الذي حصل بينه وبين إحدى الراهبات، فيقول: «... قالت واحدة منهن ما معناه سلّكنا الله وإياكم مسلك النجاة، والله ما عرفنا أين يسار بنا فقلت لها إلى جهنم وبئس المصير»⁽⁶⁾، وهو انتصار أيضا لثقافته المغربية التي تأبى مثل هذه المظاهر، ودينه الإسلامي المنزه عنها.

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 74.

(2) المصدر نفسه، ص 76.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 164.

(4) محمد نور الدين أفاية، مرجع سابق، ص 140.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 158.

(6) عبد المنعم بونو، مرجع سابق، ص 84.

رابعاً: في الأعياد والاحتفالات الأوروبية

ولما كانت الأعياد والمواكب من أهم الملامح المعبرة عن ثقافة مجتمع ما فإن الرحلة المغربية إلى أوروبا سجلت عديد الصور في هذا الاتجاه نظراً لما تمثله من اختلاف وغيرة عن ثقافة ومجتمع هؤلاء الرحالة، وما حملته من غريب وعجيب، ولا بد أن هذا الغريب كان عاملاً شديداً وجذب لهم رغم تبرير حضورهم هذه الاحتفالات والأعياد بالمسايرة الدبلوماسية لمضيفيهم، وتنوعت هذه الأعياد والاحتفالات بين دينية ودينية شعبية ورسمية، وكل حملت طابعها الروحي والاجتماعي.

1- الأعياد الدينية وبعدها الاجتماعي

- عيد الشعانين: ويحتفل به المسيحيون بعد انقضاء اليوم التاسع والثلاثون من صومهم، أما عن أسباب هذا العيد فيذكر الغساني وابن عثمان أنه حسب الاعتقاد المسيحي: «...يوم دخول المسيح بيت المقدس في اليوم المذكور كما هو في إنجيلهم الذي يتداولونه، وأن المسيح لما دخل بيت المقدس في اليوم المذكور خرج بنو إسرائيل لملاقاته وقد فرشوا الطريق والسكك بالحرير وورق الشجر، وفيه كانت بنو إسرائيل يتحيلون عليه ليمسكوه ويقتلوه، فلم يمكنهم إمساكه، فأعد النصارى ذلك اليوم عيداً»، وحضر الرحالة المغاربة هذا العيد ونقلوا طريقة الاحتفال به، حيث يخرج الرهبان ويدهم أوراق الجريد وصلبانهم من الفضة وصورهم ويطوفون الشوارع حتى يجتمعوا في الكنيسة ويدهم آلات الموسيقى فيغنون وينشدون، وفي ذلك اليوم يحظر الملك وعائلته حيث يدخل الكنيسة ويستمتع فيها إلى ما يتلى عليه من أحكام دينهم ويتذكرون ما وقع للمسيح مع بني إسرائيل، وكذلك يفعل جميع النصارى من خاصة وعامة⁽¹⁾.

- عيد الفصح أو عيد القيامة: هذا العيد من أهم الأعياد والمناسبات الاحتفالية عند المسيحيين في أوروبا، ويأتي موعده في نهاية الصوم الكبير، أو في اليوم السادس والأربعين من هذا الصوم، ويسميه ابن عثمان والغساني "عيد الفطر" يتميز هذا العيد بمظاهر احتفالية شعبية ورسمية وقد حضر الرحالتين المغربيين لما كانا في إسبانيا إحياء هذا العيد ووصفوا طقوسه: «وفي هذا اليوم يجعل الطاغية طعاماً يعده للمساكين ويدعوا اثني عشر رجلاً من الفقراء ويدخلهم بيته ويجلسهم في مراتبهم، ويقف الطاغية أمامهم مثل الخادم يتناول الفقراء المذكورين الطعام بيده... فإذا فرغوا من الطعام والشراب غسل الطاغية بيده أقدام»، وكذلك تفعل زوجته وأمه، وكل ذي مال ووجاهة من أعيانهم وأكابرهم، وهذا الغسل هو بمثابة سنة وقرية فعلها المسيح بأصحابه⁽²⁾.

ومن صور الاحتفال بهذا العيد أن يخرج سائر النصارى من رهبان وقسيس في اليوم الأول، كما يخرج العامة منهم والخاصة حاملين جميع ما عندهم من الصلبان والصور التي يعبدونها، ويطوفون بها جميع أزقة المدينة موقدين

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 134-135، محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 112-115.

(2) المصدر نفسه، ص 112-115. محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 135-137.

الشموع، ينتقلون بها من كنيسة إلى أخرى، مظهرين حزنهم على "المصلوب" حاملين صورته في وضعيات مختلفة يصورون فيها معاناته من حين إلقاء القبض عليه من قبل اليهود، إلى صلبه، إلى تصويره محمولا على نعش بعد ذلك، لينتقل استحضار صورة "المصلوب" من رفع الصور إلى تجسيد شخصيته حيث يقوم النصراني فيغطي وجهه زاعما أنه يختفي وبعضهم يجلد نفسه وآخر يصلب نفسه وجسده فيربط يديه ورأسه على عمود من حديد ويمرون به على الأربعة وقد غطى وجهه لكي لا يعرفه أحد، فمنهم من يبكي ومنهم من يتأسف من شدة الفرق، و«...هذه الأيام التي يزعمون أنه وقع فيها للمسيح ما ذكر يسمونها أيام الألم ويسمونها بلسانهم البستريسيون(Postracion)»⁽¹⁾، وفي اليوم الثاني يظهرون من الحزن ما يظهرون، فيستعملون فيه ألحانا حزينة ويطفئون الشموع والمصابيح وتعلق داخل الكنائس ثيابا سودا، ويغلقون الكنائس فلا يضرب فيها ناقوس ولا يركبون في هذا اليوم أي مركوب إنما سيرها على الأقدام خصوصا وعموما، وفي اليوم الثالث يفتحون كنائسهم ويشعلون مصابيحهم وينزعون السواد ويطبعون قراطيس صغارا فيها صور زاعمين أنهم صور ملائكة، ويكتبون بين الصور حروفا بالكلدانية، ويعمهم الفرح والسرور⁽²⁾.

فلاحظ أن كلا السفيرين قد نقلتا تلك المشاهد الغريبة والعجيبة المصاحبة لاحتفالات الأوروبيين الدينية وطقوسهم فيها، إلا أنهم وفي خضم ذلك نجد أنهم ينتقدون الاعتقادات الدينية التي بنيت على أساسها وجعلت لأجلها تلك الأعياد، وهو ما يفسر إصرار الغساني على تكرار مصطلح "المصلوب" بدلا عن "عيسى" أو "المسيح" عليه السلام، إذ يحكم على معتقداتهم بالبطالان كما رأينا انطلاقا من دينه ومعتقداته: «...لاعتقادهم الفاسد صلب المسيح ودفنه ورفع من القبر، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم...»⁽³⁾.

- **عيد العنصرة أو عيد الخميس:** إذ يرتبط هذا العيد بمعتقد آخر للنصارى فهو يأتي بعد خمسين يوما من قيام عيسى من القبر بعد صلبه ودفنه وإقامته معهم (تلاميذه) أربعين يوما ليخرج إلى السماء بعد أن وعدهم أن يعود بعد عشرة أيام، وإيمانهم بنزول روح القدس عليهم يرفقه نور يغشيه فيذهب عنهم الخوف والروع ويمنحهم النشاط⁽⁴⁾، ويذكر المكناسي أن إحياء النصارى لهذا العيد يتم يوم 24 جوان (يوليو) من كل عام⁽⁵⁾، وكان السفير المغربي قد حضر هذا العيد بدعوة من حاكم مالطا ليتجه بعدها لوصف مشاهداته لطقوس الاحتفال المرافقة، قائلا: «فأشرفنا منه على براح متسع، وقد اصطف العسكر والطبول والمزامير، وإذا بخمسة براميل أو ستة بين كل واحد أربع خطوات أو نحوها، وكل برميل موضوع على التبن...حتى إذا غربت الشمس خرج الطاغية ومعه أربعة أو خمسة من

(1) المصدر نفسه، ص 138.

(2) المصدر نفسه، ص 135-137، محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 112-115.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 138. محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 115.

(4) المكناسي، الإكسير، ص 115.

(5) المصدر نفسه، ص 126.

أرباب الدولة على عدد البراميل، وفي يدل كل واحد منهم شحنة كبيرة موقودة، ومن ورائهم من دونهم، ثم نقرت الطبول وجعل الطاغية ومن معه يدورون بتلك البراميل مرارا، ثم أوقد الطاغية النار في البرميل، وأوقد كل واحد ممن معه النار في برميل ودخل إلى داره، واضطربت النار في التبن مع البراميل» وحسب ابن عثمان فهو يوم يتذكرون فيه القديس خوان الذي ينتسبون إليه ويتبعونه، وفيه يخرجون البارود ويضربون المدافع، وإن كان المكناسي لم يأخذ موقفا تجاه احتفال النصرى هذا فإنه لم يستطع إخفاء استهجانته تقليد المسلمين للمسيحيين بطريقة احتفالهم في الأعياد الإسلامية بإشعالهم النيران وضرب البارود⁽¹⁾: «وقد عمت البلوى في بلاد الإسلام كلها بالموافقة معه في إيقاد النار في هذا اليوم»⁽²⁾.

- **الاحتفالات التي تسبق صيامهم:** وبالإضافة إلى هذه المواسم الاحتفالية يضيف الرحالة المغاربة مراسم أخرى للأوروبيين كاحتفالاتهم التي تسبق موعد صيامهم التي يسمونها (الكريمجة)، وما رافقها من لهُو وحفلات تنكرية ويصفها لما وصل صقلية: «...فتجد الأسواق كلها معلقة بصور أوجه من الكتان المشمع على شكل وجه الآدمي، لها أنف ثقبان في مقابلة العينين، فيشترونها ويجعل كل واحد على وجهه واحدة من ذلك ويغيرون لباسهم نساء ورجالا، ويقصدون الديار المذكورات ليلا مختلطين، ولا يعرف أحد الآخر إلا من كان موافقا مع أحد أو عمل أحد مع آخر علامة يميز بها بعضهم بعضا، وتقدم في تلك الدار يرقصون نساء ورجالا ولا يتعارفون...ولهم في ذلك اعتناء كبير...»⁽³⁾، وينظر ابن عثمان لهذه المظاهر من الاحتفالات أنها تعبير بَيّن عن الفساد الأخلاقي داخل هذه المجتمعات، وفي هذه الأجواء استحضر المكناسي بعضا من الاحتفالات المغربية القريبة من تلك التي شاهدها في هذا المهرجان من حيث الفكرة لا من حيث الممارسات والطقوس، وهي احتفالات "شعبانية"⁽⁴⁾، التي تسبق دخول شهر رمضان بالمغرب⁽⁵⁾.

(1) لم يكن هذا التأثير والتأثر والتلاقح الحضاري بين المسلمين والمسيحيين وليد القرن الثامن عشر فقط، بل كانت ممتدة عبر فترات سابقة من الزمن خاصة في الأندلس الإسلامية، وكما القرن الثامن عشر لاقت هذه التأثيرات المتبادلة استحسانا يمثل ما لاحت استهجانا، وقد مثل الأعياد والاحتفالات واحدة من أهم ميادينها. للمزيد أنظر: عدنان خلف سرهيد، التأثير الحضاري المتبادل بين الأندلس الإسلامية وأشبانيا النصرانية خلال عصر سلطنة غرناطة 635هـ: 897م/1238م: 1492م، دار حميثا للنشر والترجمة، 2018، ص 103 وما تلاها

(2) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 126-127.

وكان من نتيجة التواصل الحضاري بين المسلمين والمسيحيين انتقال بعض العادات من وإلى الآخر، أما الاحتفالات والمناسبات التي يلمح لها ابن عثمان في كونها أخذت عن المسيحيين هي تلك المظاهر التي تخللت الاحتفالات الإسلامية في المغرب من إشعال للنار وضرب للمدافع في احتفالات المولد النبوي الشريف أو في ليلة 27 رمضان وغيرها للمزيد أنظر: عبد الرحمان ابن زيدان، **العز والصولة**، ج 1، مرجع سابق، ص 174-175.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 184.

(4) تكون هذه الحفلة في العشر الأواخر من شهر شعبان، ولعل السبب الأصلي في إقامة مهرجاناتها هو استقبال شهر الصيام رمضان، وقد كان يُحتفل بها في المغرب رسميا وشعبيا. للمزيد أنظر: ابن زيدان، **العز والصولة**، ج 1، مرجع سابق، ص 184.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 125.

- أعياد الاحتفاء بالقديسين: ومن الاحتفالات الدينية في أوروبا تلك المتعلقة بتكريم القديسين والرهبان تقديرا وإجلالا لهم، ففي مدريد حضر الغساني عيد القديس خوان في إسبانيا (San Juan)⁽¹⁾، وقبل أن يبدأ في تقديم مظاهر الاحتفال بهذا العيد في إسبانيا فضل الغساني أن يقدم تعريفا موجزا شاملا حوله ولما جعل محفلا يحتفي به النصارى فقال: «ولقد حضرت هنالك عيداً جعلوه في هذه البلاصة (الساحة) نسبوه إلى راهب من رهبانهم يسمونه سان كوان، زعموا أنه كان من جنس الفريالية وحسنت حاله فيما يعتقدونه من دينهم، ورأوا له فيما يخيل إليهم الشيطان أمورا تخيلية يسمونها الميلاكروس ومعناها البراهين، وله الآن نحو من مائة سنة، وفي هذه السنة زعموا أنه ثبت عند البابا أمره فأذن لهم في تطويفه ليراه الناس ويعرفوه⁽²⁾»، واحتفل بهذا العيد العامة والخاصة؛ فحضر الملك وأسرته ووزرائه وحشمه وحضرت حشود الناس، ومما ميز مظهره أن زينت الكنائس بمختلف أنواع الزينة والصلبان المذهبة، والتطواف بصورة هذا الراهب في كل المدن والقرى الإسبانية⁽³⁾.

2- الأعياد الدنيوية (الشخصية)

وازدهرت هذه الأعياد أكثر في القرن الثامن عشر مع بزوغ عصر التنوير، فرصد رحالتنا احتفالات الأوروبيين ذات البعد الشخصي، والتي عادة ما ترتبط بحكامهم وملوكهم، ومن ذلك الاحتفال الذي حضره وشاهده السفير المكناسي في مدريد بإسبانيا بمناسبة ميلاد ولد لولي عهد المملكة وذكر بعض مظاهر احتفالهم به: «...وكان ذلك اليوم وكذا اليومان بعده من أعظم الأعياد عندهم لم يخدم فيها أحد من أهل الحرف ولم يفتح دكان لبيع وشراء، وإنما هو وطرب وفي الليل يوقدون من الشمع في سراجيب ما لا يحصى»، وقد أعطى المكناسي هذا الاحتفال بعدا سياسيا بقوله: «والبرنسي (الأمير) ولد الطاغية المذكور لم يكن عنده ولد ذكر وإنما كان عنده الإناث، وقد كان هو وأبوه في كرب عظيم من ذلك من شدة حرصهم على الدنيا وضمنهم بالمملكة فيحبون أن يتوارثوها» لهذا كان احتفالهم بالمولود الذكر عارما بالوصف الذي نقله السفير المغربي⁽⁴⁾.

(1) هو ليس عيد القديس سان خوان الذي يعرف بعيد العنصرة سابق الذكر.

(2) ارتبط تكريم القديسين والرهبان "تقديرا وإجلالا لهم" وهو ما رسخته الكنيسة الكاثوليكية والبابا في عملية إصلاح داخلي كرد على حركات الإصلاح البروتستانتية التي انتشرت في أوروبا، ومما جاء في مجمع ترانت في دورته الثالثة المنعقد يوم 04 ديسمبر 1563م: "يتوجب عليه أن يعنى بتعليم المؤمنين (المسيحيين) فيما يتعلق بشفاعاة القديسين والتضرع إليهم والترك برفاقهم وبشرعية استعمال صورهم"، وذلك سعيا من الكنيسة الكاثوليكية بتجميع المسيحيين تحت عقيدة واحدة والسعي لإثارة مشاعرهم بالعقائد التي تتبناها. أنظر: جان بيرنجيه، موسوعة تاريخ أوروبا العام، تر: وجيه البعيني، ج2، ط1، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 1995، ص379-381.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 110.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 88.

وفي مالطا حضر ابن عثمان المكناسي احتفال حاكم الجزيرة بازدياد ابن له، وقد أعطى السفير المغربي تفصيلا عن طريقة الاحتفالات التنكرية المرافقة له التي يحضرها الرجال والنساء قائلا: «...فاستعملوا ذلك العيد فرحا، يلبس فيه الذكران ملابس النسوان، وتترين فيه ربات الحجال بزى الرجال، ويزور بعضهم بعضا على تلك الصفة، ولا يميز أحدهم الآخر إذ الأشباح باللبس متصفة».

ولأن مظاهر الاحتفال بهذا المهرجان كانت منافية تماما لعادات وتقاليد المكناسي خاصة ما حملته من اختلاط الرجال بالنساء لذا فقد أبدى السفير المغربي انتقاده واستهجانته لها: «...هذا معنى العيد في الظاهر وفي باطنه مغاير، فإن هؤلاء القوم على الزنى معتكفون متفقون عليه لا مختلفون...ويُري كل واحد الآخر ما يميّزه به من العلامات، فإذا التقيا ميّز أحدهما الآخر وعرفا، وعلى غيرهما اختلاف، قبحهم الله، فما أقل حياءهم وأعظم اجترأهم، فإن الزنى في دينهم حرام، ومع ذلك يجهرون به كبارا وصغارا...»⁽¹⁾.

ومن الأعياد الشخصية المرتبطة رأسا بالملوك والحكام في أوروبا، هو تخصيص يوم للاحتفال بأيام ميلادهم، فذكر ابن عثمان حضوره الاحتفال بعيد ميلاد ملك نابولي فرناندو الرابع: «قالوا إن في هذه الليلة عندنا جمع كبير بدار الحاكم، وهذه الليلة ازداد فيها الطاغية، وفي كل يوم عند وصول اليوم المذكور يكون عندهم عيد...»⁽²⁾، و: «رأينا من أعيادهم عيداً يسمونه "بِيزْ كَمْنُ"⁽³⁾ معناه: تقبيل اليد، وذلك إذا كان اليوم الذي ازداد في الطاغية ويصف السفير المغربي كيفية تهنئة أعيان الدولة لملكهم في هذه المناسبة: يلبس الأكابر والأعيان فاخر الثياب، ويتأهب الطاغية كذلك، ويقف في قبة وتجتمع النصارى كلهم ويدخلون عليه متتابعين وهو باسط يديه وكل واحد يجثي على ركبته ويقبل وينصرف...»⁽⁴⁾.

ووصف السفير المغربي هذا الاحتفال وما رافقه من حضور المدعوين رجالا ونساء على الغالب أنهم من أعيان المدينة، وما رافقها من لهُو وغناء ورقص وشرب للخمر واختلاط النساء بالرجال، وكالعادة فمظاهر الاحتفال لم ترقه كمسلم، فوجد ابن عثمان منسحبا منه، بعد أن برر قبلا أن حضوره لا يخرج عن إطار المسابقة الدبلوماسية: «فلما رأيت أن القوم قد خالطتهم من النوم عساكرهم، بين صاح وساكر...علمت أنها ليلة مناكر، فشمرت للمسير في بقية الليل... وتركتهم نساء ورجالا مختلطتين، وما أدري ما يُفعل بعدي، أظنهم يصبحون كالكلاب مرتبطين»⁽⁵⁾.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 125، 184.

(2) المصدر نفسه، ص 188.

(3) من الكلمة الإسبانية (Besa la Mano) وتعني تقبيل اليد.

(4) المصدر نفسه، ص 167.

(5) المصدر نفسه، ص 189.

خامسا: في التسلية والترفيه

واندهش الرحالون المغاربة للمكانة التي كانت تخصصها المجتمعات الأوروبية التي ارتحلوا إليها للمرح والترفيه، فلاحظ الغساني في نهاية القرن السابع عشر كثرة المنتزهات في المدن الإسبانية خاصة الكبرى مثل مدريد، ويبدو أن مثل هذه المرافق كانت أول الأمر حكرا على ملوكهم وأعيانهم قبل أن تتحول مع الوقت إلى أماكن يقصدها الخاصة والعامة للترفيه وطلب الأنس والتنزه، ووقف السفير المغربي عند أشهر هذه المنتزهات الإسبانية في زمنه وهو المنتزه الملكي المشهور بـ: "الريترو" (El Retiro)، بالعاصمة مدريد الذي كان يقصده الملك بقصد التنزه، وإذا أخلاه وغادره يقصده الناس: «فتجد به من النصارى والأكداش (العربيات) المشحونة بالنساء والرجال ما يضيق بهم البستان المذكور...»⁽¹⁾.

ويلفت الغساني في نص رحلته إلى أن مثل هذه المرافق الترفيهية لم تكن صنعة أوروبا الحديثة بل هي ضاربة في عمق الحضارة الأندلسية العريقة وهنا يشير إلى منتزه وادي شينيل (Genil) الأندلسي قرب غرناطة الذي ما زال محتفظا بمكانته إذ: «ليس في سائر ما رأينا بالعدوة الأندلسية منتزها أبهى منه منظرا»، وهنا لا يجد السفير المغربي بدا من استحضار تلك النصوص الشعرية الإسلامية الفخمة التي قيلت في هذا المنتزه خلال العصر الوسيط⁽²⁾.

ولاحظ الغزال أن الإسبانين قد تعودوا أكثر من غيرهم الاستراحة والنزهة في أماكن خصصوها لهذه الغاية: «... وبوسط هذه المساحة (بغرناطة) عدة خصص استوعب طول المساحة المذكورة، يصعد الماء من جميعها قدر ثلاثة قامات أيضا، بطرفي عرض المساحة مسطبات من الحجر يمينا وشمالا مسندة على ستائر الواديين من أولها إلى آخرها يجلس عليها أهل المدينة كل عشية نساء ورجالا للاستراحة والنزهة ممن لا قدرة له على جعل الأكداش، وأما أهل الرفاهية فيركبون الأكداش رجالا ونساء وصبياناً ويعبرون عليها تلك المساحة من إحدى الجهتين، حتى إذا انتهت المساحة بالعبور يرجعون بأكداشهم من الجهة الأخرى... ويستمررون على ذلك إلى الغروب، ويذهب حينئذ كل لسبيله غنيا أو فقيرا، هذا دأبهم وديدهم كل عشية في الفصول الأربعة»⁽³⁾.

ويبدو أن التأثير بأفكار التنوير كان أكثر عند حاكم نابولي من عائلة البوريون فرناندو الرابع في الربع الأخير من القرن الثامن عشر الذي اهتم بتشديد الحقائق وتخصيص المنتزهات لساكنة مدينته، ومن ذلك الحديقة الملكية التي اعتبرها ابن عثمان "من حاضرة هذه المدينة" إذ عمد حاكمها: «... إلى موضع بشاطئ البحر... فسوى أرضه، طوله وعرضه، وجعل به أقواسا من الخشب صفوفها جاوزت ألوفاً، وغرس معها نوعاً من النبات... فكسى الخشب احضاراه

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 105-106.

(2) المصدر نفسه، ص 62-63.

(3) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 169. محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 102-103.

الناضر، وصار قيذا لكل مبصر وناظر، وأحاطت به شبابيك الحديد الغريبة المثال، وقنوات الماء المشتملات على كل صورة وتمثال، وعلق بها مصابيح مئين عديدة... وبوسطه قبة من الخشب لها مقعد مشرف على ذلك البراح، فيقعد به أصحاب الموسيقى... وبطرف الموضع داران فيهما أنواع المأكول والمشارب...»، ويبدو أن هذه الأماكن كانت حكرًا على الأفراد والعائلات من الطبقة الأرستقراطية أو طبقة الأعيان ف: «لهذا المكان حراس يبابه، وبه العسكر واقف لا يترك أحدا يدخل إليه إلا إذا كان من الأكابر».

وكرجل دولة يبدو ابن عثمان فضوليا ليعرف من حاكم نابولي الغايات التي أدت به أن يصنع مثل تلك الحقائق والمنتزهات، وهنا يخبرنا بلسان هذا الأخير: «قال: أنا أحدث هذا المكان لقومي يستريحون فيه زمن المصيف، وأنا أصرف عليه من عندي، وإني لازلت أزيد فيه ما أمكن من الزينة والترفيه، وأكسبه هذه المدينة الحظ الأوفر من الرفاهية وأوفيه»⁽¹⁾.

وفي الأخير يعبر ابن عثمان عن إعجابه عن مثل تلك المنشآت وذلك التشييد وتلك الغايات: «ولو ترى هذا المكان من موضع مشرف عليه لقلت نجوم السماء تمثلت في صفحات الماء، وكل حسن في البسيطة فمعه مجلوب، وإن شئت قلت سماء مقلوبة، مرآة للناظر يغني النواظر، والطاغية يصرف على جميع ما يلزم ذلك المكان... موسعا على رعيته من رفده ليبقى ذلك تذكرة من بعده».

ورغم هذا الإعجاب الذي أبداه السفير المغربي من تشييد هذه المرافق وتنظيمها وغاياتها الجلييلة المعبرة عن "حضارة هذه المدينة"، إلا أنه يستدرك نفسه في آخر هذا المشهد ليؤكد أنه برغم كل ما سبق من إشادة بالأوروبيين ومنجزهم الحضاري: «لكنهم سلكوا مع طريق معوج بنظر عليل سقيم، "والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم"»⁽²⁾.

هذا ورصد الرحالون المغاربة انتشار كثير من الألعاب والرياضات في البلاد الأوروبية التي زاروها أو سمعوا بها، ولأن الوجهة الأساسية لهذه الرحلات كانت نحو إسبانيا فقد أخذت لعبة "مصارعة الثيران" نصيب الأسد من الرصد والاهتمام، فهي من الألعاب والمسابقات التي وجدت لها اهتمام كبير في إسبانيا، ومن العادات الاجتماعية والمظاهر الثقافية التي نالت اهتمام جل الرحالة المغاربة والتي اصطالحوا عليها بـ "عيد الثيران"، وإن كان الغساني الذي زار إسبانيا نهاية القرن 17م لم يفصل كثيرا في وصفها واكتفى بنقل صورتها العامة فقط، فإن الغزال والمكناسي في القرن الثامن عشر كانا أكثر تفصيلا في نقل مشاهداتهم حول هذا الاحتفال، وأجمعوا أن هذا المهرجان موسمي يقع مرة في السنة

(1) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 145.

(2) المصدر نفسه، ص 146.

حددوها بمنتصف شهر ماي من كل سنة، «إذا انقضى صيامهم وفات عيدهم بأيام قلائل»⁽¹⁾، ولا يتكرر إلا بوجود موجب لذلك مثل زيارة سفراء أجنب أو ما شابه: «فرجة ونزهة للوارد على بلدهم»⁽²⁾.

ولم تكن المشاركة في هذه المسابقة والاحتفال بها محصورة في طبقة دون أخرى كما بين ذلك الرحالة المغاربة، إذ يحضرها كافة طبقات المجتمع من الملك إلى الأعيان إلى العامة، وإن كان للنبلاء زيادة اهتمام نظرا لرغبتهم في إبداء فروسياتهم وشجاعتهم، فرغم أن مصارعة الثيران تبدو مناسبة عامة إلا أنه من خلال الوصف الذي يبيده رحالتنا فإنها تبدو عادة أرستقراطية يبدل فيه الأعيان المال الكثير لمشاهدتها: «ولاعتنائهم بهذا اللعب المذكور على الكيفية المذكورة في المحل المذكور، صار من لم تكن له دار متصلة بالبلاصة يبدل المال في كراء الدار المطللة على البلاصة، يخصص منها مقعدا لفرجة أهله وأقاربه، ويكرى على يده، فيحصل على فرجة أهله...»⁽³⁾.

وفي القرن الثامن عشر أصبح "عيد الثيران" مسابقة رياضية لها قوانينها وضوابط تحكمها، ولجان تنظمها أسماهم ابن عثمان "أصحاب الشريعة"⁽⁴⁾، فيقول: «... فلما أرادوا اللعب خرج أناس راكبون على خيولهم ومعهم نحو العشرة من كان بوسط الدار (الحلبة) وطلع كل إلى موضعه، ومن لم يكن له موضع خرج من الباب، وأخرجوا كاغيدا مكتوبا قرأه نصراني جهرا، فسألت عن ذلك فقليل أنه يعلم الناس أن يلزموا أماكنهم ولا ينزل احد، ومن نزل ووقع به شيء من أجل الثيران فلا يلومن إلا نفسه»⁽⁵⁾.

أما عن طريقة لعب الإسبان ومصارعتهم للثيران، فيصفه الغزال: «...يفتح باب الموضع الذي فيه الثيران بحيلة فيخرج الواحد منها كأنه أسد ويغلق الباب في وجه المقتفي إثره في الخروج، فيكر الثور على الفارس تارة ويفر منه تارة، وتقع بينهما المحاربة الشديدة والبأس، وكلما وثب الثور على الفارس يقنعه بالمزراق الذي بيده، فإذا تحامل عليه يشغله فارس آخر بطلب مبارزته من خلف وأمام، فيسلمه الثور ويقبل على مبارزة الثاني، فإذا وثب عليه وزاحه، يطلب مبارزته الأول، فيترك الثاني ويعود إلى الأول، وهكذا، فإذا ضعفت قوته تتأخر عن الفرسان وتتقدم عليه عدة النصارى راجلين وبأيديهم حراب طولها قدر ذراع أسنتها على قدر السنارة يختلسون الثور ويمكنونها من الموضع الذي أمكنهم منه ظهره أو جنبه، فإذا زاحهم الثور يرمون بالشمرير (القبعة) أمامه فيقنع، وتارة يصول والمتصدي لقتله رجل واحد

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 107.

(2) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 64.

(3) المصدر نفسه، ص 65-66.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 107، 108.

(5) المصدر نفسه، ص 107.

يطعنه بسيف تحت قرنه من جهة رقبته فيخر ميتا من حينه، ويأتي ثلاثة بغال مزينة تجره من فوره ثم يخرجون ثورا آخر يفعل به مثل الأول وهكذا»⁽¹⁾.

وقد ذكر المكناسي مثل سابقه وأضاف: «والثور الذي لم يقاتل الفارس وولى الأدبار من حينه أو لم يصدق القتال يخرجون له كلابا كبيرا معدين عندهم لذلك، فيرسلونهم عليه، فيقبضون الثور بعض من أذنه وبعضهم من ناحية أخرى، ويوقفونه ولا يطلقونه إلا بمشقة عظيمة، وحينئذ يقتله صاحب السيف...»⁽²⁾.

ولأن رحالتنا المغاربة كثيرا ما تعودوا إبداء مواقفهم من المشاهد التي يشاهدونها، فقد تباينت مواقفهم بخصوص مصارعة الثيران، فبينما فضل الغساني عدم إبداء رأيه تجاهها، نجد ابن عثمان يكتفي بالإشارة لخطورة هذه الممارسات العنيفة على ممارسي هذه اللعبة⁽³⁾، فيما يظهر الغزال مستنكرا لهكذا ألعاب التي يرى فيها تعذيبا للحيوان: «...وقد استحسنا لعبهم جبرا للخواطير حيث سئلنا عن ذلك، والاعتقاد خلافه فإن تعذيب الحيوان لا يجوز للإنسان، لا يجوز بالشرع ولا بالطبع...»⁽⁴⁾.

ويبدو أن نظرة الرحالة المغاربة لهذا المحفل تعدت بعده الثقافي والاجتماعي وتجاوزته، فأشاروا إلى اعتباره موردا اقتصاديا يدر مالا معتبرا للقائمين عليه من السلطات الإسبانية، وفي ذلك يقول ابن عثمان: «...ويجمعون في ذلك اللعب من الأموال شيئا كثيرا، لأن البيت الواحد يكرى بعشرين ريالاً أو ما يقرب منها...»⁽⁵⁾، وهو ربما ما يفسر انتشار هذه الألعاب في مختلف المدن الكبرى في إسبانيا.

ومن غريب الألعاب التي شاهدها الرحالة المغاربة في أوروبا (وإن كان انتشارها أكثر في بلدان شمال القارة) لعبة التزلج على الجليد لذا كان وصفهم لها دقيقا: «...وهناك أقوام إذا جمد هذا الصهريج يجعلون في نعالهم حديدة ويرفع أحدهم إحدى رجله ويمر الرجل على الماء الجامد فيمر كالبرق، ولا يقدر أن يملك نفسه، فإذا أراد أن يقف يقصد في مشيه إحدى حافتي الوادي شيئا فشيئا وتنشب الحديدة التي في نعله في الأرض، ويقف وحينئذ ليستريح ويصلح من شأنه، ويجدد السير، ومثل هذا كثير في بلاد فلانضيس على ما يحكى فيسافرون بالمكاتب من بلاد إلى أخرى فيصلونها في أقرب مدة أسرع ما يكون»⁽⁶⁾.

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 65.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 108.

(3) المصدر نفسه، ص 139.

(4) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 65.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 109، أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 65.

(6) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 102، محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 106.

ونظرا لطبيعة حكام جزيرة مالطا كفرسان، فقد لاحظ ابن عثمان شيوع رياضات وألعاب الفروسية فحضر السفير المغربي مهرجان سباق الخيل هناك بدعوة من حاكم الجزيرة؛ فهذه الألعاب يشاهدها العامة والخاصة، وبعد أن يصف ابن عثمان مضممار السباق ورشه بالتراب مخافة أن يسقط المتسابق فيتأذى لأن طرق المدينة مرصفة بالحجارة، أما عن السباق فيقول واصفا له: «... فتسابقت الحمر أولا، ومن سبق أخذ ما هو معين، ثم تسابقت الخيل، ومن سبق أخذ ما هو معين، ولهم في ذلك فرحة كبيرة...»⁽¹⁾.

وكرثت في نابولي وصقلية وسائل اللهو والترفيه، وشاعت ألعاب مثل لعب الورق التي يسميها المكناسي "الكارطة" (من اللفظ الإسباني Carta)، وكذا لعبة الشطرنج؛ التي كانت تقام في دور خاصة، ولفت انتباه السفير المغربي نظام التسيير والانخراط بهذه الدور التي كانت محصورة في طبقة الأعيان ويسمى نوادي لعبهم ولهولهم "نادي الأكابر" التي كانت حسب السفير المغربي تعبير عن "حضارة هذه المدينة و فراغ أهلها" وحضرها المكناسي جبرا لخاطر مضيفيه ومساعدة لهم في طلبهم، ولا شك أن هذه الحياة الراقية التي تعيشها هذه الفئات من المجتمع الأوروبي أكبر دليل على تأثيرها بأفكار عصر الأنوار، خاصة وأن ملوك الأسرة البربونيه وعلى رأسهم ملك اسبانيا كارلوس الثالث وابنه فرناندو الرابع حاكم نابولي تبنا تلك الأفكار التي لها أثر كبير في السلوك الاجتماعي، وكان بلاط نابولي أكثر تأثرا بهذه الثقافة والدليل على ذلك أن الملك نفسه كان يهتم كثيرا بهواياته، وقد شاهده ابن عثمان وهو يلعب رياضة الكريكت⁽²⁾، ويتحدث السفير المغربي عن هذه اللعبة معروفا بها وبطريقة لعبها: «... قال (حاكم نابولي): جئنا إلى هذا البستان لنلعب الكرة... وقسم من معه قسمين طائفة معه وطائفة في مقابلته، وأتوا بكرة معدة من الجلد غير مدبوغ وجعلوا يعمرونه بالريح بآلة وجعلوا بأيديهم أعوادا (عصي) مثل السوار من الكوع إلى المرفقين، وأخذوا يضربون الكرة بتلك الخشب فتردها إحدى الطائفتين للأخرى، وواحد واقف يحسب حسابا معلوما عندهم ليعلم من يغلب، لأن لهم في ذلك قمارا معلوما...» ولا ينفك السفير المغربي يعطي رأيه في هذه اللعبة: «... فوقنا هنيهة ننظر إلى لعبهم فرأينا فيه تعباً كثيراً ومشقة عظيمة، وإن تلك الكرة إن صادفت أحدا في جنبه أو رجله أو ضربها ولم يصادفها بتلك الخشبة وأصاب ذراعه فإنها تؤلمه ألماً شديداً»⁽³⁾ وشارك ابن عثمان أعيان صقلية لعب الشطرنج التي ذكر السفير المغربي أنه لعبها كثير في المغرب، وصنع ملحمة كبيرة لما انتصر على أحد الأوروبيين في هذه اللعبة⁽⁴⁾.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 126.

(2) المصدر نفسه، (جزء الدراسة)، ص 66.

(3) المصدر نفسه، ص 161-162.

(4) المصدر نفسه، ص 190-191.

سادسا: في الأكل والمائدة الأوروبية

في إطار قراءتنا لكتابات الرحالة من منظور أنثروبولوجي يتناول هذا الجزء من البحث موضوع الطعام أو الطبخ أو المائدة الأوروبية، ذلك لأن الطعام له ولا شك أهمية تتعدى كونه وسيلة لتغذية الجسم بغية الحياة، ولأن الطعام يرتبط أيضا بالبيئة والاقتصاد، وبالدين وبالمعتقدات الشعبية، وربما بكافة مظاهر الحياة الإنسانية المادية والفكرية وعلى هذا الأساس يشكل الطعام مركبا حضاريا في الفكر الأنثروبولوجي⁽¹⁾.

أما عن مدى حضور الصور المعبرة عن الطعام والأكل والمائدة الأوروبية في نصوص رحلات القرنين السابع عشر والثامن عشر، فإنه كثيرا ما فضل أصحاب هذه الرحلات الصمت وتغيب هذه الصورة الاجتماعية المعبرة عن الآخر الأوروبي، أو أن حضور هذا الملمح الاجتماعي كان جد مقتضب في بعضها، وربما كانت الأسباب الداعية لذلك هو شدة الاختلاف، أو الخوف من ردة فعل قراء هذه النصوص الرحلية في المغرب، أو لعدم إحساسهم بأهمية نقل هذه الصور.

وفي الحالات القليلة والنادرة التي يظهر فيها الأكل الأوروبي في نصوص أصحاب الرحلات المغربية نجد فيها هؤلاء الرحالة يكتفون بذكر ذلك عبر إشارات سريعة وعامة، وتناولوا الموضوع في جمل فضفاضة، لم تكشف الكثير عن الطعام الأوروبي وعاداتهم فيه، لذا تكررت جمل مثل: «...وقدموا لي مع أصحابي طعاما، فلم نأكل منه، قلت لهم هذا ممنوع في ديننا، ثم أعطوني ما ذكرنا لهم...»⁽²⁾، وقول ابن عثمان: «...وأحضر من غرائب الأطعمة والأشربة ما لا يهتدي إليه، فتناولنا من ذلك ما شاء الله جبرا لحاظه»⁽³⁾، أو يذكره على سبيل الذكر لا التفصيل: «ناولوا طعامهم وشرابهم جميع أهل البلد...»⁽⁴⁾.

كما كان رحالونا في كثير من محطات رحلاتهم يكتفون بمجرد ذكر المأكولات التي يرونها حلال مباحة لا حرج من ذكرها، حيث ذكر الغزال تقدم الحلوى والفواكه المستعملة من السكر حين نزول الوفد المغربي قرب قرطاجنة⁽⁵⁾. وهو أمر سبقه إليه الغساني الذي لا يفصل في نوعية المأكولات التي يتناولها الوفد المغربي في إسبانيا ويكتفي بذكر الفواكه: «...ويتعاهدنا كل يوم بالفواكه الرطبة واليابسة...»⁽⁶⁾.

(1) حسين محمد فهم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، يونيو 1989، ص129

(2) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مرجع سابق، ص 69

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 88.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص158.

(5) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص212.

(6) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص53.

وبينما كان ذكر ابن عثمان لأطباق الأكل سريعا، نجده يفصل في أنواع الفواكه التي قدمت لهم في نابولي: «... وقدم إلينا ثلاثة أطباق كبار جدا فيها فاكهة الوقت، من الإحاص والتفاح والبطيخ والدلاح وأنواع الحلاوي من عمل بلادهم وغير ذلك...»⁽¹⁾، وتكررت هذه الصيغ كثيرا في رحلتيه⁽²⁾.

ولما كان أكل وطعام الآخر مجالا للغيرية والاختلاف بين المغاربة والأوروبيين النصارى، خاصة من الناحية الدينية والاختلافات الاجتماعية والثقافية، لذا تعرض الحجري لعادات الأوروبيين في الأكل من زاوية "الأنا" المسلمة المحرم عليها بعض الأطعمة المسيحية، وألح على ذلك في كتابه وأظهر المناسبات التي رفض فيها تناول طعام بعض مضيفيه⁽³⁾، كما حصل له في مدينة باريس: «قال القاضي: أتحب أن تتعشى عندنا، قلت: لا يجوز لي بعض طعامكم، قال: ما نعطيك إلا ما يجوز في دينكم...»⁽⁴⁾ وهو نفس ما ذهب إليه المكناسي في القرن الثامن عشر أثناء تواجده بمديرد: «...وقالوا إن الطاغية قد علم أنك وردت من مادريد...وقد بعث إليك هذا الطعام لغذائك أمر بصنعه لم يشبه شيء من المسائل التي هي حرام عندكم فجازيناه خيرا»⁽⁵⁾، رغم أن هذا المقطع الذي ذكره ابن عثمان يعبر عن استدراك الإسبان وتفطنهم لواقع الاختلاف في عادات الأكل بينهم وبين المغاربة والمسلمين.

فطعام المسلمين مختلف عن طعام النصارى، لذا عادة ما أرفق الرحالة المغاربة في وجهتهم نحو أوروبا أو خارج البلاد الإسلامية طباحين خاصين بهم للقيام بلوازم الأكل والشرب طيلة الرحلة، ولعل الدافع ديني، لأن وجود السفارة في بلد غير مسلم يحرم عليهم بعض أكلهم، وخاصة ذبيحة النصارى⁽⁶⁾ تجنبا للأكل الحرام الذي هو عند الآخر، ففي نابولي يشير المكناسي إلى هؤلاء الرفقة من الطباحين: «وقد كنت بعثت الطباحين أمانا فهيئوا لنا الطعام...»⁽⁷⁾، وكان الغزال قد أشار بمثل ذلك في سفارته نحو إسبانيا في قوله: «...فكلما رحلنا عن دار...نبعث صحبتهم القيم الذي هو معد معنا الطعام، بحيث إذا حللنا المدينة نجد الدار مهيئة بما يُحتاج إليه من طعام وغيره...»⁽⁸⁾.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 132. محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 81.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 147. رحلة المكناسي، الإكسير، ص 183، 185، 52.

(3) عبد المجيد القدوري، مرجع سابق، ص 125.

(4) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مرجع سابق، ص 63، ص 69.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، ص 138.

(6) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 91.

(7) المصدر نفسه، ص 157. ص 91.

(8) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 72.

كما كان السفراء المغاربة لا يترددون في تقديم قائمة لمضيفيهم الأوروبيين تتضمن أنواع المأكولات التي يحتاجونها⁽¹⁾، أو تقديم طلب لهم بعدم إرفاق الموائد التي تقام على شرفهم أكل يتعارض مع الثقافة المغربية والإسلامية، يقول المكناسي: «... واحتفل النصارى في انتخاب طعامهم واجتنبوا الخمر فلم يحضروه على مائدتهم حيث تقدمنا لهم بذلك...»⁽²⁾.

ولما كانت عين الرحالة تدقق في كل ما يعرض ويوضع على طاولة مضيفيهم الأوروبيين وتقييمها بمقياس الثقافة المغربية الإسلامية، توجه هؤلاء السفراء بعد حكمهم على نوعية الطعام إلى النظر إلى أواني الأكل والحكم فيها بين ما هو جائز الأكل فيه وما هو محرم، وهو ما بينه ابن عثمان في رده على أعضاء وفده السفاري المغربي الذين رافقه إلى نابولي وعابوا عليه الأكل مع النصارى بأوانيهم الفضية، يقول: «...إلا أن تتعمدوا ذلك كعادتكم في إنكار المحسوسات، مثل ما فعلتم في مالطة لما دعانا النصارى إلى الإكرام الذي احتفلوا فيه بقصدنا... ولم يكن هنالك ما يُنكر إلا آنية الفضة التي يأكلون فيها، فتلك عادة كبرائهم، ولم نجد بدا من مساعتهم... فارتكبت بهذا المحرم طمعا فيما كنا نأمل... ثم إنكم انصعتم من الجلوس على تلك المائدة محتجين بأن الأكل في الفضة حرام⁽³⁾...»⁽⁴⁾، في صورة أخرى تؤكد عن الاختلافات في عادات الأكل بين المغاربة والأوروبيين، عادات امتزج فيها ما هو ديني بما هو دنيوي.

ولأن الطعام كثيرا ما ارتبط بالاحتفالات والمناسبات الاجتماعية ذات الطابع الديني فلا يعطينا الغساني والمكناسي معلومات عن الأكل في إسبانيا القرنين السابع عشر والثامن عشر وما يواكبها من عادات، إلا حين ذكر "طقوس صيامهم" في سياق توجهاتهما لنقد ممارسات وعبادات الآخر الدينية التي تختلف جملة وتفصيلا مع صيام المسلمين، فيشير الغساني إلى ذلك بالقول: «وأكلهم أيام الصوم هو سائر اليوم، فإن انتبه النصارى من نومه وقت الضحى أو بعده؛ يشرب كأسين من الشكلاط مع ما يقدر من البشكونشوا؛ وهو خبز معجون بالسكر وصفرة البيض، فإن انتصف النهار ومرت بعده ساعة يأكلون أكلا ذريعا، فمن كان من الأعيان الذي لا حرج عليه أو اعتذر بمرض يأكل من اللحوم أيها شاء، ومن لم يكن من الأعيان أو نوى الصوم في زعمه يأكل لحم الحوت والبيض وغيره،

(1) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 61

(2) المصدر نفسه، ص 248.

(3) ففي حديث أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الذي يشرب في آنية الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم»، وهذا الحديث يقضي الحظر والمنع من اتخاذ أواني الفضة واستعمالها في الشرب والأكل فيهما واتخاذهما، أنظر: ابن عبد البر القرطبي، فتح المالك بترتيب التمهيد لابن عبد البر على موطأ الإمام مالك، ج 10، تحقيق: مصطفى صميدة، منشورات الكتب العلمية، بيروت، 1997، ص 55-56،

(4) المصدر نفسه، ص 248.

ويشرب من الخمر ما شاء صرفاً أو ممزوجاً، ومتى عطش يشرب على اختياره، حتى إذا انتصف الليل يأكل ما خف، قدر نصف رطل في زعمه، فيبيت إلى الغد إلى حين انتهائه من نومه يشرب على العادة...»⁽¹⁾.

ومثل هذه الصورة ذكرها المكناسي في القرن الثامن عشر «...أنهم يشربون صباحاً كأساً من الشكلاط، وبعد نصف النهار بساعة يأكلون من الخبز والسمك والخضر ما قدروا عليه، وبالليل يأكلون أيضاً في صومهم المذكور البياض وهو عندهم اللبن والجبن والسمن والبيض...»⁽²⁾.

ونلاحظ أن من أكثر عوائد الطعام والشراب عند الأوروبيين التي أثارت نظر هؤلاء الرحالة هي عادة شرب الخمر، الذي يشربونه حسب الغساني: «...في كل حين من أحيانهم وعند أكلهم، وأكثر شربهم الخمر، فقلما تجد من يشرب الماء في جميع هذه البلاد، ومع هذا وكثرة استعمالهم الخمر فلا تجد أحداً منهم ثملاً ولا مسكراً ولا مغيب للعقل، والذي يشرب منه الكثير حتى يصل منه إلى السكر يزف ولا يعد عندهم شيئاً أصلاً...»⁽³⁾، إذ كانت كل الفئات الاجتماعية تشرب الخمر: «...ولاستعمالهم إياه جميعاً رجالاً ونساءً وصبياناً ذكراناً وإناثاً خصوصاً وعموماً ورهباناً وقسوساً وثمامس وفرايلية وغيرهم، بحيث لا يدع أحد شربه ولا يستغني عليه»⁽⁴⁾.

ولارتباط الطعام والشراب بعادات المجتمع اكتشف الرحالة المغاربة في زيارتهم لإسبانيا أن من أجزل عاداتهم في الضيافة (خاصة طبقة الأعيان) وحفاوتهم بضيوفهم استقبالهم إياهم بتقديم الخمر لهم، يقول ابن عثمان أن أحد مستضيفيه بضواحي مدينة أندوخر: «...ذكر لنا أنه عنده خمر معتقة، وهذا فصل الشتاء وأنا آتيكم بها الساعة تشربونها لمحبتى فيكم، ظنا من أن المسلمين يشربون الخمر وهذا مبالغة منهم في الإكرام»⁽⁵⁾، وكذلك كان الأمر مع الغساني: «...فكثيراً ما تضرع ورغب في أن نساعفه في شرب شيء من الخمر، وأطنب في شكرها...فقلنا له لا يحل ذلك في ديننا ولا يسوغ في ملتنا، فجعل يشفق من شربنا الماء البارد صرفاً...»⁽⁶⁾، إذ شكل شرب الخمر واحداً من أهم مظاهر الغيرية المتعلقة بالعادات الاجتماعية في الأكل، لذا استغرب الأوروبيين كذلك تمنع المغاربة والمسلمين عن شربه وتناوله.

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 133.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 109، محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 186-187.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 84.

(4) المصدر نفسه، ص 84.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 71، 185.

(6) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 83.

ولأن الحديث عن الأكل كثير ما يرتبط بالواقع الاقتصادي في البلد المرتحل إليه، فقد ربط الغساني بين انتشار وكثرة غراسة الكروم في إسبانيا وخاصة في المدن المجاورة للعاصمة مدريد بكثرة تناول الخمر هناك: «أكثرنا غرسه لما يستعملونه من الخمر...»، ولا يكتفي الغساني بذكر تأثير عادة شرب الخمر على الواقع الزراعي فقط، بل حتى على الوضع التجاري، إذ كانت تجارة الخمر رائجة في مدريد وضواحيها: «...ولكثرة استعمالهم إياه وكثرة عمّار مادريد بأهلها وقصاها للسكنى والعمارة والتجارة يباع بها الخمر بأعلى ثمن، ويعطى عليه مكسا بباب المدينة ثلثا قيمته...»⁽¹⁾.

هذا ويعتبر الغساني أكثر الرحالة المغاربة تسجيلا لبعض عادات الأكل الأوروبي من بين رحلات القرنين السابع عشر والثامن عشر، فسجل مشاهدات مميزة عن الطعام والأكل خارج المنزل في إسبانيا أي في المطاعم، «وبالسوق عدة حوانيت لطبخ الطعام وصنعه للغرباء والضيوف والمسافرين الذين ليس لهم موضع معهود... فيأكل ويشرب ويدفع للمرأة ما يجب عليه في ذلك...»⁽²⁾، ويفسر الغساني ذلك بكثرة الفنادق ودور النزل بالنسبة للمسافرين الذين لا يضطرون لحمل زادهم معهم، ويبدو الغساني معجبا بذلك.

وعبرت الأسواق وما تحويه من سلع خاصة بالأكل عن مشاهد أخرى من خصائص المائدة الأوروبية وعن نوعية وطبيعة ما يؤكل، فيصف الغساني سوق مدريد: «...ونجد بهذا السوق من اللحوم البرية والوحشية والطيور ما لا عدة له، وهي ميتة بغير ذكاة والبعض منها بالحياة لمن يريد أن يجمع الدم لأكلهم إياه»⁽³⁾، وبين الغساني بطريقة غير مباشرة هذه الاختلافات في عوائد الأكل بين المسلمين والنصارى أو المغاربة والأوروبيين، لأن المسلمين لا يأكلون ما ذكر حديثه عن أنواع المأكولات من خلال ما يوجد في الأسواق من فواكه ولحوم وغيرها إلا أنه لا يضيف عليها عبارات دالة على الغرابة والاختلاف⁽⁴⁾.

ومن عادات الأوروبيين حسب الغساني: «أن لا يخبز أحد منهم بداره وجميع مونتته إنما هي من عالية السوق من كل شيء...»⁽⁵⁾، ولا شك أن الغساني في ملاحظته هذه يتمثل ثقافته المغاربية في تخزين المؤونة داخل البيت؛ إذ انتشرت عادة تخزين الأطعمة في البلاد المغاربية، وهي العادة التي تسمى "العولة"، حيث يخصص المغاربة في العادة ركنا

(1) المصدر نفسه، ص 84.

(2) المصدر نفسه، ص 108.

(3) المصدر نفسه، ص 108-109.

(4) المصدر نفسه، ص 109.

(5) المصدر نفسه، ص 108.

بالمنزل أو غرفة تسمى بيت "العولة" أو "بيت المؤونة"، كانت تخصص لوضع الجرار المعبأة بأنصاف من الأغذية، وهو إجراء احترازي من قبل السكان لتجاوز صعوبات فصل الشتاء ولتدارك صعوبات السنوات العجاف⁽¹⁾، ولا شك أن هذا الأمر يرجع في أوروبا إلى توفر الأسواق على كل شيء يحتاجه المطبخ والمائدة الأوروبية بخلاف السوق المغربي.

وبالإجمال نقول أن الخلفية الاجتماعية والثقافية والدينية تحكمت ولا شك في موقف الرحالة المغاربة في رصد صورة الأكل والمطبخ الأوروبي وما يحتويه من عادات وتقاليد وطقوس مختلفة دينيا واجتماعيا وثقافيا عما تركه رحالتنا في بلدانهم المغربية.

(1) عادل النفاقي، المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغرب: حفريات في أدب الرحلة القرن 16، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، 2015، ص95-96.

سابعاً: المؤسسات والنظم الصحية والاجتماعية في أوروبا

إذا كانت رحلة الحجري وهي أول ما تم تدوينه من كتب الرحلات إلى أوروبا في العصر الحديث لم تحتو ما يكفي من التفاصيل عن المشاهدات والانطباعات بشأن المدنية الأوروبية، فإن الرحالة المغاربة الذين تلوه على امتداد القرنين السابع عشر والثامن عشر قد سجلوا مشاهداتهم بإسهاب مختلف المرافق والتجهيزات ذات البعد الصحي والاجتماعي.

1- الكرنطينة (الحجر الصحي) وإشكالية الاحتراز

كانت الكرنطينة (Cuarantena) أولى مظاهر الحضارة الأوروبية التي اصطدم واحتك بها وتعرف عليها الرحالة المغاربة خلال هذه الفترة حتى قبل أن تطأ أقدامهم الأراضي الأوروبية، ورغم أن هذا النظام الصحي الاحترازي لم يكن جديداً على المغاربة⁽¹⁾، فإننا نجد ابن عثمان يأبى إلا أن يقدم صورة ووصفاً دقيقاً للإجراءات التي يسير وفقها هذا النظام في أوروبا القرن الثامن عشر فيقول: «وقد ذكروا لنا قبل أن لا بد لنا من أن نجعل الكرنطينة، ومعناها عندهم أن يقيم الذي يرد عليهم في موضع معروف عندهم معد لذلك أربعين يوماً لا يخرج منه ولا يدخل إليه أحد، وسبب ذلك أنهم يتحزون أن يدخل الوباء أرضهم وبلادهم... فيجعلون الكرنطينة احتياطاً وقطعاً للشك بحيث إذا كان في الوارد عليهم شيء من ذلك يظهر عليه في تلك المدة، وإن ظهر عليه شيء من ذلك فلا يدخل البلد، وحين تكمل الكرنطينة ولم يظهر عليه شيء يأتي الطبيب ويقلب من هو في الكرنطينة، فإن أخبر بأنه لا بأس به يدخل المدينة ويتلاقى مع الناس وإلا فلا...»⁽²⁾.

وفي "البدر السافر" تحدث المكناسي عن إجراءات عمل الكرنطينة، وكيف يقضي من طبق عليه هذا الإجراء الاحترازي الوقائي حوائجه: «وإذا أراد (المحجور) أن يقضي ما يحتاج إليه من المدينة، فينزل إلى موضع معين لذلك محيط به خشب مغروس في الأرض، ومن ورائه أناس معينون لقضاء أغراض من يكون في الكرنطينة بأجرهم، وينادي على أحدهم وينزل له الدراهم على خشبة من الخشب، ويقول له: اقض لي كذا... ولا يمس أحدهما الآخر...» ويضيف: «وإن أتى بكتاب فإنه يقبضونه منه بقصبة أو نحوها، ويغمس في الخل ويبخر ببخور وبعد ذلك يفتحونه

(1) ولم تكن هذه التدابير الوقائية غريبة على المغاربة ولم يكتشفوها في أواخر القرن الثامن عشر، فقد ذكر الناصري أن أحمد المنصور الذهبي أمر ولده أبا فارس ألا يقرأ البطائق الواردة عليه من السوس حيث ظهر الوباء، وإنما يتولى قراءتها كتابه بعد أن تغمس في الخل، فعلق الناصري على ذلك بأنه: «عمل من أعمال الفرنج ومن يسلك سبيلهم في تحفظهم من الوباء المسمى عندهم الكرنطينة» أنظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج5، دار الكتاب، الدار البيضاء-المغرب، 1997، ص183.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 09.

ويقرؤونه»، «فإن كمل حساب الكرنطينية ينظر في أهلها، فإن كانوا صحاحا وليس فيهم مريض، فإنهم ينزلونهم ويدخلونهم المدينة، بعد أن ييخرون في وسط أيام الكرنطينية وفي آخرها ببخور خبيث، قيل أن فيه خرو الكلاب والقطط، والكبريت وغير ذلك، وإن كان فيهم مريض أو مات أحدهم فإنهم يستأنفون العمل ولا يدخلون المدينة إلا إذا أكملوا العدد المذكور وهم سالمون»⁽¹⁾.

إن هذا الوصف الدقيق يجعلنا نستنتج أن "الكرنتينة" وإن لم تكن ظاهرة جديدة على المغاربة، فهي تظل ظاهرة غريبة عنهم ظلت تمثل بالنسبة لهم ظاهرة أوروبية، ولما ازداد احتكاك المغاربة بأوروبا كان عليهم أن يخضعوا لمثل هذه الإجراءات⁽²⁾، لذلك نرى ابن عثمان يجتهد في وصفها كتدبير غير مألوف، إذ يعتبر الحجر الصحي الذي شرعت أوروبا في اعتماده منذ القرن الثالث عشر واحدا من مؤشرات الاختلاف بين المسلمين وأوروبا⁽³⁾.

وإن كان ابن عثمان قد بدا منفتحاً على هذا الإجراء الصحي الأوروبي بقبول تطبيقه عليه في إسبانيا في رحلته الأولى لأوروبا، وإن لم يبد أي رأي أو موقف صريح من "الكرنتينة"؛ لكنه راح يبرر قبوله وقيامه بهذا الإجراء الاحترازي لقارئ رحلته في المغرب ويؤكد أن الإسبانين قد قللوا من أيام الحجر الصحي المطبق على السفارة المغربية اعترافاً بهيبة للسلطان المغربي وعلى شرفه، وأن مكوثهم في "منطقة الكرنطينية" كان شكلياً لا غير: «ونحن من مهابة سيدنا ومولانا وعلو قدره ومنصبه لم يجعلوا لنا شيئاً من ذلك... وقالوا لنا تجعلون الكرنطينية بهذه الدار أربعة عشر يوماً فقط على أعين الناس، وليست هذه الكرنطينية جارية على قوانينهم لأنه في كل يوم يأتي إلينا كبارهم وأعيانهم وحاكمهم ويجلسون معنا ويبحثون عن مقتضياتنا، ويتفقدون أحوالنا وعلامة صدقهم فيما ادعوه من جعل المزية لنا في ذلك أننا وجدنا عندهم نصارى إخوانهم وردوا من بلادنا بين أسوار المدينة يجعلون الكرنطينية كما هي عندهم»⁽⁴⁾، وكذلك كان الأمر لما أسقطت عليه إجراءات الحجر الصحي في نابولي: «... يقولون أنه من العادة أن يجعل الكرنطينية كل وارد، وأن الطاغية أمر بإسقاطها عنك فرحاً بقدمك...»⁽⁵⁾.

إلا أن المكناسي يبدي نوعاً من الامتناع بخصوص مروره على "الكرنتينة" في رحلته إلى مالطا، فنراه مستنكراً مرورهم على هذا الإجراء، وذهب لإيصال موقفه هذا للمالطيين: «... قال: إنكم تجعلون الكرنطينية، فقلت له: ومن

(1) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 102

(2) المصدر نفسه، ص 59.

(3) محمد أفندي، مصدر سابق، ص 40.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 10.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 131.

أي وجه تتجه علينا، ونحن قدمنا من بلاد الأصبنيول، وبلادنا ليس بها بأس مما تحتزون منه⁽¹⁾، ولو كان بها شيء من ذلك لمنعوننا من الدخول إلى بلادهم من قبلكم؟ فقالوا لا بد من ذلك وهذا الأمر يلزم كل من يرد علينا، لأنكم لا بد أن تتلاقوا مع بعض مراكب الاصبنيول الحربية، وهم ربما تلاقوا مع مركب ورد من بلاد مشكوك فيها، فمن أجل ذلك يتعين عليكم ما ذكر...».

وتظهر ردة فعل المكناسي الغاضبة من ذلك بقبوله هذا الإجراء لكن ليس في الدار المعدة لذلك بل رفض النزول من سفينته التي جاء فيها وفضل قضاء أيام الحجر الصحي بها، تعبيرا منه على امتعاضه: «...والآن تمكثون في الكرنطينة عشرين يوما، وهاهنا الدار المعدة لها، فإن شئت أن تنزل إليها نبعث من يهيئها، وتنزل حتى تكمل الكرنطينة، فقلت لهم: لا أنزل فيها، وأيام الكرنطينة التي ذكرتم أمكث فيها في المركب حتى تنقضي»⁽²⁾.

فلاحظ أن ابن عثمان تقبل الخضوع لإجراءات الكرنطينة في إسبانيا وراح يبررها مظهرها تلطفا في الكلام بخصوص الإسبان، إلا أن موقفه الراض لرفض الإجراءات في مالطا، يعود ربما إلى طبيعة العلاقات مع الطرفين، فبينما استقبل ابن عثمان وسفارته المغربية أحسن استقبال وترحيب شعبي ورسمي حفاه به حكام إسبانيا، إلا أننا نجد عكس ذلك لما وصل إلى سواحل مالطا، ورأى خيفة وتوجس حكام هذه الأخيرة لما رأوا المركب المغربي، وتشكيكهم في هدف السفارة المغربية واحتمال أن تكون لغرض غير فكاك الأسرى، بل بهدف احتلال الجزيرة المتوسطية، وهو موقف لا يعاكس نظرة المغاربة لفرسان مالطا، لذا رأى ابن عثمان فيمن يقومون على سير "الكرنتينة" بمالطا أنهم جواسيس يراقبون من طبق عليهم الحجر الصحي من المسافرين: «فأتوا بنصراني أطلعوه إلى مركبنا وقالوا: إن هذا النصراني يتقضى لكم أغراضكم... فلا يخرج إلا إذا خرجنا، هذا حكمه في الظاهر، وأما في الباطن فهو عين وجاسوس على أهل الكرنطينة، لأنه لا يكون عندهم مريض ويسترون أمره»⁽³⁾.

ولأن السفراء المغاربة توجهوا إلى أوروبا خلال هذه الفترة بكثير من الثقة في أنفسهم وقوتهم، لذا لا يستبعد أن شعور ابن عثمان بنوع من الإهانة كونه يمثل سفير سلطان المغرب وما كان له أن يقوم بهذا الإجراء الوقائي على الأقل بالطريقة التي كانت في مالطا، وقد علق المكناسي كثيرا ووقف عند فترة قضاء الحجر الصحي ولم يستسغها بسهولة، واعتبر ربما الالتزام بها إهانة لشخصه كسفير واستنقاصا لدولته ولمرسله.

(1) عكس ما ذهب إليه صاحب الرحلة ابن عثمان المكناسي فقد كان الوباء في الفترة التي وصل فيها إلى مالطا منتشرا في أرجاء المغرب، فقد أشار المؤرخ ابن سودة إلى ذلك في قوله: «وفي هذه السنة (1194هـ/1780م) كان بالمغرب حمى ومات به خلق كثير، كذا وجدته مقيدا، ولعله هو المسمى بمرض التيفوس». أنظر: عبد السلام بن سودة، مرجع سابق، ص50.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص101.

(3) المصدر نفسه، ص102.

ورغم أن السفير المغربي لم يخض في مشروعية هذا الإجراء الاحترازي إلا أن رده الممتنع في مالطا والتبريري في إسبانيا يعكس موقفه المتذبذب، فلا يمكن نفي أن يكون موقف ابن عثمان هذا نابع من ثقافته ورؤيته حول موضوع الاحتراز من الأوبئة والأمراض، خاصة وأن النقاشات حول هذا الإجراء الصحي قد أخذ قسطا معتبرا في فتاوى وكتابات فقهاء وعلماء المغرب نهاية القرن 18م وطيلة القرن 19م⁽¹⁾، فإشكالية العدوى والاحتراز طرحت بقوة طيلة هذه الفترة كما ارتبطت بسعي القوى الأوروبية إلى فرضها كإجراء صحي وقائي على المغرب والمغاربة حينئذ⁽²⁾.

2- المستشفيات

ومن أهم هذه المرافق المتعلقة بالواقع الصحي في أوروبا هي المستشفيات، فكان الاهتمام بها هو اهتمام بالتنظيمات والهياكل المخصصة لهذا القطاع أكثر منها اهتمام بطبيعة هذا الواقع من أمراض أو جوائح وغيرها، فيقول الغساني متحدثا بإعجاب كبير عن المستشفيات في إسبانيا: «...فإن ببلاد إسبانيا من الممارسات ما لا يعد، وفي مدينة مدريد أربعة عشر مرتسنا في غاية الكبر والنظافة والإقامة من الفراش والطعام والأشربة والمعاجين من يقوم بأمور المرضى، فيجعلون للمريضات عجائز يخدمن ويقمن بهن، وللرجال رجالا، وهن في غاية التحفظ والمعالجة من غير تفریط بشيء يحتاجه المريض قليلا كان أو كثيرا»، وقد اقترن حديث الغساني بعبارات الدهشة والانبهار والاستغراب، ثم إن الغساني يبدي إعجابه بما رآه من تنظيم واهتمام: «فلقد دخلت منها عدة فرأيت فيهم من الإقامة ما له بال ومال...»⁽³⁾.

وفي كل مستشفى منها مخازن عدة مشحون كل واحد منها بما هو معد له من الزيت والخل والمعاجين والأشربة، وموضع الطبخ، فإذا دخل الطبيب على المريض وجس يده وعرف حالته يكتب بطاقة يدخلها للقيم على المرضى وهو يدفعها للقيمة على الطبخ، ويحضرون له ما أمر به الطبيب، فيما كانت الصدقات هي المساهم الأبرز في تمويل احتياجات المستشفيات، يقول الغساني: «ولكل مارستان من هذه طبيب معلوم...وجميع مؤونة الطبيب وما يتعلق به وبحشمه من الضروريات ومعيشته كلها من الأوقاف...»⁽⁴⁾.

(1) بخصوص هذه الكتابات، أنظر: محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الرباط 1992، ص 403-406.

(2) أحمد المكاوي، «إشكالية العدوى والاحتراز من الأوبئة في المغرب القرن 19م»، ضمن أعمال الأيام الوطنية العاشرة : المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مدينة الجديدة-المغرب، أكتوبر 2002، ص 405.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 111.

(4) المصدر نفسه، ص 111.

وتحتوي هذه المستشفيات مستودعا لألبسة المرضى، حيث يدخل المريض وتستبدل ألبسته بألبسة أخرى، فيزيلون له جميع ما عليه من الثياب، ويرفعونهم في البيت المعد لذلك، ويكتبون عليها بطاقة بتعريف الحوائج وصاحبها، ويلبسونه حوائج أخرى خاصة بالمرضى، ويجعلون له سريرا عليه لحافان وإزاران ووسادة، وكل ثمانية أيام يغسلون الثياب التي عليه، ويجعلون له ثيابا أخرى، فإن قام من مرضه ألبسوه حوائجه التي أتى بها وينصرف إلى سبيله، ومن مات يُكفن من وفر المارستان ويُحسب عن أهله ويدفعون لهم ثيابه التي تركها هناك.

ويبدو أن انتشار هذه المستشفيات الكبير في إسبانيا كان مرتبطا بكثرة الكنائس التي كثيرا ما تلعب هذا الدور الاجتماعي والصحي، خاصة وأن هذه المستشفيات تتبع الكنيسة، كما أن المشرفين عليها غالبا كانوا من الرهبان، المنتسبين إلى القديس سان خوان دي ديوس (1495-1550)⁽¹⁾، والذين يقومون في كل موضع بأمور المرض من المعالجة وغيرها، فصاروا يجعلون مستشفيات في كنائسهم ويقومون بأمور المرضى أتم قيام.

ورغم إعجابه وانبهاره بالمرافق التي تخص الواقع الصحي في مدريد، إلا أن الغساني يأبى علاج أحد أعضاء الوفد السفاري المغربي في أحد هذه المستشفيات؛ لما علمه أن القيمين عليها هم من الرهبان يقول: «وهذا الجنس الذين هم منسوبون إلى هذا الفريلي سان كوان هم أكثر الناس خدمة للمرضى ولهم اعتقاد في ذلك، ولقد مرض بعض أصحابنا ونحن مقيمون بمدينة سان لوكار، وكان هذا الجنس يختلفون إلينا للزيارة، فلما رأوا المريض طلبوا منا أن ينقلوه إلى موضعهم ليعالجوه ويقوموا بأمره، فمنعتهم من ذلك فتغيروا، وقالوا أحببنا الحسنة فما ظننا أن تمنعنا منها، ورغبوا في ذلك كثيرا فلم أطلق لهم في شأنه بطرف، فلم يزالوا يعودونه حتى يبرئ...»⁽²⁾.

وبالموازاة مع ذلك يعترف الغساني بأخلاق الأطباء والمرضى عند مزاوله أعمالهم داخل المارستان، حيث يخبرنا أن المريض إذا دخل المارستان سوف يجد في خدمته كل العاملين بهذه المؤسسة، فطعامه وشرابه ودواؤه ولباسه شيء مضمون بالداخل، إن هذه المعاملات الإنسانية التي تمتع بها الرهبان القائمين على هذه المستشفيات جعل الغساني يعترف في الأخير أن الموظفين العاملين بتلك المؤسسة لا تنقصهم إلا شهادة أن لا إله إلا الله⁽³⁾.

(1) عملت الطائفة الدينية التابعة لهذا الراهب في منذ منتصف القرن السادس عشر على تقديم الخدمات الاجتماعية والصحية للمحتاجين والفقراء واليتامى والمهملين في إسبانيا ليستمر عملها إلى قرون لاحقة إذ قامت بإنشاء عديد المستشفيات وجمع المال الخاص بها وتعيين الأطباء والمرضى والإشراف عليها في كل ما يحتاجه العاملون والمرضى، ليس فقط في إسبانيا بل في العديد من الدول الأوروبية وحتى في أمريكا، ورغم أن هذه التنظيمات الصحية ذات طابع اجتماعي، إلا أن الغايات من تفرغ الرهبان للعمل التطوعي فيها له بعد ديني بحث هدفه التقرب إلى الله من خلال هذه الأعمال الخيرية. للمزيد أنظر:

Francisco Ventosa Esquinaldo, **Pensamiento de San Juan de Dios y la Orden Hospitalaria y su relación con la Enfermería: conceptos y valores**, Archivo-Museo San Juan de Dios "Casa de los Pisa". Granada, 2012, P 197-200.

(2) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 111.

(3) عبد المنعم بونو، مرجع سابق، ص 84.

ونذكر أن رحالتنا المغاربة سواء خلال القرن 17م أو 18م أنتجوا نفس الصورة بخصوص المستشفيات الإسبانية وتنظيمها، لذا سوف نكتفي بذكر مقطع من وصف لهذه المستشفيات، لأن القارئ لهذه الرحلات لا يجد تباين ولا إضافات مهمة حول ما حملته هذه النصوص رغم تباعدها زمانيا، فانتبه الغزال لوجود مستشفى في كل مدينة مر بها مثل قرطاجنة اشبيلية وطليلة⁽¹⁾، وفي مدريد وحدها كان هناك اثنتا عشر مستشفى⁽²⁾، وقد وصفها الغزال وصفا دقيقا من كافة الجوانب العمرانية والخدمات المتوفرة فيها والتنظيم الموجود هناك، وأنواع الأمراض وتصنيفها في المستشفى، إلى حالة المريض من لحظة دخوله المستشفى إلى لحظة خروجه وعن العناية والتنظيم الموجودة هناك⁽³⁾، ولا يختلف وصف ابن عثمان في وصفه لهذه المؤسسة الصحية عما ذكره سابقه⁽⁴⁾.

3- مؤسسات التكافل الاجتماعي

ومن التنظيمات والمؤسسات التي تعبر عن مظاهر الحضارة الأوروبية في مجالها الاجتماعي والإنساني التي لفتت انتباه الرحالة المغاربة خلال القرن الثامن عشر هي تلك المؤسسات الخاصة بالتكافل الاجتماعي المنتشرة وسط المجتمعات الأوروبية، ونقلوا بعضا من صورها، فالغزال يصف المؤسسة التي تقيم بالنساء الطاعنات في السن اللاتي لا يجدن مأوى لهن ولا كفيل أثناء تواجده بمدينة مدريد: «... فإذا بالطريق المعمورة نافذة للاسبیطال في غاية الكبر طولا وعرضا، فاستوعبناه بالعبور، فإذا فيه بيوت عديدة ومقاعد طويلة وبصحنه أشجار النارج وخصص بالماء العذب وقد استقل بالنسوة المرضى والقيم عليهن مثلهن من النسوة اللواتي لا أهل لهن ولا مال...»⁽⁵⁾، فالظاهر أن هذه المؤسسات الخيرية كانت ملحقا بكثير بالمؤسسات الاجتماعية خاصة المستشفيات.

ويؤكد المكناسي على التكفل الرسمي من الدولة بالفقراء واليتامى وإدماجهم في النشاط الاقتصادي، ومن ذلك يقول ابن عثمان: «...ومن غريب ضبط هؤلاء الكفرة وتبصرهم بأمور دنياهم أن جمعوا في هذه الدار-دار نسج الحرير-من الصبيان اليتامى والأرامل عدد كثيرا وكلهم هنالك بقصد أن يتعلموا الصنعة، وكل واحد من اليتامى يخدم الصنعة التي يريد والطاغية ينفق عليهم في مأكلكهم وملبسهم وسائر مؤنهم إلى أن يتعلموا من الصنعة ما يقوم بمعاشهم»⁽⁶⁾، وهو أمر بلا شك استغرب منه المكناسي وأعجب به حقا، لأنه لم يألّف مشاهدة مثله في بلاده.

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 169.

(2) المصدر نفسه، ص 155.

(3) المصدر نفسه، ص 53-54.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 147.

(5) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق ص 86.

(6) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 146-147.

ويظهر أن هذه الظاهرة لم تكن تخص دولة دون أخرى بل كانت ظاهرة اجتماعية أوروبية عمت كثير من بلدان القارة، ففي نابولي قدم ابن عثمان المكناسي صورة شاملة موجزة دقيقة في الآن نفسه عن "دار التكفل بالفقراء والمساكين" وقال فيها: «ومن جميل آثار هذه الحاضرة أننا دخلنا ذات يوم للفقراء والمساكين...وهذه الدار عينها الطاغية لليتامى والأرامل الذين ليس عندهم من يكفلهم، وعين أقواما يبحثون عنهم في الأزقة ويأتون بهم إلى هذه الدار، وبها جميع الحرف والصنائع، فكل واحد يتعلم ما تميل إليه نفسه، والطاغية يقوم بمئونتهم من أكل وشرب وكسوة...وفي كل سنة يتفقدهم فمن بلغ ثماني عشرة سنة وتعلم حرفة تقوم بمعاشه يعطيه الطاغية الآلة التي يخدم بها حرفته، ويخرجونه يخدم على رأسه، وعلى هذا عملهم يجمعون فيها الأرامل، حتى يتعلمون ما يقوم بمعاشهم من الحرف، ويبلغون ثماني عشرة سنة ويخرجون، وقد أخبرني القيم على الدار المذكورة أن فيها ثلاثة آلاف قبة ونيف، ولا زالت الخدمة بها إلى الآن، وهذا والله من عمل الناس، ويا ليتهم لو بنوا على أساس»⁽¹⁾.

والصورة نفسها تقريبا في حديثه عن ميثم للبنات في صقلية: «ومن حضارة أهل هذه المدينة، أننا دخلنا ذات يوم إلى دار كبيرة معينة للصبيايات اليتيمات المهملات...وأرثنا المعلمات اللواتي يعلمن الصبيايات المذكورات الصنائع من الغزل والنسيج والرقم والطبخ وغير ذلك من حرف النساء، وقالت المقدمة أن الطاغية ينفق عليهن من عنده، ويعطين الكسوة كل سنة ويعطي المعلمات أجرة تعليمهن، ويمكث البنات هنالك إلى أن يتزوجن، فلا تخرج من الدار المذكورة إلا وقد تعلمت صنعة من الصنائع وتدفع لزوجها»⁽²⁾.

ورغم إعجاب المكناسي كثيرا بهذه الظاهرة الاجتماعية والانسانية ووصفه إياها أنها "من جميل هذه الحاضرة"، لكنه ينظر لها كظاهرة تعبر عما وصل إليه الأوروبيين في تنظيم دنياهم وتبصرهم فيها، أما عن دينهم فقد خالفوا الصراط المستقيم ونلمس ذلك في قوله: «وهذا والله من عمل الناس، ويا ليتهم لو بنوا على أساس»⁽³⁾، أي ليتهم كانوا على الدين الصحيح.

كما أن الرحالة المغاربة لا يقدمون تفسيرات للظاهرة المشاهدة أمامه ولا يبحثون فيها، أي الأسباب المؤدية لتشرد الأيتام والأرامل والفقراء في البلاد الأوروبية حتى تكفلهم الدولة والمؤسسات الاجتماعية، رغم إشارتهم أن هدف الدولة من ذلك هو توفير التكوين الاقتصادي الجيد لهؤلاء اليتامى والمهمولين، حتى لا يشكلوا عبئا على الدولة بل عنصرًا فاعلاً فيها.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 168.

(2) المصدر نفسه، ص 194.

(3) المصدر نفسه، ص 168.

كانت هذه أهم الصور والتمثيلات التي نقلها الرحالة المغاربة عن المجتمعات الأوروبية، وهي صور كما قلنا قدمت المجتمع الأوروبي والإسباني على وجه الخصوص بأعين مغربية كشفت عن العجيب والغريب فيها وعن عادات وتقاليد هذه المجتمعات، وحكموا عليها بأحكامهم وثقافتهم الاجتماعية، وتبقى لما نقله هؤلاء الرحالة أهمية تاريخية لأنهم صوروا الأوروبيين بصورة مختلفة.

الفصل الخامس: الواقع العلمي والثقافي في أوروبا خلال القرن 17 و18م

- أولا: الاستشراق الأوروبي نهاية القرن 16 ومطلع القرن 17م: الحجري ناقلا ومساهما
- ثانيا: واقع التعليم في أوروبا
- ثالثا: التطورات الصناعية والتقنية الأوروبية
- رابعا: مظاهر الثقافة الأوروبية

الفصل الخامس: الواقع العلمي والثقافي في أوروبا خلال القرن 17 و18م

وكذلك كان للواقع العلمي والثقافي حضوره في نصوص الرحلات المغربية التي توجهت إلى أوروبا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولو بدرجات متفاوتة، بما حمله هذا الواقع من مظاهر ثقافة وعلمية جديدة كل الجدة عليهم، وسنحاول في هذا العرض الوقوف على نظرة الرحالة المغاربة إلى هذا الواقع راصدين ردود أفعالهم تجاه مظاهره.

أولاً: الاستشراق الأوروبي نهاية القرن 16 ومطلع القرن 17م: الحجري ناقلا ومساهما

مرت حركة الاستشراق الأوروبي بعدد من المراحل حتى وصلت أوجها في القرن التاسع عشر، كان منها مرحلة تأسيسية لميدان الدراسات العربية في أوروبا نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، الذي يعد القرن الذهبي للدراسات العربية هناك، وهي فترة تزامنت مع تواجد أحمد بن قاسم الحجري في أوروبا سواء في إسبانيا أو فرنسا وهولندا، وكان له خلال رحلته هاته اتصال مع المستشرقين الأوروبيين، حيث يُظهر الحجري كما بينه نص رحلته ونصوصه المختلفة عن واقع الاستشراق الأوروبي ليس مشاهدا وناقلا للصورة فقط؛ بل ومساهما في الدراسات العربية في أوروبا أثناء تواجده هناك وبعدها.

وكان ارتباط الحجري بالاستشراق الأوروبي خلال هاته الفترة تمثيلا لواحدة من الظواهر المهمة في تاريخ الاستشراق ونمو الدراسات العربية في أوروبا؛ والمتمثلة في اتصال عدد من رواد الاستشراق ومن المهتمين بدراسة اللغة العربية ببعض الشخصيات العربية من المثقفين غالبا، الذين كانوا خير معين لأولئك المستشرقين في تعلم العربية وإتقانها، إلى جانب تزويدهم ببعض الكتب العربية أو المساعدة في الحصول عليها.

وكان الحجري من هذه الشخصيات التي تبوأ مكانة مميزة في تاريخ الاستشراق؛ فلقد استطاع نتيجة لعوامل عديدة تعود إلى تكوينه العلمي، وتعدد اللغات التي يعرفها، وإلمامه بثقافة عصره وثقافات الأمم الأخرى، وحضوره وقوة منطقته وجداله ومنصبه الرسمي الذي أتاح له السفارة والتنقل... استطاع أن يكون صاحب فضل على عدد من رواد الاستشراق في فرنسا وهولندا، وهي البلاد التي زارها في رحلته⁽¹⁾، وتكشف رحلته وآثاره عن أهمية لقائه بهم في دفع عجلة الاستشراق والدراسات العربية خلال هاته الفترة، وعليه كان التساؤل: ماهي أبرز الصور التي نقلها أحمد بن قاسم الحجري عن واقع الاستشراق والدراسات العربية في أوروبا في فترة نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر؟ وكيف كانت إسهاماته فيه؟

(1) رشا الخطيب، مرجع سابق، ص 62-63.

1- الدراسات العربية في إسبانيا

حسب الصورة التي نقلها الحجري في رحلته يظهر أن اهتمام الإسبان بالدراسات العربية نهاية القرن 16م ومطلع القرن 17م كان ضحلا وقليلًا جدا، خاصة إذا ما قارناه مع ما كان من اهتمام بالدراسات العربية والإسلامية عموما في هولندا وفرنسا، ويعطي مؤلف "ناصر الدين على القوم الكافرين" سببا وجيها لهذا الغياب والانكساف للدراسات العربية في إسبانيا، وهو العقوبات والمضايقات التي فرضتها السلطات الدينية والسياسية الإسبانية على كل من له علاقة بالإسلام ورموزه، ومن أهم هذه الرموز طبعا هو اللغة العربية التي منع استعمالها ودراساتها على الموريسكيين، ويعبر الحجري عن ذلك في قوله: «... ولم يظهر للنصارى أنني نقرأ (العربية) لما كانوا يحكمون فيمن ظهر عليه ذلك... قلت في نفسي: كيف الخلاص والنصارى تحرق لمن يجدون عنده كتابا عربيا ويعرفون أنه يقرأ بالعربية؟...»⁽¹⁾، حتى كان حمل كتاب باللغة العربية شبهة قد تعرضه صاحبها ومجموعته "لعذاب الحراقين"⁽²⁾.

وارتبط اهتمام الإسبان بدراسة العربية وكتبها في نهاية القرن السادس عشر وفقا لنص رحلة الحجري بسعيهم لترجمة النصوص الدينية القديمة، التي عثر عليها في غرناطة سنة (986هـ/1588م)، المعروفة بكتب الرصاص (Libros plúmbeos أو Plomos del Sacromonte)، إذ وجدت تحت أنقاض صومعة هناك والتي: «وجدوا في حيطها صندوقا من حجر وفي داخله صندوق من حجر، وفي داخله رصاص، وفيه وجدوا بعد فتحه رقا كبيرا مكتوبا بالعربية والعجمية المتصرفة في تلك البلاد...»⁽³⁾، وتكرر إيجاد كتابات مشابهة في غرناطة، وعمل الإسبان على ترجمتها ودراساتها والتحقق منها، ولا عجب في ذلك في ظل توجهات إسبانيا الدينية الكاثوليكية التي كانت تصبوا إلى مجابهة مد البروتستانتية بحركة إصلاح مضادة، لذا يعبر صاحب الرحلة عن الفرحة التي غمرت القسيس الكبير⁽⁴⁾ لما وجد "رق" نسب إلى أحد الرهبان المهمين في تاريخ كنيسة غرناطة: «فلما رأوا ذلك أتوا إلى القسيس الكبير، وفرح فرحا عظيما؛ لأن النصارى كان عندهم في كتبهم بموت سيسليوه...»⁽⁵⁾.

(1) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 56-57.

(2) المصدر نفسه، ص 60-61.

(3) المصدر نفسه، ص 51-52، 53-54.

(4) والمقصود هنا رئيس أساقفة غرناطة بيدرو دي كاسترو (Pedro de Castro) وهو الذي روج لعملية البحث في هذه الكتابات، ولد بيدرو دي كاسترو، في روا (بورغوس) بإسبانيا عام 1534، تلقى تعليمه في بلد الوليد وسالامانكا. شغل مناصب مختلفة في عهد فيليب الثاني، من بينها رئاسة مستشاري غرناطة (1578-1583) وبلد الوليد (1583-1589). كان رئيس أساقفة غرناطة (1590-1610) وإشبيلية (1610-1627). توفي في إشبيلية، أثناء ممارسة رئيس أساقفته. أنظر:

Gonzalo Roldán Herencia, «La construcción del rito de San Cecilio en la Catedral de Granada», Nuevas perspectivas sobre el Barroco Andaluz. Arte, Tradición, Ornato y Símbolo, coord: María del Amor Rodríguez Miranda, Asociacion Hurtado Izquierdo, Gordoba, España, 2015, P 455.

(5) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 53.

ومثل هذه الأغراض كانت السلطات الإسبانية تحتفظ لها ببعض الموريسكيين الذين يتقنون العربية للعمل كمتترجمين رسميين⁽¹⁾، ومن ذكرهم الحجري: «...الأكيحل الأندلسي وكان ترجمان بالإجازة⁽²⁾، والشيخ صالح الجبس⁽³⁾، وغيرهم من الأندلس الكبار السن الذين يعرفوا القراءة العربية وأمرهم الشيخ بترجمة ما في الرق...»⁽⁴⁾، وكان الحجري نفسه من هؤلاء المترجمين الذين اعتمد عليهم الإسبان في ترجمة هذه الكتب⁽⁵⁾.

كما أشار الحجري إلى اهتمام كبار الرهبان في إسبانيا بتعلم اللغة العربية لذات السبب، مثل ما ذكره عن توجه قسيس غرناطة الكبير لتعلم العربية: «وتعلم يقرأ بالعربية القسيس الكبير...»⁽⁶⁾، ويضيف الحجري صورة أخرى عن اهتمام الإسبان بالكتب العربية لما زار مكتبة بيت أحد الرهبان الذي دعاه للترجمة: «...وحملني إلى داره، وكان عنده كتب في كل فن ولسان، فأخرج من كتب العربية وقرأنا وترجمت له بعض الكلمات التي كان يتوقف عندها...»⁽⁷⁾.

ورغم أن الحجري لم يذكر عناوين هذه الكتب العربية ولا مؤلفيها إلا قليلا، مثل ذكره لكتاب الجوهري، من أجل المساعدة في ترجمة النصوص الدينية: «...فاحتجنا كتابا في اللغة إلى فهم ذلك، فأعطاني الجوهري في سفرين

(1) للمزيد حول المترجمين الموريسكيين في إسبانيا خلال الثلث الأخير من القرن 16م أنظر:

Mercedes Garcia-Arenal Rodriquez and Fernando Rodríguez Mediano, **The Orient in Spain: Converted Muslims, the Forged Lead Books of Granada, and the Rise of Orientalism**, Translated by: Consuelo López-Morillas, BRILL, Leiden- Boston, 2013.

(2) الأكيحل الأندلسي: أو ألونسو دي كاستيو (Alonso de Castillo) ولد في الفترة بين 152-1530، من بين أشهر الشخصيات الموريسكية في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وهو من عائلة غرناطية، درس الطب في جامعة غرناطة، أين اشتغل كطبيب ومترجم لصالح السلطات المحلية، وخصوصا لدى أساقفة غرناطة، تم تكليف بترجمة الكتب الرصاصية، كذلك جعله فيليب الثاني مترجما رسميا، خصوصا فيما يتعلق بمراسلاته مع السلطان المغربي أحمد المنصور الذهبي، كما كلف بفهرسة المخطوطات العربية بالأسكوريال، توفي تقريبا في حدود سنة 1607م. أنظر: محقق رحلة الحجري، ص52. بتصرف.

(3) الشيخ صالح الجبس: يرجح أن يكون الموريسكي المعروف في إسبانيا باسم مانويل دي لونا (Miguel de Luna) هو نفسه "الشيخ صالح الجبس" ولد بغرناطة حوالي سنة 1550 وتوفي بها سنة 1619م، وكما ذكر الحجري، فإن مانويل دي لونا (صالح الجبس) كان من بين أهم الشخصيات التي وجهت لترجمة الكتب الرصاصية المذكورة، كما درس الطب في جامعة غرناطة واشتغل به، واشتغل على دراسة الأدب، كما اشتغل كمتترجم لدى السلطات في غرناطة، قبل أن يعينه الملك الإسباني فيليب الثالث مترجما رسميا للعربية بين سنوات 1607 و1610. أنظر:

Mercedes García-Arenal y Fernando Rodríguez Mediano, «**Médico, traductor, inventor: Miguel de Luna, Cristiano árabe de Granada**», *Chronica nova: Revista de historia moderna de la Universidad de Granada*, N° 36, 2006, P 187-194.

(4) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص52.

(5) المصدر نفسه، ص57.

(6) المصدر نفسه، ص52.

(7) المصدر نفسه، ص54.

بخط أندلسي قديم...، والمراد به على الأرجح كتاب "معجم الصحاح" المعروف كذلك بـ"تاج اللغة وصحاح العربية" لإسماعيل بن حماد الجوهري أحد أشهر علماء اللغة في القرن الرابع هجري/التاسع ميلادي⁽¹⁾، بالإضافة إلى تدارسهم كتاب نزهة المشتاق للإدريسي في الجغرافيا: «...والكتاب الذي كان يقرأ للقيس كان يسمى بنزهة المشتاق»⁽²⁾، واستعمل هذا الكتاب الجغرافي أيضا في ترجمة بعض المناطق والمدن التي وجدت في هذه الأجفار والنصوص الدينية⁽³⁾. مع أننا لا نستبعد اعتماد الإسبان على هذا الكتاب في كشوفاتهم الجغرافية.

ومهما تكن الغايات التي حركت الإسبان إلى التوجه للاعتماد على الدراسات العربية نهاية القرن السادس عشر، فإنه لا يمكننا النفي أنها كانت الأولى المعبرة عن انطلاق الدراسات الاستشرافية في إسبانيا.

2- الدراسات العربية في فرنسا

وإن كان الاهتمام بالدراسات العربية في إسبانيا ضئيلا كما رأينا، فإن رحلة الحجري إلى بلدان أوروبا الشمالية وفرنسا كشف له عن بالغ الاهتمام الذي أولاه العلماء هناك لدراسة العربية، وهذا ما تظهره المقارنة التي تحدث فيها صاحب الرحلة عن واقع الدراسات العربية في مختلف الدول الأوروبية: «.. رجال البلاط الفرنسيون أكثر نبلا وحبا للاطلاع من الإسبان، وأكثر ذكاء... يدرس في هذه المدينة (باريس) كل أنواع العلوم بلغات مختلفة كاللاتينية والعبرية والعربية⁽⁴⁾ في كل يوم تطبع كتب في علم العربية هكذا في روما، هولندا، وألمانيا وباريس يترجمون بعض الكتب ويوفقون في الغالب»⁽⁵⁾.

فتعبير الحجري يلفت إلى ذلك المناخ الثقافي الذي كان سائدا في أوروبا وقتئذ، فقد كان علماء هذه الأخيرة متعطشين لمعرفة كل شيء عن العربية وثقافة مجتمعاتها، ومما يزيدنا اقتناعا بهذه الرؤية هو الاتصالات التي ربطت بين

(1) المصدر نفسه، ص56.

(2) المصدر نفسه، ص54.

(3) المصدر نفسه، ص59-60.

(4) كان الحجري دقيقا في هذه الإشارة للغات المدرسة في جامعات أوروبا، فقد لعب اللاهوتيون البروتستانت في هذه البلدان (خاصة في جامعة ليدن بهولندا) منذ البداية (الربع الأخير من القرن 16م) دورا مهما في التركيز على البحث المستقل في التوراة والإنجيل، وبطبيعة الحال الاهتمام باللغات التي كان الكتاب المقدس مكتوب بها، وبما أن العهد القديم كتب باللغة العبرية والآرامية، فلا عجب أن ازدهرت اللغتين منذ البداية في هذه البلدان وبشكل منطقي وأوتوماتيكي أدت هذ البحث إلى دراسة اللغة العربية، فمعجمية اللغة العربية وسعة أدبها ونحوها الموصوف بالدقة، كلها مجتمعة وضعت حولها هالة من الأهمية، وذلك من أجل فهم أفضل للغة العهد القديم. أنظر: يان بروخمان، «الدراسات العربية في هولندا»، ضمن كتاب هولندا والعالم العربي: منذ القرون الوسطى حتى القرن العشرين، (د.ن)، ليدن-هولندا، 1987، ص10.

(5) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص161.

الحجري نفسه وبعض العلماء والباحثين في التراث العربي خصوصا من الهولنديين والفرنسيين، ويحمل نص رحلته إشارات عن حجم الحفاوة التي لقيها في كل من فرنسا وهولندا احتفاء منهم بلقاء متكلم ناطق بالعربية.

ثم إن هذا الاهتمام باللغة العربية في أوروبا لم يكن بهدف الترجمة وفقط؛ بل حتى تعلمها أيضا من قبل الأوروبيين والغوص فيها، ففي باريس التقى الحجري مع المستشرق الفرنسي "إيرت" (Étienne Hubert d'Orléans)⁽¹⁾، الذي كان طبيبا ودبلوماسيا لفرنسا في بلاط السلطان المغربي، وجرت يقول الحجري عن لسان هذا الأخير: «...كنت بمدينة مراكش، وهناك تعلمت نقرا، وكان جلوسي هناك على أمر سلطان فرنجة لتعلمه بحروف الرمز كل ما يعلم أنه يقع لسلطان مراكش في ديوانه وحركاته»⁽²⁾، أما عن اهتمام الرجل بالدراسات العربية فيقول في ذلك الحجري: «...وتلقيت في تلك المدينة (باريس) برجل من علمائهم كان يقرأ بالعربية، وبعض النصارى يقرؤون عليه، وكان يسمى بإيرت...»⁽³⁾، فإشارة الحجري أن وجود تلاميذ لهؤلاء المستشرقين الأوائل يدل على الاهتمام البالغ الذي حظيت به اللغة العربية ودراساتها ونمو وازدياد متعلميها في أوروبا.

ويذهب الحجري بعيدا حول اهتمام المستشرق الفرنسي بالكتب العربية واستغلال وجود السفير المغربي في باريس ليقرا عليه بعضا من كتبه العربية، حتى أنه عرض عليه مساعدته في أداء مهمته الدبلوماسية التي جاء من أجلها مقابل ذلك: «...قال (أبرت): أنا أخدمك فيما تحتاجني لأكلم لك كبراء الناس، وغير ذلك، وما نحب منك إلا نقرا بحضرتك في الكتب التي عندي بالعربية، وتبين لي فيها شيئا مما فيها، قلت له ائني بها...»⁽⁴⁾، أما بخصوص الكتب

(1) إتيان هوبارت (Etienne Hubert) (ت 1614م): طبيب ومستشرق ودبلوماسي فرنسي، درس الطب في باريس، وقد دفعته دراسة الطب إلى الاهتمام باللغة العربية في إطار رغبته في الاطلاع كتب الطب العربية، أرسله الملك الفرنسي هنري الرابع (ت 1610م) إلى المغرب سنة 1598م ليكون طبيبا للسلطان أحمد المنصور الذهبي في مراكش (ت 1603م)، حيث بقي هناك إلى سنة 1600، ليعين في باريس محاضرا لتدريس اللغة العربية في الكلية الملكية (التي أصبح اسمها سنة 1870م كوليغ دي فرانس) وبقي حتى عام 1613م في منصبه في كرسي اللغة العربية يعطي دروسا في تعليمها، لكنه لم ينشر شيئا بالعربية أنظر: رشا الخطيب، مرجع سابق، ص 66.

(2) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 85.

(3) المصدر نفسه، ص 84.

(4) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 84.

وتأكيدا على أنشطة وإسهامات أبو القاسم الحجري في تاريخ الاستشراق، تثبت التعليقات والخواشي والتصحيحات العديدة التي وجدت في بعض الكتب العربية التي كان يمتلكها المستشرق الفرنسي أبرت على ما ذهب إليه صاحب الرحلة حول تلك المناقشات العلمية والجدلية بين صاحب الرحلة والمستشرق الفرنسي، ومن ذلك التعليقات التي تركها الحجري على كتاب "دلائل الخيرات" أو "دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار" لصاحبه: "محمد بن سليمان الجزولي" (ت 870هـ)، الموجود كمخطوط بالمكتبة الوطنية الفرنسية، وفي آخر الكتاب ملاحظة بخط يد الحجري يصرح فيها هذا الأخير على اطلاعه على هذا الكتاب الذي كان لدى المستشرق الفرنسي ويؤكد: «كنت في مدينة برش (باريس) ورأيت هذا الكتاب وعرفت أنه كُتب في بلادنا وهي بالمغرب أعادنا الله إليها بمنه والسلام» ويختمه بتوقيع "أحمد بن قاسم، فقيه أندلسي، عفى الله عنه". أنظر:

Bibliothèque nationale de France. Département des Manuscrits. Arabe 1181.

العربية التي وجدها مؤلف "ناصر الدين" عند "أبرت"، فبالإضافة إلى القرآن الكريم وجد قانون ابن سينا في الطب، وكتاب اقليدس في الهندسة، وكتبا في النحو مثل الأجرومية، والكافية، وكتبا أخرى بالعربية، وكتاب حول مناظرات بين مسلم ونصري كانت الغلبة فيه للأخير حسب ما ذكر الحجري⁽¹⁾.

وهكذا يتبين الدور الذي كان للحجري في تاريخ الاستشراق من خلال معرفته بالمستشرق الفرنسي، وكان دوره بارزا في إغناء معرفته باللغة العربية وتفسير بعض النصوص العربية وشرحها معه⁽²⁾.

وجرت بين الحجري و"أبرت" نقاشات كانت تبدأ في الشؤون العلمية لتنتهي أخيرا في جدال ديني بين الطرفين، في صورة يظهر فيها توجه الأوروبيين إلى دراسة العربية بما في ذلك القرآن تحمله دوافع دينية الهدف منها إثبات عدم مصداقية ما جاء في الإسلام والقرآن وهذا ما تؤكد تلك الكتابات على الطرة التي وجدها الحجري في مصحف بمكتبة المستشرق الفرنسي "أبرت": «...وقرأت يوما في القرآن الذي كان له (المستشرق أبرت) وجدت بالفرنج مكتوبا في طرة الكتاب "من هنا أخذ التركيون (المسلمون) إباحة اللواط"، وذلك في تفسير المستشرق للآية: "نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أين شئتم"⁽³⁾ ليرد الحجري بدحضها من خلال مجادلته إياه في حرمة اللواط في الإسلام، وعقوبة مرتكب هذا الذنب، وفسر له الآية على نحو عقلي ولغوي، واحتج الحجري على تفسير أبرت للآية التي تحتاج من المفسر علوما لغوية عديدة لا يمتلكها أبرت: «...وكيف تفسر القرآن والمفسرون له يحتاجون علوما شتى وأنت لا تعلم لغة العربية ولا النحو، فضلا عن غير ذلك»⁽⁴⁾، بل إن الحجري يتساءل في رسالته كيف يعرف الفرنسي تفسير الآية وهو لا يملك من تلك العلوم أقل القليل؟ وطلب الحجري من المستشرق الفرنسي أن يمحو ما كتب في أعلى الصفحة من تعليقات، وفي هذا إشارة إلى أن سوء فهم المستشرقين أحيانا لبعض العبارات باللغة العربية وعدم

(1) يشير الحجري على الأرجح إلى كتاب المناظرات والجدال الديني التي جرت بين السفير المغربي إلى هولندا عبد العزيز بن محمد التغلبي، والمستشرق الهولندي يان تونيس (Jan Theunisz) المعروف باسمه اللاتيني جوهانس انتونيدس (Johannes Antonides) وكان عبد العزيز بن محمد توجه في سفارة إلى هولندا للسلطان المغربي السعدى المولى زيدان سنة 1609م وهناك التقى بجان تونيس وبقي معه في بيته وقتا طويلا يتناظران في المسائل الدينية، نتج عن هذا اللقاء كتاب في الجدال الديني كتب باللغة العربية تحت عنوان: "تساؤلات بين مسلم ومسيحي من أجل فهم أن المسيح هل هو ابن الله؟ الذي كتب باللغو العربي واللاتينية. أنظر:

Gerard Wiegers, «Moriscos and Arabic studies in Europe», *Al-Qantara* XXXI 2, julio-diciembre 2010, p 602.

(2) رشا الخطيب، مرجع سابق، ص72.

(3) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص84.

(4) المصدر نفسه، ص85.

امتلاكهم الكفاية اللغوية اللازمة أدى إلى استنتاجات غير صحيحة، ساهت بلا شك في ترسيخ تلك الصور النمطية المشوهة عن الإسلام والمسلمين⁽¹⁾.

وفي باريس زار الحجري المكتبة ذات القبة التابعة لإحدى الكنائس هناك، وقال في وصفها أنها كانت تحتوي كتب كثيرة بلغات متعددة، ومنها كتب باللغة العربية، لكن صاحب الرحلة لم يطلعنا عن طبيعة هذه الكتب الموجودة هناك⁽²⁾.

وكان وجود رجل يتحدث بالعربية في فرنسا حدثا مميزا لدارسيها هناك، لذا استقطب وجود الحجري في باريس العديد من العلماء والباحثين الفرنسيين⁽³⁾، فكانوا يقصدونه لمعرفة رأيه في عديد المسائل العلمية، ليست تلك المسائل التي تعلقت بالجدل الديني فقط، بل إلى مجالات أخرى من العلوم مثل الفلك والكيمياء، ما يعطينا صورة عن التوجهات العلمية الأوروبية في هذه الفترة، فذكر أنه قصده في باريس أكبر الفلكيين والمنجمين هناك رغم أنه لم يذكر اسمه، فيقول: «وتلقيت (أي التقيت) هنالك بأكبر المنجمين في الأحكام وقال: هذا العلم لم نر له نتيجة أبدا في الأحكام، وقد جربت كثيرا من الاختبارات ولم يصدق فيها أحدا...وعندي أكثر من مائة تأليف في هذا الفن المذكور ونفهم ما فيها...» وهنا يبدو الحجري غير ملم بعلم الفلك والتنجيم لهذا نلاحظ تردده في الإجابة حول هذه المسألة.

أما فيما يخص عالم الكيمياء الذي قدم عليه فيقول فيه: «وجاءني أيضا بتلك المدينة (باريس) رجل فرنجي، وقال: اعلم أنني بلغت في علم الكيمياء إلى أن أعمل الذهب...»، وهنا بين له الحجري عدم معرفته بناصرية علم الكيمياء لكنه وجهه إلى من هو أعلم منه به وأشار إلى العالم المغربي له دراية به: «قلت له لا أعرف في ذلك قليلا ولا كثيرا، فأما علم الأحكام فكنت قرأت شيئا على الفقيه أحمد المعيوب الفاسي الأندلسي⁽⁴⁾، وكان بالغا في علم

(1) رشا الخطيب، مرجع سابق، ص 70. بتصرف.

(2) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 85-86.

(3) إن هذا الاهتمام الكبير الذي أظهره العلماء والمستشرقين الأوروبيين بأبو القاسم الحجري، ليس الأول من نوعه لعربي زار أوروبا في العصر الحديث، فقد سبقه اهتمام مماثل لبعض الشخصيات العربية التي زارت أوروبا نهاية القرن 16م ومطلع القرن 17م، مثل السفير المغربي عبد العزيز بن محمد الذي زار هولندا سنة 1609م، وكذا المصري القبطي أبو ذقن الذي ذاع صيته لدى المستشرقين خلال هذه الفترة وصاروا يشدون إليه الرحال من مدينة إلى أخرى قصد التعلم منه أو أن يشرح لهم بعضا مما استشكل عليهم من العربية، وهي ظاهرة تدل بلا شك تعطش هؤلاء المستشرقين للنهم من منبع اللغة العربية وعلى لسان أهلها لخدمة أغراضهم المختلفة.

(4) هو أبو العباس أحمد بن قاسم بن الفقيه معيوب الأندلسي عالم مغربي اشتهر بتمكنه من علم الحساب والهيئة والتنجيم، اشتغل بالتدريس والتأليف واستنساخ كتب هذا الفن، ومن تأليفه كتاب "السيارة في تقلب السيرة"، وكتاب "السر المكتوم في علم السحر" الذي نسب له لابن الخطيب الرازي، إلا أنه انزل في مهواة السحر ومخاطبة النجوم لاكتشاف أسرار المستقبل، فكان ذلك سبب هلاكه على يد السلطان زيدان بن أحمد المنصور سنة 1022هـ/1613م، وكان سبب قتله أن تنبأ ابن معيوب بان السلطان زيدان سينهزم في حركة كان يتهيأ للقيام بها. أنظر محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في

الأحكام النجمية والخط الرملي، وكان له من الكتب في تلك الفنون شيء كثير...»⁽¹⁾.

حاول الحجري قدر جهده مساعدة الأوروبيين الذين يزورونه بقصد السؤال عن العلوم المختلفة، وفي الحالات التي لا يستطيع هو شخصيا تقديم تلك المساعدة يوجههم إلى من هو أعلم منه من علماء جنسه من المغاربة، ويبدو أن هذا هو السبب الذي جعل السفير المغربي يربط علاقات علمية مع المستشرقين الأوروبيين أثبتتها تلك الرسائل التي احتفظ بها الزمن خاصة مع الهولنديين منهم.

3- الدراسات العربية في هولندا

تزامن وصول الحجري إلى هولندا مع عنفوان الاستشراق الهولندي في بداياته إذ تعتبر هذه الفترة التي وصل فيها الفترة الذهبية للاستشراق الهولندي والأوروبي عموما، وفي هولندا زار الحجري مدارس مدينة "ليدن" (Leiden) التي تأسست منذ زمن ليس ببعيد (1575م) ووصف نهضتها العلمية، والتقى بمستشرقها فيقول عن ذلك: «... ولما دخلنا مدينة ليداً (يريد ليدين) وفيها المدارس لقراءة العلوم، وجدت فيها رجلا كان يعرفني من بريس (باريس) وحملني إلى بيته، وأكرمني إكراما تاما، وكان يتكلم معي بالعربية مُعربة، وكان يعرف الأسماء ويصرف الأفعال، وله قوة على قراءة العربية وتعليمها، وكان عنده كتب كثيرة من جملتها القرآن...»⁽²⁾، ليتوجه بعدها معه إلى الجدل الديني⁽³⁾.

وأكدت كثير من الدراسات أن هذا المستشرق الذي لم يذكر الحجري اسمه هو توماس إيرينيوس (Thomas Erpenius)⁽⁴⁾، وكان أول لقاء بينهما في باريس، وكانت وساطة الطبيب الفرنسي "أوبرت" سببا في تلك المعرفة⁽⁵⁾، ما يعطي صورة عن تلك اللقاءات والعلاقات التي ربطت بين المستشرقين في أوروبا وتبادل المعلومات والمعرفة، إذ يبدو أن دائرة المستشرقين محدودة وقد كانوا يتعارفون فيما بينهم.

عهد السعديين، مرجع سابق، ص393، وأبضا: محمد الإفرائي، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تقديم وتحقيق: عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء-المغرب، 2004، ص194.

(1) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص114-115.

(2) المصدر نفسه، ص118.

(3) المصدر نفسه، ص119.

(4) توماس إيرينيوس (Thomas Erpenius): ويعرف كذلك (Thomas van Erpe): مستشرق هولندي، ولد في 11 سبتمبر 1584م، في مدينة "جوركوم" (Gorkum) في هولندا، درس اللاهوت في ليدين، سافر إلى عديد الدول الأوروبية في سبيل تعلم اللغة العربية، ووجد ضالته في باريس مع مستشريقي فرنسا مثل أوبرت المذكور سابقا، وكذا المستشرق كازوبون، استعان إيرينيوس وهو في باريس برجل قبضي مصري يدعى يوسف أبو ذقن ويكتب باللاتينية: (Joseph Barbatus Abudacnus) لتعلم العربية ونطقها، بالإضافة إلى لقاءاته ورسائله مع الحجري، عين سنة 1613م أستاذا للغة العربية في كرسي اللغة العربية بجامعة ليدين الهولندية، واستمر في هذا المنصب إلى غاية وفاته وهو في سن الأربعين متأثرا بالطاعون وذلك يوم 13 نوفمبر 1624، من أهم أعماله: كتاب في "قواعد اللغة العربية" يعد من بين الأهم في أوروبا إلى غاية القرن 19م. للمزيد أنظر: عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1993، ص16-20.

(5) أنظر الرسالة التي بعث بها الحجري لارينيوس حين وصوله إلى هولندا.

وأكدت العلاقة التي جمعت أبا القاسم الحجري بأرينيوس، عن الدور الذي لعبه السفير المغربي في تحذر الاستشراق الأوروبي عموماً والهولندي على وجه الخصوص، ولقد اعتمد الدارسون الأوروبيون في تأكيد تلك العلاقة على رسالة بعث بها أرينيوس من باريس في 28 سبتمبر 1611م إلى المستشرق كازابون (1559-1614) باللغة اللاتينية قال فيها: «...ووراء كل ما كنت أتوقع فقد وصل إلى زيارتي تاجر مغربي مسلم اسمه أحمد وهو رجل متحضر وذكي، وكان قد درس الأدب في شبابه ويتكلم العربية الفصحى بصورة جيدة ولكن متواضعة...لقد كنا نتكلم بالعربية لأن الإسبانية التي يعرفها يتعذر علي فهمها...وقد تناقشنا دائماً في الدين، وصدقي فإن "ضلالاتهم" لا يمكن دحضها بسهولة كما يتصور كثير من الناس، فهم يمتقنون مسألة ألوهية المسيح...»⁽¹⁾.

ومن مظاهر إسهامات الحجري في الاستشراق الهولندي ما يظهر من خلال الرسائل المتبادلة بين هذا المستشرق والحجري لما كان هذا الأخير في رحلته إلى فرنسا؛ فجاء في الرسالة التي بعثها المستشرق الهولندي للسفير المغربي في سبتمبر 1611م من باريس، يذكره بفضل طلب العلم بكل لغاته، وأنه استهواه تعلم ألسن اللغات القديمة اللاتينية والعبرية واليونانية، وأنه محب لتعلم العربية، إلا أن صعوبات واجهته في تعلم هذه اللغة لكثرة عسرها وانعدام كتبها ومعلميها في بلاده مؤكداً له أنه بحث عن أي ناطق وعارف بالعربية أن يعلمه إياها إلى أن التقى به (أي بالحجري)، وفي الأخير يطلب منه بكل تأدب أن يشرح ويفسر له بعض الكلمات والمعاني التي استشكل عليه فهمها في القرآن الكريم، كما تبين هذه الرسالة بوضوح عن انصانه وشكره واعترافه بفضل الحجري في مساعدته تلك.

وكان رد الحجري على المستشرق الهولندي برسالة بيّن له فيها إعجابه من حرص الأخير على تعلم العربية، مبيناً له شرفها وعظمتها كلغة تنبني على كثير فوائد، مؤكداً عليه أن لا يأخذ النصوص على سطحياتها، ناصحاً إياه بالإمام بعلوم العربية، التي لا يحصل فهم معاني النصوص إلا بتحصيلها: «...وما ذكرتم أنكم مولعين في لغة العربية هو لسان مختصر عجيب يظهر الإعراب في لفظ الكلمة والتثنية ما لا يظهر في لغات كثيرة، واختصار الكلام مبني على فوائد وحكم، قال الشاعر: لو علم الطير ما في النحو من طرب لخرّ ولا دق بالمنافر، وما ذكرتم من تفسير بعض كلمات القرآن اعلم أن من أراد أن يعلم تفسيره ومعانيه ينبغي له علوم كثير مثل النحو والمنطق واللغة مثل كتاب الزبيدي⁽²⁾ والجوهري⁽³⁾ وعلم البيان وتفسير ابن عطية⁽⁴⁾ والإمام الفخر⁽¹⁾، ومن يقرأ هذه العلوم يقدر يفسر بعض القرآن،

(1) قاسم السامرائي، «معرفة إرينيوس وخوليس بالعالم المسلم أحمد بن قاسم الأندلسي»، مجلة عالم الكتب، مج10، ع2، ماي 1989م ص 254.

(2) هو أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي (ت379هـ) له كتب عدة في النحو من أشهرها "الواضح في النحو"

(3) سبق التعريف به.

(4) يقصد به كتاب تفسير القرآن الكريم المعروف بـ "الحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لمؤلفه عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت546هـ)

وعبيد الله كاتب هذا لا يدر من هذا العلوم إلا شيئاً قليلاً ومن البيان حتى حرف واعدل الحال في جوابي...»⁽²⁾.

وفي هذه الرسالة إشارة من الحجري تؤكد أن قصور المستشرقين في عدم تمكنهم من ناصية العربية وعلومها بشكل دقيق وصحيح خاصة في بداياتهم، من شأنه أن يسري بهم إلى تفسيرات بعيدة جداً عما تحتمله الآيات القرآنية على وجه الخصوص، وربما لاحظ الحجري بحسه النقدي أن تلك الصور النمطية والمشوهة عن الإسلام والمسلمين في أوروبا سببه هذا القصور في فهم النصوص، وإن سلوك الحجري هذا المسلك لا يريد به الاستنقاص من هذه الدراسات الاستشراقية؛ بل عمل أولاً كملاحظ، ثم موجهاً ثانياً، فالحجري لم يكتف بالإشارة إلى أخطاء المستشرقين الشائعة في عملهم على النصوص العربية وخاصة القرآنية، بل عمل على توجيههم إلى بعض الكتب والمراجع المتعلقة بعلوم العربية والتي قد توصلهم إلى دراسات ونتائج وصور أكثر دقة في بحثهم.

ومن التقاه الحجري في هولندا أيضاً: «رجل حكيم مشهور في الطب والعلوم، وقال لي: نحن عندنا القرآن مترجم باللاتين (أي باللاتينية)، وليس معجزة لنبيكم كما عندنا في الإنجيل، وقال هل عندكم كتب في معجزات نبيكم؟ قلت عندنا، وواحد من الكتب المشهورة للقاضي عياض⁽³⁾ ... قال والله إني تمنيت أن نقرأ هذا الكتاب...»⁽⁴⁾.

وهنا يسجل الحجري ملاحظة أخرى بخصوص منهجية هؤلاء المستشرقين الأوروبيين الأوائل الذين اكتفوا بدراسة السيرة النبوية وحياة النبي صلى الله عليه وسلم والبحث في معجزاته؛ بالاعتماد فقط على ما جاء في القرآن الكريم، دون البحث عما كتب في سيرته صلى الله عليه وسلم من روافد أخرى، وهنا لا يكتفي الحجري كعادته بتسجيل الملاحظات بل بتوجيه هؤلاء لبعض هذه الروافد، ومن أشهرها كتاب القاضي عياض المذكور، ولا بد أن ملاحظة السفير المغربي قد فتحت باباً آخر- يبدو أنه كان مجهولاً- للباحثين الأوروبيين المشتغلين على دراسة شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الأمر الذي تؤكد ردة فعل هذا المستشرق الذي لم نعلم باسمه: " قال: والله إني تمنيت أن نقرأ هذا الكتاب".

(1) يرجح أن يكون كتاب فخر الدين الرازي (544-606هـ/1149-1210م) المعروف بـ "التفسير الكبير" المسمى "مفاتيح الغيب".

(2) رسالة الحجري إلى المستشرق الهولندي توماس إيرينيوس نقلاً عن رشا الخطيب مرجع سابق، ص 144.

(3) يريد توجيهه إلى كتاب "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم" للعلامة القاضي أبي الفضل عياض بن موسى البحصي (471-544هـ).

(4) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 119.

هذا ويبدو الحجري مغتبطا بانتشار اللغة العربية لدى الأوروبيين، فلم يتردد في الإفصاح عن افتخاره بمكونات الحضارة العربية الإسلامية كلما وجد الفرصة سانحة⁽¹⁾، وهكذا نجده يعتز باللغة العربية عندما زار أحد المتاحف بباريس ووجد فيه تحفة قديمة قال عنها: «وقرأت في المكتوب اسمين من أسماء الله تعالى: هادي-كافي... وانظر العربية ما أقدمها، وأي حرمة لها... والكلام بالعربية لمن يعرفها خير من الكلام بغيرها من اللغات كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم كان يجبها»⁽²⁾، ودلت ردوده ورسائله للمستشرقين على ذلك، ومنها رسالته للهولندي توماس إيرينيوس المؤرخة في 16 جوان/يونيو 1613م التي حثه فيها على التمسك باللغة العربية: «... ولقيت رجلين ذكرا لي أنكم في ليدا (ليدن) مشتهد (مجتهد) في القراءة العربية وفرحت، والذي نعلمك به أن الاشتغال بتلك العلم العربي له بركة مشهورة ولا تر من يكرم تلك الحروف إلا مكروما عزيزا...»⁽³⁾.

ثم إن انتشار العربية هو دليل على انتشار الإسلام وأحقيته: «...وهذه العربية واحدة في الدنيا، وقالوا الحق في ذلك، فهو كلام مبارك، ومن يتكلم بها لا بد يذكر الله، ولذلك كان يقول بعض من الأندلس: لا عربية بلا الله، ولا عجمية بلا شيطان، لأن النصارى يذكرونه كثير في كلامهم، ولا يكره العربية، والكلام بها إلا من لا يعرف فضلها وبركتها...»⁽⁴⁾.

ويبدو أن السفير المغربي لاحظ التغيرات الكبيرة بين أوروبا التي تركها محاصرة للعربية جاهدة في القضاء عليها في إسبانيا، بلغت حد تهجير وتقتيل وتحريق أهلها، إلى أوروبا مغايرة تماما أوروبا شرهة لتعلم العربية وتعليمها خاصة في هولندا.

والأكيد أن إسهامات الحجري في الاستشراق الأوروبي والهولندي على وجه الخصوص لم تتوقف عند تواجده في أوروبا، إذ ربط السفير المغربي علاقات مميزة مع مستشرقين هولنديين بعد عودته إلى المغرب وساهم في تزويدهم بعدد معتبر من الكتب والمخطوطات العربية في مختلف التخصصات، ولعل أشهر تلك العلاقات كانت مع المستشرق الهولندي ياكوب خوليوس (Jacob Golius)⁽⁵⁾ وهو تلميذ لارينيوس، وقد بدأت علاقة الحجري وخوليوس-على

(1) عبد المجيد القدوري، سفراء عرب، مرجع سابق، ص24.

(2) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص68.

(3) Arnoud Vrolijk, Richard van Leeuwen, **Arabic Studies in the Netherlands: A Short History in Portraits, 1580–1950**, Translated by: Alastir Hamilton, BRILL, Leiden-Boston, 2014, P35.

(4) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، مصدر سابق، ص108.

(5) ياكوب خوليوس (Jacob Golius): مستشرق هولندي ولد سنة 1596م، درس علم اللاهوت والفلسفة والطب والرياضيات، قبل أن يتوجه إلى دراسة العربية واللغات الشرقية، سافر إلى المغرب سنة 1622م في مهمة للدولة الهولندية، مكث هناك إلى غاية 1624م، أين تعمق في دراسة العربية وتعرف على البلاد، وبعد عودته إلى ليدن (هولندا) عُيِّن أستاذا للعربية بعد وفاة أرينيوس في السنة نفسها، وبعد عام واحد توجه في رحلة علمية نحو الشرق العربي

ما يبدو- في سنة 1622م عندما سافر الأخير مع بعثة هندسية إلى المغرب، وقد حفظ لنا التاريخ رسالتين من أحمد الحجري إلى خوليووس في ربيع عام 1624م تشيران للكتب التي ساعد الحجري خوليووس في اقتنائها من المغرب، فيذكر كتاب مروج الذهب للمسعودي والمستعيني في الطب لابن بكلارش⁽¹⁾.

ومن الاستنتاجات التي نخرج بها في هذا العرض، نذكر أن لقاء الحجري بالمستشرقين والمهتمين بدراسة العربية في كل من فرنسا وهولندا قد ترك أثر إيجابي على دراساتهم بما أعانهم به من ترجمة وتعليم وتصحيحات ونصائح أفادتهم ولا شك في دراساتهم العربية، فالرجل في رحلته لم يكتف بدور الرحالة أو السفير الناقل للملاحظات من خلال ما تبصره عينه أو تلتقطه أذنه، إذ كان للحجري دور بارز في تاريخ الاستشراق الأوروبي عموما والهولندي خصوصا، إذ أن مساهماته فيه تزامنت مع مرحلة التأسيس لهذه الدراسات في أوروبا.

هذا وشكل احتكاك الحجري بالمستشرقين الأوروبيين أحد أهم فصول التلاقح الثقافي والعلمي بين العالمين الأوروبي والإسلامي، وتتضح هذه الأهمية كونها جاءت في مرحلة تشهد صراعات سياسية وعسكرية وتعصب ديني بين هذين الطرفين.

كما نقل لنا الحجري واقع أوروبا بنهضتها العلمية، إذ توجه الأوروبي للبحث في مختلف العلوم وبكافة اللغات، كما تكشف رحلته الحجري عن حجم التباين بين البلدان الأوروبية في هذا الباب فبينما كانت تقبع إسبانيا تحت تأثيرات الكنيسة المحاربة لكن فكر أو بحث خارج عن إرادتها، نلاحظ العكس في البلاد الأوروبية التي تحررت من قيود الكنيسة خاصة في أوروبا الشمالية وتوجهت لبناء نهضتها العلمية.

الإسلامي بتمويل من جامعة ليدن، وهي الرحلة التي زار فيها بلاد الشام وتركيا واقتنى خلالها كثيرا من المخطوطات، ليعود مرة أخرى إلى ليدن بعد خمس (05) سنوات، وأُسند إليه بالإضافة إلى منصب الأستاذية في اللغة العربية، منصب الأستاذية في الرياضيات أيضا، وعمل دبلوماسيا حتى وفاته سنة 1667م. أنظر: يوهان فوك، الدراسات العربية في أوروبا حتى مطلع القرن العشرين، تر: سعيد بحري ومحسن الدمرداش، ط1، زهراء الشرق، القاهرة، 2006، ص 171-172.

(1) رشا الخطيب، مرجع سابق، ص 85-91.

ابن بكلارش: هو يوسف بن إسحاق بن بكلارش الإسرائيلي (ت500هـ/1006م)، من أكابر علماء الاندلس في صناعة الطب، وله خبرة بالأدوية المفردة، له من الكتب: كتاب "المجدولة في الأدوية المفردة" ألفه للمستعين بالله أبي جعفر بن المؤتمن بالله بن هود، وكذا كتاب "المستعيني" في الطب، وقد صنفه للمستعين بالله أحمد بن يوسف اليهودي (ت503هـ). أنظر: مصطفى الجيوسي، موسوعة علماء العرب والمسلمين وأعلامهم، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، 2005، ص 7-8.

ثانيا: واقع التعليم في أوروبا

1- في التعليم

لم تزخر كتب الرحلات المغربية التي توجهت إلى أوروبا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر باهتمام ذا بال بالتعليم والعلوم وكل ما يقربها إلا في إشارات قليلة، أما الحجري فباستثناء تلك الصور التي خلفها حول الدراسات العربية في أوروبا كما رأينا، فإنه غيب في مختصر نص رحلته أي ذكر للتعليم والعلوم في فرنسا وهولندا رغم زيارته لمدارسها ولقائه بعلمائها.

فيما يبدو أن الصورة الباهتة التي نقلها الرحالة المغاربة فيما بعد تكون قد تأثرت بسياقات الرحلات ووجهتها، وقد كنا نتوقع أن اهتمام هذه الرحلات بالواقع العلمي سينال حصة الأسد؛ خاصة لما نعرف أن أحد أهم دوافع الرحلة الرئيسية وأسبابها في كل الرحلات التي تلت الحجري خلال هذه الفترة كان بغرض استرداد الكتب الإسلامية من إسبانيا، لكن يبدو أن الاهتمام باسترجاع هذه الكتب كان بدافع سياسي وإيديولوجي أكثر منه دافع علمي وثقافي، فاسترداد هذه الكتب لا يختلف عن تحرير وفكاك الأسرى، لذا كان ذكر هذه الكتب نادرا، وارتبط أكثر بتمجيد السلاطين المغاربة الذين سعوا إلى "تحريرها"، وتبرير توجههم لإقامة علاقات أكثر ودية مع الأوروبيين لأن تحرير هذه الكتب-وفق النظرة المغربية- كان من المصلحة الإسلامية العامة التي توجب أن تكون علاقة مماثلة مع الدول غير الإسلامية، كما أننا لا ننفي أن تأثير البلاد المرتحل إليها كان سببا في هذه الصورة عن الواقع العلمي، فرحالتنا المغاربة كانت وجهتهم الأساسية إلى إسبانيا التي كانت تعيش تخلفا كبيرا وعميقا في مجال الثقافة والعلوم مقارنة ببقية الدول الأوروبية.

ولأن ملامح التعليم الأوروبي لم تغب على وجه الإطلاق من نصوص هذه الرحلات، فإننا نلاحظ أن التعليم في إسبانيا نهاية القرن السابع عشر كما يبينه نص رحلة الغساني كان أقرب ما يكون تعليما دينيا بالدرجة الأولى، صورة يبدو فيها التعليم محصورا في فئات معينة من الأعيان أو لدى الرهبان في الكنائس، فتحدث الغساني عن التعليم في كنيسة الأسكوريال: «...والباب على يمينها ويسارها هما بابان لدارين كبيرتين لقراءة الطلبة الصغار من الفريالية الذين يتعلمون ويقرأون علومهم وقراءاتهم، ولكل طائفة منهم علامة على ملف أزرق وأحمر على كتفه على قدر ما بلغ إليه علمه من فنونهم...»⁽¹⁾.

وعن طبيعة العلوم التي كانت تُدرس يضيف الغساني: «...وأول قراءاتهم الفلسفة وما في معناها...وجل قراءتهم في حال الصغر ما يلقيه عليه معلموهم من الكفريات (علوم الدين) حتى يتدربوا على ذلك ويكون نصب

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص142.

أعينهم، ومن بعد ذلك يتعلمون الحساب وبعده علم الهندسة بلسان اللاتين، واللاتين عندهم هو بمثابة علم النحو عند العرب...»⁽¹⁾.

هذا التعليم الديني الذي كانت له حواضره ومراكزه تشد لها الرحال مثل الاسكوريال (El Escorial) وسالامانكا (Salamanca): «...ففيه اليوم من هؤلاء الرهبان الضلال مائة وخمسون من غير المتعلمين الذين يتعلمون الكفر لأن الأسكوريال المذكور مقصود لقراءتهم، وعندهم موضع آخر بقرب مادريد يقال له صلمانكة مقصودة أيضا لقراءتهم، حتى أنه من لم يقرأ بالموضوعين المذكورين لا يكون عندهم بمنزلة من قرأ هنالك»⁽²⁾.

لكن هذا الواقع اختلف نوعا ما في صقلية التي يظهر فيها التعليم أكثر تنظيما وتوجها للعلوم التجريبية، ما يتجلى في رحلة ابن عثمان الذي زار المدارس العلمية التي شاهدها هناك والتي اعتبرها "من حضارة هذه المدينة" مضييفا: «دخلت إلى دار كبيرة يتعلم فيها الصبيان الذكور، فلما دخلنا بقببها، وكل قبة فيها معلم وجماعة من الصبيان يتعلمون عليه» أما عن المواد التي يتم تلقينها هؤلاء الطلاب: «فيتعلمون الحساب وعلم النجوم والبحر واللاتين، الذي هو بمنزلة النحو عندنا، والفلسفة والطب، وغير ذلك ولهم اعتناء به كبير»⁽³⁾.

ورافق التعليم النظري بصقلية تعليم تطبيقي أساسه التجربة: «...ورأيت بهذه الدار العجب المبين رجلا وامرأة كشطوا لحومهما عن عظامهما وردوا العروق عليهما كما كانت، فالإنسان كأنه شبكة من العروق، حتى مصارينه انتزعوا عروقها وردوها على هيئتها ملتوية في الجوف، وكذا ذكره وأثنياه، والقلب انتزعوا مكانه مثاله من شيء أحمر، والقلب وضعوه في حق وأرونا إياه... هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه، وقال تعالى: وفي أنفسكم أفلا تبصرون»⁽⁴⁾.

ولا يجد المكناسي حرجا في التعبير عن إعجابه ودهشته من صورة التطورات العلمية في أوروبا التي شملت كافة الميادين تقريبا، إلا أن وعي الرحالة خلال هذه الفترة لا يكاد يتجاوز الانبهار والدهشة بما رآه من تقنيات التعليم الأوروبي الحديث، فلا نجد ابن عثمان متسائلا لا عن الغايات المرجوة منها، ولا كيف استفاد الأوروبيون من التعليم التجريبي، كما أنه غيَّب بتاتا الإشارة إلى العامل الرئيسي في هذه التقنية وهو الإنسان والعقل الأوروبي، وذهب لتفسير ما تراه عيناه من تقنيات تفسير دينيا، لذا رأى في إقامة الأوروبيين مثل هذه الهياكل العظمية في الدراسات الطبيعية يحمل في فحواه وغاياته دعوة للتدبر في خلق الله⁽⁵⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 145.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 127. محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 145.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق ص 194.

(4) المصدر نفسه، ص 194-195.

(5) المصدر نفسه، ص 195.

-المكتبات العلمية

حضرت المكتبات العلمية في نصوص الرحلات المغربية كتعبير آخر عن واقع أوروبا العلمي والثقافي، وتعددت بين مكتبات عامة وخاصة، فزار الحجري المكتبات الخاصة بالعلماء والمستشرقين في كل من فرنسا وهولندا، إذ بدا أن لكل مستشرق مكتبته ومجموعته الخاصة من الكتب ضمن اهتماماته، وكذلك زار المكتبات التابعة للأديرة والكنائس مثل المكتبة ذات القبة التي زارها بباريس، وقال في حقها إنها كانت تحوي كتباً بلغات عديدة، ومنها الكتب باللغة العربية، كما وصف هيئة غرف المطالعة التي ما تزال تحتفظ بهيئة وتنظيم مكتبات القرون الوسطى الأوروبية، إذ يقول: «...وكان ذكر لي أن كنيسة كذا فيها كتب بالعربية قلت له: أحب أطلعها، ومشينا ووجدنا قبة كبيرة والكتب صفوف على ألواح وكراسي، وكل كتاب في أسفله حلقتان حديدان في أسفله، وسلسلة حديد تحوز على جميع حلق الكتب، كل ذلك كيلا (كي لا) تذهب الكتب وكانت في كل لغة...»⁽¹⁾.

هذا ولمح الحجري إلى أثر الطباعة وانتشار المطابع في أوروبا على الواقع العلمي فيها وانتشار الكتب والمعرفة، كما أنه أعطى ملامح عن واقع التأليف وحرية النشر، وذكر أن المطبعة كانت في يد الدولة والطباعة فيها تكون بالإذن منها يقول: «فأما ما يكون من كتبهم فمن المكتوبة بالقالب، فلا يمكن لأحد من المعلمين أصحاب القالب أن يطبع كتاباً إلا بأمر من أصحاب الديوان والإجازة إلى صاحب التأليف»⁽²⁾ أي أن الكتب في أوروبا القرن 16 و17م كانت مراقبة تأليفاً وطباعة، ما يعني أن هذه الأخيرة لم تكن متاحة للجميع وأن حرية التأليف لم تكن مكفولة.

وارتبط حضور المكتبات في نصوص الرحلات المغربية بالهدف من تلك السفارات المتمثل في البحث عن المخطوطات العربية والإسلامية في إسبانيا بغية استعادتها، ورغم ذلك فإن الإشارة إلى هذه المكتبات التي تضم هذه الكتب كانت قليلة جداً، ولعل أهم حضور لها كان في حديثهم السريع عن مكتبة الأسكوريال بمدريد، لذا أشار الغساني لهذه المكتبة، كأهم مكتبة علمية في إسبانيا، وإن كان ذكره لها ذكراً سريعاً جاء فيه: «...وعلى يمين الكنيسة أيضاً خزائن كتبهم وعلومهم وأديانهم والذخائر التي هي موقوفة على الكنيسة وإلى هذه الخزنة كانوا نقلوا خزائن كتب المسلمين من قرطبة وإشبيلية...»، ووقف السفير المغربي في سعيه للبحث عن الكتب الإسلامية المراد استردادها عند آثار الحريق الذي شب في هذه المكتبة وقضى على جزء كبير من مقتنياتها⁽³⁾.

(1) أحمد الحجري (أفواي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 85-86.

(2) المصدر نفسه، ص 101.

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 148.

هذه المكتبة التي زارها كذلك المكناسي في نهاية القرن الثامن عشر، و أعطى صورة يبدو فيها معجبا بتنظيمها، واهتمام الإسبان البالغ بالكتب، من حفظ ونظافة وترتيب، حيث يقول: «...وأطلعونا مدارج أخرى من فوق خزانة كتبهم إلى خزانة كبيرة في غاية النظافة والصون جعلوا بها كتب المسلمين رحمهم الله التي بقيت بأيدي الكفرة، وهي عندهم في غاية الحفظ لا يمكن لأحد أن يدخل إلى تلك الخزانة كائنا من كان...»⁽¹⁾، وكان اهتمام المكناسي أكثر بكتب المسلمين هناك: «...فأرونا كتب المسلمين، وعدتهم ألف وثمانمائة سفر فيها نسختان من المصحف الكريم، وعدة تفاسير جلهم حواشي، وكثير من كتب الطب...»، ويظهر ابن عثمان تأثرا لما شاهد هذه الكتب الإسلامية في أيدي "الكفرة": «وقد طالعت ما سمح به الوقت مع ضيقه، فخرجت من الخزانة بعد أن أوقدت نار الأحزان بفؤادي نارها، ونادت بالثارات فلم يأخذ أحد نارها؟ يا ليتني لم أرها»⁽²⁾، ولا بد أن عامل اللغة إضافة إلى ما سبق من التأثير قد حالت دون استرسال ابن عثمان في وصف محتويات هذه المكتبة.

ويبدو أن الاهتمام بالمكتبات وخزائن الكتب في أوروبا كان يتزايد بوتيرة متسارعة من حيث الحجم والتنظيمات الخاصة بها والاهتمام الكبير حتى من طرف الحكام هناك، متأثرين بعصر التنوير الأوروبي، إذ أسس هؤلاء مكتبات خاصة في قصورهم، مثل مكتبة قصر الملك في نابولي التي يصفها ابن عثمان: «...وفيه خزانة من الكتب مجموع فيها كتب الملل كلها من المسلمين والنصارى واليهود، فقلت لهم: ما تصنعون بكتب القوم الذين لا تعرفوا لغتهم ولا شرائعهم؟ فقالوا: قصدنا أن تكون جامعة وإذا أتى أحد من رحال البلاد نريهم ذلك، فهم يفتخرون بهذا كثيرا...»⁽³⁾، ولا بد أن سؤال المكناسي عن اهتمام الأوروبيين يحمل الكثير من الصور والرؤى والقراءات للواقع العلمي في المغرب وأوروبا، ففي الوقت الذي شاع فيه تقريبا عجز العرب والمسلمين في الاجتهاد وفتح باب العلوم والبحث، والاكتفاء بما خلفه السلف من إنتاج ديني لا يتعدى أن يكون شروحا وملخصا لما سبق، كما يعطي صورة مميزة عن الاهتمام الأوروبي بالعلوم وتقديس الكتاب مهما كانت لغته ونوعه.

وفي صقلية أعجب المكناسي بتنظيم وإتقان مكتبتها وتعجب منه، كما ذهل من العدد الكبير من الكتب التي كانت بين رفوفها والبالغ "ثلاثين ألف مجلد"، وكرجل دولة لا يُغفل السفير المغربي الإحاطة بالتكاليف المالية لتسيير وتنظيم مكتبة بهذا الحجم، لذا فقد سجل أن الصقليين: «صيروا على مرافع الخزانة نحو اثني عشر ألف ريال»⁽⁴⁾ ما يعطي فكرة للمكناسي عن حجم الاهتمام الذي باتت توليه الدولة الحديثة في أوروبا للتعليم وروافده من كتب ومكتبات.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 126-127.

(2) المصدر نفسه، ص 127.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 173.

(4) المصدر نفسه، ص 194.

ثانيا: التطورات الصناعية والتقنية الأوروبية

ومثل النظام العسكري لم ينتظر المغاربة منتصف القرن التاسع عشر للوقوف على ما وصلت إليه أوروبا من اختراعات وتصنيع شملت كافة المجالات، إذ بدأت تظهر ملامح أوروبا الصناعية، أوروبا التقنية، في رحلات المغاربة في الثلث الأخير من القرن 18م، وشكلت ارتسامات كل من الغزال والمكناسي إلى إسبانيا وإيطاليا أولى مظاهر "الحداثة الأوروبية" خاصة في القطاعين العسكري والصناعي، وما شاهدها هناك من كثرة المصانع، واكتشافهما أهمية الاعتماد على الآلة في هذه المصانع بدل اليد البشرية: «ولهم فيها من الآلات والنواعير والدواليب عدد كثير، ولا كلفة عليهم في الخدمة، لأن جل خدمتهم بالحركات»⁽¹⁾.

وهي صورة وقف عندها السفير المغربي عاجزا أمام ما رآه من حركات الآلات، فيعبر المكناسي لما زار دار صناعة المدافع: «وبإشبيلية دار معدة لصنع المدافع الكبار والمهارس وبها من الحركات والآلات ما يقصر عنه الوصف...»⁽²⁾، ولاعتماد هذه المصانع على حركة المياه⁽³⁾، وفي زيارته لمصنع السلاح بنابولي بدت الدهشة على ابن عثمان وهو يرى بعينه أثر الآلة في الصناعات: «...فرأينا من خدمتهم العجب المبين بحركات الماء في إسراع كثير...»⁽⁴⁾، لذا أشار ابن عثمان إلى إقامة المصانع الإسبانية المختلفة على ضفاف الأودية والأنهار⁽⁵⁾، بل إن ما وصل إليه الأوروبيين من تطور صناعي وتقني ارتبط بعامل بشري أيضا ألا وهو الانضباط والنظام والترتيب في العمل ليعلق ختاماً أن "هذا كله من شدة اعتنائهم بالأمر"⁽⁶⁾.

إن ما وقف عليه ابن عثمان من تطور تقني وآلي جعله يبحث في أصل هذا التطور الذي رآه في المصانع الإسبانية المتعددة، ليقف أخيراً ويقر أن ذلك ما هو إلا نتيجة تأثر إسبانيا وإشبيلية على وجه الخصوص بماضيها العلمي والحضاري أيام الحكم الإسلامي التليد، وفي ذلك يقول: «وهذا كله مما يدل على ضخامة إشبيلية وتأثيرها في الحضارة أعادها الله تعالى بمنه دار إسلام»⁽⁷⁾، وهذه القراءة والتأويل من قبل المكناسي يعد رد فعل سابق لتلك الردود

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 48.

(2) المصدر نفسه، ص 49.

(3) المصدر نفسه، ص 133.

(4) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 157.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 131، ص 134.

(6) المصدر نفسه، ص 49.

(7) المصدر نفسه، ص 48-49.

التي أنتجها الرحالة والمفكرين المسلمين في تأكيدهم على التأثير الكبير للعلوم الإسلامية في نهضة أوروبا العلمية والتكنولوجية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

كما أن شعور الرحالة المغاربة بالصدمة مما رأوه من قوة الآخر من تطور علمي وتقني وتلمس ضعفهم (المغاربة) في هذا المجال، جعلهم في كثير من الأحيان يفضلون الانسحاب محجّمين عن رؤية المزيد مما لدى الآخر، مثل ما كان عليه الأمر من إحجام المكناسي واعتذاره عن مسايرة مضيفيه الإسبان في الاطلاع أكثر على المصانع والتقنية والمكننة الحديثة معللاً انسحابه بأن القصد من السفارة هو التعجيل في أداء مهمته الدبلوماسية التي أرسل من أجلها: «...ولقد طلب منا جميع أهل الحرف المذكورة أن نقيم يوماً أو يومين لنرى ضعفهم وحرفهم، فقلت لهم لا يمكننا المقام بموضع أو نبليغ أمر مولانا أمير المؤمنين...»⁽¹⁾.

وكان المكناسي في رحلته الثانية إلى أوروبا "البدر السافر" عبّر عند مشاهدته ملامح الاختراعات التي انتشرت في أوروبا القرن 18م بكثير من الدهشة والصدمة، فأثناء مروره بمدينة قانس وقف على بعض الاختراعات والتطورات الصناعية في بعض الميادين مثل الملاحة البحرية وعلم الفيزياء، فيقول: «ومن غريب ما رأينا في هذه المدينة مدة مقامنا بها برج قديم قيل أنه كان على عهد المسلمين رحمهم الله معد عندهم الآن لوضع الغرائب من آلات البحر التي استنبطها الحكماء والمهندسون والفلاسفة، فقد توجهنا لرؤيته ذات يوم، فتلقانا كبيره المتولي أمره، وأدخلنا وأرانا العجب المبين، فمن ذلك آلة يجذب بها الهواء من المكان ويرده وأرانا مثالا لذلك...»⁽²⁾، فرغم الانبهار الواضح بالتقنيات الجديدة المشاهدة، نلاحظ فضول السفير المغربي الجامح، وسعيه للتعرف على كل جديد.

إلى درجة أن المكناسي لم يستطع استيعاب هذه الصورة الغريبة عنه، لذلك نجده يقرب صورة هذه الاختراعات من خلال أمثلة أقرب للواقع المغربي ولقارئ نص رحلته، مثل وصفه للآلة التي تغوص في البحر أنها مثل البيت الذي تحمل فيه العرائس بالمغرب المسمى "العمارية"⁽³⁾، أما المجهر الذي يستخدم في تكبير المرئيات ودقائق الأشياء وتوضيحها فقد وصفه السفير المغربي بكثير من الدهشة والعجز عن استيعاب عمله والمبالغة في وصفه: «وفيه من غرائب المرات التي تظهر البرغوث مثل رأس العنز، والشعرة مثل الحبل، وغير ذلك مما لا يفي التعبير بحقيقته»⁽⁴⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 49.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 92.

(3) المصدر نفسه، ص 93.

(4) المصدر نفسه، ص 93.

ومن الاختراعات التي وقف عندها ابن عثمان في قادس الإسبانية: «ومنها أنهم أرونا آلة ذكروا أن المراكب إذا ظلت في البحر ولم تهدد سبيلا فبتلك الآلة يعرفون أين يتوجهون، وقد استنبطها لنجليز، ذكر أن المعلم⁽¹⁾ الذي استنبطها قبض زهاء مائة ألف ريال حلونا...»⁽²⁾، فالسفير المغربي كما وقف عند أهمية هذا الاختراع في الملاحة البحرية خلال القرن الثامن عشر، فإنه يقف كذلك عند التوجه الصناعي والتقني الذي تبذله الحكومات في أوروبا من خلال دعم وتحفيز الاختراع والتطوير.

وامتدت الحركة الصناعية أيضا للجانب العسكري فذكر المكناسي مستغربا ومندهشا تطور تقنية حماية البارود في المخازن من الصواعق أو كما يصطلح عليه "مانع الصواعق" (Le Paratonnerre)⁽³⁾ وقال في ذلك: «...وقيل إن هذه الحكمة استنبطها لنجليز ووجدوا هذه السلاسل في بعض مراكب لنجليز التي أخذها الاصبنيول في الحرب التي كانت بينهم»⁽⁴⁾.

ولا شك أن تطور تقنيات الصناعة في أوروبا التي شملت كل المجالات تقريبا، والتي لم يرها الرحالة المغاربة قبل ذلك في بلادهم قد أثارت صدمتهم وعجزهم بقدر ما أثارت عجبهم وتعجبهم منها، فابن عثمان وهو يشاهد المراكب البحرية في نابولي وعملها بدعوة من ملكها، نبذه معبرا عن ذلك بعبارات دالة على عدم الاستيعاب والتعجب مثل: "وأداروا حركات..."، "واستفهمنا عما رأينا من عمله" "فاستبعدت كذا وكذا..." "وكيف يمكن ما تقولون..." كلها عبارات استفهام وعدم استيعاب في موقف واحد رآه المكناسي وهو صورة إطلاق المراكب في البحر وتقنياتها الحديثة.

واستخدم ابن عثمان مصطلحات لم تكن ظاهرة في رحلته الأولى نحو إسبانيا، ولا هي ظهرت في رحلات سابقيه من الرحالة من مصطلح "الاستنباط" الدال على العقل، وكذا مصطلحات مثل "الحكماء" و"المهندسون" و"الفلاسفة" للدلالة على المخترعين الأوروبيين الأمر الذي يؤكد دور العقل فيما وصلت إليه أوروبا من تقنيات صناعية.

(1) ربما يقصد النجار الإنجليزي هارسون (Harrison) الذي اخترع سنة 1761 مقياسا للوقت، وكان البرلمان الإنجليزي قد حدد مكافئة مالية سنة 1741 قدرها 20000 جنيه تعطى للشخص الذي يتمكن من اكتشاف وسيلة لتحديد الاتجاهات في البحر، خاصة وأن السفن كانت تضيع في البحر لعدم قدرتها على تحديد الاتجاهات. أنظر: المصدر نفسه، ص 94.

(2) المصدر نفسه، ص 94.

(3) وهو اختراع عرفته أوروبا خلال القرن الثامن عشر في مجال الفيزياء، واكتشافه لم يكن من قبل الإنجليزي كما ذكر ابن عثمان، بل اختراعه رجل الدولة الأمريكي بنجامين فرانكلين (Benjamin Franklin) وقد مر اكتشافه بمراحل منذ سنة 1749 م، وكان أول استعمال لها بفرنسا سنة 1752 م، ثم أصبحت معروفة في أوروبا كلها، وتوضع أساسا على المباني المرتفعة والكنايس وأماكن السلاح، كما هو الشأن لهذا الخزين الذي ذكره السفير المغربي بقادس الإسبانية. أنظر: المصدر نفسه، ص 95.

(4) المصدر نفسه، ص 95.

كما أن المكناسي يعبر بعفوية في وصف هذه الاختراعات التي أذهلته وأطلق العنان لحيته المحدودة في وصف ما قد يعبر عن قوة الآخر وتأخر الأنا، لكنه لم يجد بدا من توجيه الخطاب هروبا من هذا الواقع الذي يبدو فيه الآخر قويا والأنا ضعيفا جاهلا بالتقنيات الحديثة في مختلف المجالات إلا التعبير: «...الحاصل أمور الدنيا لم يعجزوا في شيء منها "يعلمون ظاهرا من الحياة وهم عن الآخرة غافلون"»⁽¹⁾.

إن التطورات المعبر عنها أعلاه تخص أمور البحر، ولما نقول أمور البحر وشؤونه فهي تعني وبلا شك ميدان المواجهة المباشرة بين البلاد المغاربية والقوى الأوروبية، وإن إتيان ابن عثمان وغيره من الرحالة المغاربة الذين زاروا أوروبا بصورة التطور دون محاولة مقارنتها بما هي موجودة في المغرب له مبرراته، فابن عثمان قدم صورة لأوروبا كما قدم صورة ضمنية غير صريحة عن الواقع المغربي في هذا المجال، إلا أنه لم يستطع نقدا لواقعه المغربي، بينما يؤكد ذلك بلا شك نزوعه للتبرير الديني وذكر روحانية وأخروية العالم الإسلامي، في مقابل دنيوية ومادية أوروبا.

نعود مرة أخرى للتأكيد أن السياقات التي تأتي فيها الرحلة وظرفيتها التاريخية لها أثر كبير جدا في خطاب هذه الرحلات خاصة لما تكون هذه الرحلة لآخر "عدو" مختلف في كل شيء تقريبا عن الأنا المغاربية، لذا لم يرى ابن عثمان المكناسي أن هذه الاختراعات والتقنيات الموجودة في أوروبا يمكن أن تهدد بلده، حتى بعد تحسسه لها ووقوفه عند قوتها وغرابتها وعدم استيعابه لها، بينما لعبت سياقات رحلات القرن التاسع عشر دورا مهما في التوجه للبحث عن سر قوة الآخر فكان البحث عن العقل واختراعاته.

ثم هل كان للسلطات المغربية قراءة واعية لما أوردته نصوص الرحلات كتقارير حول الواقع الأوروبي، فإن كان الواقع الاجتماعي والثقافي في أوروبا يعتبر من الخصائص التي تميز كل مجتمع عن غيره، فإن الصورة العسكرية والاقتصادية وخاصة الأولى التي كانت محل صراع بين ضفتي المتوسط لم تلق الاهتمام الواجب منها، والأمر يعود حسب قراءتنا للموقف حول عدم القراءة المتأنية لما يحدث في أوروبا يعود بالأساس إلى عدم تلقي بلاد المغرب عموما لصدمات عسكرية وحضارية كما كان عليه الأمر في القرن التاسع عشر، حيث كانت صدمات أوروبية متوالية من الحملة الفرنسية على مصر، إلى احتلال الجزائر، إلى الضربات المتكررة التي تلقاها المغرب الأقصى من قبل فرنسا بعد معركة إيسلي 1844م، وإسبانيا في معركة تطوان 1860م، وهي الصدمات التي فتحت أعين المغاربة وعقولهم على حجم التجاوز التقني الذي يصب لصالح الأوروبيين.

(1) المصدر نفسه، ص 165-166.

رابعاً: مظاهر الثقافة الأوروبية

كان انتشار المرافق الثقافية والفنية في أوروبا من خلال الرحلات المغربية مطرداً، وشكل المسرح أحد أهم هذه المرافق، واهتم كل من الغزال والمكناسي بوصف مظاهره خاصة لما يمثلها هذا المرفق الترفيهي من جدّة وحدث، وعليه وقف الغزال عند المسرح الأوروبي لما زار مدينة المنور (Manouar) الإسبانية، ولغرابته وجدّته على الرحالة المغربي لم يجد له اسماً معبراً عنده في العربية، لذا فضّل استعمال اسمه الإسباني "الكوميديا" كعادة الرحالة المغاربة الذين زاروا أوروبا، وازدادت غرابته لما رأى بعض الحركات على ركح "دار الكوميديا" حين مشاهدته للبنت وهي ترقص تارة وتغني وتحكي تارة أخرى، فقال: «...ومن أعجب ما رأيْتُ عندهم بُنيّة ما ظننْتُ في عمرها تسعة أعوام، وقد أُخِيت الليل كله بالغناء بين أهل الموسيقى، ثم أخذت في الرقص بطريقة غير معهودة عندهم، ثم باشرت عود الطرب بيدها. ولما قضت منه الغرض، أسكتت المعلمين، ثم قامت على قدميها خاطبة في القوم، والكل في غاية الإنصات لها، وجعلت تارة تدمع عينها، وتارة تضرب بيدها على صدرها، وتارة تنقبض وتارة تنبسط. ومما يستغرب منه أيضاً أنها تسرد ما تملّيه على القوم بسرعة، ولم يصحبها توقف ولا تلجلج. واستمرت على تلك الحالة ما يقرب من ساعة».

ولما زالت الغرابة واتضحت الصورة عند السفير المغربي حول ما كان يشاهده، توجه بعدها للتعريف بهذا المرفق الثقافي الأوروبي، موضحاً الغاية منه، والفئات التي تحضره، ماراً بشكله العمراني، وهو ما يعبر عنه قوله: «فكشف الغيب أن ما كانت تحدث به هو محفوظ من كتاب عندهم كالعنترية وهو يسمونه بالكوميديا، والكوميديا عبارة عن دار هي محل جمعهم للنزهة والفرجة، يجتمع فيها الرفيع والوضيع من قرب المغرب إلى منتصف الليل على التأييد، وللدار طبقات عديدة ومقاعد مطلة على صحن للدار، ولا تجدد المرأة ولا بنية بهذا المحل إلا ويبيدها كراسة من الخرافة التي هي على ظهر قلب هذه المحدث منها»⁽¹⁾.

وإذا كانت "الكوميديا" في مخيال رحالتنا شيء قريب من "العنترية"، فهذا ضرب من تكييف الحادثة مع التراث، حتى يتم تبرير الانبهار بهذا المكون الثقافي الغربي من خلال الشبيه والنظير⁽²⁾.

ونظراً لما يمثله المسرح ويعبر عنه كملح من ملامح المدنية الغربية على المستوى الثقافي؛ كان الإسبان يوجهون ضيوفهم الرسميين غالباً لرؤية هذا المرفق الثقافي نظراً لمكانته عندهم، وقد عدّه رحالتنا المغاربة معبراً عن قمة الضيافة

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 174-175.

(2) عبد النبي ذاكر، «تلقّي المسرح الغربي في الرحلات المغربية من القرن 17م إلى مطلع القرن 20م»، مجلة فكر ونقد، ع95، فبراير 2008.

الأوروبية، فيقول المكناسي لما استقبل بمدينة قالص (قادش): «...ومن جملة إكرامه إيانا أن هيئوا دار بالقرب منا للفرجة تسمى الكميديا (Comedia)»⁽¹⁾.

وإن لم يعبر الغزال عن موقفه تجاه المسرح الأوروبي، فإن بعده المكناسي يبين عن ردود فعله تجاهه قبيل وأثناء وبعد تواجده فيه، أما عن موقف صاحب الرحلة عند مشاهدته هذا الملمح الثقافي والمرفق الترفيهي الغريب والجديد كل الجدة عنه، نلاحظ أن موقفه يتباين من الاضطراب والضيق والترم من جهة، ومن اللامبالاة وضعف الاهتمام من جهة أخرى فنلاحظه في قوله: «وطلبوا منا أن أتوجه إليها حتى أنظرها، فانصعت من التوجه إليها، وراودونا مرارا فأبيت حتى ورد علينا نصراني له معرفة بنا... فقال لي أن الحاكم وأهل البلد صنعوا هذه الفرجة بقصدك إكراما لك وتعظيما لسيدنا المنصور بالله...فما أمكنني إلا أن توجهت معهم...»⁽²⁾.

فيبدو المكناسي متمركزا جدا على نفسه، حاول الابتعاد ورفض كل غريب عن ثقافته(على الأقل في بداية رحلته) وتبدو علامات عدم الثقة في الآخر واضحة لأن المكناسي لم يقتنع بزيارة هذه المرافق إلا حين دعاه إليه من يعرفه، إذ يبدو أن صاحب الرحلة لم يكن مهتما للغوص مباشرة في ثنايا الثقافة الأوروبية الغربية عنه، ولا يستبعد أن إحجام المكناسي عن حضور هذه المرافق الترفيهية نابع من خشيته مشاهدة عادات وسلوكيات مجهولة بالنسبة له قد تكون منافية للأخلاق والمعتقدات الخاصة به كمغربي ومسلم، كما لا يستبعد كذلك أن إحجامه المبذئي هذا هو خطاب موجه لأهل القرار في المغرب الذين سوف يأتيه تقرير السفارة؛ خطاب يحمل في ثناياه تبريرا مسبقا لإقدامه على الحضور لهذه المرافق الأوروبية الغربية عن بيئته الاجتماعية والثقافية والدينية.

وبعد قبوله حضور فعاليات المسرح على مضض مسايمة لمضيفيه، يتجه المكناسي ليصف هذا الفن الأوروبي بأسلوب مقتضب وإشارات سريعة، مبديا فيه إعجابه وافتنانه بما يعرض على ركحه من طرب ورقص وخيال: «...فإذا بدار عظيمة لها أربع طبقات، وقد أوقدوا فيها من الشمع ما لا يعد ولا يحصى وأصحاب آلات الطرب والموسيقى في سفلى الدار، وقد هيئوا لنا موضعا في إحدى الطبقات مقابلا للموضع الذي يكون فيه لعبهم وطربهم وشاهدنا من العجب في تلك الدار مالا يمكن وصفه من أنواع التصاوير والحيوانات التي يخيل للناظر كأنها قائمة، ومن آلات الطرب والرقص ما لا يكيف...»، لينتقل المكناسي من موقف الرفض لرؤية ما لدى الإسبان، إلى إعجاب وتعجب في نفس الوقت بما شاهدته.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 23.

(2) المصدر نفسه، ص 23.

وتأكيدا على أن السفير المغربي لم يألف هذه الصورة والحضور في محفل مماثل غريب، وحتى إدراكه الغايات المرجوة من جراء هذا المسرح كان غائبا، ولا ننفي أن اللغة كذلك كان لها نصيب في عدم استيعاب السفير المغربي لهذا المرفق الثقافي لذا اكتفى بما تشاهده عيناه، مفضلا الانصراف بعد مسيرته لطلب مضيفيه: «... فجلست معهم شيئا ما وانصرفت...»⁽¹⁾.

ورغم تبدل الوجهة من إسبانيا إلى إيطاليا ظلت رؤية ابن عثمان واحدة، فهذا هو يؤكد في رحلته إلى صقلية عن تردده في زيارة المسرح والذي يسميه الإيطاليون "بالوبرة" بدل "كلمة" الكمدية" الإسبانية⁽²⁾: «...قال: إنا هيأنا اليوم فرجة بالليل ونريد منك أن تحضرها، فثقل علي ذلك، ثم تأملت وعلمت أن القوم إنما صنعوا ما صنعوا بقصد إكرامنا والتنويه بقدر سيدنا المنصور إمامنا، فتعينت مساعفتهم، ولا تناسب مخالفتهم، وإلا تتطرق الألسنة بما قيل فيمن لا يقبل الكرامة، ولا يألونه عتابا ولا ملامة»⁽³⁾.

ولما كان انتشار المسرح في أوروبا العصر الحديث من أهم مظاهر الثقافة الأوروبية التي تولدت بلا شك عن عصر الأنوار هناك، رصد الرحالة المغاربة ذلك من خلال تعود الأوروبيين عن زيارة المسارح بكل طبقاتهم، وتحمل إشارات ووقفات ابن عثمان للمسرح الأوروبي زيادة اهتمام من قبل رجال البلاط في نابولي، وخاصة من حاكمها فرناندو الرابع الذي كان كثير التردد على هذه الفرجات: «...وقد ترددنا إلى هذه الديار مرارا حيث كان يتوجه إليها الطاغية ويبعث إلينا...»⁽⁴⁾. أما عن صورة هذه المسارح فيقول ابن عثمان: «...وقد استدعانا الطاغية ذات يوم لرؤية فرجة يستعملها يسمونها الوبره، وهي التي يسميها الإصبيول الكمدية...»⁽⁵⁾.

وابن عثمان لا يتجاوز تعليقه عليها أنها فرجة من الفرجات، دون البحث في معانيها وأهميتها الثقافية والفكرية في أوروبا، كما أن صاحب الرحلة لم يشغله إلا شكلها وتصميمها العمراني وهندستها التي أذهلته «فكشف عن دار غريبة من رقة صنائعها، ودقة بدائعها: "ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير"...»، أما الحركات التي كانت تشاهد والنصوص التي كانت على المسرح فلم تلق اهتمام من المكناسي فاشتغل بوصف الحركات التي تجري هناك فقط وتغير

(1) المصدر نفسه، ص 23-24.

(2) والظاهر أن عروض الأوبرا الصوتية كانت تقام رفقة عروض المسرح على ركح واحد في إيطاليا، لذا لم يستطع ابن عثمان التفريق بين ما كان يعرض في الأوبرا من موسيقى صوتية، وما حملته التخيلات المسرحية.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 183.

(4) المصدر نفسه، ص 147.

(5) المصدر نفسه، ص 146.

المشاهد التي أثارت عجبه والتي كانت "كمن رأى العجب المبين"⁽¹⁾، «فأغربوا من لعبهم بما كاد أن يكون محالا، أو نقول الإنس جنا استحالا...» و«وليس لجميع ذلك حقيقة إلا زخارف الفعل والأباطيل...»⁽²⁾، شارحا لقارئ نص رحلته أن ما يشاهده في المسرح ليس بحقيقة بل مجرد تخيلات.

وفي موقف دال عن عجز في فهم الصنع والغاية من المسرح، ذكر السفير المغربي بعد مشاهدته تعدد المسرحيات التي عرضت أثناء تواجده في مسرح صقلية، مسرحية في الحب وأخرى في الحرب والأساطيل، وهذا ما تأكد لما أنهى ابن عثمان من وصف المسرح في صقلية: «... ولعبهم في هذا المعنى ليست له غاية ولا حد ولا نهاية»⁽³⁾.

وإنه من المثير أن يقف سفير مغربي نهاية القرن السابع عشر عند ظاهرة أخرى من ظواهر الثقافة الأوروبية ألا وهي الصحافة والصحف، باعتبارها وسيلة من وسائل الاتصال، وموطن الإثارة هو أصالة ما نقله الغساني لعدم تعود ومعرفة المغاربة بها، فيقول الغساني: «ومدريد شيء آخر زائد في الإخبار... وذلك أنه إذا كان خبر من البلدان بعيدة نائية فإن فيها دارا فيها قالب الكتابة، وهو على يد رجل واحد قد تحمل لذلك مكسا للطاغية معينا على رأس كل سنة، فمهما سمع بخبر أو طرقة خبرا أو بحث عنه يجمع من الاخبار ما يجمع ويفرغ عليها قالبا عليه الألف من القراطيس ويبيعها بأقل ثمن... فمن أحب الاطلاع على ذلك يشتري منها قرطاسا يسمونه الكاسيطة، فيطلع الإنسان منها على أخبار كثيرة...»⁽⁴⁾، فصورة الغربة وعدم معرفة الرحالة الماضية بوجود مثل هكذا وسيلة، جعله ينقل صورتها كما هي، بل حتى التسمية الدالة على الصحيفة ذكرها باسمها الإسباني "الكاسيطة" (La Gazeta).

ثم إن الغساني بعد أن استعرض أهمية وجود الصحافة في نقل الأخبار وانتشارها، فإنه ينتقل بعد ذلك إلى ذكر بعض السلبيات التي قد تترتب عليها فيقول: «...إلا أن فيها من الزيادة والكذب ما تحمل عليه الشهوة النفسانية»⁽⁵⁾.

أما المتاحف فمثلت هي الأخرى ملمحا آخر غريبا وعجيبا من ملامح الثقافة الأوروبية خاصة خلال القرن الثامن عشر، فقد أعجب بها المكناسي كثيرا بل وتعجب منها أكثر سواء من حيث العمران أو من ناحية محتوياتها من

(1) المصدر نفسه، ص 147.

(2) المصدر نفسه، ص 184.

(3) المصدر نفسه، ص 184.

(4) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 114.

(5) المصدر نفسه، ص 114.

التحف والأحجار الثمينة والنفائس وكل ما احتوته من الغرائب حسبه من حيوانات غريبة محنطة وآثار حضارات من مختلف بلدان العالم ليختتم المكناسي بقوله: «...الحاصل عجائب هذه الدار لا تحصى، ولا زالوا يجمعون فيها كل غريب ظهر في البر وفي البحر ويجلبونه إليها من الأقاليم البعيدة...»⁽¹⁾.

فأبدى إعجابه باعتنائهم بالأشياء الأثرية، الشيء الذي لم يألفه السفير المغربي، وهو بذلك يعكس وجهها آخر من وجوه الحضارة الأوروبية في القرن الثامن عشر، مثل متحف الأسلحة في قصر ملك مدريد: «ومدريد أيضا دار يقال لها دار العدة فيها من آلات حرب الأقدمين شيء كثير...وكل حاجة مكتوب عليها اسم صاحبها في كاغيد ملصوق فيها...»⁽²⁾.

وكان الملوك يُعنون بهذا المظهر الثقافي شخصيا ففي مالطا يذكر ابن عثمان زيارته متحف لحفظ الأسلحة القديمة ضمن أجنحة القصر الملكي: «وقد رأينا في دار طاغية مالطة أيضا قبة كبيرة جامعة لأسلحة الأقدمين من الزرود والقسى والبيضات، وكساوي الحديد التي على قدر مفاصل الإنسان ساترة لوجهه، ولها منافذ ينظر منها ومنفذ يتنفس منها، فتجد كسوة الحديد قائمة قابض بعض مفاصلها الآخر ويدها الرمح فلا تشك على البديهة أنها آدمي، وقد قيل إن هذه العدة المجتمعة عند هذا الطاغية من العمل القديم لم تكن عند غيره من الطواغي، لأن أهم اعتناء كبيرا بشأن الأقدمين»⁽³⁾، والأمر نفسه في وصفه متحف مدينة نابولي⁽⁴⁾.

صحيح أن ابن عثمان قد أبدى تعجبه مما يرى وليس إعجابه، ورغم ذلك فلا نرى صاحب الرحلة باحثا عن سبب اهتمام الأوروبيين بآثار الأقدمين، ولا عن تأثيراتها في واقعهم الفكري والثقافي، كما لا نجد ابن عثمان يقارن إذا ما كانت موجودة في بلاد المغرب أم لا، وبالمجمل فإن عدم الاستيعاب قد طغى في مثل هذه المواقف والصور التي يشاهدها الرحالة، لذلك نجد ابن عثمان يركن إلى القول: «...الحاصل إتقانهم واعتنائهم بأمور الدنيا أمر عجيب: "يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون"»⁽⁵⁾.

وارتبط تأسيس المتاحف مع توجه الأوروبيين للبحث عن الآثار والتنقيب عنها، وفي ذلك يذكر ابن عثمان وقوفه عند آثار مدينة بومبي (Pompéi) الأثرية في نابولي بإيطاليا: «...وقد وجدت بهذه المدينة خدمة كثيرين

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 104، 118.

(2) المصدر نفسه، ص 118.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 128.

(4) المصدر نفسه، ص 169.

(5) المصدر نفسه، ص 128.

يحفرون التراب فسألت عنهم، فقال القيم: إنهم يحفرون بأجرتهم، وكلما يجدون من آثار أهل هذه المدينة من الآنية والحلي، والسكة، وغير ذلك من آثارهم نتوجه به إلى الطاغية ويضعه في دار عنده معدة لذلك... لأن لهم اعتناء كثير بشأن الأقدمين وآثارهم، وإن وجدوا بعض الجدران والبنائيات متداعيا للسقوط فإنهم يرمونه...»⁽¹⁾.

وما يمكن التأكيد عليه أخيرا أن الرحالة المغاربة قدموا صورة عامة عن الواقع العلمي والثقافي الأوروبي، وقدموا فيها معلومات مميزة، فهذا الحجري يقف عند أوروبا الناهضة علميا، أوروبا التي تبحث عن العلوم بشتى اللغات، وتبرز أهميته في تقديمه لواقع الدراسات العربية في أوروبا ليس كمشاهد فقط بل وكمساهم فعال في انطلاقة الاستشراق الأوروبي الحديث، ما يؤكد أن العلاقة الحضارية بين أوروبا والعالم الإسلامي في العصر الحديث رغم ما ميزها من تشنجات وصراعات وقلق فإنها حفلت أيضا بملامح وفترات من التواصل العلمي والثقافي، ووقف الرحالة أيضا عند أوروبا النهضة الصناعية وأوروبا الأنوار في القرن الثامن عشر، لكنهم نظروا إليها من موقف المشاهد المتعجب الذي يصف الغريب فيعجبه أو يتعجب منه، غير مدركين لحجم التجاوز العلمي الذي قد يشكل تهديدا قويا للمغاربة بشكل عام، وقدم هؤلاء الرحالة كذلك لمجتمعاتهم المغربية واقع الثقافة الأوروبية مبينين ردود فعلهم تجاهها وفق نظرة مغربية.

(1) المصدر نفسه، ص 156.

الفصل السادس: واقع الاقتصاد الأوروبي في نصوص الرحلات المغربية خلال القرنين 17 و18م

- أولا: أزمة الاقتصاد الإسباني خلال القرن 17م
- ثانيا: الفلاحة الأوروبية في نصوص الرحلات المغربية
- ثالثا: التجارة الأوروبية في نصوص الرحالة المغاربة
- رابعا: الصناعة الأوروبية في نصوص الرحلات المغربية
- خامسا: البنية التحتية والمؤسسات الاقتصادية الأوروبية

الفصل السادس: واقع الاقتصاد الأوروبي في نصوص الرحلات المغربية خلال القرنين 17 و18م

يبحث هذا الفصل في واقع الاقتصاد الأوروبي كما رآه الرحالة المغاربة خلال الفترة المدروسة، ونسعى من خلاله إلى الوقوف على مكونات ومقومات هذا الاقتصاد كما عبر عنه هؤلاء الرحالة في نصوصهم، ونؤكد أولا إلى التباين في تناول هذه الصورة عن أوروبا بين مختلف النصوص الرحلية؛ هذا التباين الذي يعود في الأصل إلى سياقات كل رحلة وتوجهات كل رحلة واهتماماته، فبينما يكاد يغيب واقع أوروبا الاقتصادي في رحلة الحجري نظرا لطبيعة توجهاته نحو الجدل الديني نجد أنها أكثر حضورا في الرحالة الذين تلوهم، لذا نتساءل عن الصورة التي رسمتها نصوص هذه الرحلات عن الاقتصاد الأوروبي؟

أولا: أزمة الاقتصاد الإسباني خلال القرن 17م

ولأن الوجهة الأولى والغالبة لهؤلاء الرحالة كما نؤكد دائما كانت إسبانيا؛ فإننا نقف كما وقف السفير المغربي الغساني عند حدث مهم في تاريخ هذا البلد من الناحية الاقتصادية وما حملته من تأثيرات سياسية واجتماعية، هذا الحدث المتمثل في أزمة الاقتصاد الإسباني، إذ وقف السفير المغربي عندها ناقلا لصورته ومحللا لأسبابها وواقفا عند نتائجها وانعكاساتها على الدولة والمجتمع الإسباني.

وقبل هذا يشير السفير المغربي لحدث مهم جدا كان له تأثيره الكبير على الاقتصاد وطبيعة الفرد الإسباني اقتصاديا خلال القرن السابع عشر؛ ألا وهو اكتشاف واحتلال أمريكا التي واصل تسميتها "بالبلاذ الهندية" -حتى وإن كان ذكر صاحب الرحلة لهذا الحدث جاء عرضيا في سياق سرده للأحداث الكبرى التي عرفت إسبانيا على عهد الملكة إيزابيل الكاثوليكية- وما دره ذلك على الخزينة الإسبانية التي امتلأت بالفضة القادمة من هناك، يقول: «... ولم يزلوا يملكون في الهند بلدانا كثيرة وأقاليم متسعة يجلبون منها كل سنة ما يغنيهم وبحصول هذه البلاد الهندية ومنفعتها وكثرة الأموال التي تجلب منها صار هذا الجنس الاصبنيولي اليوم أكثر النصارى مالا وأقوى دخلا...»⁽¹⁾، فالغساني كان على وعي تام بتأثيرات التوسعات والكشوفات الجغرافية على الاقتصاد الأوروبي وخاصة الإسباني، الأمر الذي جعل من إسبانيا أقوى الدول الأوروبية ليس اقتصاديا فقط بل سياسيا وعسكريا خصوصا خلال القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر.

وبقدر ما ارتقت عائدات المستعمرات بإسبانيا إلى مصاف أقوى الدول الأوروبية خلال القرنين السادس عشر والنصف الأول من القرن 17م؛ بقدر ما ساهم ريعها في تدهور الاقتصاد الإسباني وانحياره، لذا نجد الغساني وبتفسير خلدوني يقدم تحليلا واعيا بتأثير حالة الترف الاقتصادي الناتج عن الأموال المجلوبة من أمريكا على المجتمع الإسباني

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق ص 91.

اقتصاديا مقارنة بباقي المجتمعات الأوروبية حيث يقول: «... إلا أن الترف والحضارة غلبت عليهم، فقلما تجد أحدا من هذا الجنس يتاجر أو يسافر للبلدان بقصد التجارة، كعادة غيرهم من أجناس النصارى مثل الفلامنك والإنجليز والفرنسيين والجنويز (جنوة) وأمثالهم»⁽¹⁾، وكان من المثير للاهتمام أن نقف على تحليل مماثل عند رحالة مغربي يزور إسبانيا لأول مرة، خاصة وهو غير ملم بلغة البلد المرتحل إليه حتى ينقل هكذا تحليل وتلك الدقة التي لا يبدو أنها أتت عبر مشاهدات بصرية فقط بل عن احتكاك مباشر بالإسبانيين أو عن اطلاع دقيق عما كتبوه أو كتب عنهم، إلا أننا لا نستطيع أن نستبين على وجد اليقين مما استقى الغساني معلوماته وتحليلاته تلك خاصة وأن هذا الأخير لا يصرح بذلك.

فالقارئ لما كتبه الغساني من فقرات تخص الوضع الاقتصادي الإسباني يلاحظ أن السفير المغربي يسعى إلى تحليل وتشخيص المشاكل التي آل إليها والبحث في أسبابها، لذا رأى أن من أسباب تدهور اقتصاد إسبانيا هو الذهنية التي كان يفكر بها الفرد والشعب الإسباني خلال القرن السابع عشر، والذي كان يرى أنه شعب مميز عن بقية الشعوب الأوروبية وغير الأوروبية، شعب رأى في الأعمال اليدوية والصناعات والحرف والزراعة أعمال مهينة له، وفي ذلك يقول صاحب الرحلة: «وكذلك هذه الحرف المهينة التي يتداولها السقطة والرعا وأراذل القوم يتأبى عنها هذا الجنس، ويرى لنفسه فضيلة على غيره من الأجناس المسيحية».

وتعرض السفير المغربي باستغراب كبير لهذه الوضعية التي صار فيها الإسباني فردا غير منتج لا لشيء إلا لأنه يرى نفسه فوق بقية الأجناس، في الوقت الذي كانت فيها جحافل من العمال الأوروبيين تشد رحالها نحو إسبانيا لشغل هذه الأعمال التي ترفع عنها إسبانيي القرن السابع عشر، وصارت صناعات إسبانيا تنتج ويتم صنعها على يد أجانب مقيمين فيها، يقول الغساني: «وأكثر من يستعمل هذه الحرف المهينة في بلاد إصبايا جنس الفرنسيين، وذلك حين كانت بلادهم ضيقة المعاش والأرزاق وصاروا يتقبلون في بلاد إصبايا بقصد الخدمة واقتناء المال وجمعه، ففي أيام قليلة يجمع أموالا جمة ومنهم من يرغب عن بلاده ويستوطن بهذه البلاد وإن كانت غالية الأسعار فإن مردها كثير...»⁽²⁾، ويتحدث الغساني عن إهمال الإسبان لقطاعات الزراعة والصناعة والأعمال اليدوية وقد فسّر هذه الظاهرة بعدة أسباب منها:

- الانضواء تحت راية الأعيان: لفت انتباه السفير المغربي تفضيل الإسبان الانضواء تحت راية الأعيان في ظل وجود "اقتصاد ريعي" إذا صح التعبير، يقول: «...وجل هذا الجنس يعد نفسه من أتباع المخزن أو الجيش ويرفع نفسه

(1) المصدر نفسه، ص91.

(2) المصدر نفسه، ص91.

عن خدمة الصناعة أو عن السبب والتجارة رجاء أن يعد من الكبار، أو يورثها لخلفه إن لم يدركها، فإن عوائدهم دمرهم الله أن جميع أهل الصناعات والحرف والتجارات لا يركب في الحاضرة التي بها الطاغية كدشا، وإن أحب أحد منهم الكبيرة أو القرب من المخزن ليعد من اتباعه يترك هذه الأسباب التي يعبر بها من الحرف رجاء أن يلحقها عقبه من بعده، وأما هو في خاصة نفسه فلا يدركها ولو سعى فيها ما سعى إلا إذا كان تاجرا ذا مال كثير من التجار الذين لا يرفعون ميزانا ولا يجلسون في دكان مثل التجار الكبار الذين لهم المتاجر العظيمة والأموال الجسيمة التي أغنتهم عن البيع والشراء في الحوانيت والأسواق فإن هذا يلحق الكبيرة مع تركه للتجارة وعدم التفاته إليها أصلا...»⁽¹⁾، فالرغبة في الوصول للمكانة الاجتماعية والنفوذ السياسي والاستفادة من الربح الاقتصادي أدى بالفرد الإسباني إلى ترك كل أعمال الفلاحة والتجارة والصناعة، التي دون شك سوف تؤثر على الاقتصاد الإسباني مستقبلا.

- **الانضمام للعيش:** ومن الأسباب فسّر بها الغساني هذا التدهور الاقتصادي هو سيطرة ذهنية القرون الوسطى على إسبان القرن السابع عشر، هذه الذهنية التي تفضل العمل العسكري على غيره، وبالطبع عززت الحروب الكثيرة المعلنة على الإسلام والمسلمين هذه العقلية، وبذلك أصبحت الجندية أحسن وسيلة لاغتناء المادي والارتقاء الاجتماعي، وأصبحت تبعا لذلك تستهوي الجميع، حتى أن العيش من حرفة أخرى بات يعتبر إهانة كبرى حسبما سجل ذلك السفير المغربي وعبر عن ذلك قائلا: «ولجنس الاصبنيول عادة فيمن يحب الكبيرة ولم يظهر له من أين يدركها أو لم يكن له عن المخزن ملتحق بها ما يعيش به ويكفيه عن معاونة الأسباب وغيرها بأن يقصد بلاد لمانيا (ألمانيا) على بعدها ويحضر هناك لحرب مع المسلمين أعزهم الله ويجعل بيده إسهادا وبينات تثبت له خدمته...وحين يرجع إلى بلاد إصبانيا يستظهر بالإشهاد الذي بيده ويدي بحجة الخدمة، فيدرك بذلك الكبيرة...»⁽²⁾.

- **الهجرة إلى المستعمرات:** فمن أسباب الأزمة الاقتصادية كذلك هو الهجرات المتتالية للإسبان نحو المستعمرات حيث كان تركيزهم على التجارة الاستعمارية والبحث عن الثروة فيها بأقل جهد وأسرع وقت وبذلك تخلوا عن الطرق التقليدية مثل الصناعة والزراعة في بلادهم: «.. وبسبب ذلك قل التجار من جنس الاصبنيول ولا تجد أحدا منهم مسافرا في بلد بقصد التجارة إلا ما كان في بلاد الهند، وأكثر من بإصبانية من المتسبين والتجار هم الإنجليز والفلامنك والجنويز وغيرهم...»⁽³⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 92.

(2) المصدر نفسه، ص 127-128.

(3) المصدر نفسه، ص 125.

- الانضمام إلى الكنيسة: ونظرا لما حظيت به الكنيسة ورجالاتها من امتيازات اقتصادية ونفوذ اجتماعي وسياسي، لما كانت تغري به من إمكانيات للثروة والجاه، يشير الغساني أن أعداد معتبرة من الإشبانيين صاروا باحثين عن مكانة بين الرهبان والقساوسة، حيث عبّر الرحالة المغاربة بامتعاض كبير عن تراكم الثروة في يد الكنيسة وأتباعها، فكان مجرد الانتساب إلى الكنيسة والرهبنة ميزة كبيرة تمنح صاحبها الغنى المادي، والراحة النفسية والمعنوية، والسطوة والمهابة الاجتماعية، الأمر الذي فاقم من أزمة إسبانيا الاقتصادية، فتحدث الغساني عن إقبال رجال الكنيسة على مظاهر الحياة، وتعول رؤساء هذه الفرق من الرهبان وتوجههم إلى جمع الأموال وغرض الدنيا، فيقول: «...فمن الفريالية من تجده جعل في يده تلك الخطة سببا وتحילה على الدنيا وجمعها، فإن كانت له يد عن المخزن يقبض من وفر الحبس الآلاف زاعما أنها لمعاشه، ومنهم من جعل تلك الخطة سببا للاستراحة من تعب الدنيا ومشقتها وتكفيه الراحة، ومنهم من جعلها في يده درقة يستتر بها لتقيه وتمنعه من كلام الناس، فلا يقدر أحد أن يتكلم في أحد من الفريالية بغيب أو يلزمه بقيق ولو شاهده وحققه...»⁽¹⁾.

ورغم تعبير الغساني عن جميع هذه الأسباب كأسباب دافعة لتدهور الاقتصاد الإسباني في القرن السابع عشر، إلا أننا نستغرب منه إسقاط سبب لا يقل أهمية ألا وهو تأثير طرد الموريسكيين من إسبانيا على الاقتصاد، ومثار الاستغراب هنا هو اطلاع الغساني العميق على وضعية الاقتصاد هناك إضافة إلى ما تمثله الهوية والقضية الموريسكية بالنسبة لسفير مغربي في إسبانيا، وتزداد الغرابة أكثر في أن هذا الطرد وتأثيره السلبي على إسبانيا تداوله كتاب القرن السابع عشر في إسبانيا كسبب رئيسي لانحيار الاقتصاد الإسباني وأزمته خلال هذا القرن⁽²⁾.

ولا يكتفي الرحالة المغربي بذلك بل يلاحظ أن الأسباب التي كانت دافعة لانحيار الاقتصاد الإسباني كانت بصورة عكسية في بقية البلاد الأوروبية التي ارتقى اقتصادها في نفس الفترة، ففي الوقت الذي كان فيه الإشبانيون يترفعون على العمل في الأرض والحرف والأعمال اليدوية كان الفرنسيون يضربون في الأرض شاغلين تلك المناصب، مساهمين في النهوض بالاقتصاد الفرنسي، وبالتالي بروز ملامح ظهور قوى أخرى ممثلة في فرنسا وإنجلترا على الخصوص، مقابل تراجع إسبانيا، يقول: «...والصحيح أن أهل افرانسة هم أهل أسباب وتجار، وجل تجارتهم إنما هي في الناحية الاصبنيولية، ولأهل الأسباب والتجارات عند طاغية الفرنسيين -دمره الله- منزلة ومكانة، وإذا كانوا في هذه السنين هم أهل ديوانه وجل بطانته، فكان يساعفهم فيما يؤول إلى منفعتهم من الأسباب والتجارات التي يعود نفعها ويحصل له بسببها من الأموال ما يحصل، بخلاف غيره من الأجناس مثل الجنس الاصبنيولي، فإن التاجر عندهم

(1) المصدر نفسه، ص 77.

(2) Juan Francisco Pardo Molero, «Desdichados e imprudentes. Los moriscos y su expulsión en la memoria escrita del siglo XVII», *Tiempos modernos: Revista Electrónica de Historia Moderna*, Vol. 8, Nº. 31, 2015, p318-344.

لا يعد شيئا، وبسبب ذلك قل التجار من جنس الاصنيول ولا تجد أحدا منهم مسافرا في بلد بقصد التجارة إلا ما كان في بلاد الهند، وأكثر من بإصبانية من المتسبين والتجار هم الإنجليز والفلامنك والجنويز وغيرهم...»⁽¹⁾.

ولاحظ الغساني انعكاس هذه الأزمة الاقتصادية التي يعيشها المجتمع والدولة في إسبانيا خلال القرن السابع عشر من خلال ظهور آفات اجتماعية ناتجة بلا شك عن هذا الوضع المتدهور، ومن ذلك كان انعدام الأمن وانتشار اللصوصية وما ألحقه ذلك على الاقتصاد فيقول: «ومع هذه العمارة وكثرة المداشر والقرى والمدن التي في إصبانية لا يقدر أحد أن يسافر وحده في مدة مسافات جبل مريئة وجميع بلاد مانشا لما فيها من الخوف وكثرة اللصوص...»⁽²⁾.

وامتدت هذه الآفات إلى القرن الثامن عشر إذ لاحظ المكناسي الانتشار الكبير لظاهرة التسول وارتفاع عدد المتسولين يقول: «...وما اختصت به مدريد عن سائرها من بلاد إصبانية أنك لا تلقى بها سائلا في أزقتها، مع أن السؤال في بلاد النصارى لا حد له، وما رأيت بمدريد أكثر مسألة من الفرايلية...»⁽³⁾، ولا بد أن التحولات الاقتصادية والاجتماعية كانت كبيرة جدا، خاصة عندما نرى فئة مثل أتباع الكنيسة الذين تمتعوا واستفادوا كثيرا في السابق من مكانتهم الدينية من أجل الاغتناء المادي، تتأثر بهذه الأزمة ولنا أن نتصور حال بقية الشعب الإسباني.

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق ص 125.

(2) المصدر نفسه، ص 79.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 106.

ثانيا: الفلاحة الأوروبية في نصوص الرحلات المغربية خلال القرنين 17 و18م

يعتبر القطاع الفلاحي وخاصة الزراعي منه النشاط الاقتصادي المهيمن على صورة أوروبا الاقتصادية في نصوص الرحلات المغربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، ورغم أن الحجري قد غيب في نص رحلته هذا القطاع بحكم هيمنة طابع الجدل الديني عليها، فإن الرحالة الذين تلوهم أولوا هذا القطاع النصيب الأكبر من الاهتمام في رصدهم للحركة الاقتصادية الإسبانية على وجه الخصوص، وقد يتساءل القارئ لماذا كان تركيز هؤلاء الرحالة على هذا القطاع دون غيره من النشاطات الاقتصادية؟

وهنا لا بد أن نشير إلى تأثير وجهاتهم السفارية هذا الوجهات التي كانت بالتحديد إلى إسبانيا أو إحدى عمالاتها التي كانت بلاد فلاحة بالدرجة الأولى خلال الفترة المدروسة، لذا نجد تكرار جمل من قبيل: «...أهلها أهل فلاحة وأرضها أرض حراثة...»⁽¹⁾ «وأهلها أهل فلاحة»⁽²⁾، «أرضها أرض حراثة وزراعة»⁽³⁾ في وصف أغلب المدن والقرى التي زاروها أو مروا بها في إسبانيا، دون أن ننسى كذلك تأثير الخلفية التي أتى منها هؤلاء الرحالة وهي خلفية "المغرب الفلاحي"، والتي سوف تؤثر بلا شك في تحليل ما يشاهدونه بحكم معرفتهم بطبيعة الأرض ومنتوجها.

وعليه نقول أنه بالرغم من التركيز الكبير الذي أولاه رحالتنا للقطاع الفلاحي باعتباره النشاط الأهم في إسبانيا وقتئذ إلا أن الصورة الإجمالية التي يمكن أن تستخلص من خلال مشاهداتهم المدونة في نصوصهم هي صورة دولة فلاحة تقليدية صورة "إسبانيا لا تختلف كثيرا عن المغرب الذي تركوه خلفهم"، وصورة ثانية "إسبانيا في طريق النهوض والإصلاح الفلاحي" (رغم بقاء كثير من تركات الصورة السابقة)، نعم هما صورتان تبدون نواقضتان إلى وجهة واحدة، وقد يزول هذا العجب إذا بحثنا في سياقات كل رحلة من الرحلات، فبينما جاءت رحلة الغساني في زمن عانى فيه الاقتصاد الإسباني أزمات كبيرة بفعل السياسة القائمة على الربيع وإهمال الأعمال اليدوية ومنها طبعا الزراعة (كما بيناه سابقا) بينما جاءت رحلات الغزال والمكناسي في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر في زمن إصلاحات الملك كارلوس الثالث الاقتصادية فعايشوا لحظات من محاولات نخضة إسبانيا الاقتصادية والفلاحية على وجه التحديد

هذا ويبدو الرحالة المغاربة سواء في القرن السابع عشر أو الثامن عشر عارفين بعدد القضايا المهمة التي تخص شؤون الزراعة، مثل التركيب الجيولوجي للمنطقة التي يزورونها وتكوين التربة ونوعيتها، وبذلك استطاع السفراء المغاربة التمييز بين طبيعة كل منطقة ومنتوجها الفلاحي، مفسرين أسباب انتشار هاته الزراعة أو تلك أو انعدامها في منطقة

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 105.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 67.

(3) المصدر نفسه، ص 68.

أخرى، فلاحظ الغساني والمكناسي أن إقليم مانشا: «...هي أرض خشنة ذات أحجار ومنابتها الشيح وغيره من المنابت اليابسة...»، أما إقليم الأندلسية ف: «...هي قليلة المياه إلا ما بها من الأودية المذكورة ولم يكن لأهلها اعتناء بالسواقي ولا بإخراجها، إذ حراثتهم كلها على البلاد البعلية⁽¹⁾ إلا ما نسمع عن غرناطة وأحوازها من تدفق المياه وجريانها من كل موضع...»⁽²⁾، أما أرض قرمونة: «...حوز هذه البلاد جيد وكله أرض فلاحية وحرثة وترباها أسود تيرس (صالح للزراعة) ...»⁽³⁾، أما أراضي قرية لردى دي الري (Villa del Rio) «...كلها بلاد جيدة كبيرة وهي المسماة عندنا بالشمايخ أشبه شيء ببلاد الأحيانية ترابا وكدى وأهلها أهل فلاحية كثيرة...»⁽⁴⁾. ففي مدينة الكبسات: «ليس بها ماء أصلا إلا الآبار أو ماء الأمطار...»⁽⁵⁾، أما قادش: «...ليس بها شجر ولا ثمر ولا خضر إلا ما يجلب إليها حتى حجر البناء والجير يجلب إليه، وكذا الماء يجلب إليه من مدينة البويرط ذي سنط مرية⁽⁶⁾... وليس بقالص ماء يشرب إلا ما يجتمع من ماء المطر ويجلب إليه من المدن المذكورة، أما ماء الآبار فقد ذكر أنه أجاج...»⁽⁷⁾.

ورغم هذا التباين على طول مسارات الرحلات المغربية وتعدد محطاتها في الأراضي الإسبانية، إلا أن زراعة الكروم والزيتون كانت هي الغالبة، بل إن القارئ يكاد يحس مع انتقال الرحالة من مدينة إلى أخرى أنه يعيش معهم مشهد واحد ثابتا لا يكاد يتزحزح، مشهد كان فيه حضور هذا النوع من الزراعة هو الأبرز لذا كثيرا ما كررت في كل هذه الرحلات عبارات مثل: «...وسرنا في أجنة الزيتون والكروم...»⁽⁸⁾، «...بأرجائها أشجار الزيتون التي لا يأتي عليها حصر...»⁽⁹⁾، «...جميعها زياتين وأرض حرثة...»⁽¹⁰⁾، «...وقد استوعب أرجاء المدينة زياتين...»⁽¹¹⁾.

وبينما لم يول أصحاب رحلات القرن الثامن عشر اهتماما من أجل تحليل وتفسير توجه الإسبان لزراعة الكروم نجد الغساني كعادته يحلل ما يراه فيشير إلى كثرة هذه الزراعة كلما اقتربنا من العاصمة مدريد يقول: «سرنا بين بساتين الكروم إذ لم يكن في جل هذه النواحي شيء من الأشجار عدا الكروم، وذلك لقرب المسافة بين أهالي هذه النواحي

(1) الأرض البعلية: وهي الأرض التي تعتمد على مياه الأمطار في سقي المزروعات.

(2) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص70، محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص63.

(3) المصدر نفسه، ص50-51.

(4) المصدر نفسه، ص67.

(5) المصدر نفسه، ص31-32.

(6) بالإسبانية Puerto de Santa Maria

(7) المصدر نفسه، ص27.

(8) المصدر نفسه، ص29.

(9) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص104.

(10) المصدر نفسه، ص105.

(11) المصدر نفسه، ص105.

وبين مدريد أكثروا غرسه لما يستعملونه من الخمر دائما في كل حين من أحيائهم، وعند أكلهم، وأكثر شربهم الخمر فقلما تجد من يشرب الماء في جميع هذه البلاد...»⁽¹⁾، وهو الأمر الذي جعل من تجارة الخمر تجارة رائجة في مدريد وضواحيها: «...ولكثرة استعمالهم إياه وكثرة عمّار مدريد بأهلها وقصّادها للسكنى والعمارة والتجارة يباع بها الخمر بأغلى ثمن...»، خاصة مع كثرة ما تدره تجارة الخمر على الدولة في إسبانيا من مداخيل وأموال معتبرة نظرا لما تفرضه على تجاره من مكوس⁽²⁾، إذ يبدو الغساني في هذه الصورة ليس فقط واصفا ما يشاهده بل محللا ومفسرا تلك العلاقة التي تربط الإنتاج الفلاحي بالعادات الاجتماعية في المجتمع المرتحل إليه مما يرفع من أهمية ما يسجله السفير المغربي في هذا المجال.

فرغم أن سير السفراء المغاربة في الأراضي الإسبانية لم يكن سريعا بل كان بوتيرة تسمح لهم بنقل صورة أكثر دقة، هذه الصورة التي كانت لا تخرج عن عبارات متكررة بطريقة سكونية، إلا أن الزراعة هناك تبدو تقليدية. ومن الزراعات التي ركز عليها ابن عثمان في إسبانيا القرن 18م هي زراعة "عشبة طابة" (Tabaco) أو ما عرف عند المغاربة بـ "عشبة الدخان" وهو النبات الخاص بالتدخين، وخصص لها اهتماما معتبرا مدققا في غراستها وتحويلها للمصانع والأرحية إلى غاية تحويلها للبيع، وقد مثلت تجارة هذه العشبة مدخولا خاصا للحكومة الإسبانية لأن: «نفع هذه العشبة مقصورا على عظيمهم، مثل الملح وغير ذلك، فلا يقدر أحد أن يتعاطى فيها بيعا ولا شراء، ومن ظهر عليه شيء يعاقب العقوبة الكبيرة أو غيرها...»⁽³⁾.

وفصّل المكناسي العمل في معامل عشبة طابة: «ولقد رأيتهم يطبخون العشبة الخبيثة بالأرحية على شكل معاصر الزيتون، فلم يمكنني عد الأرحية وهم أي الأرحية مصطفون وكل رحى موكل به أصحابه، يجلبون طابة أول مرة مقصوفة في الرحى الأولى، ولهم ألواح من الحديد يدفعون بها إلى حجر الطحن ما لم يصله من العشبة المذكورة ويخرجون ما دارت عليه الرحى بتلك الألواح ويضعونه في رحى أخرى ملاصقة لها وينقلون من تلك الرحى إلى رحى أخرى... حتى يصل الغاية التي يغربل فيها إلا أنه لم أدر بكم يكتفي بذلك من الأرحية لأنه لا يقدر أحد أن يقف بذلك الموضع إلا أن تكون له مخالطة بتلك العشبة الخبيثة، وقد كادت أن تخرج أرواحنا في لحظة من كثرة الغيار فخرجت فارا بنفسي إلا أنه هناك من الأرحية عدد كثير لم يمكنني عدّه، ومن الغرابيل كذلك عدد كثير والموكلون

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 84.

(2) المصدر نفسه، ص 84.

(3) المصدر نفسه، ص 46.

لذلك واقفون عند الميزان يزنون ويجعلون في الخناشي، وهم في تلك الدار في شغل شاغل، ولقد أخبرني الحاكم أن في تلك الدار من الخدامين أكثر من ألف...»⁽¹⁾.

ورغبة منه ربما في توجيه خطاب إلى المسؤولين في المخزن المغربي حول العائدات المالية جراء المتاجرة بهذه العشبة التي كانت "تسافر إلى جميع البلدان" راح ابن عثمان يستطلع ويستفسر عن إنتاجها وكثرة وارداتها: «ولقد سألت القيم على الدار المذكورة كم يكون مدخول الطاغية في كل شهر من هذه العشبة، فقال نحو الخمسة ملايين من الريال، بعد إسقاط اللوازم والخدامين وغيرهم بعد إسقاط اللوازم والخدامين وغيرهم والمليون عشرة مائة ألف، وأخبرني أن عنده في الدار المذكورة عشرون مليوناً من أرتال طاباقوا بحساب ريالين للرتل فيجب فيها من الريال أربعون مليوناً...»⁽²⁾، ويتأكد هذا الغرض من اهتمام صاحب رحلة الإكسبر بتجارة هذه العشبة حول ومداد خيل خزينة الملك من إنتاج التبغ⁽³⁾، خاصة وأنه لم يقف عند هذا الأمر حين ذكره لمعاصر الزيتون والكروم مثلاً؟

ويبدو أن السفير المغربي قد وقع في الخلاف حول الموقف الشرعي من هذه العشبة سواء في تعاطيها أو زراعتها والمتاجرة بها⁽⁴⁾، فالمكناسي يبدو معجبا بإيرادات المتاجرة بها وقدم للمخزن صورة عن ذلك في إسبانيا، في حين يبدو موقفه الشرعي والشخصي موقف غير المرحب حيث يصف هذه العشبة بـ"العشبة الخبيثة"⁽⁵⁾، ويصف العاملين بها بالكفرة الفجرة، حيث يقول: «... فما رأيت أشقى ولا أتعب من أهل هذه الدار كأهل النار "وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قتره أولئك هم الكفرة الفجرة"، لكنني احتملت ذلك فملت أن أخبر خبرهم، وأعرف عجرهم وبجرهم، ورأيت أن لا تنيف على من يأتي الكنيف»⁽⁶⁾، فالمكناسي في نقله لهذه الصورة وقف موقف رجل الدولة الذي يسجل ملاحظاته حول مكان من الاقتصاد للدول التي يزورها، ومن جهة أخرى يعبر عن موقف الفقيه ورجل الدين الذي يعطي رأيه الفقهي الشرعي حول تعاطي التبغ.

(1) المصدر نفسه، ص 46.

(2) المصدر نفسه، ص 48.

(3) وسوف يتجه المخزن المغربي في القرن التاسع عشر إلى تجارة هذه العشبة واحتكار المتاجرة بها، والتحكم في أنماطها، وتشبث المغرب بهذا الاحتكار رغم معارضة الفقهاء، نظراً لما تدره من عائدات مهمة لخزينة الدولة. للمزيد أنظر: لطفي بوشنتوف، تجارة المحظور في النصف الثاني من القرن 19م (سلعنا الدخان والخمر مثلاً)، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، ج 1، جامعة الحسن الثاني، عين الشق-الدار البيضاء-المغرب، 23-21 فبراير 1989، ص 119-125.

(4) وهذا الخلاف الذي وقع فيه المكناسي، هو تعبير عن خلاف فقهي وشرعي وقع في المغرب طيلة العصر الحديث، فمنذ البداية طرحت نقاشات بين العلماء حول عشبة الدخان حول تحريمها وتحليلها، غير أن التحريم غلب على الفتاوى والمصنفات التي تناولت الموضوع، فقد أنكر علماء القرن 19م سماح المخزن بتناول عشبة الدخان واستيرادها وزراعتها بل واحتكار تجارتها. للمزيد أنظر: المرجع نفسه، ص 121.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسبر، مصدر سابق، ص 47.

(6) المصدر نفسه، ص 48.

أما عن الإنتاج الحيواني فكان ذكره متطابقا في رحلات الغساني والغزال وبعدهما المكناسي في تركز تربية المواشي في منطقة واحدة تقريبا وهي ضواحي مدينة اشبيلية: «...وهذه البلاد التي بين الكبسات واشبيلية كلها عامرة بعزائب الحرث والماشية، والغالب في غنم بلاد الأندلسية أنها سود»⁽¹⁾، وكذا تربية الخيل والقيام بها في قرطبة، والتي كانت أهم ممول للملك الإسباني بالخيول، والبغال في مانشة⁽²⁾.

بينما لاحظ ابن عثمان اهتمام الحكومة الإسبانية مباشرة بتتاج الخيل خاصة في قرطبة يقول: «وعلى وادي قرطبة، وهو الوادي الكبير من البساتين وأراضي الحراثة والعزائب لتتاج الخيل ما اختصت به قرطبة من غيرها من سائر البلاد الأندلسية، لأن خيل قرطبة وعملها هي عند النصارى أشرف خيل بلاد اصبانية عن آخرها، ومن أجل ذلك منع طواغيتهم المتقدمة ألا ينزو أحد حمارا على فرس ومن ظهر عليه شيء من ذلك يعاقب العقوبة الشديدة...»⁽³⁾.

ومن الصور الملفتة في نصوص هذه الرحلات فيما يخص الإنتاج الحيواني في إسبانيا؛ هو كثرة إنتاج البغال خاصة في منطقة مانشا إذ ربط ابن عثمان تشييد الطرق الحديثة وتربية البغال بطرق النقل الموجودة في أوروبا وإسبانيا: «...بلاد مانشا بها من العزائب لتتاج البغال ما لا يحصى كثرة، وبغالها فارهة مثل البغال الشاميين وجميعهم بقصد الأكداش لأن غالبهم لا يمر إلا في الأكداش حضرا وسفرا وللبغال عندهم ثمن كثير...لكثرة احتياجهم إلى البغال للأكداش...ومن أجل ذلك كثرت قيمتهم لأن الأكداش لا يحصون كثرة...»⁽⁴⁾.

ولأن وقف الغساني عند أسباب الانهيار الكبير الذي أصاب الاقتصاد الإسباني خلال القرن السابع عشر، فإن المكناسي يقف عند الإصلاحات التي انتهجها الإسبان على عهد حكم أسرة البربون في القرن الثامن عشر وخصوصا خلال حكم الملك كارلوس الثالث في سبيل النهوض بهذا الاقتصاد، ولأن أصحاب الرحلة أتى من بيئة غربية عن تلك الموجودة في أوروبا فإن مشاهداته وتحليلاته الشخصية جاءت أكثر عفوية عكس مزامنيه من الرحالة الأوروبيين الذين إسبانيا خلال نفس الفترة الذين ذهبوا إلى تحليل مدى جدوى الإصلاحات الاقتصادية التي قادها الملك كارلوس الثالث، بين من يرى فيها بادرة مميزة قد تخرج إسبانيا من حالة التخلف الاقتصادي والحق بالركب الأوروبي، لا من حيث علاقة الدولة بالاقتصاد أو بوسائل الإنتاج أو بمردوده.

وبغض النظر عن مدى استيعاب السفير المغربي لهذه الإصلاحات فإن أهمية ما ذكره تكمن في تلك الصورة التي أنتجها عن مظاهر هذه الإصلاحات الدالة عليه، حتى إن لم يشر إليها مباشرة ولم يسمها، ففي سبيل تطوير

(1) المصدر نفسه، ص 33.

(2) المصدر نفسه، ص 62-63.

(3) المصدر نفسه، ص 62.

(4) المصدر نفسه، ص 73-74.

قطاع الفلاحة الإسباني في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، قامت الحكومة الإسبانية بإنشاء القرى والمدامر الفلاحية وتوزيعها على الفلاحين، وتقديم الدعم والتحفيزات المادية اللازمة لسكان القرى والأرياف، ويقول رحالتنا في ذلك: «...إن هذه البلاد كانت مخوفة يقصدها اللصوص ويقطعون بها الطريق لا يسلكها أحد إلا بمخاطرة ومن أجل ذلك عمرها الطاغية بهذه الديار...وهؤلاء القوم الذين أنزل الطاغية على هذه الطريق يعطى كل واحد عددا من الغنم معلوما وعددا من الدجاج ويبتني له الدار ويعطيه الزرع وثورا للحرث ويحط عنه المغرم ثمان سنين حتى يستوطن ويتأهل، وقد كانت هذه الغابة ملتفة غاية فعمد إليها الطاغية وحطب جلها ولم يبق بها إلا شجر الكروش، وحطب ما عداه فلا يمكن لأحد من اللصوص أن يتستر فيها...»⁽¹⁾.

ومن الصور المعبرة عن الإصلاحات في مجال الزراعة ما ذكره ابن عثمان عن توجه الإسبان إلى زراعة الأرض وإن لم تكن قبل صالحة للزراعة، وكل ذلك بأمر من الملك كارلوس الثالث، يقول السفير المغربي معبرا عن تعجبه ومستفهما عن ذلك لما كان بمدينة لرانخة (La Granja) بإقليم شقوبية: «...وهذه الأجنة على أشكال وأنواع منها ما هو مغروس بالشجر الذي يثمر الفواكه من تفاح وإجاص وليم وغير ذلك، وقد سألتهم كيف تنتج عندهم هذه الثمار وشقوبية لا يصلح بها شيء من شدة القر والبلاد واحدة، فقالوا: أن هذه الأجنة لا يستعملها أحد غير الطاغية، لأن هذه البلاد مع بلاد شقوبية سواء في شدة القر ولا يصلح بها شيء من ذلك، وهذه البساتين هي للطاغية فيصرف عليها مالا كثيرا، ولا يبالي أصلحت غلتها أم فسدت...»⁽²⁾.

ولاحظ المكناسي الدور الحمائي الذي تلعبه الدولة الحديثة في أوروبا من خلال تشجيع الاستثمار الاقتصادي وحمايتها له، ومن أجل ذلك حاربت الحكومة الإسبانية ظاهرة اللصوصية وصار الكل آمنا على نفسه وماله، يقول ابن عثمان: «...وهذه البلاد التي سرنا فيها من قرية بيران إلى هذه القرية كانت كلها غابة متكاثفة يقصدها اللصوص فلا يمر بها إلا من كانت له عصبية فعمد الطاغية إليها وخففها بأن حطب جميع الشجر الذي كان بها ولم يترك إلا شجر الكروش وأنزل فيها عمارة كثيرة متصلة فهي اليوم بلاد آمن يسلكها الرجل والمرأة والقوي والضعيف ولا يتكلم معه أحد...»⁽³⁾.

ولنا أن نلاحظ حجم التغيرات التي طرأت على إسبانيا كنتيجة لهذه الإصلاحات، بانتشار الأمن في كثير من بقاعها، مقارنة بما كان عليه الوضع خلال القرن السابع عشر الذي لاحظ فيه الغساني أن: «...لا يقدر أحد أن

(1) المصدر نفسه، ص 54، 72-73.

(2) المصدر نفسه، ص 135-136.

(3) المصدر نفسه، ص 72.

يسافر وحده في مدة مسافات جبل مريئة وجميع بلاد مانشا لما فيها من الخوف وكثرة اللصوص...»⁽¹⁾، فالغساني يبدو مستغربا من انتشار اللصوصية رغم اتساع وانتشار العمران في إسبانيا، ثم يشير الغساني أن الدولة الإسبانية ماضية في استئصال هذه الظاهرة من خلال ملاحقتها للصوص⁽²⁾، ورغم هذه الصورة إلا أن الغساني لا يقدم تفسيرات واضحة عن دواعي اللصوصية بهذه البلاد، ويبدو أن تشخيص أسبابها كان مستعصيا أيضا على السلطات الإسبانية في عهد كارلوس الثاني آخر ملوك الإسبان من الهابسبورغ، لأنهم توجهوا للحلول العسكرية للقضاء على هذه الآفة الاجتماعية، بينما توجه خلفاءهم من آل بربون إلى إصلاحات اقتصادية من أجل القضاء عليها.

هذا عن إسبانيا أما فيما يخص مالطا التي توجه إليها المكناسي سفيرا سنة 1780م، فرغم أنها بلاد صخرية؛ إلا أنه أشاد بتوجه أهلها للفلاحة رغم الصعوبات الطبيعية: «على أن أرضها من حجر واحد، لكن أهلها أهل فلاحة، ولهم قوة كبيرة وصبر على المشاق، فتجدهم يقلعون الحجر فيبيعونه ويأتون بالتراب في المراكب من جزيرة غودش المتقدمة، ومن جزيرة صقلية، ويجعلونه فوق الأرض ويغرسون فيه، وفاكهة هذه الجزيرة صادقة الحلاوة، فقد رأينا اللّيم المسمى اللشين في غاية ما يكون، وباكور التين...والجيد منه يباع بالعدد لكل اثني عشرة قدر معلوم، وكذلك البطيخ صادق الحلاوة...»، ورغم ذلك يبقى إنتاجها غير كاف لتغطية احتياجات أهلها لذا كانت: «جل أقواتها مجلوبة إليها من جزيرة صقلية وغيرها»، فيما راح السفير المغربي يسجل ملاحظات حول الانعكاسات السياسية الناتجة عن قلة الإنتاج الزراعي والفلاحي لجزيرة مالطا: «...ولذلك كان أهل مالطا تحت قهر صاحب نابل، لتوقفهم على القوت من صقلية وهي من إيالته، فلا يعصون له أمرا سرا ولا جهرا»⁽³⁾.

ويضيف عن واقع صقلية الفلاحي أن: «ب هذه الجزيرة من الخيرات ما لا يحصى، وما رأيت أسمن من غنمها، وقد كنا فيها زمن الشتاء، فقد أخبرني بعض أصحابي أنه وزن شاة فوجد فيها سبعة وخمسين رطلا كبيرا...وأما كثة زرعها فشيء معلوم مشهور يجلب منها إلى سائر بلاد النصارى، وقد سألت ذات يوم نصرانيا عن مقدار مدخول الطاغية في السنة، فقال: ما يقرب من أربعة ملايين، والمليون ألف ريال، وقد أخبرني أن الثلج الذي يبرد به الماء في هذه المدينة فقط نحو ثلاثين ألف ريال...»⁽⁴⁾.

ورغم الطابع التقليدي الغالب على واقع الفلاحة الإسبانية إلا أن الرحالة المغاربة استطاعوا أن يميزوا بعضا من ملامح الحداثة الذي بدأت تظهر في إسبانيا القرن الثامن عشر، هذه الملامح التي تجلت في ظهور المكننة الحديثة في

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 79.

(2) المصدر نفسه، ص 79.

(3) رحلة المكناسي، البدر السافر، ص 111.

(4) المصدر نفسه، ص 198.

هذا القطاع وبالخصوص في وسائل الإنتاج، فسجل المكناسي بدقة نصاهية طريقة استخراج الماء التي بدت له غريبة ليقول: «...وقد رأيت لهم كيفية استخراج الماء من آبارهم بأن يجعلوا عمودين على شفير البئر، ويجعلون عليها عمودا آخر ممتدا فوقها على شكل عمود الميزان، وفي رأسه الذي فوق البئر الحبل الذي فيه الدلو حتى يصل الدلو الماء، وحين يمتلئ يطلق الحبل فيطلع من غير مشقة ولا تعب، ويسقى الماشية في أقرب زمان...»⁽¹⁾.

ويواصل المكناسي تركيزه على التطور التقني في المجال الفلاحي، ومن ذلك ذكره لمعاصر الزيتون الحديثة: «...وقد رأيت خارج المدينة المذكورة معصرة كبيرة لعصر الزيتون فيها معاصر متعددة على شكل معاصر بلادنا، وفيها معصرة أحدث النصارى صنعتها قريبا، وذلك أنهم جعلوا صندوقا من الخشب قعره ضيق وأعلاه واسع، وبأسفله خشبة أخرى على شكل القرمود، وهو معلق فوق المعصرة، ويجعلون فيه الزيتون ويسقط منه شيئا فشيئا، ويدور على حجر المعصرة، وذلك على شكل الرحي التي تطحن الزرع»⁽²⁾، فالمكناسي في الأول يساوي ويمثل ما هو موجود في إسبانيا وما هو موجود في بلاد المغرب، لكن سرعان ما يستدرك أن هناك تطورا يحدث في أوروبا وإسبانيا من حيث التقنية، في موقف آخر معبر حالة تجاوز الأوروبيين للمغاربة في تطور وسائل الإنتاج.

هذا وأثارت تقنيات الزراعة والغراسة إعجاب وتعجب السفراء المغاربة في رحلاتهم إلى أوروبا ويذهل المكناسي حد الإعجاب بطريقة الغراسة في إسبانيا وتنظيمها: «...ولهم معرفة بتربية الأشجار وإتقان كبير في الغرس، فجميع غروسهم بصفوف معتدلة مستوية...»⁽³⁾، وفي ذلك إشارة للزراعة والغراسة التي تزين بها القصور والطرقات، وقد أعجب ابن عثمان بترتيبها وتنظيمها، «الحاصل أن لهذا الجنس خبرة كبيرة بالفلاحة وتربية الأشجار»⁽⁴⁾.

وفي مدينة باليرم بصقلية أعجب المكناسي بتقنيات الغراسة والفلاحة هناك حد الدهول لدرجة ألا يصدق ما تراه عيناه فعبّر قائلا: «...وأما هذه المدينة ففيها من الأجنة والبساتين مع إتقان وإغراب ما يعجز الماضين والآتين، بلغت من النظارة والاستحسان، أن لا يصف حقيقتها اللسان، ويشك في أن تكون من عمل الإنسان، ما شئت من توريق في النبات تعجز عن إدراكه الأقلام، ويظن ناظره أن رؤيته أضغاث أحلام...»⁽⁵⁾.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 67.

(2) المصدر نفسه، ص 67.

(3) المصدر نفسه، ص 29، 41، 31.

(4) المصدر نفسه، ص 38.

(5) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 182.

ثالثا: التجارة الأوروبية في نصوص الرحالة المغربية

إن أول ملامح القطاع التجاري في أوروبا تظهر في أولى محطات نزول هؤلاء الرحالة في هذه البلاد، إذ وقف الرحالة المغربية خلال هذه الفترة على أهمية الموانئ التجارية في أوروبا، أما الحجري فقد تزامن وصوله إلى هولندا مطلع القرن السابع عشر مع بروز ميناء مدينة أمستردام الهولندية كأحد أهم وأعظم الموانئ التجارية في أوروبا، معبرا عن انبهاره بحركته التجارية وعدد السفن الموجودة به، لذلك عبر مندهشا مما رآته عيناه في هذه المرسى قائلا: «... ولما بلغنا إلى مدينة مسترزام (أمستردام) رأيت العجب... ولم تكن مدينة في الدنيا مزينة بكثرة السفن مثلها، قيل أن فيها في جميع سفنها كبارا وصغارا ستة آلاف سفينة...»⁽¹⁾.

هذا الأمر الذي جعل الهولنديين حسب الحجري: «... أقوى من جميع النصارى في البحر بالسفن...»⁽²⁾، وبذلك يشير الحجري تحديدا إلى التفوق وصعود الهيمنة الهولندية من خلال التجارة البحرية في سياق أوروبي وعالمي وأن هذا النشاط التجاري الكبير هو الذي أدى إلى تلك القوة الهولندية، حيث تمحورت هذه الهيمنة الاقتصادية حول مدينة أمستردام ومينائها.

وفي إسبانيا ركز كل من الغساني والمكناسي والغزال على الدور الاقتصادي الكبير الذي لعبه ميناء مدينة قادش الإسبانية حيث يظهر في رحلاتهم كواحد من أهم موانئ التجارة على الواجهة الأطلنطية في العصر الحديث، ولما كان هذا الميناء أولى المحطات التي تعود الرحالة المغربية النزول فيها في رحلاتهم نحو أوروبا، نجدهم يتحدثون جميعهم عن الحركة التجارية والعمارة العظيمة والإمكانيات الكبيرة لمرسى قادش؛ فذكر الغساني رواج التجارة فيه: «... فرأينا إذ ذاك مدينة قالص... ولها مرسى كبيرة لا تقدر لسعتها، وبها من المراكب الكبار والغار ما لا يحصى كثرة، وحيث كانت مدينة كبيرة يقصدها المسافرون والتجار من كل أوب وينثالون عليها من كل فج، وترد عليها النصارى من كل دشرة أو مدينة تجاورها أو تقرب إليها بقصد البيع والشراء والنفقة والخدمة، فيجتمع بها المراكب الصغار التي تجلب إليها المدد والأقوات من الطعام والفواكه، وغير ذلك العدد الذي لا يحصى كثرة...»⁽³⁾.

(1) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 117.

ولا ندرى على وجه الدقة من أين استقى الحجري معلوماته بخصوص هذا العدد الهائل من السفن التجارية الهولندية، إلا أن ما يمكن التأكيد عليه بخصوص عدد السفن التي كانت في أمستردام إلى حدود منتصف القرن السابع عشر أنها بلغت حوالي 2500 سفينة تجارية مثلت حوالي نصف سفن الشحن في أوروبا في ذلك الوقت، أنظر:

Joop de Jong, «The Dutch Golden Age and Globalization: History and Heritage, Legacies and Contestations», Macalester International: Vol. 27, December, 2011, p 51.

(2) أحمد الحجري (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، مصدر سابق، ص 118

(3) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 53-54.

إن هذه الصورة في رواج التجارة أبهرت الغساني وكأنه لم ير مثيلا لها في بلاد المغرب، لا من حيث النشاط والجد في العمل ولا في اتساع التجارة يقول في ذلك: «...فما تطلع الشمس إلا والزوارق تحفو بقوادم غريان وتعدوا بسوائف غزلان تخالها في سمائها اهله مكسوفة وتحسب فوق مائه جريدة دهم مصفوفة، فسبحان الملك الخلاق والمقدر على الأرزاق.»⁽¹⁾، ثم إن الغساني لا نجد هنا يقارن ما هو موجود بإسبانيا بنظيراتها في المغرب.

كما استرعى مرسى قادش اهتمام رحالة القرن الثامن عشر، خاصة وأن: «... هذا المرسى في غاية الكبر، وفيها من المراكب في الوقت ما ينيف على الخمس مائة مركب، وقد ذكر لي أن المراكب قليلة بما اليوم من أجل الحرب الذي بين الإنجليز والصينيين...»⁽²⁾، فقد تنبه المكناسي إلى المكانة الاقتصادية التي تحتلها هذه المدينة الإسبانية كميناء أطلسي يعرف رواجاً تجارياً غير مسبوق بسبب اهتمام الملك كارلوس الثالث بالتجارة والأنشطة الاقتصادية المرتبطة بها واصفاً ذلك بقوله: «فلو رأيت ما يكون بذلك المرسى من الازدحام لرأيت أمراً عظيماً، حتى أنهم جعلوا له بابين: باب يدخلون منه وباب يخرجون منه خشية المصادمة... وأما المراكب التي فيها على الدوام والاستمرار فكأنها الغاب، لا يؤثر في النقص منها من سافر عنها أو غاب، فكل يوم يخرج منها العدد الكثير ثقلاً وخففاً، ويدخل أمثاله أضعافاً، وبهذا الاعتبار يظهر لك من يجتمع بهذه المدينة من المخلوقات، في سائر الأوقات، على أن سكان السفائن، يعمرن وحدهم مدائن، ومع هذا فكل شيء يروج في الدنيا يوجد فيها...»⁽³⁾، ويبدو أن اكتفاء المكناسي بوصف عابر سريع في رحلته الأولى بينما فصل في رحلته الثانية في أهمية المرسى الاقتصادية تعود فعلاً للأوامر التي وجهت إليه من قبل السلطان المغربي في رصد كل كبيرة وصغيرة تتعلق بالاقتصاد الأوروبي.

وبمثله تحدث الغزال عن قادش ومرساها: «... وبهذه المدينة من التجار ما لا يأتي عليه الحصر من سائر الأجناس، ترد عليه المراكب في اليوم الواحد العدد الكثير وتسافر منها كذلك، فهي محل التجار من سائر الأجناس بالبلاد الاصبنيولية... وأسواقها عامرة بالفواكه الصيفية والخريفية في آن واحد، تأتي بها المراكب في كل صباح من المدينة القريبة منها...»⁽⁴⁾.

فعكس بقية المجالات التي حاول فيها الرحالة المغاربة الوقوف بنديّة في وجه الآخر الأوروبي ومقارنة ما يجدونه هناك بما هو موجود عندهم في المغرب وتغليب كفة هذا الأخير على الأوروبيين مثل ما كان عليه الأمر في المجال الديني والسياسي والعسكري، إلا أننا نجد أن الرحالة المغاربة لا يجدون حرجاً في الحديث بإعجاب عن الواقع

(1) المصدر نفسه، ص54.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 21.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 91-92.

(4) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 220-221.

الاقتصادي الأوروبي، ويمكن تفسير ذلك بأن ما حملته نصوص هاته الرحلات جاء استجابة لتطلعات السلطان المغربي محمد بن عبد الله في نقل الأخبار التي تتعلق بتفاصيل التجارة والواقع الاقتصادي الأوروبي عموما وهو النشاط الذي كان يشغل باله.

كما ذكر الغساني والمكناسي اعتماد المدن الداخلية الإسبانية على إرساء تجارة تربطها بالموانئ البحرية المتوسطية منها والأطلسية عن طريق الوديان الموجودة بها، فذكر أهمية وادي إشبيلية في ازدهار التجارة بها يقول الغساني: «...الواد الكبير المنحدر من إشبيلية الذي تجتمع فيه سائر أودية الأندلسية، وتسافر فيه المراكب من البحر الكبير...»⁽¹⁾ ويسند المكناسي هذا الرأي بقوله: «... وهذا الوادي المذكور (الوادي الكبير بإشبيلية) هو أعظم أودية الأندلس... وفيه تجتمع الأودية... وتطلع معه السفن من البحر إلى إشبيلية بأنواع التجارات والسلع الفاخرة وما أشبه ذلك، ويحمل من إشبيلية الزيت إلى جميع الآفاق والهند، فإشبيلية بهذا الوادي الذي اجلب لها غرائب البحر فاقت جميع البلدان...»⁽²⁾.

وفيما يخص التجارة الداخلية فإنها لم تظهر كثيرا في نصوص هؤلاء الرحالة إذ تبدو طبيعتها محدودة إلا ما كان من حديثهم عن الرواج التجاري وتنظيم الأسواق في المدن الكبرى والعواصم مثل ما كان في حديث الغساني والمكناسي عن أسواق مدريد التي كانت: «عامرة مشحونة بأهل الحرف والصنائع والتجارة والبضائع وجل باعتهما النساء»⁽³⁾، وكذلك ذكر الغزال أسواق مدريد: «الأسواق التي لا يأتي عليها الحصر وقد اجتمع بها من الفواكه الرطبة واليابسة ما لا يكيف؛ منها الخريفية والصيفية الكل مجتمع في أوان واحد والمباشر لبيعها نساءهم»⁽⁴⁾، ويفسر الغساني هذه المركزية في الأسواق من خلال شرحه لوضعية مدينة مدريد، التي أخذت أهميتها باعتبارها المركز الرئيسي للاستهلاك، فكان سوقها محج ومقصد جميع التجار من شتى أنحاء إسبانيا حتى أن السلع تأتيها من المناطق البعيدة: «وإن كانت مدريد بعيدة عن هذه البلاد المذكورة فإن غلاء السعر فيها يجلب لها جميع الأشياء من سائر الأقطار...»⁽⁵⁾.

ومن المظاهر الاقتصادية التجارية التي لفتت انتباه الرحالة المغاربة؛ هو شيوع تنظيم أسواق موسمية أخذت شكل المعارض، حيث قدم لنا الغساني صورة عنها في إسبانيا من خلال قوله: «... وفي الفسيح يعمر سوق مرة في

(1) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 59.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 39-40.

(3) المصدر نفسه، ص 83.

(4) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 155.

(5) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 109.

السنة في اليوم الأول من شهر... فيقصده المسافرون وأهل التجارة والسبب وينثالون عليه من كل حدب، فيعمر في وسط هذه البلاد من غير عمارة بناء خمسة عشر يوما، ويتفرقون عنه فلا يعمر إلا بعد سنة من اليوم المعلوم من الشهر نفسه، ويسمونه بلسانهم الفرية⁽¹⁾، ومعناها السوق⁽²⁾.

بينما ظهرت نابولي في رحلة المكناسي مدينة تجارية أسواقها مزدهرة وعامرة، وربط السفير المغربي ازدهارها التجاري باتساع عمرانها وامتداده فيصف أسواقها بقوله: «أما أسواقها فلكثرة بضائعها، وغرائب صنائعها، وازدحام مشتريها وبائعيها، كأنه يوم الزينة فكل ما يزدان به لمن زينته، معمورة بكل ما يذكر في الوجود، وفي الأغوار والنجود، وكل ما يباع فيها من المتاع يجعل مكانه عوضه كأنما طرح ذلك ليرى لا ليباع، حتى يتوهم من ليس له خبرة في البلد أن أسواقها لا يشتري منها أحد، وأما أسواقها فما يكون فيها يوما، يكفي غيرها العام... حتى يظن من رأى ذلك أنه أضغاث أحلام، تسرج أسواقها طول الليل، فإذا مررت بها من الازدحام شمر الذيل، فمن كثرة عمارتها حتى الدجاج لهم جزارون مستقلون في أسواقهم منعزلون... وقد رأيت بائع الماء وقد أسرج نحو العشرة مصابيح وعلى هذا فقيس...»⁽³⁾.

ولطبيعة أرض جزيرة مالطا الصخرية فإنها اشتهرت بتجارة "الجبس" الذي كان: يجلب منها إلى جميع البلاد في المراكب "وكذلك تجارة القطن والكمون: "الذي لا نظير له تسافر به المراكب للأرضين"⁽⁴⁾.

هذا وأثارت بعض العادات الاقتصادية الأوربية استغراب الرحالة المغاربة خاصة تلك العادات التي تتعارض مع عاداتهم في بلاد المغرب، ونخص بالذكر هنا عادة "العولة" أو ادخار الطعام يقول الغساني: «لأن من عادات النصاري أن لا يخبز أحد منهم بداره وجميع مونتته إنما هي من عالة السوق من كل شيء...»⁽⁵⁾.

ولا شك أن الغساني في ملاحظته هذه يتمثل ثقافته المغاربة في تخزين المؤونة داخل البيت؛ إذ انتشرت عادة تخزين الأطعمة في البلاد المغاربة، وهي العادة التي تسمى "العولة"، حيث يخصص المغاربة في العادة ركنا بالمنزل أو غرفة تسمى بيت "العولة" أو "بيت المؤونة"، كانت تخصص لوضع الجرار المعبأة بأنصاف من الأغذية، وهو إجراء احترازي من قبل السكان لتجاوز صعوبات فصل الشتاء ولتدارك صعوبات السنوات العجاف⁽⁶⁾.

(1) الفرية: كلمة إسبانية (Feria) معناها المعرض، وتطلق على الأسواق التي كانت تقام بها المواسم والاعیاد.

(2) المصدر نفسه، ص 82.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 136-137.

(4) المصدر نفسه، ص 110-111.

(5) محمد بن عبد الوهاب الغساني، مصدر سابق، ص 108.

(6) عادل النفاي، مرجع سابق، ص 95-96.

في حين أن غياب هذه العادة في أوروبا يرجع بالأساس إلى توفر الأسواق على كل شيء يحتاجه المطبخ والمائدة الأوروبية بخلاف السوق المغربي، الأمر الذي جعل علامات الدهشة تظهر في وصف المكناسي لتنظيم أسواق نابولي وتوافر الأكل بها في كل الأوقات: «أما أسواق الطعام فيما يكون فيها يوم يكفي غيرها العام آناء الليل وأطراف النهار، حتى يظن من رأى ذلك أنه أضغاث أحلام... فمن كثرة عمارتها حتى الدجاج لهم جزارون مستقلون في أسواقهم منعزلون، وقد رأيت بائع الماء وقد أسرج نحو العشرة المصاييح، وعلى هذا فقس، وأقرب ما يقال في عمارتها وازدحام الناس في سائر طرقاتها كأنما القوم حشروا وتحاسبوا وفرغوا وتناسبوا»⁽¹⁾، فكأن السفير المغربي يرى صورة غير معتاد عليها في بلاده.

(1) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 136.

رابعاً: الصناعة الأوروبية في نصوص الرحلات المغربية

ظهر قطاع الصناعة في نصوص الرحلات المغربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر على صورتين اثنتين، صورة أولى نقلت ملامح صناعة إسبانية تقليدية ويدوية أتت في إشارات قليلة وسريعة عما يشاهده أصحاب هاته الرحلات أثناء مرورهم بهذه المدن، مثل قول الغزال عن أهل قرطبة أن جلهم أهل حرف⁽¹⁾، وعمل نساء شقوية بالصوف ونسج الملف، ووصف المكناسي لمدينة قádiz: «... وفيها من الحرف والصنائع ما شئت...»⁽²⁾، فهي: «...بلاد كبيرة مقصودة للتجارة وجميع الصنائع والحرف»⁽³⁾، وصناعة الحرير في كل من غرناطة ومرسية، وطليطلة⁽⁴⁾ وفي اشبيلية⁽⁵⁾.

والصورة الثانية التي انفرد بها رحالة القرن الثامن عشر، هي صورة أوروبا الصناعية وظهور المصانع الكبرى هناك، فقد زامن وصول رحالتنا إلى إسبانيا ظهور الإصلاحات الكبرى التي كان يقوده الملك كارلوس الثالث، إصلاحات شاملة المهدف منها إنشاء دولة حديثة ومواكبة بقية الدول الأوروبية (إنجلترا، فرنسا، هولندا) وكان للجوانب الاقتصادية أهمية فريدة في هذا المسعى بسبب التكاليف التي تنطوي عليها هذه الإصلاحات.

وقد عبّر المكناسي عن عدة ملامح معبرة عن هذا التوجه في مظاهر الإصلاح في القطاع التصنيع؛ إذ نجده مدققاً ومستفسراً عن الغايات التي أدت بالسلطات الإسبانية للتوجه نحو المصانع الكبرى، وكان الجواب على سؤاله أن ذلك ما هو إلا تعبير عن الحركة الإصلاحية التي أبداها وشرع الملك الإسباني في تطبيقها على أرض الواقع رغبة منه للقيام بإسبانيا إلى مصاف الدول الصناعية في أوروبا، ولندع هذا المقطع الذي حملته رحلة المكناسي يعبر عن تلك الصورة: «وفي هذه المدينة أيضاً الدار التي تصنع البلور وأما جلب إليها معلمي هذه الصنعة الطاغية الموجود اليوم (يقصد الملك كارلوس الثالث) وكل ما يصنع بها هو للطاغية... وقد ذكر لي معلم هذه الدار أن الطاغية لا نفع له في ذلك، وأنه يخسر في ذلك كل في كل سنة نحو الخمسة عشر ألف ريال كبير، فشاوروه في إبطال ذلك فأبى وأمرهم أن يتمادوا على خدمتهم والخسارة عليه، حرصاً منه على وجود هذه الصنعة في أرضه وبلاده...»⁽⁶⁾.

وربما تحمل هذه الصورة تعبيراً عن واقع الاقتصاد الإسباني حينها مقارنة ببقية البلاد الأوروبية الكبرى خاصة فرنسا وإنجلترا، ووجود "ملك إسباني" فضل التوجه للإصلاح مهما كانت التضحيات على أن تبلغ إسبانيا ما بلغته

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 103.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 25.

(3) المصدر نفسه، ص 27.

(4) المصدر نفسه، ص 182.

(5) المصدر نفسه، ص 146.

(6) المصدر نفسه، ص 137.

هذه الدول، كما يمكن لهذه الصورة حجم الفجوة بين المغرب والعالم الإسلامي وأنداده في البلاد الأوروبية وما تعبير ابن عثمان عن تعجبه وإعجابه من إمكانيات إسبانيا الصناعية إلا تعبير عن حجم التأخر المغربي في هذا المجال، فما بالك بحجم الفوارق الصناعية بين المغرب والدول الأوروبية الكبرى في مجال التصنيع مثل إنجلترا وفرنسا؟

ويقف الغزال متعجبا في رؤيته لواقع الصناعة الأوروبية الحديثة، فلما زار مصنع الفخار في مدريد لاحظ أن صناعته لا تختلف عن تلك التي موجودة في المغرب إلا أنه يتعجب كثيرا من استعمال الألوان والرسومات على الأواني والأشكال الفخارية: «... والعجب في خضرة الأوراق وبياض النوار أو الحمرة، كل على خلقتها، وجميعه من الطين وهذا مما لا يجوزه العقل ويحار فيه مشاهده»، ليتجه بعدها السفير المغربي للبحث عن أصل هذه الصناعة التي أدهشته وأعجزت عقله، إلا أنه اصطدم برفض عمال المصنع الإسباني الإجابة عن تساؤلاته: «...فجاؤوا معتذرين عن كشف حقيقة ذلك، حيث حجر عليهم طاغيتهم الإعلام بذلك...»⁽¹⁾.

ولأن الغزال اعتاد الدخول في مقارنات الغاية منها إثبات الذات أمام هذا الآخر، حتى ولو لجأ إلى "الجمعية" كما ذكر صاحب الرحلة فنراه يقدم نفسه كعارف بأمور هذه الصناعة وهو ليس كذلك، لذا راح يؤكد أن المغاربة لا يقلون شأنًا عن الإسبان في العمل على الخزف والفخار «...ومصادق ذلك ألقنكم إثبات الذهب على الأواني والرخام وغيره من غير افتقار لاصطلاء الأواني بعد وضعه عليها...» بل إنه في الختام يظهر منتصرا في جمعته هذه، ويرى فيها "أنها انتصار وعز للإسلام"⁽²⁾.

وفي مدريد كذلك شاهد الغزال انتشار المصانع مختلفة التخصصات فمن مصنع الزجاج والبلور إلى مصانع الرخام، وأعطى لها وصفا دقيقا حول تفاصيل طريقة عملها وتقنياتها، تتبع فيها ما يصنع بهذه المصانع من حيث كانت المادة المصنعة مادة خام إلى غاية خروج المنتج من المعمل، مخصصا لها صفحات كثيرة⁽³⁾، وشاهد فيها ما "لا يصوره العقل ولا يثبت في الذهن" وبعد مشاهدته لحركات هذه المصانع ومنتجاتها التي لم يجد أن يقارنها بنظيراتها في المغرب لعدم توفرها هناك؛ لذا كان رد فعله أن همّ بالخروج من هذا الجو مفضلا الانسحاب ليعود مرة أخرى للحديث عن مكانة مرسله في إسبانيا: «...وقد شاهدنا هذه الأمور بأمر الطاغية كل ذلك تأنيسا لنا، حيث علم أننا اشتقنا لبلادنا وعلقت قلوبنا بالسفر ولم يبق لنا أرب في الإقامة بالكلية...»⁽⁴⁾.

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص120.

(2) المصدر نفسه، ص 120-121.

(3) المصدر نفسه، ص134-137.

(4) المصدر نفسه، ص138.

وحمل نص رحلة المكناسي إلى إسبانيا مظاهر "الصناعة الأوروبية" وما شاهده هناك من كثرة المصانع التي كان يسميها بـ"الدور" فمن دار صناعة الورق إلى صناعة الملف، بشقوبية⁽¹⁾، إلى "دار الفخار" بمدير⁽²⁾، إلى "دار السكة"، إلى "دار صناعة المدافع" بإشبيلية، وفيها اكتشف ابن عثمان أهمية شيوع الاعتماد على الآلة في المصانع بدل اليد البشرية: «ولهم فيها من الآلات والنواعير والدواليب عدد كثير، ولا كلفة عليهم في الخدمة، لان جل خدمتهم بالحركات»⁽³⁾، فيما وقف السفير المغربي عاجزا أمام ما رآه من حركات الآلات دار صناعة المدافع: «وبإشبيلية دار معدة لصنع المدافع الكبار والمهارس وبها من الحركات والآلات ما يقصر عنه الوصف...»⁽⁴⁾.

ولاعتماد هذه المصانع على حركة المياه أشار الغزال وابن عثمان إلى إقامة المصانع الإسبانية المختلفة على ضفاف الأودية والأنهار⁽⁵⁾، بل إن ما وصل إليه الأوروبيين من تطور صناعي وتقني ارتبط بعامل بشري أيضا ألا وهو الانضباط والنظام والترتيب في العمل ليعلق ختاماً أن "هذا كله من شدة اعتنائهم بالأمر"⁽⁶⁾.

وكرجل دولة دقق المكناسي أيضا في حياة عمال هاته المصانع التي ولا شك كانت سببا في دقة إنتاجها ووفرته، وأخذ مصنع الفخار بمدير أنموذجا: «... وهي دار كبيرة والمعلمون أهل الصنعة ساكنون بها بأولادهم، ومتأهلون، وقد أخبرني القيم أن عدد هؤلاء أربعمئة رجلا ونساء...»⁽⁷⁾.

ومثل سابقه الغزال تكررت نفس الصورة والموقف لكن بإعجاب ودهشة أكبر بما تنتجه المصانع الأوروبية، دهشة تصل حد العجز عن فهم ما تراه عيناه وما تلمسه يداه حين وقوفه عند دار صناعة الفخار بمدير: «... وقد أرانا القيم المذكور جميع ما عنده من صنائعه الغريبة والأواني العجيبة والصور على اختلاف أشكالها وألوانها... ولما أردنا الخروج من الدار المذكورة أهدى إلينا معلمها الكبير وشيخ أهل التصدير محبقة (مزهرية) فيها تصاوير من النور يسمين وورد وغير ذلك لا يشك فيه أنه نور ولا تدرك حقيقة ذلك إلا باللمس»⁽⁸⁾.

والأمر نفسه في دار صناعة الحجر الذي عبّر المكناسي أن كل ما فيها غريب من أشكال صناعة الحجر إلى إلصاقه وتلوينه: «... وقد أروني من صنعتهم طبالات متعددة في غاية الحسن والتأنق يحالها الناظر مرصعات بالجوهر

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 131-133.

(2) المصدر نفسه، ص 116-117.

(3) المصدر نفسه، ص 48.

(4) المصدر نفسه، ص 49.

(5) المصدر نفسه، ص 131، ص 134، أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 196-198.

(6) المصدر نفسه، ص 49.

(7) المصدر نفسه، ص 116.

(8) المصدر نفسه، ص 117.

لصفاء جوهريّة الحجر وصقال جرمه ويستنبطون من الصور ما أرادوا الحيوانية وغيرها، وذلك من إحدى العجائب التي لا تدرك إلا بالمعانيّة»⁽¹⁾.

وما يمكن ملاحظته عن هذه المصانع المقامة في إسبانيا وبالخصوص في مدريد كانت تحت إشراف مباشر من الملك وعنايته الخاصة⁽²⁾، ما ينبئ عن التوجه الإصلاح في المجال الصناعي الذي باشره كارلوس الثالث.

وفي نابولي نقل ابن عثمان الكثير من مظاهر الصناعة منها انتشار كثيف للمصانع المختلفة الاختصاصات، فمن مصانع الأسلحة⁽³⁾، إلى مصانع الكاغد⁽⁴⁾، إلى مصانع البارود⁽⁵⁾، ومصانع الخزف وغيرها، ولم يكتف ابن عثمان بذكرها بل وصف التقنية والطريقة التي تعمل بها وصفا دقيقا جدا من بداية المنتج كمادة خام إلى منتج للاستعمال، بل إنه يقدم حتى الفروقات التي تكون بين المصنع في البلد والمدينة الفلانية عن غيرها من المصانع الأخر مثل ذكره الاختلافات البسيطة الموجود بين مصنع الكاغد في نابولي ونظيره الموجود في إسبانيا⁽⁶⁾.

إن المتمعن لما أورده المكناسي ووصف لهذه المصانع ربما كان ليعتقد أنه ربما تلميح للمخزن المغربي للأخذ بها والبناء على شاكلتها، أو أنه ينقل إحدى العجائب التي يراه من خلال هذه المصانع، لكن المكناسي يذهب بعيدا في شرح سبب ذلك بقوله في ختام حديثه عن المصنع المذكور: «... وما ذكرت الكيفية إلا لأنه في القلب شيء من أجل النشا المستعمل من جلود البقر وذكاة النصارى لا يستلزمون فيها شروط الذكاة المعتبرة شرعا»⁽⁷⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 118.

(2) المصدر نفسه، ص 131.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 157.

(4) المصدر نفسه، ص 158.

(5) المصدر نفسه، ص 159.

(6) المصدر نفسه، ص 158-159.

(7) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 132.

خامسا: البنية التحتية والمؤسسات الاقتصادية

1- في البنية التحتية

ولما كان من أهم متطلبات الدولة الحديثة في أوروبا هو توافرها على شبكات متطورة للبنية التحتية من طرق وجسور ودور نزل وغيرها، فقد أدرك مسؤولو حركة الإصلاح في الحكومة الإسبانية والتي يقودها الملك كارلوس الثالث أن التخلف على مستوى البنية التحتية الإسبانية خلال العصر الحديث قد أدى إلى أزمات اقتصادية أضرت كثيرا بالبلاد، وأنه إذا أرادت الدولة أن ترتقي وتطور من اقتصادها عليها تحسين شبكات مواصلاتها وطرقها، وبالفعل أصبحت إسبانيا النصف الأخير من القرن الثامن عشر ورشة كبيرة يجري فيها تحديث وتطوير واستحداث بنيتها التحتية، وهي الفترة التي تزامنت مع وصول رحالتنا إليها، وبعيدا عن مدى إدراك هؤلاء الرحالة الأبعاد المرجوة من حركة التشييد والبناء تلك، فقد عبروا عنها في مشاهداتهم.

إذ سجل الرحالة المغاربة في نصوصهم الجهود التي بذلتها الحكومة الإسبانية في سبيل تشييد وشق الطرق حتى بذلك في سبيل ذلك مالا كثيرا، غير مبالين بالصعاب الطبيعية التي قد تعوق مشاريعهم، فيقول الغزال: «... وهذه الطريق أحدثها الطاغية وأنفق عليه مالا لا حصر له، لأنه شق الجبال وهذ الشواهد...»⁽¹⁾.

وبدا ابن عثمان أكثر اهتماما بتفاصيل تشييد هذه الطرق لذا نراه يصف كل ما له علاقة بذلك: «... ومنذ قطعنا الوادي المذكور ونحن متوجهون في طريق في جبل سيرامرينة المذكور فتحها الطاغية في أمنع ما يكون في هذا الجبل بالمعاول والخدمة ساكنون بأولادهم بقصد الخدمة والموضع الذي يفرغون من خدمته يرحلون منه وذلك مسيرة ثلاث ساعات في أمنع ما يكون في الجبل أحدث طريقا مستوية في عرض الخمسين شبرا ومهما عرضت في الجبل يبتنيها من قعرها إلى أن تستوي مع الطريق، وإن عرض له جبل يفتح فيه الطريق وإن كان وادي يجعل عليه قنطرة حتى صارت تمر عليه الأكداش والكراريط (العريات) كما تمر في السهل ولا زالت الخدمة بها إلى الآن فقد وجدنا كثيرا من قناطرها لم يكملوا وقد كانت الطريق قبل من جهة أخرى يتركها المار إلى مدريد عن يساره، وكانت فيها صعوبة وربما ينزل المسافرون عن أكداشهم، بل وعن دوابهم فأحدث هذا الطاغية هذه الطريق تمر فيها الأكداش كما تمر في السهل، ولهم اعتناء كبير بالطرق وإصلاحها وجعل القناطر على الأودية، بل وعلى الشعاب...»⁽²⁾، ما يؤكد عن إعجابه الشديد مما يراه.

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 124.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 73.

وكان أبرز ما لفت انتباه الغزال وهو يرصد اعتناء الإسبان بشق الطرق، هو أن هذه الأخيرة كانت تشق بسواعد الأسرى المسلمين، فعبر عن ذلك متحسرا: «...وكم ضاع فيها من المسلمين رحمهم الله وكم أصيب منهم بالحجر عند إخراج المينات بالجبال»⁽¹⁾.

إلا أن ذلك لم يمنعه من تسجيل ملاحظاته عما استفادته السلطات الإسبانية من هذه الطرق من الناحية الاقتصادية ليس فقط من خلال تسهيل انتقال السلع والبضائع؛ بل الاستفادة من عائدات حق استعمال الطريق على المارة، وتسيير الطرق ومداخيلها لها عامل يعمل على: «...حراسة الذاهب والآيب من الطريق المحدثه بجنبه، القرية إليه، فلا يعبرها عابر إلا إذا أدى ما هو موظف عليه، وبعد الإداء يأخذ خط يده بأنه دفع ما وجب عليه، بحيث إذا طلبه الثاني ممن هم مكلفون بالطريق أيضا، يستظهر بخط يد الأول، فيخلي سبيله»⁽²⁾.

ومن التجهيزات الأخرى التي حظيت باهتمام الرحالة السفراء، بناء القناطر فوق الأنهار، وشق الأنفاق عبر الجبال وبين المدن، فالقناطر كانت موجودة في كل مكان زاره الرحالة، لذا نجد المكناسي معجبا ومتعجبا ببنائها "غريب الشكل"، "عديمة المثل" كيف لا "وهي كانت في غاية الإتقان والإحكام والوثوق" وهذا من الغريب"⁽³⁾، ليعرج بعدها السفير المغربي على أهميتها في تسهيل الحركة الاقتصادية والتجارية وانتقال السلع: «وفي القنطرة المذكورة سلاسل من حديد مربوطة في صواري عظام فيها جزائر تحمل القنطرة المذكورة إذا أراد البعض التوجه في البحر في الوادي إلى مدينة خيزر ترفع القنطرة بالسلاسل المذكورة، وتجاوز المراكب... وتحمل من المدينة المذكورة الخضر والفواكه وغير ذلك وتأتي به إلى قالص...»⁽⁴⁾.

وكان الغزال يرى في القناطر مفخرة يتباهى بها الإسبان ويقدمونها فرجة للأجانب كما فعلوا مع الوفد المغربي: « فلما انتهينا إلى الوادي عبرنا القنطرة، فإذا بوسطها قلعو محمولة على صواري واقية لحر الشمس وبظلها زراي وشليات... وطلب منا الجلوس (لما جلس الوفد شرع العمال في قلع قراش القنطرة)... فسألنا عما يفعل القوم، فقال لنا ولد الحاكم: إنه يريد فصل القنطرة وإخراج إحدى السفينة الحاملة لها عن المحل الذي به مرساة ليحصل لنا اليقين بما هي عليه... حتى نكون على بصيرة في الظاهر والباطن... فإن فصل القنطرة عندنا لا يكون... إلا لورود سلطاننا على البلد، فنستعمل ذلك فرجة له وفرجة به، وأنتم عندنا بمنزلة سلطاننا»⁽⁵⁾.

(1) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 124.

(2) المصدر نفسه، ص 124.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 25، 26، 27، 32.

(4) المصدر نفسه، ص 27-28.

(5) أحمد بن المهدي الغزال، مصدر سابق، ص 77.

ولما كانت هذه الطرق في حاجة أن تكون مدعومة بسلسلة من المنشآت التي تعمل على راحة المسافرين عبرها كان على الحكومة الإسبانية الاعتناء ببناء وتشبيد دور النزل، فكان مستعمل الطريق لا يحتاج إلى زاد، بل يحمل معه ما يصرفه في الدور التي أعدت لذلك: «... فوصلنا دارا على ساعتين... معدة لنزول المسافرين يبيتون فيها ويقبلون، ويجدون بها كل ما يريدونه من الشعير والتبن، ويتحكمون على أهل الدار كيف شاءوا في مأكلهم ومشربهم، وكل ما يأمرؤهم به يفعلونه ويحضرونه بين أيديهم، وحين يريدون الانصراف من عندهم يأتيهم صاحب الدار أو زوجته بزماء ما صير عليهم في مأكلهم ومشربهم وفراشههم وعلف دوابهم وجميع مصاريفهم ويعطون ذلك من غير مراجعة، وهكذا جميع طرق بلاد اصبانية، فلا يحتاج المسافر إلى زاد ولا بنية وإنما يصحب معه ما يصرفه...»⁽¹⁾، وهكذا مثلت هذه الدور نشاطا اقتصاديا مهما في مجال الخدمات ليس فقط على الأفراد العاملين فيها بل حتى على الدولة، التي كانت تفرض ضريبة معينة على أصحابها.

هذا وانتبه المكناسي إلى عامل آخر لا يقل أهمية في تنشيط الحركة الاقتصادية في أوروبا ألا وهو استعمال البريد والذي أشاد بتطوره وسرعته في إسبانيا، وعرج كذلك على الإيرادات المالية التي يدرها استعمال البريد على خزينة الدولة الإسبانية «ويجتمع من ذلك من الأموال ما لا عد له، فقد ذكر لنا أحد الأعيان الذين كانوا يختلفون إلينا أنه في هذه السنة التي كنا عندهم وقع الحساب فيما تحصل للطاغية عن مستفاد الرسائل بعد إسقاط اللوازم من لدن تولى إلى تاريخ فكان جملة ذلك عشرة مائة مليون واثنى عشر مليوناً»، ويبدو أن ابن عثمان يحاول من خلال هذه الصورة في البحث عن مداخل إسبانيا هو تقريب هذه الصورة لقارئ رحلته في المخزن المغربي، وهذا ما تؤكد إصرار السفير على مقارنة هذه الأرقام بالعملة المغربية فيقول: «في كل مليون عشر مائة ألف ريال كبير⁽²⁾». وربما كان هدف ابن عثمان فتح عيون المخزن على قطاعات اقتصادية أخرى من أجل تنويع دخله ليختم عرضه لهذا القطاع «لأن لهم اعتناء بالرسائل كبير ومدخول كثير»⁽³⁾.

وفي الأخير لا بد أن نشير إلى تأثير الخلفية التي أتى منها هؤلاء الرحالة حتى نستوضح أكثر أسباب اهتمامهم وإعجابهم بما كانوا يرونه من تشبيد وبنية تحتية ساعدت بلا شك على تطوير الاقتصاد خاصة فيما يخص حركة المرور والنقل، فالرحالة المغاربة أتوا من مغرب ما زالت فيه البنية التحتية ووسائل النقل تقليدية وقديمة (مقارنة بما يرونه في أوروبا)، وبينما يظهر رحالتنا منبهرين بما رأوه من طرق حديثة وقناطر وجسور عملاقة مبهرة الهندسة وسهولة في النقل

(1) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسبر، مصدر سابق، ص 33.

(2) هو نفسه الريال الإسباني، وكان الوحدة النقدية الأكثر رواجاً في المغرب أواخر القرن 18 والقرن 19م، أنظر: عمر أفا، مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر من 1822-1906، منشورات كلية الآداب أكادير، 1988، ص 404.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسبر، مصدر سابق، ص 120.

في إسبانيا القرن الثامن عشر، في الوقت الذي نشاهد فيه الرحالة الأوروبيين وخاصة البريطانيين منهم الذين توجهوا إلى إسبانيا في نفس الفترة يعبرون-رغم تشجيعهم للانطلاقة الإصلاحية لإسبانيا كارلوس الثالث- عن حالة التدهور والحالة المؤسفة للبنى التحتية بإسبانيا، لأن هؤلاء قارنوها بما تركوه هناك في بريطانيا التي ذهبت بعيدا حينها في تطور بنيتها التحتية، وبينما يكتفي الرحالة المغاربة بالوصف المعبر عن جدة ما يرونه وردود فعلهم المائلة للاستغراب والانبهار تارة والإعجاب تارة أخرى، يتجه البريطانيون إلى انتقاد هذا الواقع معبرين عن افتقار هذه الأعمال إلى الواقعية في خطط الأشغال العامة، مقارنة بمثل هذه المشاريع الإنجليزية العملاقة والفعالة، ورأوا أن من أسباب هذا التدهور هو التخطيط السليم من قبل الإسبان الذين يريدون بناء وتشديد طرقا وقناطر بقصد المباهاة والتفاخر لذا كانت تكلفتها ضخمة وانعكاسها على الواقع الاقتصادي غير مجد⁽¹⁾، بما يؤكد فعلا أن أساس الأحكام التي يعبر عنها كل رحلة كثيرا ما تنطلق من الذات في تصوير ما يرونه عند الآخر.

2- المؤسسات الاقتصادية الأوروبية

بدأت تظهر صور أخرى للحضارة الأوروبية وهذه المرة على مستوى التسيير الاقتصادي المالي، ممثلة في إنشاء مؤسسات بنكية مثل بنك المقايضة في نابولي هذه المؤسسة البنكية التي يصفها ابن عثمان بدقة ويصف نظام المعاملات بها، معتبرا إياها شكلا من هذه الحضارة بقوله: «ومن حضارة المدينة أن دخلنا ذات يوم دار كبيرة ذات قبة ومخازن عديدة يسمونها البنك⁽²⁾، ولها مال موقوف عليها، وعليها أمناء ووكلاء، فمن أراد أن يستلف مالا فليأت بالرهن ويضعه في الدار المذكورة ويأخذ المال... وحين يرد الدراهم يأخذ الرهن، وإن كان أكثر من ذلك فإنه يلزمه عليه إعطاء خمسة عن كل مائة في السنة، ويدفع الرهن الذي تكون قيمة مقدار ما أخذ من المال بفائدته الواجبة فيه عن عامين، فإذا أتى بالمال في خلل المدة فيها ونعمت، وإن مضت سنتان ولم يأت بالمال فإن الرهن يباع ويقبض المال وفائدته، فإن فضل شيء يدفع إلى ربه». وكل شيء معروض للرهن في هذا البنك من مجوهرات من الذهب والفضة وأحجار نفيسة والحريز والفرش المختلفة إلى الأسلحة وغيرها وفق تنظيم معين⁽³⁾.

(1) José Luis Ramos Gorostiza, «La imagen económica de la España de Carlos III: Joseph Townsend, Alexander Jardine y los economistas españoles», Revista de Historia Económica, Año XXIV, primavera 2006, n. 1, p

(2) هي مصرف الرهن الذي أسس سنة 1539م ويعتبر النواة الأولى لبنك نابولي. أنظر: محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 151.

(3) المصدر نفسه، ص 151.

وليس هذا البنك للرهون فقط بل وكذلك لحفظ المال وفي ذلك تنظيم آخر استرعى انتباه ابن عثمان: «ومن أراد أن يضع ماله على وجه الأمانة والصون بالدار المذكورة فإنه يضعه ولا يلزمه عليه شيء ويعطونه خطوط أيديهم (وصل) بأن فلانا وضع بالدار المذكورة مالا قدره كذا على وجه الصون والحفظ، وحين يريد أخذه يدفع الكاغد ويأخذه...»⁽¹⁾.

وفي إشبيلية أعجب المكناسي بدار السكة هناك وكيفية تسييرها: «وبإشبيلية دار السكة، وهي في غاية الكبر، وفيها قوم موكلون بها ساكنون فيها بديارهم متأهلين بأولادهم، ولهم فيها من الآلات والنواعير والدواليب عدد كثير، ولا كلفة بالخدمة لأن جل خدمتهم بالحركات»، وزاد تعجب السفير المغربي لمعرفة أن لكل شغل في هذا المصنع عامل خاص به لا يتدخل في عمل الآخر وانضباطه الشديد في العمل ليختم قوله "هذا كله من شدة اعتنائهم بالأمر"⁽²⁾.

إن مثل هذه المؤسسات تبدو غريبة عن ابن عثمان لذا نراه يدقق في وصفها وكيفية عملها، ومما يدل على ذلك أيضا عدم ذكرها كبنوك ربوية رغم تأكيدده على الفائدة التي تكسبها جراء الرهن، فالصورة كانت جديدة والصراعات الفقهية حولها لم تكن موجودة أصلا، وهو أمر يؤكد جدا أن تأثير المخيال والصورة المسبقة على الواقع والأحكام كان كبيرا جدا، وهذا ما لاحظناه من مواقف الرحالة المغاربة مثلا من عديد المسائل مثل الأكل من عند الآخر "النصراني" والعلاج على يديه ومسائل مثل الحجر الصحي الذي مثل مادة للنقاشات الفقهية حينها، إلا أن مسألة مثل البنوك الربوية لم تكن منتشرة بعد، بل إن ابن عثمان يصفها بقوله: "يسمونها البنك"؟

ورأينا ابن عثمان باحثا في جدوى هذه التنظيمات الأوروبية في مجالا المعاملات المالية والاقتصادية وانعكاساتها على الوضع الاقتصادي، لذا راح كعادته يستفسر عن دخل هذه المؤسسة: «وقد سألتهم كم بهذه الدار من المال الذي هو بصدد القرض فقيل مليون ونصف»⁽³⁾.

وما يمكن التعبير عنه أخيرا بعد قراءتنا لواقع الاقتصاد الأوروبي في العصر الحديث كما عبر عنها الرحالة المغاربة أن الصورة المنقولة تبقى تعبر عن بلد واحد في الغالب في أوروبا وهو إسبانيا لذا لا يمكننا بالتأكيد تعميم جميع المعطيات الواردة في نصوصهم على بقية بلدان القارة على الأقل من ناحية الثروة ووسائل الإنتاج.

(1) المصدر نفسه، ص 152.

(2) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير، مصدر سابق، ص 48-49.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 152.

وبعيدا عن الواقع الفلاحي الذي لم يكن فيه كثير من الجديد عند هؤلاء الرحالة فإن تطور وسائل الإنتاج والتقنيات الحديثة في الصناعة والزراعة، واكتشافهم واقع البنية التحتية وأهميتها في تطوير وتسريع وتيرة الاقتصاد وكذا المؤسسات الاقتصادية الحديثة كلها تعبیر عن حال التجاوز الأوروبي في هذا المجال قابله وعي بضعف الذات المغربية، التي راحت باحثة من خلال هؤلاء الرحالة عن أصل الشيء، لكن ردود فعلهم اصطدمت بشعورهم القوي بالتفوق والاختلاف ما حاد بهم أن يقدموا صورة أكثر وضوحا عن الواقع الأوروبي للمخزن المغربي في سبيل تقليص الفجوة الاقتصادية المتوجهة للاتساع بين المغاربة والأوروبيين الأمر الذي سوف يشكل في القرن التاسع عشر أحد محاور نقاشات المثقفين والمسؤولين المغاربة والمسلمين وبحث رحّالتهم ومفكرهم عن سر الغنى والثروة الأوروبية الأمر ستكشف عنه نصوص الرحلات المغربية في القرن التاسع عشر.

القسم الثالث: صورة أوروبا في نصوص الرحلات المغربية خلال القرن 19م

- الفصل الأول: اكتشاف الرحالة المغربية النظم والأفكار السياسية الأوروبية الحديثة
- الفصل الثاني: الواقع العسكري الأوروبي في نصوص الرحالة المغربية خلال القرن 19م
- الفصل الثالث: الواقع الاجتماعي الأوروبي في نصوص الرحلات المغربية خلال القرن 19م
- الفصل الرابع: الواقع العلمي والثقافي في أوروبا في نصوص الرحلات المغربية خلال القرن 19م
- الفصل الخامس: الرحالون المغربية يكتشفون النظم والأفكار الاقتصادية الأوروبية

الفصل الأول: اكتشاف الرحالة المغاربة النظم والأفكار السياسية الأوروبية الحديثة

- أولا: طبيعة أنظمة الحكم في أوروبا
- ثانيا: أوروبا القانون والدستور
- ثالثا: أركان النظام السياسي الأوروبي
- رابعا: القيم السياسية الأوروبية في أعين الرحالة المغاربة

الفصل الأول: اكتشاف الرحالة المغاربة النظم والأفكار السياسية الأوروبية الحديثة

إن تغير السياقات التاريخية التي أتت فيها الرحلات المغاربة خلال القرن التاسع عشر أدت إلى تغير الاهتمامات في رصد صورة الواقع السياسي الأوروبي عن نظيراتها من رحلات القرنين السابع عشر والثامن عشر، وذلك أن هؤلاء الرحالة انطلقوا من خلفية كون العالم الإسلامي في حالة ضعف أو في حالة استعمار بعد ذلك، عكس رحلة القرنين السابقين الذين توجهوا إلى أوروبا محملين بشعور جارف بالقوة والتفوق، لذا كان تركيز رحالي القرن 19م بالتأكيد هو البحث عن أسباب هذا التفوق الأوروبي.

وعكس رحالي القرنين 17 و18م الذين اهتموا بالواقع السياسي من حيث هو أحداث ومجريات سياسية تتعلق أساسا بالعلاقات بين الدول والأزمات السياسية فيما بينها، فإن رحالي القرن التاسع عشر كان تركيزهم أكثر على النظم والأفكار السياسية الأوروبية، إذ رأوا فيها السبب المباشر لتفوق أوروبا.

ونشير أولا أن الصورة التي حملتها نصوص الرحلات المغاربة حول نظرتها للأفكار والنظم السياسية في أوروبا كانت متباينة من حيث الاهتمام، فكان أصحاب الرحلات التونسية أكثرهم اهتماما بالفكر والنظم السياسية الأوروبية، لذا سيكون ما دونه أصحابها غالبا في هذا الجزء من البحث، فيما كان توجه أصحاب الرحلات المغربية إلى البحث أكثر في أسباب القوة العسكرية الأوروبية، أما الرحالة الجزائريين فكان هامش الحرية في رحلاتهم ضيقا للتعبير عن مشاهداتهم وتمثلاتهم للواقع السياسي الفرنسي، لذا نجدهم يتوجهون أكثر لتضخيم الواقع الفرنسي في هذا المجال.

على المستوى السياسي كانت الدوافع التي أدت بالرحالة المغاربة وبالأخص التونسيين الرافعين لراية الإصلاح والتطلع إلى أوروبا ونقل صور نظمها وأفكارها السياسية يدفعه وعيهم التام أن الإصلاح أصبح لزاما ليس فقط لأن هناك خلل ذاتي أصاب مجتمع المسلمين فأوجب إصلاحا، وإنما صار ضروريا لأن هذا الخلل نتج عن هجوم وضغوطات أوروبية على المجتمع الإسلامي، لذا فقد انطلق الرحالة الذين توجهوا إلى أوروبا إلى وعي تام بمسألة أساسية وهي التسليم بالتأخر تجاه أوروبا⁽¹⁾ لذا طرحوا تساؤلاتهم عما عسى أن يكون وراء تغلب الغرب الأوروبي؟ وعن الأسباب التي يتحتم الأخذ بها لمواجهته؟

(1) علي اومليل، الإصلاحية العربية والدولة الوطنية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، 1985، ص16-18.

أولاً: طبيعة أنظمة الحكم في أوروبا

نشير في البداية أن اهتمام الرحالة المغاربة في أوروبا بأنظمة الحكم ينطلق من نقطة محورية؛ وهي البحث عن أسباب تقدم الآخر الأوروبي وتأخر البلاد الإسلامية، واكتشافهم أن ذلك يعود في الأصل إلى طبيعة نظام الحكم، لذا توجهوا للبحث عن النظام الأفضل لبلدانهم انطلاقاً من خصوصياتهم ومعتمدين على النموذج الأوروبي كنموذج يحتذى به، ولأن الواقع السياسي في أوروبا خلال القرن التاسع عشر كان متحركاً كثير التغيرات بين البلدان الأوروبية أو في البلد الواحدة، وكذا باختلاف وتغير أزمنة وسياقات الرحلة، نجد اختلافاً لافتاً في إعجاب ودعوة كل رحلة بالنظام الذي شاهده في البلد الأوروبي الذي ارتحل إليه، لذا توجه الرحالة التونسيون على الخصوص تدفعهم نزعتهم الإصلاحية للبحث عن مختلف أصناف أنظمة الحكم لعلهم يجدون إجابة لأسئلتهم، وبحثاً عن أسس لبرنامجهم السياسي الإصلاحي.

وعليه فقد نقل هؤلاء الرحالة عن المفكرين الأوروبيين، واكتشافهم للفكر السياسي الأوروبي الحديث ونظرياته، أن أصناف الحكم تنقسم إلى ثلاثة أصناف؛ وهو الأمر الذي نقله خير الدين عن المفكر الفرنسي مونتسكيو (Montesquieu)⁽¹⁾؛ «الأول: الدولة الوراثية المطلقة التصرف بلا قيد؛ الثاني: الدولة الوراثية المقيدة بالقوانين؛ الثالث: الدولة الجمهورية المقيدة بالقوانين»⁽²⁾، وعليه فإن الدولة: «إما تكون أوتوكراتيك (autocratique) أي استبدادية، أو أرسطوكراتيك (aristocratique) أي زمامها بين الأعيان، أو ديموكراتيك (démocratique) أي أمرها بيد العامة»⁽³⁾.

وذكر السنوسي في "استطلاعاته الباريسية" كذلك أن الملك ينقسم إلى ثلاثة أصناف: «ملك مطلق توزعه حكم الاستبداد بما أراد، وبين ملك مقيد بالشورى تقوم فيه المجالس الشورية بكبح غوائل الملوك ورد سلطة مظالمهم، وبين جمهورية أناطت مصالحها برأي ذوي الشورى...»⁽⁴⁾.

في حين خصص ابن أبي الضياف لنظام الحكم جزءاً مهماً في كتابه، وصنف نظام الحكم إلى: حكم مطلق، حكم جمهوري، حكم مقيد بالقوانين⁽⁵⁾، إلا أنه أبقى أن يعرج على نظام رابع هو نظام "الخلافة" الذي عرف عند المسلمين، ويرى مؤلف "الإتحاف" أن حكم "الخلافة" قد ولى، ولا مكان له في القرن التاسع عشر: «والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها...ومضت مدة الخلافة بنص

(1) مونتسكيو، روح الشرائع، ترجمة: عادل زعير، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تمهيد وتحقيق: المنصف الشوّفي، ج1، مصدر سابق، ص170-171.

(3) المصدر نفسه، ص380.

(4) محمد السنوسي، الاستطلاعات الباريسية، مصدر سابق، ص13.

(5) أحمد ابن أبي الضياف، اتحاف عهد الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، ج1، المطبعة الرسمية العربية، تونس، 1319هـ، ص09.

الحديث الشريف " الخلافة بعدي ثلاثون سنة" تمت بتسليم سيدنا الحسن بن علي لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم⁽¹⁾، ويبدو أن إسقاط ابن أبي الضياف لنظام الخلافة كنظام سياسي، جاء تحت تأثير محاولات البايات التونسيين للاستقلال على "الخلافة العثمانية"، ويأبى الرحالة التونسيين إلا أن يبينوا مواقفهم من أنظمة الحكم هاته:

1- الحكم المطلق

منطلقين من واقع النظام السياسي في البلاد الإسلامية الذي يسوده الحكم المطلق، وبدافع من تأثيرات الأفكار السياسية الأوروبية التي اكتشفوها في رحلاتهم، قدم رحالتنا -التونسيون الإصلاحيون- نقدا لاذعا لنظام الحكم المطلق، فنجد خير الدين ينتقد هذا النظام الاستبدادي، فبدأ حديثه مستدلا في ذلك بمقولة ابن خلدون: «وبما جبلت عليه النفوس البشرية كان إطلاق أيدي الملوك مجلبة للظلم على اختلاف أنواعه، كما هو واقع اليوم في بعض ممالك الإسلام، ووقع بممالك أوروبا في تلك القرون عند استبداد ملوكها بالتصرف المطلق في عبيد الله من غير تقيد بقانون عقلي لمنافاته لشهواتهم، ولا شرعي لعدم وجوده في الديانة المسيحية المبنية على التبتل والزهد»⁽²⁾، ومن سلبيات الحكم المطلق حسب خير الدين أنه مؤد لسلب استقلال الدولة⁽³⁾.

وتحت تأثير الأفكار السياسية الأوروبية؛ أعجب خير الدين بالنقد الذي قدمه مونتسكيو للحكم المطلق في كتابه "روح القوانين"، قائلا (خير الدين): «ومن تمثيلات (مونتسكيو) البديعة تشبيه المستبد في تصرفاته بمن يتوصل لاجتناء الثمرة بقطع الشجرة من أصلها»⁽⁴⁾.

هذا وأشاد خير الدين بما وصلته الشعوب في أوروبا من وعيها بمخاطر الحكم الفردي مهما بلغ الحاكم من حنكة وقوة وشجاعة وإخلاص وتفان في مصلحة البلاد والعباد، ويتضح ذلك في النقاش الذي دار بينه وبين أحد أعيان أوروبا: «أسهب فيها بمدح ملكهم، وذكر ما له من مزيد المعرفة بأصول السياسة حتى قال: إنه متقيد بطبعه وعقله من سلوك غير منهاج الصواب، فقلت له: كيف تشاؤون في الحرية والسياسة، وترمون مشاركته في الأمور الملكية، والحال أنكم تسلمون له من الكمالات ما لا يحتاج معه إلى المشاركة، فأجابني: من يضمن لنا بقاءه مستقيما واستقامة ذريته؟»⁽⁵⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 09.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 18.

(3) المصدر نفسه، ص 19.

(4) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تمهيد وتحقيق: المنصف الشوّفي، ج 1، مصدر سابق، ص 171.

(5) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق ص 31.

ومن المواقف المعبرة عن رفض الأوروبيين للحكم الفردي المستبد؛ أخذ خير الدين في فرنسا مثال نابليون بونابرت فريد عصره في تسيير الدولة وقيادة الجيش ليسلط الضوء على غلطاته الخطيرة⁽¹⁾، حيث نقل عن الوزير الفرنسي "تيارس" (Thiers)⁽²⁾ أن العمل بالرأي الواحد مذموم ولو بلغ صاحبه ما بلغ من الكمالات والمعارف حيث تحول حكم نابليون إلى حكم مطلق استبدادي، ليضيف أنه: «لا يسوغ أبدا أن يُسلم أمر المملكة لإنسان واحد بحيث تكون سعادتها وشقاؤها بيده ولو كان أكمل الناس وأوسعهم علما»⁽³⁾.

ويعقب خير الدين على تنديد الوزير الفرنسي بالحكم الفردي الدكتاتوري بالتذكير بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في "الروم" والتنويه بما جبلوا عليه من حب للعدل والحرية والانصاع من ظلم الملوك⁽⁴⁾، فيقول: «فإن تأملت كلامي هذين الحكيمين، وما تضمنته من المشاحة في الاستبداد، مع كون المستبد لهم بمزيد العرفان والأهلية، تعرف بذلك ما جُبلت عليه نفوس القوم من حب الحرية، والانصاع من حكم الملوك...»⁽⁵⁾، وطرح السنوسي نفس المثال مبينا إعجابه بهذه الخصلة في "الروم" ولما لا يعجب بها و: «هذا عمرو بن العاص المعروف بداهية العرب رأى في استبقاء الجنس بكثرة العمران فض بوجود تلك خلال التي استحسنت آخرتها وهي الانصاع من ظلم الملوك»⁽⁶⁾، وذكر ابن أبي الضياف نفس المثال من حديث عمرو ابن العاص⁽⁷⁾.

أما السنوسي فيذكر أن الحكم المطلق الاستبدادي تحققت مضاره في أوروبا وتخلصت منها؛ فهو يفضي لا محال إلى انتشار الفساد في الدولة، وحتى الشريعة الإسلامية حسب "صاحب الاستطلاعات" «لم تأت بإباحة تفويض أصولها المؤسس على الحكمة برأي شخص يستبد في الأمة بشهواته، ولا أقل من أن يقودهم للهلاك بمفواته وليس ذلك من أسباب العمران»⁽⁸⁾.

(1) حسونة المدفعي، «إصلاحات خير الدين والمشروع النهضوي»، مجلة الإتحاف، ع222، 1 ماي 2012، ص49.

(2) تيارس: (Adolphe Thiers) (1797-1877م) من رجال السياسة والأدب في فرنسا، ساهم في إرجاع الملكية سنة 1830م، وسمي وزيرا للدخالية (1832-1834م) ورئيسا للوزراء (1836-1840م). من تأليفه: تاريخ القنصلية والإمبراطورية (Histoire du consulat et de l'empire).

(3) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 29-30.

(4) وأورد خير الدين التونسي هذا الحديث: فعن موسى بن علي عن أبيه قال قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس فقال له عمرو أبصر ما تقول، قال أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالا أربعا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويقيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة وأمنهم من ظلم الملوك».

(5) المصدر نفسه، ص 32.

(6) محمد السنوسي، الاستطلاعات الباريسية، مصدر سابق، ص15.

(7) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج1، مصدر سابق، ص41-42.

(8) محمد السنوسي، الاستطلاعات الباريسية، مصدر سابق، ص14.

وانتقد ابن أبي الضياف الملك المطلق، وحسبه فإنه ملك يسوق الناس بعصاه إلى ما يُراد منه بحسب اجتهاده في المصلحة، وهو فرد غير معصوم يلزمه ما يلزم البشر⁽¹⁾، واعتبره مخالف للشرع والعقل، فهو مخالف للشرع لأنه تصرف في عباد الله وبلاده بالهوى، والشرائع جاءت لإخراج المكلف من داعية هواه، وهو ليس بالعدل الذي أمر الله به، ويعارضه كذلك العقل لأنه تغلب وقهر، ينتج عنه التمرد والعصيان، فيضطرب الأمن الذي به يزول العمل، وذلك مؤذن بخراب العمران⁽²⁾، وحاصل القول أن الملك المطلق أغلبه جور، وأن: جور الملوك هو أقوى الأسباب في تدمير البلدان وتخريب العمران وانقراض الدول، وهذا ما بينه ابن خلدون حسب ابن أبي الضياف، فالدولة التي تسير بمقتضى العدل تطول بها المدة، أما تلك التي تقوم على الجور فإنه لا يبقى لها ملك⁽³⁾.

ولما كانت نظرة ابن أبي الضياف هي اكتشاف للأنا من خلال الآخر، فمن خلال اطلاعه على الفكر السياسي الأوروبي، اكتشف أن ما آلت إليه الدول التي قامت في تونس؛ سواء الدولة الحفصية (1228-1574م)، أو الدولة المرادية (1631-1702م)؛ إنما كان ضعفها وتفككها بسبب الحكم المطلق الذي كان يسيرها، أما عن الأولى: «...فانظر أيها المعتبر لحال هذه الدولة...كيف امتد أمرها واتسع مجال ملكها...وانظر إلى ما آل إليه الحال بعد تلك القوة...من انتفاض الجهات...حتى وقع الإجلات عن المملكة بغير أهل الملة، استعانة بهم عن الملك المطلق...»، وكذلك بالنسبة إلى الدولة المرادية، والتي يقول فيها: «أنظر لحال هذه الدولة؛ كيف استفحل شبابها بالخصال الحميدة...وكيف أخذت في الإديار والتراجع والهرم...يسفك دماء المسلمين، وقسمة بلاد الله وعباده...والابتعاد عن قانون الشرع، وحكمت بالمشيئة المطلقة في أرض الله وعباده»⁽⁴⁾.

إذن فقد كان وعي رحالتنا متوجها إلى التأكيد أن ما وصلت إليه أوروبا من تقدم ورقي وحضارة وقوة، إنما كان بابتعادها عن نظام الحكم المطلق الاستبدادي، وأن غرق البلاد الإسلامية في الضعف والانحطاط يكمن أيضا في هذا النظام الذي بقي جاثيا على صدر الأمة، ولا سبيل للتقدم إلا باقتلاع جذوره وتغييره، وبما أن الدول الأوروبية تفتنت لتبعات الحكم المطلق، فأوجدوا نمط جديد من الحكم قائم على الحرية والعدالة (الحكم الجمهوري، الحكم المقيد) هذا النظام الذي يكون فيه الحاكم كواحد من الشعب، ينفذ ما يتفق عليه أهل المشورة.

(1) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 1، مصدر سابق، ص 10.

(2) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 1، مصدر سابق، ص 18-19.

(3) فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ط 3، دار الشروق، عمان-الأردن، 1988، ص 150.

(4) مسعود عوادي، اكتشاف الرحلات التونسية والجزائرية للفكر الأوروبي ونقله إلى المغرب العربي خلال القرن التاسع عشر، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2010-2011، ص 53.

2- الحكم الجمهوري

وعليه كان النوع الثاني من الحكم الذي اكتشفه هؤلاء الرحالة هو نظام الحكم الجمهوري، والذي يعرفه خير الدين في قوله: «والجمهورية عندهم كناية عن انتخاب الأمة رئيسا لدولتهم يتصرف في إدارتها بمقتضى القوانين مدة حياته، أو لمدة معلومة، ثم ينتخب غيره...»⁽¹⁾.

وبعد أن عرّف ابن أبي الضياف بهذا النظام من الحكم، نوه بما جنته الدول في أوروبا جراء تطبيقها إياه فيقول: «ومحصل هذا الصنف أن الناس يقدمون رجلا منهم باختيارهم يلي سياستهم ومصالحهم لمدة معينة، ولما تتم خلفه غيره باختيارهم أيضا وهلم جرا، وقد يستحسنون سيرة أحد فيطلبون منه زيادة مدة ولا يجعلون لهذا المقدم شيئا من فخامة الملك وشاراته بل يكون هو كواحد منهم ينفذ ما يتفق عليه الرأي من أهل المشورة، ولهم في ذلك قوانين يحترمونها احترام الشرائع المقدسة ويقفون عند حدها».

ورغم ما جناه الأوروبيين من تطبيق هذا الصنف من الحكم حسب ابن أبي الضياف من منافع دنيوية للعامة والخاصة حيث كان أمرهم شورى بينهم، لكن «قواعد الملة الإسلامية لا تقتضي هذا الصنف الجمهوري لأن منصب الإمامة واجب على الأمة شرعا يأثمون بتركه مثل تغيير المنكر... وتبني على وجوده أحكام شرعية في العبادات وغيرها، معروفة في كتب الدين»⁽²⁾، فلهذا النظام إذن فضيلة هي أنه قائم على الشورى، لكنه بالنسبة للمسلم ناقص من جهتين: فهو من جهة أولى نتيجة الموافقة القائمة على الجواز فحسب- إذ الإمامة عند المسلمين واجبة شرعا، وهو من جهة ثانية دنيوي خالص، إذ أن منصب الإمامة عند المسلمين تناط به أحكام شرعية⁽³⁾.

أما محمد السنوسي الذي زار فرنسا في ظل الحكم الجمهوري وأعجب كثيرا بهذا النوع من الحكم الذي شاهد مظاهره في فرنسا وعدد فضائله، فبه: «أمنت (الشعوب) غوائل الملوك فأصبحت في ظل من الأمن والحرية بلغت به لسطوة يغبطها بها من سواها...»⁽⁴⁾، «لذا كان أحزم الناس أمم قامت بواجباتها وأناطت رئاستها بمن ينفذ ما تختاره الأمة فحمت نفسها من ظلم الملوك وجهل عبيدهم... فكان للدول الجمهورية في هذا العالم مزيد تقدم...»⁽⁵⁾.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تمهيد وتحقيق: المنصف الشنّوني، ج1، مصدر سابق، ص171.

(2) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج1، مصدر سابق، ص36.

(3) فهمي جدعان، مرجع سابق، ص151.

(4) محمد السنوسي، الاستطلاعات الباريسية، مصدر سابق ص13.

(5) المصدر نفسه، ص16-17.

3- الحكم المقيّد بالقانون

وبعد اكتشافهم للنظم السياسية الأوروبية كان هناك شبه إجماع من رحالتنا الذين اهتموا بنظام الحكم، أن أفضل نظام هو "الحكم المقيّد بالقانون" فقد وصل خير الدين لنتيجة مفادها أن أي من نماذج الحكم السابقة لا ترتجى منها فائدة ما لم تقيد بالدستور: «ولا شك أن كل واحد من هاتين الصورتين في حد ذاتها لا تكفي بحفظ حقوق الأمة ولا لحسن الإدارة، فلذلك تأسس الكونستيتوشيون (الدستور)...»⁽¹⁾، فلا معنى لأي نظام حكم في أوروبا من دون دستور أو قانون يقيد، وقد ترجم خير الدين الدستور الفرنسي مادة مادة ليؤكد أن عدالة الحكم في فرنسا ناجمة عن كونه مقيداً⁽²⁾، وأشاد خير الدين بالحكم الدستوري، ورأى فيه أنه سبب في تطور الصناعة والتجارة والعلوم والقوة العسكرية التي مكنت الدول الأوروبية من السيطرة على غيرها⁽³⁾.

ويؤكد خير الدين إعجابه بالحكم الدستوري، أو الحكم الملكي المقيّد بالقوانين في أوروبا، مقارنة إياه بالحكم الفردي الاستبدادي، حيث يقول: «فشتان بين حالة المستبد الذي يأخذ ويعطي بمقتضى الشهوة والاختيار، وحالة المتقيّد بالقوانين الذي يفعل ما ذكر بمقتضاها متوقعا تعقب آراء كثيرة من تنزيلها إياه منزلة القاصر في تصرفه، فضلا عن الخائن فيه...»⁽⁴⁾.

وأعجب ابن أبي الضياف بالحكم المقيّد بالقانون (أغلب الدول التي ارتحلوا إليها واكتشفوا نظام حكمها هي دول قانونية أو كونستيتوشيونية) ورأى فيه أصلح نظام حكم بعد الخلافة (التي انقضى زمانها حسبه)، فهو: «الملك الذي يحاط به العباد ويحاط به الفساد ويناط به المراد... لأن أمره (أي هذا الملك) دائر بين العقل والشرع، وصاحبه يتصرف بقانون معلوم معقول في سائر أموره لا يتجاوز، ويلتزم العمل به عند البيعة، ويؤكد ذلك باليمين، في ذلك المشهد، فإذا تعمد مخالفته انحلت بيعته من الأعناق»⁽⁵⁾.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص292.

(2) نازك سابا يارد، الرحالون العرب وحضارة الغرب: في النهضة العربية الحديثة، ط2، نوفل للنشر، بيروت، 1999، ص60.

(3) المصدر نفسه، ص61.

(4) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص157.

(5) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج1، مصدر سابق، ص41.

ثانيا: أوروبا القانون والدستور

إن وصول رحالتنا المغاربة (خاصة التونسيين منهم) إلى نقطة محورية في بحثهم عن واقع النظام السياسي الأوروبي ومقوماته، تتمحور أساسا في نظام الحكم المقيد بالقانون مهما كانت طبيعته: ملكيا، وراثيا، أو جمهوريا، وأن ما وصلت إليه الدول الأوروبية من رقي وتطور هو ضمان وجود هذا القانون، لذا راح رحالتنا باحثين عن أسرار هذا القوانين الذي ارتقت بها أوروبا، ما طبيعة هذه القوانين؟ وماهي مصادرها، هل هي وضعية أو شرعية؟ وما هي أنواعها وتقسيماتها وكيف تطبق، وفي الأخير كيف كان موقف رحالتنا المغاربة من القانون والدستور؟ وكيف تمثلوه؟

1- اكتشاف الرحالة المغاربة للدستور والقانون الأوروبي

أما بيرم الخامس وخير الدين فقد كررا كثيرا أن الدول الأوروبية التي زاروها هي "دول قانونية"، أو كما يسميها خير الدين بلفظها الفرنسي "الكونستيتوسيونية" (L'État est constitutionnel)⁽¹⁾، وهنا يقوم صاحب "صفوة الاعتبار" بشرح معنى أن تكون الدولة قانونية أو "دولة القانون"، فيقول في حديثه عن النظام السياسي في إيطاليا: «...أما كونها قانونية فلأن التصرفات العامة والأحكام كلها مضبوطة بقواعد عقلية مضبوطة»⁽²⁾، وكذلك أشار ابن أبي الضياف إلى الدستور في أوروبا وهو يستعرض معنى الحكم المقيد بالقانون قائلا: «وصاحبه يتصرف بقانون معلوم معقول في سائر أموره لا يتجاوز...»⁽³⁾، فوجود الدستور هو الذي يخضع الدولة للقانون.

كما لاحظوا في دراستهم لقوانين الدولة في أوروبا أن القانون هناك ينقسم إلى نوعين؛ الأول: وهو الدستور، ويسميه خير الدين "قوانين الحقوق المرعية بين الدولة والرعية" والثاني: "قوانين حقوق الأهالي فيما بينهم"⁽⁴⁾، وهو الأمر الذي أكد عليه بيرم الخامس كذلك لأن القوانين هناك: «منقسمة إلى كليتين (الأولى) هي ما يتعلق بالإدارة العامة و(الثانية) ما يتعلق بإجراء الأحكام الشخصية، فكل منها إدارة مستقلة عن الأخرى...»، فما تعلق بالإدارة العامة أو ما يعرف بالقانون الأساسي وهو الدستور، والذي يقدم بيرم صورته وتعريفه دون أن يسميه لما أشار إلى القانون الضابط لصلاحيات الملك في إيطاليا: «فالملك في إيطاليا لا يتصرف في جميع ما تقدم إلا على مقتضى قانون مرتب معلوم وملخص كليته...»⁽⁵⁾.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقدم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 129.

(2) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، ص1819.

(3) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج1، مصدر سابق، ص32.

(4) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تمهيد وتحقيق: المنصف الشنوفي، ج1، مصدر سابق، ص200.

(5) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص1814.

ومنها القوانين الشخصية التي تنظم حياة الأشخاص في الدولة فهي: «قوانين مرتبة عندهم عقلية مستخرجة من قوانين قديمة للرومان واليونان وغيرهم، موصلة الحقوق إلى مستحقيها على ما يروونه وزاجرة عن الجنايات، ومراع فيها حالة البلاد وأخلاق الأهالي وعوائدهم واصطلاحهم»⁽¹⁾.

ويشتمل الدستور وفق الترجمات التي وضعها رحالتنا لبعض الدساتير الأوروبية في القرن التاسع عشر على عدة موضوعات وهي: شكل الدولة: في كونها ملكية أو جمهورية، السلطات العامة في الدولة التشريعية والتنفيذية والقضائية، الأشخاص أو الهيئات التي تتولى السلطات العامة، علاقة هذه السلطات ببعضها البعض، ونوع هذه العلاقة، الحريات الفردية وضماناتها.

ولم يغفل هؤلاء الرحالة والمفكرين في حديثهم عن القوانين الإشارة إلى مشرعي هذه القوانين أو السلطات التشريعية، لذا أكد مؤلف "أقوم المسالك" على هذا النوع من القوانين الوضعية حيث قال: «وتأسيس هذا النوع أو تبديله بما هو أليق بالحال يكون بموافقة المجلسين (مجلس الأعيان، مجلس النواب)... فكل ما وافقوا عليه-مما لا يخالف تلك الأصول اللازم فيها مشاركة العامة-يصير من شرائع المملكة»⁽²⁾، في حين يذكر بيرم الخامس أنها تشريع من طرف مجلس النواب في إيطاليا: «ومجلس النواب يغير من قوانين الحكم ما تدعوا المصلحة لتغييره بحسب تفير الزمان والعرف، وقوانين الحكم معلن بها يتوصل إليها كل أحد ليعرف ما له وما عليه، وإذا تغير عندهم حكم مسألة لا يجري العمل به إلا بعد مدة لكي يكون الناس عالمين به...»⁽³⁾، وفي فرنسا يذكر بيرم أنه وفقا لدستور 1870م "لمجلس الأعيان مزية وضع الأحكام والقوانين بالاشتراك مع الامبراطور ومجلس النواب..."⁽⁴⁾.

هذا وتطرق ابن أبي الضياف إلى أساليب نشأة الدساتير الأوروبية والتي كانت كالتالي:

- تارة يطلب القانون والدستور المقيد للنظام السياسي من قبل الرعية، «ولو كان بحروب تجري فيها أودية الدماء كما وقع مع فرنسا لما في طبائع أهلها من الالتحام والتعصب وحب الحرية الممزوج بدمائهم حتى أفرطوا فيها إفراطا لا داعي له، ولذلك تراهم يأنفون من ظلم الملوك كما هو المشاهد بالأقطار الإفرنجية وغيرها...»⁽⁵⁾، فابن أبي الضياف كما رأينا لم يجذب استعمال القوة في التخلص من الحكم المطلق واستجلاب القوانين كما كان عليه الأمر في الثورة الفرنسية

(1) المصدر نفسه، ص1820.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تمهيد وتحقيق: المنصف الشنّوي، ج1، مصدر سابق، ص200.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنّوي، مج5، مصدر سابق، ص1819.

(4) المصدر نفسه، ص1960، 1962.

(5) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج1، مصدر سابق، ص41.

- وقد يمنح القانون تبعا للظروف السياسية التي تمر بها البلدان ففيها يُمنَح الدستور ويُقيّد الحكم حسب ما يقتضيه الوقت والحال⁽¹⁾.

- ويمنح الدستور من قبل الملوك بإرادة منهم إلى شعوبهم، فذكر ابن أبي الضياف أنه: «تارة يكون القانون من حسن أخلاق بعض أفراد من ملوكهم المطبوعين على العدل وحب الوطن المتسابقين في هذه الدنيا للخلال الحميدة مرقاة الفخر ومراعاة الشاء بين الأمم» وذكر صاحب "الإتحاف" قصة طريفة-يبين فيها أهمية وجود قانون يضبط الملك ويقيده- دارت بين أحد الملوك في أوروبا وزوجته التي لامته عن منحه دستورا لشعبه قلل من خلاله صلاحياته: «قائلة أنك جعلت لأولادك منصب الملك أضيق مما ورثته أنت من آبائك فأجابه: بأن الأمر ليس كما تظنين وإنما أنا أترك لهم الملك أمكن وأتم مما أخذته من سلفي»⁽²⁾.

ولاحظ خير الدين ويبرم الخامس الفوارق الموجودة في القوانين الأوروبية واستنتجا أن ذلك يعود بالأساس لاختلاف خصائص كل دولة، وعليه فقد لاحظا الفروقات بين أشكال الدساتير في البلدان الأوروبية، فكان الدستور الفرنسي من الدساتير المكتوبة، أما البريطاني فكان دستورا عرفيا غير مكتوب، وفي ذلك يقول خير الدين: «إذ لم يكن الكونستيتوشيون عندهم أمرا سياسيا متفقا عليه، ولم يكن صادرا عن إملاء وروية وإعمال للقواعد العملية، كما فعله الفرنسيون، بل هو نتيجة ملاحظة أحوال وعادات...»⁽³⁾.

ومن الاختلافات في هذه الدساتير أيضا أن يكون هناك دستور مرن مثل ما هو موجود في بريطانيا حيث ينقل خير الدين عن السياسيين الفرنسيين: «أن الكونستيتوشيون الانجليزي مستجمع من القوانين القديمة والجديدة، ولا يخلو من نوع ارتباك، إذ يوجد فيه حكمان نصا قضان في نازلة واحدة بأن يصدر حكم جديد فيها قبل إبطال الأولى وتركه بمقتضى حب الأمة للتمدن مع احترامهم لعاداتهم القديمة»⁽⁴⁾، والدستور الانجليزي بهذه الحالة قريب للدستور النمساوي الذي يتكون من تراكم مجموعة من القوانين القديمة والجديدة لذا جاء قول خير الدين: «اعلم أن القوانين النمساوية مؤسّسة على مناشير صدرت من ملوكها في تواريخ مختلفة»⁽⁵⁾.

(1) المصدر نفسه، ص43.

(2) المصدر نفسه، ص43.

(3) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص292.

(4) وكان الدستور البريطاني أشتهر بذلك رغم أنه نتاج تراكم مجموعة من الوثائق التشريعية المكتوبة مثل وثيقة الشطر الكبير أو العهد الأعظم الصادرة سنة 1215م، ودعمت مع مرور الزمن بقوانين مثل قانون أكسفورد 1258، وقانون 1264، وصولا إلى دستور الثورة الانجليزية 1688، واستمر الدستور البريطاني في التراكم إلى غاية القرن 19، أنظر: المصدر نفسه، ص293-299.

(5) المصدر نفسه، ص358.

وبعد اكتشاف الرحالة المغاربة خاصة التونسيين منهم النظم الضابطة للسياسات في الدول والممالك الأوروبية؛ عبروا عن إعجابهم بها وكان الدستور عماد هذا النظام والتنظيمات في هذه الممالك، لذا أعجب خير الدين بالدستور كما رآه في أوروبا، واعتبره من أهم ثمرات الثورة الفرنسية التي انتقلت بالواقع الأوروبي من رتبة العبودية إلى تمام الحرية⁽¹⁾، فخير الدين رأى في الدستور هو الضابط للدولة والناظم لها ولأصولها والمبين لصلاحياتها والحامي لها، فهو قانون الدولة الذي جاء بعد موافقة عموم الشعب عليه، ومن خلال مشاهداته وإطلاعه على الفكر السياسي الأوروبي لاحظ أن هذه التنظيمات أساس الثروة والتمدن، ويضع مؤلف "أقوم المسالك" "الدستور والقوانين على رأس هاته التنظيمات، خاصة لنتائج تطبيق هاته القوانين في أوروبا؛ من تحجيمها لدور الحكم الفردي المطلق ونصها أيدي الملوك ورجال دولهم، بعد أن تحققوا أن أسباب التأخر والتقدم في الأمم السابقة هو إطلاق يد الملوك⁽²⁾."

وتعبيرا عن إعجابه بالقوانين التي تضبط الدولة في أوروبا، يرى السنوسي أن بقاء الدول قوية لا يكون إلا بتطبيق الحكم الذي تقيده القوانين: «لذلك وجب المصير في حفظ الدول إلى إقامة الأصول السياسية المفروضة على الأمة التي يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها بوجه قانوني مضبوط...»⁽³⁾.

فيما أشار ابن أبي الضياف لأهمية الدستور عند الأوروبيين، ونوه باحترامهم وتمسكهم بالدستور والقوانين وتقديسهم لها، فبها «ظفروا بالحرية والعدل المؤسسين على قاعدة قوية راسخة معلومة حتى عند صبيانهم محترمة احترام الشرائع النبوية لا يتساهلون في أدنى شيء منها»⁽⁴⁾.

(1) ويظهر خير الدين التونسي مطلعاً جداً على بتاريخ الفكر السياسي الأوروبي، لأن فكرة خضوع الدولة للقانون ووجود قواعد قانونية تلتزم الدولة باحترامها دون أن يكون لها سلطة إلغائها أو تعديلها قد وصلت أوجها في أوروبا في عهد الثورة الفرنسية، حتى أن أحد كبار رجال الثورة "ميرابو (Mirabeau) قد قال: "إن القانون سيد العالم"، أنظر: منير حميد البياتي، النظام السياسي الإسلامي مقارنا بالدولة القانونية: دراسة دستورية شرعية وقانونية مقارنة، ط4، دار النفائس، عمان-الأردن، 2012، ص37.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تهذيب وتحقيق: المنصف الشنّوني، ج1، مصدر سابق، ص200.

(3) محمد السنوسي، الاستطلاعات الباريسية، مصدر سابق، ص14.

(4) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج1، مصدر سابق، ص41.

2- القوانين الأوروبية والشريعة الإسلامية (في شرعية الاقتباس)

وفي سياق البحث عن أسباب قوة الآخر الأوروبي والتطلع لاقتباس كل ما يمكنه أن يقوي الدول الإسلامية، سجلنا اهتمام الرحالة المغاربة بطبيعة هذه القوانين الأوروبية، فاكتشفوا أنها "وضعية" "عقلية"، لذا كثيرا ما تكررت في نصوصهم هاتين الكلمتين لوصف طبيعة القانون الأوروبي وأصله، وما دام مصدر هاته القوانين مصدر "بشري"، نتيجة تراكم مجموعة من تشريعات حضارات مختلفة سابقة، «قوانين مرتبة عندهم عقلية مستخرجة من قوانين قديمة للرومان واليونان وغيرهم»⁽¹⁾، أو قول خير الدين: «إذ الواقع أنها قوانين عقلية مبنية على مراعاة الوازع الديني»⁽²⁾.

لذا فالدساتير الأوروبية تختلف بلا شك عن القانون الإسلامي اختلافا كبيرا، وهذا الاختلاف ليس شكليا أو فرعيا فقط؛ ولكنه اختلاف في الجذور والأسس والمنطلقات، فبينما يرتكز الدستور في النظم الأوروبية الحديثة على منطلقات عقلية بشرية، نجد في المقابل الشريعة الإسلامية تركز على قاعدة أساسها "إلهي" كما يقول ابن أبي الضياف: «قانون الملك الإسلامي هو القرآن العظيم، وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، واستنباط الأئمة المجتهدون بالقياس وحفظ مقاصد الشريعة»⁽³⁾، ففي ظل النظام الإسلامي فإن الحقوق والقواعد الأساسية وردت قواعد شرعية، فهي ربانية المصدر، ليس للبشر الحق بأن يمنحوا بعضهم أو يمنحوا أنفسهم هذه القواعد والحقوق، فهي ليست تفضلا من الحاكم للمحكومين، وليست كذلك منتزعة من الأحكام عن طريق كفاح المحكومين، فالحكام والمحكومين أمامها سواء، وما كان من هذه الأحكام متروكا لهم يتم اجتهادهم فيه حسب الأحوال والملابسات، فإن وسيلة وضع هذه الأحكام هو الاجتهاد الشرعي والشورى الشرعية، في إطار التوجيهات الربانية. والنظام الإسلامي يجعل الأحكام والمحكومين أمام الشرع سواء، وأمام القضاء سواء، وأمام الحدود سواء، وليس للحكام في هذا المجال مزايا خاصة، بل عليهم عبء كبير في تنفيذ أحكام الله في كل أمر من أمور الحياة، وليس لهم الحكم وفق الأهواء والمصالح الشخصية أو الحزبية أو العرقية أو الإقليمية أو غيرها⁽⁴⁾.

أما الأوروبيين فاجتهدوا في وضع هاته القوانين، لأن الديانة المسيحية كما رأى خير الدين وابن أبي الضياف كانت: «مقصورة على العبادة والتقرب إلى الله بالزهد في الدنيا والإقبال على الدار الآخرة... وتركت ملوك هذه الدنيا وشأنهم من مصالح دنياهم»⁽⁵⁾.

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص1820.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص134.

(3) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج1، مصدر سابق، ص43-44.

(4) منير البياقي، مرجع سابق، ص157-167.

(5) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج1، مصدر سابق، ص41.

ويؤكد خير الدين على ذلك أيضا بقوله: «...إذ الديانة النصرانية ولو كانت تحت على إجراء العدل و المساواة لدى الحكم، لكنّها لا تتداخل في التصرفات السياسيّة، لأنّها تأسّست على التبتّل و الزهد في الدنيا، حتّى أنّ عيسى - (عليه السلام) - كان ينهى أصحابه عن التعرّض لملوك الدنيا فيما يتعلّق بسياسة أحوالها، قائلا: "إنّه ليس له ملك في هذه الدنيا" لأنّ سلطان شريعته على الأرواح دون الأشباح»⁽¹⁾ وهي عكس الشريعة الإسلامية التي كانت قانونا يشرع لأُمور الدين والدنيا⁽²⁾.

وما دامت هذه القوانين الأوروبية لم تكن ذات مصدر "ديني مسيحي"، فقد أزال على الرحالة التونسيين حرج الدعوة إلى تطبيقها في البلاد الإسلامية، لذا لم يجد الرحالة التونسيين فارقا بين التشريعات السماوية الإسلامية والقوانين الوضعية الأوروبية ما دام هدفها جميعا هو المصلحة العامة، خاصة وأن هذه القوانين التي استنبطها العقل البشري قد ضمنت للأوروبيين العدل والسعادة والنجاح والغنى والتمدن⁽³⁾.

ولا يرى ابن أبي الضياف في القوانين الأوروبية والشريعة الإسلامية فرقا من حيث المقصد والهدف، وأعطى نموذجا في ذلك مثله مثل خير الدين، إذ يؤكد أن الشريعة جاءت ضابطة ومقيدة للحاكم حتى لا يتصرف بهواه، وهي بذلك لا تختلف عما وجداه في فحوى القوانين الأوروبية، لذا يقول صاحب "الاتحاف": «أن الشريعة جاءت لإخراج المكلف عن داعية هواه في جميع الأحوال عبادة ومعاملة»

فيما رأى خير الدين أن هذه القوانين جاءت رادعة «إما شرع سماوي أو سياسة معقولة»⁽⁴⁾، بل إن خير الدين يرى في إمكانية أن تتوافق كثير من التشريعات العقلية الأوروبية مع ما جاء في الشريعة الإسلامية⁽⁵⁾.

ويخرج ابن أبي الضياف بنتيجة مفادها: «إن خلت الدولة من مثل هذه السياسة لا ستتب أمرها ولا يتم استيلاؤها سنة الله في الذين خلوا من قبل، فإن كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصائرها كانت سياسة عقلية، وإن كانت من الله بشارع يقررها ويشعرها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة»⁽⁶⁾.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تمهيد وتحقيق: المنصف الشنّوني، ج1، مصدر سابق، ص104.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقلم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 04.

(3) نازك سابا يارد، مرجع سابق، ص80.

(4) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقلم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص20.

(5) المصدر نفسه، ص134-135.

(6) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج1، مصدر سابق، ص62.

ورغم وعي الرحالة التونسيين بأهمية القوانين الأوروبية العقلية التي أوصلت الأوروبيين إلى ما وصلوا إليه من غنى وتطور في شتى الميادين، حتى أن خير الدين يذكر أن: «بهذه القوانين حصلت للأمة الإنجليزية من المعارف والعمران وأنواع التمدن ما صارت به جزيرتهم كأحسن البساتين بعد أن كانت صخرة في البحر لا عمران بها، وما استولوا به على خمس سكان الكرة كما هو مشاهد بالعيان لمن له اطلاع على الجغرافيا»⁽¹⁾، إلا أنه لم يدعوا للسير على نهجها بفصل السياسة عن الدين كما في أوروبا؛ بل كان تركيزه أكثر على القوانين الأوروبية التي تتناسب مع الشريعة الإسلامية قصد تطبيقها في البلاد الإسلامية. لذا جاء تنبيه خير الدين في مقدمة كتابه: «أن نتخير منها ما يكون بحالنا لائقاً، ولنصوص شريعتنا مساعداً وموافقاً، عسى أن نسترجع منه ما أخذ من أيدينا...»⁽²⁾.

ولأن هاته القوانين "العقلية" التي اكتشفها رحالينا عند الأوروبيين قد ارتقت بدولهم، ولتأكيد أهمية وجود القوانين الضابطة في تسيير الدولة، يشير خير الدين إلى أن ما وصلت إليه الأمة الإسلامية في عهود سابقة من رقي وتطور: «ناتج عن تقييد ولائهم بقوانين الشريعة المتعلقة بالأمر الديني والديني» فحاول خير الدين أن يزيل الفوارق بين القوانين الأوروبية المستنبطة من العقل والشريعة الإسلامية المنزلة، بل أنه لا يرى بينهما تناقض في كثير من الأحيان⁽³⁾ من حرية وعدل ونظم سياسية قائمة على الشورى⁽⁴⁾، وهي نفس القوانين التي وجدها في أوروبا، فخير الدين في إطار برنامجه الإصلاحي حاول تقريب التنظيمات والقوانين الأوروبية لقارئ رحلته من المسلمين، بتأكيد أن التشريع الإسلامي سابق لما وصل له العقل الأوروبي، بل إنها في الواقع نظم وتقاليد إسلامية تخلق المسلمون على العمل بها، ولكي ترتقي الأمة الإسلامية لا بد من العودة لها، لكن على شاكلة ما وجدته في أوروبا من احترام هذه القوانين.

فخير الدين يرى أن إشكالية تأخر المسلمين مقارنة بأوروبا لا يعود إلى افتقارهم لتنظيمات سياسية أساسها القانون؛ فالشريعة الإسلامية أثبتت صلاحيتها في تسيير الدولة وضبط الحاكم والمحكوم، بل إن ابتعاد الحكام المسلمين عن تطبيق تعاليم الشريعة الإسلامية التي طالما نظمت الحياة في العالم الإسلامي، ليحل محل الشريعة استبداد الحكام وقهرهم وشيوع الحكم الفردي كان سببا إلى هذا التأخر، فخير الدين مقتنع أن الأمة كلما استندت إلى نظام وقوانين وتنظيمات كلما كانت أمتع وزاد ارتقاؤها في شتى المجالات.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 302.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تمهيد وتحقيق: المنصف الشنّوني، ج 1، مصدر سابق، ص 97.

(3) نازك سابا يارد، مرجع سابق، ص 83.

(4) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 19.

وإن إعجاب السنوسي بالحكم المقيد بالدستور في أوروبا وإمكانية تطبيقه في العالم الإسلامي جعله ينظر في المدونة السياسية الإسلامية ليستخرج منها أقوالاً سياسية تتقاطع وتتقارب مع ما رآه في أوروبا فذكر بقول ابن خلدون: «إذا خلت الدولة عن مثل هذه السياسة (وجود قانون مضبوط) لم يستتب أمرها... فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية، وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة»، ونقل قول الأزرقي في بدائع السلوك⁽¹⁾ عن الطرطوشي⁽²⁾: «أن السلطان الكافر إذا كان حافظاً للسياسة الاصطلاحية أقوى وأبقى من السلطان المؤمن العدل في نفسه المضيق للسياسة الشرعية، والجور المرتب أبقى من العدل إذ لا أصبح للسلطان من ترتيب الأمور ولا أفسد له من إهمالها، ولا يقوم سلطان إيمان أو كفر إلا بعدل قوي وترتيب اصطلاحى».

وفي مساعي خير الدين ومحمد السنوسي لإقناع معارضيه استحدثت هذه النظم السياسية الأوروبية "الوضعية" في البلاد التونسية، استحضرت الرحالتين والمصلحين التونسيين التجارب السياسية للعقل المسلم الذي أنتج قوانين وضعية - وإن ظلت تدور في فلك الشريعة الإسلامية - سارت بها الدولة وذكرنا في ذلك القوانين التي استحدثتها السلطان العثماني سليمان القانوني⁽³⁾ الذي رأى أن: «تغلب الملوك لم يقف عند حد وأن الحال يؤول إلى وهن الإسلام وتشيت الأمة وزوال ملكها»⁽⁴⁾ فرتب: «قانونه النافع الذي استعان فيه بالعلماء العاملين وعقلاء رجال دولته، وجعل مداره على إناطة تدبير الملك بعدة العلماء والوزراء وتمكينهم من تعقب الأمراء والسلاطين إذا حادوا»، وكان هذا القانون يعمل على «الاحتساب عبي سيرة السلاطين كمنزلة وكلاء الدولة في أوروبا... فبذلك القانون المشار إليه استندم نجاح الدولة وحسن سيرتها»⁽⁵⁾، وهو ما كان حسب رحالتنا سبباً في تقدم تلك الدولة العظيمة الشأن⁽⁶⁾.

(1) والمقصود هنا هو كتاب "بدائع السلك في طبائع الملك" لصاحبه أبو عبد الله بن الأزرقي (المتوفى: 896هـ)، وهو أحد أهم وأعظم الكتب في علم الاجتماع السياسي لدى المسلمين.

(2) والمقصود هنا هو كتاب "سراج الملوك" لمؤلفه أبو بكر محمد بن محمد ابن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي (المتوفى: 520هـ).

(3) والمراد به القوانين التي استحدثتها السلطان سليمان القانوني والمعروفة بـ"قانون نامه"، لتفاصيل أكثر عن هذه القوانين أنظر: عارف خليل أبو عيد وأورهان جانبولات، «قوانين نامه في الدولة العثمانية دوافعها وأهدافها وآثارها»، دراسات علوم الشريعة والقانون، مج 39، ع 1، الجامعة الأردنية، 2012.

(4) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 1، مصدر سابق، ص 43-44.

(5) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 49-50. أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 1، مصدر سابق، ص 47.

(6) محمد السنوسي، الاستطلاعات الباريسية، مصدر سابق، ص 16، أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 1، مصدر سابق، ص 50.

وكما كان تقدم الدول العثمانية حسب ما تقدم باتباعها للقوانين الشرعية منها والعقلية، فإنها إنما أخذت في التأخر حسب ما ذكره الرحالة التونسيين لما قصرت في العمل بالقوانين، فانتشرت فيها الفوضى والاضطراب وشاع فيها الظلم وتزعزعت أركان الدولة، ومن النتائج حسب خير الدين التي جنتها الدولة العثمانية لتجاني ولائها على العمل بالقانون ما آلت إليه من هيمنة الإنكشارية ولجوء أهل الذمة والأقليات فيها للدول الأجنبية طلباً للحماية لانتفاء قانون يحميهم كما كان قبل ذلك ما استدعى تدخل أجنبي في شؤونها الداخلية⁽¹⁾.

وفي سياق هاته الرؤية من الرحالة التونسيين، نوّه خير الدين وابن أبي الضياف والسنوسي بمبادرات السلاطين العثمانيين في القرن التاسع عشر في إصلاح نظم الدولة بداية مع إدخال القوانين الحديثة على النمط الأوروبي منها التنظيمات الخيرية التي سنّها السلطان عبد المجيد سنة 1839م⁽²⁾ وإسهامات السلطان عبد العزيز (1861م- 1876م) في تهذيبها وتمشيتها سنة 1859م⁽³⁾ مقدمين في ذات الوقت نقداً لاذعاً للرافضين لهذه التنظيمات في العالم الإسلامي، معتبرين أن هؤلاء إنما يرفضونها في عديد إيلات الدولة رغبة في تمسكهم بما في أيديهم من سلطة وحكم للتصرف بلا قيد ولا احتساب: «لما تيقنوا أن إجراء الإدارة والأحكام على مقتضى التنظيمات مما يخل بفوائدهم الشخصية وإشاعتهم أن التنظيمات مخالفة للشرعية الإسلامية»⁽⁴⁾.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص50.

(2) قام السلطان عبد المجيد (1822-1861م) بعدد من الإصلاحات الداخلية في محاولة منه مجارة الدول الأوروبية في التمدن والعمران، ومن أهم إصلاحاته خط "كلخانة" الشهير والذي يشتمل على عدة مواد إصلاحية، كما اهتم السلطان عبد المجيد كسابقيه من السلاطين بإصلاح الجندية ووضع عدة قوانين لتسيير الجانب العسكري، وبرز في عهده ما عرف "بالإصلاحات الخيرية" التي نظم من خلالها أمور الأهالي وملف الطوائف. أنظر: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، 1971م، ص480-484.

(3) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص52، أحمد ابن أبي الضياف، إتخاف عهد الزمان، ج1، مصدر سابق، ص50-51.

(4) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص52.

ثالثا: أركان النظام السياسي الأوروبي

نظر الرحالة المغاربة إلى تركيب نظام الحكم في أوروبا فلاحظوا أنه يتكون من ثلاثة أركان لا تخلو أية دولة أوروبية منها، وهي الحاكم والمجالس النيابية والوزراء، هاته الأركان التي حددت القوانين والدساتير صلاحيات وحدود كل واحد منها، ولأن أغلب رحالتنا توجهوا إلى ثلاث دول رئيسية في أوروبا وهي إنجلترا وفرنسا وإيطاليا، فإننا سوف ندرس واقع النظام السياسي في هاته الدول مرتكزين على ما نقل رحالتنا من خلال قراءتهم لدساتير البلدان الأوروبية التي ارتحلوا إليها ومعاينتهم للواقع السياسي هناك.

1- الحاكم

كانت نظرة الرحالة المغاربة للحاكم الأوروبي خلال القرن التاسع عشر مختلفة عن تلك النظرة التي نظر بها رحالة القرنين السابقين، إذ غابت النظرة الدينية التي كثيرا ما وصف بها حكام أوروبا مثل "الطاغية" أو "الطاغية" لينادي ملوك وأباطرة ورؤساء أوروبا بألقابهم التي سموها بها في بلدانهم، وبعد أن كان شخص الحاكم هو محل اهتمامهم بدل النظام السياسي ككل؛ من اهتمام بأصله ونسبه، بل وحتى بصفاته الخلقية والخلقية، نجد رحالة القرن التاسع عشر ينظرون إلى سلطة الحاكم سواء كان ملكا أو رئيسا أو أيا كانت صفته، ينظرون إليه كجزء من منظومة حكم مركزين أكثر على الصلاحيات التي منحتها الدساتير الأوروبية له على اختلافها، لا يتجاوزها، إذ أن تغير الواقع السياسي الأوروبي بعد الثورة الفرنسية هو الذي أثر على هذه النظرة، واختلفت صفته في أوروبا باختلاف أنظمة الحكم وباختلاف قوانين كل دولة، سواء كان ملكا أو إمبراطورا أو رئيسا.

وإن كنا نلاحظ حفاظ بعض الرحالة من المغرب الأقصى على وجه الدقة على بعض خصائص رحالي القرن 17 و18م، من اهتمامهم بتقديم معلومات بخصوص الملوك الذين أرسلوا إليهم كسفراء ممثلين لبلدهم المغرب، ومن ذلك إسهاب السفير المغربي العمراوي في الحديث عن مُستَقْبَلِه الإمبراطور الفرنسي لويس نابليون وعائلته واصفا إياه: «...وهذا الملك عندهم داهية من دواهي الدنيا، قد اتفق رأي كبراء الدول وملوكها فيما بلغنا أنه أدهى ملوك النصرارى وأشهمهم وأنتجهم رأيا وأصوبهم سياسة وتدييرا وأكثرهم حزما في أموره وتوقيا، حتى أنهم يفضلونه على عمه نابليون الأول المشهور بالدهاء والشجاعة، ويقولون أن هذا مع ما هو عليه من الشجاعة والحزم، أمره مبني على الحيل والمكر وكتمان السر ويجب أن يبلغ مراده بالتدبير والحيلة من غير حرب، ويجب تأخير الحرب ما أمكنه...»، ليقدم بعدها تفاصيل وصوله إلى الحكم في فرنسا وما لاقاه في سبيل ذلك، وقد أفرد في ذلك السفير المغربي صفحات عديدة، واقفا عند سياسته الداخلية التي تميزت -حسب العمراوي- بالدهاء والحيلة تجاه معارضيه ومؤيديه بل وحتى مواطنيه، وطموحاته الخارجية الهادفة للهيمنة على أوروبا⁽¹⁾.

(1) إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 107-113.

أما بقية الرحالة وخصوصا التونسيين منهم، فكان اهتمامهم أكثر بالسلطات التي منحتها القوانين الأوروبية للحكام، وذلك سعيا منهم في التأكيد على أهمية ضبط الحاكم بقوانين تبين صلاحياته وتردعه على الانفراد بالحكم، أما الحاكم في بريطانيا كما يبين خير الدين ويرم فإنه وفق سلطاته التنفيذية التي أقرتها له القوانين يملك ولا يحكم، لأنه ينفذ القوانين بواسطة وزرائه، أما الملك فهو ينتقل في "تاج المملكة البريطانية العظمى بالوراثة" يرثه الأكبر فالأكبر من سلسلة الواحدة من العائلة على ترتيبهم في الولادة، بمعنى أن ينتقل من الأب إلى الابن البكر وهكذا، ويتقدم الذكر على الأنثى حتى لو كان صغيرا، وتبدو صلاحياته شرفية، مثل تنصيب الوزراء ومنح الرتب العسكرية والمدنية، وإرسال السفراء واستقبالهم، ويشهر الحرب ويعقد الصلح ويضرب السكة، إلا أن خير الدين لا يلبث أن يعود ليؤكد أن كل ذلك لا يتم إلا بواسطة وزرائه واستشارتهم⁽¹⁾.

في حين كان النظام السياسي في فرنسا متغيرا غير ثابت، بسبب التغيرات الكثيرة التي طرأت بين الفينة والأخرى في هذا البلد، حين زارها خير الدين والعمراوي زمن حكم لويس نابليون وجدا نظاما جمهوريا تتحدد صلاحيات الرئيس فيه والذي تسمى بوسم "الإمبراطور"، حيث ينتقل فيها الحكم في عائلة نابليون الثالث، في حين أن صلاحيات الرئيس فيها وفق ما حددها الدستور: «...الإمبراطور هو رئيس المملكة، ويده العقد والحل في القوة البحرية والبرية، يشهر الحرب، ويعقد شروط الصلح والمعاهدة والتجارة، ويسمي سائر الموظفين، ويعمل التراتيب اللازمة لإمضاء القوانين، وتصدر الأحكام باسمه...وله أن يوقف الحرية حال المحاصرة عن الوطن أو قسم من المملكة...»⁽²⁾، ولا تختلف هذا الصورة عن تلك التي رسمها بيرم الخامس والسنوسي عن الحاكم في ظل الحكم الجمهوري الفرنسي⁽³⁾.

بينما كان نظام الحكم في إيطاليا ملكيا وراثيا مقيدا بالقانون، ويشرح بيرم الخامس معنى الحكم الملكي المقيد: «...كونها ملكية، فلأن الرئاسة والتصرف هو بيد ملك وراثي؛ أعني أن الملك ينتقل من الأب إلى ابنه الأكبر في عائلة مخصصة، ومن هذا إلى ابنه الأكبر، وهكذا بقية العائلة الملكية»، أن للملك إدارة السياسة العامة داخلية منها وخارجية ورئاسة القوات الحربية برية كانت أو بحرية وعقد المعاهدات والحرب والصلح، ورئاسة الأحكام الشخصية وتنفيذها وينتخب الوزير الأول، إلا أن كل ذلك يتصرف فيه عن طريق الوزراء⁽⁴⁾.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، 300.

(2) المصدر نفسه، ص 210.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص99-100.

(4) المصدر نفسه، ص1814.

2- المجالس النيابية ومفهوم الحكم التشاركي

- اكتشاف الرحالة المغاربة للمؤسسات السياسية الأوروبية

أما الجهاز الثاني في التنظيم السياسي الأوروبي الذي وقف عنده رحالتنا المغاربة كثيرا؛ كان "المجالس النيابية" نظرا لغرابته وجدته على العقل السياسي الإسلامي عموما والمغاربي على وجه الخصوص، على الأقل من حيث الشكل والنمط والأهمية ودوره في تسيير الدولة، ففي بحثهم عن أسباب قوة أوروبا، اكتشف الرحالة المغاربة بعد زيارتهم لها أن ذلك يقوم على تنظيمات سياسية ممثلة أساسا في المجالس النيابية، وعليه فقد أجمع جل الرحالة على تبين طبيعة المجالس النيابية المعبرة حسبهم عن مبدأ الشورى والاشتراك في الحكم في أوروبا، واكتشفوا أن هذه المؤسسات هي التي قلصت من سلطة الحكم الفردي الاستبدادي، وأشركت العامة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في الحكم والمراقبة، مبيين الأعضاء المؤهلين للانطواء تحتها، وكذا كيفية الوصول إليها ومدققين في مهام كل مجلس وواجبات أعضائه ودورهم في تسيير الدولة وتمثلت أبرز هذه المجالس بالأساس في:

- **مجلس الأعيان:** واختلفت التسمية المعبرة عنها من قبل رحالتنا؛ فمن مجلس الأعيان؛ إلى المجلس الأعلى؛ أو القمرة الكبيرة، أو "السناتو"، ويتكون أعضاؤه في معظم الدول الأوروبية من أمراء العائلة الحاكمة ومن ينتخبهم الملك إذا كان نظام الحكم ملكيا، أو من الأهالي الذين يختارهم ويرقيهم الإمبراطور أو الرئيس في حال كان الحكم جمهوريا إضافة إلى عضوية عدد من رجال الدين (الكاردينال) وقادة الجيش (الماريшал والأميرال)، أما عن مهام هذا المجلس وواجبات أعضائه فوفقا لما نصت عليه الدساتير الأوروبية التي ترجم رحالتنا نصوصها تتمثل في: التعبير عن رأيهم في عمل الوزراء والموظفين ومراقبة أعمالهم، الفصل في الخلافات والمخاصمات التي تقع بين موظفي الحكومة، الاقتراع على الضرائب، كما تعمل على تهذيب القوانين وعرضها على النواب، فيما كانت مدة عضوية أعضاء هذا المجلس محددة بفترة عمرية تختلف من بلد إلى آخر⁽¹⁾.

- **مجلس النواب:** أو مجلس الوكلاء والقمرة الصغيرة، وأعضاؤه يتم انتخابهم من قبل أهالي وسكان البلد، هدفهم الدفاع أو "المناضلة" عن حقوق الرعية، ومراقبة تسيير الدولة وموظفيها، النظر في القوانين التي تعرض عليهم والتعبير عن موقفهم منها، النظر في ميزانية الدولة ومناقشة وترتيب كيفية توزيعها⁽²⁾.

(1) محمد السنوسي، الاستطلاعات الباريسية، مصدر سابق، ص 16، محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج 3، دار صادر، مصدر سابق، ص 39-41. محمد الصفار، مصدر سابق، ص 250.

(2) المصدر نفسه، ص 250، 263، محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج 3، دار صادر، مصدر سابق، ص 41. محمد السنوسي، الاستطلاعات الباريسية، مصدر سابق، ص 19، مذكرة اكتشاف الرحلات التونسية والجزائرية، ص 46-47.

فيما بدت هاته المؤسسات أكثر غرابة بالنسبة لرحالة المغرب الأقصى، لذا نجد العمراوي يصف هذه المجالس بقوله في موقف يبدو فيه السفير المغربي غير ملم بتفاصيل هذه المؤسسات: «ومن عوائدهم السياسية التي جرى عليها عملهم أن يجتمع في كل سنة بباريز ستمائة رجل من كل مدينة من مدنها عدد معين من التجار والفلاحين وأرباب العقار فيعقدون مجالس ثلاثة في ثلاثة أيام في دار معلومة لذلك...يحضر معهم الوزراء وسائر رؤساء الدولة يتذكرون فيما يصلح بلادهم...»⁽¹⁾.

ونظرا لحداثة هذه المرافق السياسية، اهتم الرحالة كذلك بوصف صفتها الهيكلية والشكلية، إذ نقلوا كل التفاصيل المتعلقة بالمجالس النيابية فبعد أن بينوا أهميتها في تسيير الدولة في أوروبا، انتقلوا إلى تصوير شكل هذه المجالس من الناحية الشكلية وكيفية تنظيمها وطريقة جلوس النواب داخلها وأسلوب حديثهم وما يستعملون أدوات وقد تشابهت الصورة في ذلك عند جل الرحالة المغاربة: «...وبناء موضع الاجتماع قبة على شكل فناء التياترو (أي المسرح)، في أرضها انحدار، وكلها مصففة بالكراسي، وفائدة الانحدار ليروا كلهم من يكون أمامهم، وعند انتهاء الكرسي مراقبة على شكل المنبر، إلا أن درجها من جانبها، فمن يريد التكلم يصعد تلك المراقبة حتى يكون مشرفا على الجالسين، ويتكلم بما يريد أن يتكلم به، وكل واحد من الجالسين أمامه الدواة والقلم والكاغد، فالمتكلم يتكلم وهذا يكتب حتى يذهب، ويخلو ويتأمل في ذلك الكلام، فيوافق عليه أو يرده بحجته، وإن ظهر لأحد من الجالسين أن يعارض ذاك المتكلم بمعارضة قريبة، قام من كرسيه وتكلم معه، وإن كانت المعارضة طويلة، فحتى تصل له نوبة التكلم، ويصعد ذلك المنبر ويقول ما بدا له، وخلف ذلك المتكلم ثلاثة من الناس، وظيفتهم إذا طال الكلام في مسألة، أن يمضوا الحكم فيها ويقطعوا الكلام، وذلك بقانون معلوم به يقع ترجيح أحد الجانبين، منها الحكم لأكثر العدد، فإذا قال عشرة كذا، وقال عشرون بخلافهم، فالحكم بما قاله العشرون، ولو زاد أحد الفريقين على الآخر شخص واحد، وهذا هو شكل القمرة الصغيرة...»⁽²⁾.

- موقف الرحالة المغاربة (المغرب) من المؤسسات السياسية الأوروبية

ومهما اختلفت المنطلقات التي نظر بها هؤلاء الرحالة لهذه التنظيمات، إلا أنهم جميعا عبروا بإعجاب كبير عن دورها في تسيير الدولة في أوروبا، فبين نظرة الرحالة التونسيين المتشبعين بفكرة الإصلاح والذين يرون أن تفوق الغرب الأوروبي تم بإنشاء تلك المؤسسات وأن لا سبيل للبلاد الإسلامية إذا أرادت النهوض والمواجهة من تأسيس شبيهاها.

(1) إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 116-117.

(2) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 250، بزم الخامس، ج 5، ص 1782-1783، السنوسي، الاستطلاعات الباريسية، مصدر سابق، ص 20.

وعليه فقد أشاد خير الدين بما وصلته الشعوب في أوروبا من وعيها بأهمية الحكم التشاركي "الشوري" ووعيتهم بمخاطر الحكم الفردي مهما بلغ الحاكم من حنكة وقوة وشجاعة وإخلاص وتفان في مصلحة البلاد والعباد، ويتضح ذلك في النقاش الذي دار بينه وبين أحد أعيان أوروبا: «أسهب فيها بمدح ملكهم، وذكر ما له من مزيد المعرفة بأصول السياسة حتى قال: إنه متقيد بطبعه وعقله من سلوك غير منهاج الصواب، فقلت له: كيف تشاحونه في الحرية والسياسة، وترمون مشاركته في الأمور الملكية، والحال أنكم تسلمون له من الكمالات ما لا يحتاج معه إلى المشاركة، فأجابني: من يضمن لنا بقاءه مستقيما واستقامة ذريته؟»⁽¹⁾.

ولفت خير الدين التونسي إلى أهمية وجود مثل هاته التنظيمات في الدولة الحديثة، فالرقابة التي يفرضها النواب على عمل الوزراء لا تكون اعتباطية هكذا فقط إنما تكون في صالح الدولة، لذا يقول: «وأما فائدة المملكة فشبوت سيرة المباشرين لمصالحها، فيهن عليها صرف أموالها ودماء أبنائها حيث كانت فيما يعود بالنفع عليه، وبمثل هذا يستقيم حال الدولة والمملكة، ولو كان الملك أسير الشهوات أو ضعيف الرأي كما تقدم»⁽²⁾، وبالتالي يشير خير الدين أن دولة المؤسسات لا تسقط حتى لو كان حاكمها ضعيفا.

بينما انتبه بيرم الخامس أثناء حضور لأحد جلسات مجلس النواب في فرنسا مشهدا عبر حقيقة عن أهمية هاته المجالس في الحكم والحفاظ على مكتسبات الدولة، وذلك لما عرض وزير المال على المجلس تخصيص مرتب لعائلة أحد القادة العسكريين الذي أفنى حياته في خدمة فرنسا، ليشتد الوطيس بين الفريقين بين مرحب بالاقترح ورافض له، لتنتهي المسألة بقبول الاقتراح بالأغلبية، ويخرج بيرم بنتيجة في حوار مع مرافقيه التونسيين قائلا: «فقلت لرفقائي: هل رأيتم ما وقع؟ قالوا: نعم، لكن ما قصدك، قلت: إن دخل دولة فرنسا نحو ثلاثة آلاف مليون، وقد اتفق وزراؤها على صرف خمسة آلاف فرنك على رجل بذل في خدمة دولته والدفاع عن أمته مجموع عمره، ومع ذلك لم تستطع الدولة أن تنفذ أمرها في مال الأمة إلا بعد مشورة أهل الحل والعقد وموافقتهم، وبمثل ذلك لا يُصرف المال إلا في وجهه لا على اختيار فرد ولا على مداراته»⁽³⁾.

ولم تخرج نظرة ابن أبي الضياف في حديثه عن البرلمان الفرنسي عن إعجاب بهذه المؤسسة؛ بل واعتبرها امتدادا للتعبير عن الثروة والعمران في فرنسا ويصف مجلس النواب: «...وهي بيت وكلاء المملكة، ولك أن تقول بيت عمران المملكة وثروتها ونجاحها...»⁽⁴⁾.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقدم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 31.

(2) المصدر نفسه، ص 130.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوني، مج 5، مصدر سابق، ص 1922-1923.

(4) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 4، مصدر سابق، ص 106.

بينما أعجب السنوسي بطريقة النقاشات بين أعضاء هذه المجالس لما تميزت به-حسبه-من نظام وأدب في البحث والأخذ والرد كل ذلك ابتغاء المصلحة العامة: «ومآل الأمر إلى الوقوع على أحسن ما يقع عليه الفكر الصائب بحسب الكثرة» ويضيف: «فرايت فيه من سكون المفاوضات وأناة الخطباء واحترام التخاطب ما تعظم به فوائد التدبير»⁽¹⁾.

وبعد اطلاع السنوسي عما جاء في الدستور الفرنسي حول مكانة وأهمية المجالس النيابية وكذا زيارته الميدانية لجلساتها، خرج الرحالة التونسي بنتيجة مفادها أن هذه التنظيمات صانت وحفظت وارتقت بالدول في أوروبا: «ولا نريد أن نخوض هنا في الكلام على فوائد هذه التنظيمات التي تصون الدولة والأمة إلى الغاية التي بلغت فرنسا في هذا الوقت فإن حسن النتيجة لا يحتاج نهاره إلى دليل عند المتفطن النبيل»⁽²⁾ فبهذه المؤسسات النيابية كانت حماية الدولة من ظلم الملوك واستبدادهم.

وإن كان اهتمام الرحالة الجزائريين بالواقع السياسي الأوروبي ضئيلا في نصوص رحلاتهم إلا أن منهم من لمس أهمية هذه المؤسسات في استجلاب حقوق المواطنين، لذا دعا أحمد ولد قادي الجزائريين-بعد اطلاعه على هذه المؤسسات السياسية في فرنسا وبيان أهميتها- للمشاركة في المجالس النيابية الفرنسية: «لكن لاستقام أمرهم وتصلح أحوالهم بينما يبلغون هذه المرتبة الخيرية كالإفرنج بانتخاب رجل من كل عمالة يكون منهم يسمى نائب عنهم في ديوان المشورة كنواب الفلاحين الأوروبيين، ليدفع عنهم المضار المتسلطة عليهم...ويتكلم في مصالحهم لأن كل أحد له خبرة بجنسه حتى إذا لم تبق منه فائدة يصرف بعد انتهاء المدة المعينة بالتي هي أحسن ويسمى غيره...»⁽³⁾.

ولأن الجزائري ابن قادي نظر لأهمية هذه المجالس النيابية كما هي موجودة في أوروبا وفرنسا، رأى أن ما جناه الأوروبيين من خلالها يمكن أن يجنيه الجزائريون وتستفيد منه الدولة الفرنسية في الجزائر بمثل ما استفادت به هناك في فرنسا، لذا راح يرغب الحكومة الفرنسية من خلال العريضة التي عرضها في خاتمة رحلته في قبول تواجد الجزائريين في مجالسها: «...والعرب يستريحون وتطمئن أنفسهم فيصرفون همهم إذ ذاك في إتقان أعمالهم وتسعد الرعية وتكثر الجباي ويسهل خلاصها، فعلى هذا المنوال يستحق للدولة الفرنسية مشاركة أمة العرب في الأمور كالأوروبيين، وتجعل لها طريقا للدخول في دواوين المشورة...»⁽⁴⁾.

(1) محمد السنوسي، الاستطلاعات الباريسية، مصدر سابق، ص 19.

(2) المصدر نفسه، ص 19.

(3) أحمد ولد قادي، مصدر سابق، ص 40-41.

(4) المصدر نفسه، ص 41.

كما فتحت رحلة ابن قادي إلى فرنسا عينيه ليرى الفارق بين ما تدعيه فرنسا وتروج له من عدل ومساواة وبين ما يعيشه الشعب الجزائري من ظلم وتهميش في ظل الإدارة الفرنسية، الأمر الذي جعله يطرح عدة تساؤلات عن غياب المساواة في التمثيل النيابي بين الجزائريين والمعمرين الفرنسيين: «... أفلا تكن مصالح العرب الذين عددهم يشتمل على نحو الثلاثة ملايين تستحق النظر أكثر من مصالح الأورباويين الذين عددهم يشتمل على نحو المائتي وعشرون ألفاً، وبأي وجه يحرم التماس النواب منهم للاستئثار معهم في المصالح العمومية إن كانوا في رفقة الأخوة والمساواة كما هو الزعم»⁽¹⁾.

أما الرحالة المغاربة (المغرب الأقصى) فإنهم وإن نقلوا نفس الصورة حول هذه "التنظيمات" والمؤسسات النيابية في أوروبا واكتشفوا دورها وأهميتها في تسيير الدولة، إلا أن منطلقاتهم حولها لا تتجاوز وصف الغريب الذي شاهدوه في المجال السياسي هناك، الأمر الذي يؤكد رد فعل الصفار وهو يصف كيفية المناقشات والفصل داخل هذه المجالس بين أعضاء البرلمان يقول "فكأنهما خصم للأخرى"⁽²⁾.

فالصورة التي قدمها الرحالة المغاربة حولها لا تخرج معظمها عن نطاق الوصف الخالي من أي رد فعل سواء بالإعجاب أو بالامتعاض أو أي رد فعل كان، ويبدو أن لطبيعة هذه الرحلات كونها سفارية تقدم كتقارير للحكومة المغربية قلصت من حرية مؤلفيها في إبداء رأي سياسي ربما يتعارض مع التوجه العام للسلطة الرسمية، فلو قارنا الظروف التاريخية التي انطلق منها كل الرحالة المغاربة وحتى العرب والمسلمين نجدها هي المحدد الرئيسي وراء الصدى بالموقف أو الإحجام عنه فيما يخص الموقف من التنظيمات السياسية الأوروبية التي شاهدوها، فنجد خلف كل رحلة أو مثقف نهضوي من هؤلاء رجل سياسة واختياراً سياسياً، فكان محمد علي (1769-1849م) وإبراهيم باشا (1789-1848م) وإصلاحتهما في مصر وراء الطهطاوي، والإصلاحات العثمانية لسنوات 1839، و1859م وكذا إصلاحات البايات في تونس وراء كل الرحالة التونسيين خير الدين وبيرم الخامس وابن أبي الضياف وحتى السنوسي⁽³⁾.

(1) المصدر نفسه، ص45.

(2) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 249-250.

(3) عبد الإله بلقزيز، إشكالية المرجع في الفكر العربي المعاصر، ط1، دار المنتخب، بيروت، 1992، ص23.

- في اقتباس النظم السياسية الأوروبية

ولما كان الرحالة التونسيين بتوجههم الإصلاحى فى القرن التاسع عشر باحثين عن أسباب تفوق الغرب الأوروبى وتمدنه، وضرورة اقتباس ما يفيد منه، إنما توجهوا مثل المفكرين والمصلحين العرب والمسلمين فى نظرتهم للأفكار الليبرالية الأوروبية، لذا سعوا إلى إيراد المرادف الإسلامى لها، وعملوا على إحياء مفاهيم بعينها من التراث الفكرى السياسى الإسلامى خاصة مفهوم الشورى الذى لعب دوراً مركزياً فى دعوتهم الإصلاحية السياسية⁽¹⁾.

وفى سعيه لاقتباس مثل هاته التنظيمات التى ارتقت بأوروبا، والتى تعمل على نص وتقليص سلطة الحاكم المطلق، يُذكر خير الدين أن المسلمين سبقوا الأوروبيين إلى ذلك باعتمادهم "نظام الشورى"، إذ قاس نظام الشورى الإسلامى، بنظام المجالس النيابية فى أوروبا القرن 19م، لذا كان ذكره لهذا النظام هو دعوة للمسلمين الذين استبد بهم الحكم الفردى المطلق باستعادة نظامهم الذى فقدوه بينما اكتسبته أوروبا.

ولسعيه كذلك لإقناع معارضيه فى تونس بأهمية مثل هاته التنظيمات، يورد خير الدين مجموعة من المأثورات السياسية الإسلامية التى تحض على مبدأ الشورى، حتى أن الله عزّ وجل- يقول خير الدين- أمر رسوله الكريم بالشورى رغم أنه معزز بالوحي، ومنها ما كان لعلماء الأمة فذكر بقول ابن العربي: «المشاورة أصل الدين، وسنة الله فى العالمين، وهى حق على الخليفة من الرسول إلى أقل الخلق»، ومن كلام علي رضي الله عنه: «لا صواب مع ترك المشاورة»، وما ذكره الغزالي فى كتابه "إحياء علوم الدين" أن الخلفاء وملوك الإسلام يحبون الرد عليهم ولو كانوا على المنابر، فذكر قول عمر بن الخطاب من رأى منكم فى أعوجاجا فليقومه⁽²⁾.

وحذا السنوسى حذوه بلجوه للتراث السياسى العربى والإسلامى لتقريب الصورة لقارئى رحلته وترغيبهم فى انتهاز مبدأ الشورى كأساس للحكم، وكان أبرز مثال لذلك من القرآن الكريم: «ولهذا قالت ملكة سبأ لملكها: "ما كنت قاطعاً أمراً حتى تشهدون" كما جاء ذلك فى القرآن اختياراً منها لنص ملكها بالشورى»، كما كانت دار الندوى عند قریش مثلاً آخر عن الشورى، أما فى عهد الإسلام فهناك نماذج عديدة أرست ملامح حكم شورى، مثل قوله تعالى "وشاورهم فى الأمر"، كما كان حكم عمر ابن الخطاب يعبر عن مبادئ الحكم الشورى لذا قال: «من رأى منكم أعوجاجاً فليقومه»⁽³⁾، وغيرها من الأدلة التاريخية من الأقوال والمآثر الإسلامية فى الشورى.

ووفق هذه النظرة فإن "النظام الديمقراطى" فى أوروبا يقابله "الشورى" عند المسلمين، ولما كان النظام الديمقراطى لا يتم فى أوروبا إلا بوجود مجالس منتخبة من الأهالي والأعيان، فهى فى الإسلام ممثلة فى "أهل الحل والعقد" حتى وإن لم يكونوا منتخبين.

(1) علي اومليل، الإصلاحية العربية والدولة الوطنية، مرجع سابق، ص 23.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 19-20.

(3) محمد السنوسى، الاستطلاعات الباريسية، مصدر سابق، ص 13-14.

فرأى خير الدين أن أعضاء المجالس الأوروبية (النواب، الأعيان) يقابله في البلاد الإسلامية "العلماء" "المغبرون للمنكر": «تتقيهم الملوك كما تتقي ملوك أوروبا المجالس وآراء العامة الناشئة عنها وعن حرية المطابع»، ولا فرق بين هؤلاء العلماء في الدول الإسلامية ونظرائهم من نواب المجالس الأوروبية ما دام: «مقصود الفريقين واحد: وهو الاحتساب على الدولة لتكون سيرتها مستقيمة وإن اختلفت الطرق الموصلة إلى ذلك»⁽¹⁾، فهم حسب خير الدين الوظيفة التي يقومون بها: «وذلك أن تغيير المنكر في شريعتنا من فروض الكفاية، وفرض الكفاية إذا قام به البعض سقط الطلب به على الباقيين، وإن تعينت للقيام به جماعة صار فرض عين عليهم بالخصوص»⁽²⁾.

ويخاطب خير الدين الحكام المسلمين مُرَغِباً إياهم للاستعانة بأهل "الحل والعقد" أو ما يقابله من النظم الأوروبية الحديثة "المجالس النيابية" في تسيير الممالك يقول: «ولا يُقال: إن مشاركة أهل الحل والعقد للأمراء في كليات السياسة تضيق لسعة نشر الإمام وتصرفه العام...»⁽³⁾، وأن: «اجتماع الآراء إلى مواقع الصواب أقرب»⁽⁴⁾، ويخرج بنتيجة أن الشورى على الوجه المذكور ليس فيها تضيق على الإمام أو السلطان⁽⁵⁾، وأنه لا مانع من التشريك على الوجه المذكور⁽⁶⁾.

وهكذا يشير الرحالة التونسيين أن الأمة الإسلامية لا تصلح سياسيا إلا بنظام الشورى الذي يقيد الحاكم ويشرك العامة في حكم البلاد، وذلك لا يتم في القرن التاسع عشر إلا عبر اقتباس النظم السياسية الأوروبية ممثلة في المجالس النيابية، وأن سلوك مسلك الأوروبيين في الإصلاح، والأخذ بالتنظيمات واستعارة مصادر قوتها ليس من باب البدعة، بل هو حكم شرعي واجب على المسلمين ولا يتعارض مع شريعتهم ويمكن اعتباره من قبيل "المصالح المرسلّة والمستجدّة"⁽⁷⁾.

فهاته المؤسسات السياسية حسب خير الدين من مقتضيات أحوال الوقت التي لا يجب الاعتراض عليها، ولا يخفى أن البقاء على هذه الحالة ممّا يعظم خطره، وتخشى عواقبه، لذا نجد يستعمل تارة أسلوب التهيب للدعوة لاقتباس هاته النظم الأوروبية قائلا: «سمعت من بعض أعيان أوروبا ما معناه: «إنّ التمدّن الأوروبي تدقّق سيله في الأرض، فلا يعارضه شيء إلا استأصلته قوّة تيّاره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار إلا إذا حذوه و جروا مجراه في التنظيمات الدنيوية، فيمكن نجاتهم من الغرق»

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 21.

(2) المصدر نفسه، ص 117.

(3) المصدر نفسه، ص 25.

(4) المصدر نفسه، ص 26.

(5) المصدر نفسه، ص 27.

(6) المصدر نفسه، ص 28.

(7) معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص 45.

وتارة أخرى أسلوب الترغيب: «وهذا التمثيل المحزن لمحَبِّ الوطن ممَّا يصدِّقه العيان و التجربة، فإنَّ المجاورة لها من التأثير بالطبع ما يشتدُّ بكثرة المخالطة الناشئة عن كثرة نتائج الصناعات، بحيث تلجئ لإخراجها و الانتفاع بأثمانها و هو سبب ثروتهم كما تقدّم»⁽¹⁾.

وعليه فالرحالة التونسيون خلال القرن التاسع عشر كغيرهم من المفكرين والمصلحين المسلمين خلال هذه الفترة نظروا للمصطلح السياسي الحديث الذي وقفوا عليه في أوروبا بواسطة مفاهيم المأثور، فكان عليهم أن يجدوا للمؤسسات والمصطلحات السياسية مرادفا إسلاميا وأن يؤولوها، لكنهم لم يجدوا سوى مفاهيم لم تتخلص دلالاتها الدينية ومن هنا كان قلق العبارة في الترجمة والتأويل، ومن هنا كان سوء التفاهم بين هذه المرادفات ودلالاتها⁽²⁾، كما سعى الرحالة المغاربة إلى رسم صورة "الآخر" الأوروبي وتنظيماته السياسية من خلال العودة إلى المدونة السياسية الإسلامية التي سوف تشكل وسيطا من نوع جديد بين "الفكر الأوروبي" ومتلقي كتابتهم⁽³⁾.

وإن أعجب الرحالة المغاربة بالدور الذي تلعبه المجالس النيابية في الدولة الحديثة، إلا أن بيرم الخامس خرج عن دائرة الانبهار إلى النقد، نقد موضوعي لا لأهميتها وإشراكها للعامة في أمور الحكم، ولكن لطريقة انتخاب أعضاء هذه المجالس، فقد انتبه بيرم إلى ما أغفله غيره من الرحالة وتنبه إلى مواطن الخلل في النظام النيابي الفرنسي، وذلك بسبب ما لاحظته من دور الرشوة في احتلال الرجال غير الأكفاء للمناصب واعتبر ذلك من المفاسد: «ومن المفاسد الموجودة أيضا عندهم في انتخاب أعضاء مجلس النواب أو غيرهم ممن تنتخبه الأهالي أن أفرادا ممن يعدون أنفسهم للانتخاب يعقدون مواكب ويدعون إليها الأهالي في أماكن فسيحة ويلقون عليهم خطبا يبينون فيها أفكارهم ومقاصدهم في سياسة المملكة وجدارتهم للقيام بالمناضلة عنها وثقتهم بالسامعين لأن يكونوا من حزبهم، حتى يقع انتخابهم على الخطيب ومع ذلك يعطون الرشا لمن له صوت في الانتخاب لكي يحصلوا بذلك على أكثرية المنتخبين، فكثيرا ما ينجح سعيهم ويحصلون على الوظيفة بذلك الطريق بعد أن تقع غوغاء وتشاتم وسباب بين أحزاب المنتخبين، فيدخل بسبب ذلك في الوظيفة من لا يرتضيه الأهالي حقيقة أو من ليس جديرا بها لكثرة أغراضه وغير ذلك» ورغم توفير السلطات الفرنسية أجهزة خاصة بمراقبة الانتخابات إلا أنها لم تستطع منع هذا الفساد السياسي، ليختم بيرم بحمد الله على نظافة الشريعة الإسلامية من مثل هذه ال مفاسد⁽⁴⁾.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 74.

(2) علي اومليل، الإصلاحية العربية والدولة الوطنية، مرجع سابق، ص 26.

(3) عبد الإله بلقزيز، مرجع سابق، ص 20.

(4) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج 5، مصدر سابق، ص 111.

3-الوزراء والموظفون ودورهم في تسيير الدولة:

ووقف الرحالة المغاربة عند مكانة وأهمية الوزراء في تسيير الدولة والحكومة في أوروبا، لذا نجد أن الجمل الموحية بذلك قد تكررت كثيرا في نصوصهم، وكما كانت نظرتهم للمؤسسات النيابية في أوروبا، كانت نظرة الرحالة المغاربة للموظفين الحكوميين في تلك البلدان مختلفة كذلك، هذا الاختلاف كان في الصورة لكنها تصب في هدف واحد وهو غربة هذه الصورة عن المجتمعات التي أتوا منها، وعليه فقد أكد خير الدين أكد فيه أنه من الأشياء الثابتة للسلطة الحكيمة «... أن يتصرف رئيس الربوبليك بواسطة الوزراء...»⁽¹⁾.

وهو ما أوجزه الصفار لما تطرق إلى استخدام الوزراء في النظام الفرنسي: «... إذ من جملة شرائعهم وقوانينهم أن الملك لا يتعرض له، وأن الوزراء هم الكفلاء»⁽²⁾، وحاول الصفار مجتهدا شرح الأسباب الداعية إلى تكفل الوزراء بتسيير شؤون الدولة: «وبيان ذلك أنهم رأوا أن السلطان وحده لا يستقل بأمور الرعية كلها، فأراحوه من تكلف المشقة في ذلك، واتخذوا عدة أناس سموهم وزراء وكلفوا كل واحد بأمر خاص، وجعلوا نظره قاصرا عليه»⁽³⁾، إذ تبدو نبرة الإعجاب بادية على الرحالة المغربي لكن سياقات الرحلة والظروف السياسية في المغرب ما كانا لأن يتيحا له التعبير عن هذه الإعجاب صراحة.

ورغم أن الرحالة الجزائريين توجهوا إلى فرنسا بتوجيه من الإدارة الفرنسية نفسها، وكتبوا نصوص رحلاتهم تحت أنظارها ورقابتها، إلا أنهم سجلوا رأيا مشابها حول أهمية مشاركة الوزراء في تسيير الدولة، فربط بن علي الشريف: "صلاح الملك أيضا بصلاح الوزراء والأعوان إن صلحوا صلح، وإن فسدوا فسد..."⁽⁴⁾، لذا فإن ما وصلت إليه فرنسا من رقي وتمدن ارتبط ارتباطا وثيقا بصلاح وزرائها وموظفي الدولة هناك.

ولاحظ خير الدين أن إدارة المملكة في فرنسا تكون: «تحت تصرف الوزراء كل منهم فيما وكل إلى أمانته عن أمر الإمبراطور لأنهم مسؤولون عن تصرفاتهم ويجتمعون للنظر في المصالح تحت رئاسته أو رئاسة من ينوبه...»⁽⁵⁾ إذ أن وزراءها مسؤولون للملك، وهو مسؤول للمجلس⁽⁶⁾.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 82.

(2) رحلة الصفار، مصدر سابق، ص 255-256.

(3) المصدر نفسه، ص 253-254.

(4) محمد السعيد بن علي الشريف، مصدر سابق، ص 57.

(5) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 219.

(6) المصدر نفسه، ص 129، ص 219.

وأورد الكردودي مثل ذلك في رحلته إلى إسبانيا، وسجل ملاحظة غاية في الأهمية حول نظام الحكم هناك، ويبيّن أن الملك عندهم يملك ولا يحكم، بل الأمر كله في تسيير أمور الدولة يرجع إلى الوزراء، وما يقوم به الملك الإمضاء والمصادقة على عمل هؤلاء الوزراء لا غير⁽¹⁾، كما لاحظ أيضا أنه بمجرد تغيير الملك أو وفاته، فإن "الطاقم الحكومي من الوزراء يتغير تماما، وذلك حين مصادفة رحلته وفاة الملك الإسباني مثل ما حدث في إسبانيا بعد وفاة ملكها⁽²⁾."

وأشار كل من الصفار والعمراوي، في حديثهما عن النظام الساسي الفرنسي إلى مسؤولية الوزراء في تسيير الدولة الوزراء ونقلوا صورة تركيب الوزارة وكثرة الوزراء بفرنسا: «وعدد وزرائه تسعة» كل في مجاله الخاص به⁽³⁾، لكل منهم وظيفة خاصة به لا يقر بها إلا هو: «... ولا يدخل أحد في أمرها غيره، ولا يصل للملك أمر منها إلا بواسطته إن كان حاضرا أو خليفته إن كان غائبا»⁽⁴⁾،

وذكر بيرم الخامس أن كل وزير في أوروبا له حدود في إدارته يكون هو المسؤول عنها، وهناك مسائل تجتمع فيها المسؤولية على الجميع⁽⁵⁾، فكل وزير مطالب بخدمة الدولة، وهو مسؤول عن أعماله بحكم اشتراكه مع الملك في الإمضاء، هذا الإمضاء هو الذي يدل على قانونية الأحكام الصادرة كما يبينه خير الدين: «أن العادة في الممالك الأوروبية المؤسسة على القوانين هو وجوب إمضاء الوزير مع الملك في جميع الأمور الرسمية سواء تعلقت بالسياسة الخارجية أو الداخلية... ليدل إمضاء الوزير على عمله بما المقتضي لموافقتها القانون خصوصا فيما تكون المسؤولية فيه على الوزراء»⁽⁶⁾.

ويبين خير الدين أن الوزراء في النظام السياسي الأوروبي رغم الصلاحيات التي يتمتعون بها؛ فهم لا ينفردون في تسيير وزاراتهم وتصريفها؛ بل كان لكل وزارة مجلس مركب من أعضاء ورئيس ينتخبهم الإمبراطور من الأعيان للأمل وإعطاء الرأي للوزير في الأمور المهمة، إذ أن لكل وزارة عدد معتبر من المستشارين⁽⁷⁾.

(1) أحمد الكردودي، مصدر سابق، ص 43-44.

(2) المصدر نفسه، ص 44.

(3) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 260، إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 115. خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 303.

(4) إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 115.

5 بيرم الخامس، ج 3، ص 1815.

(6) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 231.

(7) المصدر نفسه، ص 231.

هذا وشدت طريقة حياة الوزير أثناء وبعد تأدية مهامه كوزير للدولة الفرنسية انتباه العمرأوي: «ولكل واحد منهم خدام وكتبة ووكلاء ومترجمون وكساوي تلك الخدمة، ومثوثتهم ورواتبهم على المخزن معينة معلومة وكل واحد من هؤلاء الوزراء له دار معلومة في باريز كبيرة...وقد دخلت على لبعض دورهم فرأيت ما لا يصدق به سامع من كبرها وكثرة بيوتها وما فيها من الأثاث...مما لا يكون إلا في بيوت ملوكهم، وهذه الدور معدة لكل من ولي مرتبة من تلك المراتب معينة لوزير تلك الخطوة...فإن عزل أو مات خرج منها ودخل المتولي مكانه ويرجع هو إلى داره الأصلية...ولا يسكن وزير البحر في دار وزير الحرب مثلاً...»، وهو ما ذكره الصفار قبله: «ومن قوانينهم أن وزراءهم وسائر حكامهم يعطونهم ديارا يسكنون فيها، وهي للبيك بجميع أثاثها فيوم يتولى دخلها برأسه وإذا عزل خرج كما دخل...»⁽¹⁾.

ويبدو أن العمرأوي قد استقصى عن كل ما يخص شأن الوزير حتى رواتبهم: «...لكل واحد منهم خراج معلوم سنوي يقبضه يقوم به أتم قيام، وقد حسبنا مرتب وزير الأمور الخارجية فوجدناه يرنو به في كل يوم خمسين ريالاً ليس فيها رواتب الخدمة ولا غيرهم، ويزاد له عليها ما مقداره نحو الأربعين ريالاً في اليوم بقصد صائر الأضياف الذين على يده، والوزراء مثله أو أقل بيسير ما عدى وزير الحرب فله زيادة يسيرة عليهم، وإذا عزل أحد منهم يبقى له نصف راتبه، وكذلك إن مات يبقى لأولاده نصف راتبه...»⁽²⁾، وعن أجرة الوزراء في بريطانيا يقول خير الدين: «ثم إن جراية أعضاء الوزارة تختلف باختلاف خططهم من خمسين ألف فرك إلى مائتين وخمسين ألفاً في السنة»⁽³⁾.

وفي صورة يبدو العمرأوي أنه استحضر فيها الواقع السياسي المغربي، لذا شد انتباهه كون هؤلاء الوزراء الفرنسيين لا يقدرون على قبول الرشوة: «... نعم لا يقدر أحد منهم أن يقبل رشوة أو هدية أو يطمع في أحد ولو فيما يساوي درهماً» وذلك لوجود قوانين رادعة لذلك: «وقد عينوا حكماً معلوماً يُجري على من يقبل رشوة أو هدية منهم»⁽⁴⁾.

ورغم أن خير الدين يقر بتفاوت قوة تأثير الوزراء في الحكم من دولة إلى أخرى، بحسب الأصول السياسية لكل دولة، ورغم هذا التفاوت فهو يجزم جزماً قاطعاً بأن عدم تشريك الملك في ملكه، بتعيين وزراء للمملكة يتكفلون بتسيير شؤونها المختلفة، لا يمكن هذه المملكة من تحقيق الكسب والخير واستقامة الأحوال، لأن: «جعل المسؤولية في إدارة المملكة على الوزراء المباشرين لها...أجلب لخيرها وأحفظ له» لاسيما، في هذا الزمان «الذي قل فيه العرفان وكثر الطغيان»⁽⁵⁾، كما أن

(1) محمد الصفار، مصدر سابق، 262.

(2) إدريس العمرأوي، مصدر سابق، ص 115.

(3) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 303.

(4) إدريس العمرأوي، مصدر سابق، ص 116.

(5) عبد القادر دوحه، صورة أوروبا، مصدر سابق، ص 126.

إعجاب خير الدين بالدور الذي يلعبه الوزراء في تسيير الدولة جعله يؤكد أن ذلك ما كان ليتم إلا بوجود الدستور والقانون الضابط والمقيد لصلاحيات كل طرف في الدولة

وإن كان الرحالة الجزائريون في إعجابهم بمكانة ودور الوزراء في تسيير الدولة منطلقه دائما تحميل صورة فرنسا من خلال الإشادة بوزرائها في إطار مهمة رحلاتهم التي لا تخرج أهدافها عن ذلك، أما أصحاب الرحلات المغربية رغم اطلاعهم على مشاركة الوزراء وأعوانهم في تسيير في الدول الأوروبية التي زاروها، إلا أنهم أحجموا على عدم إعطاء موقف منها، نظرا لظرفية رحلاتهم ومكانتهم في السلطة وطبيعة النظام السياسي المغربي، وفي ذلك يشير ابن أبي الضياف أن الحكم الفردي المطلق قد زال في كثير من بلاد الإسلام (يقصد إصلاحات وتحديث الدولة العثمانية وتونس ومصر) و: «لم يبق من أثره إلا في السلطنة الشريفة الحسنية العلوية بفاس ومراكش، حيث يحكم السلطان في أحوال السياسة والجباية والجنات باجتهاده وبما يقتضيه نظره، وحيث يسلم أهل المغرب بما فيهم من الخير والسذاجة الإسلامية بالكرامة للسلطان، وهذا أعظم الأسباب في تأخرهم عن هذا التمدن الوقتي»⁽¹⁾.

في حين أن الرحالة التونسيين في إطار توجههم الإصلاحية الرامي لاقتباس النظم السياسية الأوروبية إلى البلاد الإسلامية لذا أكدوا إعجابهم بمكانة الوزراء في تسيير الدولة على الشكل الذي رآوه في أوروبا، وراحوا باحثين في التراث السياسي الإسلامي ما يقاربها، وتأكيد عدم مخالفتها للشرع الإسلامي أعطى خير الدين وابن أبي الضياف أدلة من القرآن في قوله تعالى: «واجعل لي وزيرا من أهلي أخي هارون أشدد به أزري، وأشركه في أمري» ومن مآثر الصحابة ما عمل به عمر من ترك أمر الحكم بعده شورى في ستة من الصحابة، وغيرها مما استدل به خير الدين في ترغيبه للأخذ بالنموذج الأوروبي في الحكم، والأدلة العقلية لأن: «مالك البستان الكبير مثلا لا يستغني في إقامته وتدير شجره بأعوان، يكون له مزيد معرفة بأحوال الشجر وما يصلحه أو يفسده...»⁽²⁾.

ويضيف خير الدين: «هذا وإنّا لا ننكر إمكان أن يوجد في الملوك من يحسن تصرفه في المملكة بدون مشورة أهل الحل والعقد، ويحمله حب الإنصاف على الاستعانة بالوزير العارف النصح فيما يشكل عليه من المصالح، لكن لكون ذلك من النادر الذي لا يعتبر، لاستناده إلى أوصاف قلما تجتمع في إنسان، وعلى فرض اجتماعها ودوامها له، تزول بزواله» لذا: «وجب علينا أن نجزم بأن مشاركة أهل الحل والعقد للملوك من كليات السياسة، مع جعل المسؤولية في إدارة المملكة على الوزراء المباشرين لها، بمقتضى قوانين مضبوطة، مراعى فيها حال المملكة، اجلب لخيرها واحفظ له»⁽³⁾.

(1) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 1، مصدر سابق، ص 32-33.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 27-28.

(3) المصدر نفسه، ص 22.

4- في العلاقة بين أركان النظام السياسي في أوروبا

هذا ولاحظ الرحالون المغاربة أن المؤسسات السياسية في أوروبا وإن تشابهت وتمثلت من حيث الأصل فإنها تختلف في العلاقة التي تربط فيما بينها، ورغم أن أصحاب الرحلات لم يعلنوا عن ذلك أو يصطلحوا عليه، فإن توصيفاتهم للعلاقة التي تربط كل من الحاكم والمجالس والوزراء ترسم صورة تشير لثلاث أشكال من النظم السياسية: نظام رئاسي، نظام برلماني، نظام شبه رئاسي، وفق التوصيف السياسي المعاصر، ونقول أننا لا نسعى في هذه الجزئية من البحث الوقوف على الضوابط القانونية وتشريح كل دستور دولة إنما نقول أننا نسعى لتجميع وتركيب مجموعة من الحثيات حتى نشكل صورة أدق عن النظم السياسية الأوروبية على اختلافها، ومثلما أشرنا إليه سابقا فإننا سوف نأخذ حكومات ثلاث دول كنموذج لدراستنا وهي الدول التي كانت الوجهة الأبرز للرحالين المغاربة في القرن 19م وهي فرنسا وبريطانيا وإيطاليا.

النظام الرئاسي: يُعرف النظام الرئاسي أنه نظام يقوم على الفصل التام بين السلطتين التنفيذية والتشريعية، وفي القرن التاسع عشر يظهر النموذج الفرنسي على عهد حكم نابليون الثالث كأبرز نموذج انتبه إليه الرحالة المغاربة يمثل هذا الشكل من النظم السياسية، إذ لاحظ خير الدين أن إدارة المملكة في فرنسا وفق ما بينه دستور عام 1852م، تكون السلطة التنفيذية فيها بيد رئيس منتخب يمثلها ويساعده وزراء يختارهم الحاكم نفسه: «تحت تصرف الوزراء، كل منهم فيما وكل إلى أمانته عن أمر الإمبراطور لأنهم مسؤولون عن تصرفاتهم ويجتمعون للنظر في المصالح تحت رئاسته أو رئاسة من ينوبه...»⁽¹⁾ إذ أن وزراءها مسؤولون للملك، وهو مسؤول للمجلس مباشرة أو بواسطة من ينوب عنه (رئيس الوزراء)⁽²⁾، فيما تكتفي السلطة التشريعية ممثلة في مجلسي الأعيان والنواب في تشريع القوانين وضبطها ومناقشتها⁽³⁾، وفسر الدستور الفرنسي الذي ترجم خير الدين مواءم لجوء الفرنسيين للفصل بين السلطات جاء فيه: «وكون شرطة التشريع منفصلة عن سلطة التنفيذ، بمعنى أن لا يكون مخترع القانون هو منفذه»⁽⁴⁾.

ورغم أن إدراك السفير المغربي العمراوي للعلاقات الضابطة للنظام السياسي الفرنسي لم تكن على مستوى إدراك وفهم خير الدين التونسي لها، إلا أنه أشار إلى ما أشار إليه الرحالة التونسي بخصوص طبيعة العلاقة التي ربطت بين الملك الفرنسي نابليون الثالث مع وزرائه مشيرا إلى أن أعمال الحكومة تعرض على الرئيس⁽⁵⁾

(1) المصدر نفسه، ص 219.

(2) المصدر نفسه، ص 129، ص 219.

(3) المصدر نفسه، ص 209-210.

(4) المصدر نفسه، ص 218.

(5) إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 116.

إلا أن العماروي رأى وفق نظريته أن ذلك تجسيد آخر للاستبداد بالرأي والحكم لذا جاء قوله: «... فيجمع الوزراء وأركان الديوان ويستمد من رأيهم ويُظهر لهم أنه يستشير وهو يُشير، ولم يخرق لهم قانونا ولا خالف لهم ديوانا على عادتهم القديمة، وإنما احتال حتى جعل الوزراء والرؤساء وأركان الدولة من بطانته وخاصته وأهل وداده...»⁽¹⁾.

النظام البرلماني: أما النظام الثاني الذي ظهر في نصوص الرحالة المغاربة هو النظام البرلماني، ويبدو أن تأثر الأوروبيين بالأفكار السياسية الداعية لتقليص دور الحاكم في نظام الحكم قد جعلت جل الدول الأوروبية "القانونية" كما يسميها خير الدين تتوجه لهذا النظام، وربما كانت فرنسا استثناء على عهد نابليون الثالث إذ جعلت السلطة التنفيذية بيد الرئيس، وتعتبر إنجلترا حسب الصورة التي حملتها نصوص الرحالة التونسيين أبرز مثال عن تطبيق النظام البرلماني، إذ لاحظ بيرم الخامس وخير الدين أنه وإن كانت السلطة التنفيذية مشتركة فيها بين الملك والبرلمان: «فإنها متوقفة على إجازة الوزراء من حيث أنهم مطالبون بتصرفات الدولة عند البرلمان ولذلك لا ييدي الملك أمرا حتى يستشير وزراءه»⁽²⁾.

في حين أن تولي الوزراء لمناصبهم في هذا النظام يتم عن طريق الانتخاب بين الأحزاب السياسية (الحزب الليبرالي وحزب المحافظين في بريطانيا) والحزب صاحب الأغلبية في البرلمان هو من تكون له الوزارة الأولى والوزير الأول هو من يختار طاقمه الوزاري ويعرض ذلك على الملك والمجالس النيابية.

وفي هذا النظام تكون أعمال الوزراء وتصرفاتهم تحت احتساب المجلسين (مجلس الأعيان، ومجلس النواب)، كما يمكن لذين المجلسين اللذين لهما صلاحيات إسقاط الوزير الأول ووزرائه إذا ظهر عدم رضاهما عن عملهم حيث يمكن أن تقوم أغلبية أعضاء البرلمان بسحب الثقة منه وبالتالي من حكومته كلها «وإذا أسقطت الوزارة أمام البرلمان لأجل نازلة سياسية ... فإن الوزير يتأخر عن الخدمة، واستعفاؤه يستلزم استعفاء رفاقه»⁽³⁾.

وأعجب خير الدين بهذه العلاقة بين الملك والوزراء ورقابة المجالس النيابية لعمل الوزراء في بريطانيا، هذه العلاقة التي تضبطها قوانين تنظمها وتقيدها، مبينا ما جنته الدول الأوروبية من هذه التنظيمات: «قلت: فبهذه القوانين حصلت للأمم الإنجليزية من المعارف والعمران وأنواع التمدن ما صارت به جزيرتهم كأحسن البساتين بعد أن كانت صخرة في البحر لا عمران بها، وما استولوا به على خمس سكان الكرة كما هو مشاهد بالعيان لمن له اطلاع على الجغرافيا»⁽⁴⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 111.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقدم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 299.

(3) المصدر نفسه، ص 302-303.

(4) المصدر نفسه، ص 302.

نظام شبه رئاسي: وفي إيطاليا ساد ما يمكن أن نطلق عليه اليوم "نظام شبه رئاسي" إذ لاحظ خير الدين وبيرم الخامس أن حقوق الملك وصلاحياته تبدو أوسع مما هو عليه في إنجلترا، وأن صلاحيات الملك في هذه المملكة تتمثل على إجازة الوزراء، فهو يتصرف في الملكة بواسطة الوزراء، حيث ينتخب الملك الوزير الأول وهذا الأخير يختار بقية الوزراء وهو الذي يوظفهم في مناصبهم، وأعمال هؤلاء الوزراء تعرض على الملك أولاً فإن لم يرها يعرضها على المجالس، وذلك لما عليهم من المسؤولية للمجلسين عن تصرفات الدولة، حتى أنه لا يسعهم البقاء في «...الوزارة إذا لم يكن رأي الغالب من المجلسين موافقاً لسياستهم» فيستعفون من مهامهم ويعين الملك غيرهم⁽¹⁾، ويضيف: «إدارة هذه المملكة تحت نظارة تسعة وزراء يتصرفون عن أمر الملك بمقتضى القانون، ويسألون في تصرفاتهم، ويجتمعون للنظر في المصالح تحت رئاسة الملك أو نائبه، ويسمى اجتماعهم مجلس الوزراء⁽²⁾ في حين أشار بيرم الخامس أن على الوزراء الدفاع عن أعمالهم داخل مجلسي الأعيان والنواب⁽³⁾».

وعليه فقد اكتشف الرحالة المغاربة أن الدولة الحديثة في أوروبا لم تظهر كمجموعة أفراد ترتبط بعلاقات شخصية مع الحاكم الذي يجسد السلطة، بل كنسق من المؤسسات منتظمة تنظيماً قانونياً يجعلها مجردة متعالية عن الأشخاص.

(1) المصدر نفسه، ص492، محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص1814-1815.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص497.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص1815.

رابعاً: القيم السياسية الأوروبية في أعين الرحالة المغاربة

من جانب آخر شددت القيم السياسية الأوروبية انتباه رحالتنا وراحوا يكتبون عنها معرفين بها واقفين عند سلبياتها وإيجابياتها، مبيينين موقفهم منها وتمثلاتهم لها، واختلفت مصادر استخلاص هذه الصورة بين هؤلاء الرحالة، فبينما نجد خير الدين ويبرم الخامس يعبرون عن هذه الحريات انطلاقاً من اطلاعهم على الأفكار والدساتير والقوانين الأوروبية، نجد ابن أبي الضياف ينقل صوراً لاحظها من خلال مشاهداته في فرنسا جسدت حسبه معاني الحرية هناك، أما الرحالة الجزائريين فيبدو أن معرفتهم بهذه القيم كانت تحت تأثير الإدارة الفرنسية.

وإن تعددت هذه القيم واختلفت مجالاتها- وإن كان أصلها ومنطلقها سياسي- فإن أكثر ما شد انتباه الرحالة المغاربة هما قيمتا الحرية والعدل أو العدالة، خاصة وأنهم رأوا فيهما أسباب التقدم والثروة والقوة، وعليه فقد اعتبر خير الدين في مقدمة كتابه "أقوم المسالك" وهو يوجز أسباب نهضة الأمم الأوروبية وتقدمها، اعتبر أن الحرية والعدل السياسي هما دعائمي أي تقدم مرتجى في جميع المجالات وأن ما شاهده في أوروبا يثبت ذلك⁽¹⁾.

كما يبدو أن الرحالة التونسيين تأثروا فعلاً بأفكار فلسفة الأنوار في أوروبا، وبفكر الثورة الفرنسية وما حملته من قيم، إذ اعتبر خير الدين الثورة الفرنسية منطلق الحريات في أوروبا، إذ أخرجت هذه الثورة الأوروبيين: «من رقة العبودية إلى تمام الحرية»، فمن هذه الواقعة «تولدت حرية أوروبا»⁽²⁾، وقد أشاد خير الدين بما حققت هذه الثورة من حريات في مختلف المجالات كما سنبينه في موضعه، وقد أسنده يبرم الخامس وابن أبي الضياف في موقفه هذا.

فيما نجد الجزائري ابن قادي معجباً بأثر الثورة الفرنسية وخاصة شعارها المشهور، الذي نجده يمدحه، ففي وصفه للطريق الرابط بين مدينتي مارسيليا وباريس، يظهر شعار الثورة على حيطان المباني في المدن والقرى التي مروا بها: «فكلما مررنا بمدينة أو قرية من مارسيليا إلى باريس، إلا ورأينا على حيطانها كتابة غليظة كقوائم الإبل يستخرجها الأعمش من بعيد فضلاً عن صحيح البصر، لم نعرف حقيقتها فسالنا عنها، قيل لنا هي ثلاث كلمات: ليبرتي، اقاليطي، فرطنيطي»⁽³⁾، أعني الحرية والأخوة والمساواة، فها هنا من كلمات يحق أن تكتب بماء الذهب، وبأليت الناس يعرف فوائدها، ويعلم ما ضمته من المعاني، وتحقيق أن الخير معمول بها، فلما استفسرناها وتأملناها ازدادت قلوبنا تعلقاً بمحبة الدولة الفرنسية، لما علمناه من حريتنا نحن العرب، ومساواتنا مع النجباء أولاد فرنسا، وإن كنا لا نساووهم في العلوم والخدمة، فإننا نساووهم في الهدف والثبات...»⁽⁴⁾.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 16.

(2) المصدر نفسه، ص 188.

(3) حرية، مساواة، أخوة (بالفرنسية: Liberté, égalité, fraternité).

(4) أحمد ولد قادي، مصدر سابق، ص 08-09.

فابن قادي لا يكاد يخرج وعيه بصورة الحرية في أوروبا أو في فرنسا إلا في مواصلة تحميل صورة فرنسا لقارئيه في الجزائر، وهو عكس خير الدين الذي انطلقت ضرورة نقل صورة الحرية الأوروبية في كونها أهم أسباب التقدم الأوروبي، وهو نفس الأمر بالنسبة لبيرم الخامس وقبله ابن أبي الضياف.

1- الحرية:

في رحلاتهم إلى أوروبا وقف الرحالة المغاربة عند مفهوم جديد للحرية بعيدا عن المفهوم التقليدي الذي تعودوا عليه في بلدانهم وثقافتهم، وعليه فإننا نقسم رؤيتهم للحرية في أوروبا بمثل ما قسمها خير الدين، لأنها الصورة الأوسع والأشمل والأدق لمفهوم الحرية وممارستها كما وجدها في أوروبا إلى ثلاثة أقسام:

- الحرية الشخصية:

وهي كما يعرفها خير الدين انطلاقا من القوانين الأوروبية: «إطلاق تصرف الإنسان في ذاته وكسبه، مع أمنه على نفسه وعرضه وماله، ومساواته لأبناء جنسه لدى الحكم، بحيث إن الإنسان لا يخشى هزيمة في ذاته ولا في سائر حقوقه، ولا يُحكم عليه بشيء لا تقتضيه قوانين البلاد المتقررة لدى المجالس»⁽¹⁾، وهو نفس التعريف الذي أجراه عليها بيرم الخامس: «وأما كون الحرية الشخصية للأهالي فلأن كلا منهم له الإطلاق في التصرف في نفسه وكسبه، داخلا في إدارة حدود القوانين لا يخشى من مجاوزتها عليه، وهي كافلة له بالأمن في دينه ونفسه وماله وعرضه»⁽²⁾، فالحرية الشخصية بهذا التعريف تعني حرية التصرف، وحرية الكسب، والأمن بأنواعه، والمساواة أمام القانون. وكانت الدساتير والقوانين الأوروبية التي اطلع عليها الرحالة المغاربة تؤكد توجه الأوروبيين لترسيخ هذه الحرية في بلدانهم ومنحها لمواطنيهم، فهاته القوانين كما يبين خير الدين هي الضامن لهذه الحرية، لأنها كما قيدت الحاكم فإنها تقيد الرعية⁽³⁾.

إلا أن خير الدين وبيرم الخامس لا يكتفيان بذلك ليؤكدوا أن القوانين وحدها غير كافية إذا لم تكن إرادة سياسية تسعى لتطبيقها أو وجود حكم استبدادي يمنع تواجدها، وضربا مثالا عن الفاتيكان وروسيا لأن: «الحرية بهذا المعنى موجودة في جميع الدول الأوروبية إلا في الدولة البابوية والدولة المسكوبية، لأنهما مستبدتان، وهما وإن كانتا ذواتي أحكام مقررّة إلا أنها غير كافية لحفظ حقوق الأمة، لأن نفوذها موقوف على إرادة الملك»⁽⁴⁾.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص116.

(2) المصدر نفسه، ص116.

(3) المصدر نفسه، ص116.

(4) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج5، تحقيق: علي الشنوني، مصدر سابق، ص1821.

وتحدد مفهوم الحرية الشخصية لدى ابن أبي الضياف بعد حضوره ومشاهدته مسرحية في باريس رفقة الملك الفرنسي؛ كان محتواها يتحدث عن الحرية التي هي حق للفرد لا يتدخل فيها أيا كان ولو السلطان نفسه، وتدور قصة هذه المسرحية حول نقاش في حرية اختيار فتاة للرجل الذي تريده زوجا دون أن يتدخل أيا كان في اختيارها أو يفرض عليها خيارا وقرارا من عنده، وفيها صدحت هاته الفتاة بموقفها قائلة: «... بأي شرع يتصرف السلطان في أرواحنا بالقهر... ونحن أحرار، وأقسمت البنت أن تتزوج ذلك الرجل إظهارا لحريتها».

واعتبر ابن أبي الضياف إن تلك المسرحية كانت مقصودة من أجل توجيه خطاب ذات محتوى سياسي في ذلك الموضوع، ومما استغربه صاحب الرحلة وأحمد باي هو ردة فعل السلطان الفرنسي؛ هذا الأخير رحب وأعجب برسالة تلك المشاهد المسرحية المعبرة عن الحرية لذا عقب على قول الفتاة بقوله: «أحسن، أحسن، وصفق بيديه»، ويبدو هذا الفعل من الفتاة ورد الفعل من السلطان قد أذهلت أحمد باي الذي بدى مستغريا من ردة الفعل هذه: «والتفت السلطان إلى الباي وقال له: "يلزمني أن أستحسن هذه المقالة، سياسة لهذا الجمهور، ولو لم أفعل ذلك ربما يقال أنني لا أحب الحرية، ويجب على أمثالنا مراعاة الجلب لقلوب الرعية بما تستحسنه، وأعظمه العدل الذي منه الحرية"»⁽¹⁾.

وكانت ردة فعل أحمد باي معبرة عن الدهشة مما سمعه وراه لأنه غير متعود على ذلك، وأن تأتي ردة الفعل من الحاكم نفسه بهذه الطريقة فلها دلالة عميقة: «ولما انسدل الستر قام الباي لموضع آخر، وأشار إليّ فماشيته، فقال لي: "أتعلم ما استحسنه هذا السلطان وصفق عليه؟ قلت له: نعم... فقال لي: سلطان الفرنسي على قوة عدته، وكثرة جنوده من هذه الحالة في مراعاة الرعايا، فكيف بنا أيها الشيخ؟ فقلت له: إن القوم سبقونا إلى الحضارة بأحقاب من السنين حتى تخلقوا بها، وصارت من طباعهم، وبيننا وبينهم بون بائن، والله فينا علم غيب نحن صائرون إليه، فقال: نسأل الله العافية»⁽²⁾، إذ لمس الوفد التونسي معنى الحرية الشخصية في أوروبا، حيث يتصرف كل شخص هناك وفق ما تمليه عليه إرادته دون تدخل أي سلطة كانت أسرية كانت أو اجتماعية أو حتى سياسية.

وفيما راح هؤلاء الرحالة يشيدون بفضائل الحرية، وخاصة خير الدين الذي نظر إلى التمدن الأوروبي نظرة مادية، لذا كان تركيزه على ثمرات الحرية في جانبها الاقتصادي (سنقف عنده في الفصل الخاص بصورة الواقع الاقتصادي)، نجد العكس عند بيرم الخامس الذي وقف على التأثيرات الاجتماعية العكسية على المجتمع من خلال الإفراط في منح الحرية التي قد تؤدي إلى انحلال اجتماعي وكثرة الآفات فيه، ضاربا عدة أمثلة حول ذلك، وضرب

(1) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج4، مصدر سابق، ص 103.

(2) المصدر نفسه، ص 103.

مثالا في ذلك من تغير عادات الفرنسيين، فعاداتهم حسبهم قبل انتشار الحكم الجمهوري الذي أباح الحريات وأطلقها ليس هي بعده، فتغيرت أخلاق هذا المجتمع من التربية الحسنة والتواضع بينهم ولين القول، لتتحول إلى التهور شيئا فشيئا، وانتشر في الطبقات السفلى كثرة المسألة، وعدم احترام الأماكن العامة؛ حيث كثرت المشاجرات وشرب الخمر على قارعة الطريق والقتل، لأن: «...الدعوى بمزيد الحرية التي تتبع الجمهورية أورثت ذلك الإهمال المفضي إلى التهور والخروج عن الاعتدال...»⁽¹⁾.

ويبدو أن هذه الصورة التي عبر عنها بيرم الخامس في تصوره للتأثيرات السلبية لإطلاق الحرية، خاصة الشخصية منها لا تخرج عن التصور والرؤية الموجودة في البلاد الإسلامية وخاصة المغاربية عن ذلك، فنجد أحمد الناصري صاحب "كتاب الاستقصا" ينتقد بشدة مفهوم الحرية في الفكر الليبرالي الأوروبي، ووصف أنصار الحرية بهذا المعنى ومنظرها بالملحدن المتحللين من الالتزامات: «اعلم أن هذه الحرية التي أحدثها الفرنج في هذه السنين هي من وضع الزنادقة»، وما جعل الناصري يتخذ هذا الموقف، ويبنى ذلك الحكم هو مقتضيات هذه الحرية في الواقع ومستلزماتها والصور التي ترتبها في المجتمع، وعلى مستوى العلاقات، فالحرية في تقديره تسقط: «حرية الله، وحقوق الوالدين، وحقوق الإنسانية»، لأنها تحرر الفرد من الحدود والعقوبات المتوجبة على ترك التكاليف الشرعية وتعاطي المحرمات (ترك الصلاة والصيام، شرب الخمر، والزنا)، وهي تصطدم بطبيعة البناء الأسري في المجتمع الإسلامي، ولا تتفق هذه الحرية مع مواصفات "العقل الأخلاقي" ولا تلتزم به، وليس لها ما يميزها عن الفوضى سوى أن الأفراد يحترمون بعضهم البعض ولا يتظالمون، لأن الإنسان عندهم حسب الناصري: «لا يلزم أن يتقيد بقيد»، إلا في حالة واحدة فقط وهي: «إعطاء الحق لإنسان آخر مثله فلا يجوز أن يظلمه»⁽²⁾.

وربما كان هذا الموقف الذي حملة الناصري دالا عن سبب عزوف رحالة المغرب الأقصى بالأخص في هذه الفترة عن الخوض في مثل القضايا ابتعادا ربما عن تهم قد تطالهم خاصة بعد الوصف الذي قدمه الناصري لأنصار ومروجي هذا الفكر والاتجاه "بالملحدن المتحللين من الالتزامات، وأنهم زنادقة مارقين عن الدين".

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج3، دار صادر، مصدر سابق، ص 142.

(2) ودان بوغوفالة، الثورة الفرنسية وبونايرت في الكتابات المغاربية خلال القرن الثالث عشر هجري/ التاسع عشر ميلادي، بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، المدرسة العلية للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، بوزريعة-الجزائر، 2000-2001، ص 112.

- الحرية السياسية

وهي كما يعرفها خير الدين وبيرم الخامس: «تطلب الرعايا التداخل في السياسات الملكية، والمباحثة فيما هو الأصلاح للملكة»⁽¹⁾، أي حق الرعية في التدخل وإبداء الرأي في مصالح الدولة عن طريق المجالس السياسية. ففي مقدمة كتابه "أقوم المسالك" حاول خير الدين أن يوجز أسباب نهضة الأمم الأوروبية وتقدمها، خاصة ما كان في شقه السياسي، وعليه أعجب خير الدين التونسي "بالحرية" بمفهومها الأوروبي، واعتبرها من أسس نهضة أية أمة وتقدمها، حيث يعتبر أن الحرية: «هي منشأ سعة نطاق العرفان والتمدن بالممالك الأوروبية»⁽²⁾.

وحتى يقرب هذا المفهوم الأوروبي للحرية السياسية لقارئ كتابه، يعود خير الدين إلى المدونة الإسلامية والتاريخ الإسلامي لتأكيد أن ما هو موجود في أوروبا ليس غريبا على المسلمين في إطار دعوته للاقتباس من أوروبا في قوانينها، «على نحو ما أشير إليه بقول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "من رأى منكم اعوجاجا فليقومه"، يعني انحرافا في سياسته للأمة وسيرته منها»⁽³⁾، وبالتالي فالحرية السياسية موجودة منذ فجر الإسلام، إلا أن الاصطلاح عليها غير موجود بل ما وجد هو الممارسة، وعدم ضبطها في قوانين معروفة متداولة.

فخير الدين ينطلق في نقل تصوره عن الحرية في أوروبا، أولا: على نقل نظم الحرية الأوروبية وصورتها، وثانيا: محاولة بيان أن هذه النظم وما يتصل بها من مفاهيم قد وجد في الإسلام، ولها مقابل في الشريعة، ولكنها لم تطبق إلا نادرا، ولم تحترم إلا لماما⁽⁴⁾.

وبما أن هذه الحرية في أوروبا تتحقق بوجود مجالس نيابية، فهي في الإسلام ممثلة في أهل الحل والعقد حتى وإن لم يكونوا منتخبين، فالأهم حسب خير الدين هو الوظيفة التي يقومون بها: «وذلك أن تغيير المنكر في شريعتنا من فروض الكفاية، وفرض الكفاية إذا قام به البعض سقط الطلب به على الباقيين، وإن تعينت للقيام به جماعة صار فرض عين عليهم بالخصوص»⁽⁵⁾.

وإذا كان خير الدين يكتفي بنقل مفهوم الحرية والضوابط المؤسساتية والقانونية اللازم توفرها لتجسيدها نقلا عما وعاه منها من خلال احتكاكه بالسياسيين الأوروبيين أو من خلال ما قرأه عن الفكر السياسي الأوروبي، فإن

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 116، محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج5، تحقيق: علي الشنوي، مصدر سابق، ص1821.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 116.

(3) المصدر نفسه، ص 116.

(4) صلاح زكي أحمد، أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ط1، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2001، ص33.

(5) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 117.

ابن أبي الضياف يظهر في رحلته تجسيد قيم الحرية السياسية على الواقع الأوروبي عندما حضر جانب من نقاشات مجلس النواب الفرنسي ولاحظ ما يتمتع به النواب (وكلاء المملكة) من حرية تامة في مناقشة مختلف القضايا التي تعرض عليهم، بما يكفل حقوق الرعايا ويحفظ الصالح العام، فقال معبرا عن الكلام الذي ألقاه الملك الفرنسي على أسماع نواب الشعب الفرنسي⁽¹⁾: «...ويقف فيه خطيبا بإلقاء ما يريد إلقاءه على المسامع لتفكر فيه عقول الحرية...»⁽²⁾.

انتبه بيرم الخامس أيضا إلى هذه المسألة وهو يحضر جلسات مجلس النواب الإيطالي، غير أن صاحب "الصفوة" بعد حضوره لنقاشات كلامية بين النواب تعجب من هامش الحرية السياسية التي يتمتعون بها: «ثم إنا قدمنا إلى مجلس النواب... فإذا هم أناس يتدبرون في أمرهم ويتشاورون فيه بغاية الإطلاق» في مشهد يبدو فيه بيرم الخامس متعجبا من هامش الحرية الذي تمتع به نواب العامة في مخاطبة وزراء الحكوم⁽³⁾.

كما أشار ابن أبي الضياف إلى تطلع الأوروبيين للحرية، وما الثورة الفرنسية إلا خير دليل على تضحياتهم من أجلها: «ولهذا تارة يكون القانون عن طلب من الرعية بحروب تجري فيها أودية الدماء كما وقع في فرنسا لما في طبعها من الالتحام والتعصب وحب الحرية الممزوج بدمائهم، حتى أفرطوا فيها إفراطا لا داعي له، ولذلك يأنفون من ظلم الملوك كما هو مشاهد بالأقطار الأفرنجية...»⁽⁴⁾، إلا أن ابن أبي الضياف ينكر على الرعية مطالبتها السياسية عن طريق الثورة وسفك الدماء.

ولاحظ التونسي بيرم الخامس أن الدعوة إلى الحرية السياسية في البلاد الأوروبية لا تكون على سبيل الإطلاق؛ ومن ذلك النقد الذي وجهه للقوانين الإنجليزية التي ترفض تولي المناصب العليا في البلاد ما لم يكن صاحبها على المذهب البروتستانتي، فالرحالة التونسي يرى في ذلك قمة التناقض بين ما يدعوا إليه الأوروبيون وتدخلاتهم في مختلف البلدان، بدعوى إقرار الحريات، بينما هم يسقطون شرط حرية المعتقد في السياسة في بلدانهم ويعبر عن ذلك بأسلوب تعجب مخاطبا قارئه: «فتأمل في هذا ما يأتي إن شاء الله في أحوال تداخلهم في بلاد الإسلام⁽⁵⁾ بدعوى الحرية...»⁽⁶⁾.

(1) عبد القادر دوحه، مرجع سابق، ص 283.

(2) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 4، مصدر سابق، ص 106.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج 5، تحقيق: علي الشنوفي، مصدر سابق، ص 1782.

(4) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 1، مصدر سابق، ص 43.

(5) في إشارة من الرحالة التونسي للضغوطات التي مارستها البلدان الأوروبية على الدولة العثمانية

(6) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج 5، تحقيق: علي الشنوفي، مصدر سابق، ص 2104.

وحسب خير الدين فإن الدول الأوروبية اختلفت في درجات ونسب منح الحرية السياسية لرعاياها، وذلك عائد إلى مقاصد الرعية من الحرية، فأطلقت يدها عن الحرية الجالبة لمصالح الدولة، وأمسكتها عن غيرها مثل تشييط حرية حركة ونشاط الأحزاب السياسية في كثير من البلدان الأوروبية لما يمكن أن تشكله من تهديد لوحدة الدولة وتماسكها وتهديد لبقاء الأنظمة القائمة نظرا لاختلاف توجهاتها⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس رأى خير الدين في الحرية التي طالبت بها بعض الأقليات بالدولة العثمانية في بعض إياالاتها هو ليس من الحرية في شيء، لأن فيه دعوة للانفصال عن الدولة، فهم-حسب خير الدين- طالبوا بالحرية دون تبصر بعواقبها، ورأى في الدول الأوروبية التي تدعم هذا النوع من الحريات في الدولة العثمانية تناقضا بينا، لأن الأوروبيين يرفضونه حتى في بلدانهم كما رأينا، وأن دعمهم وتكريضهم للمطالبين بها يعود لمصالحهم السياسية، وخير الدين يبرر رفضه لهذا النوع من الحرية ليس بأنه يرفض الحرية في أساسها؛ بل يعيد ويشدد على إعجابه بها إذا كان هدفها يسعى لإصلاح الدولة والرعية، وفي ذلك يقول: «فإننا نُسَلِّم أن هذا المطلب الذي طلبوه هو أعظم الوسائل في حفظ نظام الدول وقوة شوكتها ونمو عمران ممالكها ورفاهية رعاياها...»⁽²⁾.

أما إذا كانت لغير هذا الغرض فإن عواقبها وخيمة على الدولة، وقدم خير الدين نقدا للدول الأوروبية الذين يرفضون إطلاق الحرية في بعض بلدانهم لصالح بعض الأحزاب السياسية بالمعنى الذي طالبوا به في بعض إياالات الدولة العثمانية، وفيه يقول: «ولأقل من هذا السبب انصاع بعض الدول الأوروبية من إطلاق الحرية المشار إليها تحاشيا لتحزب بعض الرعايا على تبديل العائلة الملكية...»، وبرر عدم إطلاق هذا النوع من الحرية نظرا لكثرة الأقليات في الدولة العثمانية، فإن منحت الدولة الاستقلال لأقلية معينة طالب بقية الأقليات بذلك وكثر المهرج والفوضى، وعلى هذا الأساس فلا يجب أن يوجه اللوم للدولة العثمانية لرفضها إطلاق هذا النوع من الحرية حسب خير الدين⁽³⁾.

ولم يلاحظ خير الدين ويبرم الاختلاف الموجود بين دول أوروبا من ناحية منحها رعاياها الحرية السياسية لمجرد الوصف، بل كانت لهما غايات عملية متصلة بموقفهما من الإصلاحات التي يجب أن تدخلها الدولة العثمانية على نظام الدولة، حيث قدم خير الدين شرحا لإحجام الدولة العثمانية على إطلاق الحريات لجميع رعاياها باختلاف أولئك الرعايا، وانتساب قسم منهم إلى فئات متضامنة مع دول أجنبية بدافع "النزوع إلى جنسهم"، وختم ذلك بقوله: «... فمن اعتبر ما أشرنا إليه لا يسوغ له أن اللوم على الدولة في توقفها إلى الآن على إطلاق الحرية المطلقة...»⁽⁴⁾.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 118.

(2) المصدر نفسه، ص 54.

(3) المصدر نفسه، ص 55.

(4) أحمد عبد السلام، مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية، مرجع سابق، ص 131.

- حرية الرأي والتعبير

ولم تقتصر الحرية في أوروبا على المظهرين السابقين الشخصي والسياسي، بل هناك مظهر ثالث اهتم به الرحالة المغاربة، وهو الحرية الفكرية وحرية التعبير، والتي سماها خير الدين ترجمة للمصطلح الأوروبي "حرية المطبعة": «وهو ألا يمنع أحد منهم أن يكتب ما يظهر له من المصالح في الكتب والجرائد (الصحف)، التي تطلع عليها العامة، أو يعرض ذلك على الدولة، ولو تضمن الاعتراض على سيرتها»⁽¹⁾، فالممالك الأوروبية التي أقرت تلك الحرية -حسب خير الدين- تمت لها "الحرية المطلقة".

ولأن خير الدين تعود أن يضع مقابلاً إسلامياً لأي مفهوم أوروبي، نجده يضع مفهوم "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" كمقابل لحرية الرأي في أوروبا، يقول: «وجب على علماء الأمة وأعيان رجالها تغيير المنكرات، ونصب الأوروبيون المجالس وحرروا المطابع، فالمغيرون للمنكر في الأمة الإسلامية تتقيهم الملوك كما تتقى ملوك أوروبا المجالس وآراء العامة الناشئة عنها وعن حرية المطابع، ومقصود الفريقين واحد: وهو الاحتساب على الدولة لتكون سيرتها مستقيمة وإن اختلفت الطرق إلى ذلك».

بينما كانت رؤية بيرم الخامس أوسع في نظره لحرية التعبير، فهي لا تنحصر في حرية النشر بل تتعداها؛ إذ منحت القوانين الأوروبية للأفراد والجماعات حق التكلم في السياسة العامة والخاصة والخوض في تصرفات الموظفين وإعلان آرائهم بالقدح أو المدح في الصحف وفي مجامع الناس وحرية التجمع: «من غير أن يتعرض لهم أحد»⁽²⁾. وللدلالة على إعجاب ابن أبي الضياف بصور الحرية في فرنسا عامة وحرية الرأي خاصة، فبمجرد نزول أعضاء الرحلة التونسية التي كان هو من ضمن أعضائها في باريس، حاول الغوص في هذه الحرية والتشبع منها مادام في أرضها-أي باريس- إذ يذكر ابن أبي الضياف حديثاً دار بينه وبين حاكم تونس أحمد باي، حديث فيه كثير من الجرأة (أو بالأحرى حرية) لم يتعود عليها في تونس، حيث أشار صاحب الرحلة إلى ذلك بقوله: «أنه تجاسر على مداعبة الباي لأنه بباريس يتنفس هواء الحرية، ويردّ ماءها وقدماء بأرضها».

فابن أبي الضياف قدم إشارات عن أهمية الحرية، في موقف انتقد فيه ما هي عليه في تونس، ومن أجل أن يؤكد تأثره العميق بمفهوم الحرية، أورد حواراً جرى بينه وبين أحمد باي في باريس، حينما أخبره هذا الأخير بأنه متشوق إلى تونس، فرد عليه ابن أبي الضياف: «فقلت له وأنا أنتنفس هواء الحرية، يحق لك ذلك، لأنك إن دخلت من هذا

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقدم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 117.

(2) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج5، تحقيق: علي الشنوني، مصدر سابق، ص 2102.

الباب تفعل ما تشاء، أما الآن فأنت رجل من الناس»⁽¹⁾، وهو رد فيه جرأة كبيرة، أراد من خلاله أن يبين الفرق بين فرنسا التي يتساوى أهلها ويتمتعون بالحرية، وبين تونس التي يمارس فيها حكم الإطلاق والاستبداد.

فيما لاحظ بيرم الخامس أن ليس كل المجتمعات والشعوب مؤهلة للتمتع بالحرية، بل يجب أن تتوفر فيها شروط وخصائص معينة، هذه الخصائص والمميزات التي وجدت عند الشعب الإنكليزي أهلته للارتقاء في مراتب الحرية كون: «طباعهم رزينة ينفع إطلاق الحرية فيهم، لا يطيشون عن حد الاستقامة والانقياد إلى الحكم، حتى إذا تجمع منهم الجم الغفير البالغ لعدة مئات من الألوف وتكلموا في السياسة وهاجوا واضطربوا ووقع بينهم خلاف في تلك المجمع أحوجت إلى الخروج من القول إلى الفعل، فما هو أن يصعد حاكم ذلك الصقع على مكان مرتفع ويقول: سيدنا وحاكمنا الملك يأمر كل فرد منكم أيها المجتمعون بالتفرق حالا... فحينئذ يتفرق الجمع إلا ما ندر فيحتاج إلى أعمال القوة من الضبطية والحرس والعساكر، وعلى كل مار إعانة الحرس...ومن النادر القليل وجود حالة مثل تلك...»⁽²⁾.

2- في العدل:

ومن القيم السياسية التي تناولها رحالتنا المغاربة خلال القرن التاسع عشر هي "العدل" أو "العدالة" وأثارها في الممالك الأوروبية، أما خير الدين التونسي فقد اعتبره أساس تقدم الأمم سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وقد خص خير الدين هنا العدل السياسي، فأوروبا لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بذلك: «ولا يتوهم أن أهلها وصلوا إلى ما وصلوا إليه بمزيد خصب أو اعتدال في أقاليمهم...ولا أن ذلك من آثار دياناتهم... وإنما بلغوا تلك الغايات والتقدم في العلوم الصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسي، وتسهيل طرق الثروة، واستخراج كنوز الأرض بعلم الزراعة والتجارة، وملاك ذلك كله الأمن والعدل اللذان صارا طبيعة في بلدانهم، وقد جرت عادة الله في بلاده أن العدل وحسن التدبير والتراتب المحفوظة من أسباب نمو الأموال والأنفس والثمرات، وبضدها يقع النقص في جميع ما ذكر، كما هو معلوم من شريعتنا والتواريخ الإسلامية وغيرها»⁽³⁾.

واستند ابن أبي الضياف إضافة إلى مشاهداته في فرنسا التي ارتحل إليها إلى ما ذكره الطهطاوي وخير الدين في تأكيده أن ما وصلت إليه البلاد الأوروبية من تعمير الممالك وراحة العباد وانقياد الحكام والرعية لذلك، فعمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم غناهم وارتاحت قلوبهم فلا تسمع من يشكو ظلما أبدا، ليخرج بنتيجة مفادها أن: العدل أساس العمران⁽⁴⁾، ومن تأثير العدل في الواقع الأوروبي كما يبين ابن أبي الضياف: «...لا تجد مضعاً معطلا

(1) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج4، مصدر سابق، ص 108.

(2) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج4، دار صادر، مصدر سابق، ص 56.

(3) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 17-18.

(4) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج1، مصدر سابق، ص 61.

من نفع شجرة أو حرث... يستقى جميعها بغيوث العدل وسيوله المفعمة...»⁽¹⁾.

ونشير أن خير الدين ربط تجسيد العدل كما الحرية بتواجد مؤسسات وترتيبات تكفل ذلك، وكذلك لا معنى لهاته المؤسسات والتنظيمات السياسية الأوروبية إذا لم يكن أساسها العدل والحرية، ففي أول ذكر لها يؤكد أن "التنظيمات الأوروبية المؤسسة على العدل والحرية" وأن مشكلة الإمارة تنحصر في النهاية في تحقيقهما⁽²⁾.

وكذلك أكد ابن أبي الضياف والسنوسي أن العدل لا يكون إلا بوجود قوانين تحفظه: «فالسلطان الكافر إذا كان حافظا للسياسة الاصطلاحية أبقي وأقوى من السلطان المؤمن العدل في نفسه المضيع للسياسة الشرعية والجور المرتب أبقي من العدل المهمل؛ إذ لا أصلح للسلطان من ترتيب الأمور، ولا أفسد له من إهمالها، ولا يقوم سلطان إيمان أكفر إلا بعدل قوي وترتيب اصطلاحى، وإذا تتبعنا فروع القوانين على اختلاف أنواعها لا نجد لها خارجة عن مقتضيات العدل المعتر وجوبه في كل ملة...»⁽³⁾.

ورغم أن خير الدين التونسي يحاول من خلال كتابه عن أوروبا تنوير أصحاب القرار والعلماء في البلاد الإسلامية بالمرتكزات الحقيقية التي وصلت بأوروبا لما هو مشاهد أمامهم، إلا أنه في نفس الوقت يعطي صورة عن الواقع الأوروبي وتنظيماته، كما لا تخلو من نقد لأوضاع العالم الإسلامي، وما حديث خير الدين التونسي عن العدل السياسي في أوروبا إلا تذكير لحكام وعلماء العالم الإسلامي أنه أصل من أصول الإسلام، لذا ارتكز على ما احتوته المدونة الإسلامية من أحاديث نبوية ومآثر للصحابة وأقوال لعلماء مسلمين حول فضيلة العدل⁽⁴⁾، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «العدل عز الدين وبه صلاح السلطان، وقوة الخاص والعامة، وبه أمن الرعية وغيرهم»، كما بين علماء الأمة فضل العدل في السياسة⁽⁵⁾، و «والعدل والحرية اللذين هما أصلان في شريعتنا ولا يخفى أنهما ملاك القوة والاستقامة في جميع الممالك»⁽⁶⁾.

وعليه فقد رأى خير الدين في العدل السياسي أساسا لعمران وقوة أوروبا، ووفقا لرؤيته الإصلاحية الرامية للنهوض ببلده وأمتة، فلا سبيل إلى ذلك إلا بتطبيق العدل، لأنه يظهر من خلال طرحه أن العدل السياسي غير معمول به في البلاد الإسلامية.

(1) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 4، مصدر سابق، ص 99.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 16.

(3) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 1، مصدر سابق، ص 60.

(4) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 18.

(5) المصدر نفسه، ص 18.

(6) المصدر نفسه، ص 16.

فيما كانت إشادة الرحلات الجزائرية بالعدل الفرنسي تعبيراً منها عن إعجاب بما لمسوه هناك من آثار هذا العدل، كما تهدف إلى إرسال خطاب للجزائريين بالجزائر من أجل الرضوخ لحكم فرنسا التي تغريهم بالعدل، فركز ابن صيham على ثنائية العدل والجور في التسيير السياسي في فرنسا، هذا العدل حسبه الذي كان أساساً لتطور وقوة وغنى فرنسا في كل المجالات: «...واعلم أن ملوك فرانسة لو اتصفوا بالظلم والجور وعدم الرفق بالرية لما قدروا على تحصيل بعض الغرض من عمارة البلدان وكثرة العساكر البرية والبحرية وتحصين الثغور وتعميرها بالعدد والعدة وغير ذلك مما لا يمكن حصره، وبرهان ذلك ما رأيناه من امتثال الرية بالأوامر الصادرة من أرباب الدولة، فهو أمر ظاهر لا يحتاج إلى إقامة دليل...»⁽¹⁾، وهي دعوة غير مباشرة للجزائريين للاقتداء بالفرنسيين في امتثال الأوامر، لكن هل حاولت فرنسا تسيير الجزائر بنفس العدل والرية الموجودة بفرنسا ذاتها؟

وبدأ محمد السعيد بن علي الشريف مباشرة بذكر محاسن الحكم الفرنسي، القائم حسبه على العدل الذي هو أساس الأمن والاستقرار، فأكد على أن الملك يدوم بعدل الحاكم والوزراء وأفراد السلطة مع مواطنيهم والرفقة بهم، «...فانظر أيها الغافل بعين الاستبصار، وتأمل تأمل ذي اعتبار، تجد سبب نصرة الدولة الفرنسية العدل...لأن عدل السلطان أنفع من خصب الزمان، وهؤلاء الفرنسية جمعوا ما بينهما لكمال عقولهم وحسن سياستهم، ورأوا أن صلاح الملك يكون بالرفق بالرية، والتودد إليهم بالعدل، وأمن السبيل، وإنصاف المظلوم...وما حصل من رغبة أهل هذه العمالة في طاعة الفرنسية إلا لوقوفها على العدل بأحكام شرعية، وقوانين مؤسسة، حيث أن الملك بالجنود، والجنود بالمال، والمال من البلاد، ولا بلاد إلا بالرية ولا رعايا إلا بالعدل»⁽²⁾.

ثم يعود السيد محمد السعيد بن علي الشريف للتأكيد على أهمية العدل ويضرب أمثلة من التاريخ الإسلامي، إلا أنه يضيف أن العدل غير متوفر في "مجتمعنا" أي عند الجزائريين، حيث يأتي بقصة لأحد رجال "المخزن"، قام باعتداء على أحد المواطنين الذي سبق أن أكرم هذا "المخازني" ورفاقه، ثم يستخلص السيد محمد السعيد من ذلك قوله: «كيف يستقيم الملك بهذه الأفعال الذميمة والمظالم والرذيلة العجيبة...تأملوا في مثل هذا تجدون الفرق العظيم بين سيرة أهل الجزائر وسيرة أهل فرنسا في جميع الأمور» ليخرج بنتيجة مفادها: «أن الملك يدوم مع العدل ولو كان للروم المعاند، ولا يدوم مع الظلم والجور ولو كان لمسلم عابد» ثم يقول: «فلم أر مثل العدل رفعة، ولم أر مثل الجور للمرء أضيعة»⁽³⁾.

(1) سليمان بن صيham، مصدر سابق، ص 19-20.

(2) جريدة المبشر، ع 130، مطبعة الدولة، الجزائر، 30 جانفي 1853،

(3) جريدة المبشر، ع 132، مطبعة الدولة، الجزائر، 28 فيفري 1853،

ورغم أن مسألة العدالة في الأصل لا تطرح في عالم الحيوان الذي تسوده شريعة الغاب مطلقا، بعكس المجتمع الإنساني الذي يطرح مسألة العدالة ويطالب بالعدل والإنصاف، إلا أن ابن علي الشريف من شدة "انبهاره" بالعدل الفرنسي يبالغ في تمثله إياه، فيصور تأثير هذا العدل ليس على الإنسان الفرنسي فقط بل حتى المخلوقات التي لا تعقل، أثناء حديثه عن حديقة الحيوانات الموجودة في باريس وكيف ألفت الحيوانات المفترسة فيقول: «...فالعجب من إلفتها، فصارت كالنوع الواحد في مباركها وهي متأدبة بآداب سياستها، ومحكمة بحكم حمامها وذلك لفسو العدل وانتشاره من أرباب الدولة حتى عم الوحوش في أوكارها...»⁽¹⁾ إذ بالغ ابن علي الشريف كثيرا في إبراز تأثير العدل في المجتمع الفرنسي، وكأنه يقول للجزائريين انظروا كيف استقامت هاته الحيوانات وحسن حالها وهي لا تعي ولا تعقل، فكيف لإنسان عاقل أن يرفض أن يشاع فيه مثل هذا العدل الفرنسي؟

وربط بيرم الخامس العدل بالمساواة أمام القانون، أو المعاملة بحسب القانون⁽²⁾، وأعجب بمظاهر تطبيقه بفرنسا، وأرجع ذلك لاستقلالية القضاء عن الشأن السياسي، وذكر في ذلك مثالا حول نزاع قضائي بين أحد السياسيين النافذين في فرنسا ومالك إحدى الصحف هناك، إذ حكمت المحكمة لصالح هذا الأخير.

وإن افتتن أصحاب الرحلات الجزائرية بالعدل ومظاهره في فرنسا؛ فإنهم غيّبوا انتفاءه في أرض الجزائر المستعمرة وما كان فيها من تعسف وظلم لأهلها، لكن التونسي بيرم الخامس لا يلبث أن يقدم انتقادا شديدا للدولة الفرنسية التي عملت على إفشاء العدل داخل الأراضي الفرنسية، مقابل غياب العدل في مستعمراتها ومحمياتها ف: «... إن سياستهم الخارجية ليست هي كإنصافهم فيما بينهم في داخليتهم، وهو ما يحقق أن الرجال المنتخبين للأحكام إنما يكونون من أعف الموجودين وأنصفهم لا تميل بهم الأهواء عن الاستقامة».

ويواصل بيرم نقده اللاذع للأوروبيين فيكشف أن شيوع العدل ليس منتشرًا بالصورة التي يريد الأوروبيون أنفسهم رسمها، فخلف صورة أوروبا العدل والمساواة هناك أوروبا الفساد والجور، فرغم شيوع القوانين المفروضة على الراشي والمرتشي في القضاء، وشيوع العدل خاصة في المدن الكبرى؛ إلا أن الفساد القضائي حسب بيرم الخامس منتشر في المدن الأقل والمحاكم الدنيا: «...غير أن هذا هو الأغلب لا سيما في المدن العظيمة، وفي المجالس الانتهازية، وأما غيرهم فالارتشاء بينهم فاحش فيكاد أن يكون مثل ما يصفون به حكام المشرق»

(1) محمد السعيد بن علي الشريف، مصدر سابق، ص 56.

(2) عزت قربي، العدالة والحرية في فجر النهضة العربية، عالم المعرفة، الكويت يونيو 1980، ص 73.

فبيرم قدم نقدا صريحا غاب عن غيره من الرحالة المغاربة، إذ يعتبر الوحيد من الرحالة الذي انتقل من موقف الانبهار من سياسة الآخر الأوروبي إلى تحليل سياسته، بعيدا عن موقف الصدمة، وبعيدا عن أوروبا العدل والمساواة يقف بيرم عند أوروبا الفساد واللاعقل خاصة في معاملاتها داخل مستعمراتها ومحمياتها⁽¹⁾.
وبذلك نقول أن الرحالة المغاربة خلال هذه الفترة نظروا على النظم السياسية في أوروبا القرن التاسع عشر نظرة إعجاب، نظرة انطلقوا فيها والبلاد المغاربي والعالم الإسلامي عموما في حالة ضعف وتراجع في مقابل أوروبا، نظرة كانت فيها أوروبا بنظمها الحديثة نموذج كل إصلاح مرتجى.

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج5، تحقيق: علي الشنوفي، مصدر سابق، ص 1988.

الفصل الثاني: الواقع العسكري الأوروبي في نصوص الرحالة المغاربة خلال القرن 19م

- أولاً: النظام والترتيب أساس القوة العسكرية الأوروبية
- ثانياً: اكتشاف الرحالة المغاربة أسس تكوين وتسيير الجيوش الأوروبية
- ثالثاً: في قوة الجيوش الأوروبية وعتادها

الفصل الثاني: الواقع العسكري الأوروبي في نصوص الرحالة المغاربة خلال القرن 19م

مثلما كان عليه الحال مع رحالي القرنين السابقين، أخذ الاهتمام بالواقع العسكري الأوروبي حيزا هاما في نصوص الكتابات الرحلية المغاربة خلال القرن التاسع عشر، وإذا كان الرحالة المغاربة في القرنين 17 و18م يصفون المظاهر العسكرية الأوروبية بدافع تعريف قرائهم المحتملين بـ " الغريب والعجيب " من الظواهر والعادات ومنها طبعا ما كان في جانبه العسكري، فإن رحالة القرن 19م من المغاربة كان دافعهم الأساسي في ذلك هو البحث فيما يرونه ويصفونه عن حلول لمشاكل الدول المغاربة العسكرية، ويمكن القول أن تلك المشاكل هي التي وجهت أوصاف أولئك الكتاب إلى أن تتجه إلى البحث عن أسباب قوة الآخر الأوروبي عسكريا.

ونلاحظ أن المسألة العسكرية أخذت نصيبا أكبر في الكتابات السفارية المغربية (المغرب الأقصى) إذا ما قورنت ببقية الكتابات المغربية، ونستطيع أن نميز في نظرة الرحلات المغربية التي توجهت إلى أوروبا خلال القرن التاسع عشر في رؤيتها العسكرية لهذا الآخر قد تحكمت فيها وضبطتها مرحلتين حاسمتين لدى المغرب:

الأولى نستطيع أن نصطلح عليها بمرحلة الصدمة والاكتشاف ومثلتها رحلات الصفار (1845م) والعمراوي والفاصي(1860م) على الخصوص، لأنها أعقبت هزيمتين مدويتين للجيش المغربي على أيدي جيوش أوروبية هزمت إيسلي سنة 1844م وهزيمة تطوان 1860م، إذ تلقى المغاربة أولى صدمات القوة العسكرية الأوروبية بكل معانيها، وقد حملت هذه المرحلة رغبة المغاربة في معرفة مكامن هذه القوة وفهم أسباب الهزيمة والبحث عن آليات المدافعة، وكان السبيل لذلك ربما رؤية هذا الجيش في بلده الأم في أوروبا؟! وفي هذه المرحلة حاول الطرف الآخر الأوروبي أيضا استغلال تواجد هؤلاء الرحالة السفراء من أجل إبراز قوته وإمكانياته بل وتضخيمها بهدف إبكيات المغاربة وتحسيسهم أكثر بالضعف وحجم التجاوز العسكري.

أما المرحلة الثانية في نظرة رحالة المغرب الأقصى لواقع القوة العسكرية الأوروبية، فكانت بعد تجاوز الصدمة والإقرار بقوة الآخر، ولما كان الفكر المغربي ينظر إلى كون المواجهة مع هذا الآخر بالدرجة الأولى هي عسكرية اتجه لإصلاح الجيش، وكان هذا الإصلاح أيضا لا يتم إلا من خلال الآخر الأوروبي، وعليه توجهت الرحلات المغربية لرؤية مصانع التسليح وتطورها في البلدان الأوروبية المرتحل إليها، واصفة إياها بكل دقة وتفان تلبية لدعوة المخزن المغربي، وقد مثل كل من الجعيدي والكردودي هذه المرحلة، (في صورة معاكسة تماما للنظرة السابقة (رحالة القرنين 17 و18م) القائلة بعدم توصيف قوة الآخر عسكريا في نصوص الرحلات، في نظرة استعلائية ساهمت إلى حد كبير في تغييب القوة العسكرية الأوروبية إلى أن وقع المخطور)، وفي هذه المرحلة أيضا تغيرت رؤية الأوروبيين فانتقلوا من صناعة صورة القوة والعظمة العسكرية والتصنيعية بهدف إبكيات المغاربة، إلى عرض إمكانياتهم العسكرية بهدف تسويقها للمغرب ذاته، بعد أن أصبح هذا الأخير سوقا استثمارية تتنافس كثير من القوى الأوروبية للهيمنة عليه.

وكان اهتمام الرحالة التونسيين بالمسألة العسكرية في كتاباتهم أيضا متباينا، فاهتم بها ابن أبي الضياف لأن سياقات رحلته تندرج بالأساس تحت تأثيرات التوجه العام الذي سار عليه المشير أحمد باي في سبيل إصلاح الدولة التونسية ومؤسساتها وعلى رأسها الجيش، لذا لم يكن من الغريب هذا الاهتمام من كاتبه ابن أبي الضياف، فيما غابت هاته المسألة عن اهتمامات بيرم الخامس والسنوسي.

وحضرت المسألة العسكرية في كتاب خير الدين عبر إشارات قليلة وسريعة، نظرا للتوجه الفكري للكاتب التونسي الذي رأى في تنظيم الدولة سياسيا وترقيها في العلوم والبحث عن أسباب تقدم الدول الأوروبية أولوية الأولويات وأساس كل إصلاح، ورغم انحسار حضور الواقع العسكري الأوروبي في "أقوم المسالك"، إلا أننا نرى خير الدين دقيقا جدا لما تحدث عن أسباب شهرة وقوة الجيش الفرنسي يقول: «...و لما كان الجيش الفرنسي من أشهر الجيوش في وقتنا ناسب أن نبين هنا الأسباب التي اقتضت شهرته»⁽¹⁾، وربما كان هدفه من ذلك بحكم منصبه العسكري السابق في الدولة التونسية التنويه والإشارة إلى الفوارق بين الجيشين التونسي والفرنسي وأن هذا الأخير إنما اشتهر بعدد التنظيمات والتي افتقد إليها نظيره التونسي.

في حين كانت كتابات الرحالة الجزائريين في سياق كتابتها تحت ضغط وتوجيه الإدارة الفرنسية تهدف إلى تضخيم صورة فرنسا عسكريا، وعليه نتساءل عن الصورة التي اكتشفها الرحالة المغاربة عن واقع أوروبا العسكري وكيف كانت ردود فعلهم تجاهها؟

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 224.

أولاً: النظام والترتيب أساس القوة العسكرية الأوروبية

اكتشف الرحالة المغاربة (المغارب) أن مبدأ القوة العسكرية الحديثة في أوروبا تتمثل في نظام الطاعة والانضباط، وحسن الترتيب والتنظيم، وحدة العقل والتبصر بمجريات الأمور قصد التحكم فيها والاستفادة منها، وهي معاني متعددة يمكن إدراجها في معنى واحد هو "النظام"⁽¹⁾.

هذا النظام كما شاهدته الصفار في مرسى طولون (Toulon) الحربي الفرنسي؛ لا يتجلى في الهيكلة التنظيمية للجيش في حالة سكونه فقط، بل أنه يتجلى أيضا في حالة قيامه بوظائفه، أي في طريقة حربه وقاتله وفي هذا المعنى يقول واصفا قتال البحارة الفرنسيين: «والحاصل كل واحد منهم له شغل معين لا يفعل غيره، وكل طائفة لها مدفع معين لا تباشر إلا هو، فإذا صاح به كبيره فلا يحتاج أن يأتيه ويقف ويقول له ما أفعل، أو يذهب اثنان لأمر واحد يقوم به واحد وحده، أو تذهب جماعة لمدفع واحد، ويبقى الآخر لا يذهب إليه أحد، لأن ذلك كله عطلة وهو خلاف الحزم، فبمجرد ما صاح بهم كبيرهم المذكور جاؤوا وجبدوا المدافع من طيقاتها، وعمروها واخلوها في لحظة، كان ذلك كله فعل رجل واحد، ثم عادوا أيضا وعمرها تلك المدافع كلها واخلوها في لحظة، ولا تسمع مدفعا واحد، بل تسمع كالرعد المتتابع، ثم عادوا وعادوا، وكل ذلك في أسرع زمن، وذلك كله من الضبط والحزم والاعتناء التام، وعدم الغفلة بالأمور...»⁽²⁾، وهكذا فإن كان أسلوب قتال البحارة الفرنسيين يقوم على أساس التخصص وتقسيم العمل تقسيما دقيقا، فإن ذلك لا يؤدي على الفوضى والتشتت والتشردم، بل إنه يفضي إلى العكس من ذلك إلى التكامل والنظام، بحيث تصير الأعمال المتميزة التي يقوم بها أفراد الجيش أثناء القتال، وكأنها تصدر عن فعل رجل واحد⁽³⁾.

وبعد تأكيده أن قبول أعضاء السفارة المغربية التوجه لرؤية الترسانة العسكرية البحرية الفرنسية كان "مساعفة لمضيفهم"، ولفظ المساعفة غالبا ما يوردها الرحالة المغاربة على أنها على غير رغبة منهم ولا اقتناع برؤية ما لدى الآخر، خاصة وأن هدف الفرنسيين يصبو إلى إبحار المغاربة بمظاهر القوة العسكرية الفرنسية الأمر الذي انتبه له الصفار: «...ومن طبعهم أنهم يعجبهم أن يُروا ما عندهم، ولا يتركون عندهم شيئا جليلا أو حقيرا إلا أطلعونا عليه... مما هو في الظاهر فرجة، وفي الباطن تخويف وقرحة...».

(1) عبد السلام حيمر، «مظاهر الحداثة الأوروبية في الكتابات السفارية المخزنية (الحداثة العسكرية نموذجا)»، مجلة مكناسة-كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي إسماعيل، ع6، مكناس، 1992، ص 169.

(2) محمد الصفار، مصدر سابق، ص162.

(3) عبد السلام حيمر، مظاهر الحداثة الأوروبية في الكتابات السفارية المخزنية (الحداثة العسكرية نموذجا)، مرجع سابق، ص 169-170.

ويبدو أن الفرنسيين وصلوا لمبتغاهم باستعراض قوتهم أمام السفارة المغربية، فيصف الصفار شعور المغاربة بعد نهاية العرض العسكري وكأنه يريد إنهاء هذا العرض الذي وجهوا إليه إذ أنه شعر بالغصة والضعف مقابل هذا التفوق الفرنسي العسكري فيقول: «...ثم بعد أن شفوا الغليل من ذلك نزلنا منه وجعلوا فلائكنا تدور بنا في المرسى بين المراكب للفرجة والنزهة...»⁽¹⁾.

إلا أن ذلك لم يمنع الصفار بعد اطلاعه على هذا النظام العسكري الأوروبي، أن يبدي موقفاً يبنى بموضوعية وهو يُسقط إحدى أهم المسلمات والأفكار التي كانت تتردد كثيراً في المغرب الحديث القائلة بأن القوة الفردية والبدنية هي الفيصل في التفوق العسكري، ليكشف الصفار أن: «...مدار ذلك كله على الضبط والحزم والاعتناء التام وعدم الغفلة في الأمور، وإلا فليست لهم قوة في أبدانهم ليست لغيرهم، بل ربما كانوا أضعف من غيرهم في ذلك، وإنما الذي لهم الاعتناء والترتيب الحسن ووضع الأشياء في محلها، وبينون أمورهم كلها على أصح أساس ويستعدون للأمر قبل وقوعها، ولا يعرف حقيقة ذلك إلا من شاهده»⁽²⁾. هكذا عبر وفسر الصفار أسباب القوة التي يمتلكها الجيش الفرنسي.

وكان بالصفار يرد هنا على ما جاء في الرحلات المغربية السابقة في نظرتها القاصرة وعدم فهمها ومكابرتها في فهم الصورة الواقعية للقوة العسكرية الأوروبية ومحاولات مقارنتها بما يملكه المغرب، إذ اعتبر الغزال ومن بعده المكناسي في القرن 18م أن القوة البدنية والفردية للعسكري هي الفاصل في الحرب.

وعادت هاته الصورة لتتكرر بعد حضور الصفار استعراضاً عسكرياً في باريس، حاول فيه الفرنسيين تعمد إظهار قوتهم العسكرية بهدف تبكيث وإبهار الآخر المغربي وهذا ما عبر عنه الصفار بقوله: «...ومن بعد الغد أمر لنا السلطان بسرد العساكر، واستدعانا للفرجة فيها مبالغة في إكرامنا والاعتناء بنا ظاهراً، لأنه لا يفعل ذلك إلا لمن عنده في حظوة، وزيادة في تبكيثنا والتنكيث علينا باطناً...»⁽³⁾، ما يؤكد أنه بقدر اهتمام الرحالة المغاربة برصد مشاهدات الواقع العسكري الأوروبي ومحاوله معرفة مكان قوته، كان هناك سبب آخر فرض هذا التوجه من خلال تعمد الأوروبيين استعراض قوتهم العسكرية بقصد إبهار الآخر المغربي.

فالصفار بعد حضوره هذا العرض العسكري يعبر عن إعجابه لا خوفه مما رآه من تنظيم وترتيب جيوش الفرنسيين الحديثة، يقول: «مع أننا والحمد لله لا نخافهم وإنما نخاف الله».

(1) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 162.

(2) المصدر نفسه، ص 162.

(3) المصدر نفسه، ص 228.

لينتقل بعدها وينتقد بمرارة انحلال الجيش المغربي وضعفه، فبالرغم من "كفر" أفراد الجيوش الأوروبية-حسب الصفار- فإن قوانينهم عادلة وسيرتهم مرضية لانبنائها على ضوابط العقل الذي لا نظام إلا به، فالصفار يبين ذلك بحس عقلي، وكأنه يساجل رأيا سائدا في المخزن مفاده أن غلبة الجيوش يكون بقدر ما يحل لأفرادها من إيمان صحيح لا بقدر تنظيمها تنظيما حديثا محكما⁽¹⁾.

ليؤكد أنما القوة العسكرية كما اكتشفها في فرنسا عمادها الترتيب والتنظيم والحزم، ويعبر عن ذلك بكثير من الإعجاب والتعجب وهو يشاهد استعراض الجنود الفرنسيين قائلا: «... رأينا من قوتهم وحزمهم ووضعهم كل شيء في محله، مع ضعف الإسلام واختلال أمر أهله، فما أحزمهم، وما أشد استعدادهم، وما أتقن أمروهم وأضبط قوانينهم، وما أقدرهم على الحروب، وما أقواهم على عدوهم، لا بقلوب ولا بشجاعة ولا بغيرة دين، إنما ذلك بنظامهم العجيب، وضبطهم الغريب، واتباع قوانينهم التي هي عندهم لا تنخرم»⁽²⁾.

في صورة استحضار فيها صاحب الرحلة حال "الأنا" المغربية والإسلامية من عشوائية في التسيير في كل القطاعات، وإن بدت في الجانب العسكري أكثر خاصة بعد المواجهات المباشرة على الأرض المغربية بين الأوروبيين والمسلمين، ولا يكتفي الصفار بهذا بل يقدم نقدا صريحا للنظرة والأحكام التقليدية التي كانت تسيّر الواقع العسكري الإسلامي بأن القوة الفردية والشجاعة والغيرة الدينية هي أسباب التفوق كما بينه رحالتنا في القرن 17 و18م، بل يؤكد أن النظام والترتيب واتباع القانون هو أساس ذلك، وهي رسالة من الصفار كذلك للمخزن المغربي وحاشيته ومثقفيه وعسكريه وفقهائه للنظر بموضوعية لهذا التفوق الأوروبي، بالرغم من أنه لم يناد بالأخذ عن الأوروبيين صراحة إلا أن إعجابه بما لديهم ظاهر وجلي.

ولم تختلف مشاهدات الواقع العسكري في رحلة الفاسي كثيرا عما أورده بقية الرحالة، إذ أن أكثر ما شده في الجيش الإنجليزي هو ترتيبه وتنظيمه: «... حتى تسرد العسكر، ورأينا ترتيبا عجيبا، وأسلوبا غريبا، ربما اندهش رائيه وهال بغتة ملاقيه...»⁽³⁾. ويبدو هذا المظهر أيضا مما أثار حفيظة وحسرة الفاسي فراح يدعو عليهم: «... هذا العسكر أباده الله...»⁽⁴⁾ و«... الله يهلك القوم الكافرين، وينصرنا عليهم»⁽⁵⁾.

(1) عبد السلام حيمر، مظاهر الحداثة الأوروبية في الكتابات السفارية المخزنية (الحداثة العسكرية نموذجا)، مرجع سابق، ص 170.

(2) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 233.

(3) أبو الجمال محمد الطاهر الفاسي، مصدر سابق، ص 15.

(4) المصدر نفسه، ص 16.

(5) المصدر نفسه، ص 17.

وكما جرت عليه العادة حضر الوفد السفاري المغربي الذي زار عديد الدول الأوروبية سنة 1876م، والذي كان الجعيدي صاحب رحلة "تحاف الأخيار" ضمن أعضائه استعراضا عسكريا نظمته رئيس الجمهورية الفرنسية في باريس، وكان الجعيدي قد حرص على وصفه وصفا دقيقا⁽¹⁾، فما أثار انتباه الكاتب المغربي في هذا الجيش هو نظامه الناجم عن توزيع أفرادهِ إلى مشاة وخيالة ومدفعية، وتوزيع كل هذه الأسلحة إلى فرق منظمة تنظيما تراتيبيا، لما كان يعلمه من أحوال بلاده التي لا ترقى لمستوى التنظيمات العسكرية للجيش الفرنسي الحديث، إلا أن مفعوله النفسي في الكاتب المغربي وصحبه لم يرتق إلى المستوى الذي رأيناه لدى الطاهر الفاسي والصفار قبله بسنوات.

وعكس بقية الرحالة المغاربة الذين رأوا واعترفوا بفارق التنظيم والترتيب الذي يصب في صالح الأوروبيين، والذي مثل أهم عامل في تفوقهم على المغاربة في عديد المواقع العسكرية، فإن الكردودي الذي ارتحل إلى إسبانيا سنة 1885م وفق نظرة تركز فيها على ذاته؛ نظرة عادت بنا إلى تلك الصورة التي رسمها الغزال والمكناسي أثناء القرن الثامن عشر، نظرة تأتي تحت تأثيرات وسياقات الإصلاحات والتحديثات التي أجراها السلاطين المغاربة على الجيش منذ منتصف القرن التاسع عشر، دخل في مقارنة فاضل فيها بين ترتيب وقوة الجيش الإسباني ونظيره المغربي، مؤكدا تفوق الثاني عن الأول في كلا المجالين، فبعد حضور الوفد السفاري المغربي تدريبات الجيش في إسبانيا، أبان فيه الجنود الإسبان حسن تنظيمهم وترتيبهم، عمد الكردودي إلى مقارنتها بما هو موجود في المغرب فيقول معلقا: «وأين ذلك من ترتيبنا العجيب الذي لا يزدريه إلا خائن في دينه مريب، فإنك ترى خيولنا العربية متى أخرجت من أماكنها وبرزت عن مكانها واصطفت صفوفها...عليها فرسان لا يدرك شأوهم في الفروسية رجال ليس منهم من يختار لنفسه الظفر أو المنية، ما رأيهم من وصف بالإقدام إلا انفض عرقا، وفقد فرقا أو جبان إلا خرّ لوقته صريعا، أو ولى منقلبا على وجهه سريعا، ذوو نفوس أبية، وقلوب على اكتساب المعالي منطوية، إن زحفوا لمواطن الحروب، لا يعوزهم شيء عن الظفر بالمطلوب، أو برزوا لملاقاة العساكر، لا تجد منهم إلا من هو بقرنه ظافر، ولعدوه قاهر، أو ركبوا أربها أو قاتلوا غلبوا، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون»⁽²⁾.

فنرى أن الكردودي كلما رأى التفوق من ناحية التنظيم يصب في جهة الأوروبيين ينتقل لمقارنتها بما لدى المغاربة ويظهر قوتهم وبأسهم في الحروب، ويبدو أن قوة الصدمة لما رآه جعله يقول بهذا، وإن كانت هاته الصورة من المكابرة على الواقع قد تلاشت لدى كثير من مثقفي القرن التاسع عشر في البلاد المغاربية والإسلامية عموما بعد مشاهدتهم لعوامل القوة العسكرية الأوروبية، إلا أن ذلك لا ينفي بقاء جزء من هاته النخبة متمسكا بالموقف التقليدي الذي لا يقبل أن يرى التفوق عند الآخر "العدو".

(1) إدريس الجعيدي، مصدر سابق، ص 168-171.

(2) أحمد الكردودي، مصدر سابق، ص 85-86.

ولأن سياقات رحلة ابن أبي الضياف تندرج تحت تأثيرات اتجاه المشير أحمد باي إلى تحديث الجيش التونسي على النمط الأوروبي نوه صاحب "الإتحاف" إلى خاصية التنظيم والترتيب التي ميزت الواقع العسكري في فرنسا، ففي مدينة طولون: «ومن الغد أتاه جميع من في طولون من العسكر، ومروا بين يديه ورأى نظافتهم وسلاحهم وحسن ترتيبهم، ثم توجه إلى المارستان، ثم إلى خزانة السلاح ورأى حسن تنظيمها»⁽¹⁾.

ولم يخرج وصف الرحالة الجزائريين عن باقي الرحالة المغاربة للجيش الأوروبية، وصف لا يخلو من كثير إعجاب وتعجب، وإن كان حديثهم عن "جيش النظام" يدخل في سياق مهمة كتابتهم لنصوصهم الرحلية الهادفة لإبهار قرائهم المحتملين من بني جلدتهم بقوة فرنسا العسكرية، هاته القوة التي أساسها "النظام"، إلا أننا لا نستبعد تأثيرهم مثل بقية الرحالة بما رأوه من النظام والترتيب الذي كان عليه الجيش الفرنسي، لذا رأى سليمان ابن صيام وهو يصف حضوره لأحد الاستعراضات العسكرية أن ما رآه في ذلك الجيش من تدريب وخدمة وترتيب، أن "ذلك من أحسن ما رأينا"⁽²⁾.

فيما عبر ابن علي الشريف عن عجزه وانبهاره بما رآه من ترتيب وتنظيم للجيش الفرنسي في هذا العرض مع كثرة عدد أفراد العسكر: «...وفي ذلك اليوم أمور عظيمة لم تقع في أول الزمان ولا في آخره...وحضر في ذلك اليوم جمع غفير من عساكر فرنسة، نحو الستين ألفا من غير الخيالة والطبجية ورتبهم ترتيبا حسنا، فتعجبنا من ذلك الترتيب الحسن، وفي ذلك اليوم العظيم ما يعجز الألسنة وصفه...»⁽³⁾.

ولا يختلف أحمد ولد قادي عن سابقيه في حديثه عن ترتيب الجيش الفرنسي ونظامه: «...تشرف البعض من أعيان العرب بالحضور في تسراد العساكر وتدريبها وتنظيمها على هيئة القتال...فيا له من يوم مشهود يبلغ خبره الحاضر للغائب ويسير بذكره في المشارق والمغارب...فما ترى غير بوارق السيوف الساطعة في دياجي الغبار، وسوابق الخيول التي لا يجد العدو منها فرار، والصفوف الهائلة الرؤية الشديدة الوطأة التي لا يدخل نظمها اختلال، ولا يطمع في تفريق كلمتها عدو محتال...»⁽⁴⁾ و: «...ثم شرعت العساكر في المرور بين المحفلين، تمر مرّ السحاب في غاية التنظيم والتحكم الحربي... ثم وقفت وقفة فارس واحد كبنيان مرصوص...»⁽⁵⁾.

(1) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج4، مصدر سابق، ص98.

(2) سليمان بن صيام، مصدر سابق، ص 27-28.

(3) ابن علي الشريف، في كتاب خمس رحلات جزائرية، ص 66.

(4) أحمد ولد قادي، مصدر سابق، ص 26.

(5) المصدر نفسه، ص 30.

ثانيا: اكتشاف الرحالة المغاربة أسس تكوين وتسيير الجيوش الأوروبية

وعلى العموم يبدو أن رحالينا قد اكتشفوا أثناء تواجدهم بأوروبا أن النظام والضبط "الغريب" وحدهما لا يكفيان في امتلاك جيش قوي، لذا نراهم باحثين في التدابير التي تسيّر الجيش وتكونه، وجعلت من الجيوش الأوروبية مهينة على هذا النحو موفورة العدد والقوة، ونحمل هاته التدابير التي اكتشفها رحالينا المغاربة في:

- **القانون العسكري:** فكما كان "النظام" هو خاصية الدولة الحديثة في أوروبا، انتبه رحالينا كذلك إلى كون "القانون" واحترامه وتقديسه كـ: "قانون دولة" لم يشمل مجالا بعينه بل كافة قطاعات الدولة، وعلى رأسها القطاع العسكري، وأن تفوق الأوروبيين العسكري يرجع كذلك لضبطهم القوانين وإجرائها على الجميع، يقول الصفار: «إن صدرت من واحد منهم زلة أمروا عليه شريعتهما، سواء كان رفيعا أو وضعيا، وإن ظهرت لأحد منهم مزلة أرقوه درجتها، لا يطمع أحد منه في غير ما هو له، ولا يخاف على ما في يده أن ينزع منه»، وقد جنى الأوروبيون ثمار فرض القانون العادل وظهرت آثاره على أرض الواقع: «فعلى ذلك يبذلون مهجهم في المعارك، ويلقون بأنفسهم في المهالك، ولو رأيت سيرتهم وقوانينهم لتعجبت منها غاية العجب مع كفرهم وانمحاء نور الإيمان من قلوبهم، وما راء كمن سمع...»⁽¹⁾.

ولم يترك الأوروبيون شيئا للصدفة بل صيروا قوانين في كل ما يخص الجانب العسكري حتى "الخيال التي تجر المدافع وآلاتها" سجل الصفار حرصهم على أن يكون بباب الأسطبل «لوح مكتوب فيه قانون سياسة الخيل، ومقدار علفها وغير ذلك مما يتعلق بمباشرتها»، وهكذا لا يفلت مجال من مجالات حياة المجتمع بما فيها الاعتناء بخيل سلاح المدفعية من سيادة القانون الدال على حسن الترتيب والنظام.

ويظهر العمراوي أيضا إعجابه الشديد بالعسكر الفرنسي الذي تنظمه القوانين والأحكام فلا يتعدى أحد على أحد ولا تعطى المناصب العسكرية إلا لمستحقها كما بينها القانون: «وأما قاعدتهم في ضبطه فقرروا أحكاما لكل جريمة تجري على فاعلها حتما، وليست عندهم شفاعاة في ذلك ولا هوى، وقطعوا الطمع عن أن يتولى أحد مرتبة فيه برشوة أو شفاعاة أو قربه من هذا أو بعده، وإنما الولاية بالأهلية والمزية...»، وأن هذه القوانين لا تسمح للأعلى رتبة باحتقار واستغلال الأقل منه رتبة: «... ولم يطلقوا للمتولين اليد في العسكر بالتعدي والضرب والسجن، ولا بأخذ شيء من مرتبهم، فلا يحدث في قلوب العسكر حنق عليه حتى يطلبون عزله وولاية غيره...»⁽²⁾.

(1) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 233

(2) إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 122.

- **العدل العسكري (الترقية حسب ما يقدمه العسكري):** ويضيف الصفار في أسباب تفوق الأوروبيين العسكري وتأكيدا منه على أهمية ضبط القوانين وإجرائها على الجميع في شتى المجالات وخصوصا الواقع العسكري يقول: «إن صدرت من واحد منهم زلة أمروا عليه شريعته، سواء كان رفيعا أو وضيعا، وإن ظهرت لأحد منهم مزية أرقوه درجتها، لا يطمع أحد منه في غير ما هو له، ولا يخاف على ما في يده أن ينزع منه، فعلى ذلك يبدلون مهجهم في المعارك، ويلقون بأنفسهم في المهالك، ولو رأيت سيرتهم وقوانينهم لتعجبت منها غاية العجب مع كفرهم وانحاء نور الإيمان من قلوبهم، وما راء كمن سمع...»⁽¹⁾، فنلاحظ أن الصفار يعطي تفسيراً موضوعياً للتفوق الأوروبي على المسلمين.

وتكاد تتطابق الصورة التي ذكرها الصفار في هذه النقطة مع ما ذكره العمراني فيما بعد، وربما نظر إليها انطلاقاً من مكتسباته وبيئته وطبيعة تكوين الجيش العسكري المغربي، إذ كشف أن الترقية في المناصب العسكرية بفرنسا إنما تكون بالكفاءة لا بالمحسوبية والعلاقات الأسرية: «...ومن ظهرت نجابته في فن من الفنون قصره عليه، ليمهر فيه ويدركون المراتب عندهم بالمزايا، فمن ظهرت له مزية وهو عسكري استحق بها أن يكون مقدما، وإن كان مقدما استحق أن يكون قائد مائة...وهكذا لا ترى أحدا منهم يدرك التقدم بغير المزية، ولا يخطر في خاطر أحد من الرؤساء أن يقدم أحدا في العسكر لكونه صديقه أو قريبه، وكيفية إظهار المزايا عندهم أنه إذا ظهرت لأحد مزية أن يعطي نيشانا يجعله في صدره...»⁽²⁾.

وقد أدرجها خير الدين ضمن الضوابط والترتيبات التي اشتهر من خلالها الجيش الفرنسي وزادته قوة، فلا يمكن لأحد أن يصير ضابطا في العسكر إلا بالاستحقاق وذلك بأحد أمرين: أولهما تعلّم الأمور العسكرية في المكتب العسكري فإذا شهد بنجابة المتعلّم أهل المعرفة خرج من المكتب ضابطا صغيرا أو ملازما فما دونه ثم يترقى بحسب أهليته، والثاني أن يخدم في الجندية ستة أشهر في الأقلّ فيترقى إلى ما فوق بالشروط المقرّرة عندهم⁽³⁾.

- **الانضباط العسكري والانصياع للأوامر:** وقد حرص الصفار على تسجيل إعجابه الكبير بما رآه ليفسر أن هذه القوة ترجع لعدة أمور على رأسها الانضباط: «...فركبنا فيها وسرنا حتى بلغنا لباور فرصال فصعدنا، فصعدنا إليه فرأينا فيه من الطبعيات والمدافع وسائر آلاتها وإقامتها، ومن العساكر وترتيبها ووضع الأشياء في محلها وإسراع به

(1) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 233.

(2) إدريس العمراني، مصدر سابق، ص 118.

(3) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 224-225.

لإجابة أمر كبيرهم وطاعتهم له ومن الإتقان والحزم والضبط ما ينبئ من عظيم قوتهم، وحدة عقولهم وحسن إعدادهم وتدريبهم واستعدادهم للأمور قبل أن تنزل بهم...»⁽¹⁾.

ومن أهم مقومات قوة الجيوش الأوروبية الحديثة التي لاحظها العمراني وهو يصف حال الجيش الفرنسي؛ هي الانضباط والامتثال للأوامر العسكرية مهما كانت، فبين بذلك العلاقة بين الرئيس والمرؤوس في الجهاز العسكري، والضوابط التي تحكمها: «...فالذي ظهر لي أن العسكر عندهم مثل الآلة في يد الصانع يفعل بهما ما يشاء، لا تخرج الكلمة من فيه حتى تمتثل، ولو أمرهم بقتل أنفسهم لفعلوا، ولقد رأينا الآلاف من العسكر مارين في الطريق لا يلتفت أحد إلى أحد ولا يتكلم أحد مع أحد، وبأهم كله مصروف إلى ما يصدر من كبيرهم منتظرون لما يأمر به، وإذا وقفوا حسبتهم صورا بلا أرواح...»⁽²⁾ وهذا هو سر الانضباط الذي ميز العسكر الأوروبي.

ولا شك أن الرحالة المغاربة وهم يشاهدون هذه الصورة، كانوا يستحضرون في ذلك أسباب هزيمة الجيش المغربي في معركة إيسلي سنة 1844م أمام نظيره الفرنسي، فكما يؤكد الناصري أن عدم طاعة الأوامر العسكرية مع قلة الانضباط كان سببا رئيسا في انهزام المغاربة: «...فالحاصل أن جيش مغربنا إذا حضروا القتال وكانوا على ظهر خيولهم فهم في تلك الحال مساوون في الاستعداد لأمر الجيوش، لا يملك من أمرهم شيئا، وإنما يقاثلون هداية من الله لهم وحياء من الأمير، وقليل ما هم...»⁽³⁾.

- التعليم العسكري: هذا وانتبه الرحالة المغاربة أيضا إلى أهمية التعليم العسكري في تكوين الجيوش الأوروبية الحديثة، فهذا النظام والترتيب واحترام القانون والضبط التي كانت عليه هاته الجيوش لم يأت من فراغ، فوقف العمراني عند التعليم والتكوين العسكري داخل الثكنات في فرنسا، حيث يدرس المتعلم القانون العسكري ويعرف ضوابطه، ويبن العمراني أن ذلك لا يأتي إلا بالتعليم والتكون حيث: «...يتعلمون ما يتعلق بمطلق العسكر، وهناك يقرؤون الأحكام اللازمة للعسكر من لزوم الطاعة وامتثال ما يأمر به كبيره، وأن من خالف يكون له كذا ومن قتل يكون له كذا، ومن فر يكون له كذا وغير ذلك، فلا يخرج من تلك المدرسة حتى يكون عارفا بجميع الملائم والأحكام المترتبة

(1) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 160.

وربما كان في ذلك استحضار للدور الذي لعبته الاستخبارات الفرنسية في حسم معركة إيسلي، إذ كانت القيادة العسكرية الفرنسية جمعت معلومات حول الجيش المغربي. أنظر: يحي بولحية، البعثات التعليمية في اليابان والمغرب من أربعينيات القرن التاسع عشر حتى أربعينيات القرن العشرين تبين المقدمات واختلاف النتائج، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة-قطر، أبريل 2016، ص69.

(2) إدريس العمراني، مصدر سابق، ص119.

(3) أحمد الناصري، الاستقصا، ج9، مصدر سابق، ص 161.

على الجرائم...»⁽¹⁾، فالسفير المغربي لا يغفل عن تنبيه قارئيه إلى أن النظام والعدل لا يأتیان الثمرة المرجوة منهما في إعداد الجيش القوي الفعال؛ إلا متى تم ذلك بتوسط العلم والمعرفة⁽²⁾.

وكذلك انتبه الفاسي لوجود التعليم العسكري في الجيش الإنجليزي وذلك عند مشاهدته للمنخرطين في البحرية العسكرية في مرسى بورنسموث: «والحاصل أنها مهما صعدنا لمركب من تلك المراكب وجدنا فيها عدد من الصبيان... بقصد التعليم لا غير، ولا ينزلون للبر إلا ثلاث مرات في العام بقصد رؤية أهلهم... ويقسمونهم في التعليم على ثمانية أقسام، وملكهم يمون الجميع...»⁽³⁾.

ولاحظ الجعيدي بعدها أن سبب التطور والتفوق التقني الذي رأى عليه الجيوش الأوروبية يعود إلى توفرهم على تعليم ومدارس عسكرية متعددة هدفها تكوين المنخرطين فيها علميا وعسكريا فعند زيارته لـ"سكويلا من سكويلاات العسكر": «ومعناها الدار التي يتعلمون فيها العلوم الحربية، فوجدناها مملوءة بفئة من العسكر، كانوا جالسين على الأسرة من عود، وكل واحد قدامه كتاب، وكبيرهم مقابل لهم... وذكر أنهم يأتون إلى هذه الدار في الساعة الخامسة من صباح كل يوم، ولا يخرجون منها حتى تصل الساعة الحادية عشر ليلا، وتبقى لهم من اليوم بليته ست سوائع للنوم والاستراحة...»⁽⁴⁾، فحدثنا الصورة وجدتها على الجعيدي جعله يشير لهذه المدارس بلفظها الفرنسي ثم يشرحها لقارئه من الفئة المخزنية والمتقفة في المغرب عبر تعريف معناها لهم.

- **الاعتناء بأفراد الجيش:** كان الاعتناء بأفراد الجيش في حال نهاية الخدمة أو العجز في أوروبا من أهم الترتيبات في المجال العسكري التي لاحظها الرحالة المغاربة، فيذكر خير الدين أنّ من خدم في العسكر الفرنسي مدة معلومة أو عجز قبل تمام المدة بسبب الخدمة فإنه يعطى مرتب التقاعد على كيفية مبينة في قوانينهم وقد يعطى لزوجه بعد موته ثلث ذلك، وللدولة اعتبار تامّ بتربية أيتام من مات في خدمتها خصوصا الخدمة العسكرية ذكورا كانوا أو إناثا ولهم مكان معدّ لتربية البنات تحت نظر الإمبراطورية⁽⁵⁾.

وكذلك انتبه رحالتنا إلى تخصيص الأوروبيين دور خاصة بالعسكريين الذين أنخوا الخدمة أو من كان لهم عجز لأي سبب كان، وربما كان ذلك لعدم امتلاك المغاربة تديبرا عسكريا مماثلا، وقد أعجب العمراوي كثيرا بذلك وهو يصف المستشفى العسكري الفرنسي ليزانفليد (Les Invalides): «ومنها دار العسكر العاجز: وهي دار كبيرة

(1) إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 118.

(2) سعيد بن سعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة، مصدر سابق، ص 64.

(3) أبو الجمال محمد الطاهر الفاسي، مصدر سابق 39.

(4) إدريس الجعيدي، مصدر سابق، ص 322-323.

(5) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 228.

جدا مشتملة على بيوت عديدة بعضها فوق بعض، وله كنيسة ومطبخ ومارستان، وفيها خدمة وأطباء وقسيسون ورئيس عليها، وهي معدة عندهم لمن كبر في خدمة العسكر ولم يبق في خدمته نفع أو أصابته آفة في الحرب أو غيره، فأقعد أو قطعت بعض أعضائه أو شبه ذلك، وأراد الدخول لذلك المحل، فيدخل لها ويعطاه فراش وكسوة مرتبة، ويرتب له طعامه هناك ليلا ونهارا، فيبقى هناك إلى أن يموت، ومن أراد الخروج لا يمنع...»، وعبر العمراوي عن استحسانه وإعجابه بهذا التدبير قائلا: «وفعلهم هذا من السياسة بمكان ومما يرغب عسكرهم في خدمتهم في السر والإعلان، وينبت محبتهم في قلوبهم، فينالوا منهم غاية مطلوبهم...»⁽¹⁾.

وكذلك وقف ابن أبي الضياف عند التدابير التي أنشأها الفرنسيون للتكفل بالأفراد العسكريين المتقاعدين والمرضى ومعطوبي الحرب، «...وكان بمحل يسمى الأنفيلد وهو موضع من أصيب من العسكر في الحرب بنقص عضو ونحوه... ووجد من لا قدرة له على القيام، كل واحد في سريره، موكل به امرأة تناوله ما يشتهي... وبه مارستان كبير لمن طعن في السن وعجز عن الخدمة، تجري على الجميع جرايات واسعة ونفقة لها بال، من أحسن ما يتمنى الإنسان...».

ويبدو ابن أبي الضياف معجبا بمثل هذه التدابير منوها بانعكاساتها في المجال العسكري: «وهذا المحل مما يقوي قلوب عساكرهم حين يرون مآل العاجز منهم، وأنه لا يُترك نسيا منسيا، وهذا الشأن هو شريعة الإسلام، ولمثل هؤلاء حق شرعي في بيت مال المسلمين»⁽²⁾، فإعجاب ابن أبي الضياف بهذا التدبير واضح جدا بل إنه يتجاوز ذلك ويؤكد أن مثل هذه التدابير أصل في الشريعة الإسلامية والمسلمون أولى أن يطبقوها، بل ويدعوا صراحة إلى تطبيقها وهو حق شرعي للعسكري.

- الخدمة العسكرية والتجنيد: وعن تكوين الجيوش الأوروبية أشار الرحالون المغاربة إلى التجنيد، ويقدم خير الدين التونسي تعريفا موجزا للخدمة العسكرية والتجنيد الإجباري الفرنسي: «...وذلك أنّ الخدمة العسكرية بمقتضى قانون فرنسا تجب على أبناء الأمة الفرنسية من غير فرق في ذلك بين الأهالي بحيث يجب على من بلغ السن المحدود في القانون أن يحضر وقت أخذ العسكر ليدخل القرعة مع أبناء جنسه من سكان بلده إلّا إذا كان له عذر معتبر في القانون والخدمة العسكرية لها مدّة معلومة تنتهي إليها»⁽³⁾.

(1) إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 81.

(2) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج4، مصدر سابق، ص 104.

(3) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 225.

وتحدث الصفار كذلك عن طريقة التجنيد في الجيش الفرنسي، إذ أن الفرنسيين: «...يجندون في كل عام ثمانين ألف من العسكر، ومن دخل في العسكر يجب أن يبقى في الخدمة ثمان سنين ثم هو بالخيار»⁽¹⁾، فالصفار عكس خير الدين يشير إلى نظام العقود بين الجيش والمنخرطين فيه بعقود محددة الزمان يلتزم بموجبها المنخرط بأداء مهامه خلال مدة من العقد، وهي ثمان سنين عند انقضائها يبقى الخيار في تجديد عقده أو عدم تجديده، ولا يفصل الصفار بين التجنيد الإجباري والتجنيد الاختياري عن طريق العقود.

وهو ما ذهب إليه العمراوي في حديثه عن ظاهرة التجنيد الإجباري في الجيش الفرنسي وقوانينهم في ذلك ونظامها، ومما لاحظته العمراوي هنا هو عدم التمييز بين الغني والفقير في هذه العملية، وحسب العمراوي فهي لم تكن منتشرة في كل الجيوش الأوروبية على نفس النمط وذكر مثالا عن ذلك الجيش الإنجليزي، ويبدو العمراوي معجبا بطريقة التجنيد الفرنسية وأثرها في قوة الجيش قائلا: «وبسبب هذا الترتيب كثر عندهم العسكر، حتى إن بغتهم الحرب ولم يكتفوا بما عندهم من العسكر ألزموا من كان فيه من قبل وخرج ان يعود حتى يفوت إبان ذلك الحرب، لأن ذلك مشروط عليه، فعلى هذا صار جل افرانصة (فرنسا) عسكرا...»⁽²⁾.

- **تموين وتسيير الجيش:** ونظرا لأهمية القطاع العسكري في أركان أي دولة من الدول كان تركيز رحالينا كذلك على الدور الذي تلعبه الدول الأوروبية في تسيير هذه الجيوش، وعلى هذا الأساس لاحظوا تخصيص وزارة خاصة تعرف "وزارة الحرب" يتمثل دور وزيرها في: «حصر عدد العساكر البرية و إدارة المهمّات الحربية من المؤونة واللباس و الأسلحة وفبريكاتها (مصانعها) والحصون و المكاتب و المارستانات العسكرية ومجالس أحكام العسكر وسجونهم، وهو الأمر على حركات الجيش في وقت الصلح و الحرب والمكلف بإدامة الطاعة منهم وتعيين المبلغ الذي يدفعه من أراد إعفاء نفسه والخروج من الخدمة العسكرية و يقّدم لموافقة الملك ولاية من وجب تقديمه من ضباط العسكر على اختلاف مراتبهم ومتوظّفي وزارته و المكلفين بخدمة مهمّات الجيش ممّن له تعلّق بالوزارة ويمضي مع الملك في جميع الأوامر المتعلقة بهذه الوزارة»⁽³⁾.

وكان التسيير والتجهيز العسكري لا يقف عند أهواء الأفراد مهما كانت مكانتهم، وإن امتلك "وزير الحرب" كل هاته الصلاحيات، بل تظهر المؤسسة العسكرية كبقية مؤسسات الدولة الأوروبية الحديثة تضبطها القوانين وتتسامى عن الأفراد، وكمؤسسة فهي ترضخ لقوانين الدولة خاصة فيما يخص الميزانية، لذا تناول الصفار تدخل الدولة

(1) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 253.

(2) إدريس رحلة العمراوي، مصدر سابق، ص 117-118.

(3) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 223-224، إدريس العمراوي، مصدر

سابق، ص 113، محمد الصفار، مصدر سابق، ص 259-260.

في ضبط ميزانيتها كغيرها من القطاعات الأخرى وفصل تفصيلا دقيقا في ميزانية الجيش الفرنسي لسنة 1845م. وكرجل دولة، وعسكري سابق، انتبه خير الدين إلى ترتيب عسكري آخر رأى فيه صاحب "أقوم المسالك" من أهم تنظيمات الجيوش الحديثة في أوروبا ألا وهو الرقابة العسكرية، وذلك أنّ وزارة الحرب ترسل في كلّ عام عدّة أمراء إلى مراكز الجيوش لتفقد أحوالها في التعليم وسيرة الضباط والمؤونة والكسوة وأحوال السلاح، إلى غير ذلك من الأمور التي يجب البحث عنها، ثم يرفعون تقاريرهم إلى الجهات المعنية لتبحث فيها وتعطي المناصب لمستحقّيها في الترقيات⁽¹⁾، هذا الأمر الذي ولا شك سوف يقلص من أي فساد ممكن في القطاع العسكري.

ومن جانب آخر انتبه بعض الرحالة إلى التوجه نحو خصخصة تموين الجيوش في أوروبا في سياق التوجه الرأسمالي للدول الأوروبية، وعليه فإن تمويلها ليس منوطا بالدولة مباشرة، ويلفت الطاهر الفاسي انتباه قرائه من رجالات المخزن وهو يصف حال الجيش الإنجليزي إلى أن: «...القائم بمؤونتهم تجارهم، من كسوة وعدة وغير ذلك، عدا البندقية والبارود إذا حدث قتال فإنه يخرج كله من عند المخزن...»⁽²⁾.

- تجهيز الجيش: واهتم الصفار بتكوين الجيش المنظم المرتب وتجهيزه بأحدث أنواع الأسلحة والعناية بلباسه ومسكنه ونظافته وسلوكه حتى يكون على أتم الاستعداد، فقد سجل الصفار وجود عدد من القلاع المحيطة بباريس: «يسكنها العسكر، وفيها أبراج المدافع وبها يسكن الطبجية، لهم بها بيوت عديدة فيها فرشهم وأسلحتهم وبها بيوت وخزانات لأنواع السلاح في أحسن صورة في نظافة وضعه وكيفية إنزاله»⁽³⁾.

ولم يكتف الفاسي بهذا بل تطرق أيضا للتدابير والمخترعات العسكرية فتحدث عن الطب والإسعاف العسكري المرافق للجيوش في المعارك، والمعدات المحمولة لكل عسكري في صورة غريبة عن صاحب الرحلة: «...وكل واحد من هذا العسكر حامل لفراشه، وآنية أكله وشربه وزاده، ومنه من هو حامل للشواقر مغلقة في جلد، ومنه من هو حامل للخنايش والفؤوس في غلافها أيضا من جلد»⁽⁴⁾.

وفي سياق وصفه للاستعراض العسكري بباريس عبّر الجزائري ابن قادي عن ظاهرة الطب العسكري ممثلة في صورة تواجد مستشفى نصقل مع العسكر: «...وقد رأينا الاسبيتال محمول فوق كراريس متينة مطلاة بالأحمر والأبيض، مميزة بصليب وراية، أيضا بالصليب علامة تبيين الأجناس في القتال على احترام المرضى والمجاريح واجتناب مضرتهم...»⁽⁵⁾.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 225.

(2) أبو الجمال محمد الطاهر الفاسي، مصدر سابق، ص 14.

(3) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 167.

(4) أبو الجمال محمد الطاهر الفاسي، مصدر سابق، ص 17-18.

(5) أحمد ولد قادي، مصدر سابق، ص 27.

ثالثا: في قوة الجيوش الأوروبية وعتادها

وإن أخذ "جيش النظام" حيزا معتبرا في نصوص الرحلات المغاربية خلال القرن التاسع عشر في سعيهم لفهم قوة الجيوش الأوروبية، فإن واقع هاته الجيوش في بلدانها الأم بأوروبا من قوة في العدد والعتاد أخذت نصيبها في كتاباتهم، وفي هذا الجانب من الواقع العسكري الأوروبي تباينت أيضا درجة اهتمامات الرحالة باختلاف سياقات رحلاتهم.

فرغم إعجاب الصغار بالجانب التنظيمي للجيوش الأوروبية، نجد أنه يظهر كذلك اهتماما بالصناعة العسكرية الفرنسية فيقول عن المراكب البحرية الحربية التي رآها في مدينة طولون الفرنسية: «...فإذا هو من أعظم ما يكون وأتقنه وفيه ما يحير الناظر»⁽¹⁾، معبرا عن تعجبه الدال عن عجزه عما رآه من قوة وعظمة.

وإن كان القارئ لمقدمة نص رحلة العمراوي يتوقع أن يفرد الكاتب صفحات عديدة لواقع القوة العسكرية فيما يخص التطور التقني والصناعي للعدة الحربية الفرنسية، خاصة وأن سياقات ودوافع رحلة السفير المغربي تدرج تحت تأثيرات الهزائم العسكرية التي تعرض لها المغرب من القوى الأوروبية، وربما كان آخرها مهاجمة تطوان من قبل الإسبان سنة 1860م، إلا أننا نجد أنه يكتفي بالتنويه بتوجهات السلطان المغربي إلى: «...مسارعة إلى استجلاب ما تصان به الثغور من العدة وتنفسح لأخذ الأبهة المدة ريثما يستجمع ليته...»⁽²⁾، ما يؤكد أن المغاربة ما زالوا مؤمنين أن مجابهة القوى الأوروبية والوقوف في وجهها لا يتم إلا بالقوة العسكرية أساسها تعزيز قوة الجيش.

كذلك أدرك الطاهر الفاسي حجم التجاوز في القوة والتقنية العسكرية بين المغاربة والأوروبيين، لذا يعبر عن دهشته وعجزه أمام ما يراه من قوة الآخر الإنجليزي، ففي استعراض مناورة عسكرية حضرها الوفد السفاري المغربي نلاحظ عجز الفاسي أمام ما يملكه الإنجليزي من تقنيات وأساليب حربية غريبة عن المغاربة، وقد عبّر صاحب الرحلة عن ذلك قائلا: «...حتى ما كنا نرى شجرا ولا حجرا ولا مدرا، وغير ذلك مما لا يكيّفه الإنسان، وربما عجزت عن نصه البنان»⁽³⁾.

وفي لحظة اختلط فيها موقف الفاسي -بعد رؤيته لمشهد استعراض عسكري رهيب- بين الاعتراف بما لدى الآخر ومحاولة تحجيمه يقول: «والحاصل أنهم دمرهم الله يستعملون أشياء تدهش، سيما من رآها فجأة، وربما اختل مزاجه من أجل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، كيف تحيلوا على إصلاح دنياهم، حتى أدركوا منها مناهم، واستعملوا لذلك قوانين وضوابط، وفي كل ما يقرهم منها غوابط، وفيه إشارة إلى أن طيباتهم عُجلت لهم،

(1) محمد الصغار، مصدر سابق، ص 161.

(2) إدريس العمراوي، مصدر سابق ص 33.

(3) أبو الجمال محمد الطاهر الفاسي، مصدر سابق، ص 19.

وذلك نصيبهم وحظهم، وفيه إشارة أيضا إلى أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، قال عليه الصلاة والسلام: "لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى الله الكافر منها جرعة ماء"، والله يحفظ بيضة الإسلام ويحميها من كل مكروه بجاء نبيه عليه السلام»⁽¹⁾.

وقد كان وصف الفاسي للمصانع والصناعة العسكرية دقيقا جدا، فلم يكتف بذكرها بل ركز على السلاح من بنادق ومدافع وغيرها من الاختراعات العسكرية من بداية إنتاجها إلى نهايتها واصفا كل مرحلة يمر بها في مصانع الأسلحة الإنجليزية⁽²⁾، ليختم الحديث عن القوة العسكرية البحرية الإنجليزية: «جميع المراكب التي عند-الإنجليز- مائتان وألف فسبحان من قضى عليهم بالكفر، وحتمه عليهم حتما (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى)»⁽³⁾، ويبدو أن ما رآه الفاسي من هذه الصناعات العسكرية أرببه فعلا، فلا يجد إلا التضرع ودعاء الله في اتقاء شرهم: «...والأمر لله، نعوذ بالله من شرورهم وشرور غيرهم، وجعل كيدهم في نحورهم، آمين»⁽⁴⁾.

لكن الفاسي يلاحظ أن هذه الصناعات العسكرية المتطورة لم تأت من فراغ مؤكدا أن: «والحاصل أنهم أتبعوا أنفسهم أولا في إدراك المسائل النظرية، وكابدت على تحصيلها حتى صارت عندهم ضروريات، ولا زالوا يستنبطون بعقولهم أشياء كثيرة، كما أحدثوا البابور وغيره»⁽⁵⁾، وعليه فإن تفوق الأوروبيين عسكريا يعود إلى أمرين اثنين هما التنظيم والترتيب العسكري، والصناعات العسكرية المتطورة التي أتت بفضل العلم والعقل.

والقارئ لرحلة الجعيدي يلاحظ أن المسألة العسكرية في أوروبا قد أخذت قسطا هاما من اهتماماته، فلا يهتم الكاتب المغربي كثيرا بوصف وتحليل تكوين "الجيش الحديث" كثيرا على غرار من سبقوه من رحالة المغرب الأقصى، لأن جيش النظام كان قد استحدث في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان (1859-1873م)، فأصبح المشكل المطروح في عهد ابنه السلطان الحسن الأول (1873-1894م) يتمثل في إيجاد السبل والوسائل لتطوير الجيش المغربي عددا وعدة وتجهيزا وتدريباً⁽⁶⁾، لهذا كلف السلطان السفير الزبيدي (كان الجعيدي كاتباً لسفارته) بمهمة التعرف على المعامل الحربية والبحث والتقصي عن المعدات وكتابة تقارير حولها، ونبهه على الاهتمام والتركيز على

(1) المصدر نفسه، ص 19.

(2) المصدر نفسه، ص 23-28.

(3) المصدر نفسه، ص 39.

(4) المصدر نفسه، ص 28.

(5) المصدر نفسه، ص 28.

(6) عبد السلام حيمر، مظاهر الحداثة الأوروبية في الكتابات السفارية المخزنية (الحداثة العسكرية نموذجا)، مرجع سابق، ص 168.

بعض العينات بل طالبه بجلبها إذا أمكن⁽¹⁾.

وفي إطار هذه المهمة العسكرية، شرع الجعيدي في تسجيل تقاريره وارتساماته بأسلوب ناقد للواقع الصناعي العسكري في البلدان الأوروبية المرتحل إليها، فجنده يركز اهتمامه أكثر من سابقه على مصانع الأسلحة من مدافع حديثة، وكور، وقاذفات مائية لتدمير السفن ومكاحل حديثة ومتطورة.

من جانب آخر فالأوروبيون علموا بهدف الرحلة السفارية التي كان الجعيدي من ضمن أعضائها؛ فراحوا يستعرضون صناعتهم العسكري أمام السفارة المغربية⁽²⁾، وبالتالي اختلفت وتغيرت أهداف الأوروبيين من استعراض قوتهم وصناعتهم العسكرية من محاولة إبحار وإعجاز الآخر المغربي وتحسيسه بالضعف مثل ما كان عليه الأمر في رحلة الصفار سنة 1845-1846م، إلى استعراض هذه القوة من أجل تسويق منتجاتها الحربية إلى المغرب.

وفي فرنسا زار الجعيدي وأعضاء الوفد المغربي عددا من المنشآت العسكرية⁽³⁾، ولفت انتباهه صاحب الرحلة اهتمام الفرنسيين بتطوير الصناعة العسكرية، وعدم غفلتهم عما يتم إنتاجه في هذا المجال لدى مختلف الدول، ويقول في ذلك: «...ثم انتقلنا إلى بيت آخر وجدنا فيه عينات من المكاحيل مهما ظهرت عينة جديدة عند جنس من الأجناس يوتى لهم بها بعدد منها، فيسلمونه للمعلمين المهندسين يختبرونها ويقلبونها ويخبرونهم بما يظهر لهم منها...»⁽⁴⁾، وذلك مسaire للتطور التقني الحربي، وفي نفس الدار عاين الوفد المغربي لأول مرة البنادق الأوتوماتيكية التي استحدثها الفرنسيون، وحرص الجعيدي على وصفها بإعجاب كبير: «...وبينا لنا عينة أحدثها الفرنسيين، يفتح خزانة الجعبة، ويجعل فيها ثمان عمرات من البارود، فتكون العمارات مدفونة في طول السرير قرب رأس الجعبة إلى الخزانة، فإذا تمت عمارتها يجذب القرص فتخرج العمارة الأولى، وبنفس خروجها تدفع جعبة السلك العمارة الثانية إلى الخزانة ثم يفتحها فتلفظ الخزانة الجعبة التي كان فيها البارود، وتطير منها...وعند ذلك تستقر العمارة الثانية في الخزانة من موضع التي خرجت برجع السلك لها إلى الخنة، وهكذا العمل بها حتى تخرج العمارات الثمان، قيل أنهم يدركون بهذه العينة خروج أربعين عمارة في الدقيقة الواحدة»⁽⁵⁾.

(1) إدريس الجعيدي، مصدر سابق، ص 51. ومما جاء في رسالة الحاجب السلطاني للسفير الزبيدي وهو ببلجيكا في هذا الشأن: «... فهلا وجهت مكحلة من كل عينة من العينات المحدثات التي لم تصل للمغرب، ولا جلبها أحد للآن لا من التي وصلت للمغرب منها كالمعمرة من وراء فلا، وعليه فإن أمكنك أن تصحب معك عينات من المعدة المعتبرة الجديدة المحدث التي لم تصل للمغرب فافعل إن تيسر لك تدارك الإتيان بها، وبيان ثمنها...». أنظر: عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج3، مصدر سابق، ص340.

(2) إدريس الجعيدي، مصدر سابق، ص215.

(3) المصدر نفسه، ص321.

(4) المصدر نفسه، ص322.

(5) المصدر نفسه، ص 321.

وفي بلجيكا يظهر من "تحفة الأخيار" أن الجعيدي كان كثير الاهتمام بالاطلاع على ما تصنعه المعامل البلجيكية من مدافع حديثة، خاصة المدافع الصغيرة التي يسهل على الجندي حملها وجربها، والعمل بها بسرعة وخفة⁽¹⁾، ولعل هذا الاهتمام كان يعبر عن اهتمام المخزن المغربي بالأسلحة التي تمكنه من التوفر على طاقة نيران كثيفة فعالة وملائمة للحرب ضد القبائل المتمردة⁽²⁾، ولذلك نجد الجعيدي يصف وصفا دقيقا كيف يتم صنع هذا النوع من المدافع مع تجربته لها، مدعما وصفه برسم توضيحي على طرة الصفحة، وكأنه يريد تقديم "وصفة" صالحة للتطبيق بالمغرب، ثم يُظهر الجعيدي مزايا هذا النوع من المدافع، ذاكرا أصنافها، وقدرتها النارية ومدادها وأثمنتها⁽³⁾.

غير أن الجعيدي نظرا لخبرته في هذا الميدان أخذ إحدى البنادق البلجيكية في ميدان الرماية ببروكسل وجربها وتفتن لبعض عيوبها: «...وتوجهنا إلى الدار التي يتعلمون فيها الرماية... ووجدنا أناسا بذلك البيت يرمون تلك الألواح... فما أصابها واحد منهم، فناولني واحد منهم مكحلة بعدما عمرها من خزنتها، وآذني في الرمي بها، فأخذتها فوجدت نيشان الخزنة ضعيفا جدا لا ينحصر به المرمى، فحين شايعت بها المرمى ظهر في رأي العين أن فورمة المكحلة أعظم من المرمى، ولعله من صغر النيشان وشكل الجعبة، فحين أخرجت المكحلة لم اصب ذلك المرمى، فلم تكن له علينا مزية والحمد لله، وودت الآن لو كان معنا مكحلة من مكاحيل غرينا، لأن الرماية عندنا مما يكاد يستحيله السامع...»⁽⁴⁾. فضل عليها البنادق التقليدية المغربية مشيدا بالرماة المغاربة ومهارتهم، كما أن الجعيدي اجتهد في التعرف على طرقهم التقنية لصناعة هذه العدة ولم ينبهر بها بل اكتشف بعض عيوبها⁽⁵⁾.

وفي إيطاليا حضر الوفد المغربي تجريب الرمي بالمدافع العسكرية الحديثة، وقد وصف الجعيدي هذه المدافع وصفا دقيقا جدا، إلا أنه كعادته في عدم تصديق القول بل ما تراه عيناه يعبر عن شكوكه حول مدى دقتها: «...وقالوا: إن هذه الكورة أصابت رأس اللوحة التي كانت منصوبة إشارة، لكني لم أر أثرا لذلك لأن بينهما وبين المدفع اثنتا عشرة مائة متر... فحين رأونا وقع لنا الشك فيما يقولونه من إصابة الإشارة طلبوا منا الانتقال إلى قرب الألواح المنصوبة

(1) المصدر نفسه، ص 216-217.

(2) وتنتضح هذه المهمة من خلال المراسلات التي كانت قائمة بين حاجب السلطان والسفير الزيدي، إذ جاء في هذه المراسلات: «... وقد استحسن سيدنا أيده الله مدفع الجر الصغير الخفيف ذا العمائر، والذي نهبت عليه، وقال أيده الله: لا بد من بيان ثمنه أي المدفع الصغير الذي تحمله بغلة واحدة فتتحقق لنا ثمنه، ويبن لنا كيفية السريحة التي يحمل عليها، ولا بد حينئذ يظهر لسيادته ما يحتاج لجلبه...». أنظر: عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 3، مصدر سابق، ص 340.

(3) عبد السلام حيمر، مظاهر الحداثة الأوروبية في الكتابات السفارية المخزنية (الحداثة العسكرية نموذجاً)، مرجع سابق، ص 179-180.

(4) إدريس الجعيدي، مصدر سابق، ص 218-219.

ولا شك أن الدول الأوروبية حاولت تسويق عدتها العسكرية الأقل جودة للمغاربة مستغلة ربما عدم معرفتهم بأمر الصناعة العسكرية، وكان رأي الجعيدي في هذه الأسلحة مشابها لرأي معاصره المؤرخ الناصري الذي يقول في هذا الشأن: «... إنهم لا يبيعون منها إلا ما انعدمت فائدته عندهم، لكونهم ترقوا عنها إلى ما هو أجود منها، واستنبطوا ما هو أتقن وأنفع...». أنظر: أحمد الناصري، الاستقصا، ج 9، مصدر سابق، ص 184.

(5) إدريس الجعيدي، مصدر سابق، ص 54.

إشارة لنرى إصابتها معاناة... وهذا الأثر الذي في هذه اللوحة هو ضرب مدافع الجر، ثم سرنا إلى اللوحة التي رموها بالمدفع الكبير فأرأينا كثرة الضربة الأولى خرقت وسطها، والضربة الثانية أخذت طرفا من أعلاها فحين وقفنا على ذلك وشاهدناه معاناة...»⁽¹⁾، حينئذ تأكدوا من جودة ودقة هذه المدافع الكبيرة⁽²⁾، وتعبيرا منه على إعجابه بالمدافع الإيطالية المحدثه ودقتها تمنى الجعيدي أن تكون المراسي المغربية مزودة بمثله: «...ولو كان في مراسي مولانا السعيدة منها شيء في أبراجها لكان ذلك من الاستعداد بالقوة الظاهرة في الوقت حسب الاستطاعة...»⁽³⁾.

وإن إشادة الجعيدي بالمدافع الإيطالية ودقتها وعدم إعجابه بالبنادق البلجيكية قبل ذلك يدل على موضوعية صاحب الرحلة في رؤيته للصناعات العسكرية في أوروبا، خاصة وأن الجعيدي أخضع كلاهما للتجربة لا عن طريق ما قيل له فقط.

واهتم الجعيدي كثيرا بكيفية صناعة الذخيرة الحربية بإنجلترا، وتطرق لأسلوبهم التقني لصناعة الخفيف؛ أي الرصاص، والكور؛ أي القذائف والقنابل داخل أورش كبيرة تحوي حوالي ستة آلاف من العمال، وتبع الجعيدي معظم المراحل التقنية بدار صناعة المدافع، فوصفها ونقل صورا حية عن عمل صناعتها، كل فئة على حدة، وكان في وصفه دقيقا ومستقصيا وكأنه يكتب تقريرا مفصلا من أجل بناء مثيلة لها لكثرة التفاصيل التي يوردها.

ومن الواضح أننا هنا أمام كاتب لا يصف المظهر التكنولوجي للحدثات العسكرية لذاتها، بل يصفها قصد اقتباسها واستيرادها بواسطة البيع والشراء، فالجعيدي ينتقل إلى الوصف التفصيلي الهادف إلى تحقيق غاية عملية تحديثية رسمها المخزن المغربي لذاته في المجالات العسكرية، وهو ما يميز رحلة الجعيدي عن غيرها من الكتابات السفارية المغربية⁽⁴⁾، ومن خلال هذا المجهود الذي بذلته السفارة المغربية في المجال العسكري طبقا لتعليمات السلطان الحسن الأول، تظهر لنا الآمال التي كانت تعقد من وراء هذه الرحلة السفارية⁽⁵⁾.

أما الكردودي-بوصفه كاتب مخزنيا-يجد في المجهود التحديثي الذي قام به السلطان الحسن الأول، مرتكزا ومرجعا فيما سيكتبه عن مظاهر الحدثات العسكرية الإسبانية، في منتصف العقد الثامن من القرن التاسع عشر، لذلك نجد وصفه لمظاهر الحدثات العسكرية الإسبانية ينحو-غالبا-منحى المقارنة بما يتوفر عليه المغرب منها، فيقيس إحداها على الأخرى، مستنبطا من ذلك القياس أوجه الشبه والاختلاف منتهيا إلى إطلاق حكم تقدير لصالح هذا الطرف

(1) المصدر نفسه، ص 376-377.

(2) المصدر نفسه، ص 58.

(3) المصدر نفسه، ص 380.

(4) عبد السلام حيمر، مظاهر الحدثات الأوروبية في الكتابات السفارية المخزنية (الحدثات العسكرية نموذجاً)، مرجع سابق، ص 180.

(5) إدريس الجعيدي، مصدر سابق، ص 59.

أو ذاك، من ذلك مثلا أن أعضاء الوفد السفاري المغربي سارعوا بمجرد وصولهم إلى مدينة قادس الإسبانية إلى تقديم طلب: «لقائد المخزن المكلف بالنظر في أمر العسكر والأبراج والمدافع والطبجية» كي يسمح لهم بزيارة أحد تحصينات وأبراج المدينة، وعندما تمت الزيارة وجدنا الكرودوي لا يصف ما رآه في البرج الإسباني إلا بمقارنته مع مثيله بالمغرب، يقول الكرودوي: «...ومقصودنا أن نرى كيفية بنائها (الأبراج)، وعظم مدافعها وكيفية لنعلم الفرق بينها وبين أبراج طنجة الجديدة البناء...وفي هذا البرج مدفعان كبيران أكبر من المدافع الستة المجمولة بثغر طنجة...أحدهما من خمسة وعشرين طنا، والآخر من ثلاثين طنا، غير أنهما يعمران من مؤخرهما لا من أفواههما، ولأجل ذلكم يستخدمهما ثمانية أناس لا خمسة عشر، وحركتهما أخف بكثير من حركة مدافع طنجة، وقد رأينا حركتهما وكيفية تعميرهما وغير ذلك من الاستعمال، مع الاختصار في الآلات وعدد الرجال، إلا أن الأبراج التي جددت بثغر طنجة لاستخدام مدافعها فيها أتقن عملا وأحسن شكلا، وليت مدافعها كانت تعمر من مؤخرها كهذه، إذ لو كانت كما تمنيناه لكانت جامعة مانعة»⁽¹⁾.

هكذا نجد الكرودوي يخلص من مقارناته إلى نتيجة هامة، ينبه أصحاب القرار في المغرب إليها، وهي أن هناك مدافع أحدث وأجدي من المدافع التي اقتناها المغرب من أوروبا تمتلكها إسبانيا بينما لا يمتلكها المغرب، وهذا يعني أن هذا الأخير رغم تجديده لمدفعيته كما رأينا لم يحز من أوروبا على أحدث أنواع المدافع، فليست أوروبا بخيلة بأطرها النزيهة على المغرب فقط، بل هي بخيلة أيضا ببيعها أحدث منتجات تكنولوجيتها العسكرية، رغم جهود المغرب المبذولة من أجل تدارك ذلك⁽²⁾.

والظاهر أن الكرودوي جاء من المغرب محملا بصورة مرعبة عن الجيوش الأوروبية من حيث العدة والعدد، لذا نراه عند وصوله لإسبانيا يتساءل عن هذا العدد من العساكر ويستغرب من قلتها حسب ما شاهده في الوهلة الأولى بمدريد، وبين أنها عكس ما يشاع عن قوتها وضخامتها وكثرة عدتها وعددها فيقول: «ومدة مكوثنا هناك لم نر ما يصدق ما يحكى عنهم من القوة العسكرية، وغاية ما رأينا هناك أننا في بعض المدة كنا نرى ستة وثلاثين من مدافع الجر النحاسية...ورأينا من العسكر يوم الملاقاة نحو الألفين لا غير، اللهم إلا أن يكون مفرقا في مدغم وبلداتهم، فإن تعددها يوزن بالكثرة، ولكنهم ليسوا فيها كغيرهم غاية ما ينقل عنهم أن عندهم سبعين ألفا قائمة، وعددا كملت أيام خدمته فسرح إلى وقت الحاجة إليه»⁽³⁾، ويبدو أن صورة أوروبا العسكرية كانت كبيرة وقوية في مخيال المغاربة.

(1) أحمد الكرودوي، مصدر سابق، ص 62

(2) عبد السلام حيمر، مظاهر الحداثة الأوروبية في الكتابات السفارية المخزنية (الحداثة العسكرية نموذجاً)، مرجع سابق، ص 183.

(3) محمد الكرودوي، مصدر سابق، ص 62.

وعلى إثر زيارته لمصنع المدافع بإشبيلية يؤكد الكرودودي أن عقول المغاربة لا تقل عن عقول الأوروبيين التي أنتجت وطورت هذه الأسلحة العسكرية لذا جاء قوله: «...وهذه الدولة (إسبانيا) وإن اقتفت أثر غيرها في ذلك (التنظيمات العسكرية) فإنها لم تبلغ بعض ما استنبطوه، ولا عُلِمَتْ من صناعتهم مثل ما صنعوه، ولكنها لم تهمل ذلك إهمالا كلياً... بل جدت في إدراكه فأدرجت ما تيسر من ذلك، وهم جادون فيما سلكه غيرهم من تلك المسالك، وعقول أهل مغربنا أكثر منهم حدة، وفطنتهم بلغت منتهى الأمر وحده، فما توجه منهم لناحية ورأى من الصنائع ما توجه إليه أدركه في أقرب مدة...»⁽¹⁾.

إن اهتمامات الرحالة الجزائريين بالواقع العسكري في فرنسا انحصرت في أغلبها عند حضورهم للاستعراضات العسكرية التي كانت تقام في باريس، لذا كان جل ما وصفوه مقتبسا من هذا المشهد وعظمته بالنسبة إليهم، أي عظمة مشهد العروض العسكرية التي تنبئ بالقوة التي لم يروا قبلها ما يضاهيها، لذا عبّر ابن علي الشريف على هذا المشهد بالقول: «...وفي ذلك اليوم أمور عظيمة لم تقع في أول الزمان ولا في آخره، وقد اجتمعت فيه نحو المائتين وسبعين ألف إنسان من الأجناس الخارجة عن فرانسة، وحشر في ذلك اليوم جمع وافر من عساكر فرانسة...»⁽²⁾، ويضيف ابن صيام بخصوص هذا الاستعراض: «...وجملة من حضر مائتان وأربعون ألف شخص، وما منهم إلا ويقول ما رأينا مثل هذا اليوم قط في الحسن والبها...»⁽³⁾ ويضيف واصفا هذا الاستعراض العسكري على لسان وزير الحرب الفرنسي راندون: «...ثم قال لنا أسعده الله: أن هذا العرس عرس عظيم يجتمع فيه جميع الأجناس وكبراء العساكر ورؤساؤهم...»⁽⁴⁾.

وأذهلت الجيوش الفرنسية في هذا الاستعراض وأبهرت الرحالة الجزائريين بَعْدَتْهَا وعتادها، حيث يقول ابن صيام: «...وساروا بنا إلى ذلك المحل، فلما وصلنا أنزلنا في موضع مرتفع لنرى جميع ما يقع، وأمر أهل المدافع والخيالة والعساكر المتدرع بالحديد وغيره مما لا يأتي عليه الحصر، وقد رأينا العساكر في ذلك اليوم ما لم نر قط من رمي المدافع والضرب بالسيوف والرمي بالبنادق وخفة تلك العساكر وتدريبهم وخدمتهم وترتيبهم، وذلك من أعجب ما رأينا...»⁽⁵⁾، وهي صورة غلب عليها الإعجاب والانبهار بما رآه هناك. ويضيف ابن صيام واصفا صورة الواقع

(1) المصدر نفسه، ص 88.

(2) ابن علي الشريف، ضمن كتاب خمس رحلات جزائرية إلى باريز، مصدر سابق، ص 66.

(3) سليمان بن صيام، مصدر سابق، ص 23-24.

(4) المصدر نفسه، ص 21.

(5) المصدر نفسه، ص 27-28.

العسكري الفرنسي: «...وجدنا به خلقا لا يحصى، والعساكر المختلفة التي لا تعد ولا تستقصى مصففة على مد البصر، مع اختلاف ملابسهم وكثرة مدافعهم وشدة حزمهم، وزينة الجيش الراكب على عتاق الخيل...»⁽¹⁾.

أما عن الصورة الثانية من مشهد الاستعراضات العسكرية هي كثرة عدد العساكر الفرنسية، والتي يقول في شأنها ابن صيham: «...بعد التسليم عليه سرنا إلى محلنا، متعجبين مما رأينا في ذلك اليوم من كثرة الجيش، ولا سيم من الجيش المتدرع بدروع الحديد، وذلك من أعجب ما رأينا، ولما سألنا عن عدد العساكر التي حضرت هذا المهرجان أخبرونا أنهم ثمانون ألف نفر...»⁽²⁾.

وربط ابن صيham ما وصلت إليه فرنسا من ضخامة جيوشها وكثرة عددها وعدتها بما حققه الفرنسيون من أمن وأمان بفضل العدل الذي انتشر بين الحكام والمحكومين: «...واعلم أن ملوك فرنسا لو اتصفوا بالظلم والجور وعدم الرفق بالرعية، لما قدروا على تحصيل بعض الغرض من عمارة البلدان وكثرة العساكر البرية والبحرية وتحصين الثغور وتعميرها بالعدد والعتاد وغير ذلك...»⁽³⁾.

وكان هدف فرنسا من دعوة الأعيان العرب من الجزائريين لحضور هذه العروض هو إبراز قوتها ومحاولة صدمتهم بها⁽⁴⁾، وبالفعل عبر هؤلاء الرحالة الجزائريين عن صدمتهم ودهشتهم من اطلاعهم على هذا الواقع العسكري الفرنسي، وكأن فرنسا أرادت القول أن ما ترونه في الجزائر لا يعد شيئا مما نملك، لذا فقد عبر ولد قادي قائلا عن كثرة الجيوش الفرنسية: «...إن ما شاهدناه من الجيوش في ذلك اليوم فما هو إلا جزء واحد من تسعة عشر جزء مثله... فمنها أن ببر الجزائر جزء واحد...وقس على هذا مما يطول شرحه تعلم ما هي عليه فرنسا من القوة والإقامة وهذا خلاف الرديف والبلدية...»⁽⁵⁾.

والظاهر أن من أهداف رحلة ولد قادي كذلك تلميع صورة فرنسا التي اهتمت لدى الجزائريين بعد هزيمتها من ألمانيا 1870م، لذا جاءت رحلة ابن قادي وكلماته تطمينا لهم عن وضعها السياسي والعسكري في أوروبا: «...وقد كان العرب يظنون فرنسا عندما لحظتها عيون السوء انتقاص شأنها، فلما وقفنا بها وجدناها قذى في أعين الحاسدين، وأنها أجَلُّ قدرا، وأعظم قوة مما كانت عليه من كثرة الجيوش والإقامة والآلات الحربية...»⁽⁶⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 22.

(2) المصدر نفسه، ص 23.

(3) المصدر نفسه، ص 41.

(4) أحمد ولد قادي، مصدر سابق، ص 25.

(5) المصدر نفسه، ص 27-28.

(6) المصدر نفسه، ص 07.

وتشابهت الصورة التي حملها نص رحلة التونسي ابن أبي الضياف حول الواقع العسكري في أوروبا كثيرا مع ما حملته نصوص الرحلات المغربية الأولى في القرن التاسع عشر مثل رحل الصفار، سواء في الصورة أو في الموقف، فكانت الرحلة بمثابة الصدمة أثناء الوقوف على قوة وإمكانيات الآخر الفرنسي العسكرية الذي بلا شك حاول توجيه هذه الرحلة لإبراز مثل هكذا صورة، كما حمل نص رحلة ابن أبي الضياف نفس مواقف الانبهار مع الإقرار بهذا التفوق.

فتحدث صاحب "الإتحاف" عن الجولة التي قام بها أحمد باي التونسي ومرافقيه لرؤية الإمكانيات العسكرية الفرنسية بميناء طولون كان عن قصد من أجل إظهار قوتهم وإمكاناتهم، ونجد ابن أبي الضياف مندهشا أمام ما رآها هناك: «...وهي من عجائب الدنيا...»، والترسخانة العسكرية "كأنه بلاد"⁽¹⁾. وكذلك كان الأمر في باريس حيث عمل الفرنسيين على إبهار الباي ومرافقيه على الإمكانيات العسكرية التي بها⁽²⁾.

وتظهر القوة العسكرية الفرنسية في العناد والعدة لما وُجه الوفد التونسي لرؤية الاستعراض العسكري الذي أُقيم على شرفه، ولا شك أن الباي التونسي ومرافقيه قد صدموا من القوة التي رأوها في هذا الاستعراض، وهذا ما نلمسه من ردة فعل الباي كما بينه ابن أبي الضياف، إذ أن صدمة الباي جعلته يكتفي بالمشاهدة ومفضلا الانسحاب سريعا من رؤية هاته العروض التي كثيرا ما لمس فيها المغاربة ضعفهم وتأخرهم أمام قوة الآخر وتفوقه لذا يقول صاحب الإتحاف: «وشرعوا في صرخ المدافع والمكاحل حتى اسود النهار، وكان يوما مشهودا، فقال الباي لابن السلطان: أن العسكر آله البرد والثلج ويكفي ما حصل، فأمر بالانفصال»⁽³⁾.

ولا يكتفي ابن أبي الضياف بذلك بل يذهب إلى تفسير أسباب هذه القوة العسكرية وينسبها للعقل: «...وأماكن الصناعات وغير ذلك من المصانع الدالة على قوة المملكة وضخامتها، وثروتها، وآثار العقل الذي شرف الله به نوع الإنسان»⁽⁴⁾، فابن أبي الضياف اكتشف مثل الصفار أن أساس القوة العسكرية بالدرجة الأولى هو العقل؛ هذا العقل الذي استطاع أن يرتب الجيوش ويخترع تقنيات حديثة في صناعة الأسلحة كما هو مُشاهد في أوروبا، فلا القوة البدنية ولا المهارات الفردية ولا شجاعة القلوب قادر على الوقوف في وجه هاته القوة.

(1) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج4، مصدر سابق، ص98.

(2) المصدر نفسه، ص 105.

(3) المصدر نفسه، ص 107.

(4) المصدر نفسه، ص 98.

أما خير الدين فلم ينظر إلى التفوق والقوة العسكرية الأوروبية بنفس النظرة التي نظر بها بقية الرحالة المغاربة، إذ ربط أسباب القوة العسكرية الأوروبية بطبيعة نظام الحكم المبني على الحرية والعدل والذي يكفله توافر مؤسسات تنظيمية، مؤكداً كعادته أن ذلك ليس بغريب عن الأمة الإسلامية التي جنت ثمرة العدل في التوسعات والفتوحات العظيمة التي حققها المسلمون في مختلف الأقطار⁽¹⁾.

فالعدل والحرية بدورهما -حسب رؤية خير الدين- أديا لرواج المعارف واتساعها، هذه الأخيرة التي استفادت منها الصناعة العسكرية الأوروبية، وبالتالي فنظرة خير الدين التونسي للتفوق العسكري ربطها بالجانب السياسي والعلمي هناك، ولو أننا لا نحسب خير الدين يهدف من خلال نظريته هذه إلا التأكيد "لأولي الأمر" من الحكام في العالم الإسلامي أن تقليص حالة التجاوز ومواجهة القوى الأوروبية لا يكون باقتناء ما تنتجه الصناعة العسكرية الأوروبية من سلاح رغبة في مواجهة أوروبا نفسها، وهو الأمر الذي يعود أصلاً إلى القراءة التي لخصها الحكام المسلمون من كون "القوة الأوروبية" "عسكرية" بالأساس، ولا يمكن مواجهتها إلا عسكرياً، لكن بأسلحة أوروبية؟؟

وهو الأمر الذي وقف عليه خير الدين وبيّن مساوئه لأن: «الممالك التي لا تنسج على منوال مجاورها فيما يستحدثونه من الآلات الحربية والتراتيب العسكرية يوشك أن تكون غنيمة ولو بعد حين»⁽²⁾، وللتأكيد على صحة ما يدعوا إليه يعود دائماً لاستحضار مواقف مشابهة من التاريخ الإسلامي، مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعاصم بن ثابت: «من قَاتَلَ فُلَيْقَاتِلَ كَمَا يُقَاتِلُ»، أو نصيحة أبي بكر الصديق لخالد بن الوليد في قتال المرتدين: «...ثم إذا لقيت القوم فقاتلهم بالسلاح الذي يقاتلونك به، السهم للسهم والرمح للرمح والسيف للسيف»، ثم يعقب خير الدين عن ذلك: «قلت: ولو أدرك هذا الزمان لأبدل ذلك بمدفع الششخان ومكحلة الإبرة والسفينة المدرعة، ونحوها من المخترعات التي تتوقف عليها المقاومة...»⁽³⁾.

فخير الدين حاول عكس بقية الرحالة اكتشاف نواة القوة العسكرية الأوروبية فربط أي تقدم عسكري مرجو بضرورة وجود تنظيمات سياسية ورقية في العلوم والمعارف والاقتصاد ووجه سؤال لمن يرون أن مواجهة أوروبا تكون عسكرياً متغافلين عما ذكر من قطاعات: «وبناء على ذلك يقال هنا: هل يمكننا اليوم الحصول على الاستعداد المشار إليه بدون تقدم في المعارف وأسباب العمران المشاهد عند غيرنا؟ وهل يتيسر ذلك التقدم بدون إجراء تنظيمات سياسية؟»⁽⁴⁾.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 35.

(2) المصدر نفسه، ص 15.

(3) المصدر نفسه، ص 15.

(4) المصدر نفسه، ص 15-16.

لذا نراه مستغربا من المسلمين الذين يتسابقون لاقتناء الأسلحة الأوروبية والعزوف عما هو أهم حسبه وهي النظم السياسية التي هي أساس كل تقدم بما فيه العسكري⁽¹⁾، وربطها بتقدم المعارف هذه الأخيرة-حسبه-لا تتوفر إلا بإجراء تنظيمات سياسية مبنية على العدل والحرية «الذين هما أصلان في شريعتنا، ولا يخفى أنهما ملاك القوة والاستقامة في جميع الممالك»⁽²⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 13.

(2) المصدر نفسه، ص 16.

الفصل الثالث: الواقع الاجتماعي الأوروبي في نصوص الرحلات المغربية خلال القرن 19م.

- أولا: الطبقات والمكونات الاجتماعية الأوروبية
- ثانيا: المؤسسات الاجتماعية الأوروبية في أعين الرحالة المغربية
- ثالثا: العادات والتقاليد الأوروبية
- رابعا: المرأة الأوروبية في نصوص الرحلات المغربية
- خامسا: الأكل والمائدة الأوروبية في نصوص رحالي المغرب خلال القرن 19م

الفصل الثالث: الواقع الاجتماعي الأوروبي في نصوص الرحلات المغاربية خلال القرن 19م

نكتشف في هذا الفصل تمثلات الرحالة المغاربة للواقع الاجتماعي الأوروبي خلال القرن التاسع عشر، وكما قلنا سابقا فإن عجيب وغريب عادات هذا المجتمعات الأوروبية وقيمه قد جذبت هؤلاء الرحالة للاطلاع عليها، فنظروا إليه بأعينهم المغربية، وقدموا حولها أحكاما وتصورات نابعة من ثقافتهم ومجتمعهم.

أولا: الطبقات والمكونات الاجتماعية الأوروبية

لم يهتم أصحاب الرحلات المغاربية التي اتجهت نحو أوروبا في القرن التاسع عشر بالمكونات الاجتماعية الأوروبية كثيرا، بل يمكن القول أن التونسي بيرم الخامس هو الوحيد الذي كان له اهتمام بهذا الموضوع، وعمل على نقل صورته، إذ أن بقية النصوص رحلات كانت اهتماماتها متجهة أكثر إلى نقل صورة الواقع السياسي والعسكري الأوروبي، وإن اهتموا بالواقع الاجتماعي كان اهتماما أكثر بالطبقة الحاكمة وحاشيتها الخاصة، وهذا يعود كما قلنا سابقا لطبيعة تلك الرحلات كرحلات رسمية، وقصر مدة إقامتها في البلاد الأوروبية.

أما خير الدين الذي يعد أشهر رحالة في هذه المرحلة فقد غابت تقريبا رؤيته للواقع الاجتماعي، فاحتكاكه انحصر في الطبقة العليا من السياسيين والمفكرين ورحلات الدولة في أوروبا، ولا نكاد نعثر في نص رحلته إلا على نزر باهت حول الواقع الاجتماعي، فلم يشر إليها خير الدين إلا حين وصف المجتمع الروسي، فنوه بوجود الأحرار والعبيد، وذكر ما للأعيان ملاك الأراضي من سلطة⁽¹⁾.

وأورد بيرم الخامس أوصافا وآراء في التركيب الطبقي الاجتماعي للمجتمعات الأوروبية، وقدم في ذلك عدة تصنيفات، فكل بلد زاره قدم تصوره له بشكل مغاير عن البلد الآخر، وقد أخذت المجتمعات في كل من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا تحليلا مفصلا من قبل الرحالة التونسي؛ أما سكان فرنسا فيمكن القول أن بيرم قسمهم حسب مكاسبهم المعرفية والعلمية:

- أهل الرفعة وأشرف القوم: وهم من ذوي البيوت العالية بالتوارث في الوظائف أو كثرة المال والترف، أغلبهم مقتصرون على معرفة مبادئ العلوم، ومحبين لإنفاذ الأغراض وزيادة علو الصيت.
- الطبقة الوسطى: وفي يدها مجال التمدن والمعارف والصنائع والتقدم، وهم أيضا أصحاب الترحيح السياسي في فرنسا، وفي صورة استحضار فيها الأنا التونسية يشابه بيرم هذه الطبقة الاجتماعية الفرنسية ونظيرتها في تونس من حيث الصفات والتأثير، إلا أنه يرى أنها في فرنسا أكثر عددا وتأثيرا.

(1) المصدر نفسه، ص 87.

- طبقة "الرعا": وقد وصفها بيرم بهذا الوصف، وحسبه فهي تشمل أهالي الجبال والقرى والبوادي، أغلبهم- حسب وصفه- جهلاء ولا فكر لهم إلا فيما ينفع كل فرد في خويصة نفسه⁽¹⁾.

أما عن طبقات المجتمع الإنجليزي فيشير بيرم الخامس إلى استعانتها بما كتبه الرحالة اللبناني "أحمد فارس الشدياق" بخصوص هذا الموضوع: «اعلم أن كتاب كشف المخبا من فنون أوروبا للبلغ اللغوي أحمد فارس الشدياق⁽²⁾ قد اشتمل على تفاصيل في عوائد القوم يعز وجودها في غيره، فمن رام الاطلاع على جزئياتها فليرجع إليه»⁽³⁾، وعليه فقد فصل بيرم الخامس في طبقات المجتمع الإنجليزي، وبين أنه يتكون من خمس طبقات اجتماعية⁽⁴⁾، واصفا الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية بينها، أولهم الطبقة "العلية"، وللمنطوقين تحتها امتيازات كثيرة، فهم لا يختلطون ببقية طبقات المجتمع أي أنهم طبقة متميزة ومنعزلة، كما أنهم يملكون ألقابا على غرار "المركيز"، "السير" (Sir, Marquess) وهي ألقاب الشرف في إنجلترا، ويتوارثون هذه المناصب والألقاب، وتضم هذه الطبقة: الأمراء والوزراء وأصحاب المناصب العليا والأساقفة الكبار، ثم الطبقة الثانية من الأعيان الذين لهم أملاك تغنيهم عن مزاوله العمل ويعيشون في رفاهية رغم عدم وجود ألقاب شرف لديهم، والطبقة الثالثة هم العلماء والمشرعون والقسوس والتجار الكبار، أما الطبقة الرابعة فضمت التجار وأصحاب العمل النبيه مثل الكتبة، والطبقة الخامسة ضمت بقية الناس الذين يعيشون من كد أبدانهم.

ثم يعود بيرم الخامس للتأكيد على الفوارق الاجتماعية بين هذه الطبقات الإنجليزية: «...عوائد الأهالي لا يمكن إطلاقها على الجميع سواء بل بين طبقاتهم البون البعيد»، وحدود التماس والحلقات التي يمكن أن تجمعها: «...فالأولى والأخيرة بينهما التباين، والثلاثة الباقية لكن منها جهة تناسب بها من فوقها وجهة تناسب بها من تحتها، ويمكن حسب التقريب أن يقال أن الثلاثة الوسطى في عاداتهم وأطوارهم على نحو ما تقدم في فرنسا وإيطاليا، وأما الطبقة العليا فليس لها مثل في تينك المملكتين»⁽⁵⁾، فظهرت الطبقة العليا مميزة برفاهيتها التي ضاهت رفاهية الملوك كما شبههم بيرم، وذلك بما يملكونه من أراض وأموال وهو وتكاثر ويسكنون القصور العظيمة المؤثثة بأجود الأثاث المتباع من شتى بقاع الأرض، كما تميزت أنها طبقة مميزة مترفعة ومنعزلة عن باقي الطبقات حتى أن أفراد وعائلات هذه الطبقة لا يخالطون إلا من كان لهم وعلى مستوى واحد منهم، بينما كانت الطبقة السفلى التي تكثر فيها كثير من

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج3، دار صادر، مصدر سابق، ص 142.

(2) للاطلاع عما دون الشدياق (1804-1887) في رحلته إلى أوروبا أنظر: أحمد فارس الشدياق، كشف المخبا عن فنون أوروبا، مؤسسة هنداوي لنشر المعرفة والثقافة، القاهرة، 2012.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج4، دار صادر، مصدر سابق، ص 57.

(4) وتتطابق الصورة التي قدمها بيرم الخامس مع ما ذكره الرحالة اللبناني أحمد فارس الشدياق في نص رحلته إلى أوروبا.

(5) المصدر نفسه، ص 57.

الشعاعات ومنها تطيرهم من كثير من الأشياء وشيوع الجهل والإيمان بالخرافات والدجالين والسحرة⁽¹⁾، ولا تنحصر هذه الفوارق والتباينات الاجتماعية بين الإنجليز في أخلاق وطبائع ومواصفات كل طبقة فقط بل: «...ونجد في أفراد الإنجليز الغني الذي لا يوجد في غيرهم، كما يوجد فيهم الفقير المدقع بكثرتة...»⁽²⁾.

وفي إيطاليا سجل بيرم الخامس وجود طبقتين: طبقة الأعيان، وطبقة الأهالي، وذلك في أثناء مروره بمدينة كالياري الإيطالية: «...أهل البلد على قسمين الأعيان والوافدون وكلاهما لباسهم مثل لباس الأوروبيين، والثاني بقية الأهالي، ومثله بقية سكان البوادي والقرى في الجزيرة، يلبسون جلود الغنم بصوفها، فالصوف ما يلي البدن والجلد من أعلى، وهيئة اللبس هي صدرية وفستان وسراويل نحو السراويل التونسية...والنسوة يلبسن قريبا من نسوة أوروبا لكن على شكل غير نضر...والغالب هو عدم التمدن»⁽³⁾.

وعكس سكان فرنسا الذين صنفهم بيرم الخامس على أساس علمي إذا صح التعبير ومعرفي، فقد قسم سكان إيطاليا إلى سكان مدن وسكان قرى، وذكر بعضا من صفاتهم، مثل التهذيب لدى سكان المدن، والخشونة والاعتقاد التقليدي والاتباع البحت للقسوس لدى سكان القرى⁽⁴⁾، ويبدو أن بيرم الخامس كان تفسيره للواقع الأوروبي الاجتماعي يركز أساسا على المشاهدة، لهذا كان تصنيفه الاجتماعي في إيطاليا مبنيا على اللباس والهيئة، في صورة مشابهة لما تعودنا عليه في رحلات المغاربة خلال القرن 17 و18م.

ولا يكتفي بيرم بذلك بل يعطي الفوارق بين السكان في أوروبا، فسكان القرى ليسوا كنظرائهم بالمدن في التمدن، وحتى تمدن بعض البلاد في أوروبا لا يشبه آخر في بلاد أخرى، فتمدن أهل باريس ليس كسكان المدن الإيطالية.

والملاحظ أن بيرم الخامس في جزء من رحلات تخطى عن صفة الدبلوماسي ورجل الدولة؛ الأمر الذي منحه حرية أكبر في نقل مشاهداته ووضع مقارناته ونقده على الصور المختلفة في المجالات المختلفة، خاصة الاجتماعية منها، لذا نرى أن رحلة بيرم الخامس يعد أهم رحلة مغربي غاص في المجتمع الأوروبي ناقدا ومادحا، مستحسنا ومستقبحا في مرات عدة، فرحلة بيرم الخامس لم تكن رحلة رسمية في أغلبها بل فردية وشخصية، عكس جل الرحلات المغاربية التي زارت أوروبا في الفترة نفسها أو ما سبقها التي كانت من رحلات دولة يغلب على نقل مشاهداتهم الدبلوماسية وتضخيم الأنا تكون فيها الموضوعية أقل تحقفا فيها.

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق ص2121-2122.

(2) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج4، دار صادر، مصدر سابق ص62.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج3، دار صادر، مصدر سابق، ص04-05.

(4) المصدر نفسه، ص46.

ثانيا: المؤسسات الاجتماعية الأوروبية في أعين الرحالة المغاربة

ظهرت المؤسسات والتنظيمات الاجتماعية والإنسانية الأوروبية كثيرا في نصوص رحلات القرن التاسع عشر، وأخذت أشكالا وصورا متعددة؛ فيعرفها السنوسي "بالمحلات الخيرية" مؤكدا إعجابه بها، لأن «هذا النوع من المحلات قام بمهمات ما تقتضيه الضرورة البشرية لذوي الفاقة والعجز ممن لا يخلو عنهم الاجتماع البشري وهو من أعظم ما يفيد في كفاية ذوي الحاجة مما جاءت به جميع الشرائع...»⁽¹⁾.

وكعادته لا يدع السنوسي مظهرا من مظاهر "الحضارة الأوروبية" إلا ووجد له أصلا في الشريعة الإسلامية أو التاريخ الإسلامي؛ ضاربا مثلا عن الأوقاف عند المسلمين؛ التي تحت على أنواع البر وفعل الخير، فإن كانت الغايات التي تحرك المسلمين لجعل الأوقاف كما يؤكد السنوسي دينية بحتة، أما الأوروبيون: «...فإنهم بحكم واجبات الإنسانية أقاموا الأماكن الخيرية لإغاثة الملهوفين...» ضاربا أمثلة عن هذه الأماكن مثل "المياتم"، ففي باريس: «... يتبرع الغني الواحد بمبالغ يقوم بما يعينه من أنواع الخير، وقد أعطى الكونت هيرش مائتي مليون تنفق فائدتها في التعليم، ومنها ما يكون باجتماع عدد من المتبرعين على نوع من الخير يقيمونه...»⁽²⁾.

و أيضا من: «الأماكن الخيرية في باريس أماكن حفظ اللقطاء من الأحياء والأموات؛ أما لقطاء الأحياء من المواليد الذين تلقيهم أمهاتهم تسترا من سبب حملهم بهم، فلهم دار تقوم بإرضاعهم وإطعامهم وكسوتهم وتربيتهم ومنها يخرجون للقراءة والصناعة إلى أن يبلغ كل أشده، ونفقة جميع ذلك من الأموال الخيرية...»⁽³⁾، وكعادته نجد السنوسي يربطها بما يقارنها أو يشابهها من قصص التاريخ الإسلامي أو القصص القرآني، ولا ندري أي رابط بين دور القطاء في باريس وبين استدلاله بقصة يوسف عليه السلام في الآية: «فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام»⁽⁴⁾، وكذا ذكره أن هذا يشبه مذهب عمر وعثمان رضي الله عنهما في أن اللقيط حر وولأوه للمسلمين وقد أكدت ذلك المذاهب الإسلامية سواء المالكية أو الحنفية⁽⁵⁾.

كذلك يقف الجزائري ابن صيام عند أهمية هذه المرافق الاجتماعية في فرنسا، قائلا: «...كاعتنائهم بالفقراء والعميان والبكم، بأن جعلوا لكل فرقة محلا يجمعونهم فيه يشتغلون بأمر يقدر عليهم، والدولة قائمة بهم بآتم

(1) محمد السنوسي، الاستطلاعات الباريسية، مصدر سابق، 79.

(2) المصدر نفسه، ص 81.

(3) المصدر نفسه ص 86.

(4) سورة يوسف، الآية 19.

(5) المصدر نفسه، ص 86.

قيام...»⁽¹⁾، لكن ابن صيham مثل السنوسي لم يناقش مسألة انتشار الفقر وأسبابه في فرنسا بل راح يعدد فضائلها، مؤكدا أنه من خلال إنشائها لهذه المؤسسات غابت كثير من الآفات الاجتماعية الناتجة عن الفقر ومنها التسول، الذي لم يشاهد له صاحب الرحلة أثرا في باريس: «...وفي مدة إقانصا ما رأينا إنسانا مد يده لأخذ الصدقة لغناء الفقراء من السؤال، لأنهم مصونون في الأماكن المعدة للفقراء، ولا يمكن قضاء العجب من ذلك ولا وصفه على سبيل الاختصار...»⁽²⁾.

وفيما راح السنوسي يعدد فضائل "الأوروبيين" مبينا إعجابه بمؤسساتهم الاجتماعية، باحثا لها عن أصل في تاريخ المسلمين، فإن العمراوي وبعده بيرم الخامس نجدهم يقدمون قدحا شديدا للفرد الأوروبي والفرنسي على وجه الدقة ووصفه بالبخل والرياء، فيقول العمراوي منتقدا ومستهجننا على الفرنسيين اهتمامهم بالحيوانات والنباتات من خلال إنشاء حدائق خاصة بها مقابل إهمال الإنسان: «...ولقد يقضي العاقل العجب من كثرة ما يصرف على جلب هذه الحيوانات والنباتات وتنعيمها، وتلك الخبال المعدة لها من غير طائل ولا نفع مع ما لهم من البخل والاحتياط في الدفع، فإنهم لا يدفعون درهما إلا فيما يعرفون أنه يأتي منه درهم ونصف، أو فيما يعود على الدولة بالافتخار وكمال الرياسة...»⁽³⁾.

ولم يغفل بيرم الخامس في رحلاته المتعددة إلى أوروبا الوقوف على مؤسسات التكافل الاجتماعي التي في الغالب تنظمها الدولة هناك، وأسمائها "أماكن الرحمة"، وعدد فيها المستشفيات و"ديار اللقطين" وذكر كثرتها، ف: «اللقيط يُنقى على تربيته وتعليمه مجانا إلى أن يبلغ أشده...»⁽⁴⁾.

ولا يكتفي الرحالة التونسي بذلك بل يذهب باحثا عن أسباب انتشار هذه الدور، ليجد أن تفسير ذلك يعود إلى كثرة الزنى في المجتمعات الأوروبية، إذ أن الزانيات عددهن عشرات الآلاف، ففي فرنسا ذكر أن: «من عوائد حكمهم إغضاء النظر عن الزنى، بحيث أن المومسات يتبرجن جهة بلا معارض...» والغريب حسبه أن: «لهن ديار تجمع أعدادا وافرة وديار لأبناء الزنى الذين تلقيهم أمهاتهم»، وقدم بيرم في ذلك إحصائيات دقيقة حول أعداد "أولاد الزنى" في فرنسا الذي بلغ سنة 1880م 68.220 مولودا من أصل 920.117 من مواليد فرنسا⁽⁵⁾.

(1) سليمان ابن صيham، مصدر سابق، ص 20.

(2) المصدر نفسه، ص 20.

(3) إدريس العمراوي، ص 73.

(4) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوي، مج5، مصدر سابق، ص 1916.

(5) المصدر نفسه، ص 1993.

أما ملاجئ الفقراء حسب الصورة التي نقلها بيرم التونسي فهي كثيرة أيضا، إذ تخصصها الدولة في أوروبا للفقراء الذين لا يجدون مأوى وهم قادرون على التكسب، فهذه الدور: «تأويهم ليلا وتطعمهم ما يسد الرمق، وتعطيهم فراشا، بشرط أن يغسلوا أرجلهم قبل دخوله، ولا تقبلهم إلا في الساعة الثانية بعد الظهر، وفي السهر يسرد عليهم قارئ كتابا في تهذيب الأخلاق والحث على العمل، ولا يقبل الواحد أزيد من ثلاثة أيام»

ورغم كثرة الملاجئ في أوروبا لاحظ بيرم الخامس أنه: «كثيرا ما يموت الناس في الطرق جوعا أو بردا سيما في سوق الخضر، لأن من لا يجد مأوى يتقي به من الزمهرير فيجمد بردا»، وإذا كان بيرم بحث في دوافع تنظيم الدور التي تأوي الأطفال في المثال السابق، فإن فضل الصمت وعدم البحث في الأسباب الدافعة لفئات معتبرة من الأوروبيين للشرد في الشوارع⁽¹⁾.

ويعطينا بيرم الخامس صورة أخرى، بخلاف الصورة المضيئة للفرد والمجتمع الأوروبي والإنجليزي خاصة، بل صورة مناقضة تماما في مجال التكافل الاجتماعي بأوروبا، حيث يقول: «...وأن ترى واحدا من هؤلاء ذوي الملايين أو آلاف الملايين يتكرم بشيء ذي قيمة ونهاية التوداد بالهدية هي صورته أو ما شاكلها...بل كاد أن لا يوجد من لا يتصدق منهم على الفقراء إلا أن يكون لرياء أو سمعة، فلو مرّ أحدهم على فقير يتضرع جوعا لما رأى له من داع إلى مرحمته؛ حيث أنه يعلم أنه يعطي سنويا إلى ديار الفقراء مقدارا من المال، فلا يهمه أن يكون ذلك الفقير الذي يراه في حالة النزاع من البرد أو الحر أو الجوع...»، ثم يضيف: «...وأقول أن هذه الخلعة كادت أن تكون عامة في أوروبا إلا قليلا منهم فإنهم يجرون على حسب مكارم الأخلاق...»⁽²⁾، وهي صورة أخرى مغايرة عن المجتمع الأوروبي، صورة مجتمع مادي، مجتمع لا إنساني.

(1) المصدر نفسه، ص 1916.

(2) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج 4، دار صادر، مصدر سابق، ص 58.

ثالثا: العادات والتقاليد الأوروبية

سجل الرحالة المغاربة انطباعاتهم العديدة حول عادات وتقاليد المجتمعات الأوروبية التي زاروها وارتحلوا إليها، واتسمت ردود فعلهم تجاهها بالإعجاب تارة وبالاشمئزاز تارة أخرى والاكتفاء بالوصف مرة أخرى، ونشير أننا لا نتوخى في هذا الجزء من البحث الوقوف على كافة العادات والتقاليد الأوروبية التي ذكرت في نصوص الرحالة المغاربة لكن عند أهم ملاحظاتها التي شكلت الصورة العامة للفرد والمجتمع الأوروبي خلال القرن التاسع عشر

- في الأخلاق والطباع:

ووقف أصحاب الرحلات المغاربية عند بعض طبائع وأخلاق الأوروبيين، وكان بيرم الخامس أكثر اطلاعا وانفتاحا على كثير من الفئات الاجتماعية في أوروبا وأكثر وعيا بواقعها، ولأن رحلات بيرم كانت إلى عديد من البلدان الأوروبية، فقد سجل مقارنات ضمنية حول طبائع الأفراد والمجتمعات في هناك؛ أما الفرد الإنجليزي: «الحاصل أن صفة الإنجليز على الإجمال هي السكون والرزنة والتجافي عن الغريب إلا بواسطة في التعرف، حتى لو بقي بين أظهرهم سنين لا يكاد أن يقول له واحد أسعد الله صباحك»⁽¹⁾، فالحاصل أن: «أخلاق الإنكليز عبوسة ولا يلتحمون بالأجنبي مثل ما يقع من الفرنسيين...» غير أن ذلك لا ينفي وجود صفات حميدة منها إغاثة الملتجئ إليهم: «غير أنهم إذا ود أحدهم أحدا سيما من عليتهم فإنه يحافظ عهده ويدوم على ولائه ويحمون ذمارة»⁽²⁾.

فيما كانت الصورة التي أنتجها رحالتنا على المجتمع وخاصة الفرد الفرنسي أنهم متمسكين جدا بالإقامة في بلدهم مقارنة ببقية الأوروبيين، ويزداد هذا الطبع الفرنسي كما ذكر بيرم الخامس لما ندرك اتساع المستعمرات الفرنسية في مختلف القارات، ومن الطبائع التي أجمع عليها تقريبا كافة الرحالة المغاربة الذين زاروا أوروبا في القرن التاسع عشر هو حب الفخر لدى الفرد الفرنسي، حتى أنه يفخر بمدينة باريس وعظمتها.

ومن طبائعهم النشاط في العمل والتي تبدو أنها عادة أوروبية لا يكاد ينفرد بها مجتمع أوروبي عن آخر، وكذلك المزاجية وسرعة تبديل آرائهم وأفعالهم، وإن كان بيرم الخامس قد ضرب مثالا عن ذلك بأرائهم السياسية، وعكس الإنجليز فإن الفرنسيين لينوا الجانب بشوشون في الملاقاة.

فيما أشاد الجزائري ابن قادي بأخلاق الفرنسيين واصفا إياهم بالبشاشة والفرح الذي يدل حسب صاحب الرحلة على المروءة وثبات العقل وسلامة الصدور⁽³⁾، أو إنسانيتهم لما ذكر وفاة أحد العرب هناك في باريس:

(1) المصدر نفسه، ص 58.

(2) المصدر نفسه، ص 61.

(3) أحمد ولد قادي، مصدر سابق، ص 05.

«...فوجدنا أهل تلك المدينة في غاية الوقوف معه، فمن ذلك جعلوا البعض منهم واقفين للتعزية منكسين الرؤوس، مظهرين الحزن، باكين العيون كأنهم من أوليائه، والبعض يمر عليه وهم في غاية التأسف أكثر منا...»⁽¹⁾.

بينما يصف ابن علي الشريف طبائع الفرنسيين بقوله: «ومن طباع الفرنسيات التطلع والتولع والترقي لسائر الأمور لا سيما اللباس فإنه غير مقرر عندهم وليس ذلك تغيير كلي وإنما ينتقلون من القلنسوة إلى الششية، وتارة البرنيطة على شكل ثم ينتقلون ببعده إلى شكل آخر، سواء في صورتها أو شكلها، زمن عاداتهم المهارة والخفة، فإن صاحب القدر فيهم تراه يجري في الأزقة كالصبيان، ولهم طيشان وتلون الإنسان من الفرح إلى الحزن وبالعكس، ومن الجد إلى الهزل، وبالعكس، إلى أن يرتكب في اليوم حملة أمور متضادة، هذا في غير الأمور المهمة، وأما في الأهم فأراؤهم السياسية لا تبدل لها ولا تغيير أصلا، بل كل أحد يدوم على مذهبه ورأيه، ومن جملة أمورهم ميلهم إلى أوطانهم مع ذلك يحبون الأسفار والاعترا ب...ومن خصائلهم محبة الأجانب والميل إلى معاشرتهم لا سيما إذا كان الأجنبي ذا همة وثياب نفيسة، وإنما حملهم على ذلك الرغبة في السؤال عن أحوال البلاد وعادات سكانها، لينالوا مقصدهم في الحضر والسفر...».

ويواصل ابن علي الشريف مهمته في مدح الفرنسيين وتمجيد أخلاقهم التي رآها في باريس لكنه تغافل عن أخلاقهم في الجزائر: «وأيا من طباعهم حب الرياء والسمعة دون كبر أو حقد، وأنهم يقولون في أنفسهم قلوبهم أسلم من قلوب الغنم عند الذبح...ومن خصائلهم الحميدة وفاء العهد وعدم الغدر والخيانة أحسن الله إليهم فذلك الحق البالغ...»⁽²⁾.

وعكس الرحالة الجزائريين لمس بيرم أن أخلاق الفرنسيين في فرنسا ليست كما هي في البلاد المحتلة؛ خاصة من حيث المعاملة والتسلط، ورغم تسلط كثير من العاملين في البلاد المحتلة إلا أنه لا ينفي وجود «كثير من المؤمنين الناصحين العقلاء مثل ما رأيناهم قدموا إلى بلادنا متوظفين وأحسنوا السيرة والإنصاف والنصح إلى وطننا (تونس)...»، ورأى في بعض هؤلاء أكثر صدقا وعفة وعدلا وإنصافا من "بعض أعيان البلد في تونس"، وحسبه فإن هؤلاء الفرنسيين العاملين في البلاد المحتلة والمتصفين بهذه الصفات نادرا ما توجههم بلادهم للعمل هناك.

ورغم انتشار العلم والمعارف في فرنسا فإن حسب الصورة التي ذكرها بيرم الخامس ما يزال في فرنسا من السذاجة والجهل في بعض من أهلها، ومن ذلك الحكاية الطريفة التي ذكرها صاحب الرحلة حول إصرار رجل هناك أن يرسل أغراض لابنه في مدينة بعيد عبر سلك التلغراف، وهي الحادثة التي رأى فيها بيرم عينة تعبر عن أن الجانب الآخر من أوروبا.

(1) المصدر نفسه، ص 24.

(2) ابن علي الشريف، من كتاب خمس رحلات جزائرية إلى باريس، ص 53-54.

بعيدا عن صورة الإعجاب والصدمة الحضارية التي أصابت معظم الرحالة المغاربة الذين توجهوا نحو أوروبا، هذه الصدمة التي كثيرا ما غطت عن صورة أوروبا الأخرى أوروبا المليئة بالآفات الاجتماعية المختلفة، ويعد بيرم الخامس من الرحالة القلائل إن لم يكن المغاربي الوحيد الذي وقف بشكل واع عند هذه الصورة، ومن ذلك استنكاره لعادات العراك في إنجلترا بسبب الخلافات الشخصية عن طريق المبارزة واستغرب أن يكون ذلك مسموح به في ظل القانون: «...فعجبا لبقاء هاته العادة في أوروبا والعجب منها ازديادها تدريجيا...»⁽¹⁾.

كما كرس جل رحالتنا المغاربة طيلة القرن التاسع عشر صورة الطبيعة المادية للفرد الأوروبي الضعيف روحيا، فرغم جد الأوروبي في عمله ونشاطه؛ إلا أن شيوع آفة الانتحار كان كبيرا وفي كل البلاد الأوروبية، فتناولها معظم الرحالة المغاربة، إلا أن بيرم الخامس أعطاها صورة أدق نوعا ما، وحاول صاحب الرحلة تقديم تفسيرات ذات منطلقات إسلامية لهذه الظاهرة في أوروبا، ففي تفسير يعبر عن الطبيعة المادية للمجتمعات الأوروبية يقول بيرم: «...حتى يقتلون أنفسهم وكثيرا ما يقتلون أنفسهم وأولادهم خشية الإملاق»⁽²⁾، ولا يكتفي مؤلف "الصفوة" بذلك بل ينظر للظاهرة من خلفية إسلامية فأرجع انتشار الانتحار إلى: «...عدم الإيمان بالقدر، حتى إذا يئس أحدهم من المال قتل نفسه، فكثيرا ما تسمع بذلك، وبقتل الآباء لأولادهم وكذلك الأمهات...»⁽³⁾. وما يكرس هذا النظرة المادية عن الآخر الأوروبي هو تلك الصورة التي رسمت عن جدهم ونشاطهم في العمل والرغبة في الغنى والثروة كأفراد ودول حتى أن الفرد فيهم قد يلجأ للانتحار حال إفلاسه.

وقدم بيرم الخامس صورة لما وصلت إليه أوروبا من انحلال أخلاقي كبير جدا حسبه لدرجة وصفه بالوقاحة: «...ومما يحصل عندهم من الوقاحة أحيانا مضاجعة الأب ابنته، والأخ لأخته، لكنه لم يسمع بمضاجعة الابن أمه، منها أيضا بيع الزوج زوجته...»⁽⁴⁾، فكانت هذه الصورة من المنكرات التي استقبحها بيرم الخامس وعجب لها. هذا إضافة إلى كثرة "الشناعات" كما ذكر في مختلف القطاعات، فكان انتشار "اللواط خاصة لدى العساكر" ورغم أن هذه "الشناعات" ليست مباحة في أوروبا لكنها شائعة جدا، وقد أجريت لها أحكام لمحاسنة فاعليها⁽⁵⁾.

وربط مؤلف "الصفوة" ما وصلت إليه فرنسا من انحلال أخلاقي ومجتمعي بالإطلاق المبالغ فيه للحرية الشخصية، فوفقا للصورة التي نقلها أو فهمها بيرم الخامس من خلال رحلاته إلى فرنسا، وذكره لبعض صفات

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج4، دار صادر، مصدر سابق، ص 59.

(2) المصدر نفسه، ص 59.

(3) المصدر نفسه، ص 58-59.

(4) المصدر نفسه، ص 59.

(5) المصدر نفسه، ص 63.

الفرنسيين، حيث كثرت المشاجرات وشرب الخمر على قارعة الطريق والقتل، خاصة بين سكان الطبقة الثالثة بفرنسا أو ما سماهم بـ "الرعاع"، لأن: «...الدعوى بمزيد الحرية التي تتبع الجمهورية أورثت ذلك الإهمال المفضي إلى التهور والخروج عن الاعتدال...»⁽¹⁾.

- **في الزواج:** لم يتطرق رحالة مغاربي بشكل مفصل لعادات الزواج في أوروبا مثل ما كان عليه الأمر في رحلة بيرم الخامس، الذي يبدأ حديثه عن الزواج الأوروبي من الخطوات الأولى لتعارف الرجل والمرأة، إذ أن التعارف يتم غالبا في أوقات الاحتفالات والمواكب في الأماكن العامة والمنزهات وغيرها، فتكثر المخالطة في حالات مختلفة، وحسبه فإن التعارف بين الرجل والمرأة يبقى مدة من الزمن قبل الزواج، وذلك حتى يتعرف كل من الرجل والمرأة عن الآخر، وهي صورة ربما بدت غريبة عما تعود عليه صاحب الرحلة في بلاد ومجتمعه التونسي الإسلامي.

ولم يكتف بيرم الخامس بذلك بل راح يذكر تنظيم هذا الزواج وفق ضوابط متفق عليها في عاداتهم، فمثل ما ذكره الغساني والمكناسي سابق يؤكد بيرم الخامس أنا المهر يدفع من قبل أب الزوجة للزوج، أما تكاليف الزواج من وليمة وتجهيز للمنزل فيتكفل بها الزوج، بينما تكاليف العرس والزواج تكون حسب إمكانيات الزوجين وأهليهما، أكانوا فقراء أو أغنياء، وفي صورة مخالفة لما ذكره الرحالة المغاربة المتوجهين إلى إسبانيا خلال القرن 17 و18م يؤكد بيرم أن دور الكنيسة في عقد القران والزواج، وحضورها كان شكليا فقط للمباركة لا غير، حيث يقول: «...واعلم أن ما ذكرناه من الذهاب للكنيسة ليس أمرا حتميا، بل هو عادي لمجرد التعود عليه عندما كانوا يجرون الأحكام الديانية في الأحوال المدنية...»⁽²⁾، ورغم أن السيد بيرم الخامس يؤكد تقلص دور الكنيسة ورجالتها في المشهد الاجتماعي الأوروبي، بقدر ما هي رؤية للذات، إذ كان حضور الشريعة الإسلامية قويا في كل المواقف الاجتماعية في تونس بل هي التي تعطي الشرعية وليس المباركة فقط.

- **في التحية:** وفي تسجيلهم للعلاقات بين الأفراد في المجتمعات الأوروبية أفرد الرحالة المغاربة "التحية" على الأسلوب الشائع في أوروبا مقاطع من نصوصهم باعتبارها مظهرا اجتماعيا يرصد من خلاله الرحالة الممارسة في الحياة الأوروبية اليومية، وهي بلا شك تبدو مغايرة ومختلفة عما تعود عليه هؤلاء الرحالة في مجتمعاتهم المغاربية الإسلامية، فكانت تحية الرجال الأوروبيين كما يشير الجعيدي بخلع قبعاتهم: «...فوجدنا كبير الدولة (الرئيس الفرنسي) واقفا في وسط القبة ووزراءه واقفون خلفه، ورؤوسهم مكشوفة على عادة أدبهم...»⁽³⁾.

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج3، دار صادر، مصدر سابق، ص 142.

(2) المصدر نفسه، ص 61.

(3) إدريس الجعيدي، مصدر سابق، ص 154.

أما بيرم الخامس فدقق في عادات التحية عند اللقاء والفراق في إيطاليا، ليعممها فيما بعد على باقي البلاد الأوروبية⁽¹⁾، وإن رصدت الرحلات السابقة عادات التحية الأوروبية على مستوى الطبقات العليا من تنك المجتمعات نظرا لمستويات احتكاك الرحلة لان معظمها كانت دبلوماسية ذات طابع رسمي، فإن بيرم التونسي قد أضاف إليها أسلوب وطريقة التحية الأكثر خصوصية في أوروبا والتي تتم غالبا بين الأصدقاء والأحباب والأهل، فيقول: «وعادة الأهالي في السلام عند الملاقاة هي المصافحة مع هزّ اليد، ويقول أحدهما للآخر: يوم حسن أو ليل حسن، وإذا قدم مسافر على حبيبه أو قريبه قبله في فمه ولو الوالد مع والده، أو امرأة مع قريبها، لكن النسوة يزدن أن الحبيبات متى اجتمعن قبلن بعضهن في الأفواه، والرجال لا بد في سلامهم من كشف رؤوس بعضهم لبعض، والرفيع بالنسبة للوضع يضع يده على قلنسوته، كأنه يريد رفعها فقط، وإذا دخل وارد على آخر في بيته لا يجلس إلا وهما مكشوف الرأس، وهي عادة في جلوسهم في بيوتهم مكشوفي الرأس إلا من كان به أذى من رأسه، ومن عادتهم أن لا يبعدوا المشي لتلقي السلام القادم، لكنهم يبعدون التشيع، ومن الآداب أن يحدث أحدهم كلاما لصاحبه عند الفراق فيتّمّه في حالة الوداع أيضا عند ذلك»⁽²⁾.

- في الأعياد والاحتفالات والمواكب: كان حضور هذا الملمح الاجتماعي نادرا جدا في نصوص الرحالة المغاربة، وكان الرحالة التونسي بيرم الخامس أكثر الرحالة تركيزا على ذلك، إذ خصص فصلا يتحدث فيه عن تلك المواكب الاحتفالية منها والجنائزية، وما يمكن الإشارة إليه أن التركيز على الاحتفالات الرسمية والطبقة العليا من السياسيين والعسكريين، وطبيعة الاحتفالات والمواكب المختلفة في أوروبا تكاد تتشابه تقريبا من حيث الأصل.

فكانت الاحتفالات الرسمية مثل الاحتفال بعيد الملك (إيطاليا)، والاحتفال يوم افتتاح مجلس النواب والأعيان من كل سنة، كما ذكر بيرم أن الأوروبيين كانوا يحتفلون رسميا ببعض تواريخ الأحداث، أما الاحتفالات الشعبية أو العامة فكان الاحتفال برأس السنة الميلادية الأهم في أوروبا إذ «كان أعظم المواكب الاعتيادية عندهم»، ولهم أماكن معينة للاحتفال بها كالملاهي والمنتزهات⁽³⁾، وتحدث عن طريقة التزاور عندهم في الأعياد، والذي يكون باللقاء أو عن طريق الرسائل، وأن الشكل الأخير منه هو الشائع⁽⁴⁾، والملاحظ أن بيرم الخامس لم يعبر كما تعودنا من الرحالة المغاربة خلال الفترة المدروسة عن دهشة ولا تعجب مثل هذه الاحتفالات والمواكب، وكأن الرجل كان على دراية بها، وربما يرجع ذلك لاحتكاكه ببعض الأوروبيين في تونس والقسطنطينية.

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوني، مج5، مصدر سابق، ص 1981.

(2) المصدر نفسه، ص 1827.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج3، دار صادر، مصدر سابق، ص 60. أيضا، ج4، ص 68-69.

(4) المصدر نفسه، ص 163-164.

ومما ذكره بيرم الخامس عن العادات الاجتماعية الموجودة في أوروبا هي المواكب الجنائزية، ونشير أن الصورة التي ينقلها الرحالة التونسي في غالبها تعبر عن مواكب جنائزية رسمية تقيمها الدول الأوروبية على شرف قادتها العسكريين والسياسيين المتوفين، ومن ذلك ما شاهده في فرنسا في جنازة عسكريين سابقين: «...وأعدوا لهما موكبا حافلا بإحضار جم غفير من العساكر المشاة والخيالة والطبجية بمدافعهم، وقوفا في البطحاء الكبيرة أما الكنيسة، وغصت الطرقات والميادين بالخلائق المتفرجين، وامتألت الكنيسة بالأعيان المدعوين... وكبار القسوس حول المعبد يרטونون بألحان ونغمات تمديدية تميل إلى الحزن... ثم حملوا الجنازتين المكسو تابوتهما بلباس أصحابهما الرسمي، ووضعتا في عجلات معدة لذلك، مزينة بالأزهار وتقصيب الذهب والفضة وسارت العساكر بمدافعهم في المقدمة... ومن ورائهما بقية المشيعين في كراريس سود وسرج الخيول أسود والخيول سود ولباس الركاب أسود، وذهبوا إلى المقبرة وكانت المدافع تطلق بعد كل خمس دقائق...»، وبعيدا عن بعدها الاجتماعي فإن هذا الاحتفاء التي تظهره الدولة لعساكرها: «ترغيبا لمن يسلك ذلك المسلك»⁽¹⁾.

وفي مشهد استحضر فيه بيرم الخامس ربما الاختلاف في التعبير عن الحزن بين مجتمعه التونسي الإسلامي ونظيره الأوروبي لذا لاحظ عدم جهر الأوروبيين بالبكاء في الجنائز: «...ومواكب المآتم عندهم لا يجهرون فيه بالبكاء...»⁽²⁾، ونلمس هذا الاستحضر والمقارنة مع "الأنا" في كلمة "عندهم" المقابلة طبعا للفظ "عندنا"، بل كان لبس السواد تعبير من الأوروبي عن حزنه أثار انتباه بيرم التونسي هو توافق الأوروبيين على لون معين معبر عن الحزن والحداد فلبسوا السواد رمزا لذلك، فكان المشيعون في كراريس سود وسرج الخيول أسود والخيول سود ولباس الركاب أسود

ومما يضيفه في طقوس الدفن في مقارنة أخرى ضمنية مع عاداته الإسلامية هو تأخير الأوروبيين في دفن ميتهم، والظاهر أنها من العادات التي استحسناها بيرم الخامس الذي يقول: «...وهذا لا مانع في ديانتنا إذ استحباب التعجيل بالدفن إنما هو تحقق الموت بيقين...»⁽³⁾.

وتظهر الفوارق الاجتماعية في كل ملمح اجتماعي ينقله بيرم الخامس، حتى في المآتم والأحزان حيث يقول بيرم: «... وأغنياؤهم... يذهبون بالميت إلى المقبرة فيدفن في قبر عميق، ويحكم سد التراب والماء عليه، ويجعلون على القبور هياكل من الرخام ويتأثقون فيها، أما الفقراء فتجعل جنازتهم في سراديب مع بعضهم...»⁽⁴⁾.

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج4، دار صادر، مصدر سابق، ص 2013-2014.

(2) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج3، دار صادر، مصدر سابق، ص 61.

(3) المصدر نفسه، ص 61-62، ص 163.

(4) المصدر نفسه، ص 62.

رابعاً: المرأة الأوروبية في نصوص الرحلات المغاربية

عادت المرأة لتحتل مكان مهما في نصوص الرحلات المغاربية، إذ أسهب الرحالة الذين زاروا أوروبا في التاسع عشر في وصف النساء الأوروبيات، والوقوف على جمالهن، وانتبهوا إلى قيمة حليهن النفيسة وبذخهن ودلالهن، كما وصفوا لباس النساء وتسريحات شعورهن وطريقة رقصهن إلى درجة يمكن القول معها أن النساء استأثرن بإعجاب الرحالة واستغرائهم واهتمامهم بحيث كن ضمن الجديد المبهر لدى الآخر المختلف الذي جعل الرحالة معجباً، منبهراً، فضولياً لمعرفة أسرار الرجال وعلاقاتهن بالرجال⁽¹⁾.

1- الرحالون المغاربة وجمال المرأة الأوروبية:

لذا نجد الصفار واصفاً جمال المرأة الباريسية؛ وصف أبان فيه الرحالة المغربي وهو الكاتب الفقيه على كثير من الحرية في التعبير: «... فإذا تلك القصور كلها قد امتلأت ببنات الروم البارعات في الحسن والجمال، متجعدات الأجياد والنحور، رقاق الخصور، ثقال الأرداف، عراض الصدر، يخجلن بحسنهن الشموس والبدور، عليهن من الحلي والحلل ما لا يصفه واصف ولا يضبطه عارف، قد ثمرن على أدرع كأنهن البرق الخاطف، يبهرن العقول بكلماتهن المعسول، ورشاقة القدود وحمرة الخدود، وتثني الغصون وتلين المعاطف...»⁽²⁾.

ولأن جمال المرأة ارتبط غالباً بأناعتها وزينتها نجد الصفار من الرحالة المغاربة القلائل الذين اهتموا وركزوا على لباس المرأة الفرنسية على الخصوص وهيأتها، حيث يقول: «... وكلهن متزينات بأحسن زينتهن، لابسات أفخر ثيابهن على اختلاف ألوانها... وشد الستر في لباسهن الثديان فهما مستوران، وما فوقهما من الصدر والظهر والرقبة والعضد مكشوف بادي، ويسترن بعض العضد إلى نصف الساعد بأكمام ضيقة على قدر العضد، ولا يبلغ المرفق، ويحتزمن على الخصر تحت ذلك الثوب بحزام ضيق لرقبة خصورهن، قيل إنهن يرينه كذلك من سن الصغر بقالب معد له، فخصرها قد يمكن أن تحلق عليه بأصابعك لرقته ونخافته، ويجعلن الثوب الذي على الخصر ضيقاً على قدره، حتى يكون ذلك الخصر بادياً ظاهراً في رفته ولطافته، ويرخين الثوب فيما أسفل من ذلك حتى يعظم به المردف، ولعله بشيء يجعله تحت»⁽³⁾، وتكررت كثيراً مواقف دالة عن إعجابه بالمرأة الفرنسية وأناعتها وجمالها⁽⁴⁾.

ولأن معيار الجمال مختلف بين الأجناس البشرية، نجد الصفار يشير أن أجمل النساء في فرنسا؛ هي المرأة البيضاء خصيبة البدن، عكس المرأة السمراء، لذا يقول عن المرأة الباريسية: «نصيب من الجمال والبياض وخصب

(1) مليكة نجيب، مرجع سابق، ص 239.

(2) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 190.

(3) المصدر نفسه، ص 221.

(4) المصدر نفسه، ص 212.

البدن، وسود العين والحاجبين معدوم عندهم، والنادر لا حكم له، فلذلك يزين نساءهم لبس السواد، ويواتيهن أكثر من غيره من الألوان»⁽¹⁾، في موقف يعيدنا إلى تلك الصورة التي عبر عنها الحجري وهو يسجل معيار الجمال لدى الفرنسيين في القرن السابع عشر.

ويبدو أن معايير جمال المرأة عند الأوروبيين لم تكن هي نفسها عند العماروي، فإن كانت المرأة الأوروبية الصفراء النخيفة منتهى الجمال عند الفرنسيين، فهي ليست كذلك حسب معيار الجمال عند السفير المغربي، وذلك لما وصف زوجة السلطان الفرنسي نابليون الثالث: «...وعليها معالم الحسن، إلا أنها صفراء نخيفة الجسم لم يبق من محاسنها إلا الرسم...»⁽²⁾.

وهذا الوصف الذي وصفه العماروي ذكر يرم الخامس أنه من علامات الجمال في أوروبا، فتجد النساء الأوروبيات: «يتفاخرن بالنحول واصفرار اللون»، ويبن الرحالة التونسي أن ذلك ناجم عن السهر والعشق وهو كذلك علامة على الغنى لأن السهر مع الحبيب يستلزم صرف مصاريف معتبرة⁽³⁾.

وأمام هذا المشهد من الانبهار بالجمال الفرنسي لم يهمل الصغار التأكيد أن ما شاهده من "بنات الروم" هن بنات الطبقة العليا في الدولة الفرنسية من ساسة وقواد: «...ولم يحضر هناك إلا بنت من وزوجة من ومن، كنساء السلطان وأقاربه وسار وزرائه وعظماء دولته وخوادم مملكته، وليس فيهن فاجرات ولا عاهرات»⁽⁴⁾، كأنه بذلك يبرر لقائه من المخزن المغربي ومثقفى المغرب تواجده في هذه المجالس التي تحضر فيها المرأة.

رغم عدم تقبل صاحب الجزائري ابن علي الشريف الصورة التي كانت عليها المرأة الأوروبية من اختلاط مع الرجل في كل المناسبات والأماكن، إلا أن ذلك لم يمنعه من التعبير عن إعجابه بجمال المرأة الفرنسية ف «...نساء فرنسا بارعات الجمال واللطاف، حسان المسيرة والملاطفة بتبرجهن بالتزين الغريب...»⁽⁵⁾، ليعطي حرية غير مألوفة لقلمه واصفا ما رآته عيناه من هذا الجمال المبهر: «...وقد رأينا بهذا البلد العظيم جماعة لنسوة كأنهن أقمار وعليهن من الحلي ما يضيء كالمنار، أو ساطعن كالزنانير متحزمة، وأردافهن الثقيل تميل ميل العربة، أي الكروسة...»⁽⁶⁾، وأعجب كذلك بأدهن ولطافتهم.

(1) المصدر نفسه، 158.

(2) إدريس العماروي، مصدر سابق، ص 107.

(3) محمد يرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص 2000.

(4) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 190.

(5) ابن علي الشريف، مصدر سابق، ص 55-56.

(6) المصدر نفسه، ص 65.

2- العلاقات بين الأفراد في أوروبا المرأة/ والرجل

وكغيرهم من الرحالة المغاربة الذين زاروا أوروبا عبر مختلف المراحل التاريخية، شغلت علاقة المرأة مع محيطها وخاصة مع الرجل انتباه هؤلاء الرحالة، إذ ظهرت المرأة الأوروبية في المحافل والمجالس المختلفة، وإن كان الصغار قد انتقل في حديثه عن عادات المخالطة بين الجنسين ومظاهرها من الصدمة والتعجب إلى الوعي بالآخر فكانت ردة فعله أن تعجب من طريقة رقصهم المختلط ووصفها وصفا دقيقا، إلا أن ما شد الصغار هو إباحة لقاء المرأة مع الرجل الأجنبي والرقص معه: «...وليس ذلك عندهم عيبا ولا مخلا بالمروءة، فترقص المرأة بحضور زوجها مع غيره، وإذا ترادف عليها الرجال بحيث يطلقها هذا ويمسكها هذا رغبة منهم في الرقص معها، فتتنشط لذلك وتفرح وتعظم في نفسها لكون رقصها معجبا».

وليوضح الصغار أن هذا اللقاء بين الرجل والمرأة في مختلف الفضاءات كان أمرا لا يدخل في حكم الغريب ولا الشاذ في المجتمع الفرنسي بل أمر شائع بين مختلف طبقات المجتمع؛ ضرب مثلا بأعلى شخصية في فرنسا: «رأيت السلطان بنفسه واقفا وأولاده ونساء أولاده وبناته يرقصون مع بعضهم ومع غيرهم وهو يفرح لذلك ويضحك»⁽¹⁾، وكان تأكيد الصغار في كل مرة يذكر فيها أن هذا الاختلاط ليس معيبا ولا مخلا بالمروءة هو استحضار من الرجل لقيمته وثقافته وتكوينه الديني والثقافي والاجتماعي والقيمي في حكمه على التي تمنع هذه المظاهر وتباينت أحكام وردود فعل الرحالة المغاربة حول ظاهرة المخالطة و"انفتاح المرأة الأوروبية على المجتمع"، فبينما كان الصغار يرى أن هذه المخالطة لا تؤدي بالضرورة إلى التشكيك في عفة المرأة الفرنسية بل كانت تتم في أجواء من العفة والصيانة للمرأة: «...وليس تحدث النساء مع الرجال عندهم عيبا ولا مخلا بالمروءة بل ذلك هو المطلوب عندهم، لكن مع عفة وصيانة وعدم حماية حول الحمى، بل بنحو ظريفة أو أدبية أو تستحي أو نحو ذلك، أو بالسؤال عن أولادها وعن أسمائهم ونحو ذلك»⁽²⁾.

إذ نهج الصغار على نهج المصري رفاعة الطهطاوي في رؤيته أن خلاعة النساء الفرنسيات لا تمت إلى سفورهن بصلة وإنما تنشأ من حسن التربية أو رداءتها⁽³⁾، ففي الوقت الذي فضّل فيه جل الرحالة المغاربة تعميم صورة المرأة الفرنسية "السافرة" "غير العفيفة" نجد أن الصغار كأن به أراد تصحيح صورة متخيلة جمعية راسخة لدى فئة كبيرة من المغاربة حول علاقة المرأة الأوروبية بالرجل.

(1) محمد الصغار، مصدر سابق، ص 224.

(2) المصدر نفسه، ص 217.

(3) نازك سابايارد، مرجع سابق، ص 105.

ويشير الصفار لقراء رحلته بضرورة عدم تعميم صورة المرأة الأوروبية "غير العفيفة"، لذا نراه يقدم تقسيمات للمرأة الفرنسية حسب "العفة"؛ فئة انسأقت نحو حياة الفجور، وهي رغم عدم معاقبة القانون عنها إلا أنها تبدو مغضوب عنها من قبل المجتمع الذي تعيش فيه فاقدة الكرامة فيه منبوذة: «وليس عندهم الغزل والتشبيب والتعشق إلا في النساء، ولا يميلون إلى الغلمان والأحداث، وذلك عندهم عيب كبير، وفيه العقوبة ولو كان برضاها، بخلاف عشق النساء والخلوة بهن، فإن ذلك إذا كان عن رضى منها لا يتعرض لهما متعرض، ولا يلزم فيه شيء عندهم، لكن فاعليها عندهم ساقط المروءة ناقص العرض، وخصوصا الفاعلة فإنه لا يبالي بها، ويستنكف أهل المروءة من الكلام معها والسلام عليها ولو لغير ذلك القصد، وإن كان ذلك مباحا إذا كان يرضي الجميع»، وربما كان الصفار يقصد هنا الصنف من النساء اللاتي آثرن طريق الرذيلة طريقا وامتهانا، «وأما العفيفات منهن فإذا دخل بيت زوجها وهي هنالك، فإنه لا يعد من الظرفاء والأدباء إلا إذا أبدأها بالتحية وخاطبها مباشرة وملاطفة في عفة، وبذلك ينشط زوجها ويزداد عنده فاعل ذلك رفعة ومحبة، وبعدها يحبي الزوج وغيره من الرجال، فمن أراد قضاء حاجته مع الرجل فليقصد المرأة، هذا ما استقرت عليهم ويرى وقتئذ من بنات الروم ما يلهي ويدهي»⁽¹⁾.

ولا تخرج مشاهدات وردود فعل الرحالة الجزائريين حول ظاهرة الاختلاط عما ذكره الرحالة المغاربية، واصفين إياها بالغريبة ومن ذلك قول ابن علي الشريف في نساء فرنسا: «...ويعتزجن مع الرجال في الولائم امتزاج الماء بالراح، وربما حصلت معرفة بينهن وبين الرجال، خصوصا في البالات والمراقص شيء غريب...»⁽²⁾.

أما التونسي بيرم الخامس فقد بدا مستغربا من عادات الاختلاط في أوروبا وإباحتها على نطاق واسع في هذه المجتمعات، ودخل في مقارنة بين بيئته ومجتمعه الذي أتى منه، حيث اللقاء بين المرأة والرجل "الأجنبي" في أوروبا يعبر عن قلة حياء: «...وليس من عاداتهم الحياء مثل ما هو عندنا، فترى البنت تخاطب زوجها وتفاكهه أمام والديها، بل وتفعل مثل ذلك مع خطيبها، وترقص مع الرجال أمامهم، هذا في البنات فكيف بالبنين...»⁽³⁾.

وامتد هذا الاختلاط في شتى المجالات، ومن ذلك ما ذكره بيرم الخامس من غناء ورقص المرأة الأوروبية: «...وعندهم أن الغناء ليس بمعيب من النساء، فترى أكبر الأعيان يحتفل في داره بدعوة عامة الناس، وتصير بنته أو زوجته أو إحدى النسوة الأعيان المدعوات تغني في ذلك الملاء، وترقص مع الرجال على أشكال شتى من معانقة ومخاصرة وغيرها، ولا تأثيم من ذلك بل يروونه إكراما، بحيث أن المسلم الغيور يكاد يتفطر مما يرى»⁽⁴⁾، ونبرة

(1) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 180.

(2) ابن علي الشريف، مصدر سابق، ص 56.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج 3، دار صادر، مصدر سابق، ص 46.

(4) المصدر نفسه، ص 46.

الاستغراب بادية في مقالة بيرم وهو يرى الرجل الأوروبي يسر ويفرح وهو يرى زوجته أو ابنته مع رجل آخر غريب تراقصه وتعاينه، فنظرته لهذه العادات والعلاقة بين الرجل والمرأة انطلاقاً من منظومته القيمية وتكوينه الديني وخلفيته الاجتماعية كمسلم وتونسي.

فيما شن العمرابي حملة على ظاهرة اختلاط النساء الأوروبيات بالرجال الأجانب عنهن (وفق نظرة مغربية)، واعتبرها قلة عفة وانعدام حياء من النساء الفرنسيات، وعدم غيرة من الرجال الفرنسيين على زوجاتهن أو نسائهن: «مع قلة العفة فيهن، فقد بلغنا أن جلهن يتعاطين الفواحش، والغيرة في أزواجهن نادرة جداً، فيرى رجل زوجته آخذة بيد رجل آخر ذاهبة معه تتحدث في الخلا والملا، فلا ينكر عليها ذلك، وربما وجّه بعضهم زوجته مع جاره أو صاحبه لنصزه أو فرجة إن كان له هو شغل ولا يقدر يذكرها بشيء من ذلك، ولا يسمها به ولو سمعه عنها...»⁽¹⁾.

وأمام هذه الصورة للعلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمع الفرنسي راح العمرابي محاولاً إيجاد تفسيرات منطقية لهذه الظاهرة الجديدة والدخيلة عليه، فانطلق من خلفيته الدينية والثقافية والاجتماعية يفسر الأسباب المؤدية حسبه لعادات الاختلاط هذه قائلاً: «...ولا يتزوج على كل حال بغيرها حتى تموت سواء طلقها لموجب أم لا، كما أنه لا يقدر أن يتزوج اثنتين ولو كان ملكاً، وهذه من الأسباب الحاملة للرجال على عدم الغيرة على المرأة، وعدم البحث عن حالها وملازمة قاعتها واتباع شهواتها...»⁽²⁾.

فيما أكد العمرابي أن عادات الاختلاط والسفاح التي شاهدها في فرنسا ناتجة عن منع الشرائع في أوروبا للطلاق بين الزوجين، ومنعهم تعدد الزوجات، فلو كان هناك تعدد ما حصل اختلاط فاحش كالذي رآه، فمن مضار حرمان الأزواج من حق الطلاق يذكر اضطرابهم إلى البحث عن موجبات الزنى «لأن الطلاق عندهم له شروط؛ وهي ثبوت الفاحشة من الزوجة لدى الحاكم...» إذ يكتفي فيه أن يشاهد الزوج زوجته مع آخر كما شاهد بيرم ذلك في إنجلترا⁽³⁾، فكل من بيرم والعمرابي يرى في منظومته التي انطلق منها صحيحة بينما تصور منظومة الآخر الأوروبي أنها على خطأ، وهو بذلك يفسر عادات الآخر انطلاقاً من ثقافته هو لا من ثقافة هذا الآخر.

وما أثار استغراب العمرابي وبيرم الخامس أكثر؛ كون هذه العادات في الاختلاط بين الجنسين تستند إلى قوانين تكفل ذلك، حتى أن الرجل المتزوج لا يستطيع أن يمنع ذلك إلا في حال وجود بيئة توجب بعدها الطلاق⁽⁴⁾.

(1) إدريس العمرابي، مصدر سابق، ص 93.

(2) المصدر نفسه، ص 94.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج 4، دار صادر، مصدر سابق، ص 59.

(4) إدريس العمرابي، مصدر سابق، ص 93.

3- واقع المرأة في المجتمع الأوروبي

يبدو أن للمرأة الأوروبية مكانة مميزة في مجتمعاتها، أو دعنا نقل على الأقل في المجتمع الذي التقى واحتك به أصحاب الرحلات المغاربية -وهو مجتمع الطبقة العليا- فيقول ابن علي الشريف معبرا عن مكانة المرأة الفرنسية: «...وبالجملة فالتعظيم للنساء أصل، حتى إذا دخل أحدهم بيت صاحبه فيحيي صاحبة البيت قبل الرجل...»⁽¹⁾.

وهي بلا شك صورة تدل على الاستغراب والتعجب من المكانة التي حظيت بها المرأة في المجتمعات الأوروبية المرتحل إليها، وهي نظرة أثرت فيها الخلفية الاجتماعية التي أتى وتكون ويؤمن بها صاحب الرحلة، الراض لهُكذا مكانة للمرأة، وسط مجتمع جزائري مغاربي وعربي ذات تكوين وطبيعة ذكورية بالدرجة الأولى، ولتأكيد ذلك يضيف ابن علي الشريف: «...وأما النساء فإنهن سيدات رجالهن وهن عبيدهن تحت أمرهن لم تسعهن مخالفتهن قط جميلات وغير جميلات، فأقول أن علم النساء لم يدرك الفرنسية والله أعلم، كيف وإنهم على رأي نسائهم وفي قبضتهم مع أنهن ناقصات عقل ودين!»، وهي من المرات النادرة التي ينتقد فيها ابن علي الشريف فرنسا ومجتمعاتها.

بل نجد في موقف مقارنة يفضل الحال والواقع والمكانة التي كانت تحتلها المرأة والمعاملة التي تعامل بها في بعض المجتمعات الشرقية والإسلامية عموما والجزائرية على وجه الخصوص، إذ لم تمثل المرأة في هذه المجتمعات بالنسبة للرجل إلا كواحد من دوابه أو متاعه، لا فكر ولا عقل ولا مشورة ولا رأي لها، فالمرأة هي "العدو" و"الشر" و"الشيطان" و"الفتنة" لذا جاء قول ابن علي الشريف: «على كل حال فلو اطلع المسلمون على ذلك تطلعا شافيا لاستغروه وتعجبوا منه، وإنما النساء فتنة تلعبن بعقول الناس، ويعتقد فيها العداوة التامة حتى لا يكمل لعدو مشورة، وما من فتنة في الدنيا إلا وسببها امرأة، نعوذ بالله من شرهن ومكرهن، فإنهم أشراك الإشراك، وأوهاق الأزهاق، وأسواق الفساق...وحسب الطبيعة: فعند أهل البوادي الحمل نساؤهم كدوابهم، وعند أهل المدن غالبا في المشرق كأمثلة بيوتهم، وعند الفرنج كالصبيان المدللين، ويحتمل أنهم يقدرون على الخلاص من شرهن لحسن سياستهم والله أعلم...»⁽²⁾.

ونفس عبارات الغرابة نجدها عند العمرأوي وهو يتحدث عن علاقة الرجل بزوجه في أوروبا بنوع من الرفض وعدم تقبل تلك الصورة بالنسبة له كمغربي: «... ويكفي في تقبيح سيرتهم وخبث سريرتهم غلبة النساء عليهم... وطاعة النصارى لنسوانهم ومبالغتهم في اتباع مرادهن أشهر من أن تذكر، ويقولون أن لهذه المدينة زيادة في ذلك، حتى أنهم يقولون في أمثالهم باريز جنة النساء وجهنم الخيل»

(1) ابن علي الشريف، مصدر سابق، ص 65، 66.

(2) المصدر نفسه، ص 55.

ويضيف العمراوي متحدثاً عن وضعية ومكانة المرأة في المنظومة الاجتماعية الفرنسية: « والمرأة هي رئيسة البيت والرجل تابع لها حتى أن من دخل عندهم بيت أحد فأدبه أن يقد السلام على المرأة قبل زوجها، وهي التي تقابل الضيوف وتكلمهم وترحب بهم سواء كانوا رجالاً أو نساء، والرجل ساع في طاعتها ممتثل أمرها متأدب معها بأحسن الآداب، لا يخالفها في شيء ومن بخلاف ذلك عدوه من أوباش الناس وسفهاءهم»⁽¹⁾، وهي صورة معاكسة تماماً للمجتمع المغربي الذي يعد فيه الرجل هو أساس المجتمع، مجتمع ذكوري بامتياز، ويبدو العمراوي كأنه يقارن ما تركه في المغرب وتعود عليه وما شاهده واكتشفه في فرنسا من حرية ومكانة المرأة.

أما بيرم الخامس فوقف عند مكانة المرأة المتعلمة في المجتمع الأوروبي، فبفضل تعليم المرأة ينشأ جيل متعلم مهذب: «ومن عادات الإنجليز وعليتهم حسن تربية الأم لأولادها، بحيث ينشؤون على التهذيب والتفطن إلى التعليم من غير تعب، حتى أنهم كثيراً ما يتعلمون الأحرف ومبدأ القراءة لمجرد التربية فيما تدبجه الأم أو المرية للصغير مع النظافة والابتعاد عن الأخلاق الذميمة، وكل أوروبا على هذا النحو، لما لهم في النساء من التعليم الحسن...»⁽²⁾، فالمرأة الأوروبية اقتحمت مجال العلوم وترقت فيه⁽³⁾.

في حين أجرى خير الدين مقارنة واقعية بين المرأة الأوروبية والمرأة الشرقية، واكتشف أن الفرق بينهما هو قضية التعليم، ولذلك نادى بضرورة تعليم المرأة وتحذيتها لتكون زوجاً صالحاً للبيت ولتعليم الأبناء، وأبى في مقدمة كتابه غلط المسلمين المتزمتين الذين حجروا الدين ورفضوا كل اقتباس حسن من الحضارة الأوروبية، واستنكر تخوف التونسيين والمسلمين عامة في عصره من تعلم المرأة، واعتبر ذلك من أسباب تقهقرهم فقال: «ومن دواعي الأسف أن هذه النظرة الإسلامية إلى المدنية الغربية لا تزال تؤثر في بعض البيئات في الأمم الإسلامية وإن اختلفت درجاتها في الإصغاء إلى هذه العوة كالتخويف من تعليم المرأة، ولعل هذا من الأسباب التي جعلت النصراني والمسلمين إذا اجتمعوا في قطر واحد كان النصراني أسبق إلى تشرب المدنية الغربية والاستفادة منها»⁽⁴⁾.

وسجلت عديد الفقرات في نصوص الرحلات المغاربية تواجد المرأة الأوروبية عبي الساحة الاقتصادية، مشاركة في جميع النشاطات جنباً لجنب مع الرجل، فلم تغب صورة المرأة العاملة في أوروبا عن نص رحلة بيرم الخامس فالنساء عندهم: «...يخرجن مكشوفات الوجوه، ويتعاطين من الأشغال مثل الرجال إلا الأشغال الشاقة...»⁽⁵⁾.

(1) إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 93.

(2) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج 4، دار صادر، مصدر سابق، ص 59.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج 3، دار صادر، مصدر سابق، ص 46.

(4) عبد القادر دوحة، مرجع سابق، ص 158.

(5) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج 3، دار صادر، مصدر سابق، ص 46.

ورغم المكانة التي حظيت بها المرأة في المجتمعات الأوروبية والحرية التي تمتعت بها إلا أن ذلك لا يمحي صورا من معاناة المرأة الأوروبية خاصة لدى الطبقات السفلى في تلك المجتمعات، ومن ذلك يقدم بيرم الخامس نقدا لاذعا للبلدان الأوروبية التي تدعوا غيرها إلى الحرية بينما تمان فيها المرأة، فرما غطت الصورة الجميلة للمرأة الأوروبية حين اصطدم بها الرحالة المغاربة أول الأمر، خاصة كما قلنا وأن ذلك كان لصورة نساء الطبقة العليا في المجتمع الأوروبي، إلا أنه خلف هذه الصورة مشاهد معتمة جدا للوضعية التي كانت تعاني منها المرأة هناك، وقد وقف بيرم الخامس عليها، فبقيت العادات البالية في أوروبا تتحكم في مصير المرأة: «...ومما يحصل عندهم من الوقاحة...بيع الزوج زوجته لمن يحبها، ويمضى لهم الحكم ذلك...»⁽¹⁾.

فظهرت بجلاء صورة المرأة الأوروبية المختفية خلف ستار نساء الأعيان، فبعد أن ذكر بيرم بيع المرأة في أوروبا على سبيل التعميم نجده يستدرك قائلا: «...وإنما الأعيان يتحاشون عن بيع الزوجات لكنه شائع في السوق، وصحفهم تنشر منه شيئا كثيرا...»⁽²⁾ والغريب من كل ذلك أن يكون ذلك معترفا به عند الحكام ومضبوطة بقوانين، أي أن المجتمع الأوروبي راض بها كما رضيت بها الدول، وهنا يقدم بيرم نقدا لاذعا لمثل هذه الممارسات جاء فيه: «...فأعجب لقوم يحتسبون لبيع الرقيق في الآفاق، ويحكمون بصحة بيع الزوجة بفلس أو فلسين...»⁽³⁾.

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج4، دار صادر، مصدر سابق، ص 59.

(2) المصدر نفسه، ص 59.

(3) المصدر نفسه، ص 59.

خامسا: الأكل والمائدة الأوروبية في نصوص رحالي المغرب خلال القرن 19م

أشرنا فيما سبق أن الأكل والطبخ والمائدة تشكل ملمحا اجتماعيا وحضاريا معبرا عن ثقافة الآخر، لذا لم تغب الرحلات المغاربية التي توجهت إلى أوروبا خلال القرن التاسع عشر الوقوف علد هذا الملمح، ونشير أن حضوره في هاته الرحلات كان متباينا سواء من حيث الاهتمام أو الموقف، بين إعجاب واستهجان ورفض ومسايرة له، الأمر الذي سوف نقف عنده في هذا الجزء من البحث.

1- عادات الأكل الأوروبي في نصوص الرحلات المغاربية

بادئ ذو بدأ نقول أن غريب وعجيب هذا الملمح الاجتماعي هو الذي شد انتباه الرحالة المغاربة وحفزهم لنقل صورته وإبداء مواقفهم حوله، ومما انتبه إليه بيرم الخامس هو تأثير الحركة الاستعمارية والتجارية على المطبخ الأوروبي، رغم أنه لم يشير إلى ذلك مباشرة، إلا أنه نقل صورة مهمة جدا؛ وهي انفتاح الأوروبيين على بقية المطاعم العالمية، إذ يذكر انتشار المأكولات والمطاعم الشرقية والفرنسية في إنجلترا⁽¹⁾، وفي باريس كان يطبخ الأكل التونسي مثل ما كانت تعرض فيها المأكولات الآسيوية من الهند والصين.

وبعيدا عن الأبعاد السياسية والعسكرية والاقتصادية التي أنتجت التوسعات الأوروبية في أقطار الأرض، فقد أتاح هذا التوسع الأوروبي في العالم أن يقرب الثقافات المختلفة، فجمعت تقاليد وعادات الشرق والغرب في باريس ولندن، واستطاعت بذلك أن تشكل أحد أهم مظاهر التلاقح الحضاري والثقافي بين الأمم، خاصة وأن الطبخ كما سبق وذكرنا يعبر كثيرا عن ثقافة أي مجتمع، وهو ما جعل بيرم الخامس يكتشف غريب الأكل الآسيوي الصيني والهندي في باريس؛ إذ حسبه يأكلون كل شيء: «...ويأكلونه؛ أعني ذات العش بما احتوى عليه من زرق أفراخ الخطاف ويستلذونه، وأغرب من ذلك أنهم يأكلون الضفادع ويستلذونها أيضا؛ بحيث يصح أن يقال أنهم يأكلون كل ما يؤكل»⁽²⁾.

كما أثار بعض تصرفات التجار في أوروبا عدم تقبل بيرم الخامس لها؛ مثل استعمال الإنجليز المواد الكيميائية على المأكولات، وهو ما اعتبره رحالتنا ضربا من الغش: «...أكلهم ولو عند الأغنياء كثرة الغش في المأكولات، بحيث لا تكاد تجد خبزا من دقيق الحنطة على حقيقته، بل هو فيه أنواع شتى تركب بإتقان حتى لا يفرق بينها وبين الأصل

(1) المصدر نفسه، ص 66-67.

(2) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج 3، دار صادر، مصدر سابق، ص 154.

إلا بعمليات كيميائية...»⁽¹⁾، وفي فرنسا يرى بيرم أن الأكل في القرى والبلاد الصغيرة أسلم من أكل المدن والأمصار الكبرى نظرا للغش حسبه الذي يطال المأكولات في هذه الأخيرة.

هذا ولا ينفك بيرم الخامس في خضم نقله لصورة الآخر الأوروبي المختلف والمغاير معه في العادات خاصة في عادات الأكل يستحضر الأنا العربية والمسلمة، مثل ما كان عليه الأمر في إشارته لحرمان الإنجليز من لذة أكل لحم الخروف: «...لكنهم ممنوعون من لذة أكل الخروف الصغير، إذ الحكم يمنع ذبح الشاة دون العامين...»⁽²⁾، إلا أنه يعقب أن ذلك لأسباب اقتصادية، وكأنه ضمنيا ينتقد في نفس الوقت السياسات في البلاد الإسلامية في عدم النظرة الاقتصادية لكل الأمور.

وفي إطار نقله لصورة عادات الأكل في فرنسا، يسجل بيرم الخامس الاختلاف في نوعية المأكولات بين سكان القرى وسكان المدن وبين الفقراء والأغنياء؛ حيث أن أهل المدن أكثر أكلهم الدقيق مع لحم البقر، أما الفقراء فلهم أكل لحم الخيل، وفي القرى يأكلون الشعير والذرى والبطاطس، والفقراء أكثر استعمالا للخنزير من الأغنياء، وحسبه فإن أكل القرى والبلاد الصغيرة أسلم من الأكل في المدن والأمصار من الغش بالخلط للأشياء المضرة⁽³⁾.

ولا يكفي بيرم الخامس بمقارنة الأكل داخل البلد الواحد، بل يقارن بين أكل مختلف الدول الأوروبية التي زارها، فلاحظ الفوارق الموجود حسبه بين المطبخ الفرنسي ونظيره الإيطالي، مفضلا الأول لأنه أقرب مذاقا للأكل العربي بما يستعملونه من بهارات، بل وأكثر لذة وأجمل شكلا⁽⁴⁾.

ومثل ما ذهب إليه رحالة القرن 17 و18م، فإن بيرم يسجل عن سكان المدن في أوروبا أنهم لا يصنعون الخبز في بيوتهم، فكل شيء يشتري من السوق إلا قليلا⁽⁵⁾، وهي نفس الملاحظة التي سجلها الصغار في أن الأوروبيين لا يدخرون الأكل في بيوتهم: «...فلا يتكلف أحد منهم بشراء زرع ولا طحنه ولا ادخاره، وعلى أرباب الأسواق إقامتها بما يكفي المدينة حتى لا يفقد منها شيء طول السنة»⁽⁶⁾.

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج4، دار صادر، مصدر سابق، ص 67.

(2) المصدر نفسه، ص 68.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج3، دار صادر، مصدر سابق، ص 154-155.

(4) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج4، دار صادر، مصدر سابق، ص 2000-2001.

(5) المصدر نفسه، ص 2002.

(6) محمد الصغار، مصدر سابق، ص 208.

كما ركز الصنفار عند ذكر الفروقات الموجودة بين العادات الأوروبية والإسلامية، فذكر الأولى لغرابتها بالنسبة له مثل حديثه عن أكل الفرنسيين لحم الحيوان دون ذبح: «...ويرون في خنقه بقاء قوته...»⁽¹⁾، وذلك لأنها مخالفة للشرعية الإسلامية التي لا تحل على المسلمين أكل الحيوانات غير المذبوحة، وتدخل غير المذبوحة في حكم "الميتة". هذا وشكلت عادات في الأكل الأوروبيين استغراب بيرم الخامس، ومن ذلك استغرابه ورفضه لما سماه أكل اللحم نتنا في إنجلترا: «...ومن عاداتهم في الأكل؛ أكل اللحم النتن سيما في بعض الطيور، حتى يصير الطير يكاد يتحرك من الدود الذي نشأ فيه، وغذا دخل إلى بيت الأكل زكمت أنوف حتى الكلاب من قبح نتن رائحته، وهو يستلذونه مع ذلك، مثل سودان أفريقية...»⁽²⁾.

ومما لاحظناه أن بيرم لم ينظر إلى هذه العادة الإنجليزية في الأكل نظرة دينية أو فقهية بين تحريم أو تحليل، لكنه نظر إليها نظرة اجتماعية بحجة لأنه مختلفة عن عاداته وعادات مجتمعه، لذا نراه يقرب صورتها لقرائه من خلال تشبيه هذه العادة بما يعرفه المجتمع التونسي عن سودان أفريقيا، كما لم تخلوا من تركيز صاحب الرحلة حول الأضرار الصحية التي من الممكن أن تؤدي بها مثل هذه العادات في الأكل: «...إن هذا لحسن من جهة تليين اللحم وقابليته للطبخ واللذة سيما في البلاد الباردة، لكن لا يصل الحد به إلى حدوث أدنى رائحة به، فإن هذا مضر بالصحة...»⁽³⁾.

ومثل غيره لم يدع بيرم ذكر عادة شرب الخمر عند الأوروبيين، وأنها كانت حاضرة في جل مجالسهم تقريبا، لكنه لم يأخذ مأخذ الرحالة المغاربة في القرنين 17 و18م بخصوص موقفهم المستهجن لهذه العادة، بل نوه باحترام الأوروبيين لمعتقدات الآخر وعاداته: «...ومن لا يريد الشرب من الخمر لا يعيرون عليه ذلك... كما أن غالب متبصريهم يعلم أن الخمر حرام عند المسلمين...»⁽⁴⁾.

إلا أن بيرم استقبح من جهة أخرى على الأوروبيين إسرافهم في شرب الخمر فيقول عن أهل إنجلترا: «...حتى يغمى عليهم، بل إن أيام الأحد ترى النساء والرجال سكارى على الطرق ملقون، ويتفوهون بالفحش وبعضهم أحيانا يموتون من كثرة السكر...»⁽⁵⁾.

ثم إن بيرم الخامس في نقله لصورة عادات وطبائع الأوروبيين من أكل لحم الخنزير وأكل الدم والميتة وشرب الخمر وغيرها بنظرة دينية محضة من خلال تكوينه الديني والاجتماعي والثقافي، لذا نراه يلجأ إلى النص القرآني، والعلوم الطبية من أجل الاستدلال عن مضار لحم الخنزير مستنكرا أكل أهل أوروبا ذلك، حيث يختم في الأخير «فحمد الله على شرعنا القويم»⁽⁶⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 208.

(2) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج4، دار صادر، مصدر سابق، ص 68.

(3) المصدر نفسه، ص 68.

(4) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج3، دار صادر، مصدر سابق، ص 59.

(5) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج4، دار صادر، مصدر سابق، ص 68.

(6) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج3، دار صادر، مصدر سابق، ص 155.

2- إشكالية الأكل من طعام أهل الكتاب

وكان السفر والرحلة إلى أوروبا قد أعاد فتح باب إشكالية الأكل عند الآخر غير المسلم ومن طعام أهل الكتاب في بلادهم، وتطرق التونسيان بيرم الخامس ومواطنه السنوسي أثناء رصدهما لمظاهر الأكل الأوروبي إلى مسألة طالما أسالت الكثير من الخبر وهي الأكل عند الآخر غير المسلم، خاصة الذبائح منها، وهو ما عبر عنه بيرم بقوله في ختام حديثه عن عادات الأكل الأوروبي: «...وإنما أطلنا الكلام في هذا المجال لأنه مهم في هذا الزمان، وكلام الناس فيه كثير...»⁽¹⁾.

فبيرم نظر للأكل الأوروبي دينية فقهية بين محرم ومكروه ومباح؛ وبين ما هو لعادة وما هو لعبادة، وما هو لهدية، وبذلك قسم الأكل من الناحية الشرعية إلى ثلاثة أصناف وقدم الرحالة التونسي تفصيلا وشرحا دقيقا ومطولا في أكل المسلم المأكولات الأوروبية، وارتكز في استخراج أحكامه من المدونة الفقهية الإسلامية الخاصة بهذا الباب:

- فطعامهم إما يكون من الخنزير ومثله من الحيوانات المحرمة في الإسلام كالسباع، وهو ما حرم بنص بين من القرآن الكريم، وحسب بيرم الخامس فإن الدراسات الحديثة في زمنه قد أثبتت مضار أكل لحم الخنزير على الإنسان وهو ما رأى فيه بيرم الخامس تحليلا لعظمة الدين الإسلامي: «فحمد الله على شرعنا القويم»⁽²⁾.

- إما يكون من الحيوانات المذكاة؛ أي التي هي حلال عندنا (في الإسلام) وإنما يتوقف أكلها على التذكية، وقبل أن ننظر تفصيل الحكم الشرعي الإسلامي فيها الذي أتى به بيرم؛ ننقل صورة تذكية الذبائح في أوروبا وأنواعها المختلفة فيقول: «وكيفية الذكاة في أوروبا عموما حسبما علمت أن البقر بعد أن يربط من قرونيه يميناً وشمالاً، ومن أرجله أيضاً حتى لا يستطيع الحراك وهو واقف يضرب على جبهته بمطرقة عظيمة من الحديد ضربة أو اثنتين حتى يغمى عليه فيذبح ويجمع دمه ليعمل منه نوع من الأكل في المصارين، وبعضهم يكتفي بالقتل بالضرب على الرأس، لكنه نادر...وأما الغنم وشبهها فيذبح ابتداءً، وأما الطيور فالأوز ودجاج الهند وأشباهاها مما هو طويل العنق فيذبح ذبحاً، وأما الدجاج فيذبح عنقه إلى أن ينقطع النخاع فيموت وينحصر الدم نحو الدماغ فينجمد ويؤكل على حدة، وأما الحمام فالأكثر ذبحه، وتارة يخنق وتارة يكسر ظهره مع قطع النخاع فيموت»⁽³⁾، فهي بين مباح ومكروه، فالأصل فيه حسب بيرم الحلية، وضرب في ذلك مثالا من أكل الرسول صلى الله عليه وسلم من الشاة المسمومة التي قدمتها له

(1) المصدر نفسه، ص 163.

(2) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوني، مج5، مصدر سابق، ص 2004.

(3) المصدر نفسه، ص 2002-2003.

المرأة اليهودية، «وإنما أتت الكراهة من حيث الإشعار بالتعظيم لشعائر الكفر في المتخذ للأعياد، وكلما أشعر بذلك كان مكروه، أما إذا قصد التعظيم فينتقل الحكم إلى الكفر والعياذ بالله، والمشكوك داخل في ذلك...»⁽¹⁾.

- وغيرها من المأكولات التي يباح أكلها مثل السمك والنباتات والمعادن: «ودليل الإباحة فيها فلأنها من غير ما يذكي فهو مباح بأصل الإباحة العامة؛ لأن كل ما لا تذكية له لا يتوقف على شيء مباح سواء عدم المضرة والطهارة فهو من المسلم وغيره على السواء»⁽²⁾.

ولا شك أن الرحلات المغربية في القرن التاسع عشر سلكت مسلك سابقتها في النظر إلى الأكل الأوروبي وجواز الأكل منه، لذا استمرت السفارات المغربية إلى أوروبا ترفق معها طبّاخين خاصين، تفاديا للأكل "الحرام" الأوروبي، بل إنهما في بعض الأحيان تحمل معها مؤنّتها إلى البلد الأوروبي المرتحل إليه، ففي التقرير الذي رفعه المسؤول عن نقل البعثة السفارية المغربية إلى فرنسا إلى المسؤولين الفرنسيين؛ ذكر أن أعضاء الرحلة المغربية والتي كان الصفار أحد أعضائها وكاتبها، ذكر أنهم نقلوا مؤنّتهم من الأكل على نص المركب البحري، وحتى طبّاخهم الخاصين بهم نقلوهم من المغرب خصيصا لإعداد الطعام، وعلى الرغم من اتخاذ المكلف بنقل هذه البعثة كافة التدابير وتوفير الاحتياجات الضرورية على مستوى مؤونة التغذية لجعلها رهن إشارة ضيوفه فإن السفير المغربي أشعاش فضل الاعتماد على مؤنّته الخاصة المتكونة من: ثورين اثنين، وأربعين كبشا وستة مائة من الدجاج... ومقادير من البيض والخضراوات والتفاح والعنب "فوضع كل ذلك بمخازن المركب الفرنسي قبل انطلاقه من تطوان، علاوة على ذلك فإن التقرير لاحظ أن المغاربة أعضاء الرحلة لم يبدو تحمسا كبيرا لمواد المطبخ الفرنسي، بل فضلوا أن يهيئوا طعامهم بأنفسهم، وخاصة الطعام المشهور عندهم بالكسكسو...»⁽³⁾.

وبما أن مسألة طعام أهل الكتاب وطعام الإفرنج وذكايمهم كان يشغل بال الرحالة والمسافرين المسلمين إلى أوروبا نجد المشير أحمد باي حاكم تونس قبيل رحلته إلى فرنسا سنة 1846م (وهي الرحلة التي كان ابن أبي الضياف كاتبها فيها) يتوجه بالسؤال عن ذلك إلى شيخ الإسلام، فأجابهم بأن طعامهم حل بشرط التسمية، وإن لم يذكر اسم الله عند الذبح فحرام.

ويظهر موقف السنوسي من هذه المسألة لما كان في إيطاليا رفقة الجنرال حسين التونسي، وذكر نزولهما بنزل بإحدى البلدات هناك أصحابه من النصاري الذين لا يذبحون فحصل لهما تعب في الأكل هنالك حيث اقتصر على أكل البيض والجبن مع الخبز، ومن الغد تنقلا إلى نزل صاحبه يهودي يتقن الذكاة⁽⁴⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 2005. ولمزيد تفصيل أنظر: نفس المصدر، ص 2003-2012.

(2) المصدر نفسه، ص 2005.

(3) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 48-49.

(4) محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، ج 1، مصدر سابق، ص 29-30.

3- اكتشاف الرحالة المغاربة آداب المائدة الأوروبية:

فبينما غيّبت نصوص رحلات القرنين السابع عشر والثامن عشر صور ومظاهر آداب المائدة الأوروبية فإن هذه الأخيرة ظهرت بقوة في نصوص الرحلات المغاربية الجزائرية والمغربية والتونسية خلال القرن التاسع عشر، فلم يكتفِ رحالة هذه الفترة بذكر طبيعة الأكل الأوروبي وأصنافه بل كان تركيزهم الأكبر هو نقل صورة آداب هذا الأكل، خاصة لما تحمله هذه الآداب من تعبير عن اختلاف حضاري وثقافي واجتماعي.

وما يجب الإشارة إليه قبل أن نرصد هذه الصورة أن أغلب ما يصفونه عن عادات المائدة الأوروبية مرتبط ارتباطا مباشرة بالفئات الاجتماعية التي اختلطوا واحتكوا بها وهي فئة عليا القوم وكبار رجال الدولة، كما أن اختلاف السياقات الزمنية للرحلات ووجهاتها أوجد بينها بعض الاختلافات البسيطة في وصف الصورة المشاهدة.

لذا نجد الصفار قسم حديثه عن المائدة الفرنسية إلى قسمين: قسم أول تطرق فيه لطريقة أكلهم، والثاني تطرق فيه إلى مأكولاتهم ذاكر صفتها وطريقة طبخها، مع ذكر الفروقات بينها وبين الأكل المغربي⁽¹⁾.

وقد وقف الصفار على عادات الفرنسيين التي كانت غريبة بالنسبة إليه، ومن ذلك أكلهم على الطاولات وعدم افتراشهم الأرض أثناء الأكل: «...واعلم أن من عادات هؤلاء القوم أنهم لا يعرفون اقتعاد بسيطة الأرض، ولا يجلسون إلا على الشوالي⁽²⁾، ولم نر مدة إقائنا ببلادهم أحدا منهم جالسا على الأرض مباشرة»⁽³⁾.

وأن كل فرد يأكل ويشرب في صحن وكأس خاص به «ويرون أن ذلك أبلغ في النظافة»⁽⁴⁾، ووصف كل ما يوضع على طاولة الأكل من أواني مختلفة وتوابل، وبين بعض الاختلافات الموجودة بين أوروبا ومجتمعه المغربي فالأوروبيون حسب لا يطبخون الطعام بالملح إنما يضعون قنينة الملح على الطاولة لمن أراد ذلك⁽⁵⁾.

ولا تختلف هذه الصورة عند الجزائري ابن علي الشريف الذي يصور أدب المائدة عند الفرنسيين الذين احتك بهم بقوله: «...وجعل لكل واحد من أضيافه مغرفة وسكينة وشوكة، وهي الآلة المسماة شوفريط، حتى لا ينال الإنسان الدسم الذي في يده أصلا، وأنهم لا يأكلون في أواني النحاس ولو كانت مبيضة، فإنها للطبخ فقط، بل دائما يستعملون الصحن المطليات...ولهم سياسة ومبالاة عظيمة بالضيف، في وضع الطعام بين يديه، لأن لكل واحد صحن يأكل فيه وحده وقدح للماء يصبون له فيه...»⁽⁶⁾.

(1) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 205-208.

(2) الشوالي: مفردا شلية من الإسبانية (Silla)

(3) المصدر نفسه، ص 201.

(4) المصدر نفسه، ص 202.

(5) المصدر نفسه، ص 202.

(6) ابن علي الشريف، مصدر سابق، ص 64-65.

كما رصد العمراني طريقة أكل الفرنسيين في تجسيد لاختلاف واضح عما تعود عليه في المغرب، مكتشفًا أداب المائدة الفرنسية: «...ويصفون على مائدة الأكل المرتفعة عن الأرض بعد تغطيتها بمنديل... ويجعلون حول تلك المائدة كراسي للجلوس عليها للأكل... وأمام كل كرسي صحن صغير ومنديل صغير وسكين ومغرفة، وآلة صغيرة أخرى من الحديد أو الفضة لها ثلاث رؤوس محددة يتناولون بها اللحم وغيره يسمونها أصحابنا الفوشك⁽¹⁾، ومن عاداتهم أن لا يأكلون بأيديهم، وإنما يتناولون الأكل بواسطة هذه الآلات... فيأخذ كل واحد ما يشتهي منه ويضعه في صحنه، ويأكل منه وحده، ولا يشترك اثنان في صحن واحد...»⁽²⁾.

أما أكلهم فله ترتيب معين لا يغيرونه: «...ويقدمون في أكلهم البيض ثم السمك ثم الدجاج ثم اللحم ثم الأرز إن كان، ثم يأكلون بعدها الحوامض ثم الفواكه ثم الحلوي ولا يغيرون هذا الترتيب... وإذا كانت وليمة واستدعي الناس جعل أمام كل واحد زماما فيه جميع ما أعد لهم من المأكول والحلويات ومن لم يشتهه رده على الخادم وقال مرسي، وهي بمعن كثر الله خيركم...»⁽³⁾.

ويبدو أن الصفار كان معجبا بطريقة الأكل الأوروبية، إلا أن ما أثاره ولم يعجبه في ذلك هو كثرة حديثهم عند الأكل مما يطيل وقته: «...ومقدار مكثهم على الطبله نحو ساعتين، لأن من عاداتهم إطالة الحديث حال الأكل ليبالغوا في الأكل... وكنا نكره مجيء وقت الأكل لطول الجلوس ولا نفهم كلامهم، وإن كثيرا من أطعمتهم لا توافقنا فكنا نعيًا ونمل لطول المكث والجلوس»⁽⁴⁾.

وفي صورة أخرى دالة على الاختلاف في العادات يقول العمراني في الأوروبيين: «...وهم لا يعزمون على أحد في الأكل ولا يحلفون له، ويطيلون الجلوس على مائدة الأكل، فمنهم من يأكل ومنهم من يتحدث...»⁽⁵⁾، وهي صورة بلا شك استحضرت فيها العمراني عادات وتقاليد وآداب الأكل في بلاده المغرب.

وأما ترتيب أكلهم فيرى فيه الصفار خصوصية أيضا: «...ولهم في الأطعمة ترتيب معلوم، فيقدمون أنواع المطبوعات من لحم وغيره ثم يتبعونها بأنواع المشويات من دجاج وغيره، ثم يختمون بالفواكه والحلاوات...»⁽⁶⁾، «إذا فرغوا من أكل الجميع أتاهم الخدمة بماء... فيغسلون أيديهم ويمضمضون، ثم يمسح يده ويقومون»، لينهي الصفار ذكر الأكل الأوروبي بشرب القهوة ثم الانصراف⁽⁷⁾.

(1) الفوشك: كلمة فرنسية تعني شوكة الأكل: Fourchette

(2) إدريس العمراني، مصدر سابق، ص 61.

(3) المصدر نفسه، ص 61.

(4) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 204.

(5) إدريس العمراني، مصدر سابق، ص 61-62.

(6) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 203.

(7) المصدر نفسه، ص 204.

ووقف ابن علي الشريف عند ترتيب أكلهم كذلك: «ولهم مراتب معروفة للطعام؛ فأول الافتتاح بالشورية ثم اللحوم، ثم كل نوع من أنواع الأطعمة كالخضروات والمرققات والعجائن، ومن جملة التحف أن الصحن تكون في بعض الأحيان على نوع الأطعمة الموجودة فيها»⁽¹⁾.

كما أشار بيرم الخامس عادة مستجدة "عندنا" حسبه وهي تقديم لائحة الطعام، أي وجود ورقة مكتوب عليها أنواع وأصناف الطعام الموجود في المطعم، ولا بد أن بيرم الخامس يتحدث عن المطاعم الموجود في الشوارع والمراسي وغيرها أي المطاعم التجارية، ورغم ذلك نجد بيرم الخامس يؤكد أن هذه العادة ليست غريبة على المجتمع الإسلامي، حيث يذكر أن الغزالي قد ذكر ما يشبه ذلك في كتابه الإحياء، حول ضرورة معرفة الضيف أنواع الطعام، وهو الأمر الذي استحسنته بيرم الخامس في أوروبا، ونعتقد أن إشارته إلى أن أصل هذه العوائد إسلامية استمدتها الأوربيين وأضاعها المسلمين.

ولم يكتفي رحالتنا برصد طريقة أكل الأوربيين بل ذهبوا إلى نقل صورة تنظيم مواعيد أكلهم وتنظيم مأكولاتهم، فتحدث بيرم الخامس عن وجود تنظيم وترتيب معين في وجبات الأكل في إنجلترا، وهي بلا شك تتشابه مع نظيراتها في البلاد الأوروبية، فنقل بيرم وجود أربع أكالات في اليوم بالنسبة للإنجليز، بالإضافة إلى وجبات الفطور الصباحي والغداء والعشاء لاحظ بيرم الخامس مأكولات السهرات في إيطاليا وأوروبا عموماً: «يقتصرون على تقديم فواكه وحلويات وخمر...»⁽²⁾، وفي إيطاليا أكد أن عدد مرات الأكل عندهم ثلاث فقط الأولى عند فطور الصباح بعد الاستيقاظ من النوم: «فيأتيه بالقهوة وما يتفق عليه من الأكل صباحاً»، والثانية هو وقت الغداء والذي يكون حسبه عند الظهر أو قبله بساعة، والثالثة هي وقت العشاء وهو بعد الفطور بسبع ساعات⁽³⁾.

وتحدث العمراوي عن عوائد الأكل في فرنسا، وذكر مواعيد الأكل عندهم، وطبيعة أكل كل موعد غذائي فيها: «وعادتهم في الأكل أن يأكلوا مرتين في اليوم، الأكلة الأولى في الساعة العاشرة أو الحادية عشر من النهار، وهي أكلة خفيفة إنما يشربون فيها الشكلاط بالحليب أو الحليب مع السكر أو مع الأتاي، ويأكلون معه الخبز والبيض أو الزبد، ولا يأكلون في ذلك الوقت لحماً ولا غيره، والأكلة الثانية في الساعة السادسة أو السابعة بعد الزوال، وأوقات الأكل عندهم مؤقتة لا يؤخرونها ولو آتى منادي الوزير أو الحاكم لأحد في وقت الأكل لا يجيبه... وإذا دعاه أحد للأكل معه من غير وعد سبق، يحتاج أن يكتب لأهله بطاقة في ذلك الحين أن فلانا دعاني أن

(1) ابن علي الشريف، مصدر سابق، ص 64-65.

(2) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج3، دار صادر، مصدر سابق، ص 46.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص 1764-1765.

أتعشى فلا تنتظروني، وهذه الأكلة يحتفلون لها ويحضرون كل ما اشتتهت أنفسهم من البقول والفواكه والحلاوي كل على قدر وسعه»⁽¹⁾.

وحديث رحالينا هنا عن المائدة الأوروبية هو بمثابة مقارنة عما تعودوا عليه في البلاد المغاربية ووجد نقيضه في أوروبا، وفي ذلك نظرة لعادات المغاربة في الأكل حيث يُذكر على المغاربة: «يقوم المغاربة بغسل أيديهم قبل تناولهم الطعام الذي يأكلونه بأصابعهم، حيث يجلس ستة أفراد حول قصعة واحدة كبيرة، فيصنع كل منهم يده فيها ليحمل لقمة من الطعام ويرسلها نحو فيه...ولا تجدد في ديارهم كراسي أو طاولات، بل يجلسون مربعين أرجلهم على الزرابي أو الحصائر ثم يتناولون الطعام من القصعة أو الآنية الموضوعة على الأرض»⁽²⁾.

ومما يؤكد صورة المغاربة في طريقة الأكل الأوروبية ونظيرتها المغاربية المقارنة التي وضعها حسن الوزان خلال القرن 16م بين المجتمعين الأوروبي والمغاربي، وقد عاش الوزان في إيطاليا مدة من الزمن ووقف عند نفس الملاحظات التي ذكرها رحالتنا لكن بصورة عكسية، إذ استحضر صورة أوروبا وطريقة أكل الأوروبيين في تقديمه لصورة أكل المغاربة، مبدئياً إعجابه بأساليب الأكل في أوروبا، والتي اعتبرها دلالة على الرفاهية في المعيشة هناك، منتقداً في نفس الوقت العادات المغاربية في طرق الأكل، فيقول: «...لكن بالمقارنة مع طريقة العيش التي يسلكها نبلأ أوروبا تبدو عيشة الأفارقة بئيسة حقيرة، لا من قلة كمية الأغذية فحسب، ولكن أيضاً من العادات الخشنة المضطربة، إنهم يأكلون على الأرض، فوق موائد منخفضة، وبدون فوط ولا أغطية من أي نوع، ولا يستعملون أية أدوات غير أيديهم، وإذا أكلوا الكسكسو تناولوه جميع المدعوين في صحن واحد بدون ملاعق، ويكون المرق واللحم معا في قدر من فخار يتناول كل واحد منهما قطعة اللحم التي تروقه ويضعها أمامه دون تقطيع، ولا يستعمل السكين وإنما يمسك قطعة اللحم باليد وينهش منها بالأسنان بقدر المستطاع...ولو أن هناك في الواقع بعض العلماء الذين يتمتعون بمستوى معيشة أفضل، وبالجملة فإن أخط نبيل في إيطاليا يعيش في بدخ يفوق ما عليه أكبر أمير أفريقي...»⁽³⁾.

وعلى العموم فقد نظر الرحالة المغاربة لواقع المجتمعات الأوروبية بكل ما تحمله من اختلاف وغيرية في العادات والتقاليد والنظم الاجتماعية المخلفة، وكل ذلك وهم ينظرون بأعينهم المغاربية وبأحكامهم الثقافية والدينية ولعبت السياقات ودوافع هذه الرحلات في طبيعة الأحكام الصادرة من الرحالة عن المشاهد التي يصفونها بين استحسان واستهجان هذا الفعل أو ذلك.

(1) إدريس العمراري، مصدر سابق، ص 60-61.

(2) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 201.

(3) حسن الوزان، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج 1، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 253.

الفصل الرابع: الواقع العلمي والثقافي في أوروبا خلال القرن 19م.

- أولا: الواقع العلمي الأوروبي في نصوص الرحلات المغاربية خلال القرن 19م
- ثانيا: مظاهر الثقافة الأوروبية في نصوص الرحلات المغاربية خلال القرن 19م
- ثالثا: الرحالون المغاربة إلى أوروبا ومتخيل التقنية

الفصل الرابع: الواقع العلمي والثقافي في أوروبا خلال القرن 19م

أولاً: الواقع العلمي

في بحثهم دائما عن أسرار القوة والتقدم الأوروبي، اتجهت أنظار رحالي المغارب هذه المرة للواقع العلمي عليهم يجدون إجابات عن تساؤلاتهم هذه؛ وبالفعل وجدوا أن الواقع العلمي أساس ما وصلت إليه أوروبا، بل حتى الميادين التي أجهرتهم سواء المتعلقة بالواقع الاقتصادي أو التطور الصناعي والعسكري كل هذه الميادين مدينة للتفوق العلمي فهو أساسها وسر قوتها، وعليه راح هؤلاء الرحالة باحثين في مقومات القطاع العلمي في أوروبا.

وإن أول ما يقف عنده الرحالة في واقع أوروبا العلمي؛ هو اهتمام الأوروبيين الكبير وميلهم نحو تعلم العلوم، لذا أشاد كل الرحالة الذين زاروا فرنسا بطبيعة الفرد الفرنسي المتطلع دائما إلى تحصيل المعرفة والاستقصاء عليها، في صورة يبدو فيها تأثرهم بما دونه الرحالة المصري رفاة الطهطاوي واضحا وجليا⁽¹⁾، وعليه يقول ابن علي الشريف: «...ونرجع إلى ما كنا فيه من مدح باريس والكلام على خزائن كتبها وعظيم بانياتها، وهي دار مملكة فرنسا، تحقق عندي أنها احتوت على جميع العلوم والفنون، وكلما تقادم أمرها ازداد عددها، وأغلب أهل فرنسا يبحثون ويتنازعون في مسائل علمية عميقة لا سيما أطفالهم، فإن الإنسان إذا خاطب الصغير في أمر فيجيبك بدلا عن قوله لا أعرف أصل هذا الشيء...»⁽²⁾، ففي مسعاه للترويج لفرض التعليم الفرنسي في الجزائر يشرح بن علي الشريف بمزيد من العمق مفهومه للحكم الرشيد من خلال تليسه بميزة أساسية ثانية وهي التعليم، إن الدولة الفرنسية المهتمة بمثل العدالة وبناء المدارس وتعليم الصغار، تخفي بالتالي الاهتمام الفاضل المضاعف لتعليم شعبها وتعليم الجزائريين.

والأمر من مأتاه لا يستغرب كما بينه ابن صيام وابن علي الشريف ما دام: «...أهل باريس يختصون من بين الناس بذكاء العقل ودقة الفهم وغياص الذهن في الأمور عامة...وليسوا بالمقلدين في الأمور أصلا بل يطلبون دائما إدراك معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه، حتى أن عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة ويدخلون مع غيرهم في الأمور العميقة كل إنسان على قدر حاله، فليست العوام بهذه البلاد كعامة غيرها من البلدان...»⁽³⁾.

ولا يخرج السفير المغربي العمراوي قيد أنملة عما دونه الطهطاوي وبعده الرحالة الجزائريين في وصف اهتمام الفرنسيين بالعلم والمعرفة لأن: «...لهم تشوق لأخبار النواحي، ومعرفة أحوال البلاد وأنواع التجارة والفلاحة والعمارة، وقد أكثروا السؤال عن العلوم والكتب، وسؤالهم عن علم الهندسة والهيئة والتنجيم واللغات أي لغة كانت، وقد ذكروا لنا أنهم ترجموا كتباً عديدة من كتب الإسلام باللغة الفرنسية...»⁽⁴⁾.

(1) رفاة الطهطاوي، تخلص الإبريز في تلخيص باريز، مؤسسة هنداي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص 83.

(2) ابن علي الشريف، من كتاب خمس رحلات جزائرية إلى باريز، ص 71.

(3) سليمان بن صيام، مصدر سابق، ص 11-12، ابن علي الشريف، مص در سابق، ص 53.

(4) إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 41.

في حين لم يتحرج بيرم الخامس من الإشارة والتأكيد على التفوق الأوروبي على نظرائهم المغاربة والمسلمين في المجال العلمي، خاصة في العلوم العقلية: «...وعلى الإجمال فأهالي الشمال متقدمون على غيرهم في سائر في سائر الفنون والتجارة والفلاحة وعلومهم الأصول الثلاثة أحدهما علم جر الأثقال، وثانيها علم الكيمياء أي تحليل الأجزاء وتركيبها، وثالثها علم الطبيعيات ولكل منها فروع...»⁽¹⁾، وكانت فرنسا أرقى نماذج انتشار ورقي العلوم بأوروبا: «اعلم أن المعارف الدنيوية في فرنسا قد تنامت لأعلى درجة من الإتقان والاجتهاد»⁽²⁾.

ومما لفت الانتباه في رؤية الرحالة المغاربة إلى العلوم والمعارف الأوروبية؛ أنها علوم "مادية" "دنيوية"، بعكس العلوم ذات الطابع الديني التي كانت أساس كل علم في البلاد الإسلامية، وهو ما أكدته تكرار هؤلاء الرحالة عبارات مثل "المعارف الدنيوية"، ولا أدل من ذلك من تعبير الصغار في ذكره لمفهوم "العالم" في أوروبا قائلا: «...والعالم عندهم هو من له قدرة على استكشاف الأمور الدقيقة أو استنباط فوائد جديدة، وإقامة الحجج السالمة من الطعن على ما أبداه ورد ما عارضه به عداه، وليس اسم العالم عندهم مقصور على من يعرف أصول دين النصرانية وفروعها وهم القسيسون، بل ذلك ربما كان غير ملحوظ بالنسبة لغيره من العلوم الدقيقة...»⁽³⁾ في استحضار غير مباشر لمفهوم العالم في البلاد الإسلامية.

فالتعليم في أوروبا تعليم تجريبي؛ اعتمد حسب بيرم على تدريس الفيزياء والكيمياء والطب، وهو ربما ما يثبت أن النظرة السطحية التي نظر بها هؤلاء الرحالة للتفوق العلمي الأوروبي فهم حكموا على الظاهر دون تعمق في الأسس التي بنت عليها أوروبا نهضتها العلمية، وأن هذا التطور الذي وصلت إليه ليس فقط وليد القرن 19م، بل نتيجة تراكمات تعود لعدة قرون سابقة.

وفي أسباب تطور العلوم والمعارف في أوروبا والتي بدورها أدت إلى رقي المدنية الأوروبية، شد انتباه بيرم الخامس تخلص البلدان الأوروبية من تأثيرات الكنيسة العلمية، فالتعليم الديني الذي كان أساسيا في القرون السابقة لم يعد له مكان في أوروبا القرن التاسع عشر، حتى في مراكزه القريبة مثل إيطاليا مركز البابا التي منعت الجمعيات الدينية التي لها ارتباط بالبابوية من التدريس مثل "الجوزيت" أو اليسوعيين: «لأنهم يخلطون التعاليم الدينية بالتعاليم السياسية ويتخذون المدارس كالقنصل (الشكنات) العسكرية، فمنعوا من ذلك لخوف الدولة من تشويش سياستها لمخالفة مشرب الجوزيت لمشرب الدولة في أصول السياسة»⁽⁴⁾.

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج3، دار صادر، مصدر سابق، ص 55.

(2) المصدر نفسه، ص 149.

(3) محمد الصغار، مصدر سابق، ص 256.

(4) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوي، مج5، مصدر سابق، ص 1837-1838.

ولعل أهم مظهر معبر عن الواقع العلمي في أوروبا ومدى أهمية العلوم والمعرفة لدى الأوروبيين في رحلات المغاربة، هو كثافة المكتبات العلمية في المدن الأوروبية، وانتشار الكتب ما أتاح للأوروبيين سهولة الوصول إلى المعارف، ووقف الرحالة المغاربة موقف المعجب بالمكتبات الأوروبية في هندستها وشكلها ومحتواها وتنظيمها وسهولة الوصول إليها، كما أعجبوا بلا شك من اهتمام الحكومات الأوروبية بها.

لذا قرن خير الدين التونسي تطور العلوم والمعارف في أوروبا بانتشار المكتبات، وربط هذه الأخيرة بتطور المطبعة: «من آثار اعتنائهم بتوسيع دوائر العرفان، الذي هو أساس التمدن والتهذيب لنوع الإنسان، كثرة خزائن الكتب الجامعة لسائر الفنون، وتسهيل طرق الانتفاع بها بحسن الإدارة والترتيب الحاسم لمواد العوائق...»⁽¹⁾.

كما قدم خير الدين التونسي ويبرم الخامس صورة عن النمط التصاعدي لعدد المكتبات ومحتوياتها من الكتب والمجلدات التي تقدر بالملايين في كل خزانة من الخزائن الكبرى في أوروبا، وانتبها لتأثير الثورة الفرنسية على الحرية الفكرية وحرية الكتابة وحرية التعبير، واكتشفا أن من أهم أسباب انتشار العلوم والمعارف في أوروبا هو شيوع الحرية الفكرية وحرية النشر، فقارن خير الدين عدد الكتب في باريس قبل الثورة وبعدها: «وبهذا التفاوت الكبير الواقع في مواد المعارف يعلم مقدار تأثير الحرية في الممالك؛ فإننا نرى الخزانة المذكورة في مدة أربعمئة وعشرة أعوام من مبدأ تأسيسها الذي هو سنة ثمانين وثلاثمئة وألف (1380م) إلى سنة تسعين وسبعمئة وألف (1790م) لم يتحصل بها إلا مائتا ألف (200000) مجلد، ومن ذلك التاريخ الذي هو مبدأ الحرية بفرنسا إلى سنة ثلاث وستين وثمان مئة وألف (1863م) التي هي تمام أربع وسبعين سنة من ذلك الوقت ازداد في الخزانة المذكورة ثمانمئة وثمانون ألف (880000) مجلد، دون ما لم يمكن حصره من الرسائل المشار إليها»، بينما بلغت بإنجلترا وحدها حوالي 200 مكتبة بما حوالي ثلاثة ملايين كتاب بين مطبوع ومخطوط أعظمهما مكتبة لندن الوطنية، واعتبرا كثر الكتب والمكتبات الناتج عن الحرية مقياسا تقاس به أسباب التمدن⁽²⁾.

هذا واعتنى الرحالة المغاربة بطريقة إدارة المكتبة الأوروبية وتنظيمها داخليا وطرق الاطلاع على محتوياتها، من خلال تحديد أوقات معينة ووضع قوانين خاصة بذلك⁽³⁾، وهذا ما ظهر بشكل جلي حين وصف الصغار للمكتبة الوطنية الفرنسية بباريس، ليلفت انتباهه هذا الاهتمام بالقول: «... وكل هذه الكتب بالتساير الحمراء الجديدة الجيدة مرتبة أحسن ترتيب، وكل واحد مكتوب عليه اسمه في ظاهر جلده مما يوالي المواجه له، وكل هذه البيوت في غاية

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، نقلت: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 109.

(2) المصدر نفسه، ص 112، محمد بيزم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج4، دار صادر، مصدر سابق، ص 64.

(3) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، نقلت: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 112-113.

الغاية من النظافة، لا يوجد فيها زبل ولا غبار ولا عنكبوت ولا سوف في الكتب ولا بق ولا غير ذلك»⁽¹⁾، في إشارة غير مباشرة منه ورؤية للذات من خلال الآخر الأوروبي للواقع المتردي الذي كانت تعيشه الخزائن والمكتبات المغربية وحتى الإسلامية عموماً، ولم يتوقف الأمر هنا بل تعداه لوقوف الصغار عند طريق تصنيف الكتب الموجودة في المكتبة بباريس وطريقة تسييرها من قبل موظفيها بشكل ربما لم يعتد عليه في المغرب⁽²⁾.

ولا بد أن الأوروبيين أو الفرنسيين أرادوا تبكيث المغاربة وتحسيسهم بالضعف أكثر لما لعبوا على وتر الدين، وذلك حين وجهوا الوفد المغربي لرؤية المصاحف هناك في مكتباتهم، إذ عبر الصغار عن تلك الصورة بكثير من الأسف والحسرة قائلاً: «...فأحضروا لنا مصحفا عظيما في مجلد كبير يحمله اثنان من الناس بينهما لكبره، وهو بخط مشرقى لم ير مثله حسنا وبهجة ورونقا وكمالا، ولا يوصف ما فيه من الحلية والذهب مما يستحسن أن يكون في خزانة ملوك الإسلام أظفرهم الله به وأنقذه من أيدي الكفرة...»⁽³⁾.

ولم تغب صورة المكتبات العلمية الفرنسية عن نصوص الرحلات الجزائرية، إذ يصف ابن علي الشريف مكتبات باريس قائلاً: «...ثم إن أول الخزائن الخزانة السلطانية وفيها سائر ما أمكن في أي علم كان بأي لغة كانت، مطبوعة أو منسوخة، ومن جملة هذه الكتب المطبوعة أربعمئة ألف مجلد مع عدة مصاحف لا نظير لها أبداً، ولا تظن أنها في إهانة بل مصنونة في غاية الصيانة، وخزانة ثانية تسمى خزانة الأرسنال وهي الترخسانة...»⁽⁴⁾، وهو عكس سابقه السفير المغربي الذي عبر عن أساه من تواجد مصاحف القرآن لدى الآخر الأوروبي "الكافر"، بينما لاحظنا العكس تماماً في رد فعل ابن علي الشريف، ما يؤكد أن سياقات كل رحالة كانت المؤثر الأساسي في الموقف وإن كانت الصورة نفسها.

فيما ربط ابن صيام انتشار العلوم والمعارف والكتب والمكتبات في فرنسا بانتشار العدل مرة أخرى مبدياً إعجابه بغنى هاته المكتبات وتنوع محتوياتها: «...ثم إن أهل الدولة من كثرة عدلهم واعتنائهم بالأمور جمعوا أنواع الكتب الموجودة على الأرض وجعلوا لها خزائن وحفظوها من كتب جميع الأجناس، حتى أن كتب المسلمين المعتبرة التي قل نظيرها في بلاد المسلمين موجودة هناك، وغيرها مما لا يحصى مع اختلاف فنونها، وفي ذلك أيضاً من عدلهم مثل مع أن إنساناً غريباً توطن بلادهم واحتاج إلى النظر في الكتب يُمكن من ذلك قبل غرضه وقضاء وطره...»⁽⁵⁾.

(1) محمد الصغار، مصدر سابق، ص 225.

(2) المصدر نفسه، ص 225-226.

(3) المصدر نفسه، ص 226.

(4) ابن علي الشريف، مصدر سابق، ص 72.

(5) سليمان بن صيام، مصدر سابق، ص 20.

والأغلب أن العدل المراد به هنا هو مراد الحرية أي حرية الكتابة والبحث والاستطلاع وغيرها من الحريات الفكرية. وهي الحرية التي ربما رآها ابن صيَام غائبة في العالم الإسلامي أو في الجزائر على الأقل، لذا فإن ذكره لاهتمام الفرنسيين بالكتب المختلفة ومنها طبعا كتب المسلمين جاء في هذا السياق المقارن بين ما "عندنا" وما "عندهم"، وتقرير رسالة داعية لتحرير التعليم والمعرفة، دون الإفال دائما عن مساعيه في تحميل صورة فرنسا لدى الجزائريين.

وفي موقف امتزج فيه شعور السنوسي بالإعجاب من إتاحة العلوم والمعارف من خلال انتشار الكتب وكثرة المكتبات والمعارض العلمية وسهولة الوصول إليها في أوروبا، وبين الأسى والتحسر عما تعانيه المعارف والعلوم والكتب من حجر وتحييس وعدم انتفاع الناس بها في بلاده تونس والبلاد الإسلامية عموما، لذا جاء قوله وهو يصف أحد المعارض العلمية في نابولي الإيطالية: «...وهناك وقفت مليا لأفكر في أمر هذا الجيل، وما لهم من الاعتناء بتكثير المعارف والتتقير عليها ونشرها إلى نفع عموم جنس البشر، حتى وصلوا إلى هاته الغايات، وبذلك تحقق سبب تقهقر أمرنا بين أمم العالم، فلاحظت أن أفراد علمائنا يتباهون بأن الواحد منهم له كتاب غريب ييخل به عن بني جنسه، وبعض يكتّم ما يجد لأسلافه من الآثار العلمية، ثم لنا في خزائن الكتب من تأليق الفحول، ومنها ما تلاشى بعضه...»⁽¹⁾.

والظاهر أن الرحالة التونسي قد غيب عاملا مهما ساهم بلا شك في انتشار المكتبات والكتب والمعارف بين الناس بسهولة في أوروبا؛ ألا وهو تدخل الدولة في تنظيم هذه المؤسسات وتحفيزها للإبداع ونشر العلم وحفظها حقوق المؤلف وكذا شيوع الحرية الفكرية لدى الأوروبيين الأمر الذي كان غائبا في البلاد الإسلامية.

وفي بحثهم عن مقومات انتشار المعارف وكثرة الكتب والمكتبات ورفي التعليم في أوروبا واتساعه، لاحظ رحالينا المغاربة أن ذلك يعود أيضا لاستعمالهم المطابع الحديثة، هذه الأخيرة التي ساعدت على تطور الصحف ونشر الكتب واتساع المكتبات، حتى أصبحت كل مدينة في إنجلترا كما يقول بيرم الخامس تحوي عددا كبيرا من المطابع، فعُدّ في لندن وحدها 871 مطبعة، منها ما يشتغل يدويا ومنها ما كان بآلات البخار وكلها كان لها دور مهم في تطور التعليم هناك، وبكثرة الطابعات وتطورها كثر طبع الكتب وإنشاء المكتبات وانتشار العلوم⁽²⁾ دون أن يغفل عن الدور الذي تلعبه الدولة من اعتناء بالتعليم وتشجيعه⁽³⁾.

(1) محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، ج1، مصدر سابق، ص113-114.

(2) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص 2129-2130.

(3) المصدر نفسه، ص 1838،

وكان تأسيس الجمعيات العلمية أحد مظاهر وأسباب رقي التعليم في البلاد الأوروبية كل جمعية تعنى باختصاص معين ومحدد فهي تعمل: «على التحريض على العلم والإعانة بالمال وسائر الوسائل للوصول إلى المقصود»⁽¹⁾.

ولاحظ الرحالة المغاربة تأثير انتشار الصحف، والتي لها تأثير كبيرة على انتشار المعارف وتوسعها، وما كثرتها وتنوعها وأعدادها الضخمة التي تصدر كل يوم إلا دليل على ذلك، وكذلك كان تأثير الطباعة على المعارف في أوروبا خاصة مع تعدد لغاتها وحروفها، ما أنتج لهم مكتبات ضخمة⁽²⁾.

ومن بين مرتكزات رقي العلوم في أوروبا وخاصة في فرنسا ما ذكره بيرم الخامس من توجه الفرنسيين للترجمة وتأسيس المعاهد والجامعات الخاصة بها، فيقول: «والحاصل أن الفرنسيين يحصلون على الدرجة العليا في المعارف الدنياوية، ولهم اعتناء بسائر الفنون، فيترجمون إلى لغتهم كل كتاب في فن غير معروف، ويدرسون اللغات الأجنبية واللغات القديمة التي لم يبق من يعرفها وتوصلوا إلى معرفة خطوطها بوسائل جيدة».

ورغم إدراك الرحالة التونسي الدور الذي لعبته الترجمة وانفتاح الأوربيين على علوم الأمم الأخرى في رقي المعارف، إلا أنه كعادته يقدم نقدا للمترجمين الفرنسيين والمستشرقين الذين يتولون تدريس اللغة العربية في معاهد الفرنسية وبين قصورهم في تعلمها وما بالك بتعليمها فيقول: «...يخرج تلامذته معجبين من براعة شيخهم، وأنه علامة العربية مع أنه لا يعرف مزية تقديم المسند والمُسند إليه، بل معادات الضمائر لا يحسنها، فضلا عن الإعراب، وذلك يوجب الجهل بأصل الفن والغلط من العموم بظن تحصيلهم حقيقة للغة العربية، وقلّ جدا من يحسنها مع ان فيهم المتفاهرين بعلم الترجمة بل والمدعين بالتأليف فيه»⁽³⁾، وإن نزوع بيرم إلى هذا النقد لا يهدف طبعاً للإطاحة ولا تحقير توجه الأوربيين للترجمة بقدر مقارنة تحصيل الفرنسيين للعربية.

وفي أوروبا اكتشف الرحالة المغاربة التعليم الأوروبي الحديث، إذ أن سعي كل من بيرم الخامس وخير الدين التونسي للبحث عن مقومات تقدم العلوم في أوروبا، جعلت اهتماماتهم تتجه نحو التنظيم المؤسسي للتعليم هناك، وربطاً ما وصلت إليه أوروبا من اختراعات واكتشافات إلى انتشار التعليم وتنظيمه، وكانت فرنسا في مقدمة البلاد الأوروبية اعتناءً بالتعليم وتطويره، لذا فقد كان النموذج الفرنسي هو الذي اهتم به خير الدين ورأى فيها تراتيب ناجحة لا بد من نقل صورتها، وعلى ذلك كان التعليم الفرنسي ينقسم إلى ثلاثة أطوار:

- تعليم أولي أو ابتدائي: وهي مدارس يدرس فيها علم الأخلاق، وأصول الديانة والقراءة والكتابة، والمفردات اللغوية، والحساب، ومبادئ العلوم الطبيعية، وأصول التاريخ والجغرافيا، ومبادئ الفلاحة والصناعات، كما لم يفت

(1) المصدر نفسه، ص 1914-1915.

(2) المصدر نفسه، ص 1915.

(3) المصدر نفسه، ص 1994.

خير الدين الإشارة إلى تسيير هذه المؤسسات التي قال إنها على عاتق الدولة منتشرة في كل الناطق حتى القرى بل وحتى في الملاجئ.

- تعليم متوسط (الطبقة المتوسطة): وهي مرحلة ينتقل فيها التلميذ من الطبقة الأولى، تدرس فيها علوم اللغات القديمة والحديثة، وعلم البيان والمنطق، والفلسفة والعلوم الرياضية والطبيعية والتاريخ،

- تعليم نهائي: وتكون في المكاتب العالية تختلف فيه العلوم من علم الإنشاء، والتعليم الديني، والقانون ونحو ذلك⁽¹⁾، ليتوزع بعدها المتدربون على المعاهد والأكاديميات والجامعات العلمية كل حسب تخصصه، وقدم خير الدين تصنيفا لها أيضا، من معاهد تعليم القانون والحقوق، إلى معهد الطب والطبيعات، إلى معهد العلوم الرياضية والفلكية وعلوم المادة، إلى معهد العلوم الأدبية. ومعاهد الفنون وعلوم الآثار والجغرافيا...⁽²⁾.

بينما وقف بيرم عند توزيع هذه المؤسسات في فرنسا: «فالتبقة الأولى لا تكاد تجد قرية خالية عنها، والثانية والثالثة إنما توجد في المدن الكبرى كمرسيليا، وأما الرابعة فلا توجد إلا في باريس وإليها تأوي التلامذة بعد استكمال معارفهم»⁽³⁾.

وأشار بيرم أنه رغم تشابه التنظيمات التعليمية في مجمل البلاد الأوروبية إلا أنها تختلف في تطور التعليم، فرغم انتشارها في إيطاليا إلا أنها لا تنكب ما وصلت إليه في ألمانيا وفرنسا⁽⁴⁾.

ولاحظ الرحالون المغاربة أن الأوروبيين يهتمون بتعلم جميع العلوم نظرية كانت أم علمية أو حتى بدنية لضرورتها للإنسان ولذلك نجدهم لا يفاضلون بينها، لذا نقف عند تعجب الصفار وهو يتحدث عن اهتمام الأوروبيين بعلوم الرياضة البدنية وتخصيص فروع علمية لها في مدارسهم، وللتعبير عن حجم الاختلاف في تصنيف العلوم بين المغاربة والفرنسيين يؤكد الكاتب المغربي أن ما رآه في باريس من تقنين لهاته الرياضات وتخصيص المؤسسات والمدارس الخاصة بها كانت في المغرب عبارة عن لعب ولهو، مما يدل على توسع العلوم الأوروبية لتشمل كل القطاعات⁽⁵⁾.

ورأى الرحالة المغاربة مدى حرص الأوروبيين على التعليم إلى درجة وتفانيهم في تسهيل الوصول إليه فجعلوا مدارس خاصة بالمكفوفين والصم البكم أما المكفوفين: «يعلمونهم باللمس والأحرف المجسدة والخوارط المجسدة

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 103-105. محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوني، مج5، مصدر سابق، ص 1995.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 105-109.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوني، مج5، مصدر سابق، ص 1995.

(4) المصدر نفسه، ص 1838.

(5) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 250-251.

فيصلون إلى سائر المدركات»⁽¹⁾، في حين أن تعليم الأصم الأبكم عبر إشارات معينة مرفوقة بأشكال، وقد سجل خير الدين اختراع طريقة تعليم المكفوفين الصم البكم في قائمة أهم الاختراعات التي استنبطها الأوروبيون مبينا أن أول ظهورها كان في فرنسا سنة 1760م لتعم فيما بعد مختلف الممالك الأوروبية⁽²⁾.

ونظير ما وصلت إليه أوروبا وخاصة فرنسا في مراتب العلم لاحظ بيرم الخامس أنها أصبحت مقصدا يحج إليه طلاب العلم من كل بقاع الأرض، وبيرم لا يمنع أن تشد الرحال لطلب العلم من أوروبا وحواضرها، لكنه قدم نقدا لطلاب العلم من المسلمين: «...وفضلا عن الفخر بالعلم يُفتخر بالتعلم بها، وهي جدية بذلك لولا طيش في أخلاق غالب المتعلمين بها من الغرباء سيما المسلمين، فإنهم يحدث لهم فساد في أخلاقهم لخروجهم عن الطور والأدب الداعي له العرض والدين، وكان سبب ذلك رؤيتهم بها كثرة الخلاعة والإطلاق والنفوس مائلة إلى الخبائث، نسأل الله التوفيق»⁽³⁾.

وفي السياق ذاته نجد السنوسي يشيد في استطلاعاته الباريسية بمحاسن العاصمة الفرنسية، إذ يلفت انتباه قارئه إلى المكانة العلمية التي صارت تحظى بها باريس: «أقول صدق من قال أن باريس أم المعارف في البلاد الأوروبية، وله شواهد على صدقه من أعظمها حالة الباريسيين في اتساع طرق التمدن إلى أقصى الغايات التي بلغ إليها العمران البشري في هذا العصر، ومن تتبع أحوال المدارس على كثرتها وسعة تعليماتها ووفور مصاريفها وتعميم نفعها إلى غاية ما أمكن بها أن تكفي نشأة الأمة الفرنسية وتعم غيرهم من الراحلين في طلب العلم يجد بين يديه برهانا واضحا على أن البلاد الفرنسية سبقت سائر البلاد الأوروبية في سائر وجوه المعارف...»⁽⁴⁾.

كذلك أشار الصفار للمكانة العلمية العالمية التي احتلتها فرنسا وباريس التي صارت مقصدا لطلبة العلم من كل حذب وصوب، مثل الطلبة اليابانيين والعرب والمسلمين، فذكر الكاتب المغربي تزامن وجوده في باريس مع طلبة مصريين وأتراك هناك: «... وممن رافقنا هنالك من المسلمين سبعة من أهل مصر، منهم اثنان حفيدا محمد بن علي باشا واثنان ولدا ربيبه إبراهيم باشا، وآخر من خواص محمد بن علي اسمه سامي باشا، واثنان من خدامهما، ومعهم هنالك غيرهم، جملتهم نحو ستين أرسلهم محمد بن علي لهناك لتعلم العلوم التي لا توجد إلا عند هؤلاء...»⁽⁵⁾.

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوني، مج5، مصدر سابق، ص 1914.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 99.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوني، مج5، مصدر سابق، ص 1995-1996.

(4) محمد السنوسي، الاستطلاعات الباريسية، مصدر سابق، ص 93.

(5) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 218.

فكانت باريس محجاً لطلبة العلوم خاصة التقنية والتطبيقية منها، كما يلاحظ من الصورة السابقة كأن الصفار تعتمد ذكر المسلمين الذين توجهوا إلى أوروبا لتشجيع المخزن المغربي على اتباع هذا التوجه وإرسال وفود من طلبة المغرب للتعليم في أوروبا، ويبدو أن الصفار قدّم هذا النموذج المصري لإسقاط الحرج عن النخبة في المغرب، خاصة مع اتساع الدائرة التي تدعوا إلى رفض أي علاقة مع أوروبا.

وأعجب بيرم الخامس بالدور التعليمي الذي تلعبه المرأة المتعلمة في أوروبا القرن التاسع عشر، إذ استطاعت نساء الطبقتين العليا والمتوسطة أخذ حظهن من التعليم، وتكمن هذه الأهمية في التنشئة الحسنة وتهذيب الطفل: «حتى أنهم كثيراً ما يتعلمون الأحرف ومبدأ القراءة لمجرد التربية فيما تدبجه الأم أو المربية للصغير مع النظافة والإبعاد على الأخلاق الذميمة، وكل أوروبا على هذا النحو؛ لما لهم في النساء من التعليم الحسن»⁽¹⁾.

ووعى الرحالة التونسي بيرم الخامس وأدرك الدور الذي لعبه العلم والمعارف في وعي الشعوب السياسي، إذ يرى بيرم أن من بين أهم قيام الثورة الفرنسية 1789م يرجع: «لما انتشرت فيهم المعارف، وعلموا ما لهم وما عليهم، ونالوا بعض ملوكهم أحياناً أنصافهم، واشتهرت بينهم الصحف المعلنه بالحمد والمذام، وحدث فيهم أخيراً ما أشير إليه من الظلم انعقدت فيهم جمعيات سرية والتدبير والعمل فيما يمكن لهم به حفظ حقوقهم ومملكتهم...»

كما ربط بيرم ما وصلت إليه أوروبا من تقدم في المجال الاقتصادي بمخلف قطاعاته بتطور العلوم والمعارف هناك، فذ: «الصنائع في فرنسا مضاهية لما فيها من المعارف، والفلاحة فيها متقدمة إلى الغاية علماً وعملاً...»⁽²⁾.

ومما أجمع عليه الرحالة المغاربة أن التعليم والعلوم والمعارف الأوروبية بلغت مبلغاً متقدماً من الترقى⁽³⁾، فالرحالة المغاربة -أو بعض منهم- كانت نظرتهم إلى قيمة العلم في أوروبا والدور الذي لعبه في تحويل المجتمعات والتاريخ هناك، واستطاعوا أن يقفوا عند منجزات العقل الأوروبي في شتى المجالات العسكرية والاقتصادية والسياسية. ورأى خير الدين في ربطه الدائم بين مختلف القطاعات أن التقدم الحاصل في مجال العلوم في أوروبا ناتج عن التنظيمات السياسية القائمة على أسس العدل والحرية⁽⁴⁾.

إلا أن بيرم وهو الإنسان صاحب الرأي والفكر يدرك أن فرنسا ليست باريس فقط ولا إنجلترا هي لندن وغير ذلك، وربما أغفل بقية الرحالة ذلك ربما لطبيعة رحلاتهم السفارية أو قصر مدتها أو أن صدمة المدن الكبرى مثل

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص 2126.

(2) المصدر نفسه، ص 1996.

(3) المصدر نفسه، ص 1913.

(4) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق ص 14.

باريس أنستهم النظر لما سواها، وعلى هذا ينظر بيرم إلى المنسي من أهل فرنسا سكان القرى والجبال: «...وإن كانت المعارف والتقدم حاصلة على العموم، ومع ذلك فلا يزال في فرنسا خلق كثير على السذاجة والجهل...»⁽¹⁾.

وقدم بيرم الخامس نقدا لاذعا للأوروبيين الذين حاولوا تقلص صورة عن العالم الإسلامي بأنه عالم مليء بالخرافات والشعوذة بعيد عن العلم والمعرفة، بينما هذه الصفات موجودة بشدة في أوروبا، ليست أوروبا التي حاول الأوروبيون أنفسهم تلميع صورتها من خلال توجيه أصحاب الرحلات المغاربية إلى ما يريدون هم، فظهرت فيقول بيرم في ذلك: «...فانظر لهاته البلاهة التي لو صدرت من أحد المشرقيين لشنعوا بجميع الجنس بأنه وحشي بعيد على المعارف وتهذيب الأخلاق، إن مثل ذلك الرجل كثير سيما في القرى الصغيرة والجبال، وفي أهل المد كثير ممن يعتقد بالخرافات الباطلة، ويعتقد التأثير لأحجار وجمادات ويتشاءم بالأوقات، فقد رأيت في كثير من بلدانهم وبلدان الطليان وكذلك الإنجليز...»⁽²⁾، ثم يضيف: «...تري الأوروبيين ومن تشكل بشكلهم وتباهى بتقليدهم يحملون عبئه على البلاد الإسلامية وحدها، ويجعلونها سخرية ويُنزهن أوروبا عن مثلها مع أنها حاوية لشبهها ولأشد منها، بل ربما أسند الجاهل أو المتجاهل إلى ديانتنا الشريفة»⁽³⁾.

إلا أن بيرم الخامس لا يريد بهذه الصورة المكابرة على واقعه أو الاستنقاص من صورة الآخر الأوروبي الذي رغم ذلك ما زال متفوقا على المسلمين معرفيا وفي كل المجالات الدنيوية فيقول: «...إننا لا نقصد من ذكر ما مر نسبة الجهل بالمعارف الدنيوية إلى عموم الفرنسيين أو ترجيح كفتنا على كفتهم...»، بل يراد به القول أن سكان أوروبا ليس كلهم في كفة واحدة من حيث اكتساب العلوم والمعارف⁽⁴⁾، لذا نراه يقسمهم وفقا لذا سكان فرنسا لثلاث طبقات كما رأينا ذلك في القسم الاجتماعي.

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، مج3، دار صادر، مصدر سابق، ص 142.

(2) المصدر نفسه، ص 142-143.

(3) المصدر نفسه، ج3، ص 141.

(4) المصدر نفسه، ص 142.

ثانيا: مظاهر الثقافة الأوروبية في نصوص الرحلات المغاربية خلال القرن 19م

انتشرت في أوروبا القرن التاسع عشر كثير من المظاهر الثقافية من موسيقى ورقص وسيرك ومتاحف وفنون جميلة والحداثق المختلفة، إلا أن ما سنقف عليه في هذا الجزء من البحث هو أهم مظهرين تناولهما رحالتنا المغاربية، وهما المسرح والصحافة واقفين عند تمثلاتهم لها وردود فعلهم تجاهها.

1- المسرح:

إذ عاد المسرح أيضا ليشكل أحد أهم مظاهر الثقافة التي شاهدها الرحالة المغاربة في أوروبا خلال القرن التاسع عشر، والظاهر أنه مازال إلى حينها يمثل ملمحا حضاريا وثقافيا جديد كل الجدة عند هؤلاء الرحالة، لذا كان اعتناؤهم به أكثر من عنايتهم بأي ملمح ثقافي آخر، فتوجهوا إلى وصفه والاطلاع على خباياه باحثين في خصوصيته، لذا يصفه الصفار: «ومن محال فرجاتهم المحال المسماة بالتياتروا وتسمى الكومدية وتسمى الأوبرة، وهو محل يلعب فيه بمستغربات اللعب ومضحكاته وحكاية ما وقع من حرب أو نادرة أو نحو ذلك...»⁽¹⁾.

لينتقل بعدها الكاتب المغربي واقفا عند أهمية المسرح: «...فهو جد في صورة هزل، لأنه قد يكون في ذلك اللعب اعتبار أو تأديب أو أعجوبة أو قضية مخصوصة، ويكتبون في ذلك علوما جمة...»⁽²⁾، وكانت هذه الفرجات من مظاهر وأشكال الفرجة الاستعراضية الموجهة للجمهور الأوروبي بصفة خاصة، لكونها لم تشكل جزءا من مكونات الثقافة الإسلامية، ولذلك كان الذهاب إلى قاعات العروض المسرحية وما شابهها من التجارب الجديدة التي كان يقدم على خوضها غالبية الرحالة المترددين على الديار الأوروبية⁽³⁾.

وقد اهتم رحالتنا بكل تفاصيل المسرح شكلا ومضمونا، فاهتم الصفار بالشكل العمراني للمسرح واصفا محتوياته⁽⁴⁾، وطريقة العمل على المسرح من مصابيح وستائر، وأصل الحركات والأشكال التي تتم على المسرح: «...فإذا حضر أوان اللعب واجتمع الناس تكون الستارة مرخية على ذلك الميدان، فترتفع تلك الستارة فتبدو في ذلك الميدان صور عجبية وأشكال غريبة، فيصورون البلدان والأشجار والبراري والبحار والسماء والشمس والقمر والنجوم، وكل ذلك رقوم ونقوش في الكواغيط، ولا يشك من رآها أنها حقيقة...»⁽⁵⁾.

(1) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 182-183.

(2) المصدر نفسه، ص 183.

(3) المصدر نفسه، ص 183.

(4) المصدر نفسه، ص 183.

(5) المصدر نفسه، ص 185.

وعن أصل ما يتم تقديمه على المسرح: «...ثم إن اللعبات عندهم محفوظة معلومة لا أنهم يخترعونها هنالك، واللعبة الذي يريدون أن يلعبوا به يكتبونه في النهار في الكوازيط أنهم يريدون أن يلعبوا في المحل الفلاني، ويشبهون ذلك للناس ليقع الإعلام لذلك...».

وعن أهمية هذه التظاهرات الثقافية بالنسبة للفرد والمجتمع الأوروبي: «وهذه التياترو ليست مجمعا للحرافيش والأوباش بل يحضرها أكابرهم وأهل المروءة منهم، ويحضرها الرجل وزوجته وبناته، والرجل وأصحابه، ويجعلها السلطان في داره...ويزعمون أن في ذلك تأديبا للنفوس وتهذيبا للأخلاق وراحة للقلب والبدن ليعود إلى شغله بنشاط وقريحة»⁽¹⁾.

والظاهر أن الصغار أعجب بهذا المظهر الثقافي الأوروبي، لذا راح يبحث في مخزونه الثقافي الإسلامي عما يمكن أن يؤكد عن مظاهر التسلية، فضرب عدة أمثلة حول وجود أصل هذه المظاهر في التاريخ الإسلامي فذكر بأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم والتابعين وموقفهم من المزاح والضحك، فقال: «...وسئل الشعبي هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون؟ قال: نعم والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي»⁽²⁾، وهو ما يمكن أن نعتبره دعوة أو تلميح للسلطات في بلاده للأخذ بمثلات المسرح الأوروبي في المغرب.

أما العمراوي فيقول فيها معرفا: «...ومن المحال المعدادة عندهم للتفرج فيها الكمديات: وهي محال عندهم يلعبون فيها بأنواع من اللعب من ركوب على الخيل وطيوان في الهواء وقلب الأعيان والغناء والرقص وحكايات الأخبار والأشعار بلغتهم والمحاجات والأسئلة والأجوبة ونصب مجالس يحاكون بها مجالس الحكام والوزراء، وذكر مساوئ في الناس وغير ذلك...»⁽³⁾.

واعتبر العمراوي في أول انطباعات الصورة أن المسرح مجرد هزل ومزاح قبل أن يقف عند أهميته من خلال ما اطلع عليه في رحلة الطهطاوي: «...وكننت أضحك من ذلك وأعده من جملة المزاح الذي لا يعبأ به، ولا يؤبه له، وأنه ليس من الجد في شيء، حتى وقفت على كلام الشيخ رفاعة المصري في رحلته، حاصله أنها أمور جدية في صفة الهزل...»⁽⁴⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 185-188.

(2) المصدر نفسه، ص 188.

(3) إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 98.

(4) المصدر نفسه، ص 89.

فوقوفه عند ما دونه الطهطاوي حول المسرح جعله يعدد أهميته على عدة أوجه، «...فالعناء والرقص يريح القلب من تعب الكد وينفس على الخاطر من تعب التدبير...والأشعار فإنها تهذب الأخلاق وتظهر عجائب الدهر وتحمل على الاعتبار بمن تقدم وتشجع وتعلم مكائد الحروب وترتيبات النزول والتهوض في بلاد الحرب وغير ذلك...وأما الحاجة والأسئلة والأجوبة فإنها تحذ ذهن وتذكى العقل وتعلم الصغار التحيل في الكلام واختيار ما يقوله وما يدعه، وهذا الأمر له أثر في أدب الرجل، ونرى...»⁽¹⁾.

كما أن لها أثر على أهل السياسة: «...وأما ما يفعلونه فيها من نصب مجالس يحكون فيها مجالس الحكام والوزراء فإن لها أثرا كبيرا في ردع رؤساء الدولة واحتياطهم في أحكامهم وتأنيتهم في قضاياهم خشية أن ينقل عنه ما يشين في تلك المجالس الكبيرة ويفضح عرضه فيها، وكذلك ذكر المساوي التي تصدر من بعض الأعيان ذكرها هناك مما ينبه أمثالهم ليلا يقع في مثلها...»⁽²⁾.

كما حاول العمراوي من خلال إعجابه وتمعنه في أهمية المسرح التأكيد أن لب المسرح ليس بغريب عن المغربي، وعليه فقد ذكر أن المغاربة قد مارسوا شبيهه من قبل وذكّر بالخطابات التي كان يوجهها السلطان العلوي مولاي إسماعيل للجيش البخاري: «...وقد بلغنا أن مولانا إسماعيل نضر الله وجهه كان يكتب نسخا عديدة من الحكايات المعروفة بالفداوية والأزلية⁽³⁾ ويفرقها في جيشه وكبراء عسكره، وقصده بذلك ما فيها من مكائد الحروب وكيفية نزول المحلات وبدء المحاربة وعقد الصلح والمهادنة وترتيب الشروط وتعلم الإقدام والمخاطرة وإدراك المراتب والمزايا مع ما فيها من إعانة العسكر على السهر للحراسة وغير ذلك، وكنا نسمع أن من لم يحفظ فصولا من الفداوية فليس من عبید سيدي البخاري الأحرار...»⁽⁴⁾.

في محاولة من السفير المغربي تقريب صورة هذا المظهر العجيب إلى مخيلة قرائه من المغاربة، ولا يكون ذلك إلا عبر استظهار نموذج مغربي قريب من النموذج الأوروبي، حتى وإن كان النموذج المغربي عبارة عن حكايات وقصص ومرويات بعيدة كثيرا عن شكل المسرح الأوروبي المشاهد، إلا أن غاياتها متشابهة من حيث هي وسيلة للترفيه والتسلية أو وسيلة تربوية هدفها الاعتبار وشد الهمم.

(1) المصدر نفسه، ص 89.

(2) المصدر نفسه، ص 90.

(3) ففي سنة 1099هـ/1688م أمر السلطان إسماعيل نحو أربعين ناسخا من فاس ومكناس، بقصد نسخ أربعة وعشرين سفرا من العنترية والفداوية والأزلية، وما يتصل بها من أخبار الشجعان على ما قيل فيها، وكان غرضها تربوي واضح، وهو بث الروح النضالية لدى قرائها من الجنود، أنظر: إبراهيم حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية، ط2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء-المغرب، 1994، ص42.

(4) إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 90.

ورغم إعجاب السفير العمراوي بالمرح عموما وما أتاحه من فوائد للأوروبيين، يأتي عائق الطبع والذوق والخلق واللسان ليرجح كفة فرجة السيرك على فرجة "الكمديات": «...وقد عرضوا علينا الذهاب لبعض الكمديات، فاعتذرنا في واحدة فيها الغناء والرقص بأن الغناء لا نفهمه وما لا نفهمه يثقل علينا سماعه، وبأنه يحرم علينا في ديننا النظر إلى النساء التي يرقصن. وفي أخرى فيها المحاجاة والأسئلة والأجوبة بأنها بغير لغتنا، فلا فائدة في حضورنا فيها...»⁽¹⁾.

كما أن صاحب الرحلة لا يلبث أن يتراجع معتبرا المسرح بمفهومه وصورته الأوروبية فنا دخيلا على الثقافة المغربية والإسلامية لا ينبغي قبوله، إذ نظر إليه وفسر مظاهره تفسيرا قيميا ودينيا رأى فيه أنه يتعارض مع مبادئ المسلمين الروحية التي تتعالى على زخارف الدنيا وزينتها التي أتاحت للفرنسيين: «...وما تم إلا زخارف الحياة الدنيا وبهرجتها وسرايها الزائل وترهتها، ولكن في الاطلاع على هذه الأمور ومعرفتها معرفة قدر نعمة الله على المؤمنين بتخليصهم من فتن الافتتان بزینتها والاعتزاز بعرضها الفاني الموجب للإعراض عن الله تعالى مع تحقق مصير هؤلاء إلى غضب الله وعذابه...»⁽²⁾، فكان الرجل يبرر لقارئ رحلته سبب حضور تلك المسرحيات؟!

واهتم الرحالة الجزائريون بوصف المسرح شكلا في الغالب لا مضمونا، نظرا لعدم استيعابهم أفكاره ومغزاه، حيث يقول ابن صيام: «...وأما مواضع اللعب والمرح فإن أهل الدولة وجهونا إلى موضع اللعب، وهي دار في غاية الاتساع والإتقان، فلما اجتمع الناس وشرعوا المزاحون في أمرهم، وكنا نرى أن وسط المحل فارغ والناس يطلون عليه من فوقه، ومن العجائب التي رأينا هناك شجرة خارجة من المحل شيئا فشيئا حتى استوت على ساقها... فكشف الغيب أن الشجرة ليست حقيقة وإنما هي صورة فقط وتلك النساء يضحكن ويلعبن وهذا أيضا من أغرب ما رأينا، والأمر لله من قبل ومن بعد...»⁽³⁾.

ولم تغب صورة المسرح الأوروبي عن الرحالة التونسيين، أما ابن أبي الضياف فكان وصفه له شكلا مع تقديم أهمية مضامينه، فيقول: «بناء ضخمة عليه قبة مرتفعة... وأعماله حكايات بعض وقائع تقدمت، يبرزونها من الفكر لحس المشاهدة، ويختارون لذلك البلغاء والخطباء ممن لهم معرفة بالأخبار والتاريخ والأشعار... وهي من الصناعات الشريفة عندهم، لأن مرجعها تربية وتهذيب أخلاقهم، لما يرون تحسين الحسن وتقبيح القبيح معاينة، وذلك أوقع في النفس...»، وفي إحدى مسارج باريس حضر الوفد التونسي مسرحية كشفت للمشير أحمد باي ومرافقيه وعلى

(1) المصدر نفسه، ص 90-92.

(2) المصدر نفسه، ص 92.

(3) سليمان ابن صيام، مرجع سابق، ص 15.

رأسهم ابن أبي الضياف حجم التثقيف والتأثير السياسي للمسرح، واعتباره إحدى وسائل التعبير التي أتاحها الأوروبيين لمواطنيهم للتعبير عن حريتهم السياسية والمطالبة بحريتهم الشخصية⁽¹⁾.

أما خير الدين فإن اهتمامه بالمسرح كواحد من مظاهر الثقافة الأوروبية كان عبر إشارة سريعة جاءت في سياق ذكره لمظاهر الحضارة والفكر الأوروبي طيلة العصر الحديث، ورغم ذلك لا يلبث إلا أن يؤكد إعجابه بالمسرح التي أسماها "التياطرات"، منتقدا تلك التوصيفات العربية التي ارتبطت بهذا الملمح، فهي جدية أن لا تسمى "مجالس الملاهي"، وما أولاها أن تسمى مجالس تهذيب الأخلاق... فغالبا لعبهم جد في صورة هزل ولذلك يحضر الملوك والأعيان⁽²⁾.

في حين لاحظ بيرم الخامس أن "الملاهي في باريس كثيرة ومختلفة المقاصد"، وكان وعيه بالغا والهدف من هذه "الملاهي"، أكثر من سابقه، فرغم الوصف الذي نعت به الرحالة التونسي هذه المظاهر الثقافية الجديدة عنهم، إلا أنه يذكر أن الأوروبيين لا يقصدون الملاهي لمجرد التلهي؛ بل ظاهرها التلهي وباطنها فائدة⁽³⁾، وللتعبير عن كون هذه الفضاءات الثقافية لها مكانة معتبرة لدى الأوروبيين فلم يكن أمر مشاهدة المسرحيات وحضورها منوطا عن فئة دون أخرى أو طبقة دون أخرى، فقد كان يحضرها الغني والفقير من العامة ومن الأعيان والحكام والملوك⁽⁴⁾.

وقد عدد هؤلاء الرحالة التونسي الفوائد المرجوة من المسرح في أوروبا من خلال تقديم إشارات حول موضوعاته وأهميتها؛ ففيه فائدة تاريخية: كالإعلان عن تاريخ غريب لتحتفي محاسنه وتجنب قبائحه، لأن الرأي يشاهد النتائج عيانا، فتكون أوقع في النفس، وفائدة علمية: مثل العرض الخاص الذي حضره بيرم الخامس حول إثبات كروية الأرض، فائدة لغوية: فإنها "ملا" تساعد في البراعة في الكلام والبلاغة⁽⁵⁾، كما له فائدة سياسية إذ استطاع رحالتنا تبين تلك العلاقة بين المسرحيات المعروضة والحياة، إذ أن المسرح ابن بيئته، ويتأثر بها، وذكر بيرم الخامس تمثيل الوقائع السياسية الراهنة في فرنسا، وأكد أن لهذه التمثيليات المسرحية دور في تنحية الرئيس الفرنسي "ماكماهون" عن السلطة⁽⁶⁾.

(1) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج4، مصدر سابق، ص 102-103.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 83.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص 1908.

(4) المصدر نفسه، ص 1911.

(5) المصدر نفسه، ص 1908. خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 231.

وقد شابهت ملاحظة بيرم التونسي هذه ما ذكره قبله الرحالة المصري رفاعة الطهطاوي في حديثه عن فوائده المسرح، الذي قال فيه: «إن في هذا التمثيل يكتسب كلام الشاعر رونقا أكثر مما لو بقي في الكتب، أو أنشد مجرد إنشاده».

(6) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص 1908-1909.

وبقدر هذه الفوائد التي عدّها رحالتنا في وعيهم بالغاية من المسرح الأوروبي وتأثيرها وتأثرها بالواقع الاجتماعي والسياسي والثقافة والأخلاق والعلوم، فإنهم عرجوا كذلك عند بعض سلبياتها؛ إذ أخذوا عنها عدة مآخذ أو "مفاسد" التي حُكم عليها انطلاقاً من ثقافتهم وخلفياتهم الدينية والقيمية، وفي ذلك يقول بيرم الخامس: «واعلم أن تلك الملاهي يوجد منها ما هو مضيعة، لكن قليل، والحاصل أن ملاهيهم لا تخلو من فائدة معتبرة، ورغم ذلك فهم غافلون عما فيها من مفسدة مهمة، وهي تعليم الشبان والشابات أوجه العشق ومبانيه ووسائله»، ومن "المفاسد" التي رآها بيرم الخامس في المسرح الأوروبي بعيداً عن خشبته ومثليه وقصصهم، هو إشارته كثرة التحرش الناتج عن الاختلاط بين الجنسين⁽¹⁾، وما يثبت الاختلاف في الحكم على الأمور خاصة من الناحية القيمية أن الأوروبيين ردوا على بيرم الخامس، ويرون عكس ما يرى: «ويعتذرون عن ذلك بأنه (المسرح) يعلم أيضاً شناعة ثمرات العشق، وشناعة الفضيحة، ولإيثار الموت على حفظ العرض...»⁽²⁾.

وبعيداً عن الأحكام الأخلاقية والقيمية حول المسرح، فإنهم لم يغفلوا كذلك تسليط الضوء على الإيرادات المالية التي يجنيها الأوروبيون من إقامة المسارح، أما بيرم الخامس فراح يستعرض مداخل ومصاريف هذه المسارح في فرنسا⁽³⁾.

2- الصحافة:

وكانت الصحافة من مظاهر الثقافة الأوروبية التي مثلت "الجديد" بالنسبة لرحالينا المغاربة خاصة الأوائل منهم الذين توجهوا إلى أوروبا منتصف القرن التاسع عشر، وكان تمثلهم لها وردود فعلهم تجاهها لا تختلف كثيراً عن تلك التي لاحظناها عند الوزير الغساني نهاية القرن 17م، ويظهر هذا "الجديد" من خلال اصطلاحهم عليها بأسمائها الأوروبية "جرنال" وجمعها "جرنالات" أو "كازيطة" وجمعها "كوازيط" أو "كازيطات".

ليتوجه بعدها هؤلاء الرحالة معرفين بما مبین لمواطنيهم المغاربة مدى أهميتها لدى الفرد الأوروبي والدولة الأوروبية، مبین أنواعها، دون أن يغفلوا تسجيل مآخذهم حولها، وعليه يعرف الصفار الجرائد والصحف: «...فاتخذوا لذلك الكوازيط: وهي ورقات يكتب فيها كل ما وصل إليهم علمه من الحوادث والوقائع في بلدهم أو

(1) المصدر نفسه، ص 1910.

(2) المصدر نفسه، ص 1910.

(3) المصدر نفسه، ص 1911.

غيرها من البلدان النائية أو القريبة...»⁽¹⁾، وعن مكانة ضرورة الجرائد لدى الأوروبيين: «... وبالجملة فالكوازيط عندهم من أهم المهمات، حتى أن أحدهم قد يصبر على الأكل والشرب ولا يصبر على النظر في الكريضة»⁽²⁾.

ولم يكتف الصفار الذي نقل تقريبا كل ما يتعلق بالصحافة عن الطهطاوي بذكر التعريف والأهمية بل تعداه ليكشف طريقة عمل هذه الصحف وجمع المعلومات والأخبار التي تنقلها من إرسال مبعوثين لهم المراسلات والأخبار وكتابات مختلف البلدان، وقد ساعدت الطباعة على انتشار الصحافة في أوروبا وتحدث الصفار عن شكل هذه الصحف وطرق توزيعها⁽³⁾.

وعدد الصفار أهمية الصحف والصحافة أولها هو نقل الأخبار السياسية في بلدهم أو غيره من الأقطار: «... فإذا اجتمع أهل القمرة وأخذوا في الخوض في نوازلهم ووقائعهم جلس أصحاب الكوازيط في ناحية يكتبون كل ما تكلم به فيها، فكل ما وقع الكلام عليه فيها وانبرم من الأحكام يصبح غدا في الكوازيط...»⁽⁴⁾.

ويبدو الصفار معجبا بالصحافة خاصة في محور حرية الفكر والتعبير المكفولة في أوروبا: «... ومن جملة قوانينهم التي أسسها لهم سلطانهم لويز الثامن عشر والتزموا اتباعها، أنه لا يمنع إنسان في فرنسا أن يظهر رأيه وأن يكتبه ويطبعه بشرط أن لا يضر بالقوانين فإن أضر أزيل...»⁽⁵⁾، وكانت هذه الحرية في التعبير مكفولة حتى ولو كانت ناقدة للحكام والسياسيين: «... ويكتبون في الكوازيط اعتراضات على أهل القمريتين فيما أبدوه من القوانين، وإن جار سلطانهم فضلا عن كبير من كبرائهم، أو خرج عن القانون في أمر ما، يكتبونه في الكوازيطة ويقولون أنه ظالم وليس على الحق، ولا يقدر أن يقابل من قال ذلك أو فعله بسوء، ومنها أنه من يفعل عظيما يُمدح به أو يُذم...» كما أن للصحافة فوائد اقتصادية وتجارية من خلال الترويج للسلع والعقارات والأسعار⁽⁶⁾، والإعلانات حول التظاهرات الثقافية مثل المسرحيات وموعدها ومحلها كلها تنشر ويعلن عنها في هذه الصحف⁽⁷⁾.

ومن المآخذ التي أخذها الصفار عن الصحافة أن: «... ليس ما فيها كله صحيح، بل ربما كان الكذب فيها أكثر من الصدق...»، ورغم ذلك يلمح الصفار أن منافعها أكثر من مفاسدها: «... ولكنها تتضمن أخبارا تشوق النفس للعلم بها، ولها عندهم فوائد: منها الاطلاع على ما تجدد من الحوادث والأخبار ومنها أن من ظهر له رأي في

(1) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 190.

(2) المصدر نفسه، ص 192.

(3) المصدر نفسه، ص 190-191.

(4) المصدر نفسه، ص 190.

(5) المصدر نفسه، ص 192.

(6) المصدر نفسه، ص 192.

(7) المصدر نفسه، ص 186.

أمر من الأمور ولم يكن من أهله فإنه يكتبه في الكازيطة، ويشهر لسائر الناس حتى يطلع عليه ذووا رأيهم، فإن كان سدادا اتبعوه وإن كان صاحبه حقيرا...»⁽¹⁾.

وبالرغم أن العمراوي تحدث عن الصحف في إطار حديثه عن التجارة في فرنسا ودور الصحافة في ذلك، إلا أنه لا يقف هنا بل يقدم لها تعريفا موجزا شاملا ناقلا ذلك عن "نصراني له دراية باللغة العربية"⁽²⁾، ومبينا إيجابياتها وسلبياتها، وصولا إلى تعجبه من استعمالاتها بعد الانتهاء من قراءتها، وهي أوصاف لا تختلف تماما عما أورده الصنفار قبله، فيقول: «ومما يستعينون به على أمور الصحافة التي يسمونها الكازيطات ويسمونها أيضا الجرنالات، وكيفيتها أن لهم دارا يكتبون فيها أخبار ما يقع في العالم كله بحسب ما يروج سماعه من حروب ومهادنات ونوادر، وما يتعلق بالدول وما عزمت عليه، وما ينبغي أن يكون في الوقت بحسب ما يظهر لهم، ويذكرون فيها السلع التي تباع وأسوامها، وما هو نافذ وما هو كاسد وما هو متوسط، والفلاحات وما طلع ناقصا وما طلع كاملا والدور التي تباع أو تكرر والأرضون والأجنات والحوانيت، ويذكرون من أفلس من التجار وسبب فلسه وغير ذلك...»⁽³⁾.

أما عن تأثيراتها السياسية فيضيف: «...وذكروا لنا أن الوزراء الذين يكون الكلام معهم في ذلك يكونون في تعب كبير من الأجوبة عما يلقي عليهم فيها، وربما عزلوا الحكام والوزراء بسبب ما يظهر من زلاتهم ومتاعبهم فيها...»⁽⁴⁾، ليخرج بنتيجة أن: «لها أثر كبير في السياسة والتجارة وغير ذلك»⁽⁵⁾.

واقفا على أنواعها: «...وهي صنفان؛ صنف يصدر بإذن الدولة ولا تعلق له بالتجارة، وإنما هو ترغيبات وترهيبات وتخريصات وتبشيرات وتسهيلات وأعدار عن أمور قد صدرت وتمهيدات لأمر أرادوا إحداثها وتحسينات لأمر أنكروا بعض الناس وإظهار وجهها، وغير ذلك...»، أما الصنف الأول فذكر خصائصه ومحتوياته فيما سبق. ونظر العمراوي نظرة الناقد لمحتويات الصحف فذكر: «وكل من تأمل ما ذكرناه من حالها وموضوعها، ويعرف قدر نفعها، ولا تسأل عن عورات تفضحها ومساوئ تبديها ومهاوي تنبه عن الوقوع فيها، إلا أنها لا تسلم من الكذب الصراح، وذلك لأنهم يكتبون فيها كل ما راج في ألسنة الناس من صحيح أو سقيم، وربما تعمدوا فيها الكذب لسياسة تقتضيه من تقوية قلوب الناس وتوهين حال عدوهم وإظهار القوة لينقل ذلك للعدو المقابل لهم

(1) المصدر نفسه، ص 191.

(2) إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 99.

(3) المصدر نفسه، ص 98.

(4) المصدر نفسه، ص 98.

(5) المصدر نفسه، ص 98.

فيفشل أو يخاف فيجئح للسلم لرؤية ذلك، وربما اعتذروا عما يقع فيها من الكذب بعد قضاء الغرض بأعذار واهية...»⁽¹⁾.

ونشير أن النظرة للصحافة في نصوص رحالينا المغاربة خلال القرن التاسع عشر كانت على مرحلتين، كان لسياقات وفترة الرحلة أثر فيها، فالأولى يمثلها الرحالة المغاربة الأوائل منتصف القرن 19م خاصة الصفار والعمراوي؛ وكانت غاية الصورة التي نقلوها عن الصحافة هي نظرة تعجب وعدم معرفة بأصل الشيء، لأنها من الأمور الجديدة عليهم، أما الصورة الثانية التي مثلتها الطبقة الثانية من الرحالة، فقد تجاوزوا مرحلة التعجب والتعرف على الصحافة لأنها دخلت بلاد المغرب منذ منتصف هذا القرن، لذا لم تشكل ملمحا غريبا عنهم.

ومثل الرحالة التونسيون المثال الأبرز عن رحالة الطبقة الثانية، لذا انتقلوا من التركيز على التعريف بهذا الملمح الثقافي الأوروبي وشكله إلى التركيز أكثر على آثاره ومداخيله وأسس تمويله وتسييره، خاصة وأن هؤلاء الرحالة كانوا أعضاء مؤسسين وكتاب لصحف في تونس مثل الرائد والحاضرة مع السنوسي ويبرم الخامس، لذا اهتم هذا الأخير بتأثير الصحف على نشر العلوم والمعارف في أوروبا، واعتبرها من أهم وسائل التجارة والحرية⁽²⁾ مشيرا إلى تعددها بين صحف يومية وأسبوعية وشهرية، وذات تخصصات مختلفة سياسية اقتصادية وثقافية، ونسخ يومية ضخمة جدا، وبرر ذلك بأن كثيرا من فئات المجتمع تقرأ الصحف وتطالعها: «...وفي بعض الأحيان لا تجد منه نسخة للبيع إذ قل أن تجد سائق الكروسة ليس له صحيفة يطالعها فضلا عن غيره»⁽³⁾.

ومن هذه النظرة العامة حول أهمية الصحافة في الحياة العامة في أوروبا ينتقل بيرم ليعرف قارئه عن تفاصيلها من وصف لتقنية نسخ الصحف من وقت كانت ورقا مارا بكل مرحلة حين مرورها بالمطابع، إلى شكل الصحافة كمهنة ومورد اقتصادي معرجا عن موظفيها، من المدير العام إلى الكتاب في الصحيفة إلى كتاب المقالات وأخيرا وقف مطولا عند مراسلي الصحف الأوروبية المنتشرين الذين شبههم بسفراء الدول خاصة فيما تعلق بالميزانية الضخمة التي تصرف عليهم وكثرة الأعوان، مفصلا ومدققا في مهام هؤلاء ومحاورتهم للقادة العسكريين والساسة وأساليهم في جلب الأخبار، معرجا على مراسلي الحروب والأخطار المحدقة بهذه المهنة وقد ربط ذلك كله بما يجنونه من أموال ضخمة مقابل مجهوداتهم.

(1) المصدر نفسه، ص 99.

(2) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص 2131.

(3) المصدر نفسه، ص 1915.

وقد استفسر بيرم الخامس عن المداخل المالية الضخمة لهذه الصحف: «...فمداخيل التيمس (Times) لها من الدخل والخرج السنوي ما يضاهي دولة من الدول الثانوية»، رغم أن نسخها تباع بأثمان قليلة جدا تكاد لا تتجاوز ثمن الورق الذي كتبت عليه ليوضح بعدها أن أهم مداخيلها تأتي من عائد الإعلانات المنشورة على صفحاتها⁽¹⁾.

ورغم أن حضور المظاهر الثقافية الأوروبية في كتاب خير الدين كانت عبر إشارات سريعة على ندرتها إلا أنه وقف عند الصحافة لأنها كانت أكثر ارتباطا بالواقع السياسي ومظاهره، وهنا نجد يقف أكثر عند حرية الصحافة التي تعبر بلا شك عن حرية الرأي والتعبير، وعليه فقد أعجب خير الدين بحرية الصحافة، التي تمكنها من تنبيه القراء إلى النقص في الدولة والمجتمع، وتسمح بالاعتراض على سيرتها وانتقاد نظام الحكم والحاكم نفسه بغية إصلاحه وتكوين تصرفاته، وإلى جانب ذلك فهي وسيلة يدافع بها المظلوم عن حقه ويضمن لنفسه حكما عادلا، ولذلك يمكن القول أن خير الدين أحس بحاجة العرب الماسة إلى هذا السلاح الفكري (حرية الصحافة) الذي يعمل على تنبيه الشعب من غفلته، بقدر ما يساعد على تقويم الدولة والحكام⁽²⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 2131-2132.

(2) عبد القادر دوحه، مرجع سابق، ص 166-167.

ثالثا: الرحالون المغاربة إلى أوروبا ومتخيل التقنية

زار رحالة المغرب أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهناك اكتشفوا أوروبا الناهضة في كل المجالات، والتي قطعت أشواطاً كبيرة في مجال البحث العلمي التحريبي والاختراع، بل أخذت الدول الأوروبية تتسابق بأقصى ما لديها من إمكانيات وطاقات لزيادة الإنتاج وسرعة الاتصال والتنقل بأقل كلفة ممكنة لغزو الأسواق الخارجية وزيادة الربح، خاصة مع إفساح المجال للحرية الفكرية وحرية الإبداع.

1- الآلة البخارية وأثرها في وسائل النقل والإنتاج:

إن أولى خصائص الانقلاب الصناعي في أوروبا منذ منتصف القرن الثامن عشر؛ كان انتقال القوى المحركة للآلة (الأداة) من يد الإنسان وقوة الحيوان إلى قوة الماء والهواء، ثم إلى قوة البخار الذي شاع استعماله كطاقة جديدة في إدارة الآلات في القرن التاسع عشر، والتي فتحت الباب أمام اختراعات لا حصر لها في جميع الميادين، وقد أثارت هذه القوة المحركة الغربية عن المجتمع المغربي انتباه الرحالة المغاربة وشغلت فضولهم.

ولعل أهم تأثير للآلة البخارية وقف عنده الرحالة المغاربة يكمن فيما ما شاهدوه من وسائل النقل، وشكل القطار أو كما كان يسميه كتاب الرحلات بـ "بابور النار" أو "بابور البر"، تعبيرا عن الحداثة والتقنية الأوروبية المتطورة، إذ كان القطار شعار العصر الصناعي، فما كان منهم إلا أن وقفوا منبهرين أمام هذا الاختراع الذي بدا لهم أحد أعظم الاختراعات، فطفقوا يصفونه بدقة نصاهية، معددين فضائله ومزاياه في تحديث المجتمعات الأوروبية، وخاصة في مجال التجارة وريح الوقت وجلب الراحة⁽¹⁾.

لذا يعبر الصفار بكثير من الغرابة وهو يصف القطار واصفا طريقه وسرعته وشكله توصيفا عجيبا حتى يقرب الصورة قدر الإمكان لقراء رحلته: «...ثم صنعوا بابورا صغيرا ليس على شكل بابور البحر، وإنما فيه الحركات التي تدور النواعير لا غير، ويركبه ثلاثة من الناس يسيرونه، ثم صنعوا أكداشا (عربات) متماثلة أحسن وأرفع من الأكداش التي تجرها الخيل وأكبر منها، وجعلوا لها نواعير تجري بها في الطريق... وربطوا هذه الأكداش بعضها ببعض بالقناحي وسلاسل الحديد الغليظة، حتى صارت صفا واحدا، يقدمها البابور المذكور، والناس راكبون في هذه الأكداش...»⁽²⁾، وإن الوصف الدقيق الذي أولاه الصفار للقطار يفصح عن افتقاد الذات الواصفة لشيء تماثل به الاختراع العجيب، الذي وقفت أمامه مشدوهة لا حول ولا قوة لها ولو بوصفه، كيف لا وهي الذات التي أعجبت بـ "الكراريس" حد الافتتان⁽³⁾.

(1) عبد النبي ذاك، «مرآة الغيرية وأسئلة التحديث في الرحلات السفارية المغربية منذ مطلع القرن 18م إلى مطلع القرن 20م»، ضمن أعمال ندوة: الرحالة العرب والمسلمون: اكتشاف الآخر: المغرب منطلقا وموتلا، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، نوفمبر 2003، ص 399.

(2) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 156.

(3) سعيد بنرمون، مرجع سابق.

ويصف لنا الصفار ذلك الإحساس الغريب الذي انتابه حينما وجد نفسه أول مرة محمولا على نص عربة القطار مذهولا من سرعة هذا "الشيء العجيب": «...سيرا لم يعهد مثله في الإسراع يكاد يساير الطير في الهواء، بحيث قطعنا المسافة في ساعتين ونصف، وكنا ننظر إلى جوانب الطريق فلا نرى ما فيها من الأحجار أو غيرها كأنها خيوط متصلة ذاهبة معنا، ولا نحقق الحجر ولا غيره...»⁽¹⁾.

وبلغت الدهشة بالعمراوي مبلغها، كما هو واضح من شهادته الحائرة في وصف القطار وطريقه: «...طريق الحديد المبتدعة عندهم، وهي من عجائب الدنيا التي أظهرها الله في هذا الوقت على أيديهم تحير فيها الأذهان ويجزم الناظر أن ذلك من فعل الجان وأنه ليس في طوق إنسان»، «وبالجملة فما سمعت أذني ولا رأيت عيني ولا طالعت في كتب التواريخ بأعجب ولا أغرب من هذا البابور وكل ما حكيت عنه فهو دون ما رأيت»⁽²⁾.

واسترعت سرعة القطار العمراوي كذلك بمثل ما استرعت سابقه من الرحالة، يقول في ذلك: «...وقد مررنا في هذه الطريق بأزيد من خمسة عشر جبلا نمر في ظلامها كالريح، وما مكثنا في جوفه أزيد من عشر دقائق قدر ما يمشي فيه الراكب المجد ساعة ونصفا...»، «وبقدر ما تعجب السفير المغربي بسرعة هاته الآلة فإنه تملكه الرعب والهلع بعد ركوبه على نصها قائلا: «ولقد كان يفزعنا الهول إذا التقينا بابور آخر محاذيا لنا، لما نسمع لهما من الدوي ما له من حس كحس الصواعق، لا سيما إذا التقيا في ظلام جوف جبل، فيحس الإنسان أن ذلك الجبل واقع عليه...»⁽³⁾.

ونقل الجزائري ابن صيام في وصفه للقطار صورة امتزجت هي الأخرى بالتعجب والدهشة والغربة في الآن نفسه، لأنه مظهر معبر عن الحداثة التكنولوجية وقف عليه بحكم سفره فيه، وقد أطلق عليه نعت "كروسة الدخان"، واهتم صاحب الرحلة بشكله وطريقة سيره والطريق التي يمر عليها، ليكشف عن ردة فعله منها بقوله: «...وذلك الاختراع عظيم...» أو «...وذلك أغرب ما يكون».

وهو يعاين القطار اكتشف الرحالة الجزائري سريعا فارق السرعة والتكنولوجيا الذي يصب لصالح الأوروبيين ما جعله يجابهها بمرجعيته، متمثلة في الدابة، في صورة يقدمها ابن صيام: «...وفي رجوعنا من مدينة باريس مررنا تحت جبل في كروسة الدخان ستة دقائق مع خفتها وسرعة سيرها لأنها تمر فيها كالبرق الخاطف، وأما الراكب فوق الدابة لو دخل هذه الثقب (النفق) يسير تحت الجبل مدة ساعة ونصف... فإن المسافة التي يقطعها الراكب في الكروسة في ساعة واحدة لا يقطعها الفارس في أقل من يوم»⁽⁴⁾.

(1) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 156-157.

(2) إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 44.

(3) المصدر نفسه، ص 45-46.

(4) المصدر نفسه، ص 04-05.

لقد وجد الرحالة المغاربة أنفسهم منذ الوصول إلى أوروبا أمام مشاهد وأشياء مثيرة، كانت جميعها غير معهودة لديهم، وشكلت العلاقة بين الزمان والمكان عنصر ارتباك فوري وآني، بفعل التباين التكنولوجي الموجود بين أوروبا والبلاد المغاربية، إذ قدم الرحالة من عالم ينتقل فيه المسافرون على الأقدام أو على الدواب ليحلوا بأوروبا التي دشنت وقتئذ انتقالها من مرحلة الاعتماد على القدرات الحيوانية إلى القدرة الميكانيكية بينما كان فارق السرعة بين المغرب وأوروبا وقد لمس الرحالة المغاربة فارق السرعة هذا⁽¹⁾.

ويواصل ابن صيām وصفه للقطار: «...وتلك الكروسة تقود كرايس عديدة تنيف على الستين، في كل واحدة نحو من ستة عشر نفر بدون خيل ولا واسطة قيادة ما عدى الدخان هو المدير لتلك الرودات حتى تسير السير المفرط، وذلك من أعجب ما رأينا وليس الخبر كالمعاينة...»⁽²⁾.

ولحداثة هذه الاختراعات والمستحدثات التي شاهدها الرحالة المغاربة في أوروبا نجدهم يلقون صعوبة في توصيف هذه الآلة الدخيلة والغريبة عن ثقافتهم وحضارتهم، لذا تعددت التسميات الخاصة بالقطار بين الرحالة والآخر، تسميات ارتبطت كثيرا بشكلها أو بطبيعتها، فسمي "بابور النار" و"بابور البر" و "كروسة الدخان" أما مقصوراتها فهي "بيوت صغيرة".

وانتبه الرحالون المغاربة كذلك إلى حجم التغيير الذي أحدثته استعمال الآلة البخارية في مجال وسائل الإنتاج وارتقت بها كثيرا، ولعل أهم وصف معبر عن ذلك التأثير هو ذلك الذي حمّله وصف الجزائري أحمد ولد قادي وهو يتحدث عن وسائل الإنتاج المعروضة في المعرض الدولي الاقتصادي بباريس يلاحظ صدمته من الاختراعات والتطورات الصناعية والآلية المعروضة فيه، فيقول معبرا عن عدم استيعابه واصفا آلة النسيج المتطورة والغريبة بالنسبة إليه: «...فترى الصوف مثلا في محل معملها تخرج خيطا ثم يصير ملفا جيدا ومتوسطا وأدنى، فتقول أين المشط وأين المغزل، وأين المنسج وأين الخلالة والشيء النصول باليد، وترى أنواع الأقمشة من حرير وكتان بأنواع التطريز الغريب المذهب وأصناف الحاشية العريضة والضيقة تخرج كثرة بأدنى كلفة...»⁽³⁾.

إذ لمس سي أحمد ولد قادي حجم التأثير الذي أحدثته استعمال الآلة في مختلف الصناعات بأوروبا، فبدل اليد العاملة البشرية كانت هاته الآلات تقوم بكافة الأدوار، مقلصة بذلك الوقت والجهد والمال مع كثرة الإنتاج ودقته، كما ينطلق الرحالة الجزائري في وصفه لهذه التطورات والاختراعات الأوروبية انطلاقا من بيئته، أي أنه يصف الأشياء التي يراها قريبة من بيئته مثل النسيج، مقدما بذلك مقارنة استحضّر فيها الذات المعتمدة على أدوات الإنتاج التقليدية

(1) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 98.

(2) المصدر نفسه، ص 05.

(3) أحمد ولد قادي، مصدر سابق، ص 13.

اليديوية في مقابل الاختراعات المتطورة في نفس المجال، فهو بذلك أمام صورة أدرك فيها البون الشاسع بين واقعه في الجزائر وما تعيشه فرنسا وأوروبا من تطور تقني وصناعي.

ولعل البون الشاسع الذي لمس الرحالة الجزائري وصدمه وتعجبه مما رآه في فرنسا من تطور تقني وآلي حفزه على إثبات أكبر عدد ممكن من عناصر التفوق الأوروبي، والفرنسي على وجه الدقة، من أجل تعزيز استغراقهم في الدعوة إلى فرنسا ونقل صورتها المبهرة والمثيرة إلى قرائهم المحتملين من الجزائريين، صورة فرنسا المتطورة فرنسا التقدم والتحضر فرنسا العقل، في مقابل استحضر صورة الأنا الجزائرية المتخلفة علميا وحضاريا، صورة المجتمع الجزائري البدائي والتقليدي البعيد كل البعد عن تلك الوسائل الحضارية، سواء أكان ذلك بقصد أو بغير قصد منهم، لذا توالى المستحدثات فيما يرويه ولد قادي عن التقنية والآلة في فرنسا، ودائما يسمي الآلة القائمة بهذه الأدوار بـ"الحركات العقلية"، كقوله في آلة طحن الشعير واستخراجه خبزا: «والحركات العقلية؛ حتى القمح يوضع حبا في جهة ويصير دقيقا مغربلا صاف بالحركة في جهة ثم يخرج خبزا أو بشمطا للعسكر في جهة، وهذا في أسرع وقت والإنسان واقف»، وعن صناعة الآلات الفلاحية: «... وأما المعادن فترى قطع الحديد بدار المعمل مكدسة في جهة، وترى الفاس والشاقور والمزبر والمنجل والمحرث والمنشار، ونحو ذلك مما لا يحصى، يخرج من جهة أخرى مكمول الصناعة...»⁽¹⁾.

فاهتماماته جاءت مرة أخرى وفق بيئته، وحتى يسهل عليه تمرير خطابه لقارئ رحلته من الجزائريين، ليضيف عن تعجبه من عمل الآلة دون تدخل الإنسان: «... فيقول الإنسان: أين النار، أين الرابوز، وأين البوط، وكيف تسبك هذه الأشياء وتصنع دون رؤية المعلم والمتعلم والصانع...»⁽²⁾، وذلك في حديث عن تحويل المعادن إلى حلي، ومثل هذا يضيف ولد قادي في حديثه عن إنتاج الثلج لأغراض خاصة عن طريق النار: «وأغرب من هذا أن النار والماء ضدان لا يجتمعان، فرأينا الثلج يستعمل من نار وماء بالآلات والحركات العقلية، فلو سمعنا بهذا لما صدقه العقل، لكن ليس الخبر كالعيان، فوقفنا باهتين».

هذا يجعلنا نقول تعليقا على قوله، بأن هاته الأمور المتعلقة بالصدمة التي أفقدت الرحالة توازنهم في هذه الفترة هو اعتراف بالعجز، وعدم احتمال المشاهد الحضارية المثيرة، ويبدو كل هذا الاستغراب نتيجة الظواهر العلمية التي لا يفسرها إلا المعرفة بشأنها، أما الذي لا يملك أبجدياته، فليس له في ذلك إلا التسليم، لأن درجة الصدمة كانت قوية ومؤثرة، وليس في مقابلها أية قرينة معرفية تخفف حدتها وتخفف من توترها الذي تمارسه هذه العناصر المتطورة، وبالتالي

(1) المصدر نفسه، ص 13.

(2) المصدر نفسه، ص 14.

لم يبق للرحالة سوى الانكماش نحو مرجعيته وعزائه محتويات بسيطة بما في هذه الجعبة، مستمدة من استسلامها كقوة بلاغية عن عدم قدرة تعبيرية شعارها: «وهذا من أغرب ما رأيت والأمر لله من قبل ومن بعد»، وهي الوسيلة التعبيرية المخففة الوحيدة التي كانت عزاء الرحالة.

ليخرج بنتيجة عامة لهذه الاختراعات: «...وهكذا كل شيء يخرج بواسطة الآلات والحركات العقيلة...»⁽¹⁾، «...وإنما اختصرنا بعضه ليعتبر العاقل ما يتوصل إليه الإنسان بنور العقل، وإلا فما هو إلا كما قالت الأجناس حمل لا يطاق على حمله...غير أنه يا أسفا مع اطلعنا على تلك العجائب التي يعجز الإنسان على وصفها لم ندرك حقيقة الكثير منها...»⁽²⁾.

وفي ذلك دلالة على العجز وعدم الاستيعاب لما توصل له الأوروبيون من اختراعات، رغم أن الرحالة الجزائري يؤكد أنها من صنع العقل البشري، في اعتراف ضمني من صاحب الرحلة إلى وجود فروقات شاسعة بين العقل الأوروبي الذي صنع ما صنع؛ وبين العقل المغاربي الجزائري الذي لم يستطع إدراك ولا استيعاب ما أنتجه العقل الأوروبي، ويعبر عن صدمته ودهشته مما رأى من اختراعات وآلات متطورة بقوله: «... وقلت لنفسي اعتبر يا أحمد بن قاد وأخبر من يعتبر...»⁽³⁾، و «...فلو سمعنا بهذا لما صدقه العقل...»⁽⁴⁾.

وبعد أن أدرك الرحالة المغاربة أن أساس هذه الحركة الميكانيكية هو اختراع الأوروبيين "للآلة البخارية"، نجد الطاهر الفاسي باحثا عن أصل هاته التقنية التي ارتقت بأوروبا إلى ما هو مُشاهد؛ في محاولة منه لشرح طريقة اختراع "البابور" أو "الآلة البخارية" التي تقوم عليها الصناعات الأوروبية، معتبرا أن ذلك الاختراع كان مجرد صدفة حدثت في أوروبا: «وسبب إحداثهم له أن صبيا كانت بيده ناعورة من كاغيد، فجعلها متصلة بجعب في فم بقرج من نار، وبعد اشتداد غليان الماء فيه، فجعلت تدور بقوة ذلك البخار فرآه رجل فتعجب واستنبت هذا البابور...»⁽⁵⁾ في شكل من أشكال الاستنفاص وتقزيم العقل والفكر والعلم الأوروبي، وعدم البحث في أصل الشيء. فرغم إقرار الفاسي ولو ضمينا أن سبب تفوق أوروبا الصناعي يعود للعقل والعلم، بيد أنه يرى في سبب اختراع "الآلة البخارية" لعبة صبيانية أتت بالخطأ والمصادفة،

(1) سليمان بن صيام، مصدر سابق، ص 13.

(2) أحمد ولد قادي، مصدر سابق، ص 20-21.

(3) المصدر نفسه، ص 15.

(4) المصدر نفسه، ص 14.

(5) أبو الجمال محمد الطاهر الفاسي، مصدر سابق، ص 28.

و"الآلة البخارية" كما يرى الكاتب المغربي نتاج "للعقل الظلماني" لا "العقل النوراني"؛ إذ أن الفاسي يقسم العقل حسبه إلى قسمين: "عقل ظلماني"؛ وهو بلا شك العقل الأوروبي القائم على العلم المادي، والعقل الذي أنتج اختراعات متعددة أعجزت الفاسي وغيره ممن رآها حينها، و"العقل النوراني"؛ أساسه علم روحي ديني متسامي عن المادة والعلوم الدنيوية، يقصد به ما يوجد لدى المسلمين من فقه وعلوم دين، لذا نجده يقول: «...لأن العقل على قسمين: ظلماني ونوراني، فالظلماني يدركون به هذه الأشياء الظلمانية، ويزيدهم ذلك توغلا في كفرهم، والنوراني به يدرك المؤمن المسائل المعنوية، كالإيمان بالله وملائكته ورسله وكل ما يقرب من رضى الله، ومن هذا الباب وصفهم الله في غير ما آية بعدم العقل وبعدم التفكير، وبعدم الفقه»⁽¹⁾.

ومن جهة أخرى ما دام العقل الظلماني عقل الفلاسفة وعلماء الطبيعة والمخترعين يتخذ الطبيعة موضوعا له، وما دامت الطبيعة هي الدنيا، والدنيا دار فناء وزوال ووهم، فإن ذلك العقل واكتشافاته لا قيمة لها جميعا، أما العقل النوراني فهو عقل المؤمنين والفقهاء والمتصوفة الذين يتسامون عن الحياة الدنيا للكشف عن الحقائق القدسية للدار الآخرة الباقية الأبدية، فهو العقل الأسمى والأرقى، بل هو العقل الحق، فلا تستمد الأشياء قيمتها إلا منه، وهذه المخترعات والمستحدثات التي تعتمد عليها الحضارة الإنجليزية لا قيمة لها في نظر الطاهر الفاسي لأنها غير مستنبطة من العقل النوراني، ولا تنتمي إلى مثله وحقائقه السامية، وهكذا يقحمن الفاسي في نوع من الأنطولوجيا التقليدية التي لا تكتفي بتقسيم العالم إلى دار حرب وكفر/دار إسلام وأمان، بل تضيف إلى ذلك تقسيما ثانيا للوجود برمته إلى دار الدنيا/ دار الآخرة⁽²⁾.

أما التونسي محمد السنوسي فيبدو معجبا بالتطور الصناعي الأوروبي وآثاره على حياة البشر، فهو يؤمن بأن أدباء عصره عليهم دُين لعجائب الاختراعات التي لم ير من سبقهم مثلها، وأن أداء حق المخترعات بقي دينا على لسان العرب لذلك نظم قصيدته الفريدة في المخترعات الجديدة، فنوه بعصره عصر الآلات البخارية والمراكب النارية التي صيرت البعيد قريبا، ويرى المؤلف أن اقتراب البلدان عن طريق سكة الحديد سهل طريق المتجر من الصادرات والواردات ويمكن السياح والتجار من التوارد على مختلف أنحاء المعمورة فتسبب ذلك في نمو العمران في البلاد العامة⁽³⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 28.

(2) عبد السلام حيمر، صورة الآخر من خلال تقارير الرحلات السفارية المغربية إلى أوروبا، مرجع سابق، 327.

(3) محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، مصدر سابق، ص 30.

2- في تقنية وسائل التواصل الحديثة

ولفتت وسائل الاتصال الحديثة ممثلة على وجه الخصوص في "التليغراف" و"الهاتف" أصحاب الرحلات المغاربية، وذلك لما مثلته هاته التقنية من تعبير عن فصل آخر من فصول الحداثة الأوروبية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومن الاختراعات التي شددت انتباه الصغار التلغراف الكهربائي الذي استرسل في ذكر صفته وطريقة عمله يقول فيه: «...ومن أعجب ما رأيناه في هذا المحل وأغربه، حركة يصل بها الخبر من محل إلى محل في لحظة وإن كان بعيدا مع استيفائه واستيعابه لأنه بالآلة...» ويضيف متعجبا من عمل التلغراف: «...زعموا أنه لو اتصلت هذه الحركة بين هاتين الدائرتين لوصل الكلام من الأولى للثانية، إذا كان بينهما مائة ألف وخمسة عشر ساعة في ثانية من الثواني التي هي سدس عشر الدقيقة، وهذا أمر يكاد يحيله العقل، لكن من شاهد ذلك لا ينكره...»⁽¹⁾، والكاتب المغربي يستعمل لفظة "زعموا" في إشارة لعدم استيعابه أو تصديقه لعمل هذا الاختراع.

ولاحظ الصغار فوائد التلغراف على المستوى التسيير السياسي: «... وأنها عندهم أيضا موصلة من القمرة التي يجتمعون فيها لتدبير قوانينهم إلى دار السلطان بعمل مغيب تحت الأرض، ووكل بها من يحفظها من الجهتين، فيكلمون السلطان من القمرة وهو في داره ويرد عليهم الجواب وبينهما مسافة طويلة...»⁽²⁾، وربما أراد الصغار من إشارته إلى الأهمية السياسية لمثل هذه الاختراعات خاصة التلغراف إيصال رسالة إلى السلطات والسلطان المغربي حول أهمية الأخذ والعمل بها.

وكان موقف الفاسي وهو يقف في محل التليغراف بإنجلترا؛ يحمل كثيرا من العجز وعدم الاستيعاب والتعجب هذا الذي أظهره قوله: «والحاصل أن هنالك محلا عظيما متسعا مشتملة على آلة في باطنها أسباب ومسببات غائبة عن الحذر، وهي مما يحق وصفها، ويصعب ذكره: "الله أخر مدتي فتأخرت حتى رأيت في ذا البلاد عجائبا"»⁽³⁾. ويصفه العمراري وصف دقيقا جدا من طريقة عملة وشكله والعمل به مبينا أهميته، ووصفه بهذا الشكل من أجل تقريب الصورة لقارئه، فيقول معرفا لهذه التقنية: «المسمى عندهم بطل أكراف (تليغراف: Télégraphe)، ومعناه بالعربية المستعجل للأخبار، وهي دار متوسطة تمتد منها أسلاك رقيقة من النحاس، تمتد إلى الآفاق والبلدان والأقاليم كل سلك إلى جهة، وربما جعلوا لها اثنين، واحدا للخبر والآخر للجواب»⁽⁴⁾.

(1) محمد الصغار، مصدر سابق، ص 240.

(2) المصدر نفسه، ص 240-241.

(3) أبو الجمال محمد الطاهر الفاسي، مصدر سابق، ص 36-37.

(4) إدريس العمراري، مصدر سابق، ص 83.

إذ يصف العمرأوي طريقة عمله وصفا دقيقا، أما عن ردة فعله اتجاهه فتميزت بالإعجاب تارة والعجز تارة أخرى خاصة في سرعة نقل الخبر: «وليس بين الخبر والجواب إلا بقدر ما تكلم رجلا بواسطة ترجمان أو شبهه فكنا هناك نتكلم من بيننا وبينه مسيرة العشرة أيام أو أكثر كأنه من وراء الحائط، وقد أخبرنا رئيس ذلك المحل أنهم في أربع دقائق يكتسبون أخبار كثير الأقاليم...»⁽¹⁾.

ويعبر العمرأوي عن عجزه أمام هذا الاختراع المذهل عمله: «...وهذه الآلة مما يذهل العاقل ويستريب فيه السامع والناقل، وكل ما أمعنت النظر فيها لم أجد عبارة تشتمل على حقيقتها وتستوفيها، على أن كثيرا ممن ينظر إليها لا يعرف كيفية الدلالة عليها، بل لا يحسبها إلا من طريق السحريات، ويكذب كلام ناعتها ويعدده من الاستهزاء والسحريات...»⁽²⁾، ويبدو أن العمرأوي قد حدث بها بعضا من المغاربة ولم يصدق لهذا كان هذا رده! وبالتالي فقد أعجزت هذه التقنية الرأئي والسامع من المغاربة.

ثم إن شعور العمرأوي انتقل من الدهشة والتعجب إلى العجز فالاعتراف بتفوق الآخر: «... كلا بل هو من الأمور المذهلة والأشياء المشككة والأدواء المعضلة، قد قربوا بها البعيد وهونوا الخطب الشديد، وفيه أدل دليل على أن أمورهم بلغت الغاية، وتجاوزت النهاية...»⁽³⁾.

وإن العجز والاعتراف بقوة الآخر أدى بالعمرأوي للركون للدين وانتظار موعد سقوط الحضارة الغربية الأوروبية بقوتها وتفوقها: «...وأنه في الحال يعقبها الانحلال، وتأخذ في الانعكاس والاضمحلال، فمعلوم أنه ما بلغ شيء الغاية إلا ورجع ولا نال منته الصعود إلا اتضح فإنهم يقولون اليوم من أشد منا قوة، ونسوا مهلك ثمود وعاد، وإرم ذات العماد، ولم يعلموا أن سطوة الله لهم بالمرصاد، وأن أمره إذا نزل يقوم فما له من دافع ولا صاد»⁽⁴⁾،

فالسفير المغربي يرى فيما وصلت إليه أوروبا منتصف القرن التاسع عشر من تقدم تقني الذي أولها إلى تلك القوة قد بلغ منتهى العلم وأوجه، لذا لا بد له من نهاية قريبة، وهو لا يدرك أن ما كان يراه حينئذ ما هو إلا نقطة البداية من التطور التقني الأوروبي، ثم إن هذا الركون إلى الدين وانتظار سقوط الحضارة الأوروبية، ما هو إلا دليل على العجز عن المواجهة مع الآخر.

كما كان استعمال أسلاك التلغراف للتواصل في فرنسا من المظاهر التكنولوجية التي حيرت الجزائري ابن صيام وأعجزته فيقول واصفا لها: «...وفي مدة سفرنا رأيت بجانب الطريق نخوا من ستة خيوط من سلك الحديد... سألت

(1) المصدر نفسه، ص 84.

(2) المصدر نفسه، ص 86.

(3) المصدر نفسه، ص 86.

(4) المصدر نفسه، ص 86.

عنها فأخبرت أن تلك الخيوط طرفها بباريس والطرف الآخر بمدينة ليون يبعثون بواسطتها الخبر من باريس إلى ليون، ومن ليون إلى باريس في مدة طرف عين، بل يحدث الشخص في باريس جلسه بليون مع بعد المسافة بينهما... ولم ندر كيف يصنعون لأننا لا رأينا لها مثل حركات السنيال الذي عندنا في بلاد الجزائر، وهذا من أغرب ما رأيت والأمر لله من قبل ومن بعد...»⁽¹⁾.

فمرة أخرى يظهر ابن صيام مظاهر تفوق أوروبا وفرنسا العلمي، وهذه المرة في استخدام التكنولوجيا في مجال الاتصال والبريد، لذا نجده مندهشا وغير مصدق لما شاهده، بل إنه يقدم رسالة للجزائريين أنه بالرغم من تشاهدون في الجزائر من استخدام السنيال في البريد إلا أن ذلك لا يعد شيئا مما هو موجود في فرنسا.

أما الكردودي فتعجب؛ بل دهش من المنجزات التقنية الأوروبية، إذ كانت هذه التقنية أولى صور اصطدامه بالآخر الأوروبي، فكان إعجابه بتقنية الهاتف أو كما أسماه هو بالتلفون، ورغم ذلك إلا أن الكردودي ومثل الفاسي تماما يذهب مذهب تقزيم العقل والعلم الأوروبي التي أدت إلى اختراع ذلك، فيصفه كأنه جاء صدفة لا وفق تراكمات وتجارب علمية: «...وفي خلال مقامنا بهذا الثغر السعيد (طنجة) هذه المدة أحدث النصارى فيه من عجيب الإنشاء سلك يخاطب منه الرجل من شاء فيسمع المخاطب فيه خطاب صاحبه، كأنما يتكلم بجانبه بلفظ صريح، وصوت فصيح، ويُجاب فيه بأفصح جواب، كأنهما تخاطبا وليس بينهما حجاب، وذكر أن أول من أنشأ صبيان من أهل هذا الثغر، كانوا يلعبون بجعبتين من قصب...وقد ألصق على أحد الطرفين من كليتهما جلد رقيق فيه خيط طويل ممتد بينهما، متصل طرفاه بالجلد الملتصق بهما، فيتكلم أحدهما بما شاء...وهذا مما يستغرب ويقضى منه العجب»⁽²⁾.

بينما أعجب التونسي محمد السنوسي بالتيار الكهربائي، إلى حد أن اعتبره جديرا بأن يعد من مفاخر عصره، فيسمى "عصر الكهرباء"، وقد بسط المؤلف القول في التيار الكهربائي، ونوه بفوائده التي قامت في عصره مقام بخار النار في كثير من الصناعات الجديدة، ومقام النور الشمسي، بل زادت على ذلك بما يتولد بتجدد العصور وتسابق العلماء إلى استخراج سر ما أودع الله في هذا العنصر العجيب⁽³⁾.

هذا وانتبه العمرابي إلى عامل له تأثير بلا شك في التطور العلمي والتكنولوجي والتقني في أوروبا، ممثلا بالأساس في عامل التحفيز والتشجيع الذي تقدمه الدول الأوروبية لأفراد شعبها ومكافأتهم على الإبداع والاكتشاف والاختراع والعمل بشغف متواصل من أجل تطوير وتحديث وسائل الإنتاج المختلفة.

(1) سليمان بن صيام، مصدر سابق، ص 09.

(2) أحمد الكردودي، مصدر سابق، ص 31-32.

(3) محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، مصدر سابق، ص 30.

ومثالا على ذلك كانت المعارض الدولية التي تقام في المدن الكبرى بأوروبا فرصة لتطوير وسائل الإنتاج والتقنيات وانتشار المخترعات وتحفيز الأوروبيين عليها: «.. فإن من عادتهم أن كل صانع حادق في صنعته إذا أتقن شيئا من صنعته أو اخترع فيها شيئا لم يسبق إليه ادخره إلى رأس العام، فأتى به إلى ذلك المحل، ويجتمع هناك في وقت معلوم جميع الحداق من الصناعات في جميع الصنائع فيعرضون أشياءهم على الرؤساء والتجار وأعيان الدولة المعينين لذلك فمن وجدوا صنعتهم أجود وأتقن واختراعه أبرع وأحسن حازوا منه شيئا وأعطوه ثمنه عاليا وأثبتوه في ديوان المهرة وأعطوه نيشانا يجعله بباب داره... ويجلبون للكل المحل حتى البقر والغنم المسمنة فمن وجدت ماشيته أسمن نال رتبة عندهم وكذلك الفلاحون يأتون إليه بأنواع فلاحتهم...»⁽¹⁾، فكانت هذه المعارض فرصة وتحفيزا للإنتاج والاختراع، وهو الأمر الذي أكد خير الدين التونسي⁽²⁾.

إذن فقد اكتشف الرحالون المغاربة أن قوة أوروبا لا تعود فقط إلى قوتها العسكرية وتنظيماتها السياسية بل أيضا إلى علومها ومعارفها المتقدمة لذا وجدناهم يبحثون في أصل هذه العلوم ومراكزها وأسسها وأنواعها، وفي أوروبا اكتشف هؤلاء الرحالة الفرق بين علوم الشرق الدينية والروحية وما ارتبط بها وبين علوم الغرب الأوروبية المادية، وبينما اتجه كثير من الرحالة للتأكيد على حالة التجاوز العلمي لصالح أوروبا نجد آخرين وعلى رأسهم خير الدين في إطار برنامجه الإصلاحية يؤكدون أن هذه العلوم "المادية" الأوروبية ليست غريبة عن المسلمين الذين يشهد لهم التاريخ بإسهاماتهم في شتى العلوم لكنهم ابتعدوا عنها وتركوها بينما اكتسبها الغرب الأوروبي، ولا سبيل حسب خير الدين للنهوض والإصلاح إلا باسترداد المسلمين لعلومهم وتطويرها لأن بها تقوى المعارف والجيش وتكثر الثروة ويصلح حال المجتمع.

(1) إدريس العمراوي، مصدر سابق، ص 80.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق: المنصف الشنوفي، ج1، مصدر سابق، ص 198-199.

الفصل الخامس: الرحالون المغاربة يكتشفون النظم والأفكار الاقتصادية الأوروبية.

- أولا: في الحرية الاقتصادية
- ثانيا: دور الدولة في الاقتصاد
- ثالثا: اكتشاف الرحالة المغاربة المؤسسات المالية والاقتصادية الأوروبية الحديثة
- رابعا: دعائم ومقومات الاقتصاد الأوروبي الحديث

الفصل الخامس: الرحالون المغاربة يكتشفون النظم والأفكار الاقتصادية الأوروبية

وفي المجال الاقتصادي أيضا اتجه الرحالون المغاربة للبحث في أسباب ثروة وغنى وكثرة الإنتاج لدى الدول الأوروبية وشعوبها، لذا سنقف في هذا الفصل عند تفسير هؤلاء الرحالة وفق مشاهداتهم وقرهم من رجال الدول الأوروبيين واطلاعهم على الفكر الاقتصادي الأوروبي عند مظاهر وأسباب القوة الاقتصادية الأوروبية.

وقبل أن نستعرض في تتبع ملامح وصور الواقع الاقتصادي الأوروبي كما عبر عنها الرحالة المغاربة خلال القرن التاسع عشر ارتأينا أن نقف أولا عند مجموعة من الملاحظات المنهجية والمعرفية، فنقول أن الصورة التي تم دراستها تتعلق أساسا بما نقله الرحالة التونسيون في نصوصهم بخصوص الواقع الاقتصادي الأوروبي خاصة وأن تمثلات رحالة المغرب الأقصى والجزائر حول هذا القطاع جاءت في مشاهد قليلة وسريعة تمثلت أساسا برأيه أعينهم من ملامح تعبر عن قطاعات الفلاحة أو الصناعة أو تجارة، مبدئين إعجابهم من تنظيم للغراسة وترتيبها، منبهرين من كثرة المصانع المختلفة في طريق سيرهم عبر المدن والقرى المختلفة، وكذا حجم التجارة التي يرون ملاحمها بالموانئ التي ينزلون بها أو يرحلون منها، وذلك يعود بالأساس إلى سرعة انتقال هؤلاء الرحالة وسط الأراضي الأوروبية عبر وسائل النقل السريعة (القطار العربات البخارية) التي لم تتح لهم الوقوف على مكامن الاقتصاد الأوروبي بشكل دقيق، بالإضافة إلى قصر مدة مكوثهم بهذه البلدان والتي لم تتعد الشهر والشهرين في كثير منها، وافتقارهم لأدوات الحوار مع الآخر ممثلة في اللغة.

ولأن توجه الرحالة المغاربة كان نحو بلدان أوروبا الغربية التي شاع فيها النظام الرأسمالي، فإن أغلب ما سندرسه هنا هو مقومات الاقتصاد الرأسمالي الأوروبي، وذلك بعيدا عن مدى استيعاب هؤلاء الرحالة لهذا النظام الاقتصادي من الناحية الفكرية، إلا أن آثاره على الفرد والدولة في أوروبا أثارت إعجابهم لما حققه لهم من قوة وثروة وتقدم.

أولا: في الحرية الاقتصادية

توجه الرحالون المغاربة من خلال اطلاعهم على الفكر الأوروبي ومشاهداتهم لاكتشاف أسباب الثروة وانتشار التمدن وتطور العمران في ممالك أوروبا، فنظر خير الدين لأحوال هذه الممالك ورأى أن أساس ذلك هو تأسيس التنظيمات السياسية القائمة على دعامة العدل والحرية، واللذين رأى فيهما أصلا في الشريعة الإسلامية وذلك في إطار نظريته الإصلاحية الرامية إلى ترغيب المسلمين في السير على منوال الأوروبيين⁽¹⁾.

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 16.

وقد خص خير الدين هنا العدل السياسي، فأوروبا لم تصل إلى ما وصلت من ثروة وغو اقتصادي إلا بشيوع العدل والحرية قائلاً: «ولا يتوهم أن أهلها وصلوا إلى ما وصلوا إليه بمزيد خصب أو اعتدال في أقاليمهم... ولا أن ذلك من آثار دياناتهم... وإنما بلغوا تلك الغايات والتقدم في العلوم الصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسي، وتسهيل طرق الثروة، واستخراج كنوز الأرض بعلم الزراعة والتجارة، وملاك ذلك كله الأمن والعدل اللذان صارا طبيعة في بلدانهم، وقد جرت عادة الله في بلاده أن العدل وحسن التدبير والتراتب المحفوظة من أسباب نمو الأموال والأنفس والثمرات، وبضدها يقع النقص في جميع ما ذكر، كما هو معلوم من شريعتنا والتواريخ الإسلامية وغيرها»⁽¹⁾.

والحرية الاقتصادية حسب ابن أبي الضياف كما شاهدها في أوروبا لا تتحقق إلا انطلاقاً من الحرية السياسية والحرية الشخصية⁽²⁾، إذ أنها منطلق تدرج الأوروبيين في العمران: «فإنهم أسسوا قوانين عدل حتى استقر الأمن وذاقوا لذته وتفيئوا ظلاله، فأقبلوا على شؤنهم واشتغلوا بما يوسع دائرة عيشهم وثروتهم، فقوي الأمل واستقام العمل، فدعتهم الحاجة إلى كثرته فجعلوا المعامل لآلات الغزل والنسج ولين الحديد، حتى أنهم تصرفوا فيه تصرف النجار في لين أخشابها، وغير ذلك مما تتوفر الدواعي على الاحتياج له...»⁽³⁾.

وأعجب خير الدين بالحرية الاقتصادية الأوروبية؛ واعتبرها من أعظم الحريات التي يطمح لها الفرد والمجتمع، لذا راح يعدد فضائلها على كافة الأصعدة وبشكل خاصة على النشاط الاقتصادي، حيث يضمن بها الإنسان أمنه وأمن أملاكه، فالحرية ضامنة للأمن، والأمن يؤدي إلى العمل والإنتاج، وضرب خير الدين مثالا عن البلاد التي لا تضمن فيها الحرية بقوله: «فما ينفع الناس كون أرضهم خصبة كريمة المنابت، إذا كان الباذر فيها لا يتحقق حصاد ما زرع، ومن الذي يقدم حينئذ على ازدياعها، ولضعف أمل الناس في كثير من أراضي آسيا وإفريقيا تجدد أخصب مزارعها بوراً معطلة، ولا شك أن العدوان على الأموال يقطع الآمال، وبقدر انقطاع الآمال تنقطع الأعمال، إلى أن يحل الاختلال المفضي إلى الاضمحلال»⁽⁴⁾، فالحرية الاقتصادية تجعل أرباب النشاط الاقتصادي والاستثمار المالي آمنين على ثرواتهم⁽⁵⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 17-18.

(2) عبد القادر دوحه، مرجع سابق، ص 290.

(3) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 1، مصدر سابق، ص 77-78.

(4) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقدم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 119.

(5) محمد عمارة، العرب والتحدي، ص 165.

فخير الدين يرى أن أهم ما كسبه الأوروبيون من الحرية خاصة الشخصية منها هو الأمن، لأن هذا الأخير يؤدي إلى النمو والرقي في الاقتصاد والتحضر والتمدن: «...ومن أهم ما اجتناه الأوروبيون من دوحة الحرية؛ تسهيل المواصلات بالطرق الحديدية، وتعاضد الجمعيات المتجرية، والإقبال على تعلم الحرف والصنائع»⁽¹⁾.

وأعجب خير الدين كذلك بنتائج الثورة الفرنسية التي قضت على الإقطاع وعواقبه، إذ رأى أنه كان أكبر عائق في تطور الاقتصاد والدولة، خاصة الاقتصاد الرأسمالي الذي أعجب به ودعا إليه، فبفضل هذه الثورة تحررت الصناعات مما يعوقها وحميت الفلاحة من تسلط الأعيان ورجال الكنيسة وكفت عن الأملاك موانع التجسس واتحدت أحوال المملكة وتصرفاتها⁽²⁾.

فالبلدان التي ارتقت إلى أعلى درجات العمران هي التي تأسست فيها عروق الحرية، والدستور المرادف للتنظيمات السياسية، فاجتنى أهلها ثمارها بصرف الهمم إلى مصالح دنياهم المشار إلى بعضها، ومن ثمرات الحرية تمام القدرة على الإدارة المتجرية، وبالجملة فالحرية إذا فقدت من المملكة تنعدم منها الراحة والغنى، ويستولي على أهلها الفقر والغلاء، ويضعف إدراكهم وهمتهم، كما يشهد بذلك العقل والتجربة⁽³⁾.

أما عن أثر الحرية في الاقتصاد، فيستطرد خير الدين إلى الكلام عن الشركات والمصارف الأوروبية وما حققته من مشاريع ضخمة لم يكن الفرد ليستطيع النهوض بها من قبل، ويضرب بذلك مثلاً بمنشأتين عظيمتين إحداهما فرنسية وهي بنك فرنسا، والأخرى إنجليزية وهي شركة الهند، وهذه الشركات حسب خير الدين من آثار الحرية، لأنها نتيجة لأمن الناس في أموالهم، ومن خلال ذلك يظهر خير الدين معجبا بالحرية الفردية في الإنتاج والعمل بأوروبا، ولا يرى تدخل الدولة في الاقتصاد إلا في أضيق الحدود؛ فالدولة ترتبط بالاقتصاد في حدود توفير الأمن والعدل والدفاع⁽⁴⁾، وهو الأمر الذي جعل ابن أبي الضياف يستحضر مقولة ابن خلدون والتي يدعوا فيها لتحرير المتجر من قيود السلطة فيقول: «...وبهذا يظهر سر ما نقله ولي الدين بن خلدون في مقدمة كتابه: من أن التجارة من السلطان مضرة للرعايا مفسدة للجباية»⁽⁵⁾.

ولاحظ بيرم الخامس وهو يفسر أسباب الثروة والتمدن بين مختلف البلدان الأوروبية؛ أن البلاد التي شاعت فيها الحرية السياسية والشخصية تحققت فيها الحرية الاقتصادية ونمت ثرواتها وتوسع متجرها، ففي حديثه عن إيطاليا أكد

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 119.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تمهيد وتحقيق: المنصف الشنّوني، ج 1، مصدر سابق، ص 279.

(3) المصدر نفسه، ص 120.

(4) المصدر نفسه، ص 122.

(5) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 1، مصدر سابق، ص 23.

مؤلف "الصفوة" أن هذه الأخيرة لم تكن لتقارن مع بقية الممالك الأوروبية من جميع النواحي خاصة الاقتصادية والتجارية منها وأن هذا التأخر ناتج عن "انقسامها وظلم ولائها"⁽¹⁾.

فخير الدين وبيرم الخامس وابن أبي الضياف ينطلقون من وضع اقتصادي متأزم في تونس والدولة العثمانية يرمي إلى إصلاح هذا الوضع عن طريق التنظيمات السياسية التي رأوا فيها أصل الداء وعلاجه كما بينا سابقا، وأنه لا سبيل إلا بإطلاق مجال الحرية الاقتصادية التي تشجع على الاستثمار الذي يؤدي إلى نماء الثروة كما هو مشاهد في أوروبا.

وخير الدين عندما ينقل هذه الصورة من الحرية الاقتصادية على النمط الأوروبي إنما يدعو بلده وأمته إلى حيث انتهت أوروبا لذا راح يبحث في المدونة الإسلامية عما يدعم موقفه، ولتأكيد هذه الصورة يذكر أن ما جنته أوروبا من العدل والحرية ليس خاصية تفردت بها الدول الأوروبية دون سواها؛ بل قد سبقتها إلى ذلك الأمة الإسلامية؛ وإقناع قارئ رحلته وأصحاب القرار في الممالك الإسلامية بقناعاته يقدم مؤلف "أقوم المسالك" نماذج كثيرة من التاريخ الإسلامي ساهم فيها العدل السياسي في رقي الاقتصاد وغنى العامة، ومن ذلك القصص التي اقتبسها من تاريخ المقرئ الذي ذكر فيها قصة المرأة العجوز التي ساقطت للخليفة العباسي المأمون ثروة طائلة من الذهب تعجب السلطان منها، وقال: «ربما يعجز بيت مالنا عن مثل هذا» وكان رد المرأة أن ذلك كله "من طينة الأرض ثم من عدل أمير المؤمنين"، ومن الأمثلة أيضا ما ذكره عن «عظم خراج مصر زمن الخلفاء الراشدين الذي بلغ أربعة عشر مليون دينار؛ وقدرها بسكة الوقت سبعمائة مليون فرنك، وهذا دخل إيالة واحدة، وذلك كله من الإنصاف في الجباية»⁽²⁾ فنمو الاقتصاد وسعة الثروة اللذان عرفتهما الأمة الإسلامية فيما سبق ناشئ عن العدل.

إن إعجاب هؤلاء الرحالة بالنظم والمؤسسات الاقتصادية الأوروبية إنما هو دعوة لتبنيها والعمل بها؛ لأنه لا سبيل للوقوف في وجه سيل التمدن الأوروبي المتدفق إلا العمل بمثل ما عملوا، بهدف الخروج بالمجتمع العربي الإسلامي من مجتمع تقليدي متقادم مهدد بالانحيار والابتلاع من الغرب إلى مجتمع رأسمالي عصري أصيل، ورأوا النظام الرأسمالي أنه يؤدي للنمو وازدهار العمران، وخير الدين يؤكد أن دعواه لاقتباس النظم الأوروبية ومؤسساتها إنما يكون في حدود الشريعة الإسلامية و«الغرض من ذكر الوسائل التي أوصلت الممالك الأوروبية إلى ما هي عليه من المنعة والسلطة الدنيوية أن نتخير منها ما يكون بحالنا لائقا ولنصوص شريعتنا موافقا»⁽³⁾.

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص 1835.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 115.

(3) المصدر نفسه، ص 18.

ثانيا: دور الدولة في الاقتصاد

ومن صور وملامح الفكر الاقتصادي الذي وقف عندها الرحالة المغاربة هو الدور الذي تلعبه الدولة الأوروبية الحديثة في الاقتصاد، ولأن توجه الرحالة المغاربة كما ذكرنا سابقا كان نحو بلدان أوروبا الغربية التي شاع فيها النظام الرأسمالي، فإن أغلب ما سندرسه هنا هو ملامح تدخل الدولة الرأسمالية في الاقتصاد الأوروبي؛ فكان من أشكال تدخل الدولة في الاقتصاد بأوروبا هو توفير الخدمات الأساسية للمجتمع، إذ تقوم الدولة بتوفير الحد الأدنى من الخدمات لحفظ المجتمع وحمايته، سواء تعلق ذلك بتوفير الأمن والعدالة، وغالبا ما جاوز ذلك مجرد حفظ الأمن⁽¹⁾، الأمر الذي انتبه إليه الرحالة المغاربة، لذا كثيرا ما نجد في نصوصهم جملا تتكرر باستمرار تفيد أن الأمن والعدل بهما وصلت الأمم والممالك الأوروبية إلى ما هي عليه من غنى، وكل ذلك يتأتى كما يبين خير الدين من حسن التدبير والتراتب المحفوظة من أسباب حفظ الأموال والأنفس والثمرات⁽²⁾.

وشرح ابن أبي الضياف تدخل الدولة وإسهاماتها في تطور الاقتصاد في فرنسا وذلك من خلال شيوع الأمن والعدل، وتهئية البنية التحتية وخاصة الطرق لتسهيل انتقال السلع: «غير أن السالك في تلك الطريق يشاهد معنى العمران وصور التقدم في ميادين الحضارة، ونتيجة الأمن والأمان، لا تكاد تجد موضعا معطلا من نفع شجرة أو حرث أو كلاً مستتبت، يسقى جميعها بغيوث العدل وسيوله المفعمة يود السالك في تلك الطريق السهلة أن المسافة تطول...»⁽³⁾.

وذهب بيرم الخامس إلى ما ذهب إليه خير الدين في تفسيره لأسباب الثروة والغنى الأوروبي، ويرى أن «أساس ذلك الغنى هو الأمن الذي سوّغ للأهالي عقد الشركات بإظهار أموالهم وترويجها...»⁽⁴⁾، فالأمن الذي يحظى به الفلاح في أراضيه ناتج عن قوة القانون أو "حسن التربية" كما يصفه مؤلف "صفوة الاعتبار" ف: «لا يتجاسر أحد بالرعي ولا غيره في أرض ليست له...حتى أنه ليس لبساتينهم طوابي (أسوار) تمنع الداخل عندهم سرقة الغلال إلا نادرا»⁽⁵⁾.

فيما يربط ابن صيham نجاح وتطور الاقتصاد الفرنسي بالعامل السياسي والأمني، فيقول: «وأما أمر أهل فرانسة في الاعتناء بالغراسة والحراثة والنظافة والتشييد في البناء وتكثير التجارة والصنائع فهو دليل على صلاح رأيهم وامتثالهم

(1) حازم البيلوي، دور الدولة في الاقتصاد، دار الشروق، القاهرة، 1998، ص22.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 17-18.

(3) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج4، مصدر سابق، ص 98.

(4) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوني، مج5، مصدر سابق، ص 1985.

(5) المصدر نفسه، ص1836.

لأمرائهم، حتى اشتهر العدل في براريهم وبحارهم، وقد أخبرني بعض الأصدقاء وقال: لو اتفق لبعض النسوة السفر في البر أو في النهر راكبة أو راحلة تقطع المسافة من شرق البلاد إلى غربها من غير معارض ولا لص وإن امتلأت حقائبها ذهباً وياقوتاً، ولا يخطر ببال شخص تجريد الناس في الطريق، بل يعم الأمن والأمان والعافية والخصب جميع النواحي...»⁽¹⁾.

ولو أتينا لاستقراء الصورة نلاحظ استحضر ابن صيham وربطه الرفاهية الاقتصادية بعامل الأمن والعدل وطاعة ولي الأمر، وهي بلا شك صورة مميزة للواقع الاقتصادي في فرنسا، لكن هدف ابن صيham من نقل الصورة وربطها بهذا الشكل هو تمرير رسالة للجزائريين بأن الثورات والانتفاضات في الجزائر ضد فرنسا إنما هي ضد الرفاه الاقتصادي والأمن الاجتماعي، والملاحظ أن ابن صيham يخاطب أغلبية المجتمع الجزائري الذي كان يعتمد على الفلاحة لهذا ربط وركز على ذكر الغرسة والخصب والحراثة بالأمن.

ويظهر تدخل الدولة كذلك من خلال وضع الإطار القانوني الذي يسير القطاع الاقتصادي، وذلك عبر توفير تنظيمات وتشريعات معينة لتسيير هذا القطاع، فاكتشف الصفار أن ذلك يتم عبر مناقشة ميزانية الدولة عموماً وميزانية كل قطاع بشكل خاص في نهاية كل سنة وتحديد ميزانية السنة القادمة، وكل ذلك يناقش في البرلمان الفرنسي أو ما سماه الصفار بـ"القمريتين": «اعلم أن قوانينهم أن يجتمعوا كل سنة في القمريتين ويحدثون قوانين لم تكن أو يقرون ما كان موجوداً، ومن جملة ذلك أنهم يقدرون جبايات العام وما يصرف فيه من بيت مالهم بموافقة السلطان وأهل الرأي منهم، فقدروا ذلك في عامهم هذا على عادتهم، وذلك الذي يقدرونه في الداخل والخارج يكتب في كتاب ويبرز للناس وتطبع منه عدة كتب تباع وتشتري...»⁽²⁾، «...لأن أهل القمرة الصغيرة وهم وكلاء الرعية أول ما يتدوون به في القمرة أنهم يحاسبون الدولة على الداخل والخارج في العام الفارط...»⁽³⁾، وذلك في محاولة منه لإبراز العلاقة بين النظام السياسي والاقتصادي وتداخل كل منهما في الآخر.

على أن يتحمل الوزراء تسيير هذه الميزانية كل وزير في قطاعه، وكل قطاع يحدد مدخوله ومخرجه: «...ومن قوانينهم أن جعلوا ذلك الدخل يدخل بيد وزير الخزنة، أعني أمين بيت مالهم ويخرج على يد الوزراء جميعاً كل واحد وما يخرج على يده...»⁽⁴⁾، ولا يتدخل الملك أو السلطان إلا في الموافقة أو تقديم الاقتراحات: «...إذ من جملة

(1) سليمان بن صيham، مصدر سابق، ص 10.

(2) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 253.

(3) المصدر نفسه، ص 263.

(4) المصدر نفسه، ص 253.

شرائعهم وقوانينهم أن الملك لا يتعرض له، وأن الوزراء هم الكفلاء»⁽¹⁾، وقدم لنا الصفار نموذجا عن ميزانية فرنسا لسنة 1845 و1846م التي تم نشرها مفصلا أرقام كل وزارة⁽²⁾.

ويقارن الصفار بين التسيير الاقتصادي الأوروبي ونظيره المغربي فمن ذلك المركزية المغربية في التسيير المالي عبر بيت المال: «وليس لهم بيت مال يجمعون فيه المال كما عندنا، بل يقدرّون الداخل والخارج ويسوون بينهما أو يفضل الشيء اليسير...»⁽³⁾.

ومن أشكال تدخل الدولة؛ فرض الضرائب والأعباء العامة إذ أكد خير الدين على حق الدولة في الجباية المقررة، لكن هذا التصرف يجب أن يقوم على أساس عدم استبدالها في ذلك، ثم يشير بعد ذلك إلى مملكة إنجلترا، فأكد أن مسؤولية سن الأداءات مسؤولية مشتركة بين الدولة من جهة وبين البرلمان من جهة أخرى: «واعلم أن الدولة الإنجليزية بمقتضى قوانين المملكة لا تطلب من الأهالي أداء سنويا إلا المصاريف اللازمة لصالح الدولة...وتحت نظارة البرلمان الكبير...» وهو تعليق لا يخلو من تلميح، فكأنه يلح على ضرورة إعادة النظر في الإصلاحات التي أدت لاندلاع الثورة على الجباية في تونس سنة 1864م، ولكنه أدرك أن مأساة القرن التاسع عشر في تونس هي كامنة في السياسة الجبائية الجائرة التي أدت إلى العصيان والتمرد في وجه الدولة⁽⁴⁾.

وهو الأمر الذي أكد عليه ابن أبي الضياف وهو يصف حال الفرنسيين الذين كانوا يتقبلون ضرائب الدولة دون ردة فعل رافض منهم، الأمر الذي تعجب منه صاحب الإتحاف، قبل أن ينظر ويستدرك أنما ذلك كله من عدل وإنصاف الدولة؛ إذ لا أحد هناك يرى أن فرض هذه الضرائب هو من باب الاستبداد أو الاضطهاد، لذا جاء قوله أنه في فرنسا: «...لا تكاد تسمع صوت متظلم إلا نفسه وهذا من أعجب ما يُسمع مع كثرة المغارم والمكوس، وسر ذلك أنها غير محففة، وأهلها يعرفون مقاديرها في مصالحهم على اختلاف أنواعها»⁽⁵⁾.

ومن خلال هذه الصور يظهر أن الأفكار الاقتصادية في أوروبا الغربية خلال النصف الثاني القرن كانت تبنى على أساس ترك النشاط الاقتصادي للأفراد دون تدخل من الدولة، مع اقتصار دور الدولة في جباية الضرائب بما يمكنها من تغطية وظائفها التقليدية، وقد ترتب على ذلك أن وظيفة الدولة هو القيام بأعمال الأمن والحماية والعدالة والدفاع مع إمكانية إقامة بعض المرافق العامة، أي أن تكون حارسة للنشاط الاقتصادي.

(1) المصدر نفسه، ص 255-256.

(2) المصدر نفسه، ص. 260-256.

(3) رحلة الصفار، ص 263.

(4) عبد القادر دوحه، مرجع سابق، ص154.

(5) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج4، مصدر سابق، ص 98.

ثالثا: اكتشاف الرحالة المغاربة المؤسسات المالية والاقتصادية الأوروبية الحديثة

قدم الرحالة المغاربة خاصة التونسيين منهم عرضا للنظم الاقتصادية الأوروبية الرأسمالية، واعتبروا أنها تؤدي لنمو الثروة وازدهار الاقتصاد، عرضا يبدو مجردا من التعليق في بعض الأحيان وحاملا للإعجاب بها أحيانا والتساؤل عن إمكانية تطبيقها لدى المسلمين أحيانا أخرى، وتمثلت هذه النظم في:

- تأسيس الشركات الجمعية أو المساهمة: والمطالع لما ذكره خير الدين في "أقوم المسالك" يلاحظ أن المؤلف متعلق بوصف المؤسسات الاقتصادية الأوروبية حريضا على نص كل ما تعلق بها، معجبا بالدور الذي لعبه إنشاء الشركات أو الجمعيات كما يطلق عليها في نمو الاقتصاد الأوروبي واتساع ثرواتهم، فبالجمعيات تتسع دوائر رؤوس الأموال فتأتي الأرباح على قدرها وبواسطتها تنمو الأموال⁽¹⁾.

والتي رأى فيها بيرم الخامس سببا في توسيع التجارة الأوروبية: «والذي وسع تجارتهم هو عقد الشركات، فأحوال الواحد لا تكفي لمزيد الاتساع في التجارة، ولذلك يعقدون شركات ذات أسهم عديدة، ويقضون للمباشرة بعضا منهم ممن يأتمنونه، وتكون لشركاتهم فروع في الأقطار التي يواصلون معها تجارتهم»⁽²⁾.

ولأن خير الدين كان يوجه خطابه للمسؤولين في الدول الإسلامية وبغية حثهم على اتباع هذه النظم الرأسمالية الأوروبية، أكد أن الفوائد المالية المرتجاة من إنشاء الشركات لا تعود على الأفراد فقط بل يؤكد أن للدولة ربحا معلوما إذا كان ربحها محددًا بنسب مئوية متفق عليها من أي نشاط تمارسه أي شركة⁽³⁾.

فلاحظ تحمسا واضحا من قبل خير الدين لهذه الشركات التي اعتبرها عاملا فاعلا في تطوير المجتمع الصناعي الأوروبي، فبفضل هذه الشركات: «تكرر التعاون على استخراج المعادن واصطناع الخلع ومجاري المياه التي تصعد بها السفن إلى الجبال ثم تنزل، وطرق الحديد إلى غير ذلك من المهمات التي لم تكن تحدث لولا وجود تلك الجمعيات»⁽⁴⁾.

- البنوك والمصارف والبورصة: وحسب الصورة التي أراد بيرم الخامس إيصالها أن هذه المؤسسات المالية والاقتصادية كان لها دور مهم في دعم التجار والشركات عن طريق القروض التي تقدمها: «ثم إذا لم توف أموال الأفراد أو الشركات للمقصود من التجارة تراهم يقرضون من ديار الصيارفة وهؤلاء الصيارفة ذوو الأموال إما أن تكون

(1) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق ص 119.

(2) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص 1828.

(3) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق ص 121.

(4) المصدر نفسه، ص 120-121.

لواحد أو لعائلة أو للعموم، بأن يكون كل من له شيء من المال ولا يريد التعب في ترويجه والربح منه لعجز أو غيره فإنه يدفع ماله لإحدى ديار الصرافين المسماة عندهم بالبنوك ويأخذ منها حجة في مقدار ما دفع وتاريخه ويأخذه على الربا»، وفصل بيرم الخامس في المعاملات التي تتم بين البنوك والمتعاملين معها من التجار والقوانين الضابطة لها، ومن خلال هذه المعاملات التي تمنحها المصارف والبنوك للتجار «تجد التجارة رائجة بين أيدي السكان بأكثر من أضعاف كسبهم وأهم الوسائط لتزيدها الحوالات المالية...»⁽¹⁾.

فكان من أسباب رواج التجارة وغنى الممالك الأوروبية وكثرة ثروتها تغيير المعاملات النقدية الخاصة بالعملة حيث حلت الأوراق النقدية مكان السكة التقليدية خاصة لدى البنوك والصرافين لتشجيع بعدها عند غيرهم: «وهذه الأوراق لها اعتبار أحسن من السكة لخفة مؤنتها، فتزيد في الصرف نصف في الألف، وتروج في سائر الأقطار مرغوبا فيها لدى الصرافين»⁽²⁾.

ويتوقف الصغار عند العملة والنقود في أوروبا وفرنسا: «ومن جملة استنباطاتهم في كثير الأحوال أنهم استحدثوا كواغيد تطبع بطابع مخصوص من عند السلطان، مع كتابة الحاصل فيها نقش وكتابة، وجعلوها بمنزلة سكة الدراهم والدنانير، فمنها ورقة ألف وأخرى بخمسائة وأقل وأكثر... وتروج عندهم هذه الكواغيد كما تروج السكة، وقد يرغب فيها أكثر من السكة خصوصا المسافرين لخفة حملها ورواجها في كل مكان في سلطنتهم...»⁽³⁾، ويبدو أن الصغار يعود مرة أخرى للمقارنة غير المباشرة عن العملات والنقود المغربية، ويظهر إعجابه بالأوراق النقدية في أوروبا لسهولة حملها والتعامل بها.

وكل ما اكتشفه السنوسي من تراتيب العملة والنقود جعله يقيم مقارنة للوضع الذي كانت عليه أمور العملة في البلاد التونسية عصرئذ، فمدح التراتيب القاضية بصيانة النقود من الغش، وفي هذا الصدد قال: «ولقد أخذت معي في هذا السفر عددا من نقود الفضة والفرنكات، فلما صرت لنابولي ورأيت أوراق العملة الخفيفة الحمل المقبولة في جميع الأسواق بقيمتها، أردت استبدال الفضة بالأوراق فلم يمكن ذلك إلا بإعطاء صرف قدره اثنان في المئة، أما الذهب فإنه والأوراق سواء تستبدل أيهما تشاء بقيمته من الآخر من غير صرف، وأين هذا من تجار الدولة في غش النقود لتحصل على ربح يضيق بسببه على الأهالي في كل يوم أضعافه المضاعفة»⁽⁴⁾.

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوني، مج5، مصدر سابق، ص 1829.

(2) المصدر نفسه، ص 1985.

(3) محمد الصغار، مصدر سابق، ص 264.

(4) محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، ج1، مصدر سابق، ص13.

ورأى بيرم الخامس من خلال اطلاعه عن مصادر الثروة في أوروبا أن البورصة "من أسباب الثروة واتساعها"، مقدما تعريفا شاملا ودقيقا لهذا التنظيم المالي الأوروبي: «هي محل ضخم للمناداة على المتاجر العالية يسمى بورسي، يفتح بضع ساعات عند الزوال، إذا دخله الإنسان يجده محبكا بالخلق والضجيج بأصوات السماسرة ينادون على أوراق ديون الدول وأوراق الشركات التجارية الكبيرة ذات الحصص كطرق الحديد وخليج السويس... وهذا النوع لا يحكم به الحاكم عندهم، لأنه يراه من المقامرة لكنه لا يمنع منه، فالمفلس يفلس نفسه بغير حكم لكي لا يسقط اعتباره رجاء أن يربح مرة أخرى بمعاملة التجار إليه...»⁽¹⁾.

ونظرا لطبيعة تكوين الرحالة المغاربة الديني، فقد نظروا إلى هذه المؤسسات والمعاملات الاقتصادية الأوروبية نظرة فقهية، فعكس خير الدين الذي بقيت نظرتة للواقع الاقتصادي الأوروبي في الغالب نظرة مادية، فإن بيرم الخامس لم يغفل الإشارة إلى موقفه الفقهي الإسلامي من المعاملات البنكية في أوروبا إذ اعتبر الزيادات الناتجة عن القروض التي تمنحها المصارف "ربا"⁽²⁾.

وكذلك الشأن عند المغربي الصفار الذي وقف عند المؤسسات الاقتصادية الأوروبية ممثلة في البنوك، وبيّن أهميتها في التعامل الاقتصادي المالي في أوروبا "فهو من أعظم مكاسبهم"، إلا أنه يظهر فيها وجهة نظر فقهية معتبرا إياها بنوك تقوم على الربا لأن: «غالب تجارتهم ومكاسبهم تقوم على الربا ومنهم البنكة... يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون»⁽³⁾.

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص 1829-1830.

(2) المصدر نفسه، ص 1828-1829.

(3) محمد الصفار، مصدر سابق، ص 264.

رابعاً: دعائم ومقومات الاقتصاد الأوروبي الحديث

بالإضافة إلى ما سبق، بحث الرحالون المغاربة وهم في أوروبا عن الدعائم الأخرى التي قام عليها الاقتصاد هناك، وجعل من الممالك والأفراد والشركات الأوروبية من الغنى والثروة ما أذهلت كل من يشاهدها أو يسمع بها ويعتبر التونسي بيرم الخامس من بين الرحالة المغاربة الأكثر تفصيلاً وإدراكاً لأسس الاقتصاد الأوروبي.

- **في طبيعة الفرد الأوروبي النشيط:** وانطلق بيرم الخامس في التأكيد عن طبيعة المجتمع الأوروبي وأفراده المجدين في العمل الماهرين فيه: «الطليانيون لهم مهارة في التجارة كغيرهم من أهالي أوروبا فرادى ومجتمعين»⁽¹⁾، أما الفرنسيون «لهم براعة تامة في إدارة الأشغال»⁽²⁾، في حين تميز الانجليز بـ: «الإقبال على الشغل والجد فيه»⁽³⁾، فبعيدا عن بقية أسس الاقتصاد الأوروبي والثروة الأوروبية الهائلة، فقد كان الإنسان وذهنيته أول أساس محرك لهذا القطاع.

ويبدو الصفار كذلك معجبا بطبيعة الفرد الأوروبي اقتصاديا، والتي ساعدت في تحسين الحالة الاقتصادية لأوروبا، فالكاتب المغربي أعجب بالإنسان الأوروبي العامل النشيط وما حققه من زخم مالي كبير: «...ولا يستغرب وجود هذا المال عندهم، فإن ما لهم كثير لحرصهم على التكسب وجمع المال، ولا اهتمام لهم إلا به...»⁽⁴⁾، وهو ربما يشير إلى نقيض ذلك في الفرد المغربي.

ونظر الجزائري ابن علي الشريف إلى نمو ثروة الفرنسيين وأقر أن ذلك كله يعود للفرد الفرنسي النشيط الجاد في العمل غير المتكاسل فيه، في صورة استحضّر فيها طبيعة الفرد الجزائري المعاكسة تماما لما رآه في باريس لذا جاء قوله: «...ولا يهتمون أشغالهم بالكلية، فإنهم لا يعملون ولا يكسبون من أشغالهم المتردفة، غنيهم وفقيرهم، صغيرهم وكبيرهم، ذكورهم وإناثهم، لا يفترون عن الخدمة ما أمكن، وذلك هو الحق الواجب، فانظر كسلنا وعجزنا، فلذلك أغلب الناس عند المسلمين فقراء وأكثرهم همل، وعلى كل حال إن الكسل وكثرة النوم يبعدان من الله ويورثان الفقر...»⁽⁵⁾.

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص1827.

(2) المصدر نفسه، ص1984.

(3) المصدر نفسه، ص2122.

(4) سليمان بن صيام، مصدر سابق، ص02.

(5) ابن علي الشريف، مصدر سابق، ص54.

بينما توقف ابن أبي الضياف لما رأى والوفد التونسي المرافق له عند آثار الثروة والعمران في ميناء مارسيليا بفرنسا، ليكشف أن كل ذلك تحقق للفرنسيين لتوجههم نحو التجارة كيف لا و"المتجر يقطع سلاسل الفقر" لذا ترى أفراد المجتمع الفرنسي مشغولون بأعمالهم لا يوجد فيهم العاطل عنه حتى: «لا تكاد ترى واحدا بغير شغل»⁽¹⁾ فالأوروبيون بذلك قطعوا سلاسل الفقر بجدهم واجتهادهم في العمل وعدم التكاسل فيه، كما نوه ابن أبي الضياف حرص الفرنسيين والباريسيين على العمل: «...يقودهم الأمل ويسوقهم الحرص على العمل...»⁽²⁾.

رقى المعارف والعلوم: حيث اعتبرها رحالتنا المغاربة أساس من الأسس التي دفعت لتطور وازدهار الاقتصاد الأوروبي كما بين ذلك خير الدين التونسي⁽³⁾، وربط بيرم الخامس التطور الصناعي الذي وصلت إليه أوروبا بالتفوق في العلوم والمعارف، فكلما ازدادت الدولة رقيا في المعارف ازداد تطورها الصناعي، فمثلا: «الصنائع في فرنسا مضاهية لما فيها من المعارف»⁽⁴⁾، وما ارتقاء ثروتهم وغناهم المالي إلا نتيجة لتقدم العلوم في أوروبا: «وما تقدم من إجمال ثروتهم دال على حالة المعارف عندهم»⁽⁵⁾، وما الفوارق بين الدول الأوروبية في الصناعات إلا تأكيدا على ذلك⁽⁶⁾.

انتشار الصحف والجرائد: ولاحظ بيرم الخامس الدور الذي تلعبه الصحافة في التعريف بالصناعات واعتبر أنها عنصر أساسي في رواج التجارة الأوروبية: «ويعانون كيفية التجارة بانتشار الصحف وأسعارها وكيفية إيصالها بواسطة الصحف الخيرية وبأوراق وكتب يودعونها مجانا ويرسلون الرسل لاكتشاف تجارات البلدان والأقطار وإن بعدت ويشهرون بها تجارتهم»⁽⁷⁾.

المعارض الاقتصادية: كانت المعارض الاقتصادية من بين أهم الممارسات الترويجية الاقتصادية التي انتشرت في أوروبا، وقد جمعت هذه المعارض كل عجيبة وغريبة من اختراعات وآثار ومنتجات وغيرها، ونقل الجزائري ولد قادي صورة على معرض باريس الذي كان من محاور رحلته. وبين أهميته الاقتصادية من خلال الأعداد الهائلة من الناس التي كانت تزوره، وتأثير ذلك على الاقتصاد والتجارة: «...إن هذا المعرض المبارك، ينبينا بلسان الحال عن زمن الراحة والخوض في ازدياد التجارة والفلاحة...»⁽⁸⁾.

(1) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج4، مصدر سابق، ص 110.

(2) المصدر نفسه، ص 99.

(3) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 16.

(4) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج5، مصدر سابق، ص 1996.

(5) المصدر نفسه، ص 2129.

(6) المصدر نفسه، ص 1837.

(7) المصدر نفسه، ص 1828.

(8) أحمد ولد قادي، ص 23.

- **تطور الطرق ووسائل النقل:** ويرى فيها بيرم الخامس أحد أهم أسباب الثروة واتساع التجارة: «وتسهيل الطرق لنقل البضائع بأجرة يسيرة وزمن قليل، وكانت الطرق الحديدية أنفع الطرق لذلك»⁽¹⁾، وكان خير الدين قد اعتبر إنشاء الطرق عامل مؤثر وأساسي في استجلاب خيرات ومنتجات البلاد القاصية قصد الانتفاع بها بعد أن كان جلبها متعذرا لسوء الطريق أو غلاء كرائها⁽²⁾.

كما اعتبر بيرم الخامس أن تطور وسائل النقل البحرية، كان له دور في تسريع وصول السلع والبريد وكانت البواخر البحرية تسيروها شركات التجارة، فكان أبرز ما ميز وسائل النقل هذه إضافة إلى سرعتها في نقل البريد والبضائع هو انضباطها الذي تسيّر عليه حيث: «تقلع البواخر في أوقات معينة وتصل إلى أماكنها في أوقات معينة من غير تقادم ولا تأخير» ويبدو الرحالة التونسي واعيا بالتأثير الذي صارت تلعبه وسائل النقل هذه على التجار: «وإذا تأخرت الباخرة عن ميعادها فلا بد أن تبين بحجة السبب الاضطرابي الذي حملها على التأخير، وإلا فتخسر شركتها أموالا بليغة ضمانا على التأخير»⁽³⁾.

البريد والاتصالات: ومن أنفع وسائل التجارة ورواجها واتساع العمران؛ انتظام البريد، سواء بشكله التقليدي أو المستحدث؛ أما التقليدي فقد جعلت الدول الأوروبية أماكن في سائر المدن والقرى لجعل المكاتب في محل منها، أما المستحدث فتمثل في تقنية التلغراف، فبينما توجه بقية الرحالة المغاربة للدهشة والإعجاب بهذا الاختراع من حيث هو تقنية غريبة عنهم، فإن بيرم الخامس راح يدرس الانعكاسات الاقتصادية لوجود اختراع مماثل، لأنه: «من وسائط رواج التجارة وورود الأخبار بالأسلاك الكهربائية، فأصحاب الشركات يخبرون أصحابهم كل حين بما يروج عندهم في الأقطار المختلفة وما يكسد من البضائع، فيكونون على بصيرة، وأعظم ما يكون ذلك في متاجر محلات البورسي (البورصة)، فترى الأخبار تتساقط عليها كال مطر، وبذلك ترفع أسعار أوراق الديون وغيرها وتنحط، وأعظم ما يؤثر في ذلك الأخبار السياسية سيما الواردة من قواعد الممالك السبع الكبيرة»⁽⁴⁾.

إذ أدرك الشيخ بيرم الخامس العلاقة الوطيدة التي تربط بين الاقتصاد والسياسة في البلاد الأوروبية إذ أن خسائر التجارة أو أرباحها مرتبط رأسا بالاستقرار السياسي خاصة في الدول الكبرى.

ومن المآخذ التي أخذها بيرم الخامس على انعكاسات استعمال التلغراف وسرعة انتشار الأخبار على القطاع الاقتصادي: «وقد اتخذ التجار الأخبار السياسية ملعبة للأرباح حتى صاروا يختلقون أحيانا أراجيف سياسية تارة

(1) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوني، مج5، مصدر سابق، ص 1832.

(2) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 119.

(3) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوني، مج5، مصدر سابق، ص 1832.

(4) المصدر نفسه، ص 1833.

بالصريح، وتارة بالتلويح، وتتلقفها منهم صحف الأخبار وينشأ عنها أرباح أو خسائر مبنية على أوهام، ولذلك يرى بعضهم أن سهولة قرب الأخبار ونقل البضائع مضر بأرباح التجارة، وأن الأرباح انحطت عما كانت عليه في القدم» ويبدو بيرم الخامس موافقا لهذا الرأي: «وهو الصواب بالنظر لهيئة التجارة القديمة»، فيبرم الخامس يرى أن هذا التطور التكنولوجي ساهم كثيرا في تغيير مفاهيم وقوانين التجارة في أوروبا فالرحالة التونسي يقر فعلا بالقفزة النوعية التي أحدثتها هذه التطورات في مجال التجارة.

ورغم هذا المآخذ الذي أخذه، فإن كاتب "الصفوة" يستعرض الطفرة التي أحدثتها وسائل النقل المتطورة وإنشاء الطرق، واستعمال وسائل البريد الحديثة على الواقع التجاري في أوروبا والأرباح الطائلة التي صارت تدر منها، وقد أعطى في ذلك مثالا قارن فيه بين واقع التجارة قبل وبعد استعمال هذه الوسائل قائلا: «...لكن في نفس الأمر قد ازدادت كمية التجارة، وذلك أن التاجر ذا البضاعة من الصوف مثلا كانت لا تأتيه سفينة شراعية بما ألف قنطار من الصوف والمكاتب المحملة بالأسعار إلا بعد عدة أشهر، فيبني عليها عمل تجارته ويشتهر عليها، ولا يبيع تلك الألف قنطار إلا بعد عدة أشهر، فيربح فيها في السنة عشرين في المئة إذا ساعده البخت، والآن صار يأتيه في كل أسبوع نحو ذلك القدر مثلا، وتأتيه الأخبار كما تأتي غيره، فيبيع صوفه بربح عشرة في المائة فقط في الشهر، ثم الشهر الذي بعده كذلك وهكذا، فعوضا عن كونه كان يدير رأس ماله مرة في السنة ويربح فيه عشرين في المائة صار يديره اثنتي عشر مرة يربح فيها أزيد من الضعف...»⁽¹⁾.

وبالإجمال فإن انتظام البريد برا وبحرا ومواصلة الطرق الحديدية والصناعية مع عجالات حمل الأثقال المختلفة الأشكال مع المتانة والحسن زادت التجارة رواجاً، بحيث أن السلع وغيرها لا تحمل إلا على العجلات... وسفن البريد تصل إلى أقصى المشرق والمغرب⁽²⁾.

الحركة الاستعمارية: ومن خلال اطلاع الرحالة المغاربة على بعض خبايا السياسات الأوروبية رأوا أن التجارة الخارجية جعلت دول أوروبا تحتل عددا من بلدان أفريقيا وآسيا، وإن أعجب خير الدين التونسي بالأرباح الطائلة للشركات الأوروبية من هذه البلاد المحتلة؛ جعله يغفل عن أضرار الاستعمار⁽³⁾، لذا نجد يصف بإعجاب ما يمكن أن يحققه إنشاء الشركات التساهمية من ثروة ضاربا مثالا عن شركة الهند الشرقية الإنجليزية: «فإن دولة إنكلترا تملك بجمعية من تجارها تسمى كومابنية الهند مسافة ثلاثة ملايين ألف كيلومتر مربع»⁽⁴⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 1834.

(2) المصدر نفسه، ص 1985.

(3) نازك سابا يارد، مرجع سابق، ص 87.

(4) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، مصدر سابق، ص 122.

ويبدو أن نظرة خير الدين وإعجابه بالنظام الاقتصادي كان أساسه ومنطلقه نظرة للغرب المتحضر لا الغرب المستعمر، فخير الدين كان مدركا لمخاطر التوسع الاقتصادي الأوروبي في تونس: «إن التمدن الأوروبي تدفق سيله في الأرض فلا يعارضه شيء إلا استأصلته قوة تياره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار، إلا إذا حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية، فيمكن نجاتهم من الغرق»⁽¹⁾، حتى أن تنازله عن الوزارة الكبرى في تونس كان تعبيرا عن رفضه منح امتيازات خاصة لفرنسا، كما رفض خطة الاقتراض من الدول الأوروبية التي كانت مصرة عليها بعض الشخصيات في الحكومة التونسية (الباي والوزير مصطفى خزندار) وفي ذلك يقول: «الأفضل أن ندفع غالبا ثمن اقتراض نفترضه في بلدنا ونحافظ بذلك على حريتنا من أن نربح بعض الفوائد المادية على حساب استقلالنا»⁽²⁾، فخير الدين كان واعيا بخطورة تطبيق السياسة الاقتصادية التي أدت لأزمة مالية في تونس ممهدة لاحتلال فرنسي مخيم على البلاد.

ونعتقد أن السبب في رؤية خير الدين هذه هو اعتباره أن خطر أوروبا على بقية البلدان كان خطرا سياسيا بالدرجة الأولى، ولم ينتبه إلى ما وراءه من دوافع اقتصادية كانت أساسا لهذا الخطر⁽³⁾.

وفي دراسته لظاهرة الاستعمار الأوروبية وتفصيله في اتساع المستعمرات الإنجليزية في القرن التاسع عشر يلاحظ التونسي بيرم الخامس أن أهم دافع لهذه الظاهرة هو اقتصادي فلما أحست هذه الدول بعظم اقتصادها وكثرة منتوجاتها وغناها المادي، الأمر الذي ضاعف قوتها الحربية والعسكرية ما جعلها تبحث عن أسواق تروج فيها بضائعها، وقد أجاب بيرم عن التساؤلات المطروحة حول الفوائد التي يمكن للبلدان الاستعمارية أن تجنيها من خلال توسعاتها، فكانت إجابته: «أن فائدتهم عظيمة من وجوده؛ أولها: وهو الأهم رواج التجارة الإنجليزية، فإن مائتي مليون من الخلق لا يجولون إلا في السلع والبضائع الإنجليزية له من الأهمية ما لا يخفى...»

ومما ساعد في رواج التجارة الإنجليزية مثلا في مستعمراتها إسقاط الرسوم الجمركية على بضائعها في البلاد المستعمرة وبذلك: «لن تبور لهم بضاعة ولا تقفل لهم معامل؛ فما ينتجه ثلاثون مليوناً من الإنجليز من الصنائع يكونون مطمئنين على رواجه في مستعمراتهم... وكفى بذلك غنى للأمة الإنجليزية»، وضرب مثالا عن المداخل المعتمدة التي تجنيها التجارة الإنجليزية في الهند⁽⁴⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 74.

(2) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 5، مصدر سابق، ص 96.

(3) نازك سابا يارد، مرجع سابق، ص 88.

(4) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج 5، مصدر سابق، ص 2109.

وتأكيدا على الأهداف الاقتصادية الدافعة للحركة الاستعمارية الأوروبية، يورد بيرم تلك النقاشات التي كانت دائرة بين الأوساط السياسية الفرنسية بين مؤيد ومعرض بتوجه فرنسا للسيطرة على تونس ومن بين الاتهامات التي وجهها معارضي هذا التوسع أن الغرض الأساسي كان اقتصاديا تجاريا، يقول: «حتى اتهمهم مضاديههم (معارضيههم) من نفس الفرنسيين بأن لهم في ذلك أرباح ذاتية من التجارة في الرقاع الدولية، وموهوا على العامة بالانتصار لحفظ ناموس فرنسا، فبعد ذلك صعب على الدولة إهمال سعيها على ما خسرت من الأموال المتجاوزة مائة مليون ومن الرجال الذين ماتوا بالحرب وبالأفراض»⁽¹⁾.

ومهما يكن فقد انتبه بيرم الخامس ما لم ينتبه إليه ابن بلده خير الدين، وذلك لما لمس الدوافع الاقتصادية التي تحرك الاستعمار الأوروبي، وربما يرجع هذا التباين في الرؤية والوعي بالآخر والذات إلى زمن كتابة كل رحالة لكتابه وسياقاته؛ فخير الدين كتب "أقوم المسالك" قبل دخول تونس تحت الحماية الفرنسية، لذا كانت مطالبه باستحداث تنظيمات سياسية على الطريقة الأوروبية للوقوف في وجه "سيل أوروبا المتدفق" عكس بيرم الخامس الذي كتب ما كتب بعد الحماية الفرنسية لتونس واعتبر هذا التوسع السياسي تدفقه دوافع اقتصادية، لذا نقول أن السياقات التاريخية المحيطة بالرحلة كثيرا ما أدت إلى إدراك تلك الصور والواقع أو تغييبها والغفلة عنها.

ويخرج بيرم في الأخير من خلال مشاهداته واطلاعه على أسس التجارة الأوروبية، بنتيجة أكد فيها ارتباط القطاعات الاقتصادية المختلفة فلا يمكن فصل قطاع عن آخر، فالقطاع التجاري والحركية التجارية الهائلة ومواردها المالية الضخمة لم تكن لتوجد لولا ارتباطها بتطور طرق ووسائل النقل والقطاع الصناعي، وانتشار المصانع "البخارية" والتي بدورها أدت إلى كثرة الإنتاج لمختلف المواد، وبالتالي كثرت المنتجات وقل ثمنها وتوفرت لعدد كبير من سكان أوروبا: «وكذلك كثرت سكان الممالك المتعدنة وكثر المتمدنون وكثر اتساع التجارة وإيصال البضائع إلى الأقطار الشاسعة التي لم تكن تصل إليها قبل، فارتبطت الأشياء بعضها ببعض واتسعت التجارة وازدادت الأرباح على نحو ما ذكرناه...»⁽²⁾، فبيرم الخامس أدرك أن المدنية والتمدن يحتاجان إلى أساس اقتصادي مرتبطة عناصره ببعضها بعض.

ويسنده ابن أبي الضياف في رأيه وهو يشرح لقرائه الأسس التي أدت إلى عظم الثروة والاقتصاد الأوروبي قائلا: «وانظر حال الإفرنج الذين بلغ العمران في بلادهم إلى غاية يكاد السامع أن لا يصدق بها إلا بعد المشاهدة» مؤكدا أن ما أوصل الأوروبيين إلى ذلك هو تفكيرهم العقلاني الذي تدرج من المهم إلى الأهم فالأوروبيين حسب اهتمامهم بالأمور الضرورية ثم الأمور التي تشتت الحاجة إليها ثم بعد ذلك تأتي الأمور التحسينية: «فلا أضر بالعمران وأدعى لأسباب الخراب من تقدم الأمر التحسيني على الواجب الضروري»، كما تدرجوا في أسباب الرقي الاقتصادي، ويشير

(1) المصدر نفسه، ص 127.

(2) المصدر نفسه، ص 1834.

مؤلف الإتحاف أن ما وصل إليه الأوروبيون هو نتيجة تراكم وتطور وترابط بين الثروة ووسائل الإنتاج والأسواق: « تدرجوا في أسبابه تدرجا معقولا، فإنهم أسسوا قوانين عدل حتى استقر الأمن وذاقوا لذته وتفيئوا ظلاله، فأقبلوا على شئوهم واشتغلوا بما يوسع دائرة عيشهم وثروتهم، فقوي الأمل واستقام العمل، فدعتهم الحاجة إلى كثرته فجعلوا المعامل لآلات الغزل والنسج ولين الحديد، حتى أنهم تصرفوا فيه تصرف النجار في لين أحشابه، وغير ذلك مما تتوفر الدواعي على الاحتياج له، فكثر المصنوع فاحتاج إلى نفاقه بالبيع والشراء خارج بلدانهم وأعون شيء على ذلك الخلطة فسهلوا طرقها في البحر بالسفن البخارية وفي البر بأمن السبل وتمهيد الطرقات حتى صارت العجلات تصل إلى موضع وتسير في قنن الجبال سيرها في البسائط...وجعلوا البريد لحمل مكاتيب الخلطاء تسهila لأسباب الخلطة، ولما أفعمت عندهم سيول العمران والحضارة جعلوا طرق الحديد تطير به العجلات بالبخار حتى كادت تصير بلدانهم واحدة، واقتضت نهاية الحضارة نقل الأخبار بالتلغراف...وكان فعلهم ابتغاء للريح من الأجر على نقل الخبر وهم يرحلون منه الآن الريح الذريع...»⁽¹⁾.

كانت هذه إذن نظرة عامة عن نتائج بحث الرحالة المغاربة في قوة الاقتصاد الأوروبي، وهي نظرة تحمل كثيرا من الإعجاب في صورة يظهر فيها الاقتصاد الأوروبي عبارة عن ترابط مجموعة من المؤسسات والقيم والأفكار والبرامج التي سهلت على الأوروبي طرق الثروة وأسباب الغنى وهي الأمور التي يفتقدها الاقتصاد المغربي، لذا كان نقل هؤلاء الرحالة لهذه الصورة مختلف الأهداف بين الرحالة التونسيين الذين استهدفوا النظر لهذا القطاع بقصد الخروج بأفكار سليمة لبرامجهم الإصلاحية خاصة وأن هؤلاء الرحالة كانوا رجال دولة، أما الرحالة الجزائريين فتواصل توجههم لتمجيد الفرد الفرنسي ودولتهم وهذه المرة في القطاع الاقتصادي، وإن كنا لا ننفي إعجابهم وتعجبهم كبقية الرحالة المغاربة من ثروة وغنى أوروبي واقفين عند أسبابه، أما رحالة المغرب الأقصى فامتزجت دوافع رؤيتهم للواقع الاقتصادي الأوروبي بين المشاهد المتعجب وبين تنوير رجال الدولة في المغرب لاكتشاف أسباب القوة الاقتصادية الأوروبية والعمل بها خاصة وأن المغرب كان يمر كما تونس في القرن التاسع عشر بأزمات اقتصادية كبيرة هددت استقلال البلاد.

(1) أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف عهد الزمان، ج 1، مصدر سابق، ص 77-78.

خاتمة

خاتمة:

إن أهم الاستنتاجات التي يمكن أن يخرج بها الباحث بعد دراسته مضامين الرحلات المغاربية وتمثالاتها عن أوروبا والآخر الأوروبي؛ أن أوروبا ظلت مغيبة بعيدة عن الاهتمام المغاربي طيلة العصر الحديث وصولاً إلى القرن 19م، وهذا الغياب من الناحية الثقافية تحكمت فيه مجموعة من العوامل من بينها وضع العداء بين الطرفين المغاربي والأوروبي الذي منع الرحلة إلى أوروبا، بالإضافة إلى عامل نفسي وحضاري، إذ كان المسلمون ينظرون إلى الآخر الأوروبي نظرة تفوق واستعلاء وأنهم أقوى على كافة المستويات وأنه لا يوجد في أوروبا ما يستحق الكتابة عنها ولا النظر إليها.

- لعبت السياقات التاريخية دوراً مهماً لتوجه المغاربة لقطع البحر المتوسط وزيارة أوروبا، فإن كان اشتداد الصراع بين العالمين الإسلامي والصليبي خاصة بعد سقوط الأندلس وتوجه قوى ضفتي المتوسط إلى المواجهة خاصة مع بروز قوى جديدة على الساحة ممثلة في إسبانيا والدولة العثمانية التي مثلت الإيالات المغاربية أحد أهم أجنحتها العسكرية في المواجهة، كلها أسباب ساهمت بلا شك في تغييب أوروبا من الناحية الثقافية في الكتابات المغاربية.

- توجهت إلى أوروبا طيلة العصر الحديث عديد الرحلات المغاربية من سفراء وتجار وتواجد كثير من الأسرى، لكن الملفت أننا لا نقف إلا على حوالي 17 رحلة مغاربية توزعت على ثلاثة قرون من الزمن، والملاحظ أيضاً أنه على امتداد ثلاثة قرون؛ القرن 16 و 17 و 18م فإننا لا نقف إلا على خمس نصوص رحلية كتبت عن أوروبا، فبينما يغيب أي نص طيلة القرن 16م، نكتفي بنصين في القرن الذي تلاه الأول في مطلع القرن الثاني في ختامه، وفي القرن الثامن عشر ورغم الانفتاح الذي عرفه المغرب مع أوروبا إلا أن ما دُون لا يتجاوز ثلاثة نصوص دونها سفيرين مغربيين، لتغيب عنا الكتابات الرحلية عن أوروبا مدة تجاوزت نصف قرن من الزمن، وما إن شارف القرن 19 على انتصافه حتى شهدنا تهاافتاً كبيراً من سياسي ومثقفي المغرب للكتابة عن أوروبا خاصة بعد أن أصبح الأوروبيين قريين منهم بل وفي ديارهم بل ونموذجاً يجب التطلع إليه.

- إن اختلاف التكوين الشخصي لكل رحالة ساهم بلا شك في اختلاف الصورة المعبر عنها في كل رحلة من الرحلات لأن كل واحد من الذين دونوا رحلاتهم نظر بعينه والتي تختلف بلا شك عن نظرة البقية، كما أن المنطلقات والسياقات التي حركت هؤلاء الرحالة تختلف أيضاً.

- يمكن تتابع عديد الرحلات المغاربية على أوروبا على امتداد ثلاثة قرون متتالية من تتبع الصورة التي أنتجتها المصادر المغاربية حول الآخر الأوروبي وتطورها، صورة ساهمت في تشكيلها كثير من السياقات التاريخية صورة كانت متحركة غير ثابتة.

- كل الكتابات التي كتبت عن أوروبا طيلة القرنين 17 و18م كانت وجهتها الأساسية هي إسبانيا أو إحدى الأراضي التابعة لها مثل صقلية و نابولي، فيما مثلت رحلة الحجري الاستثناء الوحيد إذ كانت وجهتها نحو فرنسا وهولندا، كما أن منطلق هذه الرحلات جميعا كان من المغرب الأقصى دون الإيالات المغاربية الأخرى، ما يحيلنا إلى القول أن الصورة المعبر عنها في هاته الرحلات المغربية لا يمكن تعميمها على كافة البلاد الأوروبية رغم أنها تنتمي لنفس الحيز الحضاري والديني، فإسبانيا مختلفة عن فرنسا وهذه الأخيرة مختلفة عن هولندا، إلا أننا لا نحسب الاختلاف جوهرى إنما الاختلاف على الأغلب في درجة التمدن والعلاقة مع الذات النازرة.
- أما رحلات القرن 19م فتميزت بتعدد الوجهات، إذ شملت مجالا أرحب وعدد أكثر من الأقطار الأوروبية، وقد انعكس هذا التعدد على مضمون الرحلات المدونة، فرغم انتماء هذه الدول إلى إطار حضاري واحد فإنها تفاوتت من حيث القوة والتأثير، وهو ما يلمس في بعض الرحلات التي توجهت إلى عديد البلدان الأوروبية وعقدت مقارنات صريحة وضمنية مثلما كان عليه الأمر في شأن الحجري في القرن 17م و بيرم الخامس في القرن 19م.
- إن هذه الرحلات تعتبر فعلا مصدرا مهما من الناحية التاريخية ليس فقط للتأريخ للعلاقات بين الطرفين الأوروبي والمغاربي طيلة فترة امتدت على مدى أكثر من ثلاثة قرون بكل ما تحمله من تغيرات في كافة المجالات، بل ومصدرا مهما للتأريخ الأوروبي في العصر الحديث؛ إذ أن هؤلاء الرحالة كانوا شهود عيان على كثير من الأحداث التاريخية، خاصة وأن هذه النظرة للتأريخ الأوروبي جاءت وفق نظرة كانت مغاربية إسلامية خارجة عن الحيز الأوروبي.
- أثبتت المعلومات الكثيرة التي دونها الرحالة المغاربة حول الأحداث والتطورات الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية الأوروبية، أن المغاربة لم يكونوا بمعزل على وجه الإطلاق من الأحداث التي تجري في الضفة الشمالية للمتوسط، فكان من المهم أن تكون أحداث مثل اكتشاف أمريكا وتأثيرها على ميزان القوى الأوروبية، والحركة الدينية في أوروبا وتأثيراتها والانقسامات السياسية بعدها، أو حروب الوراثة الإسبانية وحرب الاستقلال الأمريكية هذه الأحداث التي تناولها الرحالة المغاربة بكثير من الدقة وكثير من التجرد.
- مكنتنا نصوص الرحلات المغاربية من رصد وتتبع الخريطة السياسية لأوروبا منذ نهاية القرن 16م وصولا إلى نهاية القرن 19م، وهكذا انتقلنا من الهيمنة الإسبانية إلى صعود أوروبا الشمالية والولايات الهولندية وصولا إلى هيمنة فرنسا لويس الرابع عشر على أوروبا في الربع الأخير من القرن 17م، إلى رجحان ميزان القوى إلى بريطانيا طيلة القرن 18م، وصولا إلى التنافس الاستعماري في القرن 19م، وكل هذا والرحالة المغاربة ينتقلون بالقارئ إلى الأسباب التي أدت بصعود قوة وتراجع أخرى.

- لم تلق نصوص الرحلات المغربية التي دونت خلال القرنين 17 و18م اهتماما ذا بال لدى مثقفي المخزن المغربي، ولم يكن لها إشعاع علمي ذو تأثير في النظرة للآخر، بل إن أغلبها بقي مغيبا في الخزائن الخاصة، رغم المكانة التي يحتلها مؤلفوها كوزراء وكتاب وسفراء لدى المخزن، ما يوحي أن المغربي لم يكن له دوافع ولا مخفزات للنظر والقراءة عن الآخر الأوروبي إلا بعد أن تبدى لهم بكامل قوته وعلمه ونظامه وثقافته في القرن 19م.
- وحتى لما عزم نخبة من مثقفي وحكام المغرب للتطلع إلى أوروبا القرن التاسع عشر والبحث في مقومات قوة بلدانها بعد أن ظهرت لهم في العيان واكتشفوا تخلفهم وحجم التجاوز العلمي والحضاري والعسكري وفي كل المجالات عموما، فإننا نجدهم فضلوا التوجه عن قصد أو غير قصد إلى ما دونه الرحالة المشاركة مثل الطهطاوي، على أن يعودوا إلى الكتابات المغربية التي كانت سابقة في التعريف لرحلات المشرق، إذ استطاعت الرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرن 17 وعلى الخصوص رحلات القرن 18م أن تكشف على مقومات القوة الأوروبية، وحتى لما توجه المغرب للتنظيمات والإصلاحات كان بدافع وتأثير من القوى الأوروبية.
- لم تخرج الرحلات المغربية والجزائرية خلال القرن 19م على حدود الانبهار والإعجاب بالآخر الأوروبي، ومظاهر تمدنه وتطور علومه وصناعاته وقوة وحدائه جيوشه، إلا أن الرحالة التونسيين وعلى رأسهم خير الدين، كانت نظرهم للآخر الأوروبي أكثر عمقا وأكثر تجردا من الذاتية الأمر الذي جعله يقر بضعف الذات وقوة الآخر وأن لا سبيل لمواجهة أوروبا إلا بالاعتباس منها، لكن ما أراده خير الدين هو اقتباسه الأفكار والنظم وتكييفها مع نظم الشريعة الإسلامية، وساهت عديد من العوامل في هذه المفارقة، فإن كانت الرحلات الجزائرية والمغربية تكتب بإيعاز وتحت رقابة السلطة في فرنسا والمغرب، فإن الرحالة التونسيين وخاصة خير الدين تمتعوا بهامش لا بأس به من الحرية في الكشف عن أفكارهم ونقدتهم للواقع التونسي بكثير من الجرأة، يدعمه في ذلك توجه البايات التونسيين للإصلاح، بالإضافة إلى الاحتكاك العميق لخير الدين مع نخبة المفكرين والسياسيين الأوروبيين، بالإضافة إلى طول مكوثه في البلاد الأوروبية ما مكنه من الاطلاع أكثر على مقومات قوة الدول الأوروبية، عكس الرحالة الجزائريين والمغاربة الذين كانت رحلاتهم سريعة لا تتجاوز الشهر والشهرين، زد على ذلك عدم تمكنهم من لغة الآخر، ما جعلهم يصفون الأشياء ليس كما هي بل كما تراها أعينهم ويفسرونها بخلفياتهم المغاربية.

- توجهت الرحلات المغربية خلال القرنين 17 و18م إلى أوروبا في وقت اشتد فيه الصراع بين الطرفين المغاربي والأوروبي، إذ يظهر هذا الصراع كصراع ديني بين المسلمين والنصارى، بين الإسلام والنصرانية الصليبية، لذا لا عجب أن نجد في نصوص هذه المرحلة تلك النظرة الدينية المحملة بكثير من الحمية من الجانبين، إذ يرى كل طرف

أن دينه هو الدين الحق، نظرة أثرت فيها كثير من الرسوبات المسبقة، ليظهر هذا الصراع من الاختلاف الديني ليأخذ أشكال أخرى عسكرية وسياسية وأزمات وحروب وحتى سجالات كلامية.

- بينما تقلصت تلك النظرة الدينية للآخر في النصوص المغاربية خلال القرن 19م، واختفت في كثير منها، إذ أن اختلاف السياقات التاريخية ساهمت في تغيير النظرة، وإن بقيت بعض رسوبات هذه النظرة نظرا لخلفية هؤلاء الرحالة، إلا أن كثيرا منهم رأى في حالة التجاوز العلمي والعسكري والتنظيمي الأوروبي محاور يجب النظر إليها بعيدا عن الجانب الديني، وهذا الأمر في تغيير النظرة لا يعود لسبب ذاتي مغربي فقط بل دافع أوروبي أيضا، فالأوروبيون الذين كانوا لا يتوانون للدخول في سجالات دينية مع المسلمين في القرون السابقة أصبحوا بمعزل عنها خاصة مع توجه الأوروبيين لفصل الدين عن الحياة العامة.

- حاول كثير من الرحالة المغاربة خاصة التونسيين منهم تجاوز ثقل الموروث الديني وسعوا إلى مقارنة علة التفوق الأوروبي، مثل تطرقهم إلى العلم، العدل، الحرية، والنظام، باعتبارها عناصر أساسية في قاعدة التفوق الأوروبي، إلا أن هذه المقارنة وردت بكيفية مبسطة أو ضحلة في الرحلات المغربية بحكم افتقاد أصحابها لأساس فكري متين، يسمح بفهم واستيعاب عميق لشروط التقدم الأوروبي، وبالنتيجة طرحت مسألة الأخذ عن أوروبا بكيفية مرتبكة وملتبسة وجزئية، ثم إن التركيز في المحمل على الشأن العسكري، وعلى العموم لم يدرك كثير من كتاب الرحلات المغاربة طبيعة التحدي الأوروبي، ومن ثم لم يكونوا مؤهلين للاستجابة الفكرية المطلوبة والمناسبة (نقلا عن أحمد المكاوي، مرجع سابق، بتصرف).

- إن الدارس المدقق لما حملته نصوص الرحلات المغربية خلال القرن 17 و18م، يدرك أن أصحابها كان يدفعهم هاجس إثبات التفوق على الآخر الأوروبي، حتى أننا نجد أن حضور السلطان العثماني والمغربي القوي صاحب الصيت، المهاب الجانب قد غلب على الحديث عن الحاكم الأوروبي وهم في بلاده، لذا لا غرابة أن يكون حضور النظم السياسية الأوروبية محتشما، عكس ما كان عليه في نصوص القرن 19م.

- في أوروبا اكتشف الرحالون المغاربة في القرن 17 وخاصة 18م النظام العسكري الأوروبي، واكتشفوا جيش النظام، واكتشفوا حال التجاوز التي تصب في صالح الأوروبيين من ناحية التطور الصناعي والعسكري والتحصينات العسكرية، إلا أن الرحالة المغربي يأبى أن يعترف بكل ذلك، بل نجده دائما يسعى إلى محو هذه الصورة في ختام حديثه، مؤكدا أن مهارة المغاربة وقوة عزمهم تستطيع أن تقف بلا شك أمام هذه القوة والنظم الأوروبية، كيف لا والأساطيل المغاربية مازالت تجوب البحار وتزرع الرعب والقلق لدى الأوروبيين، وقد عززت هذه النظرة انتصارات ظرفية صغيرة أو كبيرة قريبة أو بعيدة على القوات الأوروبية، فلم ينظر الرحالة المغاربة للتطورات العسكرية في أوروبا أنها يمكن أن تشكل يوما ما تهديدا لبلادهم لذا عمدوا إلى التقليل من شأنها، ورغم إدراكهم لقوتها إلا أنهم

أبوا أن يدعوا بلادهم للنظر فيها أو الاقتباس منها، وما إن حل القرن 19م حتى أصبحت القوة العسكرية الأوروبية مع إمكانياتها التنظيمية والصناعية الهائلة أمام أنظار المغاربة وفي ديارهم، وما نبههم إليها إلا هزائمهم المتتالية فسقوط الجزائر 1830م، ومعركة إيسلي 1844م، واحتلال تطوان سنة 1860م، كلها هزائم أجبرت المغاربة للنظر إلى أوروبا عليهم يستدركون تأخرهم وضعفهم لكن بعد فوات الأوان، وهنا توجهت الرحلات المغربية على الخصوص للبحث في أسباب القوة الأوروبية واقتباس ما أمكن من نظمها وأسلحتها.

- إن المدقق فيما حملته نصوص الرحلات المغربية على امتداد ثلاثة قرون يلاحظ بلا شك أن أغلب المجالات التي نظروا إليها في أوروبا شملها تغيير من حيث النظرة وردة الفعل فنظرة المغاربة للواقع السياسي أو الديني أو العسكري في أوروبا خلال القرن 17 و18م لم تكن هي نفسها نظرتهم إليها في القرن 19م، لكن تبقى النظرة للمجتمع الأوروبي أحد أكثر المواقف ثباتا رغم اختلاف الزمن، فمثلا جميعهم تقريبا أعجبوا بالتنظيمات الاجتماعية الأوروبية وكلهم استنكروا علاقات المرأة بمحيطها في المجال الأوروبي، كما نظروا إلى العادات الأوروبية بأعينهم المغربية ونظرتهم الفقهية الفاحصة لكل غريب وعجيب.

- هذا ومثلت الرحلات المغربية إلى أوروبا سندا مهما للحركة الإصلاحية العربية عموما، وتعتبر الرحلات التونسية على وجه الدقة النموذج الأهم في هذا التوجه، إذ بعد عودتهم إلى ديارهم وتلمسهم البون الشاسع بين ما تعيشه أوروبا من تقدم وتطور وثروة وعمران وبين تأخر بلدانهم وضعفها، لذا كانت تساؤلات الرحالة التونسيين وعلى رأسهم خير الدين التونسي الذي رأى في النموذج الأوروبي منطلقا يمكن للبلاد الإسلامية عموما تبنيه وليس تونس فقط من أجل النهضة، بل إن خير الدين لم يكتف بالدعوة إلى ذلك بل حاول استغلال مكانته كرجل دولة في تونس والدولة العثمانية من أجل تنفيذ برنامجه الإصلاحي.

- وما يمكن التأكيد عليه ختاماً أن ما توصلنا إليه في هذه الدراسة لا يمكن أن يكون قد استوفى جميع القراءات والصور والتمثيلات والأحداث التي حملتها نصوص الرحلات المغربية إلى أوروبا طيلة العصر الحديث، لكن نعتقد أننا سعينا بالتحليل والمقارنة لإظهار المعالم الكبرى لصورة أوروبا التي كانت محور كتابات هؤلاء الرحالة، ونعتقد كذلك أن هذه المرويات مازالت تحتاج لدراسات أخرى ربما بمناهج أخرى وأساليب أخرى من قبل باحثين آخرين قد يزيد من إثراء هذا النوع من الدراسات، وربما كانت مساهمتها البحثية هذه جزء من كل يجب البحث فيه.

الملاحق

أولاً: الخرائط
الخريطة رقم (01)



خريطة تقريبية لمسار رحلة أحمد الحجري (أفواي) إلى فرنسا وهولندا 1611-1613م

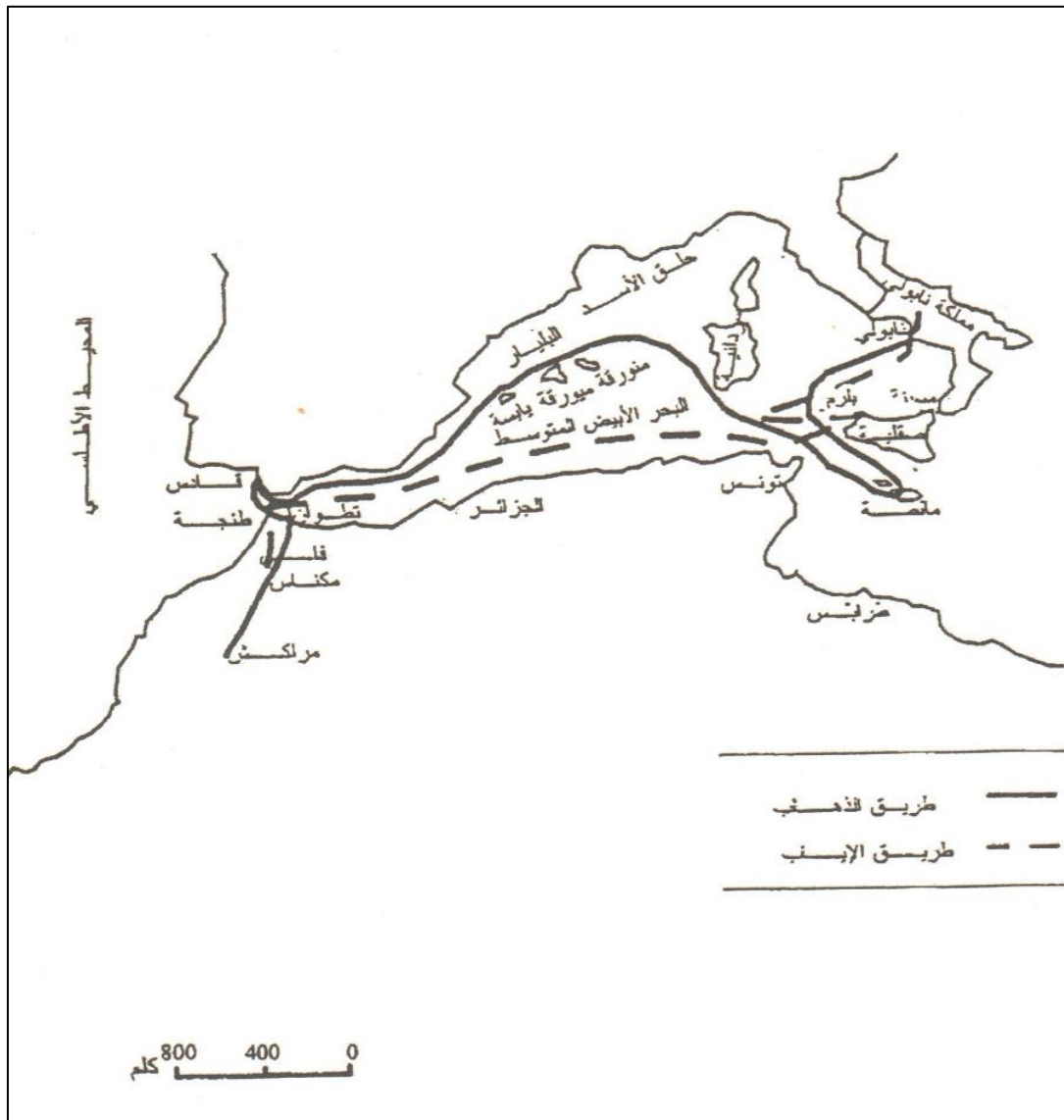
(من إعداد الباحث)



خريطة تقريبية لمسار رحلة أحمد بن المهدي الغزال إلى إسبانيا 1766م

(من إعداد الباحث)

الخريطة رقم (03):

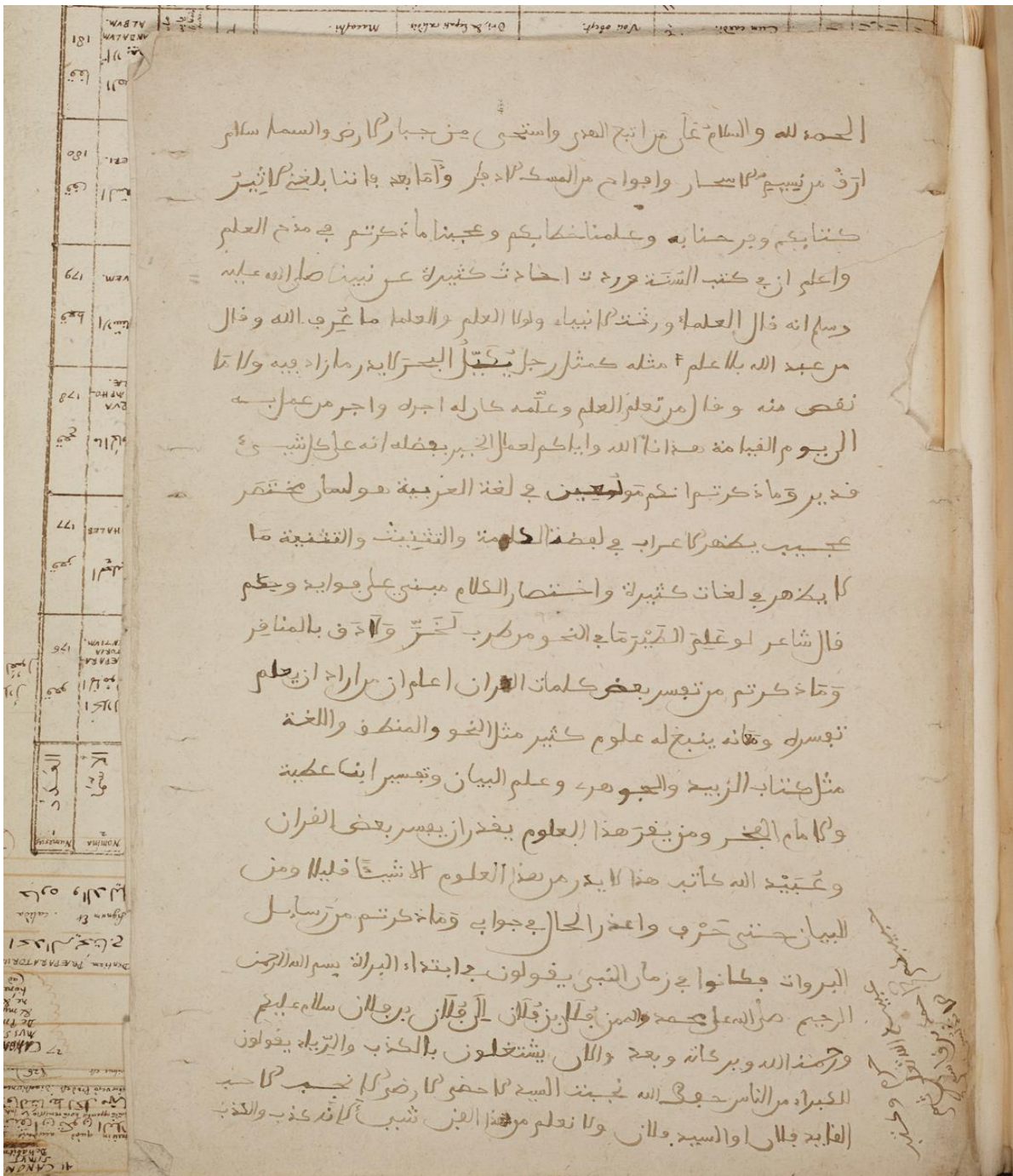


خريطة تقريبية لمسار رحلة محمد بن عثمان المكناسي إلى مالطا وصقلية و نابولي 1781-1782م

نقلا عن: محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 337.

ثانيا: الوثائق والصور

الوثيقة رقم (01):



رسالة الحجري وهو بياريس إلى المستشرق الهولندي إرنستوس في سبتمبر 1611.

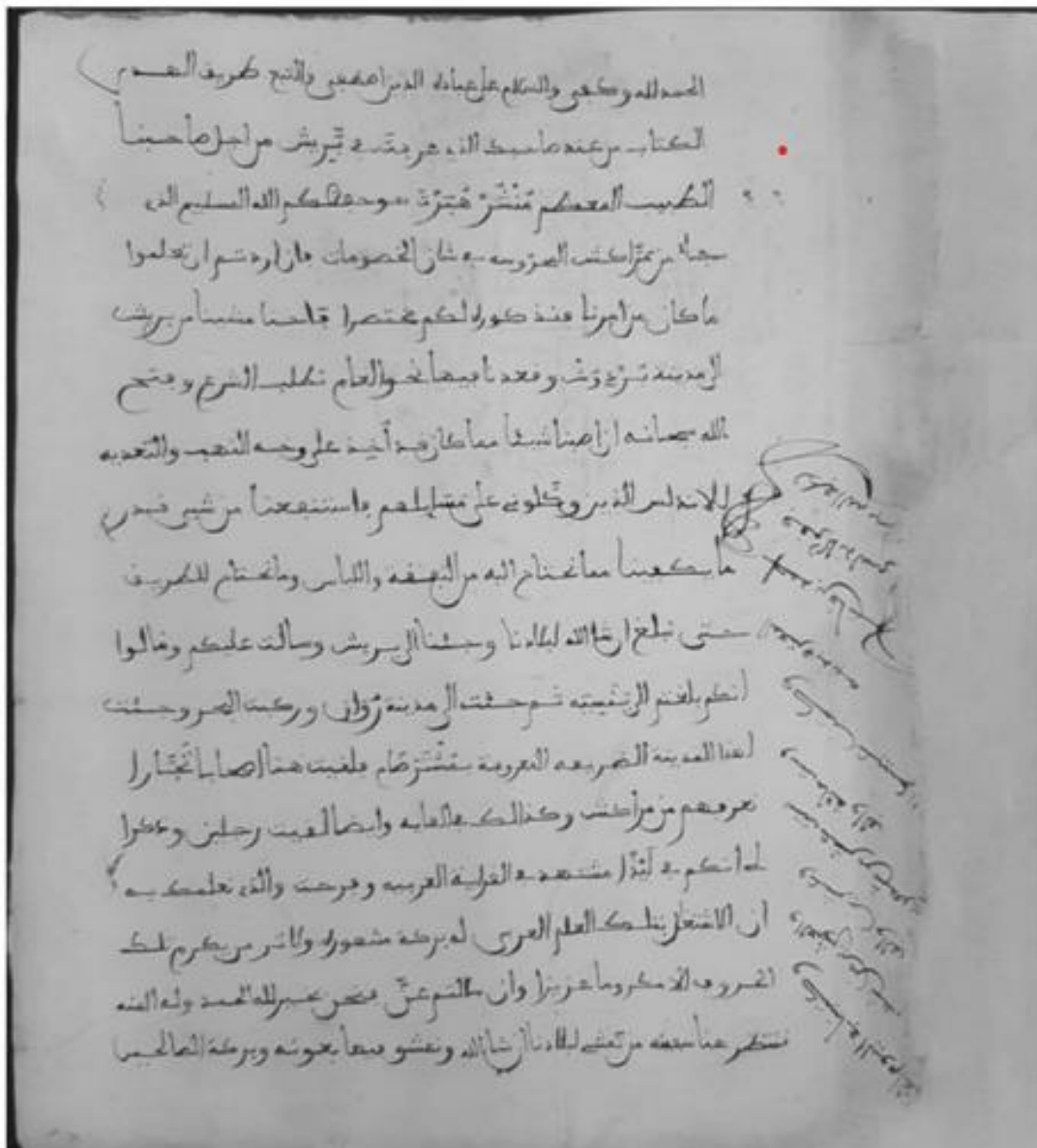
نسخة محملة من الرابط التالي:

<https://www.kent.ac.uk/ewto/projects/arabsinthewest/chapters/chapter4.html#foreign-peoples-10>

ترجمة الوثيقة رقم (01):

«الحمد لله والسلام على من اتبع الهدى واستحى من جبار الأرض والسما سلام أرق من نسيم الأسحار وأفواح المسك الأدفار وأما بعد: فإننا بلغني الأثير كتابكم وفرحنا به وعمنا خطابكم وعجبنا ما ذكرتم في مدح العلم واعلم أن في كتب السنة وردت احداث كثيرة عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال: العلماء ورثة الأنبياء ولولبا العلم والعلماء ما عُرف الله، وقال من عبد الله بلا علم مثله كمثل رجل يكيل البحر لا يدر ما زاد فيه ولا ما نقص منه وقال من تعلم العلم وعلمه كان له أجره واجر من عمل به إلى يوم القيامة هداانا الله وإياكم لعمل الخير بفضله إنه على كل شيء قدير وما ذكرتم أنكم مولعين في لغة العربية هو لسان مختصر عجيب يظهر الإعراب في لفظ الكلمة والتأنيث والتثنية ما لا يظهر في لغات كثيرة واختصار الكلام مبني على فوايد وحكم قال شاعر لو علم الطير ما في النحو من طرب لخرّ ولا دق بالمناقر وما ذكرت من تفسر بعض كلمات القرآن اعلم أن من أراد ان يعلم تفسره ومعانيه ينبغ له علوم كثير مثل النحو والمنطق واللغة مثل كتاب الزبيد [ي] والجوهري وعلم البيان وتفسير ابن عطية والإمام الفخر ومن يقر هذا العلوم يقدر أن يفسر بعض القرآن وعبيد الله كاتب هذا لا يدر من هذا العلوم إلا شيئاً قليلاً ومن البيان حتى حرف واعذر الحال في جوابي وما ذكرتم من رسائل البروات فكانوا في زمان النبي يقولون في ابتداء البراة بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله من فلان بن فلان إلى فلان بن فلان سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد والآن يشتغلون بالكذب والرياء يقولون للكبراء من الناس حفظه الله نجبة السيد الأمضى الأرضى الأنجم الأحب القايد فلان أو السيد فلان ولا نعلم من هذا الفن شيء لأنه كذب والكذب حرام.

وكتب عبيد الله تعالى ثم حبيبته أحمد بن قاسم الأندلسي»



صورة لأصل رسالة الحجري إلى المستشرق الهولندي إريبنوس بتاريخ 16/06/1613م.

نقلا عن: رشا الخطيب، مرجع سابق، ص 147.

ترجمة الوثيقة رقم (02):

«الحمد لله وكفى والسلام على عباده الذين اصطفى واتبع طريق الهدى الكتاب من عند صاحبك الذي عرفت في بريش [باريس] من أجل صاحبنا الطيب المعظم مُنْشَر هُبْرَت [مسيو أُبْرَت] هو حفظكم الله المسلم الذي جاء من مراكش المحروسة في شأن الخصومات فإن أردتم أن تعلموا ما كان من أمرنا فنذكوره لكم مختصرا فإحنا مشينا من بريش إلى مدينة بُرْدُوش [بوردو] وقعدنا فيها نحو العام نطلب الشرع وفتح الله سبحانه أن أصبنا شيئا مما كان قد أخذ على وجه النهب والتعديّة للأندلس الذين وكلوني على مسائلهم فاستغنينا من شيء قدر ما يكفيننا مما نحتاج إليه من النفقة واللباس وما نحتاج للطريق حتى نبلغ إن شاء الله لبلادنا وجينا إلى بريش وسألت عليكم وقالوا إنكم بلغتم إلى بَنَسِيَه ثم جئنا إلى مدين روان وركبت البحر وجيت لهذه المدينة الضريفة المعروفة بِمُشْتَرِظَم [أمستردام] فلقيت هنا أصحابنا تجارا نعرفهم من مراكش وكذلك في ألهاية [لاهاي] وأيضا لقيت رجلين وذكرنا لي أنكم في ليدا [ليدن] مشتهد في لقراية العربية وفرحت والذي نعلمك به أن الاشتغال بتلك العلم العربي له بركة مشهورة ولا تر من يكرم تلك الحروف إلا مكروما عزيزا وإن سألتهم فنحن بخير لله الحمد وله المنّة ننتظر هنا سفينة من تمشي لبلادنا إن شاء الله ونمشو فيها بعونه وبركة الصالحين وكتبنا في اليوم الخامس والعشرين إلى ربيع الثاني سنة اثنتين وعشرين وألف الموافق سنة عشر من شهر يني [يونيو] سنة ثلاث عشرة وست مائة وألف وكتب عبيد الله المعترف بذنبه. أحمد بن قاسم فقير الأندلسي لطف الله به».

الوثيقة رقم (03):

رسالة السلطان المغربي المولى إسماعيل إلى نظيره الإسباني كارلوس الثاني يذكر فيها تعيين الوزير الغساني سفيرا له إلى إسبانيا:

«إلى عظيم الروم وملك أقاليم إصبانية وبلاد الهند والمتولي أمورها والمتصرف في أقطارها (دون كرلوس) السلام على من اتبع الهدى... وجهناه مع خدم دارنا العلية بالله كاتبنا ومتولي الخط الأقرب من بساتنا السيد محمد بن عبد الوهاب الوزير، ولولا مزيتمكم عندنا ومعرفتنا بمنصبكم ما سمحنا بفراق كاتبنا عن بساتنا لمهمات أمورنا... وعند الكاتب المذكور قضية دخول جند الإسلام المظفر بالله على نصارى العرائش وفي علمه وعلى باله ما كان في ذلك من الكلام والأسباب، وكيفية الخبر في ذلك، فثقوا به وتعرفوا منه فإنه حفظه وووعاه من أوله إلى آخره لملازمته لبساتنا العلي بالله في سائر أوقاته...».

أنظر: عبد الرحمان بن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج2، ص 80-81.



رسالة السلطان محمد بن عبد الله المغربي إلى الملك كارلوس الثالث يخبره فيها بعودة السفير محمد بن عثمان المكناسي من إسبانيا سنة 1780م.

وثيقة موجودة في الأرشيف الوطني الإسباني:

Archivo Histórico Nacional, ESTADO, 3372, Exp.14

فتكون له ولرعيته الهدنة والطمانية مع الامان و السلامة و
يتاجرون النابوليتان في مملكته كما يتاجرون تجار اصينيول و
يعاملون معاملتهم في الصعبة و التجارة و تبطل العداوة و
المحاربة مع رعايا سلطان نابلوس و سلطان الغرب .

حرر في أرخبوس في شهر مايه سنة 1780

محمد بن عثمان
المكناسي

١١٩٥

الورقة الأخيرة من معاهدة السلام المغربية الإسبانية سنة 1780م (معاهدة أرخونيز) عليها توقيع السفير

محمد بن عثمان المكناسي.

وثيقة موجودة في الأرشيف الوطني الإسباني:

Archivo Histórico Nacional, ESTADO, 3372, Exp.14

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم
 من عبد الله محمد بن عبد الله كان الله لنا امير
 مكة
 الختم
 الى السلطان نابلس وصلي عليه وعيها دن فرناند الرابع سلام على من اتبع الهدى
 اما بعد فقد وجهنا اليكم باشا طونا الفقيه الجليل الامين على ترنا
 كاتب اواميرنا السيد محمد بن عثمان ليجمع بينكم الصلح والمهادنة كما جعله
 مع والدكم محبنا السلطان دن كارلوس الثالث حيث كان عندك باشا طونا
 هذا قبل اليوم واتفق والدكم مع الباشا طونا المذكور على ان تدخل معنا ومع
 والدك في هذا الصلح. وبعثنا اليكم الباشا طونا المذكور ليجمع الصلح معكم لانه
 كان على يدك وتوفى شروطه وكلما تعلمون معه فتت امضيته وقبضته
 وكلما يقول لكم من كلامنا فاقبلوه منه فاننا منغوضون اليه ثم نعلمكم
 ولين لكم محبتنا فيكم وفي والدكم ان بلادنا كلها مثل بلادكم من تحت
 نافي اليها مثل رعيته والدك مقبولين مكرمين وكلما نريد في امر من
 بلادنا اعلم به الباشا طونا المذكور ونحن نقض لك كلما تحب ان نعلم
 الله والسلام
 بن مراكش ثاني ذي الحجة من عام ١١٩٣

رسالة السلطان المغربي محمد بن عبد الله الى ملك نابولي فرناندو الرابع يعلمه بتوجيه محمد بن عثمان

المكناسي سفيرا لديه

نقلا عن: محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر، مصدر سابق، ص 321.

ترجمة وثيقة الملحق رقم (06)::

«إلى سلطان نابلس وصقلية وغيرها دن فرناند الرابع سلام على من اتبع الهدى أما بعد فقد وجهنا إليكم
باشطورنا الفقيه الجليل الأمين على سرنا كاتب أوامرنا السيد محمد بن عثمان ليجعل معكم الصلح والمهادنة
كما جعله مع والدكم محبنا السلطان دن كارلوس الثالث حيث كان عنده باشطورنا هذا قبل اليوم واتفق
والدكم مع الباشطور المذكور على أن تدخل معنا ومع والدك في هذا الصلح وبعثنا إليكم البشطور المذكور
ليجعل الصلح معكم لأنه كان على يده ويعرف شروطه وكلما تفعلون معه فنحن أمسيناه وقبلناه وكلما يقوله
لكم من كلامنا فاقبلوه منه فغننا مفوضون إليه. ثم نعلمكم ونبين لكم محبتنا فيكم وفي والدكم أن بلادنا كلها
مثل بلادك ورعيتك تأتي إليها مثل رعية والدك مقبولين مكرمين. وكلما نريد في أرضنا فبلادنا اعلم به البشطور
المذكور ونحن نقضوا لك كلما تحب إن شاء الله والسلام. من مراکش ثاني ذي الحجة من عام 1193.»



الورقة الأولى من مخطوط ناصر الدين على القوم الكافرين من مكتبة جامع الأزهر.



الورقة الأولى من مخطوط نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد لأحمد بن مهدي الغزال.

مخطوط رقم: Mss 5116، المكتبة الوطنية الإسبانية.



صورة وصول الوفد السفاري المغربي إلى إسبانيا على رأسه أحمد بن المهدي الغزال سنة 1766م.

المصدر: المكتبة الوطنية الإسبانية:

<http://bdh-rd.bne.es/viewer.vm?id=0000132427>

LE MONDE ILLUSTRÉ

JOURNAL HEBDOMADAIRE

ABONNEMENTS POUR PARIS ET LES DÉPARTEMENTS
Un an, 24 fr.; — Six mois, 13 fr.; — Trois mois, 7 fr.; — Un numéro, 50 c.
Le volume semestriel, 12 fr., broché. — 17 fr., relié et doré sur tranche.
LA COLLECTION DES 19 ANNÉES FORME 38 VOLUMES.

Directeur, M. PAUL DALLOZ.

BUREAUX
13, QUAI VOLTAIRE

20^e Année. N° 1002 — 24 Juin 1876

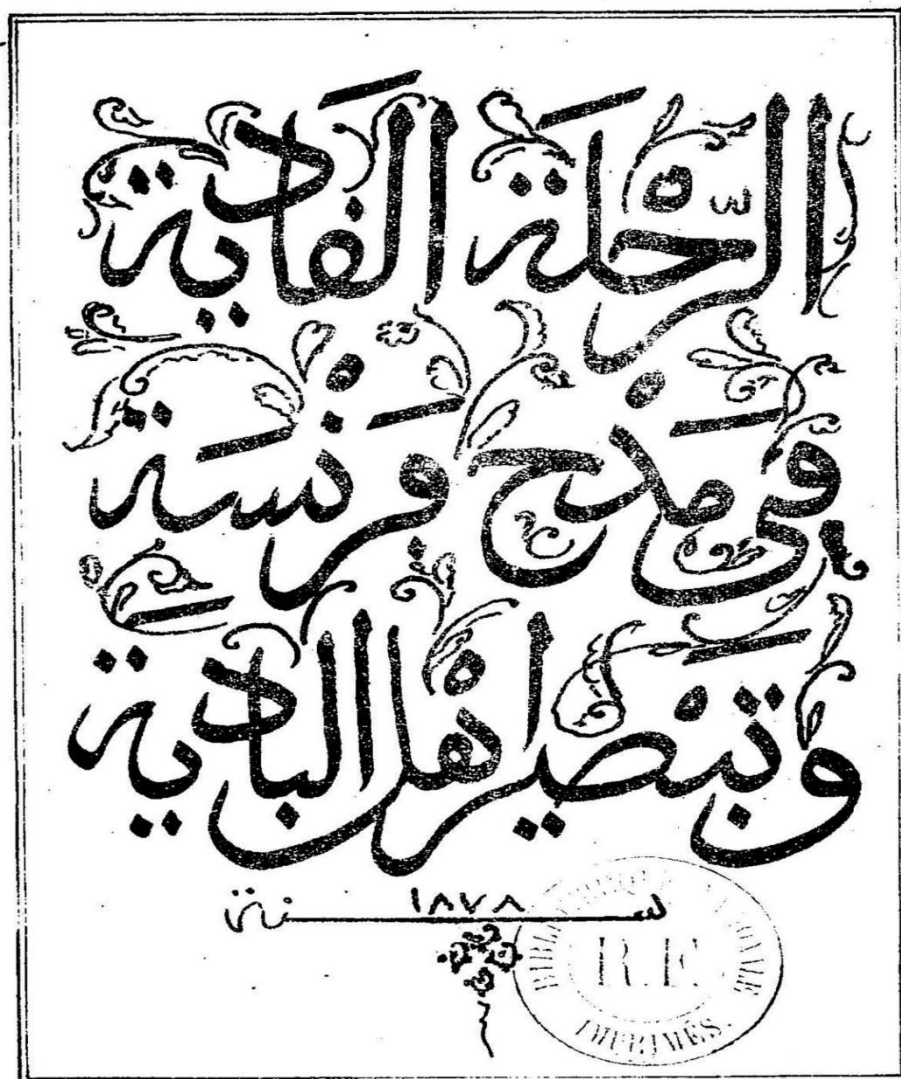
DIRECTION ET ADMINISTRATION, 13, QUAI VOLTAIRE
Toute demande d'abonnement non accompagnée d'un bon sur Paris ou sur sa
poste, toute demande de numéro à laquelle ne sera pas joint le montant en
timbres-poste, seront considérées comme non avenues. — On ne répond
pas des manuscrits envoyés.

Administrateur, M. BOURDILLAT. — Secrétaire, M. E. HUBERT.



L'AMBASSADE MAROCAINE A PARIS — Un déjeuner avec les officiers de l'escorte. — Salon de réception de l'ambassadeur.
(Dessin de M. Viègne, d'après le croquis de M. Dick.)

صورة تظهر أعضاء السفارة المغربية في باريس 1876م (السفارة التي كان كاتبها إدريس الجعيدي).
من جريدة: Le Monde Illustré بتاريخ: 24/06/1876م.



واجهة مخطوط أحمد ولد قادي عن رحلته إلى فرنسا سنة 1878م

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

- القرآن الكريم:

- المصادر الأرشيفية:

1) Archivo Histórico Nacional, ESTADO, 3372, Exp.14

- المصادر المخطوطة:

1) الحجري أحمد بن قاسم، ناصر الدين على القوم الكافرين، مخطوط بالمكتبة الأزهرية، القاهرة.

2) زكريا غانم (إبراهيم الرياش بن أحمد)، العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، تعريب: أحمد بن قاسم الحجري، مخطوط رقم 1511، المكتبة الوطنية الجزائرية.

3) الغزال أحمد بن المهدي، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، مخطوط رقم: Mss 5116، المكتبة الوطنية الإسبانية.

4) ولد قادي أحمد، الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية، مخطوط بالمكتبة الوطنية الفرنسية، 1878.

- المصادر المطبوعة:

1) ابن أبي الضياف أحمد، اتحاف عهد الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، ج1، المطبعة الرسمية العربية، تونس، 1319هـ.

2) ابن صيام سليمان، كتاب رحلة السيد سليمان بن صيام إلى بلاد فرانسة، مطبعة الدولة، الجزائر، 1852.

3) الإفرائي محمد الصغير، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998.

4) الإفرائي محمد بن الحاج محمد بن عبد الله، صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر، تحقيق عبد المجيد خيالي، ط1، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، 2004.

5) الإفرائي محمد، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تقديم وتحقيق: عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء-المغرب، 2004.

6) أفندي محمد، جنة الكفار: سفير عثماني في باريس سنة 1721 سفارتنامه محمد أفندي، دراسة وتحقيق: عبد الرحيم بنحادة، منشورات دار أبي رقيق، الرباط، 2017.

7) بن أبي الضياف أحمد، اتحاف عهد الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، تحقيق: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، ج2، الدار التونسية للنشر.

8) بن أبي الضياف أحمد، إتحاف عهد الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، تحقيق: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، مج4، ج7، الدار العربية للكتاب، تونس.

9) يزيم الخامس محمد، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنوفي، مج1، الجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، تونس، 1999.

10) يزيم الخامس محمد، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج3، دار صادر، بيروت، 1974.

- 11) التمكروتي علي بن محمد، النفحة المسكية في السفارة التركية 1589، تحقيق وتقديم: محمد الصالح، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2007.
- 12) التونسي خير الدين، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة وبيروت، 2012.
- 13) التونسي خير الدين، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تمهيد وتحقيق: المنصف الشنّوبي، ج1، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة. 2000.
- 14) التونسي خير الدين، مذكرات خير الدين باشا، تح وتر: محمد العربي السنوسي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون- بيت الحكمة، تونس، 2008.
- 15) الجزائري محمد بن ميمون، التحفة المرضة في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.
- 16) الجعدي إدريس، إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار، تحقيق وتقديم: عز المغرب معينو، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2004.
- 17) الحجري أحمد بن قاسم (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم: حسام الدين شاشية، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2015.
- 18) الحجري أحمد بن قاسم (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: محمد رزوق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء-المغرب، 1987.
- 19) الحفناوي أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906.
- 20) خوجة حمدان بن عثمان، إتحاف المنصفين والادباء في الاحتراس عن الوباء، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968.
- 21) خوجة حمدان بن عثمان، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر، 2005.
- 22) الزباني أبو القاسم، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، دراسة وتحقيق: رشيد الزاوية، القسم1، مركز الدراسات والبحوث العلوية (الريصاني)، الراشدية، 1992.
- 23) الزباني أبو القاسم، الترجمانة الكبرى، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، الرباط، 1991.
- 24) الزباني أبو القاسم، جمهرة التيجان وفهرسة الياقوت والمرجان في ذكر المولى سليمان، تحقيق وتقديم: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
- 25) السنوسي محمد، الاستطلاعات الباريسية، المطبعة الرسمية، تونس، 1892.
- 26) السنوسي محمد، الرحلة الحجازية، تحقيق: علي الشنّوبي، ج1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1976.
- 27) السنوسي محمد، مسامرات الطريف بحسن التعريف، تحقيق وتعليق: محمد الشاذلي النيفر، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994.

- 28) الشدياق أحمد فارس، كشف المُخبِّأ عن فنون أوروبا، مؤسسة هنداوي لنشر المعرفة والثقافة، القاهرة، 2012.
- 29) الصفار محمد، رحلة الصفار إلى فرنسا (1845-1846)، تح: سوزان ميللر، تر: خالد بن الصغير، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع والمؤسسة الغربية للدراسات والنشر، أبو ظبي وبيروت، 2007.
- 30) الطهطاوي رفاعه، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012.
- 31) العلمي محمد بن الطيب بن أحمد، الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب، رقم المخطوط: 120، مؤسسة الملك عبد العزيز الدار البيضاء، المغرب.
- 32) العمراوي إدريس، تحفة الملك العزيز بمملكة باريز، تقدم وتعليق، زكي مبارك، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1989.
- 33) الغزال أحمد بن المهدي، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
- 34) الغساني محمد بن عبد الوهاب، رحلة الوزير في افتكاك الوزير، تحقيق وتقدم: عبد الرحيم بنحادة، منشورات معهد الأبحاث في لغات وثقافات آسيا وأفريقيا، طوكيو 2005.
- 35) الفاسي أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمان، الرحلة الإبريزية على الديار الإنجليزية، تحقيق: محمد الفاسي، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس، المغرب، 1967.
- 36) القادري محمد بن الطيب، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق: هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت 1983.
- 37) القادري محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، ج3، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1986.
- 38) الكتاني أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق: عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني، ج3، دار الثقافة، الدار البيضاء.
- 39) الكردودي أبو العباس أحمد بن محمد، التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الإصنيولية، المطبعة الملكية، الرباط، 1963.
- 40) المازري الأغا بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990.
- 41) المكناسي محمد بن عثمان، إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، تحقيق: محمد بوكبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2003.
- 42) المكناسي محمد بن عثمان، الإكسير في فكاك الأسير، تحقيق: محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965.

- 43) المكناسي محمد بن عثمان، البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر، تحقيق وتقديم: مليكة الزاهدي، ط1، دار السويدية للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2013.
- 44) مونتيكيو، روح الشرائع، ترجمة: عادل زعير، مؤسسة هنداي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013.
- 45) الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج5، ج7، ج9، دار الكتاب، الدار البيضاء-المغرب، 1997.
- المراجع باللغة العربية:
- الكتب:
- 1) ابن زيدان عبد الرحمان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق: علي عمر، ج2، ج3، ج4، ج5، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008.
- 2) ابن زيدان عبد الرحمان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، ج1، مطبوعات المطبعة الملكية، الرباط، 1961.
- 3) ابن زيدان عبد الرحمان، العلائق السياسية للدولة العلوية، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، 1999.
- 4) ابن سودة عبد السلام، إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث والرابع 1171-1400هـ/1756-1980م، تنسيق وتحقيق: محمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
- 5) ابن سودة عبد السلام، دليل المغرب الأقصى (دليل ابن سودة)، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1997.
- 6) ابن عاشور محمد الطاهر، جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، جمع وتوثيق: محمد الطاهر الميساوي، ط1، عمان-الأردن، 2015.
- 7) أبو حمدان سمير، خير الدين التونسي: أبو النهضة التونسية، دار الكتاب العالمي، بيروت، 1993.
- 8) أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، [د.ت].
- 9) أحمد صلاح زكي، أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ط1، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2001.
- 10) الأخضر محمد، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (1075-1311/1664-1894)، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1977.
- 11) أفا عمر، مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر من 1822-1906، منشورات كلية الآداب أكادير، 1988.
- 12) أفاية محمد نور الدين، الغرب المتخيل: صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000.
- 13) أورتونا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، مج1، تر: عدنان محمود سلمان ومحمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، إسطنبول-تركيا، 1988.

- 14) اومليل علي، الإصلاحية العربية والدولة الوطنية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، 1985.
- 15) اومليل علي، في شرعية الاختلاف، ط2، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، 1992.
- 16) باشا بن محمد إسماعيل، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون، ج1، دار إحياء التراث العربي، لبنان.
- 17) الببلاوي حازم، دور الدولة في الاقتصاد، دار الشروق، القاهرة، 1998.
- 18) برادة ثريا، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1997.
- 19) براون جفري، تاريخ أوروبا الحديث، تر: علي المزروقي، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، لبنان، 2006.
- 20) بروتون جيرى، عصر النهضة: مقدمة قصيرة جدا، تر: إبراهيم البيلي محروس، مراجعة: هبة نجيب مغربي، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014.
- 21) بروديل فرنان، المتوسط والعالم المتوسطي، تعريب: مروان أبي سمرا، دار المنتخب العربي، بيروت، 1993.
- 22) بروفنصال ليفي، مؤرخو الشرفاء، تعريب: عبد القادر الخالدي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977.
- 23) البزاز محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الرباط 1992.
- 24) بلاك جيزمي، تاريخ الدبلوماسية، تر: أحمد علي سالم، مراجعة: سعيد الغانمي، ط1، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة-كلمة-، أبو ظبي، 2013.
- 25) بلقزيز عبد الإله، إشكالية المرجع في الفكر العربي المعاصر، ط1، دار المنتخب، بيروت، 1992.
- 26) بن الصغير خالد، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856-1886)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1997.
- 27) بن خلدون عبد الرحمان، مقدمة ابن خلدون، ضبط وتخرّيج: وائل خلف، دار العقيدة، الإسكندرية، 2008.
- 28) بن عبود محمد بن عبد السلام، تاريخ المغرب، ج2، المطبعة المهدية، تطوان، 1951.
- 29) بنبليغث الشيباني، الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي (1859-1882)، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس-تونس، 1995.
- 30) بنت محمد نواب عواطف، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين: دراسة تحليلية مقارنة، دار الملة عبد العزيز، الرياض، 2008.
- 31) بنعبد الله عبد العزيز، الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، دار نشر المعرفة، الرباط، 2001.
- 32) بوجندار محمد بن مصطفى، الاغتباط بتراجم أعلام الرباط، تحقيق: أحمد بن عبد الكريم نجيب، ط2، دار المذهب للطباعة والنشر والتوزيع، 2014.
- 33) بوشعراء مصطفى، الاستيطان والحماية بالمغرب، ج1، المطبعة الملكية، الرباط، 1984.

- 34) بولحية يحيى، البعثات التعليمية في اليابان والمغرب من أربعينيات القرن التاسع عشر حتى أربعينيات القرن العشرين تبين المقدمات واختلاف النتائج، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة-قطر، أبريل 2016.
- 35) البياتي منير حميد، النظام السياسي الإسلامي مقارنا بالدولة القانونية: دراسة دستورية شرعية وقانونية مقارنة، ط4، دار النفائس، عمان-الأردن، 2012.
- 36) بياض طيب، رحلة مغاربة في أوروبا: بين القرنين السابع عشر والعشرين: تمثلاث ومواقف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 2015.
- 37) بيرنجيه جان، موسوعة تاريخ أوروبا العام، تر: وجيه البعيني، ج2، ط1، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 1995.
- 38) تابلت علي (جمع وتقديم): خمس رحلات جزائرية إلى باريس 1852-1902، منشورات خمسينية جامعة الجزائر، الجزائر، 2012.
- 39) التازي عبد الهادي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مج9، 1988.
- 40) التازي عبد الهادي، رحلة الرحلات: مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة المكرمة، 2005.
- 41) التميمي عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان-تونس، 1989.
- 42) توفيق عمر كامل، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين: دراسات تحليلية وثائقية في التاريخ الدبلوماسي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1986.
- 43) جدعان فهمي، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ط3، دار الشروق، عمان-الأردن، 1988.
- 44) الجارري عبد الله، من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين: الرباط وسلا، ج2، مطبعة الامنية، الرباط، 1971.
- 45) جورافسكي أليسي، الإسلام والمسيحية، سلسلة عالم المعرفة، نوفمبر 1996.
- 46) حاطوم نور الدين، تاريخ القرن السابع عشر في أوروبا، دار الفكر، دمشق، 1986.
- 47) حجي محمد، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج2، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، المغرب، 1978.
- 48) حدادي أحمد، رحلة ابن رشيد السبتي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 2003.
- 49) حركات إبراهيم، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية، ط2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء-المغرب، 1994.
- 50) حسني محمود حسني، أدب الرحلة عند العرب، ط2، دار الأندلس، بيروت، 1983.
- 51) حمادي عبد الله، الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس 1492-1616، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، تونس، الجزائر، نوفمبر 1989.

- 52) الحنفي محمد أمين، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، تح: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006.
- 53) حوارني ألبرت: الفكر العربي في عصر النهضة (1798-1939)، تر: كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت.
- 54) الحديمي علال، المغرب في مواجهة التحديات الخارجية 1851-1947: دراسة في تاريخ العلاقات الدولية، أفريقيا الشرق، المغرب، 2006.
- 55) الخطيب رشا، أحمد بق قاسم الحجري الأندلسي "أفوقاي" المترجم والرحالة والسفير، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2018.
- 56) داود محمد، تاريخ تطوان، ج7، المطبعة الملكية، الرباط، 1990.
- 57) ذاكر عبد النبي، العين الساخرة: أقنعتها وقناعاتها في الرحلة العربية، المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، المغرب، مارس 2000.
- 58) دنون طه عبد الواحد، الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2005.
- 59) رزوق محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، ط3، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1998.
- 60) الرهوني أبو العباس أحمد، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تح: جعفر الحاج السلمي، ج6، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطاون، 2006.
- 61) الزملي الصادق، أعلام تونسيون، تق وتر: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م.
- 62) زيادة معن، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- 63) الساوري بوشعيب، صورة الآخر في رحلات عربية من القرن العاشر ميلادي إلى القرن الواحد والعشرين، النايا للدراسات والنشر، ط1، دمشق، 2014.
- 64) سرهيد عدنان خلف، التأثير الحضاري المتبادل بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية خلال عصر سلطنة غرناطة 635هـ: 897هـ/1238م: 1492م، دار حميثا للنشر والترجمة، 2018.
- 65) سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992.
- 66) سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
- 67) سعيدوني ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي-تراجم ورحالة وجغرافيين، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999.
- 68) السملالي العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل بمراكش وآغامت من أعلام الناس، ط2، ج2، ج3، ج7، المطبعة الملكية، الرباط، 1993.
- 69) سوزن ريتشارد، صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، تر: رضوان السيد، ط2، دار المدار الإسلامي، طرابلس-ليبيا، 2006.
- 70) سيف الإسلام الزبير، رواد الصحافة الجزائرية، ط1، مطابع دار الشعب، القاهرة، 1981.

- 71) الشامي صلاح الدين علي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة: في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، ط2، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999.
- 72) الشاهدي حسن، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، منشورات عكاظ، الرباط، 1990.
- 73) الشرفي عبد المجيد، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/العاشر، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، تونس، الجزائر، 1986.
- 74) الشوابكة نوال عبد الرحمان، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، الأردن، 2008.
- 75) الضيفي ميثاق بيات والصميدعي وليد فتحي محمد، أسرار وخبايا الانقلابات السياسية الفرنسية 1793-1797، ط1، منشورات E-kutub Ltd، لندن، مار 2008.
- 76) العامري محمد بشير، دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، 2011.
- 77) عبد السلام أحمد، المؤرخون التونسيون في القرون 17 و 18 و 19 م: رسالة في تاريخ الثقافة، ط1، الجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، 1993.
- 78) عبد السلام أحمد، مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986.
- 79) عبد الونيس شتا أحمد، العلاقات الدولية في الإسلام: الأساس الشرعي والمبادئ الحاكمة للعلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، ضمن كتاب العلاقات الدولية في الإسلام، ج1.
- 80) عبد الوهاب حسين حسني، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، مج2، القسم1، مراجعة: محمد العروسي المطوي وبشير بكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
- 81) عبوش أحمد صالح، قادة الإصلاح والتشريع عبر التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، 2019.
- 82) العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، 2012.
- 83) العسلي بسام، الماريشال بيجو 1784-1849، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982.
- 84) العسلي بسام، جهاد الشعب الجزائري، ج1 ط1، دار العزة والكرامة للكتاب، الجزائر، 2005.
- 85) العلوي سعيد بنسعيد، أوروبا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في الرحلة المغربية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2006.
- 86) عمارة محمد، العرب والتحدي، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991 م.
- 87) الغاشي مصطفى، الرحلة المغربية والشرق العثماني: محاولة في بناء الصورة، دار الانتشار العربي، بيروت، 2015.
- 88) غريط محمد، فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان، ط1، المطبعة الجديدة، فاس-المغرب، 1346هـ.
- 89) الغشتول الحسن، بين النقد والفكر: مباحث نظرية وتطبيقية في مسالك النظر ووظائف التعبير، دار الكلمة للنشر والتوزيع، لبنان، 2014.
- 90) غويتسولو خوان، في الاستشراق الإسباني، تعريب: كاظم جهاد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981.

- 91) فان كريكن. ج.س، خير الدين والبلاد التونسية 1850-1881، ترجمة البشير بن سلامة، دار سحنون، تونس، 1988.
- 92) الفضيلي إدريس، الدرر البهية والجواهر النبوية، مراجعة ومقاربة: أحمد بن المهدي العلوي ومصطفى بن أحمد العلوي، ج2، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1999.
- 93) فهم حسين محمد، أدب الرحلات، ع138، عالم المعرفة، الكويت، يناير 1989.
- 94) فوك يوهان، الدراسات العربية في أوروبا حتى مطلع القرن العشرين، تر: سعيد بحيري ومحسن الدمرداش، ط1، زهراء الشرق، القاهرة، 2006.
- 95) فيشر هربرت، أصول التاريخ الأوروبي الحديث: من النهضة إلى الثورة الفرنسية، ط3، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1970.
- 96) فيشر هربرت، أصول التاريخ الأوروبي الحديث: من النهضة إلى الثورة الفرنسية، ط3، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1970.
- 97) القدوري عبد المجيد، المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي، 2003.
- 98) القدوري عبد المجيد، سفراء عرب في أوروبا 1610-1922 الوعي بالتفاوت، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006.
- 99) القرطبي ابن عبد البر، فتح المالك بترتيب التمهيد لابن عبد البر على موطأ الإمام مالك، ج10، تحقيق: مصطفى صميحة، منشورات الكتب العلمية، بيروت، 1997.
- 100) قرني عزت، العدالة والحرية في فجر النهضة العربية، عالم المعرفة، الكويت يونيو 1980.
- 101) قنديل فؤاد، أدب الرحلات، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2002.
- 102) كاردياك لوي، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجابهة الجدلية (1492-1640)، ترجمة: عبد الجليل التميمي، ط1، منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية، تونس، الجزائر، 1983.
- 103) كراتشكوفسكي أغناطيوس يوليانونفيتش، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين هاشم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963.
- 104) الكنسوسي أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، تقديم وتحقيق: أحمد بن يوسف الكنسوسي، ج2، [د.ن.]، [د.م.]، [د.ت.].
- 105) كنون عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج1، ط2، [د.ن.]، [د.م.]، [د.ت.].
- 106) لويس برنارد، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ترجمة وتعليق وتقديم: ماهر عبد القادر محمد، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1998.
- 107) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، 1971م

- 108) مخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تخريج وتعليق: عبد المجيد خيالي، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010.
- 109) مريوش أحمد، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، ج1، ط1، منشورات كنوز الحكمة، الأبيار-الجزائر، 2013.
- 110) المضواحي محمد يحي مطهر، الأندلسيون عقب سقوط غرناطة، دار كتوبا للنشر والتوزيع، مصر، 2019، ص222.
- 111) المكاوي أحمد، الرحالون المغاربة وأوروبا، جذور للنشر، الرباط، 2007.
- 112) المنوني محمد، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج2، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1983.
- 113) المنوني محمد، مظاهر يقظة المغرب الحديث، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، ج1، مطبعة الأمنية، الرباط، 1973.
- 114) الموافي ناصر عبد الرزاق، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع، ط1، مكتبة الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1995.
- 115) الناصري جعفر بن أحمد، سلا ورباط الفتح أسطولهما وقرصنتهما الجهادية، تحقيق: أحمد بن جعفر الناصري، ج3، مطبوعات أكاديمية الملكة المغربية، الرباط، 2006.
- 116) نجيب مليكة، المرأة في الرحلة السفارية المغربية خلال القرنين 18 و19، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار السويدي للنشر والتوزيع والإعلان، أبو ظبي، 2013.
- 117) النساج سيد حامد، مشوار كتب الرحلة: قديما وحديثا، مكتبة غريب، مصر، 1991.
- 118) النفاقي عادل، المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغرب: حفريات في أدب الرحلة القرن 16، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، 2015.
- 119) النيفر محمد، عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.
- 120) هنري باجو دانيال، الأدب العام المقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، [د.ت.].
- 121) الوزان حسن، وصف إفريقية، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج1، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.
- 122) يارد نازك سبابا، الرحالون العرب وحضارة الغرب: في النهضة العربية الحديثة، ط2، نوفل للنشر، بيروت، 1999.

- المقالات:

- 1) ابن أبي الضياف محسن، «من هو ابن أبي الضيف»، مجلة الاتحاف، تونس، 1 مايو 1988.
- 2) أبي سَمرا مروان، «فرنان بروديل مؤرخ المتوسط والعالم المتوسطي: الصحراء، البدو، والإسلام قطب المتوسط التاريخي»، مجلة الاجتهاد، ع17، السنة 4، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، حريف عام 1992م.
- 3) أمعشوش فريد، «خصائص الرحلة السفارية المغربية إلى أوروبا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر»، مجلة البيان الكويتية، ع 521، الكويت، 01 ديسمبر 2013.

- 4) بروخمان يان، «الدراسات العربية في هولندا»، صمن كتاب: هولندا والعالم العربي: منذ القرون الوسطى حتى القرن العشرين، (د.ن)، ليدن-هولندا، 1987.
- 5) بلغراس عبد الوهاب، الأمير عبد القادر محطّات متميزة في رؤية الآخر، مجلة إنسانيات، ع77-78، 2017.
- 6) بن رحمون سعيد، «قراءة في رحلة الصفار إلى فرنسا 1845-1846»، الحوار المتمدن- ع 3710، 2012/04/27.
- 7) بن سنوسي هشام، «نبوءات الموريسكيين بين الحقيقة التاريخية والمغامرة اللاهوتية: مختصر أبو القاسم الحجري نموذجاً»، الحوار المتوسطي، ع13-14، ديسمبر 2016.
- 8) بن منصور عبد الوهاب، «إطلالة على وثائق السلطان سيدي محمد بن عبد الله المحفوظة بمديرية الوثائق الملكية»، ضمن أعمال الدورة الثالثة ضمن دورة مولاي علي الشريف الخريفية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، ديسمبر 1991.
- 9) بوشنتوف لطفي، «تجارة المحظور في النصف الثاني من القرن 19م (سلعنا الدخان والخمر مثلاً)»، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، ج1، جامعة الحسن الثاني، عين الشق-الدار البيضاء-المغرب، 21-23 فبراير 1989.
- 10) بوعزيز يحيى، «إسبانيا توسط لجزائر لإبرام صلح مع تونس»، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر2، ع4، 1988.
- 11) بونو عبد المنعم، «إسبانيا في رحلة الوزير الغساني»، ضمن كتاب: إسبانيا بعيون الرحالة المغاربة، تنسيق شعيب حليفي، منشورات المختبرات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسك، الدار البيضاء-المغرب، 2011.
- 12) بياض طيب، «رحلة الإبريز إلى ديار اللندريز»، مجلة زمان، المغرب، 18 نوفمبر 2014.
- 13) التازي عبد الهادي، «القدس والخليل في الرحلات المغربية: رحلة ابن عثمان المكناسي أنموذجاً»، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة-إيسيسكو-، السعودية، 1997.
- 14) التازي عبد الهادي، «صقلية في مذكرات السفير ابن عثمان»، مجلة المناهل، ع10، السنة الرابعة، إصدار وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط، نوفمبر 1977.
- 15) تشركوا كليليا سارنلي، «السفير محمد بن عثمان المكناسي وبعثته الدبلوماسية إلى نابولي سنة 1782/ أواسط شعبان 1196هـ»، ضمن ندوة أدب الرحلة والتواصل الحضاري، منشورات كلية الآداب، مكناس، 1993.
- 16) جبار إبراهيم حسين، «إيالة تونس في عهد أحمد باشا باي: دراسة تاريخية»، المستقبل العربي، مج40، ع464، مركز دراسات الوحدة العربية، أكتوبر، لبنان، 2017.
- 17) حبوش حميد آيت، «الرحلة وكتابة تاريخ بلاد المغرب»، مجلة الحوار المتوسطي، ع9-10، منشورات مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة الجليلي ليايس، سيدي بلعباس، الجزائر، سبتمبر 2015.
- 18) الحجري هلال، «أدب الرحلات والاستشراق: البحث عن المنهج»، نزوى، ع55، يوليو 2008.

- 19) حشلاف لخضر وروباش جميلة، «الآخر في الرحلات المغربية»، مجلة آفاق للعلوم، جامعة الجلفة، ج1، ع8، جوان 2017.
- 20) حكيم محمد بن عزوز، «عزل الوزير الغزال بين الأسطورة والتاريخ»، ضمن أعمال الدورة الثالثة لفعاليات جامعة مولاي علي الخريفية، مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، ديسمبر 1991.
- 21) حيمر عبد السلام، «صورة الآخر من خلال تقارير الرحلات السفارية المغربية في أوروبا»، ضمن كتاب صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، تحرير: الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999.
- 22) حيمر عبد السلام، «مظاهر الحداثة الأوروبية في الكتابات السفارية المخزنية (الحداثة العسكرية نموذجاً)»، مجلة مكناسة-كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي إسماعيل، ع6، مكناس، 1992.
- 23) خليفني عبد القادر، «الرحلات بين المغرب والمشرق وقيمتها التاريخية»، مجلة المواقف للدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ، ع4، منشورات جامعة معسكر، الجزائر، ديسمبر 2009.
- 24) خليل أبو عيد عارف وجانبولات أورهان، «قوانين نامة في الدولة العثمانية دوافعها وأهدافها وآثارها»، دراسات علوم الشريعة والقانون، مج39، ع1، الجامعة الأردنية، 2012.
- 25) الحميري الطاهر، «تعريف بابن أبي الضياف وتاريخه»، مجلة الفكر، ع9، تونس، 1 يونيو 1960.
- 26) دانيال نيومان، «رحلة سليمان بن صيام إلى فرنسا (عام 1852 م) صفحة منسية في تاريخ الجزائر»، كرونوس، ع17، جامعة البلمند، لبنان، 30 يونيو/حزيران 2008.
- 27) الدباغ محمد بن عبد العزيز، «ارتسامات تاريخية حول مولاي إسماعيل من خلال: (رحلة الوزير في اقتكاك الأسير)»، ضمن أعمال الدورة الأولى لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية، مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني ديسمبر 1989.
- 28) ذاكر عبد النبي، «تَلَقِّي المسرح الغربي في الرحلات المغربية من القرن 17م إلى مطلع القرن 20م»، مجلة فكر ونقد، ع95، فبراير 2008.
- 29) ذاكر عبد النبي، «مرآة الغيرية وأسئلة التحديث في الرحلات السفارية المغربية منذ مطلع القرن 18م إلى مطلع القرن 20م»، ضمن أعمال ندوة: الرحالة العرب والمسلمون: اكتشاف الآخر: المغرب منطلقاً وموتلاً، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، نوفمبر 2003.
- 30) الزاهي فريد، «الممانعة والفتنة الجسد والذات والصورة: متخيل الرحلة السفارية المغربية إلى أوروبا»، مجلة الكوفة، ع2، ربيع 2013.
- 31) الزين محمد وأوسليم صالح، «ملامح من الحياة العامة بالجزائر في كتب الرحلات»، مجلة الحوار المتوسطي، ع9-10، سبتمبر 2015.
- 32) السامرائي قاسم، «معرفة إريبنوس وخوليوس بالعالم المسلم أحمد بن قاسم الأندلسي»، مجلة عالم الكتب، مج10، ع2، ماي 1989.

- 33) سعد الله مكي، «البقاع المقدسة في الرحلة الغربية - رحلة في بلد العجائب - (حجٌ مسيحيٌّ إلى مكة والمدينة)»، دراسات استشرافية، ع16، السنة الخامسة - خريف 2018م / 1440هـ.
- 34) السنوسي محمد، «ذيل أقدم ترجمة لابن أبي الضياف»، حوليات الجامعة التونسية، ع5، تونس.
- 35) شاشية حسام الدين، «الجدل الديني من خلال كتاب "ناصر الدين على القوم الكافرين"، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2015.
- 36) شاشية حسام الدين، «تطور صناعة صورة المسلم في العقل الأوروبي خلال الفترة الحديثة: تجذر القلق»، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2019.
- 37) شاشية حسام الدين، «صورة المسلم في المِخيال الغربي خلال الفترة الحديثة»: تجذر القلق»، الكراسات التونسية، ع218-219، 2014.
- 38) شاشية حسام الدين، «قرار الطرد في الكتابات الإسبانية والموريسكية: بين مقاربتين من التأريخ التبريري»، ضمن أعمال المؤتمر الخامس عشر والسادس عشر حول الدراسات الموريسكية: الأبحاث الجديدة للموروسولوجي خلال العقود الثلاثة الماضية، إشراف وتقديم عبد التيممي الجليل، منشورات مركز الدراسات والترجمة الموريسكية، ومنشورات مؤسسة التيممي للبحث العلمي، أيار 2013.
- 39) الشبلي إبراهيم خليل، «المساران التاريخي والديني في وعي (الآخر) عند حسين العودات»، قلمون للدراسات والأبحاث، ع4، ديسمبر/جانفي 2018.
- 40) الشتيوي أحمد، «اهتمامات الغزال من خلال رحلته»، حوليات الجامعة التونسية، ع25، 1986.
- 41) شكرى مسعود وآخرون، «صورة الآخر الإسرائيلي في رواية "المتسائل" لإميل حبيبي»، إضاءات نقدية، السنة السابعة، ع27، جوان 2017.
- 42) الشنوفي المنصف، «رسالة أحمد بن أبي الضياف في المرأة»، حوليات الجامعة التونسية، ع05، 1968.
- 43) الشنوفي المنصف، «مصادر عن رحلتي الأستاذ الإمام محمد عبده إلى تونس (6 ديسمبر 1884-4 جانفي 1885 و9-24 سبتمبر 1903)»، حوليات الجامعة التونسية، ع3، 1966.
- 44) الشنوفي علي، «قصب من الرحلة الحجازية لمحمد السنوسي (الخبر عن التونسيين بالآستانة)»، حوليات الجامعة التونسية، ع07، 1970.
- 45) طرشون نادية، «سياسة نابليون الثالث العربية»، مجلة دراسات وأبحاث، ع26، السنة التاسعة، مارس 2017.
- 46) عائشة ناقل وكرم ولد النبية، «فرق الصباحية واستغالها داخل الاستراتيجية الاستعمارية في الجزائر 1830-1845»، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، مج12، ع1، جامعة سيدي بلعباس-الجزائر، ديسمبر 2019.
- 47) علي صالح حوى النبي، «الموريسكيون الأندلسيون»، مجلة الفيصل، ع349، أغسطس 2005.
- 48) عمران كمال، «الشيخ إبراهيم الرياحي (1767م-1850م)»، مجلة الحياة الثقافية، ع176، تونس، 1 أكتوبر، 2006.

- 49) الفاسي محمد، «الوزير محمد بن عثمان»، المغرب الجديد، ع 11، السنة 2، فاتح ربيع النبوي 1355هـ.
- 50) الفكيكي حسن، «الثغور المغربية المحتلة والاتفاق المغربي الإسباني لسنة 1767»، ضمن أعمال الدورة الثالثة لفعاليات جامعة مولاي علي الخريفية، مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، ديسمبر 1991، ص 149.
- 51) الفكيكي حسن، «جهاد الدولة العلوية في حماية الثغور: سيدي محمد بن عبد الله وتعبئة الطاقات لاسترجاع مليلية»، مجلة دعوة الحق، ع 263، رجب 1407-مارس 1987.
- 52) قاري لطف الله، «ثقافة الموريسكيين العلمية من خلال كتاب الحجري»، مجلة الفيصل، ع 296، دار الفيصل الثقافية، أبريل 2001.
- 53) قاسم محيي الدين، «التعاملات والمراسيم الدبلوماسية في الدولة العثمانية»، مجلة الاجتهاد، ع 43، السنة 11، دار الاجتهاد، بيروت-لبنان، صيف 1999.
- 54) القرشي سليمان، «صورة المرأة الغربية في الرحلة المغربية إلى أوروبا»، ضمن أعمال ندوة: الرحالة العرب والمسلمين: اكتشاف الآخر-المغرب منطلقا وموتلا، ط 1، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، المغرب، نوفمبر 2003.
- 55) كراغل محمد، «صورة الآخر في رحلة سليمان ابن صيام الملياني إلى باريس (1852م)»، ضمن كتاب: المحجرة: الحراك والنفي وآثارهم على الصعيد الثقافي واللغوي، إشراف: كمال فيلاي، جوان 2010.
- 56) كساس صافية، «الرحلات العلمية من وإلى المغرب العربي ودورها في تنشيط الحركة العلمية والتعليمية في المغرب الغربي»، مجلة الممارسات اللغوية، ع 8، جامعة مولود معمري-تيزي وزو، الجزائر، 2011.
- 57) لمودن عبد الرحيم، «صورة-الآخر-ومعطيات ديموغرافية في الرحلة السفارية من خلال تحفة الملك العزيز بمملكة باريز لإدريس العمراوي»، مجلة كنانيش، ع 3، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة-المغرب، 2001.
- 58) لوي كاردياك، «ظاهرة التكهن علامة من علامات الهوية الموريسكية»، مقال منشور ضمن كتاب: تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الإسبانية والعربية الإسلامية منها، منشورات مركز الدراسات والترجمة الموريسكية ومنشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، فيفري 2011.
- 59) المدفعي حسونة، «إصلاحات خير الدين والمشروع النهضوي»، مجلة الإتحاف، ع 222، 1 ماي 2012.
- 60) المربني نجاة، «أبو عبد الله محمد بن سعيد السلاوي وسفارته بفرنسا»، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ع 319، ذو الحجة 1416/مايو-يونيو 1996.
- 61) مسعود عوادي، «توظيف الاستعمار الفرنسي للرحلة الجزائرية (القرن 19م) وتوجيهها وفقا لمنطقه الثقافي والفكري»، مجلة المصادر، ع 25، يونيو 2012.
- 62) معنينو عز المغرب، «سفارة الحاج محمد الزبيدي والسرقة التي تعرضت لها بإيطاليا من خلال رحلة إدريس الجعدي (في عهد السلطان المولى الحسن الأول)»، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ع 323، جمادى 2 1417/نوفمبر 1996.

- 63) معينو عز المغرب، «وصف صنائع الفرنج وحيلهم العجيبة للجعيدي»، أعمال ندوة الرحالة العرب والمسلمون: اكتشاف الآخر-المغرب منطلقاً وموتلاً، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003.
- 64) المكاوي أحمد، «إشكالية العدوى والاحتراز من الأوبئة في المغرب القرن 19م»، ضمن أعمال الأيام الوطنية العاشرة: المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مدينة الجديدة-المغرب، أكتوبر 2002.
- 65) المتوني محمد وبن عبود احمد، «رحلة ابن عثمان إلى القدس الشريف ومناطق من فلسطين»، مجلة المناهل، ع39، 1 ديسمبر 1990.
- 66) مهديد إبراهيم، «الأرستقراطية التقليدية الوهرانية خلال القرن 19م والرأسمالية الاستعمارية: إشكالية الاندماج الاجتماعي»، مجلة إنسانيات، ع4، جانفي-أفريل، 1998.
- 67) الناصر سعاد، «الأبعاد المعرفية والحضارية للغرب في رحلة الكردودي»، مجلة الفيصل، مطبعة الفيصل الثقافية، جوان 1995، ع223.
- 68) نصوري فارس فرنك، «الملك هنري الثامن والانفصال عن الكنيسة الرومانية (1509-1547)»، مجلة أبحاث البصرة (العلوم الإنسانية)، مج 37، ع7، السنة 2012.
- 69) هاب حسام، «ثنائية التقليد والحداثة في خطاب النخبة المغربية خلال القرن 19م: الرحلات السفارية أنموذجا»، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المغرب. 2015.
- 70) هاب حسام، «خطاب الرحلات السفارية المغربية خلال القرن 19 م: «الرحلة الابريزية إلى الديار الانجليزية» نموذجاً (أبي الجمال محمد الفاسي الطاهر: 1830 م 1868 م)»، جريدة الاتحاد الاشتراكي، يوم 18 - 08 - 2010.

- الرسائل الجامعية:

- 1) الإمام رشاد، سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814م، رسالة دكتوراه في الفلسفة، الجامعة الأمريكية ببيروت.
- 2) بوغوفالة ودان، الثورة الفرنسية وبونابرت في الكتابات المغاربية خلال القرن الثالث عشر هجري/ التاسع عشر ميلادي، بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، بوزريعة- الجزائر، 2000-2001.
- 3) دوحة عبد القادر، صورة أوروبا في المصادر التاريخية المغاربية وتأثيرها على التفكير المغاربي (1203-1317هـ/1789-1900م)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2، 2011-2012.
- 4) روباش جميلة، الرحلة في المغرب العربي، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري القديم، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2014/2015.
- 5) سهيل جمال، البعثات الدبلوماسية المغربية إلى البلاط الفرنسي خلال القرن 11هـ/17م، مذكرة شهادة الماجستير في تخصص التاريخ الحديث، المركز الجامعي بغرداية، الجزائر، 2010-2011.

- (6) عوادي مسعود، اكتشاف الرحلات التونسية والجزائرية للفكر الأوروبي ونقله إلى المغرب العربي خلال القرن التاسع عشر، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2010-2011.
- (7) الهروط بلال سالم، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، قسم اللغة العربية، جامعة مؤتة، الأردن، 2008.

- القواميس والمعاجم والموسوعات:

- (1) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير وآخرون، مج3، ج18، دار المعارف، 1979.
- (2) بدوي عبد الرحمان، موسوعة المستشرقين، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1993.
- (3) بن عبد الله الحمد محمد بن سعود، موسوعة الرحلات العربية والمعرية المخطوطة والمطبوعة: معجم بليوغرافي، ط1، فهرسة دار الكتب والوثائق القومية أثناء النشر، القاهرة، 2007.
- (4) الجيوسي مصطفى، موسوعة علماء العرب والمسلمين وأعلامهم، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، 2005.
- (5) الزركلي خير الدين، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربة والمستشرقين)، ج2، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002.
- (6) مجموعة من المؤلفين، معلمة المغرب، إشراف: محمد حجي، ج2، ج7، ج8، ج9، ج13، ج20، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، الرباط-المغرب.
- (7) محفوظ محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1982.
- (8) محفوظ محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، ج3، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1984.
- (9) موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، ط1، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ودار الجليل، تونس وبيروت، 2005.

- الجرائد:

- (1) جريدة المبشر، ع132، مطبعة الدولة، الجزائر، 28 فيفري 1853.
- (2) جريدة المبشر، ع115، مطبعة الدولة، الجزائر، 15 جوان 1852.
- (3) جريدة المبشر، ع116، مطبعة الدولة، الجزائر، 01 جويلية 1852.
- (4) جريدة المبشر، ع117، مطبعة الدولة، الجزائر، 15 جويلية 1852.
- (5) جريدة المبشر، ع117، مطبعة الدولة، الجزائر، 15 جويلية 1852.
- (6) جريدة المبشر، ع118، مطبعة الدولة، الجزائر، 01 أوت 1852.
- (7) جريدة المبشر، ع119، مطبعة الدولة، الجزائر، 15 أوت 1852.
- (8) جريدة المبشر، ع130، مطبعة الدولة، الجزائر، 30 جانفي 1853م.

- 1) Antar Michel, **Chevauchées d'un futur Saint-Cyrien à travers les Ksour et oasis oranais**. Hetzel. Paris. 1907.
- 2) Debbech Ons, **Les voyageurs tunisiens en France au XIX^e siècle**, L'Harmattan, paris, 2016.
- 3) Esquinaldo Francisco Ventosa, **Pensamiento de San Juan de Dios y la Orden Hospitalaria y su relación con la Enfermería: conceptos y valores**, Archivo-Museo San Juan de Dios "Casa de los Pisa". Granada, 2012.
- 4) Guy SAUPIN, **La France à l'époque moderne**, Armand Colin, Paris, 2004.
- 5) **Livre d'Or de l'Algérie 1830-1889**, Par Narcisse Faucon, Paris 1889.
- 6) McDougall James, **A History of Algeria**, Cambridge University Press, 2017.
- 7) Pérès Henri, **L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1610 à 1930**, Librairie d'Amérique et d'Orient, Adrien Maisonneuve Paris, 1937.
- 8) Rodriquez Mercedes Garcia-Arenal, Mediano Fernando Rodríguez, **The Orient in Spain: Converted Muslims**, the Forged Lead Books of Granada, and the Rise of Orientalism, Translated by: Consuelo López-Morillas, Brill, Leiden- Boston, 2013.
- 9) SALHI Mohammed Brahim, **La tariqa Rahmaniya De l'avènement à l'insurrection de 1871**, Haut-Commissariat à l'Amazighité, 2008.
- 10) sanz Miguel, **Breve Noticia de la vida del Excelentísimo Señor Don Jorge Juan y Santacilia**. Editorial: Universidad de Alicante, Servicio de Publicaciones, 2013.
- 11) Vrolijk Arnoud, Richard van Leeuwen, **Arabic Studies in the Netherlands: A Short History in Portraits, 1580-1950**, Translated by: Alastir Hamilton, BRILL, Leiden-Boston, 2014.

- 1) almira Maria martinez, «**El tratado de paz de 1767 entre España y Marruecos. Un instrumento jurídico de extraterritorialidad, en Le Droit par-dessus les frontières. Il Diritto sopra le frontiere**», Napoli, Casa Editrice Jovene, 2003.
- 2) Arenal Mercedes García- y Mediano Fernando Rodríguez, «**Médico, traductor, inventor: Miguel de Luna, Cristiano arábigo de Granada**», Chronica nova: Revista de historia moderna de la Universidad de Granada, N°36, 2006.
- 3) Caillé Jacques, «**Ambassades et missions marocaines en France** », Hespéris-Tamuda, vol. 1, NO 1, université de rabat faculté des lettres, 1960.
- 4) de Jong Joop, «**The Dutch Golden Age and Globalization: History and Heritage, Legacies and Contestations**», Macalester International: Vol. 27, December, 2011.
- 5) Enciso Agustín González, «**Asentistas y fabricantes: el abastecimiento de armas y municiones al Estado en los siglos XVII y XVIII**», Studia Historica., NO 35, February 2013.
- 6) Ezzahidi Malika, «**Le rachat des captifs musulmans à Malte en 1782, d'après le récit de voyage d'Ibn Uthmân Al Meknassî**», Cahiers de la Méditerranée , NO87, 15 December 2013.
- 7) Gorostiza José Luis Ramos, «**La imagen económica de la España de Carlos III: Joseph Townsend, Alexander Jardine y los economistas españoles**», Revista de Historia Económica, Año XXIV, primavera 2006.
- 8) Hachi Idir, «**Le regard du vaincu: deux algériens à Paris en 1852**», Périples au Maghreb: Voyages pluriels de l'Empire à la Postcolonie (XIXe – XXIe siècles), Ouvrage sous la direction de Fabienne le Houerou, Octobre2016.
- 9) Herencia Gonzalo Roldán, «**La construcción del rito de San Cecilio en la Catedral de Granada**», Nuevas perspectivas sobre el Barroco Andaluz. Arte, Tradición, Ornato y Símbolo, coord: María del Amor Rodríguez Miranda, Asociacion Hurtado Izquierdo, Gordoba, España, 2015.
- 10) Konrad Felix, «**From the "Turkish Menace" to Exoticism and Orientalism: Islam as Antithesis of Europe (1453–1914)**» in: European History Online (EGO), published by the Institute of European History (IEG), Mainz 2011-03-14.

- 11) Mesa Enrique Soria, «**Los moriscos que se quedaron. La permanencia de la población de origen islámico en la España Moderna: Reino de Granada, siglos XVII–XVIII**», Vínculos de Historia, NO1, 2012.
- 12) Molero Juan Francisco Pardo, «**Desdichados e imprudentes. Los moriscos y su expulsión en la memoria escrita del siglo XVII**», Tiempos modernos: Revista Electrónica de Historia Moderna , Vol. 8, N°. 31, 2015.
- 13) Newman Daniel, «**Ahmad Bey's journey to the land of the Fransis (1846)**», Revue Ibla, No 201, Tunis, 2/2007.
- 14) Palau Mariano Arribas, «**Cautiverio de cinco espanoles en Argel (1780–1782)**» Tamuda Hespéris–, Vol. 16, N° 1, Rabat, 1975.
- 15) Palau Mariano Arribas, «**Muhammad Ibn Utman designado gobernador de Tetuán a finales de 1792**», Hespéris–Tamuda, Vol II , Rabat, 1961.
- 16) Palau Mariano Arribas, «**Rescate de cautivos musulmanes en Malta por Mohammad Ibn Utman**», Hespéris– Tamuda, VOL:x, Rabat, 1969.
- 17) Palau Mariano Arribas, «**Un rescate de 600 musulmanes cautivos en Malta (1788–89)**», Hespéris– Tamuda, VOL XXV, Rabat, 1987.
- 18) Pazos Miguel Conde, «**La embajada turca en Madrid y el envío de Alegreto de Allegretti a Constantinopla (1649–1650)** », Libros del a corte.es, Vol 3, No3, 2011.
- 19) Rinn Louis, «**Deux documents indigènes sur l'histoire de l'insurrection de 1871**», Revue Africaine, VOL 35, année 1891. Paris.
- 20) Saddek Benkada, «**Cimetières et extension urbaine en situation coloniale: le cas du cimetière musulman d'Oran (1868)** », Insaniyat, No68, 2015.
- 21) Tazi Abdelhadi, «**Cádiz en el viaje de Muhammad Ibn 'Utman, embajador del rey Muhammad III, a Nápoles y Malta**», Al-Andalus Magreb: Estudios árabes e islámicos, N° 6, 1998.
- 22) Terki-Hassaine Ismet, «**Spanish–Algerian connections in the Ottoman period (1505–1830)**», Hesperia, culturas del mediterráneo, Junio 2015.
- 23) Wiegers Gerard, «**Moriscos and Arabic studies in Europe**», Al-Qantara XXXI 2, julio–diciembre 2010.

الفهارس:

- فهرس الأعلام
- فهرس الأماكن
- فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام:

أ

أبو يعلى عمارة بن موسى: ص 61.

إبراهيم (عليه السلام): ص 188.

إبراهيم الرياحي: ص 110-115.

إبراهيم الشريف: ص 109.

إبراهيم باشا: ص 412.

إبراهيم بن السموأل بن زكوة: ص 33.

ابن الخطيب: ص 41.

ابن بطوطة: ص 18.

ابن عربي: ص 402.

ابن منظور: ص 12.

أبو القاسم الزباني: ص 7-65-66-67.

أبو القاسم الغساني: ص 44.

أبو القاسم سعد الله: ص 7.

أبو بكر الصديق: ص 460.

أبو علي الدقاق: ص 67.

أحمد الأول (سلطان عثماني): ص 39-220.

أحمد الكردودي: ص 6-103-104-105-106.

456-457-522.

أحمد المنصور الذهبي (السلطان): ص 32-36-44-45.

196-198-246.

أحمد الناصري: ص 7-44-92-101-102.

446.

أحمد باي: ص 112-113-114-115-116-117.

119-121-425-430-438-443-459.

أحمد بن أبي الضياف: ص 6-110-111-112-113.

114-115-116-117-119-391-393.

394-395-396-397-398-399-400.

401-402-405-410-412-419-423.

425-428-430-431-432-438-443.

459-460-488-526-531-541.

أحمد بن الخوجة: ص 109.

أحمد بن المهدي الغزال: ص 6-49-54-55-56-57.

58-59-60-61-62-63-64-185-196.

197-198-205-206-207-209-210-211.

212-213-214-215-223-239-254-255.

256-259-260-261-262-263-264-265.

267-270-272-272-277-279-281-282.

284-286-289-293-294-295-296-301.

313-315-318-319-329-349-365-369.

373-378-379-380-383-440.

أحمد بن عبد الوهاب الغساني: ص 44.

أحمد بن قاسم الحجري (أفوقاي): ص 3-6-30-32.

33-34-35-36-37-38-39-40-41-54.

179-180-182-187-188-189-190.

195-199-201-202-203-204-205.

213-216-217-218-219-220-221.

222-224-227-244-246-255-275.

276-288-289-291-292-301-303-304.

333-335-336-337-339-340-341.

342-343-344-345-347-365-373.

476-544.

أحمد عبد السلام: ص 7.

أحمد فارس الشدياق: ص 463.

أحمد ولد قادي: ص 6-411-412-423-424.

443-450-458-459-469-516-517.

536.

إدريس الجعيدي: ص 6-98-99-100-101-102.

442-447-452-453-454-455-472.

إدريس العمراوي: ص 6-89-90-91-92-93-94.

95-96-407-409-417-418-420-421.

437-444-445-446-447-449-451.

467-476-479-480-481-489-490.

491-511-512-515-520-521-523.

----- خ -----

خالد بن الوليد: ص 460.
خورخي خوان: ص 56-62.
خير الدين التونسي: ص 6-111-112-116-118-
119-120-121-122-123-124-125-
126-130-132-134-139-392-393-
394-395-396-397-398-399-400-
401-403-404-405-407-409-410-
412-413-414-416-417-418-419-
420-421-422-423-424-425-427-
428-429-430-431-432-445-447-
448-449-460-461-463-481-513-
523-525-526-527-528-529-531-
532-534-536-538-540-545-547.

----- ر -----

راندون: ص 141-145-457.
رفاعة الطهطاوي: ص 84-88-134-431-478-
545.

----- ز -----

الزبير سيف الإسلام: 142-144.
زيدان بن أحمد المنصور: ص 33-34-37-219.

----- س -----

سعد الدين الحنفي: 67.
سعيد بن سعيد العلوي: ص 7.
سليمان (عليه السلام): ص 188.
سليمان الثالث: ص 218.
سليمان القانوني: 200-404.
سليمان بن صيام: ص 6-138-139-140-141-
142-143-146-433-443-457-458-
466-515-516-522-529-530.

----- ش -----

شارل الثاني: ص 229.
شارل (كارلوس) الخامس: 235-237-299.

إسماعيل العلوي (السلطان): ص 44-45-46-47-48-
49-50-51-54-56-66-194-208-209-
226-254.

إسماعيل بن حماد الجوهرى: ص 327.
الأكيحل الأندلسي: ص 335.
الأمير عبد القادر: ص 83-84-85-139.
أنس ديش: ص 104.
إيتيان هوربارت: ص 38-244-337-338.
إيزابيل الكاثوليكية: ص 235.

----- ب -----

برنارد لويس: ص 240.
بيجو: 144-147.
بوسلهام بن علي: ص 85-86.
بيرم الرابع: ص 124.

----- ت -----

توماس أرينيوس: ص 32-340-341-343-344.

----- ج -----

جاك الثاني: ص 229.
جان ماري كاريه: ص 22.
جون كالفن: ص 168-227.
الجنرال حسين: ص 129-476.
الجنرال دولارو: ص 84.
جوزيبي رافو: ص 116.

----- ح -----

الحاج العربي عبد الكريم العطار: ص 87.
محمد الحداد: ص 144.
حسام الدين شاشية: ص 30-31.
الحسن الأول: ص 83-90-91-99-100-101-
104-452-455-456-
حسن الوزان: ص 491-
حسين باي: ص 111.
الحسين بن علي: ص 392.

الشريف بوبغلة: ص 139.

ص

صالح الحبس: ص 335

صديقي مصطفى: ص 67.

ط

الطاهر الفاسي: ص 6-96-97-437-441-442-447-450-451-452-518-519-520

ع

عاصم بن ثابت: ص 448.

عبد الحميد الأول: ص 69-128.

عبد الحميد الثاني: ص 120-133

عبد الرحمان العاجي: ص 97.

عبد الرحمان بن خلدون: ص 17-19-394-527.

عبد الرحمان بن زيدان: ص 7-66-89-100-205.

عبد الرحمان بن هشام: ص 79-80-81-85-87-88.

عبد السلام بن جسوس: ص 48.

عبد الصادق بن أحمد الريفي: ص 104-105.

عبد العزيز (السلطان): ص 405.

عبد القادر أشعاش: ص 82-83-86-87-475.

عبد القادر دوحه: ص 5.

عبد الله بن عائشة: ص 47.

عبد المجيد (السلطان): ص 405.

عبد المجيد القدوري: ص 7.

عبد الهادي التازي: ص 7-51-70.

علي الأجهوري: ص 40-41.

علي التمكنوتي: ص 17.

علي بن أبي طالب: ص 413.

عمر بن الخطاب: ص 413-427.

عمرو بن العاص: ص 393.

عباض اليحصي (القاضي): ص 34-182-342

عيسى ابن عبد الرحمان السكتي: ص 188.

عيسى عليه السلام: ص 160-161-163-203-204

402-309

غ

الغزالي: ص 13-413.

ف

فرانسوا غويار: ص 22.

فردناند الكاثوليكي: ص 290.

فرناند الرابع: ص 74-231-304-305-309-346

فرناند بروديل: ص 225-253.

فيليب الثالث: ص 36-181-218-237

فيليب الثاني: ص 237.

فيليب الخامس: ص 231.

فيليب الرابع: ص 235-236-237-299.

ق

قبادو: ص 124-129-131.

ك

كارلوس الثالث: ص 59-60-61-62-68-73

237-365-369-370-374-378-381

385.

كارلوس الثاني: ص 45-48-49-50-237-299.

كارلوس الرابع: ص 69.

كازابون: ص 332.

كراتشكوفسكي: ص 21.

كمال الدين الغزي الشافعي: ص 67.

ل

لويس الثالث عشر: ص 290.

لويس الثامن عشر: ص 498.

لويس الرابع عشر: ص 46-228-230-231-544.

لويس فيليب: ص 114.

ليون روش: ص 85-87.

م

محمد (رسول الله صلى الله عليه وسلم): ص 18-83

188-189-190.

مارتن لوثر: ص 175-227.

196-197-198-207-222-226-243-	ماري دي ميديتشي: ص 289.
254-261.	ماريا دي أوسطوريا: ص 299.
محمد بن عبد الوهاب الغساني: ص 6-43-44-45-	ماريا كارولينا: ص 299.
46-47-48-49-50-51-52-54-61-67-	ماكهمون: ص 127-496.
177-178-182-183-184-205-212-	المأمون: ص 528.
213-218-222-225-228-229-230-	محمد أشعاش: ص 82.
231-234-235-236-237-240-243-	محمد الحافي: ص 74-247.
246-247-248-249-251-254-257-	محمد الزبيدي الرباطي: ص 99-100-101-4452.
276-277-278-280-282-284-285-	محمد السعيد بن علي الشريف: ص 6-416-433-
289-295-299-300-301-302-303-	434-443-457-470-476-478-480-
304-305-307-308-309-311-313—	489-490-535.
314-318-320-321-322-327-328-	محمد السنوسي: ص 3-6-129-130-131-132-
345-347-356-360-361-362-363-364-	133-134-135-391-393-395-400-
365-366-367-369-371-373-374-	403-404-405-407-411-412-413-
375-376-377-422-423-424-426-	438-466-467-486-488-512-519-
427-428-429-431-434-435-472.	533.
محمد بن عثمان المكناسي: ص 6-49-54-55-56-	محمد الشامي: ص 97.
65-66-67-68-69-70-71-72-73-75-	محمد الصادق باي: ص 111-117-126.
76-77-78-184-185-198-205-206-	محمد الصفار: ص 6-80-81-82-83-84-86-
207-208-209-210-211-213-214-	87-88-91-94-412-415-417-437-
215-222-223-224-225-230-232-	439-440-441-442-444-445-446-
233-234-235-236-237-238-239-	449-450-451-453-459-460-475-
240-243-246-247-248-249-250-	476-477-478-484-485-487-488-
251-254-256-257-258-259-260-	489-490-512-514-515-520-530-
265-266-267-268-269-270-271-	531-533-534-535.
272-273-277-279-283-284-286-	محمد باي: ص 115.
290-291-295-296-297-299-302-	محمد بن إدريس العمرابي: ص 84-85-86-90
304-305-306-307-308-309-310-	محمد بن الحاج محمد اللبادي: ص 84.
311-312-314-315-316-317-318-	محمد بن حدو أعطار: ص 47.
319-320-321-324-325-326-327-	محمد بن صالح بن ملوكة: ص 110.
329-330-346-348-350-351-351-	محمد بن عبد الرحمان: ص 83-89-93-96-97-
354-355-357-358-365-366-368-	452.
369-370-371-372-373-374-375-	محمد بن عبد الله (السلطان): ص 54-57-58-59-
	60-66-67-68-69-73-74-77-98-194-

376-377-380-381-382-383-384-

385-386-440-472.

محمد بن ناصر: ص 61-224.

محمد بيرم الثالث: ص 110-124.

محمد بيرم الخامس: ص 6-124-125-126-127-

128-130-132-397-398-399-407-

410-412-415-417-421-438-463-

464-456-467-468-469-471-472-

473-473-476-479-480-481-482-

483-485-486-490-512-527-529-

532-533-534-535-536-537-538-

539-540-544.

محمد تميم: ص 46.

محمد علي: ص 412.

مسعود عوادي: ص 5.

مصطفى آغا: ص 109.

مصطفى باش آغا: ص 116.

مصطفى بن إسماعيل: ص 126-128-132.

مصطفى خزندار: ص 111-116-125-525.

معاوية بن أبي سفيان: ص 392-

المقرزي: ص 528.

مولاي اليزيد: ص 67-68-69.

مولاي سليمان: ص 67-68-70-71-95.

مونتسكيو: ص 391-392.

ن

نابليون الثالث: ص 93-140-141-146-147-

406-407-420.

نابليون بونابرت: ص 5-393.

ناصر الدين سعيدوني: ص 118.

ه

هنري الثامن: ص 178.

و

ودان بوغوفالة: ص 5.

ي

يعقوب (عليه السلام): ص 188.

يوسف عليه السلام: ص 454.

ياكوب خوليوس: ص 344.

يوسف آغا: ص 109.

فهرس الأماكن:

أ

إسبانيا: ص 6-9-30-31-32-33-35-38-43-45-46-49-50-52-55-56-57-58-60-61-62-63-64-65-68-69-70-71-72-73-74-77-91-92-103-105-156-162-172-177-179-180-181-182-183-184-185-195-197-198-203-207-209-210-213-214-215-217-218-220-221-222-223-224-227-230-231-232-233-235-236-239-244-246-248-254-257-262-263-267-271-272-276-277-278-279-280-283-284-285-287-298-302-308-311-314-315-318-319-321-325-326-327-328-333-335-336-349-352-355-360-361-362-363-365-367-369-370-371-372-373-376-378-379-380-381-382-384-385-386-387-416-457-472-543.

إشبيلية: ص 61-158-166-164-173-209-211-212-262-270-271-281-284-285-287-294-329-347-349-369-375-378-457.

أطرية: ص 281-282-284-289.

ألمانيا: 105-140-156-228-229-362-459.

أمريكا: ص 55-232-233-234-248.

إنجلترا: ص 6-46-47-55-96-97-99-100-102-113-114-127-128-129-175-177-178-229-230-232-233-378-379-234-422-452-455-463-464-469-503-520-531.

أوروبا: ص 1-2-3-4-5-6-7-8-9-10-24-26-29-30-35-36-40-42-48-52-54-55-58-63-65-68-76-77-78-80-86-91-92-96-98-99-100-101-102-105-109-114-115-118-121-124-125-127-129-131-134-142-150-153-155-156-158-160-161-167-168-169-173-174-175-176-177-179-182-185-186-187-188-189-190-191-193-194-195-196-199-200-201-202-203-204-205-206-208-211-213-214-215-221-224-227-228-229-230-232-234-235-242-244-245-248-249-253-259-261-275-277-278-288-292-293-294-298-302-303-304-305-307-308-311-312-313-316-323-324-325-333-336-337-340-342-343-344-345-346-347-348-349-350-351-352-353-355-356-358-360-365-369-370-371-372-373-377-378-382-384-387-390-391-392-393-394-395-396-397-398-400-401-402-403-404-405-406-408-409-411-412-413-414-415-416-417-419-420-422-423-424-425-427-430-431-432-433-434-435-437-438-439-443-444-447-449-450-451-452-455-456-458-459-460-461-463-464-465-467-468-469-474-475-476-477-479-494-495-496-498-499-501-502-506-508-509-510-512-514-516-518-519-520-521.

ج

جبل طارق: ص 51-223-257.
الجزائر: ص 7-46-57-62-69-72-75-76-83-94-112-125-127-129-137-138-145-144-143-142-141-140-139-147-148-149-256-352-411-424-434-458-498-522-530.

ح

الحجاز (الحرمين الشريفين): ص 15-18-35-40-67-98-134.
الحجر الأحمر: ص 31.

د

دمشق: ص 63-121.
الدولة العثمانية: ص 8-36-39-58-65-76-8-111-113-114-115-117-120-121-122-126-129-133-175-176-200-203-205-218-220-222-228-239-245-404-405-419-429-543-547.

ر

الرباط: ص 33-72-91-100-258.
روسيا: ص 58-424.
روما: ص 161-204.

ز

زواوة: ص 143-144.

س

سبتة: ص 50-61-156-206-211-222-254-255-256-258.
سلا: ص 98-99-100-223-264-265.
السويد: ص 55.

ش

شقوبية: ص 272-301-370-378-380.

525-526-529-531-533-534-536-537-538-541-543-544-545-547.
إيطاليا: ص 99-100-101-102-104-126-127-129-130-131-133-134-156-229-261-349-358-397-398-407-420-422-463-465-473-500.

ب

باريس: ص 6-37-38-41-47-85-86-87-93-94-95-97-102-113-115-119-125-126-127-128-134-141-145-149-150-165-188-336-337-339-340-341-343-347-423-430-434-440-450-453-457-459-465-466-469-470-494-495-496-500-501-502-503-507-515-516.
بجاية: ص 137-141-145.
البرتغال: ص 183-247.
بريطانيا: ص 97-100-262-407-420-421-544.
بلجيكا: ص 99-90-102-399-454.
بلغراد: ص 123-203-225.
بودابست: ص 121.
بورديو: ص 39-276-288.
بومباي: ص 128-348.

ت

تطوان: ص 80-81-82-86-87-91-92-94-95-96-97-214-352-437-451.
تلمسان: 69-84.
تونس: ص 7-34-35-75-76-92-109-112-113-114-115-116-117-118-120-122-124-125-126-127-128-129-130-132-133-134-413-419-463-473-512-531-539-540-541-547.

424-433-434-438-441-443-446-
453-457-458-459-463-465-466-
467-470-471-476-477-478-479-
527-529-530-531-536-540-543-
544-545.

فيينا: ص 121-203-406-407-411-412-
416-417-420-421-494-495-496-497-
498-499-501-502-503-506-510-
511-517.

ق -----
قادش: ص 71-257-351-354-366-373-
374-375-378-456.
القاهرة: 126.
قرطاجنة: ص 268-287-318-329.
قرطبة: 37-49-61-157-184-275-347-
369-378.
القسطنطينية (إسطنبول): ص 17-31-35-65-66-
67-68-118-119-120-126-130-131-
133-203-204-220-221-244-245-
246-473.

ل -----
لندن: ص 97-116-125-126-503.
لیدن: ص 340-343.
ليون: ص 509.

م -----
مارسيلييا: ص 87-94-95-102-500.
مالطا: ص 6-55-65-68-69-73-74-75-76-
77-78-128-203-224-225-236-246-
247-248-257-309-312-317-325-
326-327-357-371-376-536.
مانشأ: ص 366-369.

ص -----
صقلية: ص 6-55-65-74-75-76-250-330-
346-348-355-356-371-373-543.
الصويرة: ص 59-83-258-261-297-310-
317.

ط -----
طرابلس: ص 71-75-76.
طليطلة: ص 51-329-378.
طنجة: ص 61-69-70-83-84-87-94-97-
101-102-214-254.
طولون: ص 116-439-459.

ع -----
العرائش: ص 44-46-47-84-222-223-254-
264-265.
عنابة: ص 143.

غ -----
غرناطة: ص 31-33-41-49-62-216-282-
284-286-278-313-334-334-366-378.

ف -----
فاس: ص 43-66-80-94-96-97-98-103-
فالنسيا: ص 181-218-219-247.
فرندة: ص 136-138-147.
فرنسا: ص 3-6-7-30-35-37-39-41-46-
55-58-80-83-84-85-86-87-88-89-
91-93-94-95-96-99-100-101-102-
104-105-109-110-111-112-113-
114-115-116-117-119-121-128-
129-131-137-138-139-140-141-
142-143-144-145-147-148-149-
150-155-164-175-188-197-205-
220-228-229-230-232-246-247-
249-276-303-334-336-337-339-
344-347-363-378-379-398-423.

334-337-340-342-343-344-347-
378-543-544.

----- و -----

وهران: ص58-139-143-147.

مدريد: ص51-61-62-69-71-94-170-209-
225-282-301-310-313-319-322-
328-329-347-356-364-375-376-
379-380-381-456.
مراكش: ص33-34-70-74-83-89-99-105.
مصر: ص35-40-92-129-218-244-528.
المغرب الأقصى: ص4-5-6-7-8-30-32-3536-
37-38-40-43-51-54-55-5657-
59-63-64-67-69-70-71-73-74-75-
77-80-82-83-84-85-86-88-91-92-93-
95-96-97-98-100-101-104-105-
109-157-180-194-195-196-197-198-
203-204-205-206-207-208-209-
211-214-215-219-221-222-224-
239-246-251-254-261-262-266-
270-282-291-352-365-374-375-
377-379-387-406-409-412-419-
426-437-440-442-446-452-453-
456-516-543-545.
مكناس: ص45-61-66-68-70-80.
مليانة: ص138-139-141-222-223.
مليية: ص58-72-140-156.

----- ن -----

نابولي: ص6-55-65-68-73-75-76-77-
131-134-237-237-240-243-246-
247-249-250-257-258-261-266-
269-279-290-291-296-306-312-
314-317-319-320-330-348-355-
357-358-376-377-385-543.
النمسا: ص124.

----- ه -----

هولندا: ص3-37-40-41-175-176-189-
213-212-222-227-276-303-333-

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوعات
	الإهداء
	شكر وعرفان
11-1	مقدمة
13	مدخل
13	أولا: في الرحلة
23	ثانيا: في الصورة
25	ثالثا: الآخر ومغزى النظر إليه
	القسم الأول: الرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرن 17-19م
30	الفصل الأول: الرحالون والرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرن 17م
30	أولا: أحمد بن قاسم الحجري (أفوقاي) ورحلته إلى أوروبا (1611-1613م)
30	1- التعريف بصاحب الرحلة
36	2- رحلة الحجري إلى أوروبا
43	ثانيا: رحلة محمد بن عبد الوهاب الغساني إلى إسبانيا 1690-1691م
43	1- التعريف بصاحب الرحلة
46	2- رحلة الغساني إلى إسبانيا 1690-1691م
54	الفصل الثاني: الرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرن 18م
56	أولا: أحمد بن المهدي الغزال ورحلته إلى إسبانيا 1766م
56	1- التعريف بصاحب الرحلة
59	2- رحلة الغزال السفارية إلى إسبانيا 1766م
65	ثانيا: محمد بن عثمان المكناسي ورحلاته إلى أوروبا
65	1- التعريف بصاحب الرحلة
71	2- رحلة ابن عثمان إلى إسبانيا 1779-1780م
73	3- رحلة ابن عثمان إلى مالطا ونابولي وصقلية 1781-1782م
80	الفصل الثالث: الرحلات المغربية إلى أوروبا خلال القرن 19م
80	أولا: محمد الصفار ورحلته إلى فرنسا 1845-1846م
80	1- التعريف بصاحب الرحلة

83	2- رحلة الصفار إلى فرنسا 1845-1846م
89	ثانيا: رحلة إدريس العمرأوي إلى فرنسا 1860م
89	1- التعريف بصاحب الرحلة
91	2- رحلته إلى فرنسا 1860م
96	ثالثا: رحلة الطاهر الفاسي إلى إنجلترا 1860م
96	1- التعريف بصاحب الرحلة
96	2- رحلة الفاسي إلى إنجلترا
98	رابعا: رحلة إدريس الجعيدى إلى أوروبا 1876م
98	1- التعريف بصاحب الرحلة
99	2- رحلته إلى أوروبا
103	خامسا: رحلة أحمد الكردودي إلى إسبانيا 1885م
103	1- التعريف بصاحب الرحلة
105	2- الرحلة إلى أوروبا
109	الفصل الرابع: الرحلات التونسية إلى أوروبا خلال القرن 19م
110	أولا: أحمد ابن أبي الضياف ورحلته إلى فرنسا 1846م
110	1- التعريف بصاحب الرحلة
112	2- رحلته إلى فرنسا 1846م
118	ثانيا: خير الدين التونسي ورحلاته إلى أوروبا
118	1- التعريف بصاحب الرحلة
121	2- رحلاته إلى أوروبا
124	ثالثا: محمد بيرم الخامس ورحلاته إلى أوروبا
124	1- التعريف بصاحب الرحلة
127	2- رحلاته إلى أوروبا
129	رابعا: محمد بن عثمان السنوسي ورحلاته إلى أوروبا
129	1- التعريف بصاحب الرحلة
131	2- رحلاته إلى أوروبا
137	الفصل الخامس: الرحلات الجزائرية إلى أوروبا خلال القرن 19م
139	أولا: رحلة سليمان بن صيام إلى فرنسا 1852م

139	1- التعريف بصاحب الرحلة
141	2- رحلته إلى فرنسا
143	ثانيا: محمد السعيد ابن علي الشريف ورحلته إلى فرنسا 1852م
143	1- التعريف بصاحب الرحلة
145	2- الرحلة إلى فرنسا
147	ثالثا: أحمد ولد قادي ورحلته إلى فرنسا 1878م
147	1- التعريف صاحب الرحلة
149	2- الرحلة إلى فرنسا 1878م
القسم الثاني: صورة أوروبا في نصوص الرحلات المغربية خلال القرنين 17 و18م	
153	الفصل الأول: تمثلات الرحالة للواقع الديني في الأوروبي خلال القرن 17-18م
153	أولا: الآخر الأوروبي المختلف دينيا
158	ثانيا: دين الآخر في نصوص الرحالة المغاربة
158	1- الجدل الديني ومعرفة دين الآخر
160	2- في العقائد النصرانية
163	3- الشعائر الدينية النصرانية
169	ثالثا: الرحالون المغاربة يكشفون فساد الكنيسة
169	1- الكنيسة والفساد الاجتماعي
171	2- الفساد الأخلاقي لرجال الكنيسة
175	رابعا: الحركة الدينية في أوروبا في نصوص الرحلات المغربية
175	1- حركة الإصلاح الديني
176	2- الحركة الدينية في إنجلترا
179	خامسا: أوروبا التعصب الديني
179	1- معاناة الموريسكيين صورة من صور التعصب الأوروبي نهاية القرن 16 ومطلع القرن 17م
182	2- مظاهر التعصب الديني في أوروبا نهاية القرن 17 و18
186	سادسا: صورة الإسلام والمسلمين في أوروبا خلال العصر الحديث
186	1- الإسلام والعنف
187	2- الإسلام والعلم
187	3- الإسلام واللذة والمفاسد الأخلاقية

189	4- صورة نبي الإسلام في أوروبا العصر الحديث
193	الفصل الثاني: تمثلات الرحالة المغاربة للواقع السياسي في أوروبا خلال القرنين 17 و18م
193	أولاً: في العلاقة مع الآخر الأوروبي سياسياً
199	ثانياً: صورة الدولة العثمانية في أوروبا نهاية القرن 16 وبداية 17م (القوة الإسلامية ورعب أوروبا)
199	1- هبة الدولة العثمانية وسلطانها في أوروبا
201	2- الأوروبيون لا يعرفون المسلمين إلا أتركا
202	3- صورة الدولة العثمانية في نبوءات الإسبان والموريسكيين
205	4- التمثيل الدبلوماسي دليل قوة العثمانيين في أوروبا
206	ثالثاً: تضخيم الأنا وتقزيم الآخر: صورة المغرب وأوروبا في رحلات القرنين 17-18م
206	1- مكانة المغرب وهبة وسلطانها/ ضعف الأوروبيين ومذلة ملوكهم
208	2- البروتوكولات الدبلوماسية صورة من صور هبة الأنا وضعف الآخر
212	3- اللقاء مع الآخر الأوروبي فرصة لإظهار الهبة والتفوق
216	رابعاً: العلاقات الإسلامية-الأوروبية خلال القرنين 17 و18م (القلق المتبادل)
216	1- القضية الموريسكية وأبعادها
222	2- الصراع على الحدود والثغور المغربية
224	3- الصراع البحري في البحر المتوسط
225	4- التوسع العثماني في أواسط أوروبا
226	5- تبادل وافتكاك الأسرى والمهادنة صفحة أخرى من العلاقات الأوروبية المغربية
227	خامساً: العلاقات الأوروبية-الأوروبية خلال القرنين 19 و17م
227	1- الحجري يرصد الصراع الهولندي-الإسباني (1568-1648)
228	2- الصراعات الأوروبية-الأوروبية خلال الربع الأخير من القرن 17م
228	- فرنسا في مواجهة أوروبا
229	- الثورة الإنجليزية 1688م وأثرها في أوروبا
230	3- الصراعات الأوروبية في القرن الثامن عشر
230	- حرب الوراثة الإسبانية 1702-1713م والصراع الأوروبي-الأوروبي
232	- حرب الاستقلال الأمريكية وتأثيرها على أوروبا
235	سادساً: النظام السياسي الأوروبي في رحلات القرنين 17-18م
235	1- نظام الحكم

236	2- الحكام الأوروبيون في رحلات المغاربة
240	3- الحكومة
242	سابعا: المؤسسة الدبلوماسية (اكتشاف الرحلات المغربية للدبلوماسية الأوروبية الحديثة وآلياتها)
242	1- في مفهوم السفير
243	2- اكتشاف الرحالة المغربية الدبلوماسية الأوروبية المقيمة (الدائمة)
246	3- ضوابط وأعراف الدبلوماسية الأوروبية الحديثة
253	الفصل الثالث: الواقع العسكري في أوروبا خلال رحلات القرنين 17 و18م
253	أولا: التحصين العسكري
261	ثانيا: التسليح والصناعة العسكرية
267	ثالثا: التنظيمات العسكرية الأوروبية
275	الفصل الرابع: المجتمعات الأوروبية في نصوص الرحالة المغربية خلال القرنين 17 و18م
275	أولا: الطبقات والمكونات الاجتماعية في أوروبا
280	ثانيا: بقايا الموريسكيين في إسبانيا خلال القرنين 17 و18م
288	ثالثا: المرأة الأوروبية في نصوص الرحلات المغربية
288	1- جمال المرأة الأوروبية في نصوص الرحالة المغربية (الصورة والموقف)
291	2- العلاقات بين الأفراد في أوروبا المرأة/ والرجل
298	3- واقع المرأة الأوروبية في نصوص الرحلات المغربية
298	- المرأة الأوروبية في المجال السياسي
300	- المرأة الأوروبية في المجال الاقتصادي
303	- المرأة الأوروبية في المجال الديني
308	رابعا: في الأعياد والاحتفالات الأوروبية
308	1- الأعياد الدينية وبعدها الاجتماعي
311	2- الأعياد الدنيوية (الشخصية)
313	خامسا: في التسلية والترفيه
318	سادسا: في الأكل والمائدة الأوروبية
324	سابعا: المؤسسات والنظم الصحية والاجتماعية في أوروبا
324	1- الكرتينة (الحجر الصحي) وإشكالية الاحتراز
327	2- المستشفيات

329	3- مؤسسات التكافل الاجتماعي
333	الفصل الخامس: الواقع العلمي والثقافي في أوروبا خلال القرن 17 و18م
333	أولاً: الاستشراق الأوروبي نهاية القرن 16 ومطلع القرن 17م: الحجري ناقلا ومساهما
334	1- الدراسات العربية في إسبانيا
336	2- الدراسات العربية في فرنسا
340	3- الدراسات العربية في هولندا
345	ثانياً: واقع التعليم في أوروبا
349	ثالثاً: التطورات الصناعية والتقنية الأوروبية
353	رابعاً: مظاهر الثقافة الأوروبية
360	الفصل السادس: واقع الاقتصاد الأوروبي في نصوص الرحلات المغربية خلال القرنين 17 و18م
360	أولاً: أزمة الاقتصاد الإسباني خلال القرن 17م
365	ثانياً: الفلاحة الأوروبية في نصوص الرحلات المغربية خلال القرنين 17 و18
373	ثالثاً: التجارة الأوروبية في نصوص الرحالة المغاربة
378	رابعاً: الصناعة الأوروبية في نصوص الرحلات المغربية
382	خامساً: البنية التحتية والمؤسسات الاقتصادية
382	1- في البنية التحتية
385	2- المؤسسات الاقتصادية الأوروبية
	القسم الثالث: صورة أوروبا في نصوص الرحلات المغربية خلال القرن 19م
390	الفصل الأول: اكتشاف الرحالة المغاربة النظم والأفكار السياسية الأوروبية الحديثة
391	أولاً: طبيعة أنظمة الحكم في أوروبا
392	1- الحكم المطلق
395	2- الحكم الجمهوري
396	3- الحكم المقيّد بالقانون
397	ثانياً: أوروبا القانون والدستور
397	1- اكتشاف الرحالة المغاربة للدستور والقانون الأوروبي
401	2- القوانين الأوروبية والشريعة الإسلامية (في شرعية الاقتباس)
406	ثالثاً: أركان النظام السياسي الأوروبي
406	1- الحاكم

408	2- المجالس النيابية ومفهوم الحكم التشاركي
408	- اكتشاف الرحالة المغاربة للمؤسسات السياسية الأوروبية
409	- موقف الرحالة المغاربة (المغارب) من المؤسسات السياسية الأوروبية
413	- في اقتباس النظم السياسية الأوروبية
416	3- الوزراء والموظفون ودورهم في تسيير الدولة
420	4- في العلاقة بين أركان النظام السياسي في أوروبا
423	رابعا: القيم السياسية الأوروبية في أعين الرحالة المغاربة
424	1- الحرية
424	- الحرية الشخصية
427	- الحرية السياسية
430	- حرية الرأي والتعبير
431	2- العدل
437	الفصل الثاني: الواقع العسكري الأوروبي في نصوص الرحالة المغاربة خلال القرن 19م
439	أولا: النظام والترتيب أساس القوة العسكرية الأوروبية
444	ثانيا: اكتشاف الرحالة المغاربة أسس تكوين وتسيير الجيوش الأوروبية
451	ثالثا: في قوة الجيوش الأوروبية وعتادها
463	الفصل الثالث: الواقع الاجتماعي الأوروبي في نصوص الرحلات المغربية خلال القرن 19م
463	أولا: الطبقات والمكونات الاجتماعية الأوروبية
466	ثانيا: المؤسسات الاجتماعية الأوروبية في أعين الرحالة المغاربة
469	ثالثا: العادات والتقاليد الأوروبية
475	رابعا: المرأة الأوروبية في نصوص الرحلات المغربية
475	1- الرحالون المغاربة وجمال المرأة الأوروبية
477	2- العلاقات بين الأفراد في أوروبا المرأة/ والرجل
480	3- واقع المرأة في المجتمع الأوروبي
483	خامسا: الأكل والمائدة الأوروبية في نصوص رحالي المغرب خلال القرن 19م
483	1- عادات الأكل الأوروبي في نصوص الرحلات المغربية
486	2- إشكالية الأكل من طعام أهل الكتاب
488	3- اكتشاف الرحالة المغاربة آداب المائدة الأوروبية

494	الفصل الرابع: الواقع العلمي والثقافي في أوروبا خلال القرنين 19م
494	أولا: الواقع العلمي
504	ثانيا: مظاهر الثقافة الأوروبية في نصوص الرحلات المغربية خلال القرن 19م
504	1- المسرح
509	2- الصحافة
514	ثالثا: الرحالون المغاربة إلى أوروبا ومتخيل التقنية
514	1- الآلة البخارية وأثرها في وسائل النقل والإنتاج
520	2- في تقنية وسائل التواصل الحديثة
525	الفصل الخامس: الرحالون المغاربة يكتشفون النظم والأفكار الاقتصادية الأوروبية
525	أولا: في الحرية الاقتصادية
529	ثانيا: دور الدولة في الاقتصاد
532	ثالثا: اكتشاف الرحالة المغاربة المؤسسات المالية والاقتصادية الأوروبية الحديثة
535	رابعا: دعائم ومقومات الاقتصاد الأوروبي الحديث
543	خاتمة
549	الملاحق
567	قائمة المصادر والمراجع
	الفهارس
587	فهرس الأعلام
592	فهرس الأماكن
596	فهرس الموضوعات

ترجمد الله